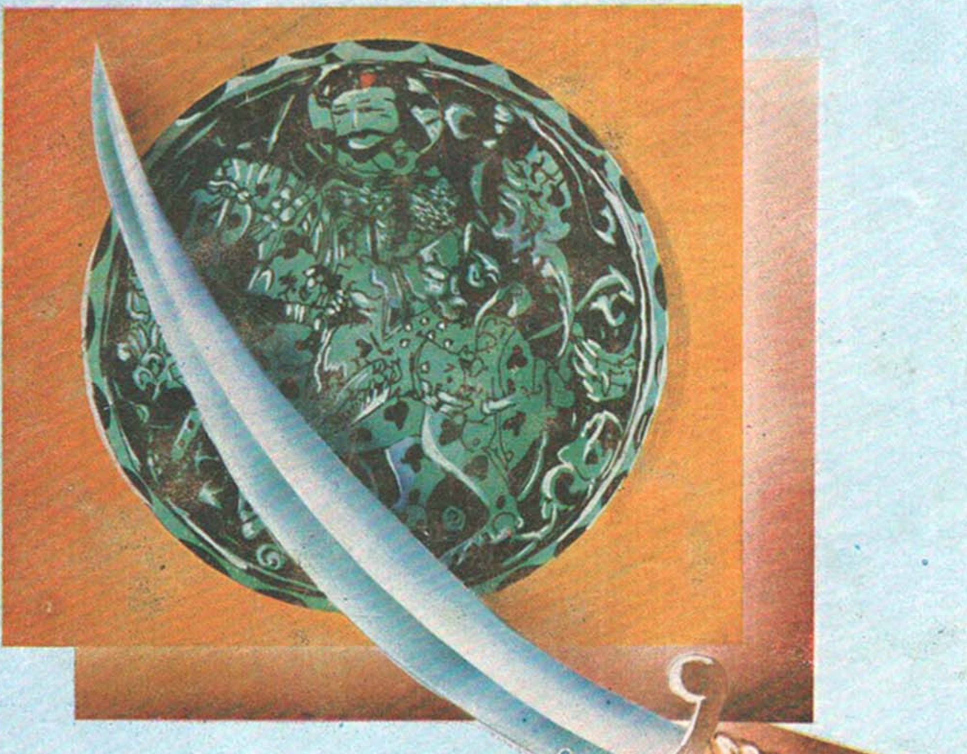
بسام العسلي

فن الحرب الإسلامي

في العصر العباسي



المجلد الثالث

دار الفكر

بسام العسلي

فن الحرب الإسلامي

في العصر العباسي

المجلد الثالث

دار الفكر

فن الحرب الإسلامي

في العصر العباسي

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بسّام العسلي

فنّ الحرب الإسلامي

في العصر العبّاسي

المجلد الثالث

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

دار الفكر
بيروت
لبنان

المكاتب : البناية المركزية - هاتف : ٢٤٤٧٣٩ - ص.ب : ١١/٧٠٦١
المطابع والمعمل : حارة حريك - شارع عبد النور - هاتف : ٣٩٠٦٦٣ | ٨٣٨٢٠٢ ٨٣٧٨٩٨
برقياً : فكسي - تلكس : ٤١٣٩٢ فكر FIKR 41392 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبورِ مِنْ بعْدِ ٱلذِّكْر أنَّ ٱلأَرْضَ يَرثُها عِبادِيَ ٱلصّالِحُون۞ إنَّ في هٰذَا لَبَلاغاً لِقوْمٍ عَابِدين۞﴾. صدق الله العظيم - سورة الأنبياء - الآيتان ١٠٥ و١٠٦.

المقدمة

ما أعظم أمة الإسلام بالإسلام؛ وتلك هي صفحة من صفحات تاريخها المجيد الخالد. صفحة عرفت باسم (العصر العبّاسي) وهي صفحة امتدت على عمر الزمن زهاء خمسة قرون (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ = ٧٤٩ ـ ١٢٥٨ م) فهل حدثت خلال هذه الفترة الزمنية تطورات في فن الحرب الإسلامي؟.

يتطور فن الحرب على ما بات متفقاً عليه، وفقاً لتطور الوسائط القتالية؛ ولقد بقيت الوسائط القتالية المستخدمة بعيدة عن كل تطوير كبير. وإن التغيير في شكل السيف أو وزنه (ثقله) أو اكسابه مزيداً من الصلابة والقسوة؛ لا يشكل تغييراً كبيراً له دور في التأثير على تطور فن الحرب. وكذلك الأمر بالنسبة للقسي والسهام وسواها؛ أو حتى بالنسبة لوسائط القتال الجماعية مثل المجانيق والعرادات والدبابات وسواها. وإذن فالمفروض ألا يحدث تطور في فن الحرب خلال هذه الحقبة الزمنية، غير أن عجلة التاريخ تسير نحو التطور المستمر، وهي لا تعرف الهدوء أو التوقف. وإذا ما كان التطور قد ثبت أو جمد في هذا المضمار، فهذا يعني ضرورة البحث عمّا حدث من تطور في مجالات أخرى. ويبرز استعراض مسيرة الاحداث أنه قد حدثت تطورات كبيرة ومثيرة في فن الحرب الإسلامي خلال هذه الفترة الزمنية سواء في مجال تطوير الجيوش، أو في مجال تسلحها، أو في مجال اكتساب الكفاءة العالية في استخدام هذه الأسلحة، والأهم من ذلك هو تطوير الاعمال القتالية على مستوى العمليات وعلى مستوى ادارة الحرب. وهنا يبرز دور الإنسان المبدع في تطوير مبادىء الحرب؛ وفي تطبيق هذه المبادىء بحسب الظروف التي تفرضها مسارح الأعمال القتالية.

لقد عاشت الدولة العباسية حياة الحرب الدائمة على جبهتيها الداخلية والخارجية وهي جبهة واسعة الأرجاء، مترامية الأبعاد؛ ورثها العباسيون عن أبناء عمومتهم

الأمويين. ولئن قصروا عن زيادة اتساعها، إلاّ انهم جهدوا في المحافظة عليها: واعترضت سبيلهم عقبات وصعوبات لا نهاية لها، كان أولها خروج الأندلس عن طاعة العبّاسيين، واستقلال الحكم الأموي فيها. ثم أعقب ذلك تعاظم مراكز القوى في الأقاليم الإسلامية المختلفة، الأمر الذي أدى الى ظهور صراعات داخلية حادة بين هذه المراكز بغضها ضد بعض؛ وقد تكون هذه الظاهرة هي أمر طبيعي عند وضعها في إطاريها الزمني والمكاني، فقيام دولة واسعة الأرجاء تتطلب نوعاً من الإدارة الذاتية لكل اقليم من الأقاليم. وكان ضعف الارتباط والبعد الجغرافي وتوافر القدرة القتالية في مجتمع يعتمد على الحرب، خلال حقبة زمنية مثل تلك الحقبة، هو مما يساعد على نزوع الطامعين - أو الطامحين - نحو الاستقلالية؛ وبالتالي؛ دخول دائرة المنافسة مع مراكز القوى الأخرى. غير أن ذلك لم يدمر مبدأ (وحدة القيادة) فقد بقي للخليفة العبّاسي دوره في منح هذه المراكز موافقته على وجودها، أو حرمانها من هذه الموافقة. تبعاً لالتزامها بالدين الإسلامي ومبادئه وسننه، أو الابتعاد عنها. وهكذا على سبيل المثال، فقد حرصت كافة الدول والكيانات التي عاشت في ظل الوحدة العباسية على الإبقاء على هذه الوحدة. **ولقد حرص خلفاء بني العبّاس في الوقت ذاته على التمسك بحق (الطاعة والجماعة) ضمن الحدود المقبولة والمعقولة.** ولقد ضعف أمر الخلفاء وتدهورت مكانتهم في بعض الاحيان، ثم انتعشت وقويت في أحيان أخرى، تبعاً لظهور خلفاء أقوياء، وتبعاً لما كان يتوافر لهؤلاء الخلفاء من دعم مراكز القوى. وإلى جانب هذه القوى؛ ظهرت هناك حركات أو كيانات منحرفة؛ مثل ثورة الزنج وحركة - أو دولة القرامطة - ثم حركة الإسماعيلية وسواها، وقد عملت هذه الحركات على شنّ حرب شعواء من داخل الدولة، وتطلب القضاء عليها جهداً كبيراً. وبالإمكان النظر الى هذه الحركات بدورها على أنها إفراز طبيعي لمجموعة من العوامل، امتزج فيها الفهم الخاطىء للدين في وسط الشعوب حديثة العهد باعتناق الإسلام، الى جانب التيار الذي خضع للإسلام ولكنه بقي على عدائه للعرب المسلمين الذين حملوا الدين الإسلامي الى أرجاء الدنيا، وانعكس ذلك ببذل المحاولات المتتالية لتشويه الدين الإسلامي ذاته. فكانت هذه الحركات هي استطالة لظواهر الزندقة

الفردية التي برزت بواكيرها في العهد الأموي ثم في العصر العباسي الأول وتطورت لتأخذ شكل حركات قوية جاهرت بعدائها للإسلام والمسلمين؛ مستفيدة من هياج الحرب الذي هيمن على المجتمع الإسلامي. وهكذا فقد كان مناخ الحرب من العوامل الاساسية وربما الحاسمة في لجوء هذه الحركات الى السلاح، والاحتكام الى الحرب.

كان من طبيعة الأمور، تبعاً لذلك؛ أن يتطور فن الحرب ليجابه كل التحديات الداخلية والخارجية. وقد يكون من عجب أن تتمكن الدولة العباسية من البقاء وسط هذه العواصف الهوجاء والرياح العاتية. ويزول كل عجب عند النظر بعمق للعامل الأساسي والحاسم الذي ساعد خلفاء بني العباس فوق قمة الأحداث. لقد كان الفضل في ذلك للإسلام؛ ولقوة الإسلام.

لقد كان ظهور مثل هذه الحركات حافزاً لظهور حركات مضادة للأخذ بنهج السلف والالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، وكان الصراع نموذجاً مطوراً لحروب الردة؛ وكان النصر النهائي للإسلام ولأهل الإسلام ممن أخذوا بكتاب الله وسنة رسوله. ولقد حاولت مذاهب شتى تفسير هذا الصراع وتحميله مضامين تجاوزت حدود الزمن وتجاوزت الحدود الجغرافية لمسيرة الأحداث. وليس هناك ما هو أكثر خطأ في قراءة التاريخ وتفسيره من محاولة تحميل احداثه مضامين أو اعطائه أبعاداً مغايرة لمضامينه وأبعاده في إطاريه الزماني والمكاني. لقد تميزت هذه الحروب بجميع ما تتميز به الحروب الأهلية ـ الدينية من التطرف والعنف ونهب الأموال. وهذه ظاهرة لطالما تم التركيز عليها من قبل المحدثين الباحثين عن الإساءة للإسلام وأهله. فهذه الحروب شأنها شأن حروب الفتح، لم تكن بحثاً عن المال؛ ولكن المال كان وسيلتها. والشواهد كثيرة، منها قول المنصور: «**لولا أن الأموال حصن السلطان ودعامة الدين والدنيا، وعزها وزينتها، ما بت ليلة وأنا احرز منه ديناراً ولا درهماً، لما أجد لبذل المال من اللذاذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة**». وهكذا فإن مصادرة أموال المتمردين، أو نهبها؛ لم يكن إلاّ من أجل حرمان هؤلاء من قوتهم. والأمر مماثل بالنسبة لفرض الغرامات الحربية على الروم وسواهم من أمراء الأقاليم المتاخمة للحدود الإسلامية. فالقضية الاساسية هي قضية زيادة قوة الدولة الإسلامية

وإضعاف خصومها. وعلى كل حال فهذه القضية هي قضية جدل عقيمة وضعيفة، ويكفي للبرهان على ضعفها الإشارة الى ما تطبقه الدول العظمى في الأزمنة الحديثة، في مجال الاقتصاد، لإضعاف خصومها واستنزاف قدراتهم، بما يطابق عملية (فرض الغرامات) ولكن بأساليب اكثر تطوراً. وهنا أيضاً، لا بد من وضع هذه الظاهرة في إطاريها الزمني والمكاني؛ فقد كانت الدول المتاخمة للدولة الإسلامية تطبق هذه الأساليب ذاتها. فكان من غير الطبيعي الأخذ بنهج لا يتوافق مع تلك الظروف.

لقد كانت وفرة الكيانات التي عاشت في ظل الدولة العباسية؛ وكثرة مراكز القوى؛ وتنوّعها، وأشتات أقوامها، ودورها التاريخي، من العوائق التي جابهت البحث؛ إذ ظهر أن التعرّض لها جميعها، هو ممّا يخرج بالبحث عن هدفه (فن الحرب) ولهذا كان لا بد من الاختيار والانتقاء، تبعاً لهدف البحث فقط وليس لأي سبب آخر. وفي مجال البحث أيضاً؛ جرى الاعتماد على النص التاريخي - قدر المستطاع - بسبب ما توافر له من رشاقة في الأداء وأصالة في التعبير وصدق في المعالجة. وكذلك فقد جرى ذكر الأحداث مع تحديد تاريخ وقوعها (بالهجرية) وذلك مما يساعد الباحث على الرجوع الى تلك الأحداث في مراجعها الأساسية (تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ، وتاريخ الإسلام للذهبي).

لقد تداخل تاريخ الدولة العباسية بتاريخ الحروب الصليبية القديمة؛ فقد جرت الحروب الصليبية خلال مائة عام ونيف، بوجود الدولة العباسية، فكان لا بد من اقتطاع هذا القسم، وإدخاله في (تاريخ الحروب الصليبية) بهدف تحقيق التكامل في البحث.

ويبقى للتاريخ جوانبه السلبية؛ وصفحاته الايجابية، وتبقى أحداث التاريخ إرثاً للإنسانية جميعها، وهي إرث لأبناء التجربة وصانعيها قبل سواهم من أبناء الإنسانية؛ فهم الذين ضمخوها بدمائهم ومهروها بتضحياتهم ولذلك فهم أحق بالإفادة منها وأجدر. ومن هذا المنطلق؛ وبهذا الحافز، أخذ البحث طريقه للوجود. وعلى أمل أن يحقق البحث هدفه، أرجو الله توفيقه.

بسّام العسلي

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً. وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

صدق الله العظيم ـ سورة الحج ـ الآية ٤٠.

الفصل الأول

الحروب الداخلية

- ١ ـ الموقف على جبهة الروم.
- ٢ ـ الموقف على الجبهة الإسلامية.
- ٣ ـ ثورة الزط ٢١٩ ـ ٢٢٠ هـ.
- ٤ ـ ثورة بابك الخرمي ٢٠١ ـ ٢٢٣ هـ.
- ٥ ـ ثورة الزنج ٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ.
  - أ ـ انتصارات الزنج وإحراق البصرة.
  - ب ـ الصراع المرير لانتزاع النصر.
  - ج ـ الأيام الأخيرة ـ والنصر الحاسم.
  - د ـ مع الشعر في نهاية ثورة الزنج.
- ٦ ـ القرامطة بعد الزنج ٢٧٨ ـ ٣٧٨ هـ.
  - أ ـ القرامطة يعيدون تنظيم أمورهم.
  - ب ـ ماذا حدث في مكة المكرمة.
- ٧ ـ الدولة الفاطمية ٢٩٦ ـ ٥٦٧ هـ.
  - أ ـ بناء الدولة والصراع مع مصر.
  - ب ـ المعز لدين الله في مصر والشام.
  - ج ـ العهد الجديد.
  - د ـ ضعف من بعد قوة.

الحروب الداخلية

١ ـ الموقف على جبهة الروم.

استطاع الأمويون إرغام الروم ـ البيزنطيين على اتباع سياسة دفاعية اقتصرت في مرات كثيرة على حدود العاصمة (القسطنطينية). كما أن انتزاع المسلمين للمجال البحري؛ حرم دولة الروم من حرية عملها العسكري في البر والبحر. وكان زوال الحكم الأموي هو الفرصة التي أفاد منها الروم لإعادة بناء قدراتهم العسكرية في البر والبحر؛ وسرعان ما ظهرت نتيجة ذلك بانتقال الروم من الدفاع الى الهجوم والإغارة على ثغور المسلمين. ولكن المحاولات الأولى للروم باءت بالفشل الذريع عندما اصطدمت بإرادة هٰرون الرشيد، ثم ابنه المأمون، ومن بعدهما المعتصم؛ فقد كانت الدولة العباسية خلال العصر الأول تمتلك قدرات هائلة وإمكانات ضخمة لا تمتلكها دولة الروم ـ البيزنطيين ـ ولكن ضعف وحدة القيادة العباسية، وتعاظم الحركات الاستقلالية للأقاليم، وظهور الحركات الداخلية القوية، قد أضعف من قدرة الدولة العباسية على تجريد الحملات الضخمة ضد الروم. وفي الوقت ذاته. كان ملوك الروم يتعرضون للأزمات ذاتها، فقد اتبعت دولة الروم تطبيق سياسة استقلالية في أقاليمها، فكان (الدمستق ـ نائب الملك) هو الذي يحكم الأقاليم الشرقية من بلاد الروم، ومن ضمنها الثغور المواجهة لثغور المسلمين. ونظراً لتوافر القدرة العسكرية في هذه الاقاليم، اكثر من سواها، باعتبارها الجبهة الأولى للصراع المسلح. فقد كان (الدمستق) هو الشخصية الأولى في الدولة، ولهذا لم يكن غريباً أن يطمع هذا الدمستق في الاستيلاء على السلطة كلما توافرت له الفرصة ـ على نحو ما فعله (نقفور) الذي انتزع السلطة وتزوج الملكة وحارب الرشيد. وجاء بعد ذلك عدد من القادة الذين عملوا بمثل ما عمل به نقفور. وكان هذا الاضطراب الداخلي على جبهتي الصراع هو من العوامل الأساسية التي كانت تسهم في تصعيد حدة التوتر على الحدود أحياناً، وتعمل على تهدئته في أحيان أخرى. ولقد عرف الروم والمسلمون أهمية الحاجة للتعايش السلمي

على الحدود. فأخذت فترات الحروب تتباعد تدريجياً، ليحل محلها نوع من الهدنة؛ بما يتوافق مع المرحلة الزمنية التي يمر بها الطرفان المتصارعان.

لقد كان لدولة الروم متاعبها أيضاً على جبهتها الغربية، فقد كان (البرجان ـ أو البلغار) يناصبونها العداء. وكانت الحروب على هذه الجبهة تسير بدورها في تصعيد وتهدئة تبعاً لتطورات الموقف على جبهة الروم الداخلية، أو على جبهتها الشرقية، وكثيراً ما اضطر ملوك الروم لإيقاف حملاتهم ضد الثغور الإسلامية، بسبب ظهور خطر على جبهتهم الغربية؛ وبالمقابل فقد أفادت دولة الروم في كثير من الأحيان من دعم البلغار لها لشن حملات على الثغور الإسلامية؛ حيث ظهر في تشكيل قوى الامبراطورية البيزنطية قوات كبيرة من البلغار المتحالفين مع الروم، فكانت هذه الأحلاف هي أحد العوامل في السياسة الحربية البيزنطية.

لقد كان للروم متاعبهم أيضاً مع جيرانهم على الحدود الشمالية ـ الروس ـ وكانت العلاقات مع الروس مماثلة لما كانت عليه مع الجيران على الحدود الأخرى، تسير نوباً بين سلم وحرب، وقد عرفت الدولة البيزنطية بحكم تجربتها الطويلة في مجال السياسة والحرب كيف تستفيد من التناقضات المختلفة حتى تحافظ على وجودها؛ وحتى تحتفظ بقوتها. وقد يكون من المناسب في هذا المجال التوقف عند بعض الأحداث، وفقاً لما أوردتها المصادر العربية ـ التاريخية.

حدث في سنة ٢٨٣ هـ = ٨٩٦ م، أن سارت الصقالبة إلى الروم، فحصروا القسطنطينية، وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً، وخرّبوا البلاد. فلما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً، جمع من عنده من أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبة، ففعلوا وكشفوا الصقالبة، وأزاحوهم عن القسطنطينية. ولما رأى ملك الروم ذلك خاف المسلمين على نفسه، فردّهم، وأخذ السلاح منهم، وفرقهم في البلاد حذراً من جنايتهم عليه.

وحدث في سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م ان خرجت طائفة من الروسية في البحر الى نواحي أذربيجان، وركبوا في نهر الكر، وهو نهر كبير، حتى وصلوا الى ـ برذْعة ـ

فخرج إليهم نائب المرزبان ببرذعة في جمع من الديلم والمطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل، فلقوا الروس، فلم تكن ساعة حتى انهزم المسلمون منهم، وقتل الديلم عن آخرهم، وتبعهم الروس الى البلد، فهرب من استطاع، وترك البلد، فنزله الروس ونادوا فيه بالأمان فأحسنوا السيرة، وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية، فكانت الروس تقاتلهم، فلا يثبت المسلمون لهم. وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم، فينهاهم الروس عن ذلك، فلم ينتهوا، فلما طال ذلك عليهم، نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه، وان لا يقيموا بعد ثلاثة أيام. فخرج من تمكن من الخروج، وبقي اكثرهم بعد الأجل، فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس. وجمعوا من بقي بالجامع، وقالوا: «اشتروا أنفسكم وإلاّ قتلناكم». وسعى لهم انسان نصراني، ففرض على كل رجل عشرين درهماً، فلم يقبل منهم إلاّ عدد قليل، فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء قتلوهم عن آخرهم، ولم ينج منهم إلاّ الشريد؛ وغنموا أموال أهلها، واستعبدوا السبي، واختاروا من النساء من استحسنوها. واستعظم المسلمون ما فعله الروس بأهل ـ بردعة ـ وتنادوا للنفير. وجمع المرزبان محمد الناس واستنفرهم، فبلغ عدة من معه ثلاثين ألفاً، وسار بهم، فلم يقاوم الروسية، وكان يغاديهم القتال ويراوحهم فلا يعود إلاّ مفلولاً، فبقوا كذلك أياماً كثيرة. وكان الروس قد توجهوا نحو مراغة، فأكثروا من أكل الفواكه فأصابهم الوباء وكثرت الأمراض والموت فيهم. ولما تطاول الأمر على المرزبان، أعمل الحيلة؛ فرأى ان يكمن كميناً، ثم يلقاهم في عسكره، ويتطارد لهم ـ يتظاهر بالتراجع والانسحاب ـ فإذا خرج الكمين عاد عليهم. وتقدم الى أصحابه بذلك، ورتب الكمين، ثم لقيهم واقتتلوا، فتطارد لهم المرزبان وأصحابه، وتبعهم الروسية حتى جازوا موضع الكمين، فاستمر الناس على هزيمتهم لا يلوي أحد على أحد، وصاح المرزبان بالناس ليرجعوا، فلم يفعلوا لما استقر في قلوبهم من هيبة الروس(*) وشدة بأسهم، وعرف المرزبان أنه إذا ما استمر الناس في هزيمتهم قتل

(*) جاء في كتاب تجارب الامم ـ ابن مسكويه ـ في وصف الروس: «هؤلاء أمة عظيمة، لهم خلق عظام؛ ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل او يقتل. ومن عادة=

الروس أكثرهم، ثم عادوا الى الكمين فاكتشفوه فقتلوا أفراده عن آخرهم. فقرر المرزبان التوقف وقد وطن نفسه على الشهادة، ورجع وليس معه إلاّ أخوه وبعض فتيانه، فحينئذ عاد أكثر الديلم استحياء، فرجعوا وقاتلوا الروس. وأعطيت لقوة الكمين الإشارة المتفق عليها، فخرج الرجال على مؤخرة قوات الروس. وصدق المسلمون القتال، فقتلوا من الروس خلقاً كثيراً - منهم أميرهم. ولجأ الباقون الى حصن البلد - واسمه شهرستان - وكانوا قد نقلوا إليه ميرة كثيرة - مواد تموينية - وجعلوا معهم السبي والأموال. فحاصرهم المرزبان وصابرهم. واشتد الحصار على الروس، وزاد الوباء فيهم. فكانوا إذا دفنوا الرجل دفنوا معه سلاحه ثم إنهم خرجوا من الحصن ليلاً. وقد حملوا على ظهورهم ما أرادوا من الأموال وغيرها، ومضوا الى نهر الكر، وركبوا سفنهم ومضوا. وعجز أصحاب المرزبان عن اتباعهم وأخذ ما معهم فتركوهم.

لقد كان ظهور القدرة القتالية للروس عاملا جديداً أفاد منه الروم، فعملوا على اللجوء إلى هذه القوة ضد خصومهم إذا ما اقتضى الأمر ذلك، وهو ما حدث على سبيل المثال سنة ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م، عندما حاول (الدمستق - ورد الرومي - انتزاع السلطة والملك من ابني الملك (باسيل وقسطنطين) اللذين خلفهما أبوهما على عرش ملك الروم وهما صغيران، فطمع ورد الرومي فيهما وسار بجيشه إلى القسطنطينية وحاصرها. فكتب باسيل وقسطنطين إلى أمير روسيا - ملكها - واستنجداه؛ وزوجاه بأخت لهما؛ - فامتنعت من تسليم نفسها والزواج إلى من يخالفها في الدين؛ فتنصر - وكان هذا أول النصرانية بالروس -. وتزوجها، وسار الى لقاء قوات التمرد، فاقتتلوا وتحاربوا، وانتصر الروس، واستقر الملكان في ملكهما. وتقدم (باسيل) في الملك، وكان شجاعاً عادلاً، حسن الرأي. ودام ملكه، وحارب البلغار خمساً وثلاثين سنة، وظفر بهم؛

= الواحد منهم أن يحمل آلة السلاح، ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها، ويقاتل بالحربة والقوس، ويتقلد السيف ويعلق عليه عموداً وآلة كالدشنى، ويقاتلون رجاله - مشاة - لاسيا هؤلاء الواردين».

وأجلى كثيراً منهم من بلادهم، وأسكنها الروم. وكان كثير الاحسان الى المسلمين والميل إليهم.

قد يكون من المناسب هنا التوقف عند بعض سيرة هذا الملك - باسيل - والتي تعتبر نموذجاً لما يطلق عليه اسم - روح العصر - إذ كان والد باسيل قد تعرف على زوجته في إحدى المناسبات. إذ كان من عادة ملوك الروم أن يركبوا أيام الأعياد الى الكنيسة - البيعة - الخاصة بذلك العيد. فإذا اجتاز الملك بالأسواق شاهده الناس وبأيديهم المداخن يبخرون فيها. فلما كان يوم أحد الأعياد خرج الملك على عادته الى الكنيسة. وكان لبعض أكابر الروم بنت جميلة فخرجت تشاهد الملك، فلما مرّ بها استحسنها، فأمر من يسأل عنها، فلمّا عرفها خطبها وتزوجها وأحبّها، وولدت منه باسيل وقسطنطين، وتوفي وهما صغيران. فتزوجت بعده بمدة طويلة نقفور، فكره كل واحد منهما صاحبه. فعملت على قتله. فراسلت الشمشقيق في ذلك. فقصد القسطنطينية متخفياً، فأدخلته إلى دار الملك؛ واتفقا، وقتلاه ليلاً، وأحضرت البطارقة متفرقين، وأعطتهم الأموال، ودعتهم إلى تمليك الشمشقيق، ففعلوا. ولم تصبح إلاّ وقد فرغت مما تريد. ولم يجر خلف. وتزوجت الشمشقيق واقامت معه سنة، فخافها واحتال عليها وأخرجها إلى دير بعيد، وحمل ولديها معها. فأقامت فيه سنة. ثم احضرت راهباً ووهبته مالاً، وأمرته بقصد القسطنطينية والمقام بكنيسة الملك، والاقتصار على قدر القوت، فإذا وفق به الملك وأراد القربان من يده ليلة العيد، سقاه سماً. ففعل الراهب ذلك. فلمّا كان ليلة العيد، سارت الملكة ومعها ولداها. ووصلت القسطنطينية في اليوم الذي مات فيه الشمشقيق. فملك ولدها باسيل، ودبّرت هي الأمر لصغره. فلمّا كبر باسيل قصد بلد البلغار. وتوفيت أمه وهو هناك، فبلغته وفاتها، فأمر خادماً له أن يدبّر الأمر في غيبته ودام قتاله خمساً وثلاثين سنة، وظفروا به فعاد مهزوماً وأقام بالقسطنطينية وهو يتجهز للعودة، ثم رجع فظفر بهم وقتل ملكهم وسبى أهله وأولاده وملك بلاده، ونقل أهلها الى بلاد الروم. وأسكن البلاد طائفة من الروم. ودام ملكه نيفاً وسبعين سنة، وتوفي ولم يخلف ولداً، فملك أخوه قسطنطين. وبقي الى أن توفي، ولم يخلف غير ثلاث بنات، فملكت الكبرى - وتزوجت من أحد أقارب الملك -

واسمه أرمانوس ـ وملكته، وبقي مدة، وكان لأرمانوس صاحب له يخدمه قبل ملكه من أولاد بعض الصيارف اسمه ـ ميخائيل ـ فلما ملك حكمه في داره، فمالت زوجة أرمانوس إليه، وعملا الحيلة في قتل أرمانوس، فمرض أرمانوس، فأدخلاه إلى الحمام كارهاً، وخنقاه، وأظهرا أنه مات في الحمام. وملكت زوجته ميخائيل وتزوجته على كره من الروم. وعرض لميخائيل صرع لازمه وشوه صورته، فعهد بالملك بعده الى ابن أخت له اسمه ميخائيل أيضاً. فلما توفي ملك ابن أخته وأحسن السيرة، وقبض على أهل خاله وإخوانه وهم أخواله، وضرب الدنانير باسمه (سنة ٤٣٣ هـ = ١٠٤١ م) ثم أحضر زوجته بنت الملك وطلب منها أن تترهّب وتنزع نفسها من الملك، فأبت، فضربها وسيرها الى جزيرة في البحر. ثم عزم على القبض على البطرك، والاستراحة من تحكمه عليه؛ إذ كان لا يقدر على مخالفته؛ فطلب إليه أن يعمل له طعاماً في دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده، فأجابه البطرك الى ذلك، وخرج إلى الدير ليعمل ما قال الملك، فأرسل الملك جماعة من الروس والبلغار، واتفق معهم على قتله سراً. فقصدوه ليلاً وحصروه في الدير، فبذل لهم مالاً كثيراً، وخرج متخفياً، وقصد الكنيسة ـ البيعة ـ التي يسكنها، وضرب الناقوس، فاجتمع الروم عليه، ودعاهم الى عزل الملك، فأجابوه الى ذلك؛ وحصروا الملك في دار، فأرسل الملك إلى زوجته وأحضرها من الجزيرة التي نفاها إليها، ورغب في أن ترد عنه، فلم تفعل، وأخرجته إلى بيعة يترهّب فيها. ثم إن البطرك والروم نزعوا زوجته من الملك وملكوا أختاً لها صغيرة ـ واسمها تذورة ـ وجعلوا معها خدم أبيها يدبرون الملك، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصّب له وبين من يتعصّب لتذورة والبطرك. فظفر أصحاب تذورة بهم ونهبوا أموالهم. ثم إن الروم افتقروا الى ملك يدبرهم، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك في رقاع، ووضعوها في بنادق طين؛ وأمروا من يخرج منها بندقة وهو لا يعرف باسم من فيها. فخرج اسم ـ قسطنطين ـ فملكوه، وتزوجته الأخت الكبيرة، واستنزلت أختها الصغيرة ـ تذورة ـ عن الملك بمال بذلته لها. واستقر قسطنطين في الملك سنة ٤٣٤ هـ = ١٠٤٢ م فخرج عليه فيها خارجي من الروم اسمه أرميناس ـ ودعا إلى نفسه، فكثر جمعه حتى زادوا على عشرين ألفاً، فسير قسطنطين جيشاً كثيفاً

ظفر بالخارجي وقتله وحمل رأسه الى القسطنطينية. وأسر من أصحابه مائة رجل، فشهروا في البلد، ثم أطلقوا وأعطوا نفقة، وأمروا بالانصراف إلى أي جهة أرادوا. واستقر قسطنطين دوكاس في حكم بلاد الروم باسم (قسطنطين العاشر). كانت مراكز القوى الاساسية في دولة الروم ـ البيزنطيين ـ هي ثلاثة: حاشية البلاط المسيطرة على الإدارة المركزية، وأسر النبلاء الذين يهيمنون على الجيش وقياداته ثم الكنيسة التي كانت تحاول باستمرار اقامة التوازن بين البلاط والجيش بحكم صلتها الوثيقة بالطرفين.

لقد حاول قسطنطين دوكاس جهده اكتساب دعم مراكز القوى الثلاثة. ولكنه واجه مشكلة صعبة بسبب نضوب موارد دولته، الأمر الذي حمله على تقليص حجم جيش بلاده تقليصاً لم تعرفه من قبل. الأمر الذي أفسح المجال أمام الأتراك السلاجقة للتوغل والوصول حتى حدود القسطنطينية (حيث أمكن لها السيطرة على مدينة سيواس سنة ٤٥١ هـ = ١٠٥٩ م).

ضمت الامبراطورية البيزنطية، مثلها كمثل الدولة العباسية، شعوباً شتى، ولقد كان لذلك دوره في دعم الجيوش بالقدرات القتالية، فتألف الجيش معظمه من المرتزقة الأجانب منهم الشماليون الذين يؤلفون حرس الورنك، والنورمان والفرنج من غرب أوروبا والصقالبة من الشمال؛ والترك من براري جنوب روسيا، فضلاً عن البجناك والكومان والغز. ولم يكن هؤلاء يهتمون كثيراً بتحقيق النصر، ولو أنهم كانوا بطبيعتهم مقاتلين أشدّاء. ولقد كان وجود هذه الكثرة من الغرباء مصدر قلق لأبناء بيزنطة، ومصدر اضطراب أيضاً على نحو ما حدث سنة ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م. عندما وقع الخبر بالقسطنطينية ان الملك قسطنطين قد قتل ابنتي الملك السابق، فاجتمع أهل البلد وأثاروا الفتنة وطمعوا في النهب؛ فأشرف عليهم قسطنطين وسألهم عن السبب في ذلك، فقالوا: «قتلت الملكتين وأفسدت الملك» فقال: «ما قتلتهما» وأخرجهما، حتى رآهما الناس فسكنوا. ثم إنه سأل عن سبب الفتنة، فقيل له إنه فعل الغرباء، وأشاروا بإبعادهم. فأمر فنودي بالبلد أن لا يقيم في القسطنطينية أحد ممن دخلها وأقام فيها منذ ثلاثين سنة، فمن بقي بعد ثلاثة أيام كحل ـ سملت عيناه ـ فخرج أكثر من مائة ألف انسان من المسلمين والنصارى وسائر الانواع الأخرى. ولم يبق فيها سوى

اثني عشر نفساً ضمنهم الروم فتركهم الملك وأذن لهم بالبقاء.

يمكن ان يضاف الى ذلك ما حدث في هذه السنة ذاتها (٤٣٥ هـ) عندما وصل الى القسطنطينية عدد كثير من الروس في البحر. وراسلوا قسطنطين ملك الروم بما لم تجر به عادتهم، فاجتمعت كلمة الروم على حربهم، وكان بعضهم قد غادر المراكب، ونزل الى البر، فيما بقي بعضهم في مراكبهم، فألقى الروم في مراكبهم النار، فلم يهتدوا الى إطفائها، فهلك كثير منهم بالحرق والغرق. وأما الذين على البر فقاتلوا وأبلوا وصبروا ثم انهزموا، فلم يكن لهم ملجأ، فمن استسلم أولاً استرق وسلم، ومن امتنع حتى أخذ قهراً قطع الروم أياديهم اليمنى وطيف بهم في البلد، ولم يسلم منهم إلاّ اليسير، مع ابن ملك روسيا.

توفي قسطنطين العاشر سنة ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م. فخلفه على الحكم ابنه الصغير ميخائيل السابع بوصاية أمه الامبراطورة ايدوسيا. وتزوجت ايدوسيا في السنة التالية من القائد الأعلى للجيش ـ رومانوس ديوجين ـ ورفعته الى العرش. وكان رومانوس جندياً فائقاً ووطنياً صادقاً، غير أنه كان عاجزاً عن انقاذ الامبراطورية من وضعها المتردي، وقد حاول استعادة أرمينيا والقسم الشرقي من قبضة الاتراك السلاجقة فهزمه ألب أرسلان في ملاز كرد وأسره (سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م). وأثناء ذلك، كانت السحب القاتمة تتجمع في سماء الغرب، ولم تلبث هذه السحب أن تفجّرت معلنة بداية الحروب الصليبية القديمة.

٢ - الموقف على الجبهة الإسلامية.

كان على الدولة العباسية ان تواجه منذ بداية ظهور أمرها مجموعة من المشكلات المعقدة - داخلياً وخارجياً؛ ولعل معالجة المشكلات الخارجية كان أكثر سهولة من معالجة المشكلات الداخلية. فقد كان على خلفاء بني العباس اتخاذ تدابير الحيطة والحذر بصورة دائمة من منافسيهم في الشرعية - أبناء عمومتهم من الأمويين والطالبيين - ولئن كان العداء متمكناً ضد الأمويين، فقد كانت منافسة الطالبيين قوية. ولقد قامت الدعوة العباسية على اكتاف الطالبيين - نسبة لسلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه - والعباسيين، ثم انفرد العباسيون في الحكم، فكان لا بد لهم من الانقلاب على حلفاء الأمس - الطالبيين - والتعامل معهم بمثل ما كان يعاملهم به الأمويون. وكان هذا الموقف سبباً في حدوث ثورات واضطرابات كثيرة، استطاع خلفاء بني العباس استيعابها والقضاء عليها بمزيج من العنف المتطرف، والقسوة البالغة وحسن المعاملة ومراعاة صلة القرابة والرحم. والقصص في هذا المجال كثير، منها ما حدث سنة ١٤٧ هـ = ٧٦٤ م عندما دبّر المنصور قتل عبدالله بن علي بن عباس. فأصدر أمره بعزل عيسى بن موسى عن ولاية الكوفة، وعيّن مكانه محمد بن سليمان بن علي - واستدعى إليه عيسى وقال له: «يا عيسى - إن عبدالله بن علي بن عباس أراد ان يزيل النعمة عني وعنك، وأنت ولي عهدي بعد المهدي. والخلافة صائرة إليك - فخذ عبدالله واضرب عنقه، وإياك أن تخور، فتنقض عليّ أمري الذي دبرت». ووقع عيسى بن موسى في حيرة من أمره - فدعا كاتبه يونس بن فروة - وقال له: «إن المنصور قد دفع إليّ عمّه، وأمرني بقتله». فأجابه ابن فروة: «أراد المنصور ان يقتلك ويقتله. أمرك بقتله سراً. ثم يدعيه عليك علانية، ثم يقيدك به» وسأل عيسى بن موسى كاتبه: «فما الرأي؟» وأجابه ابن فروة: «الرأي أن تستره في منزلك، فلا تطلع على أمره أحداً، فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية، ولا تدفعه إليه سراً أبداً. فإنه وإن كان أسره إليك، فإن أمره سيظهر». ومضى المنصور الى الحج. وكتب الى عيسى

ابن موسى ثلاث مرات وسأله ما فعل في الأمر الذي أوعز إليه فيه؟ فكتب إليه: «قد أنفذت ما أمرت به» فلم يشك أبو جعفر في أنه قد فعل ما أمره به، وأنه قد قتل عبدالله بن علي بن عباس. فلما رجع المنصور من الحج، دس إلى عمومته من يحركهم على طلب الاسترحام لعبدالله بن علي، وأطمعهم في أنه سيعفو عنه، فجاؤوا إليه وكلموه واستعطفوه، وذكروا له الرحم، وأظهروا له رقة، فقال المنصور: «نعم؛ علي بعيسى بن موسى» وجاء عيسى فقال له المنصور: «يا عيسى! قد علمت أني دفعت إليك عمّي وعمّك عبدالله بن علي قبل خروجي الى الحج. وأمرتك أن يكون في منزلك» وأجاب عيسى: «قد فعلت ذلك يا أمير المؤمنين» فقال له المنصور: «فقد كلّمني عمومتك فيه، فرأيت الصفح عنه وتخلية سبيله فأتنا به». ورد عليه عيسى: «يا أمير المؤمنين! ألم تأمرني بقتله، فقتلته؟». فقال له المنصور: «ما أمرتـك بقتلـه، إنما أمرتك بحبسه في منزلك» ورد عيسى: «قد أمرتني بقتله» فقال المنصور: «كذبت؛ ما أمرتك بقتله» ثم قال لعمومته: «إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم، وادعى أني أمرته بذلك، وقد كذب» قالوا: «فادفعه إلينا نقتله به» فقال المنصور: «شأنكم به» فأخرجوه الى الرحبة، واجتمع الناس، وشهر الأمر، وقام أحدهم فشهر سيفه، وتقدّم إلى عيسى ليضربه، فقال له عيسى: «أفاعل أنت؟» قال: «إي والله». عندها قال عيسى: «لا تعجلوا، ردوني إلى أمير المؤمنين» فردوه إليه، فقال له: «إنما أردت بقتله أن تقتلني. هذا عمّك حي سوِيّ. إن أمرتني بدفعه إليك دفعته» قال له المنصور: «ائتنا به» فأتاه به. وقال له: «دبرت علي أمراً فخشيته، فكان كما خشيت، شأنك وعمّك» فقال المنصور: «يدخل حتى أرى رأيي» ثم انصرفوا. ثم أمر المنصور بوضع عبدالله بن علي بن عباس في بيت أساسه ملح، وأجرى في أساسه الماء فسقط عليه فمات. ودفن في مقابر باب الشام. وكان عبدالله بن علي هذا قد توارى بالبصرة عند ـ سليمان بن علي ـ عندما طلبه المنصور، فأشرف يوماً ومعه بعض مواليه وموالي لسليمان بن علي، فنظر الى رجل له جمال وكمال، يمشي التخاجي، ويجر أثوابه من الخيلاء، فالتفت إلى مولى لسليمان بن علي، فقال: من هذا؟ قيل له: «فلان ابن فلان الأموي» فاستشاط غضباً، وصفق بيديه عجباً، وقال: «إن طريقنا لنبكاً بعد».

ونادى مولى له، وقال له، انزل فأتني برأسه - وأسرى الفتى وجاء برأس الأموي(*).

كان على خلفاء بني العباس أيضاً خوض صراع مرير ضد الفرس الطامعين بالاستيلاء على الخلافة العباسية، فقد كانت خراسان هي مهد الدعوة العباسية، بها نشأت وترعرعت؛ وبدعم أهلها تم الاستيلاء على بغداد وإزالة الخلافة الأموية. ولقد عرف بنو العباس لأهل خراسان فضلهم في دعم الدولة، غير أنهم لم يكونوا على استعداد لتسليم الخلافة لسواهم. فكان قتل أبي مسلم الخراساني على يدي أبي جعفر المنصور، ثم كانت نكبة البرامكة على يدي الرشيد هي بعض الظواهر الأولى لهذا الصراع، والذي لم يلبث أن تطور الى دعوات منحرفة هدفها الإسلام بالدرجة الأولى ثم الخلافة العباسية ذاتها. وقد اكتست هذه الدعوات في معظم الأحيان بظاهرة التشيع لأهل البيت، أو الدعوة باسمهم، أو حتى انتحال النسب والقرابة والاتصال بهم، لتخفي وراءها **تعاليم الكفر والزندقة**. وقد ظهر ذلك منذ سنة ١٤١ هـ = ٧٥٨ م، ولما يمض على قيام الدولة العباسية سوى بضع سنين، حيث ظهر قوم من أهل خراسان، حملوا **اسم الراوندية**، وهم من رأي أبي مسلم الخراساني صاحب دعوة بني هاشم. وقالوا بتناسخ الأرواح فزعموا أن روح آدم قد حلت في عثمان بن نهيك؛ وأن ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور. وأن - الهيثم بن معاوية - هو جبرئيل. وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به، ويقولون: هذا قصر ربنا. فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين، فغضب أصحابهم وقالوا: «علام حبسوا؟» وأمر المنصور الا يجتمعوا، فأعدوا نعشاً وحملوا السرير - وليس في النعش أحد - ثم مرّوا في المدينة. حتى صاروا على باب السجن، فرموا بالنعش؛ وهجموا على الناس هجمة واحدة، ودخلوا السجن، فأخرجوا أصحابهم، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة

(*) النبكة: أكمة محدودة الرأس، وربما كانت حمراء، ولا تخلو من الحجارة. وقد تمثل عبدالله بن علي ابن عيسى - عندما أمر بقتل الأموي وحمل رأسه إليه:

علامَ، وفيم نترك عبد شمس ... لها في كل راعية ثغاء
فما بالرمس في حران منها ... ولو قتلت بأجمعها وفاء.

انظر تاريخ الطبري: أحداث سنة ١٤٧ و ١٥٨ هـ.

رجل(*). فتنادى الناس، وغلقت أبواب المدينة، فلم يدخل أحد، وخرج المنصور بنفسه لقتالهم - في المدينة الهاشمية بالكوفة. ودارت معركة قاسية، انتهت بقتلهم جميعاً.

لقد أخذت حركة الزندقة شكلاً خطيراً عندما تمكنت من اكتساب واحد من - بني هاشم - وهو ما ورد في أخبار سنة ١٦٩ هـ = ٧٨٥ م. حيث عمل الخليفة موسى الهادي على التشدد في طلب الزنادقة، ومطاردتهم. وكان المهدي قد استدعى إليه زنديقاً هو ابن لداود بن علي. كما استدعى إليه يعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن ابن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب الهاشمي لزندقته. وجلس إليهما في مجلسين متفرّقين، فقال لكل واحد منهما كلاماً واحداً، وذلك بعد أن أقرّا له بالزندقة. أما يعقوب بن الفضل فقال له: «أقر بها بيني وبينك، فأما أن أظهر ذلك عند الناس، فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض». فقال له المهدي: «**ويلك! لو كشفت لك السموات، وكان الأمر كما تقول، كنت حقيقاً أن تغضب لمحمد، ولولا محمد ﷺ، من كنت؟ هل كنت إلاّ إنساناً من الناس! أما والله لولا أني كنت قد جعلت لله علي عهداً إذا ولاني هذا الأمر ألاّ أقتل هاشمياً، لما ناظرتك ولقتلتك**». **ثم التفت إلى ابنه موسى الهادي فقال له، «يا موسى، أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة»**. فمات ابن داود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي وأما يعقوب، فبقي حتى مات المهدي، وقدم موسى الهادي من جرجان، فساعة دخل ذكر وصية المهدي، فأرسل الى يعقوب من ألقى عليه فراشاً، وأقعدت الرجال عليه حتى مات، وحمل بعد أن انتفخ وأروح، ودفن في

(*) ورد في تاريخ الطبري - أحداث سنة ١٥٨ هـ - ما يلي: «كان رجل من الراوندية يقال له الأبلق؛ وكان أبرص، فتكلم بالغلو، ودعا بالراوندية إليه، فزعم ان الروح التي كانت في عيسى ابن مريم صارت في (علي بن أبي طالب) ثم في الأئمة في واحد بعد واحد الى ان وصلت الى - ابراهيم بن محمد - وأنهم آلهة. واستحلوا الحرمات، فكان الرجل منهم يدعو الجماعة منهم الى منزله، فيطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته. فبلغ ذلك - أسد بن عبدالله - فقتلهم وصلبهم، فلم يزل ذلك فيهم الى اليوم. فعبدوا أبا جعفر المنصور، وصعدوا الى الخضراء، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون، فلا يبلغ أحدهم الأرض إلاّ وقد تفتت وخرجت روحه. وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر: أنت، فقاتلهم، فأقبلوا يقولون وهم يقاتلون: أنت، أنت. ويعنون بذلك: أنت الله.

بستان(*). ثم تجرد موسى الهادي لمطاردة الزنادقة، فقتل منهم جماعة. فكان ممن قتل منهم ـ يزدان بن باذان؛ كاتب يقطين ـ كما قتل ابنه ـ علي بن يقطين ـ من أهل النهروان؛ ذكر عنه أنه حج فنظر الى الناس في الطواف يهرولون، فقال: « ما أشبههم إلاّ ببقر تدوس في البيدر »[1] فقتله موسى ثم صلبه.

تلك كانت البدايات لحركات أكثر تطوراً؛ وأشد قوة. أما على الجبهة الخارجية، فقد وجد الروم فرصتهم لإعادة بناء قوتهم وتبني سياسة عسكرية جديدة. وكذلك الأمر بالنسبة لبقية الجبهات. فقد ذكر على سبيل المثال في أحداث سنة ١٤٧ هـ = ٧٦٤ م. أن استرخان الخوارزمي قد خرج في جمع من الترك على المسلمين بناحية أرمينية، فأغار على المسلمين وسبى منهم ومن أهل الذمة خلقاً كثيراً. ودخل تفليس، ولما علم أبو جعفر المنصور ـ وجه لحربهم جيشاً بقيادة ـ جبرئيل بن يحي، وكتب الى والي أرمينية ـ حرب بن عبدالله الراوندي ـ وكان مقيماً بالموصل في ألفين من الجند لمكان الخوارج الذين بالجزيرة. وأمره بالتوجه لحرب استرخان الخوارزمي. وسار جبرئيل بن يحي ومعه حرب ـ إلاّ أن استرخان انتصر عليهما، وقتل حرب وهزم جبرئيل وأصيب من المسلمين جمع كبير. فلما كانت السنة التالية: ١٤٨ هـ = ٧٦٥ م. وجّه المنصور جيشاً بقيادة ـ حميد بن قحطبة ـ الى أرمينية، فسار حميد الى أرمينية ـ فوجد أن استرخان وقواته قد ارتحلوا عن تفليس ـ فدخلها. ولم تكن هذه الغزوة إلاّ

(*) ورد في تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٦٩ هـ ـ بشأن يعقوب هذا ما يلي: « كان ليعقوب ولد من صلبه: عبدالرحمن والفضل وأروى وفاطمة. فأما فاطمة فوجدت حبلى. فأدخلت وامرأة يعقوب بن الفضل ـ وليست بهاشمية يقال لها خديجة ـ فأقرتا بالزندقة، وأقرت فاطمة أنها حامل من أبيها. فأرسل بهما الى ـ ريطة بنت أبي العباس ـ فرأتهما مكتحلتين مختضبتين، فعذلتهما ووجهت إليهما اللوم ـ وأكثرت على الابنة خاصة، فقالت: أكرهني. فقالت لها ريطة: فما بال الخضاب والكحل والسرور إن كنت مكرهة؟! ولعنتها. وضرب على رؤوسهما بشيء يقال له ـ الرعبوب ـ ففزعتا منه فماتتا ».

(١) وفي ذلك قال له العلاء بن الحداد الأعمى: ممتدحاً موسى الهادي:

أيـــا أميـــن الله في خلقـــه ... ووارث الكعبـــة والمنبـــر
مـــاذا تـــرى في رجـــل كـــافـــر ... يشبـــه الكعبـــة بـــالبيـــدر؟
ويجعـــل النـــاس إذا مـــا سعـــوا ... حمـــراً تـــدوس البـــر والدوسر!

نموذجاً مصغراً لما سيسفر عنه تطور الصراع على مختلف الجبهات. تأتي بعد ذلك **حروب الوراثة** ـ مثل تلك التي وقعت بين الأمين والمأمون ـ[1] لتشكل نموذجاً آخر للحروب بين مراكز القوى بعضها ضد بعض. ولقد وقع بعض حروب الوراثة هذه بين العباسيين ذاتهم ـ فيما وقعت حروب أخرى بين مراكز القوى بعضها ضد بعض. ولقد كانت مراكز القوى هذه بدورها تطوراً لنماذج (البرامكة) و (للحرب بين المدن). لقد تحرك الشرق الآسيوي بعنف كبير مع قيام الدولة العباسية؛ ونهضت شعوب مختلفة من رقادها وقد أيقظ فيها الإسلام روحاً جديدة ومفاهيم جديدة، وجاءت هذه الشعوب من فرس وترك وأكراد وديلم وسواها لتأخذ دورها في بناء الدولة الإسلامية. ولم تفهم هذه الشعوب جميعها دين الإسلام فهماً واحداً، وساعد في سوء هذا الفهم انتشار دعوات متنوعة ـ استندت في كثير من الأحيان على أفكار وثنية أو جاهلية. فكان الاحتكاك بين هذه الشعوب والصراع فيما بينها من طبيعة الأمور، وهو يشابه إلى حد ما موقف الشعوب البرابرة التي اجتاحت أوروبا في القرون الأولى التي عاشت مهد المسيحية، ثم قامت هذه الشعوب رغم اعتناقها المسيحية بتدمير دولة المسيحية ـ الرومان في ايطاليا ـ. وهنا أيضاً؛ كان للجند دورهم الاساسي البنّاء والمدمّر في آن واحد، فهم قد عملوا على حماية الإسلام والدفاع عنه، إلا أنهم في الوقت ذاته أثاروا حروباً وصراعات داخلية لا نهاية لها. ولقد استطاع خلفاء بني العباس في الصدر الأول من عهدهم مجابهة كافة الانحرافات، والقضاء على كافة الثورات وأعمال التمرد، ببعض من الجهد. كما أمكن لهم استيعاب الاحتكاكات بين جند الشعوب المختلفة واستيعابها في جند واحد يخضع للخلافة والقادة الذين يعينهم الخليفة، ولكن ومع انتهاء الصدر العباسي الأول أصبح الأجناد هم الذين يتحكمون ـ عن طريق قادتهم، بدار الخلافة. وصارت مراكز القوى، تفرض وجودها بقوة السلاح قبل ان تحصل على اعتراف الخليفة بها. وكان باستطاعة الخليفة على كل حال، حجب اعترافه وثقته بهذه المراكز ـ إن هو وجدها منحرفة عن الدين الإسلامي أو متجاوزة لحدوده ـ وقد تم ذلك في مرات كثيرة. فكان حجب الثقة عن مثل هذه المراكز،

---

(١) انظر قراءات في آخر الكتاب (خلفاء بني العباس).

وعدم الاعتراف بشرعيتها، هو بمثابة توجيه لمراكز القوى الأخرى حتى تقوم بمحاربتها والقضاء عليها. وهكذا؛ وعبر الصراع المسلح، كان الدين الإسلامي يكتسب قوته، ويتزايد عمقاً ورسوخاً في نفوس أبناء الشعوب المختلفة. ولم يكن الخليفة يمثل دور الحكم بين مراكز القوى، استناداً لسلطته الدينية والدنيوية، وذلك وفقاً لما تحاول بعض التفسيرات الخاطئة للأحداث إبرازه، وإنما كان دور الخليفة هو الطرف الدائم في كل صراع حتى ولو كان دوره محدوداً من الناحية المادية، إذ بقي للخليفة باستمرار من القدرة ما يستطيع بواسطتها التأثير على تيار الأحداث وتحويلها أو تطويرها لما فيه خير المسلمين عامة. لقد كان الخليفة يتربّع على قمة هرم مرتفع، يرقب الأحداث من حوله، كما يفعل القائد في المعركة، فيوجّه القوى نحو الهدف. مع احتفاظه بقدر كاف من القوى الاحتياطية لحسم الصراع في النهاية لمصلحة المسلمين عامة وليس لمصلحة شعب واحد، أو قوة واحدة. ولقد تميزت سياسة الخلفاء العباسيين بالثبات تجاه الأحداث وذلك لاستنادها إلى قاعدة راسخة هي كتاب الله وسنة رسوله. ولئن جرت بعض التبدلات في ظروف زمنية محدودة. فإن مسيرة الاحداث قد برهنت في النهاية على ثبات خط ـ أو اتجاه ـ الخلفاء في الادارة والحكم. وهذا ينفي دور التناقضات المرحلية في التأثير على الدين الإسلامي ـ من حيث إقامة الحدود والالتزام بها ـ.

٢ ـ ثورة الزط ـ ٢١٩ ـ ٢٢٠ هـ.

لعل (ثورة الزط) هي أول حركة كبيرة منحرفة، ففي سنة ٢١٩ هـ = ٨٣٤ م قام الزط بقطع طريق البصرة، بقيادة رجل اسمه محمد بن عثمان، كان صاحب أمره والقائم بالحرب لديه رجل اسمه سملق ـ وقد عمل الزط على نهب الغلاّت من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، فوجه أمير المؤمنين المعتصم قوة لمحاربتهم بقيادة ـ عجيف بن عنبسة ـ ورتب الخيل على كل طريق من طرق البريد لموافاته بالأخبار بسرعة، فكان الخبر يخرج من عند عجيف، فيصل الى المعتصم من يومه. فلما صار عجيف الى واسط، أقام معسكره بقرية أسفل واسط يقال لها ـ الصافية ـ ومعه خمسة آلاف رجل. وصار عجيف الى نهر يحمل من دجلة يقال له ـ بردودا ـ فلم يزل مقيماً عليه سدة. ووجه عجيف قوة من خمسة آلاف رجل بقيادة هرون بن نعيم بن الوضاح ـ القائد الخراساني ـ الى نجيدا ـ وسد عجيف أنهاراً أخر كان الزط يدخلون منها ويخرجون، فحصرهم من كل وجه. ثم حاربهم وأسر منهم خمسمائة رجل، وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل. فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم الى باب المعتصم. ثم أقام عجيف بإزاء الزط خمسة عشر يوماً. فظفر منهم بخلق كثير. واستمر في حصارهم وقتالهم بعد ذلك تسعة أشهر، وضاقت عليهم الأرض، فخرجوا وطلبوا منه الأمان فآمنهم على دمائهم وأموالهم. وكانت عدتهم سبعة وعشرين ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي. ثم جعلهم في السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية، وأقام بها يوماً، ثم عبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب، معهم البوقات، حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م. ووقف المعتصم في سفينة بالشماسية؛ واستعرض الزط. وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبر بهم الى الجانب الشرقي، فدفعوا إلى ـ بشر بن السميدع ـ فذهب بهم الى خانقين، ثم نقلوا

الى الثغر - الى عين زربة - فأغارت عليهم الروم، فاجتاحوهم، فلم يفلت منهم أحد(*).

(*) وفي ذلك قال شاعرهم:

يا أهل بغداد موتوا دام غيظكم   شوقاً الى تمر برني وشهريز
نحن الذين ضربناكم مجاهرة   قسراً وسقناكم سوق المعاجيز
لم تشكروا الله نعماهُ التي سلفت   ولم تحوطوا أياديه بتعزيز.
فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم   من يازمان ومن بلج ومن توز
ومن شناس وأفشين، ومن فرج   المعلمين بديباج وإبريز.
واللابسي كميخار الصين قد خرطت   أردانه درز برواز الأخاريز
يغري ببيض من الهندي هامهم   بنو بهلةٍ في أبناء فيروز
ليس الجلاد جلاد الزط فاعترفوا   أكل الثريد ولا شرب القواقيز.
نحن الذين سقينا الحرب درتها   ونقنقنا مقاساة الكواكيز.
لسفعنكم سفعاً يذل له   ربّ السرير ويشجي صاحب التيز
فابكوا على التمر ابكى الله أعينكم   في كل اضحى وفي فطر، ونيروز

٤ ـ ثورة بابك الخرمي ـ ٢٠١ ـ ٢٢٢ هـ.

لقد جاءت ثورة الزط بصورة اعتراضية لثورة سبقتها ـ واستمرت بعدها، هي ثورة ـ بابك الخرمي ـ الذي تحرك سنة ٢٠١ هـ = ٨١٦ م بالجاويذانية ـ وهم أصحاب حاكم البذ، جاويذان بن سهل، وادعى ان روح جاويذان دخلت فيه، وأخذ في العبث والفساد. فحاول أمير المؤمنين ـ المأمون ـ القضاء على هذه الثورة ـ فوجه قوات عجزت عن محاربتها، منها جيش بقيادة صدقة بن علي المعروف بزريق أرمينية وأذربيجان، ولكن بابك الخرمي تمكن من هزيمة الجيش وأسر قائده (سنة ٢٠٩ هـ = ٨٢٤ م). واستمر ارسال الحملات إلاّ أن بابك الخرمي نجح في إلحاق الهزيمة بجيوش الخليفة، وقتل من قواده جماعة، فلما كانت سنة ٢٢٠ هـ = ٨٣٥ م. وتولى المعتصم الخلافة، وجه جيشاً لقتال بابك بقيادة ـ **الأفشين خيذر بن كاوس** ـ. كما وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى ـ أردبيل ـ وأمره ببناء الحصون التي خرّبها بابك فيما بين زنجان وأردبيل، وأن يضع في المسالح ـ مراكز المراقبة المتقدمة ـ رجالاً لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة والمواد التموينية الى أردبيل. فتوجه أبو سعيد لذلك، وبنى الحصون التي خرّبها بابك. ووجه بابك سرية له بقيادة رجل يقال له معاوية للإغارة على بعض النواحي. وعلم أبو سعيد بذلك، فجمع الناس، وخرج للقاء السرية، واشتبك معها فقتل منها جماعة وأسر جماعة أخرى واستنقذ ما كانت قد نهبته سرية معاوية في إغارتها. ووجه أبو سعيد الرؤوس والأسرى إلى المعتصم بالله، فكانت هذه هي أول هزيمة نزلت بقوات بابك. ثم كانت الهزيمة الثانية على يد ـ محمد بن البعيث ـ صاحب قلعة حصينة تسمى ـ شاهي ـ في ناحية أذربيجان. وقد أعمل الحيلة وتمكن من أسر أحد قادة بابك ـ واسمه عصمة من أصبهبذته ـ وقتل عد كبير من أفراد سريته، وإرساله إلى **المعتصم الذي عمل على استجواب ـ عصمة ـ بنفسه، وعرف منه طبيعة البلاد**

التي يعتصم فيها بابك وطرقها ووجوه القتال فيها. وأثناء ذلك كان - الافشين - قد وصل بجيشه الى - برزند - وأصلح الحصون فيما بين برزند وأردبيل، وأنزل قوة من جيشه بموضع يقال له - خش - بقيادة محمد بن يوسف - وأمره بحفر خندق حول موضعه. كما أنزل قوة أخرى بموضع يسمى - أرشق - وأمره أيضاً بحفر خندق حول حصنه. وترك قوة ثالثة في حصن أردبيل بقيادة علويه الأعور. ونظم حراسة القوافل وتأمين الطرق بحيث تقوم كل قوة من هذه القوى بتأمين الحراسة في قطاع عملها. **كما نظّم اعمال الاستطلاع والجاسوسية. وكان كلما صار الى أحد القادة، أو الى أحد المسالح - المخافر المتقدمة - أحد من الجواسيس، وجهوه الى الافشين، فكان الافشين لا يقتل الجواسيس ولا يضربهم، ولكن يهب لهم، ويصلهم ويسألهم ما كان بابك يعطيهم، فيضعفه لهم. ويقول للجاسوس: « كن جاسوساً لنا »**.

علم - بابك - بواسطة جواسيسه أن الخليفة المعتصم قد أرسل الى قائده الافشين مالاً لدفع عطاء جنده وللنفقات. وأن القائد - بغا الكبير - هو الذي حمل المال ووصل به الى أردبيل؛ فتهيأ بابك وأصحابه لنصب كمين من أجل الاستيلاء على هذا المال. ولكن - صالح الجاسوس - جاء فأخبر الافشين بأن بابك الخرمي قد أعد الكمائن في عدد من المواضع للغدر بالقائد بغا الكبير، والاستيلاء على ما يحمله. لم يكن - الافشين - ليتحرك قبل أن يستوثق من صحة معلومات - الجاسوس صالح - فأرسل إلى أبي سعيد وأمره أن يحتال لمعرفة صحة خبر بابك. فمضى أبو سعيد متنكراً هو وجماعة من أصحابه حتى نظر إلى النيران والوقود في المواضع التي وصفها لهم صالح. فلما استوثق الافشين من صحة المعلومات، أرسل الى - بغا الكبير - وطلب إليه البقاء بأردبيل حتى تأتيه تعليمات أخرى. ثم أتبع ذلك برسالة طلب فيها إلى بغا الكبير - التظاهر بأنه يريد الرحيل، وأن يحمل المال على الإبل، ويقطرها، ويسير متوجهاً من أردبيل كأنه يريد - برزند - فإذا صار الى مسلحة النهر، وسار عنها مسافة كافية، توقف، وأمر مفرزة الحراسة المرافقة للقافلة بمتابعة السير الى - برزند - ثم العودة بالمال الى أردبيل. ففعل ذلك بغا، وانصرف جواسيس بابك إليه؛ وأعلموه أنهم عاينوا المال محمولاً حتى

وصل الى النهر. وركب الافشين في اليوم ذاته، فوصل الى - خش - مع غروب الشمس - ونزل معسكراً خارج خندق أبي سعيد، **فلما أصبح ركب في سر، لم يضرب طبلاً ولا نشر علماً، وأمر أن يلفّ الأعلام، وأمر الناس بالسكوت، وسار مسرعاً يريد الوصول الى القوة المتمركزة في - حصن النهر بقيادة الهيثم الغنوي -**. وتعبأ بابك في خيله ورجاله وعساكره، ووصل الى طريق النهر. ووصلت القافلة فهاجمها بابك وهو لا يشك ان المال معها؛ وقاتله رجال القافلة، فقتلهم بابك جميعاً هم ومن معهم من الجند والسابلة، وأخذ جميع ما كان معهم من المتاع وغيره. وعرف بابك أن المال قد فاته. **فأخذ علم قائد القافلة، ولباس جنده ودراريعهم وطراداتهم، فألبسها جماعته، وجاؤوا الى قرب النهر، حيث الموضع الذي تتولى فيه قوة الهيثم الغنوي مسؤولية حراسة القافلة**. ولكن بابك لم يعرف المكان بدقة. فلما وصل الهيثم ورأى القوة بلباس جند أمير المؤمنين ولكن في غير موضعها، أرسل بعض عناصره للاستطلاع، وعندها أدرك ما فعله بابك، فرحل منصرفاً، وأمر القوة التي كانت معه بالسير سريعاً للوصول الى - حصن النهر - وسار هو في نفر من أصحابه، يقف بهم قليلاً، ويسير بهم قليلاً، ليشغل الخرمية، حتى عرف ان عناصره قد دخلت الحصن. وعندها أرسل اثنين من المراسلين - اختارهما بعناية - وكلفهما بتحذير الافشين وإعلامه بما جرى للقافلة. وجاء بابك وجنده فنزل بجوار الحصن وطلب الى الهيثم الغنوي الانسحاب من حصنه وتسليمه. ولم يكن مع الهيثم اكثر من ستمائة راجل وأربعمائة فارس، إلاّ أنه رفض طلب بابك وحاربه بقواته. فقعد بابك فيمن معه، ووضع الخمر بين يديه ليشربها كعادته، فما كانت الحرب مشتبكة. **وأثناء ذلك كان الفارسان المراسلان يطويان الأرض ليصلا الى الأفشين، فوجدا معسكره على مسافة لا تبعد اكثر من فرسخ من - أرشق -. ووقع نظر الافشين على الفارسين وهما ينحدران نحوه. فقال على الفور: اضربوا الطبل، وانشروا الأعلام، واركضوا نحو الفارسين. ففعل أصحابه ذلك، وأسرعوا السير، وهم يصيحون ما أمرهم الأفشين بترديده: لبّيك، لبّيك! وأسرع الأفشين**

بفرسانه على رأس قواته الجاهزة، وتسارع الجند للّحاق به؛ وهم يتدافعون متسارعين، حتى لحقوا ببابك وهو جالس، ولم يشعر إلاّ وجند الأفشين قد اختلطوا بجنده. واشتبكت الحرب، فلم يفلت من رجال بابك أحد، وأفلت بابك في نفر يسير من أصحابه، ووصل الى موقان، وقد ترك على أرض المعركة اكثر من ألف قتيل من رجاله. وأقام الأفشين ليله في ميدان المعركة، ثم رجع في اليوم التالي الى برزند، وأقام فيها. أما بابك، فقد اقام بموقان أياماً؛ ثم إنه بعث إلى ـ البذ ـ فجاءه في الليل عسكر فرحل بهم من موقان وعاد الى البذ. ثم إن قافلة كانت قادمة من خش الى ـ برزند ـ حاملة التموين للأفشين وهي بقيادة رجل اسمه صالح أب كش ـ وتفسيره السقاء ـ فاعترضتها قوة لبابك بقيادة الاصبهبذ ـ واستولت على القافلة وقتلت رجالها جميعاً، فقحط عسكر الأفشين. فكتب الأفشين الى حاكم ـ المراغة ـ وأمره بإرسال مواد تموينية بأقصى سرعة ممكنة، وأعلمه بما نزل بجنده من القحط والجوع. فأرسل حاكم المراغة قافلة ضخمة، فيها قريب من ألف ثور سوى الحمر والدواب وغير ذلك وهي تحمل الميرة ـ التموين ـ ومعها جند يحرسونها ـ فخرجت عليهم أيضاً سرية لبابك بقيادة طرخان ـ أو آذين ـ فاستباحوها عن آخرها، بجميع ما فيها، وأصاب الناس ضيق شديد. فكتب الأفشين الى حاكم ـ السيروان ـ ان يحمل إليه طعاماً، فحمل إليه طعاماً كثيراً، وأغاث الناس، وجاء ـ بغا الكبير ـ وهو يحمل الى الأفشين المال والرجال. فأعاد الأفشين تنظيم قواته وتجهيزها، **ووجه قوة بقيادة بغا الكبير، وكلّفه بالقيام بالالتفاف من حول ـ هشتادسر ـ وأن ينزل في خندق محمد بن حميد، ويحفره ويحكم تحصينه.** وتحرك أبو سعيد من ـ خش ـ كما ارتحل الأفشين وقواته من ـ برزند ـ. والتقى مع قوات أبي سعيد بناء على اتفاق مسبق ـ في موضع يقال له ـ درود ـ. فاحتفر الأفشين بها خندقاً؛ وبنى حوله سوراً، فكان بينه وبين ـ البذ ـ ستة أميال. ثم إن ـ بغا ـ تجهّز وحمل معه الزاد من غير أن يكون الأفشين كتب إليه، ولا أمره بذلك. فالتفّ من حول ـ هشتادسر ـ حتى دخل الى بلدة ـ البذ ـ فنزل في وسطها، وأقام بها يوماً واحداً، ثم وجّه ألف رجل يحملون مواد تموينية، فخرجت

عليهم قوة من جند بابك، فاستباح القافلة التموينية، وقتل جميع من قاتله منهم، وأسر من قدر عليه. ووجّه رجلين من الأسرى لإعلام الأفشين بما تعرّضت له قواته. ورجع الأفشين مع بقية قواته الممزقة الى خندق محمد بن حميد، وكتب الى الأفشين وأعلمه بما تعرضت له قواته من هزيمة وطلب الدعم. فجهّز الأفشين قوة لدعمه، وأرسلها بقيادة أخيه الفضل بن كاوس وعدد من أفضل قادته. واستدارت هذه القوة من حول - هشتادسر - ووصلت الى خندق بغا؛ فارتفعت الروح المعنوية للجنود - وسر أهل عسكر بغا بوصول قوة الدعم. ثم كتب الأفشين الى - بغا - وأمره ان يقوم بالهجوم على - بابك - في يوم عينه له ليحاربه من كلا الوجهين. فخرج - بغا - في اليوم المعين من خندق محمد بن حميد، وصعد الى - هشتادسر - وعسكر على عدوة بجنب قبر محمد بن حميد، فهاجت ريح باردة ومطر شديد، فلم يكن للناس عليها صبر لشدة البرد وقوة الريح، فانصرف بغا الى معسكره. وأثناء ذلك كان الأفشين قد انطلق من - دروذ - وهاجم بابك، وانتصر عليه، وأخذ معسكره وخيمته وامرأة كانت معه في المعسكر. ونزل الأفشين في معسكر بابك. ثم تجهّز - بغا في اليوم الثاني، وصعد - هشتادسر - يريد البذ، ولكن النهار انقضى ولما يقع بغا على معسكر - بابك - فأرسل الى قائد مقدمته - داود سياه - من يقول له: «قد توسطنا الموضع الذي نعرفه. وهذا وقت المساء. وقد تعب الرجالة. فانظر جبلاً حصيناً يسع عسكرنا، حتى نعسكرَ فيه ليلتنا هذه». وصعد - داود سياه - بعض الجبال بحثاً عن المكان المناسب، حتى إذا ما وصل الى قمة مشرفة. رأى أعلام الأفشين ومعسكره عند الأفق البعيد، فقال: «هذا موضعنا الى غدوة. وننحدر من الغد الى الكافر - بابك - إن شاءالله». فجاءهم في تلك الليلة سحاب. وبرد شديد، ومطر وثلج كثير. فلم يقدر أحد حين أصبحوا أن ينزل من الجبل للحصول على الماء، ولم يتمكن الجند من الشرب أو تأمين سقاية دوابهم. إذ كانوا في نهارهم وكأنهم في ليل من شدة الظلمة والضباب. فلما كان اليوم الثالث، قال الناس للقائد بغا: «قد فني ما معنا من الزاد، وقد أضر بنا البرد، فانزل على أي حالة كانت. إما راجعين. وإما لقتال الكافر». وكان - بابك - قد أفاد من أيام الضباب: فهاجم الأفشين ونقض معسكره، فعاد الأفشين الى معسكره

الأول؛ ولم يعلم ـ بغا ـ بذلك، فقام بضرب الطبل وانحدر يريد ـ البذ ـ حتى صار الى بطن الجبل، فنظر الى السماء مشرقة، والدنيا طيبة، فنظّم قواته، في ميمنة وميسرة ومقدمة، وتقدم وهو لا يشك ان الأفشين في موضع معسكره، ومضى حتى صار ملاصقاً لجبل ـ البذ ـ. ولم يبق بينه وبين ان يشرف على بيوت ـ البذ ـ سوى صعود مسافة نصف ميل. وهنا اكتشفت عناصر الاستطلاع ـ في المقدمة ـ حقيقة الموقف، وتوافرت لها المعلومات عن قيام بابك بالهجوم على معسكر الأفشين وتدميره، وأنه قسم قواته الى مجموعتين لمقابلة أي هجوم من أي اتجاه. وعقد ـ بغا ـ مؤتمراً لقادته، وتقرر الانسحاب بسرعة للإفادة من ضوء النهار. فأمر ـ بغا ـ قائد مقدمته ـ داود سياه ـ بالإسراع في التقدّم. فتجنّب داود السير في الطريق الذي كان قد دخل منه إلى ـ هشتادسر ـ مخافة المضايق والعقاب، وسار على الطريق الذي كان قد دخل منه في المرة الأولى والذي يلتف مستديراً حول ـ هشتادسر ـ وليس فيه مضيق إلاّ في موضع واحد. وسار ـ بغا ـ بالناس، وبعث بالمشاة الرجالة، فنالهم تعب شديد حتى انهم طرحوا رماحهم وسلاحهم في الطريق، ودخلتهم وحشة شديدة ورعب، وسار بغا والفضل بن كاوس وجماعة القادة مع المؤخرة ـ الساقة ـ. وظهرت طلائع بابك ـ فكلما نزل هؤلاء جبلاً صعدته طلائع بابك، يتراءون لهم مرة ويغيبون عنهم مرة، وهم في ذلك يقفون آثارهم، حتى كان بين الصلاتين: الظهر والعصر، فنزل بغا ليتوضأ ويصلي. فتدانت منهم طلائع بابك، فبرزوا لهم، وصلى بغا، ووقف في وجوههم، فوقفوا حين رأوه. فتخوف بغا على عسكره ان تهاجمه طلائع بابك من جهة، فيما تقوم قوات أخرى لبابك بالالتفاف في بعض الجبال والمضايق. وقال لأصحابه: «لست آمن أن يكونوا قد وضعوا هؤلاء لمشاغلتنا، لحبسنا عن المسير، فيما يقوم أصحابهم لأخذ المضايق على قواتنا». فقال له الفضل بن كاوس: «ليس هؤلاء أصحاب نهار، وإنما هم أصحاب ليل، وإنما يتخوف على أصحابنا من الليل». فأرسل بغا مراسلاً الى داود سياه، وأمره بالاسراع في تقدمه وعدم التوقف حتى لو استمر المسير الى منتصف الليل، وذلك الى أن يتم تجاوز المضيق. وقال بغا لأصحابه: «أما نحن فنقف هاهنا، فإن هؤلاء لا يسيرون ما داموا يروننا في وجوههم، فنماطلهم وندافعهم قليلاً قليلاً حتى تجيء

الظلمة. فإذا جاءت الظلمة لم يعرفوا لنا موضعاً. وأصحابنا يسيرون فينفذون أولاً فأولاً. فإن أخذ علينا نحن المضيق، تخلّصنا من طريق هشتادسر أو من طريق آخر». وتقدم أحد القادة الى ـ بغا ـ وقال له: «إن العسكر قد تقطع، وليس يدرك أوله آخره، والناس قد رموا بسلاحهم، وقد بقي المال والسلاح على البغال، وليس معه أحد، ولا نأمن أن يخرج عليه من يأخذه». فقرر ـ بغا ـ ان يعسكر بالناس، وأرسل الى قائد مقدمته داود سياه ـ من قال له: «حيثما رأيت جبلاً حصيناً، فعسكر عليه». وتوجه داود الى جبل لم يكن للناس موضع يقعدون فيه من شدة انحداره. فضرب مضرباً لبغا على طرف جرف في موضع شبيه بالحائط؛ ليس فيه مسلك. وجاء بغا فنزل وأنزل الناس وقد نالهم التعب والإعياء، وفنيت أزوادهم، فعبأهم؛ وباتوا على تعبئة وتحارس من ناحية المصعد، فجاءهم جند بابك من الناحية الأخرى، وباغتوهم، فتعلقوا بالجبل حتى صاروا الى مضرب بغا. فهاجموا المضرب. وخرج بغا راجلاً فوجد دابة فركبها، وانحدر به على معسكر محمد بن حميد، فوافاه في جوف الليل. واستولى جماعة بابك الخرمي على المال والسلاح. وجرح الفضل بن كاوس. وقتل عدد من القادة. وسار الناس منهزمين متقطعين حتى وصلوا الى بغا وهو في خندق محمد بن حميد. وأقام بغا في هذا الخندق خمسة عشر يوماً، فأتاه كتاب من الأفشين أمره فيه بالرجوع الى ـ المراغة ـ وان يعيد قوة الدعم التي كان قد أرسلها إليه. فمضى بغا الى ـ المراغة ـ وعاد الفضل بن كاوس وجميع من كان قد جاء معه ـ فالتحق بمعسكر الأفشين الذي فرق الناس في مشاتيهم لتلك السنة (٢٢١ هـ = ٨٣٦ م). وعلم الأفشين أن أحد كبار قادة بابك ـ واسمه طرخان ـ قد استأذن بابك لقضاء فصل الشتاء في قريته بناحية المراغة، فأذن له. فعمل الأفشين على جمع المعلومات عنه، وأرسل إليه من قتله وبعث برأسه إليه.

أرسل المعتصم بقوة دعم جديدة الى الأفشين بقيادة جعفر بن دينار الخياط، كما أرسل ثلاثين ألف ألف درهم مع ـ ايتاخ ـ عطاء لجند الافشين وللنفقات. فلمّا

انقضى الشتاء، وجاء الربيع من سنة ٢٢٢ هـ = ٨٣٧ م. أعاد تنظيم قواته، وانتقل بها من - برزند - الى موضع يقال له - كلان روذ - فاحتفر فيه خندقاً. وكتب الى أبي سعيد - فجاء بقواته وأقام معسكره في كلان روذ - وتفسيره النهر الكبير - وبينهما ثلاثة أميال. وجاءه بعد خمسة أيام من وصوله من أخبره بأن أحد قادة بابك - واسمه آذين - قد زج قواته في مواجهة قوات الأفشين وأنه قد أرسل أفراد أهله - عياله - الى جبل يشرف على - روذ الروذ - فأرسل هذه المعلومات الى الأفشين الذي أرسل إليه أمراً بتوجيه قوة من الفرسان والمشاة بقيادة ظفر بن العلاء السعدي والحسين بن خالد المدائني - الى روذ الروذ - فسارت هذه القوة من كلان روذ، وأمضت ليلتها في مسير شاق حتى انحدرت عبر مضيق لا يمرّ فيه راكب واحد إلاّ بجهد، ممّا أرغم الفرسان على الترجّل وقيادة خيولهم. والسير بنظام الرتل، رجلاً خلف رجل. ووصلوا قبل السحر الى مشارف - روذ الروذ - وترجل الفرسان ونزعوا ثيابهم وعبروا النهر، وصعدوا الجبل، وأسروا - أهل آذين وبعض ولده، وعبروا بهم. وبلغ آذين الخبر بأخذ عياله. وكان الأفشين عند توجيه هذه القوة، ودخولها المضيق. قد خاف ان يغلق المضيق في طريق عودتها، فأمر مفارز من المشاة باحتلال رؤوس الجبال، ومعهم الأعلام، للإشراف على تحرك قوة الإغارة، حتى إذا ما تعرضت هذه القوة للهجوم، حركوا الأعلام. فبات أفراد هذه المفارز على رؤوس الجبال الشاهقة. فلمّا رجع ظفر بن العلاء بمن أخذوا من عيال آذين، انحدر عليهم رجال آذين، قبل وصولهم الى المضيق، واقتتلوا ووقع بعض القتلى. واستنقذ رجال آذين بعض النساء. هذا فيما كانت قوة أخرى من قوات آذين تنحدر للإمساك بالمضيق. فلمّا رأى الرجال وهم في رؤوس الجبال ذلك، حرّكوا الأعلام. **فوجّه الأفشين كتيبة - كردوساً - بقيادة مظفر بن كيدر، فأسرع هذا بالتحرك، ثم وجّه الأفشين قوة أخرى لدعم القوة السابقة بقيادة أبي سعيد، وأتبعها بقوة ثالثة بقيادة - بخاراخذاه -** فلما رأى رجال آذين عند المضيق ذلك انسحبوا من المضيق وانضموا الى أصحابهم، ونجا ظفر بن العلاء والحسين بن خالد ومن معهما من أصحابهم، وجاؤوا جميعاً الى عكسر الأفشين، ومعهم النساء اللواتي أخذوهنّ - من عيال آذين.

قرر - الأفشين - الارتحال عن كلان روذ والزحف على - البذ - مدينة بابك وعاصمته، **فجعل يتقدم قليلاً قليلاً؛ على خلاف زحفه قبل ذلك؛** فكان يتقدم الأميال الأربعة، فيعسكر في موضع على طريق المضيق الذي ينحدر الى - روذ الروذ - ولا يحفر خندقاً، بل يكتفي بإقامة حواجز الحسك -. وكتب إليه المعتصم كتاباً أمره فيه بأن يجعل الناس نوائب، بكراديس تقف على ظهور الخيل، كما تتم حراسة المعسكر بالليل. فبعض القوم معسكرون وبعضهم وقوف على ظهور خيولهم، ويتجولون بالليل والنهار حول المعسكر خشية المباغتة، حتى إذا ما دهمهم أمر، كان الناس على استعداد ريثما يأخذ الآخرون حذرهم واستعدادهم. وضج الناس من التعب، وقالوا: **«كم نقعد هاهنا في المضيق، وليس بيننا وبين العدو اكثر من أربع فراسخ، ونحن نفعل فعلاً كأن العدو بإزائنا. وقد استحينا من الناس والجواسيس الذين يمرون بنا. لقد متنا من الفزع - أقدم بنا، فإما لنا وإما علينا». وأجابهم الأفشين: «أنا والله أعلم أن ما تقولون حق. ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا، ولا أجد منه بداً».** فلم يلبث ان جاءه كتاب المعتصم وأمره فيه ان يقوم بالاستطلاع الليلي، فقام بتنفيذ ذلك أياماً، ثم انحدر الأفشين وعناصر قيادته حتى نزل - روذ الروذ - وتقدم حتى شارف الموضع الذي به العدوة، حيث حاربه بابك في العام الماضي. فوجد فيها كردوساً - كتيبة - من الخرمية، فلم يحاربوه ولم يحاربهم، وقال لهم بعض الخرمية: **«مالكم تجيئون وتعودون - أما تستحيون»**. فأمر الأفشين بألا يجيبوهم وألاّ يبرز إليهم أحد، وبقي في موضعه الى الظهر، ثم رجع الى عسكره. فمكث فيه يومين، ثم انحدر أيضاً في أكثر مما كان انحدر في المرة الأولى. وأمر أبا سعيد أن يذهب ليحتل المواقع التي كان يحتلها في المرة السابقة؛ وألا يحركهم ولا يهجم عليهم. وأقام الأفشين بروذ الروذ؛ وأمر **عناصر الاستطلاع - الكوهبانية -** بالصعود الى رؤوس الجبال التي يظنون أنها حصينة، وأن يقفوا حتى يظهروا له فيها. ثم عليهم أن يختاروا له في رؤوس الجبال مواضع يتحصّن فيها المشاة - الرجالة - فاختاروا له ثلاثة أجبل - جبال - قد كانت عليها حصون فيما مضى، فخربت، فعرفها. ثم بعث الى أبي سعيد فوجهه من يومه، فلما مضى يومان على ذلك،

وجه الفعلة ـ الكلفرية ـ ومعهم المياه والكعك، وأمرهم **بنقل الحجارة وتحصين** الطرق التي تسلك الى تلك الجبال الثلاثة، وتحويلها الى حصون. والعمل على حفر خندق على كل طريق وراء تلك الحجارة. فلم يترك مسلكاً الى جبل منها إلاّ مسلكاً واحداً. ثم أمر أبا سعيد بالانصراف، وعاد الأفشين الى معسكره. ومضت أيام، عمل الأفشين بعدها على تزويد رجاله بالكعك والسويق، وتزويد الفرسان بالزاد والشعير، وترك قوة بمعسكره لحمايته والدفاع عنه. ثم وجه قوات المشاة ـ الرجالة ـ وأمرهم بالصعود الى رؤوس الجبال ومعهم الزاد والماء وجميع ما يحتاجون إليه. ووجّه أبا سعيد ليقف برجاله على المواقع التي كان يحتلها؛ **وأمر الناس بالنزول في سلاحهم، مع بقاء الخيول مسرجة. وخط الخندق، وأمر الفعلة بالعمل فيه، ووكل بهم من يستحثهم. ونزل هو والفرسان، فوقفوا تحت الشجر في ظل يرعون دوابهم. فلما صلى العصر، أمر الفعلة بالصعود الى رؤوس الجبال التي حصّنها مع المشاة ـ الرجالة ـ وأمر هؤلاء ان يتحارسوا وألا يناموا، ويتركوا للفعلة فرصة النوم فوق الجبال، كما أمر الفرسان بالركوب عند اصفرار الشمس، ونظّمهم في كتائب ـ كراديس ـ وأمرهم بالوقوف بإزائهم، وترك بين كل كتيبة والكتيبة التي تليها مقدار رمية سهم، وأمر الكتائب جميعها بعدم الالتفاف، وأن تقوم كل كتيبة بتأمين الحماية لنفسها، وبقيت الكتائب قائمة في مواقعها حتى الصباح. ونظّم مفارز استطلاع للمرور على كتائب الفرسان وقوات المشاة طوال الليل.** ولبثوا في حفر الخندق عشرة أيام، وهم على هذه الحال، وفي اليوم العاشر قسم الخندق بين الناس، وأمر القادة بنقل أثقالهم واثقال جندهم الى الخنادق. وجاء الى الأفشين رسول من قبل بابك، وهو يحمل القثاء والبطيخ والخيار، وقال الرسول بأن بابك يعرف أن الأفشين وجنده في جفاء وأنهم لا يأكلون إلاّ الكعك والسويق. وأن بابك أراد ملاطفة الأفشين بما حمله إليه. فقال الأفشين للرسول: «**قد عرفت أي شيء أراد أخي بهذا، إنما أراد ان يستطلع المعسكر، وأنا أحق من قبل بره، وأعطاه شهوته، فقد صدق. انا في جفاء. ولكن لا بد لك ان تصعد حتى ترى معسكرنا، بعد أن رأيت ما هاهنا، وترى ما وراءنا أيضاً**». وأمر بإرسال من

يرافق رسول بابك حتى يصعد ويرى الخندق، ويرى خندق كلان روذ وخندق برزند، ولينظر الى الخنادق الثلاثة ويتأملها، وألا يخفى عليه منها شيء، ليخبر بها صاحبه ـ بابك ـ.

ثم جاءت الخرمية بعد ذلك في ثلاثة كراديس ـ كتائب ـ حتى صاروا قريباً من خندق الأفشين، وهم يصيحون. فأمر الأفشين الناس ألا ينطق أحد منهم، ففعلوا ذلك ليلتين أو ثلاث ليال، فلما أنسوا، هيأ لهم الأفشين أربعة كراديس من الفرسان والمشاة ـ الرجالة ـ وكانت المشاة من الرماة ـ الناشبة ـ فكمنوا لهم في الأودية، ووضع عليهم الجواسيس ـ العيون ـ. فلما انحدروا في وقتهم الذي كانوا ينحدرون فيه في كل مرة، وصاحوا وجلبوا كعادتهم، هاجمتهم الفرسان والمشاة من كمائنهم، وقطعوا عليهم طريق تراجعهم. وأخرج الأفشين إليهم كتيبتين من المشاة في جوف الليل، فعرفوا ان المضيق ـ العقبة ـ قد بات مغلقاً في وجوههم، فتفرقوا في عدة طرق، فراحوا يتسلقون الجبال. ولم يعودوا الى ما كانوا يفعلون. ورجع الناس من المطاردة مع صلاة الفجر، ولم يلحقوا من الخرمية أحداً.

كان الأفشين يأمر بضرب الطبول نصف الليل؛ في كل اسبوع. ويخرج بالشمع والنفاطات ـ المشاعل ـ الى باب الخندق. فصار كل مقاتل يعرف مكانه في كتيبته، وتعرف كل كتيبة موقعها؛ في الميمنة او في القلب او في الميسرة؛ فيخرج الناس فيقفون في مواقفهم ومواضعهم. وكان الأفشين يحمل اعلاماً سوداً كباراً عددها اثنا عشر علماً، يحملها على البغال ولم يكن يحملها على الخيل لئلا تزعزع. وكانت طبوله الكبار واحداً وعشرين طبلاً، وكانت الأعلام الصغار نحواً من خمسمائة علم. فيقف كل فرق على مرتبتهم من ربع الليل، حتى إذا طلع الفجر، ركب الأفشين من مضربه، فيؤذن المؤذن بين يديه، ويصلي، ثم يصلي بالناس بغلس، ثم يأمر بضرب الطبول، ويسير زحفاً، وكانت علامته في المسير والوقوف تحريك الطبول وسكونها، لكثرة الناس،

ومسيرهم في الجبال والطرقات على مصافهم، كلما استقبلوا جبلاً صعدوه، وإذا هبطوا الى واد مضوا فيه. إلا ان يكون جبلاً منيعاً لا يمكنهم صعوده وهبوطه، فإنهم كانوا ينضمون الى العساكر، ويرجعون إذا جاؤوا الى الجبل الى مصافهم ومواضعهم. وكانت علامة المسير ضرب الطبول؛ فإن أراد أن يقف أمسك عن ضرب الطبول. فيقف الناس جميعاً من كل ناحية على جبل، أو في واد، أو في مكانه. وكلما جاءه عنصر استطلاع أو جاسوس ـ كوهباني ـ بخبر وقف قليلاً. وكان يسير هذه الستة الأميال التي بين روذ الروذ وبين البذ، ما بين طلوع الفجر الى الضحى الأكبر، فإذا اراد ان يصعد الى العدوة التي وقعت عليها الموقعة في السنة السابقة، وضع قوة على رأس العقبة من ألف فارس وستمائة راجل بقيادة ـ بخاراخذاه ـ للمحافظة على الطريق ومنع الخرمية من السيطرة عليه إذا ما حاولوا ذلك. وكان بابك إذا شعر أنه قادم إليه وجه عسكراً الى واد يقع تحت تلك العقبة التي كان يتمركز فيها ـ بخاراخذاه ـ ويكمنون لمن يريد أن يأخذ عليه الطريق. وكان من عادة الأفشين ان يقف مع ـ بخاراخذاه ـ للدفاع عن هذه العقبة وحمايتها، لمنع قوات بابك من السيطرة عليها. وكان ـ بخاراخذاه ـ يقف بها أبداً، مادام الأفشين وقواته داخل البذ على العدوة. وكان الأفشين يأمر ـ بخاراخذاه ـ بالوقوف على واد فيما بينه وبين البذ. كما كان الأفشين يأمر أبا سعيد محمد بن يوسف، بعبور ذلك الوادي بقوة كتيبة، ويأمر جعفراً الخياط ان يقف أيضاً مع كتيبة من قواته. ويأمر أحمد بن الخليل بالوقوف مع كتيبة ثالثة، فيصير في جانب ذلك الوادي ثلاثة كتائب. ومقابل ذلك، كان بابك يخرج قوة من جيشه بقيادة ـ آذين ـ فيقف على تل بإزاء هذه الكتائب الثلاثة، خارج البذ، لئلا يتقدم أحد من عساكر الأفشين الى باب البذ. وكان الأفشين يقصد الى باب البذ، ويأمرهم إذا عبروا بالوقوف فقط؛ وترك المحاربة. وكان بابك إذا أحس بعساكر الأفشين أنها قد تحركت من الخندق تريده، فرق أصحابه في كمائن بحيث لا يترك معه إلا نفراً يسيراً. وبلغ ذلك الأفشين، غير أنه لم يتمكن من معرفة المواضع التي يكمنون فيها. ثم أتاه الخبر بأن الخرمية قد خرجوا جميعاً، ولم يبق مع بابك إلا شرذمة من أصحابه. **وكان الأفشين إذا صعد الى ذلك**

الموضع بسط له نطع ووضع له كرسي، وجلس على تل مشرف يشرف على باب قصر بابك، وكتائب الناس وقوف. من كان معه من جانب هذا الوادي نزل عن دابته. ومن كان من ذاك الجانب مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأصحابه وأحمد بن الخليل، لم ينزل لقربه من العدو، فهم وقوف على ظهور خيولهم. **وينشر شبكات عناصر استطلاعه ـ الكوهبانية ـ ليفتشوا الأودية، على أمل تحديد مكان الكمائن، فيعرفها**. فكانت هذه حالته في التفتيش الى بعد الظهر. والخرمية بين يدي بابك يشربون النبيذ ـ ويزمرون، ويضربون بالطبول، حتى إذا صلى الأفشين صلاة الظهر، انحدر الى خندقه بروذ الروذ. فكان أبو سعيد هو أول من ينحدر بقوته، ثم يتبعه احمد بن الخليل، ويلحق بهما جعفر بن دينار، ثم ينصرف الأفشين، وكان مجيئه ذلك مما يغيظ بابك وانصرافه. فإذا دنا الانصراف، ضربوا بصنوجهم، ونفخوا بوقاتهم استهزاء. أما ـ بخاراخذاه ـ فكان لا يبرح من العقبة التي هو عليها حتى يتجاوزه الناس جميعاً، ثم ينصرف في أثرهم. فلما كان في بعض أيامهم، ضجرت الخرمية من المعادلة والتفتيش الذي يجري عليهم، فلما انصرف الأفشين وانصرفت قواته، فتح الخرمية باب خندقهم، وخرج منه عشرة من الفرسان. وهاجوا بعض قوات المؤخرة، وارتفعت الضجة بين الجند، فرجع جعفر الخياط بكتيبته وحمل على اولئك الفرسان حتى ردّهم الى ـ باب البذ ـ. ثم وقعت الضجة في العسكر، فرجع الأفشين فشاهد جعفر وأصحابه وهم يقاتلون. وخرج بابك بعدة فرسان. ولم يكن معه مشاة ووقعت اشتباكات بين فرسان الطرفين. وصعد الأفشين الى المكان الذي اعتاد على الجلوس عليه. وكان في كتيبة أبي دلف قوم من المطوعة، من أهل البصرة وغيرهم، فلما ارتفعت الضجة، ونظروا الى جعفر وهو يحارب، انحدروا بغير امر الأفشين، وعبروا الى ذلك الجانب من الوادي، حتى وصلوا الى جانب ـ البذ ـ فتعلقوا به، وكادوا يصعدونه ويدخلون البذ، ووجه جعفر الى الأفشين: «أن أمدني بخمسمائة رجل من رماة النشاب، فإني أرجو أن أدخل البذ إن شاءالله، ولست أرى في وجهي إلاّ هذا الكردوس الذي تراه أنت، فقط» فأجابه الأفشين: «لقد أفسدت علي أمري، فتخلّص قليلاً قليلاً وخلّص أصحابك وانصرف». وكانت الضجة قد

ارتفعت من المطوعة حين تعلّقوا بالبذ، فظنت الكمائن التي وضعها بابك بأن الحرب قد وقعت، فخرجوا من كمائنهم، وظهر أن هناك كميناً تحت معسكر ـ بخاراخذاه ـ وكميناً آخر تحت العدوة التي كان يجلس الأفشين فوقها، وتحركت الخرمية، والناس وقوف على رؤوسهم لم يتحرك منهم أحد. فقال الأفشين: **«الحمدلله الذي بين لنا مواضع هؤلاء ـ أصحاب الكمائن»**.

عندما انسحب جعفر وكتيبته ومن التحق به من المطوعة، جاء الى الأفشين وقال له: «إنما وجهني سيدي أمير المؤمنين للحرب التي ترى، ولم يوجهني للقعود هاهنا، وقد قطعت بي في موضع حاجتي؛ لقد كان يكفيني خمسمائة رجل فقط حتى أدخل البذ، وأقتحم جوف داره، لأني قد رأيت من بين يدي». فقال له الأفشين: **«لا تنظر الى ما بين يديك، ولكن انظر الى خلفك، وإلى الذين وثبوا ببخاراخذاه ـ وأصحابه»**. فقال الفضل بن كاوس لجعفر الخياط: «لو كان الأمر إليك ما كنت تقدر ان تصعد الى هذا الموضع الذي انت عليه واقف، حتى تقول: كنت وكنت...» فردّ عليه جعفر: «هذه الحرب؛ وها أنا واقف لمن جاء». فقال له الفضل: «لولا مجلس الأمير لعرفتك نفسك الساعة» فصاح بهما الأفشين، فأمسكا. وأمر أبا دلف ان يرد المطوعة عن السور، فقال ابو دلف للمطوعة: «انصرفوا» فجاء رجل منهم ومعه صخرة، فقال: «اتردنا، وهذا الحجر أخذته من السور». فقال له: «إذا انصرفت الساعة، فستعرف من كان ينتظرك على طريقك، وماذا كان ينتظرك». وهنا قال الأفشين لأبي سعيد ـ وجعفر يستمع: **«أحسن الله جزاءك عن نفسك وعن أمير المؤمنين. فإني ما علمتك عارفاً بأمر قيادة الجند وسياستها، ليس كل من حفّ رأسه يقول: إن الوقوف في الموضع الذي يحتاج إليه هو خير من المحاربة في الموضع الذي لا يحتاج إليه. لو وثب هؤلاء الذين تحتك ـ وأشار الى الكمين الذي تحت الجبل ـ كيف كنت ترى هؤلاء المطوعة؟ ومن كان يجمعهم؟ الحمدلله الذي سلمهم، قف هاهنا ولا تبرح حتى لا يبقى هاهنا أحد»**. وانصرف الأفشين، وكان من سنته أنه إذا بدأ بالانصراف، انحدر علم الكراديس وفرسانه

ومشاته، والكردوس الآخر واقف بينه وبينه قدر رمية سهم، لا يدنو من العقبة، ولا من المضيق، حتى يرى انه قد عبر كل من في الكردوس الذي يتقدمه، وأن الطريق قد أصبح خالياً، فيقترب عندها الكردوس الآخر وينحدر، وهكذا تسير الكراديس متتابعة، وقد عرف كل كردوس مكانه في تنظيم المسير، حتى إذا عبرت الكراديس كلها، ولم يبق أحد، انحدر ـ بخاراخذاه ـ. وكان الجند كلما مرّوا بموضع بخاراخذاه، نظروا الى موضع الكمين، وعرفوا ما كان ينتظرهم على يد جند بابك الذين ظهروا في الكمين.

أقام الأفشين في خندقه ـ بروذ الروذ ـ أياماً، فشكا إليه المطوعة الضيق في العلوقة والأزواد والنفقات، فقال لهم: « من صبر منكم فليصبر، ومن لم يصبر فالطريق واسع، فلينصرف بسلام. معي جند أمير المؤمنين، ومن هو في أرزاقه، يقيمون معي في الحر والبرد. ولست أبرح من هاهنا حتى يسقط الثلج». فانصرف المطوعة وهم يقولون: « لو ترك الأفشين جعفراً وتركنا لأخذنا البذ، هذا لا يشتهي إلا المماطلة». فبلغه ذلك، وما كثر المطوعة فيه؛ ويتناولونه بألسنتهم، وأنه لا يحب المناجزة ـ وإنما يريد التطويل. حتى قال بعضهم إنه رأى في المنام: أن رسول الله ﷺ قال له: « قل للأفشين، إن أنت حاربت هذا الرجل، وجددت في أمره، وإلا أمرت الجبال ان ترجمك بالحجارة». فتحدث الناس بذلك في العسكر علانية. فبعث الأفشين الى رؤساء المطوعة، فأحضرهم، وقال لهم: « أحب ان تروني هذا الرجل، فإن الناس يرون في المنام أبواباً» فأتوه بالرجل في جماعة من الناس، فسلم عليه، فقربه الأفشين وأدناه وقال له: « قص علي رؤياك، لاتحتشم ولا تستحي، فإنما تؤدي». وقصّ الرجل ما رآه في المنام، فلمّا فرغ، قال له الأفشين: **« الله يعلم كل شيء قبل كل أحد، وما أريد بهذا الخلق. إن الله تبارك وتعالى لو أراد أن يأمر الجبال ان ترجم أحداً لرجم الكافر، وكفانا مؤنتة. كيف يرجمني حتى أكفيه مؤنة الكافر؟ كان يرجمه ولا يحتاج ان اقاتله أنا! وأنا اعلم ان الله عزّ وجلّ لا تخفى عليه خافية، فهو مطلع على قلبي، وما أريد بكم يا مساكين»**. فقال رجل من المطوعة من أهل الدين: « يا

أيها الأمير! لا تحرمنا شهادة إن كانت قد حضرت، وإنما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه. فدعنا وحدنا حتى نتقدم بعد أن يكون بأذنك، فلعل الله أن يفتح علينا» فردّ عليه الأفشين: «إني أرى نياتكم حاضرة، وأحسب هذا الأمر يريده الله، وهو خير إن شاءالله. وقد نشطتم ونشط الناس، والله أعلم ما كان هذا رأيي. وقد حدث الساعة لما سمعت من كلامكم، وأرجو ان يكون أراد هذا الأمر وهو خير. اعزموا على بركة الله أيَّ يوم أحببتم حتى نناهضهم؛ ولا حول ولا قوة إلاّ بالله!». فخرج القوم مستبشرين، وبشروا أصحابهم، فأقام من كان يريد الانصراف، ورجع من كان قد خرج وابتعد مسيرة أيام. ووعد الناس ليوم حدده، وأمر الجند والفرسان والمشاة ـ الرجالة ـ وجميع الناس بالأهبة والاستعداد. **وخرج الأفشين في الموعد، وحمل المال والزاد، ولم يبق في المعسكر بغل إلاّ ووضع عليه محمل للجرحى، وأخرج معه من المطببين ـ الاطباء ـ وحمل الكعك والسويق وغير ذلك مما يحتاج إليه، وزحف الناس حتى صعد ـ البذ ـ.** وخلف ـ بخاراخذاه ـ في موضعه الذي كان يخلفه عليه على العقبة، ثم طرح النطع ووضع له الكرسي، وجلس عليه كما كان يفعل. وقال لأبي دلف: «قل للمطوعة، أي ناحية هي أسهل عليكم فاقتصروا عليها». وقال لجعفر: «العسكر كله بين يديك، ورماة النشاب والنفاطون، فإن أردت رجالاً دفعتهم إليك، فخذ حاجتك وما تريد» فقال جعفر: «أريد أن أقصد الموضع الذي كنت عليه» فقال له الأفشين: «امض إليه». ودعا أبا سعيد فقال له: «قف بين يدي أنت وجميع أصحابك ها هنا، ولا يبرحنّ منكم احد» ودعا أحمد بن الخليل فقال له: «قف أنت وأصحابك، ودع جعفراً يعبر وجميع من معه من الرجال، فإن أراد رجالاً أو فرساناً أمددناه، ووجهنا بهم إليه».

انحدر أبو دلف والمطوعة الى الوادي، وصعدوا الى حائط البذ من الموضع الذي كانوا قد صعدوا عليه في المرة السابقة. وعلقوا بالحائط على حسب ما كانوا فعلوا ذلك اليوم، وحمل جعفر حملة قوية حتى ضرب باب البذ، على نحو ما كان قد فعل في المرة

السابقة أيضاً، ووقف على الباب. وقاوم الكفرة مقاومة ضارية طوال ساعة من الزمن، فوجّه الأفشين رجلاً معه بدرة دنانير، وقال له: «اذهب الى أصحاب جعفر، فقل، من تقدّم فاحث له ملء كعك». ودفع الأفشين بدرة أخرى الى رجل آخر من أصحابه، وقال له: «اذهب الى المطوعة، ومعك هذا المال والأطواق والأسورة، وقل لأبي دلف: كل من رأيته محسناً من المطوعة وغيرهم، فأعطهم». ونادى **صاحب الشراب** فقال له: «اذهب فتوسط الحرب معهم حتى أراك بعيني، معك السويق والماء، لئلا يعطش القوم فيحتاجوا الى الرجوع» وكذلك فعل بأصحاب جعفر في الماء والسويق، **ودعا الفعلة** ـ الكلغرية ـ فقال له: «من رأيته في وسط الحرب من المطوعة، وفي يده فأس، فله عندي خمسون درهماً» ودفع إليه بدرة دراهم ـ وفعل مثل ذلك بأصحاب جعفر، فوجه اليهم الفعلة بأيديهم الفؤوس.

اشتبكت الحرب على الباب طويلاً، ثم فتح الخرمية الباب، وخرجوا على أصحاب جعفر، فنحوهم عن الباب، وشدوا على المطوعة من الناحية الأخرى، فأخذوا منهم علمين وطرحوهم عن السور، وجرحوهم بالصخر حتى أثروا فيهم، وأرغموهم على التوقف. وصاح جعفر بأصحابه، فتقدم منهم مائة رجل تقريباً، فبركوا خلف تراسهم التي كانت معهم، وواقعوهم متحاجزين، لا يقدم هؤلاء على اولئك، ولا اولئك يستطيعون التقدم الى هؤلاء، وصلى الناس الظهر وهم على هذه الحال. وكان الأفشين قد نصب عرادة وراء جعفر ـ عند الباب ـ فدافع عنها جعفر حتى صارت العرادة فيما بينهم وبين الخرمية ولم يتمكن جعفر من تخليصها إلاّ بعد جهد، فاقتلعوها وردوها الى المعسكر. واستمر الاشتباك بالسهام والحجارة. وخاف الأفشين ان يطمع الخرمية بجنده، فوجه قوة المشاة حتى وصلت الى موضع المطوعة، وبعث الى جعفر بكتيبة من المشاة، فقال جعفر لقائد الكتيبة: «لست أوتى من قلة الرجالة، ومعي رجال فرة، ولكني لست أرى للحرب موضعاً يتقدمون. إنما هاهنا موضع لرجل أو رجلين قد وقفوا عليه. وانقطعت الحرب». ولما رأى الأفشين فشل الهجوم، أرسل الى جعفر:

« انصرف على بركة الله » . وبعث الأفشين بالبغال التي عليها المحامل، فحملت عليها الجرحى، ومن أصابه وهن من الحجارة فلم يتمكن من السير. وأمر الناس بالانصراف. فانصرفوا الى خندقهم - بروذ الروذ - وأيس الناس من الفتح تلك السنة. وانصرف اكثر المطوعة.

تجهز الأفشين بعد جمعتين، وبعث ألف رجل من المشاة - رماة النشاب - ودفع الى كل واحد منهم شكوة - قربة - وكعكاً. ودفع الى بعضهم اعلاماً سوداً وغير ذلك، وأرسلهم عند مغيب الشمس، وبعث معهم أدلاء، فساروا ليلتهم في جبال منكرة صعبة، حتى استداروا ووصلوا الى خلف التل الذي يحتله قائد بابك - آذين - وهو جبل شاهق، وأمرهم ألا يعلم بهم أحد، حتى إذا رأوا اعلام الأفشين، وصلوا الغداة ورأوا الوقعة، ركبوا تلك الأعلام في الرماح، وضربوا الطبول، وانحدروا من فوق الجبل، ورموا بالنشاب والصخر على الخرمية، وإن هم لم يروا الأعلام، لم يتحركوا حتى يأتيهم خبره، ففعلوا ذلك. ووصلوا رأس الجبل عند السحر. وملؤوا تلك الشكاء - القرب - بالماء من الوادي. ولما كان في بعض الليل، وجه الأفشين الى القادة ان يتهيؤوا في السلاح. فإنه سيركب في السحر. **ولما مضى جوف الليل، وجه قوة بقيادة بشير التركي ومعه قادة من الفراغنة - أهل مدينة فرغانة - وأمرهم بالسير حتى يصيروا تحت التل، مع أسفل الوادي الذي حمل منه الماء. وهو تحت الجبل الذي كان يحتله - آذين -.** وكان الأفشين يعرف بأن الكافر يكمن تحت ذلك الجبل. وتوجه بشير والفراغنة الى ذلك الموضع، وساروا في بعض الليل، ولا يعلم بهم اكثر أهل معسكر الأفشين. فلمّا كان السحر، خرج الأفشين، وأخرج الناس، وأخرج النفاطين والنفاطات والشمع: على نحو ما كان يفعله عادة. وصلى الغداة، وضرب الطبل، وركب حتى وصل الى الموضع الذي كان يقف فيه في كل مرة، وبسط له النطع، ووضع له الكرسي كعادته. ولم يقف - بخاراخذاه - عند العقبة، خلافاً لعادته، فقد أمره الأفشين بالسير في المقدمة. وأنكر الناس هذه التعبئة للوهلة الأولى. وأمر الأفشين قادته بالاقتراب من التل الذي يحتله

ـ آذين ـ للإحاطة به، وكان ينهاهم عن ذلك أيضاً في المرات السابقة. **فمضى الناس حتى صاروا حول التل، وكان جعفر الخياط وقوته، مما يلي باب البذ، وكان أبو سعيد مما يليه، وبخاراخذاه مما يلي أبا سعيد، وأحمد بن الخليل بن هشام مما يلي بخاراخذاه، فصاروا جميعاً حلقة حول التل،** وارتفعت الضجة من أسفل الوادي. وإذا الكمين الذي تحت التل حيث كان يقف ـ آذين ـ وقد وثب ببشير التركي والفراغنة، فحاربوهم واشتبكت الحرب بينهم. وسمع أهل العسكر ضجتهم، فتحرك الناس، فأمر الأفشين ان ينادوا: «**أيها الناس! هذا بشير التركي والفراغنة، وقد اصطدموا بكمين فلا تتحركوا**». ولما سمع المشاة ـ رماة النشاب ـ ضجيج المعركة، وقفوا في أماكنهم فوق الجبل، وركبو الأعلام كما أمرهم الأفشين، فنظر الناس الى أعلام تجيء من جبل شاهق، ومعها رجال ينحدرون من فوقهم يريدون ـ آذين ـ. وفزع الناس لأول وهلة، فأرسل إليهم الأفشين من يطمئنهم ويقول لهم: «**أولئك هم رجالنا ونجدتنا على آذين**». ولما رأى ـ آذين ـ الرجال وهم ينحدرون من أعالي الجبل، أرسل إليهم بعض رجاله من الخرمية، فاشتبكوا معهم. وحمل جعفر الخياط وأصحابه على آذين وأصحابه حتى صعدوا إليهم، وحملوا عليهم حملة واحدة، فقلبوه وأصحابه في الوادي. وتوجهت قوة من رجال أبي سعيد، فوقعت مع خيولها في أبار محفورة قد أعدها ـ آذين ـ مسبقاً، فوجّه الأفشين الفعلة ـ الكلغرية ـ لاقتلاع حيطان المنازل وردم تلك الآبار، ففعلوا، وكان آذين قد أعد عجلاً فوق الجبل وعليه صخر، فلما حمل الناس عليه، دفع العجل على الناس، فأفرجوا عنها حتى تدحرجت ثم عادوا فحملوا على آذين من كل وجه. ورأى بابك أصحابه وقد أحيط بهم، فأسرع بالخروج من البذ ومعه جماعة، يسألون عن مكان الأفشين، ويطلبون مقابلته، واستقبله الأفشين فقال بابك: «أريد الأمان من أمير المؤمنين». فقال له الأفشين: «قد عرضت عليك هذا، وهو مبذول متى شئت» وأجاب بابك: «قد شئت الآن على ان تؤجلني أجلاً أحمل فيه عيالي وأتجهز». فقال له الأفشين: «قد والله نصحتك غير مرة، فلم تقبل نصيحتي، وأنا انصحك الساعة، خروجك اليوم في الأمان خير من غد» وأجاب

بابك: « قد قبلت أيها الأمير، وأنا على ذلك » فقال له الأفشين: « فابعث بالرهائن الذين كنت سألتك » وأجاب بابك: « نعم، أما فلان وفلان، فهم على ذلك التل، فمر أصحابك بالتوقف ». وبعث الأفشين رسولاً من قبله لإيقاف الإقتتال، فرجع الرسول بسرعة، وقال للأفشين، بأن أعلام الفراغنة قد ارتفعت على بيوت البذ، وعلى قصور بابك. فركب الأفشين، وصاح بالناس، فدخل البذ ودخلوا. وكان بابك قد كمَّن في قصوره (وهي أربعة) ستمائة رجل، فوافوهم الناس. وصعدوا فوق القصور. وامتلأت شوارع البذ وميدانها بالناس، وفتح أولئك الكمناء أبواب القصور، وخرجوا للقتال. وأفاد بابك من ذلك، فدخل الوادي الذي يلي - هشتادسر - واشتغل الأفشين وجميع قواده بالحرب على أبواب القصور. فقاتل الخرمية قتالاً شديداً، وأحضر النفاطين، فجعلوا يصبون عليهم النفط والنار، والناس يهدمون القصور، حتى قتلوا عن آخرهم. وأخذ الأفشين أولاد بابك ومن كان معهم من عيالاتهم في البذ، واستمروا في ذلك حتى أدركهم المساء، فأمر الأفشين بالإنصراف، فانصرفوا. وبقي عامة الخرمية في البيوت، ورجع الأفشين وجنده الى خندقهم - بروذ الروذ -. وعلم بابك، ان الأفشين قد رجع الى خندقه، فعاد الى البذ، وحمل وأصحابه من الزاد ما امكنهم حمله، وحملوا أموالهم، ثم توجهوا الى الوادي الذي يلي هشتادسر. فلما كان في الغد، خرج الأفشين من خندقه، ودخل البذ، وأمر بهدم القصور، ووجه قوات المشاة لارتياد أطراف البلدة والطواف بها، فلم يجدوا فيها أحداً من الخرمية. فأصعد الفعلة، فهدموا القصور وأحرقوها، وتابع ذلك لمدة ثلاثة أيام الى ان تمّ إحراق كافة القصور، ولم يدع في البذ بيتاً ولا قصراً إلا أحرقه وهدّمه. وأيقن ان بابك قد هرب ووصل الى واد يصل به الى أرمينية. فكتب الى ملوك أرمينية وبطارقتها، وأعلمهم أن بابك قد هرب ومعه بعض أصحابه الى واد يخرج به الى ناحية أرمينية. وهو قد يمر بكم، وأمرهم ان يحفظ كل واحد منهم ناحيته، وجاء الجواسيس الى الأفشين، فأخبروه بموضعه في الوادي، وكان وادياً كثير العشب والشجر، طرفه بأذربيجان وطرفه الآخر بأرمينية. ولم يكن باستطاعة الخيل النزول إليه او التجول فيه، وكان من المحال العثور على من يختفي فيه لكثرة شجره ومياهه؛ وكان الوادي يشكل غابة واحدة متصلة.

ونظم الأفشين خمس عشر كتيبة ـ كـردوسـاً ـ في كـل منهـا أربعمائـة الى خمسمائة مقاتل، ووضع كتيبة عند كل موضع يعلم ان فيه طريقاً ينحدر الى تلك الغابة؛ أو يمكن لبابك أن يخرج منه، ووجه معهم عناصر الاستطلاع والإدلاء لمساعدتهم، وأمرهم بحراسة الطريق في الليل خاصة حتى لا يخرج منه أحد، وكان يرسل لكل كتيبة ما تحتاجه من المواد التموينية. واستمروا في ذلك حتى وصل كتاب من أمير المؤمنين المعتصم، مختوماً بالذهب، وفيه ـ **أمان لبابك** ـ فدعا الأفشين من كان استأمن إليه من أصحاب بابك، وفيهم ابن له كبير هو أكبر ولده ـ فقال له وللأسرى: **«هذا ما لم أكن أرجوه من أمير المؤمنين، ولا أطمع له فيه، وأن يكتب إليه وهو في هذه الحال بأمان، فمن يأخذه منكم ويذهب به إليه؟»**. فلم يجسر على ذلك أحد منهم، ثم قال أحدهم: «أيها الأمير! ما فينا أحد يجترىء أن يلقاه بهذا» فقال له الأفشين: «ويحك! إنه يفرح بهذا» فقال الرجل: «أصلح الله الأمير! نحن أعرف بهذا منك» وعندها قال الأفشين: «لا بد لكم من أن تهبوا لي أنفسكم، وتوصلوا هذا الكتاب إليه». فقام رجلان منهم، فقالا له: «اضمن لنا أنك تجري على عيالاتنا» فضمن لهما الأفشين ذلك، وأخذا الكتاب وتوجها، وطافا كثيراً في الغابات حتى أمكن لهما العثور عليه. فدفعا إليه كتاب الأمان ـ وكتاباً من ابنه كان قد كتبه له وطلب فيه إليه قبول الأمان لأن ذلك له أفضل وأخير. فقرأ بابك كتاب ابنه ثم التفت الى الرجلين. وقال لهما: «وماذا كنتم تصنعون؟» فقالا له: «أسر عيالتنا وصبياننا في تلك الليلة، ولم نعرف موضعك فنأتيك، وكنا في موضع تخوفنا ان يأخذونا، فطلبنا الأمان» فقال بابك لمن حمل له الكتاب: «هذا لا أعرفه، ولكن انت يا ابن الفاعلة، كيف اجترأت على هذا ان تجيئني من عند ذاك ابن الفاعلة؟». فأخذه وضرب عنقه، وشدّ كتاب الأمان على صدره مختوماً لم يفضه، ثم قال للآخر: «اذهب، وقل لذاك ابن الفاعلة ـ يقصد ابنه». وكتب اليه: «**لو أنك لحقت بي، واتبعت دعوتك حتى يجيئك الأمر يوماً، كنت ابني. وقد صحّ عندي الساعة فساد أمك الفاعلة، يا ابن الفاعلة! عسى أن أعيش بعد اليوم! قد كنت باسم هذه الرياسة، وحيثما كنت أو ذكرت، كنت ملكاً، ولكنك من جنس لا خير**

فيه. وأنا أشهد أنك لست بابني. لأن تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس، خير من أن تعيش أربعين سنة وأنت عبد ذليل!». وارتحل بابك من موضعه، وأرسل مع الرجل ثلاثة من أتباعه حتى وصلوا به الى مكان يوصله الى معسكر الأفشين، وعادوا فالتحقوا ببابك الذي مضى يضرب في الغابات، وعيون الأفشين تطارده، والأرض تضيق من حوله، حتى عرفه قائد أحد الحصون، فاستضافه، وتظاهر أنه من أشد أتباعه إخلاصاً له وحرصاً على خدمته وسلامته، حتى إذا ما استأمن، واستأنس، قام قائد الحصن بتسليمه الى جند الأفشين. وكان يوماً مشهوداً في معسكر الأفشين، عندما حمل بابك الى المعسكر، حيث اصطف الجند لرؤية هذا الذي طالما أتعب الجند وأرهقهم. وكتب الأفشين الى المعتصم بـأخذ بابك وأخاه، فكتب المعتصم إليه يأمره بحملهما الى بغداد (*) وخرجت عاصمة بني العباس لرؤية بابك، وقد حمل على فيل (**). ووضع في قباء ديباج وقلنسوة سمور مدوّرة. وأحضر المعتصم جزّاراً فقطع يديه ورجليه وشقّ بطنه وحمل رأسه الى خراسان وصلب بدنه بسامرا. وأمر بحمل أخيه ـ عبدالله ـ الى مدينة السلام. وضرب عنقه، وأن يفعل به مثل ما فعل بأخيه ـ وانتهت الثورة التي طالما أرهقت أمير المؤمنين المعتصم، وأقلقت دولته. لعل ممّا يظهر

لعل ممّا يظهر مدى اهتمام المعتصم بأمر بابك، هو تنظيمه للبريد من أجل الحصول على أخبار بابك وللتغلب على فساد الطريق بالثلج وغيره. فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلاً مضمرة، على رأس كل فرسخ فرساً معه مجر مرتب. فكان يركض بالخبر ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يداً بيد، وكان ما خلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه الفرسان، فكانت تركض بها يوماً أو يومين، ثم تبدل بغيرها، ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج، كل دابة على رأس فرسخ. وجعل لهم مراصد على

(*) انظر عنوان ـ عمورية المعتصم والعودة للهدوء ـ بشأن أصل بابك والخرمية.

(**) وفي ذلك قال الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات:

قد خضب الفيل كعاداته ... يحمل شيطان خراسان.
والفيل لا تخضب أعضاؤه ... إلا لذي شأن من الشان.

رؤوس الجبال بالليل والنهار، وأمرهم بضرب النفير إذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذي يليه النفير، تهيأ، فلا يصل إليه صاحبه حتى يكون قد وقف له في الطريق، فيأخذ الخريطة منه ـ الرسالة ـ ويسير بها مسرعاً، فكانت الخريطة تصل الى معسكر الأفشين إلى سامراء في أربعة أيام أو أقل.

عبر المعتصم للأفشين عن تقديره لانتصاره بأن كان يرسل له كل يوم ـ منذ غادر برزند وحتى وصل الى سامرا ـ فرساً وخلعة. وعندما وصل الافشين الى سامرا، توجّه المعتصم، وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم يفرقها في أهل عسكره، وعينه والياً على ـ السند ـ وأدخل عليه الشعراء يمدحونه، وأمر للشعراء بصلات وهبات كثيرة(*).

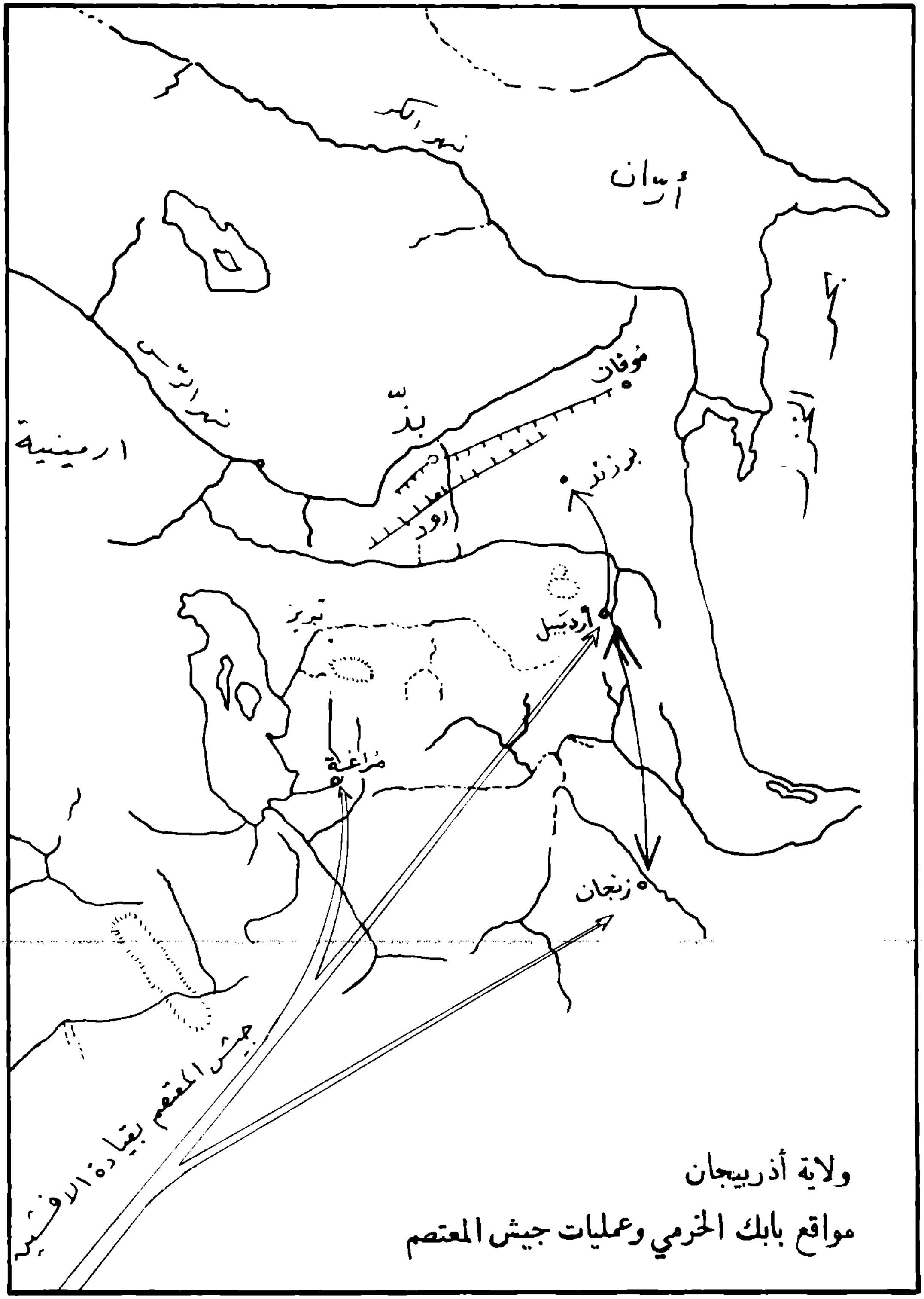
كان الأفشين في مقامه بإزاء بابك ـ ينفق في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم، سوى الأرزاق والأنزال والمعاون.

قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة انسان، وانتصر على عدد كبير من القادة، منهم: يحيى بن معاذ، وعيسى بن محمد بن أبي خالد، وأحمد بن الجنيد، كما أسر عدداً آخر من قادة المعتصم، منهم: زريق بن علي بن صدقة، ومحمد بن حميد الطوسي، وابراهيم بن الليث. وقد أسر ـ الأفشين ـ عندما أسر بابك، ثلاثة آلاف وثلاثمائة وتسعة رجال. واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة انسان.

(*) كان مما قيل فيه قصيدة القاها أبو تمام الطائي ومنها:

بَذَّ الجلادُ البذَّ فهو دفينُ	ما إن بها إلا الوحوش قطين
لم يُقْر هذا السيف، هذا الصبر في	هَيْجاء إلا عزّ هذا الدين
قد كان عُذرة سُودد فافتضها	بالسيف فحل المشرق الأفشين
فأعادها، تعوي الثعالب وسطها	ولقد ترى بالأمس وهي عرين.
هطلت عليها من جاجم أهلها	دِيَمٌ أمارتها طلى وشؤون
كانت من المهَجات قبل مفازة	عسراً، فأضحت وهي منه معين

ديوان أبي تمام ٣١٦/٣ وتاريخ الطبري وابن الأثير ـ احداث سنة ٢٢٣.



ولاية أذربيجان

مواقع بابك الخرمي وعمليات جيش المعتصم

٥ ـ ثورة الزنج ٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ.

أ ـ انتصارات الزنج وإحراق البصرة.

ب ـ الصراع المرير لانتزاع النصر.

ج ـ الأيام الأخيرة والنصر الحاسم.

د ـ مع الشعر ـ في نهاية ثورة الزنج.

٥ ـ ثورة الزنج ٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ.

لقد استقطبت هذه الثورة ـ ثورة الزنج ـ اهتمام الباحثين في الأزمنة الحديثة، وأعطيت لها تفسيرات كثيرة، وحملت أبعاداً ومضامين لم تكن لها. وقد يكون من الضروري التعرض لبعض تفاصيلها، في محاولة لطرح ظروف هذه الثورة بصورتها الحقيقية والواقعية.

ظهر في فرات البصرة (في النصف الثاني من العام ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) رجل زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وجمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ، ثم عبر دجلة فنزل ـ الايناري ـ. ثم ذكر أن اسمه ونسبه هو: علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس، وأمه قرة ابنة علي بن رحيب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة. وذكر عن هذا الرجل أنه قال: «جدي هو محمد بن حكيم من أهل الكوفة، أحد الخارجين مع زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد الملك، فلما قتل زيد، هرب فلحق بالري، ولجأ إلى قرية اسمها ـ ورزنين ـ فأقام بها. وأن أبا أبيه عبد الرحيم هو رجل من عبد القيس. كان مولده بالطالقان، وأنه قدم على العراق فأقام بها، واشترى جارية سندية، فأولدها أباه محمداً، وأنه كان متصلاً قبل بجماعة من آل المنتصر. وكان منهم معاشه، ومن قوم من أصحاب السلطان وكتابه، يمدحهم ويستميحهم بشعره. ثم إنه توجه من سامرا الى البحرين، فادعى أنه: علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب. ودعا الناس بهجر الى طاعة، واتبعه جماعة كثيرة من أهلها، وقاومته جماعة أخرى. فكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين قاوموه عصبية، قتلت بينهم جماعة. فانتقل عنهم لما حدث ذلك الى الأحساء. ولجأ الى حي من بني تميم، ثم من بني سعد، يقال لهم بنو الشماس، فكان بينهم مقامه. وقد كان أهل البحرين أحلوه من أنفسهم محل النبي ـ فيما ذكر ـ حتى جبي له الخراج هنالك، ونفذ حكمه

بينهم، وقاتلوا عمال السلطان بسببه، ووتر منهم جماعة كثيرة، فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية؛ وبرفقته جماعة من أهل البحرين. وأوهم أهل البادية أنه: يحيى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة، فاختدع بذلك قوماً منهم جماعة كثيرة، حتى اجتمع بها منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم الى موضع بالبحرين يقال له ـ الردم ـ فكانت بينهم وقعة عظيمة، كانت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه، وقتلوا فيها قتلاً ذريعاً، فنفرت عنه العرب وكرهته وتجنبت صحبته». فلما تفرقت عنه العرب، ونبت به البادية، شخص عنها إلى البصرة. فنزل بها في ـ بني ضبيعة ـ فاتبعه بها جماعة منهم علي بن أبان المعروف بالمهلبي وأخواه محمد والخليل وغيرهم. وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ هـ = ٩٦٩ م. ووافق وصوله اليها وقوع فتنة أهل البصرة بالبلالية والسعدية. فطمع في أحد الفريقين أن يميل إليه، فأمر أربعة نفر من أصحابه بالتوجه إلى مسجد عباد، فقام هؤلاء بالدعوة له، فلم يلتفت أحد إليه من أهل البلد. وتنبه الجند لأمرهم، فحاولوا إلقاء القبض عليهم، فتفرقوا. وخرج ـ علي بن محمد ـ من البصرة هارباً، وعلم والي البصرة ـ محمد بن رجاء ـ بأمره، فبحث عنه، ولما لم يجده ألقى القبض على جماعة كانوا يميلون لدعوته؛ وحبسهم. وكان فيمن حبسهم ابن صاحب الزنج علي بن محمد الاكبر، وزوجته أم ابنه ومعها ابنة له وجارية حامل. ومضى صاحب الزنج لوجهه يريد بغداد، ومعه بعض أصحابه، فلما وصلوا الى البطيحة، ألقى عليهم حاكم البطيحة ـ عمير بن عمار ـ القبض، واقتادهم الى امير واسط ـ محمد بن أبي عون ـ. ولكن صاحب الزنج احتال على ابن أبي العون الذي أطلق سراحه وسراح أصحابه، فمضوا الى مدينة السلام، فأقاموا بها حولاً. وانتسب صاحب الزنج في هذه الفترة الى ـ أحمد بن عيسى بن زيد ـ وزعم أنه قد ظهرت له خلال فترة إقامته هذه آيات، وعرف ما في ضمائر أصحابه، وما يفعله كل واحد منهم، وأنه سأل ربه بها آية أن يعلم حقيقة أمره، فرأى كتاباً يكتب له، وهو ينظر إليه على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

أفاد ـ صاحب الزنج ـ من إقامته بمدينة السلام، فاستمال جماعة من أهلها. وحدث بعد ذلك أن عزل محمد بن رجاء عن ولاية البصرة، فتجددت الفتنة، ووثب رؤساء

البلالية والسعدية فمضوا إلى السجن، وأطلقوا سراح السجناء، وفيهم أهل صاحب الزنج الذي أسرع بالعودة - وأصحابه - الى البصرة. فوصلها في شهر رمضان (سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) وهنا انضم اليه أول رجل من الزنج واسمه - ريحان بن صالح - وقد ذكر هذا قصة التحاقه بصاحب الزنج فقال: «كنت موكلاً بغلمان مولاي - من الشورجيين أصحاب المطاحن - وكنت أنقل الدقيق إليهم من البصرة وأفرقه فيهم. فحملت ذلك إليهم كما كنت أفعل، فمررت به وهو مقيم ببرنخل - في قصر القرشي - فأخذني أصحابه، فصاروا بي إليه، وأمروني بالتسليم عليه بالامارة، ففعلت ذلك، فسألني عن الموضع الذي جئت منه، فأخبرته اني أقبلت من البصرة. فقال: هل سمعت لنا بالبصرة خبراً؟ قلت: لا. قال: فما خبر الزينبي؟ وأجبته: لا علم لي به. وعاد فسألني: فما هو خبر البلالية والسعدية؟ وأجبته: إنني لا أعرف أخبارهم أيضاً. فسألني عن أخبار عمال الطواحين - الشورجيين - وما يتقاضاه كل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر، وعمن يعمل في المطحنة - الشورج - من الأحرار والعبيد. فأعلمته ذلك. فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبته. فقال لي: احتل فيمن قدرت عليه من الغلمان، وأقبل بهم. ووعدني أن يسند لي قيادة من آتيه به منهم، وأن يحسن إلي؛ واستحلفني ألا أعلم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه. وخلى سبيلي. فأتيت بالدقيق الذي معي إلى الموضع الذي كنت قصدته به. وأقمت عنده يومي، ثم رجعت إليه من غد. ومعي رفيق غلام ووافاه هذا بغلام آخر، وبقماش من الحرير، طلبها ليصنع منها لواء. فكتب عليها بحمرة وخضرة: ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بأن لَهُم الجَنَّةَ يُقاتِلونَ في سَبيلِ ٱللهِ فَيَقْتُلونَ وَيُقْتَلونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً في التَوْراةِ وَالإِنْجيلِ وَٱلْقُرآن. وَمَنْ أَوْفى بعهده مِنَ ٱللهِ. فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذي بايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (*) وكتب اسمه واسم أبيه وعلقها في رأس سارية. وخرج في السحر، فلما وصل إلى مؤخر القصر الذي كان فيه، لقيه غلمان رجل من أصحاب الطواحين متوجهين إلى أعمالهم، فأمر بأخذهم، فأخذوا. وقيد وكيلهم وأخُذ معهم، وكانوا خمسين غلاماً، ثم وصل إلى موضع آخر فأخذ منه خمسمائة غلام، وأمر بوكيلهم

(*) سورة التوبة - الآية ١١١ - الجزء الحادي عشر.

فأخذ معهم مقيداً، ثم مضى إلى موضع ـ السيرافي ـ فأخذ منه خمسين ومائة غلام، وأخذ من موضع آخر ثمانين غلاماً. ولم يزل يفعل ذلك طوال يومه حتى اجتمع اليه بشر كثير من الغلمان. **ثم جمعهم وقام فيهم خطيباً، فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الأموال. وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم، وألا يخذلهم، وألا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم. ثم دعا مواليهم، فقال لهم: قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون. فكلمني أصحابي فيكم. فرأيت إطلاقكم. فقال هؤلاء له: إن هؤلاء الغلمان أباق، وهم يهربون منك فلا يبقون عليك ولا علينا. فخذ منا مالاً وأطلقهم لنا، فأمر غلمانهم فأحضروا سعفاً من النخل، ثم بطح كل قوم مولاهم ووكيلهم، فضرب كل رجل منهم خمسمائة ضربة. وأحلفهم بطلاق نسائهم ألا يعلموا أحداً بموضعه، ولا بعدد أصحابه، وأطلقهم فمضوا نحو البصرة. ومضى رجل منهم حتى عبر ـ رافد دجيل ـ فأنذر أصحاب الغلمان ليحرسوا غلمانهم ويحرصوا عليهم. وكان هناك خمسة عشر ألف غلام في البصرة.**

سار صاحب الزنج حتى وافى دجيلاً، فوجد سفناً تدخل في المد، فقدمها وركب فيها وأصحابه حتى عبروا دجيلاً ووصلوا الى نهر ميمون. فنزل المسجد الذي في وسط السوق الشارع ـ على نهر ميمون ـ وأقام هناك، ولم يزل ذلك دأبه، يجتمع إليه السودان حتى يوم الفطر (من سنة ٢٥٥ هـ) فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لصلاة العيد، فاجتمعوا، ورفع اللواء، وصلى بهم وخطب خطبة: **ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك. فلما فرغ من صلاته وخطبته، أمر الذين فهموا عنه قوله أن يفهموه من لا فهم له من عجمهم، لتطيب بذلك أنفسهم، ففعلوا ذلك.** ودخل القصر، فلما كان اليوم التالي، توجه الى ـ نهر برو ـ حيث كانت قوة من جماعته تقاتل قائد جند البصرة، وأمكن لهم دفعهم حتى أخرجوهم الى الصحراء، ولحق بهم صاحب

الزنج فيمن معه، فطارد الحميري ـ قائد جند البصرة ـ وأصحابه حتى بطن دجلة. واستأمن إليه رجل من رؤساء الزنج ومعه ثلاثمائة من الزنج فمناهم ووعدهم. ولما كثر من اجتمع إليه من الزنج، نظمهم، وعين لهم قادتهم، وقال لهم: «كل من جاء منكم برجل فهو مضموم إليه». فحرص كل قائد على أن يزيد من عدد جنده، لترتفع مكانته.

كان والي واسط ـ ابن أبي عون ـ قد نقل عن ولاية واسط إلى ولاية ـ الأبلة ودجلة ـ فوجه قوة بقيادة الحميري وعقيل لقتال صاحب الزنج، فلما عرف هذا بالأمر، قاد جماعته الى ـ الرزيقية وهي في مؤخر الباذاورد ـ ووصلها وقت صلاة الظهر، فصلوا بها واستعدوا للقتال، وعندما لم يتعرض له أحد، عاد وجماعته نحو ـ المحمدية ـ وانتشرت جماعته على النهر. وأعلمه قائد مؤخرة قواته أنه شعر بوجود قوة تطارده. ولكنه لم يكد ينهي حديثه، حتى تنادى الزنج ـ الى السلاح ـ.

كان موالي الزنج ـ الشورجية ـ قد جمعوا زهاء أربعة آلاف رجل ـ وخرجوا لاسترداد مواليهم، وباغتوا صاحب الزنج وجنده، ووقعت معركة انتصر فيها الزنج، وانهزم خصومهم على وجوههم، وقتل من قتل منهم، ومات بعضهم عطشاً، وأسر منهم قوم، حملوا إلى صاحب الزنج فأمر بضرب اعناقهم، فقتلوا. وحملت الرؤوس على بغال كانت مع أصحاب موالي الزنج، ومضى صاحب الزنج حتى وصل ـ القادسية ـ وخرج من القرية رجل من موالي بعض الهاشميين، فقتل رجلاً من أصحابه الزنج، فأراد أصحابه اجتياح القرية ونهبها والثأر لقاتل الزنجي. فقال لهم صاحب الزنج: **«لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم، ونسألهم أن يدفعوه لنا، فإن فعلوا وإلا ساغ لنا قتالهم»**. وأعجلهم المسير حتى وصلوا إلى نهر ميمون راجعين. فأقام في المسجد الذي كان أقام في بدأته. وأمر بالرؤوس المحمولة معه، فنصبت، وأمر بالأذان، فقام صلى بأصحابه العشاء الآخرة، وسلم عليه بالامارة. وبات ليلته، ثم مضى من الغد حتى مر بالكرخ فطواها، ووصل إلى قرية اسمها ـ جبى ـ في وقت صلاة الظهر، فعبر دجيلاً من مخاضة حددها له الأدلاء. ولم يدخل القرية بل أقام خارجاً منها، وأرسل إلى من فيها، فأتاه كبراؤهم وكبراء أهل

الكرخ، فأمرهم بإعداد الطعام له ولأصحابه. فأقيم له ما أراد، وبات عندهم ليلته تلك، فلما أصبح، أهدى له رجل من أهل ـ جبى ـ فرساً كمیتاً، فركبه، وسار حتى وصل الى الرافد المعروف ـ بالعباسي العتيق ـ فأخذ دليلاً إلى ـ السيب ـ وهو نهر القرية المعروفة باسم ـ **الجعفرية** ـ ولما علم به أهل القرية، هربوا عنها، ودخلها، وتفرق أصحابه في القرية. فأتوه برجل وجدوه فسأله عن وكلاء الهاشميين. فأخبره أنهم في الأجمة. فأرسل اليهم قائد جنده ـ رجل اسمه **ابو يعقوب ولقب نفسه بجربان** ـ فأتاهم برئيسهم وهو يحيى بن يحيى المعروف بالزبيري، فسأله عن المال، فأنكر ما عنده، فهدده بالقتل، فأقر بما كان قد أخفاه، ووجه معه من أخذ منه مائتي دينار وخمسين ديناراً وألف درهم. ثم سأله عن خيول الهاشميين، فدله على ثلاثة براذين: كميت وأشقر وأشهب. فأخذها وأعطاها لأصحابه. وعثر الزنج على سلاح في دار لبعض بني هاشم فانتهبوه، فصار في أيدي الزنج سيوف وتراس وبالات ورماح. وبات صاحب الزنج ليلته تلك بالسيب. فلما أصبح علم أن قوات من ناحية دجلة والأبلة تتجمع ضده، فوجه قوة من خمسمائة رجل، فلقوا القوم، فهزموهم، وأخذوا أسلحتهم، وسار من غده يريد الوصول الى ـ المذار ـ بعد أن اتخذ على أهل الجعفرية عهداً ألا يقاتلوه، ولا يعينوا عليه أحداً، ولا يستروا عنه أمراً، فلما عبر ـ السيب ـ وصل الى قرية تعرف باسم ـ قرية اليهود ـ شارعة على دجلة. فاصطدم هناك بقوة تحت قيادة قائد ناحية الأبلة ودجلة ـ اسمه رميس ـ فحاربهم، وأسر منهم جماعة وعقر منهم جماعة بالنشاب. وضرب أعناق بعض الاسرى. وتابع سيره، وعبر النهر المعروف ـ بباب مداد ـ وضرب في الصحراء، فنشر أصحابه فيها، ونظم الحراسة والمراقبة وسير مفارز الاستطلاع. وأقام مركزه على تل اسمه ـ جبل الشياطين ـ بجواره بستان، فأقام مقر قيادته فيه.

وجه قائد قوات الأبلة ودجلة ـ رميس ـ رسالة مع أحد رجال صاحب الزنج، قال له فيها: **«أنت آمن على نفسك حيث سلكت من الأرض، لا يعرض لك أحد، واردد هؤلاء العبيد على مواليهم، وآخذ لك على كل رأس خمسة دنانير»**. فغضب صاحب الزنج لما سمع الرسالة، وآلى ليرجعن فليبقرن بطن امرأة رميس،

وليحرقن داره، وليخوضن الدماء هنالك. فعاد الرسول وأبلغ رميساً ما قاله صاحب الزنج.

بينما كان صاحب الزنج على وشك متابعة السير نحو المذار، جاءه رجل من كبار أعوانه ـ اسمه ابراهيم بن جعفر المعروف بالهمذاني ـ وحمل له رسائل، فلما صلى العشاة الآخرة، قرأها، وعندما فرغ من ذلك، قال له ابراهيم: «ليس من الرأي أن تذهب إلى المذار!» فسأله صاحب الزنج: فما الرأي؟ فقال له ابراهيم: **«ترجع! فقد بايع لك أهل عبادان وميان روذان وسليمانان، وخلفت جمعاً من البلالية بفوهة القندل وأبرسان ينتظرونك»**. فلما سمع السودان ذلك من قول ابراهيم، مع ما كان ـ رميس ـ قد عرضه عليه في ذلك اليوم، خافوا أن يكون صاحبهم قد احتال عليهم ليردهم إلى مواليهم، فهرب بعضهم، واضطرب الباقون. فأسرع صاحب الزنج فجمعهم، وميز الزنج من الفراتية ـ أهل الفرات ـ ثم أمر **مصلحاً** أن يعلمهم، أنه لا يردهم، ولا أحداً منهم، إلى مواليهم، وحلف لهم على ذلك بالأيمان الغلاظ، وقال: ليحط بي منكم جماعة، فإن أحسوا مني غدراً فتكوا بي. ثم جمع الباقين **وهم الفراتية والقرماطية والنوبة وغيرهم ممن يفصح بلسان العرب، فتحدث هو إليهم،** وحلف لهم بمثل ما حلف للسودان، وضمن ووثق من نفسه. وقال لهم: «ها أنا ذا معكم في كل حرب، أشرككم فيها بيدي، وأخاطر معكم فيها بنفسي» فرضوا ودعوا له بخير. فلما أسحر، أمر بنفخ بوق الاجتماع، وسار بأصحابه راجعاً حتى وصل إلى ـ السيب ـ. فلقي هناك قوات والي الأبلة ونواحي دجلة ـ محمد بن أبي عون ـ. فتقدم إليه قائدها، وقال له: **«لم يكن جزاء صاحبنا منك أن تفسد عليه عمله. وقد كان منه إليك ما قد علمت بواسط»**. مشيراً بذلك إلى الفرصة التي منحها لصاحب الزنج عندما أطلق سراحه، فرد صاحب الزنج على قوله: **«لم آت لقتالكم، فقل لأصحابك يوسعوا لي في الطريق حتى أجاوزكم»**.

عبر صاحب الزنج وجنده نهر السيب، ووصل إلى دجلة، ولم يلبث أن جاء الجند، ومعهم أهل ـ الجعفرية ـ وهم يحملون السلاح، فتقدم إليهم قائد جيش الزنج ـ أبو يعقوب المعروف بجربان ـ وقال لهم: «يا أهل الجعفرية! أما علمتم ما أعطيتمونا من

الأيمان المغلظة ألا تقاتلونا، ولا تعينوا علينا أحداً، وأن تعينونا متى اجتاز بكم أحد منا!». فارتفعت أصواتهم بالصخب والضجيج، ورموه بالحجارة والنشاب. وكان هناك موضع فيه زهاء ثلاثمائة زرنوق ـ زورق نهري ـ فأمر بها، فأخذت، وربط بعضها ببعض حتى صارت جسراً عائماً. وطرحت في النهر، وعبر عليها الزنج، ووضعوا السيف بأهل الجعفرية، فقتل منهم خلق كثير، وأتى منهم بأسرى، فوبخهم صاحب الزنج وخلى سبيلهم، وكان بعض الزنج قد دخلوا الجعفرية وأخذوا في النهب، فأرسل صاحب الزنج رجلاً خاطبهم بلغتهم. ونادى بهم: **«ألا برئت الذمة ممن انتهب شيئاً من هذه القرية، أو سبى منها أحداً، فمن فعل ذلك فقد حلت به العقوبة الموجعة»**.

عبر صاحب الزنج وجيشه من غربي ـ السيب ـ إلى شرقيه، وسار حتى وصل إلى نهر فريد، وجاءه قوم من ناحية قرية ـ **القفص** ـ من بني عجل، فعرضوا عليه أنفسهم، وبذلوا له ما لديهم فجزاهم خيراً، وأمر بعدم التعرض لهم. وسار حتى أتى نهر ـ **باقثا** ـ فجاءه أهل ـ **الكرخ** ـ فسلموا عليه، ودعوا له بخير، وأمدوه بما أراد من التموين والأموال وسواها. **وجاءه رجل يهودي ـ خيبري ـ يقال له ـ ماندويه ـ فقبل يده، وسجد له شاكراً لرؤيته إياه. ثم سأله عن مسائل كثيرة، فأجابه عنها. وزعم أنه يجد صفته في التوراة، وأنه يرغب في القتال معه، وسأله عن علامات في بدنه، ذكر أنه عرفها فيه ـ فأقام معه ليلته تلك يحادثه.**

كان من عادة صاحب الزنج أنه إذا نزل للمبيت، اعتزل بستة من أصحابه هم أركان قيادته، وعين قوة لحراسة معسكره بقيادة ـ محمد بن سلم ـ فلما كانت تلك الليلة، أتاه آخر الليل رجل من أهل الكرخ، فأعلمه أن أهل ناحية المفتح والقرى المتصلة بها، وأهل الأبلة وأهل الفرات قد جاؤوه بجموعهم وهم يحملون السلاح ـ بقيادة رميس ـ وأنهم وصلوا إلى قنطرة نهر ميمون فقطعوها ليمنعوه العبور. فلما أصبح، جمع الزنج، وعبر بهم دجيل، وسار من خلف الكرخ، حتى وصل نهر ميمون. فوجد القنطرة مقطوعة، والناس في شرقي النهر، والزوارق ـ السميريات ـ في بطنه وهي تحمل المقاتلين. فأمر أصحابه بالابتعاد عن النهر مقدار مائة ذراع تجنباً من

الاصابة بالسهام ـ النشاب ـ. وأرسل قوة الى ـ الكرخ ـ فكمنوا فيها، واختفوا عن الأنظار، فلما أحسوا خروج من خرج منهم، انقضوا عليهم، فأسروا اثنين وعشرين رجلاً، وساروا في أثر الآخرين، فقتلوا منهم جماعة على شاطىء النهر، ورجعوا إليه بالرؤوس والأسرى، فأمر بضرب أعناقهم بعد مناظرة جرت بينه وبينهم، وأمر بالاحتفاظ بالرؤوس، وأقام إلى نصف النهار، فأتاه رجل من أهل البادية مستأمناً، فسأله عن غور النهر، فأعلمه أنه يعرف موضعاً منه يخاض، فنهض مع الرجل، حتى وصل إلى موضع على بعد مسافة ميل من قرية ـ المحمدية ـ فخاض وجنده بالنهر إلى شرقي النهر، وانحدر راجعاً نحو نهر ميمون: حتى جاء المسجد فنزل فيه، وأمر بالرؤوس فنصبت. وأقام يومه، **ووجه طليعة من ألف رجل نحو فوهة نهر ميمون، وأمرهم بالبقاء هناك حتى المغرب. وكتب إلى حاكم الأبلة ـ عقيل ـ « ذكره فيه بأنه هو وأهل الأبلة قد بايعوه» وكتب الى قائد الجند ـ رميس ـ « ذكره فيه بقسمه له ـ في السيب ـ بألا يقاتله، وأن ينقل إليه أخبار أمير المؤمنين »** . ثم سار من نهر ميمون نحو السبخة التي كانت طليعته قد تمركزت فيها. فلما وصل الى **القادسية والشيفيا** ـ أمر جنده بنهبها، فانتهب منها مالاً عظيماً وجوهراً وحلياً وأواني من الذهب والفضة، وسبى منها غلماناً ونسوة ـ فكان ذلك أول سبي عمل على سبيه ـ. وعثر جنده على أربعة عشر غلاماً من الزنج، قد سد عليهم باب، فأخذوهم. وغادر صاحب الزنج وجيشه من القريتين في وقت العصر، فنزلوا السبخة المعروفة باسم (برد الخيار). فلما كان في وقت المغرب أتاه أحد أصحابه الستة، فأعلمه أن الجند قد شغلوا بشرب الخمور والأنبذة التي نهبوها من القادسية ـ ولم يكن قبل ذلك ينكر النبيذ أو الخمور ـ إلا أنه منع شرب ذلك يومها، وقال لهم: **« إنكم تلاقون جيوشاً تقاتلونهم، فدعوا شرب النبيذ والتشاغل به »** فأجابوه إلى ذلك، ولما أصبح، جاءته عناصر الاستطلاع وأعلمته أن القوات المعادية بقيادة ـ رميس ـ قد وصلت الى شرقي دجيل، وأنها عبرته الى الشط. فوجه قوة من الزنج بقيادة ـ علي بن أبان ـ لقتالها، ثم تولى قيادة بقية القوات وعبر بها نهر ـ برد الخيار ـ فلما وصل إلى شرقيه، وجد أن قوة ـ علي بن أبان ـ قد اشتبكت مع القوات المعادية وقتلت منها مقتلة عظيمة، وأثناء

ذلك هبت ريح قوية من غربي دجلة، فدفعت السفن التي كان يركبها جند أمير المؤمنين، ووصلت بها إلى الشط، فنزل السودان إليها وقتلوا من وجدوا فيها. وهرب ـ رميس ـ وسواه من القادة. وسار صاحب الزنج بقواته الى قرية المهلبية، واسمها تنغت، وأمر الزنج بنهبها واحراقها، فانتهبت وأحرقت، وسار على نهر الماديان، فوجد فيها تموراً، فأمر بإحراقها.

علم صاحب الزنج أن قوة لأمير المؤمنين ضمت أربعة آلاف رجل أو يزيدون بقيادة قائد تركي اسمه ـ أبو هلال ـ قد وصلت إلى سوق الريان، فأسرع لتوجيه قوة من الزنج بقيادة رجل اسمه ـ ريحان ـ فهاجم الزنج القوة المعادية، وقتلوا منها زهاء ألف وخمسمائة رجل، وهرب قائدها ـ ريحان ـ. واستمر الزنج في قتالهم حتى حجز الليل بين المقاتلين، فلما كان الصباح التالي، أمر صاحب الزنج قواته باستمرار المطاردة، ففعل الزنج ذلك، وجاؤوا وقد حملوا معهم أسرى ورؤوس، فقتل الأسرى كلهم. ثم كانت لصاحب الزنج وقعة أخرى مع قوات أمير المؤمنين، انتصر فيها الزنج أيضاً.

وصل في تلك الليلة إلى مقر صاحب الزنج، رجل اسمه ـ سيران بن عفو الله ـ وقد حمل له رسائل من عيونه ـ جواسيسه ـ في البصرة، فلما فرغ من قراءتها سأل الرجل عن الموقف في البصرة، فأعلمه بأن أمير البصرة قد جهز قوة كبيرة من المطوعة والبلالية والسعدية لقتاله بقيادة رجل اسمه ـ الزينبي ـ وأنهم قد وصلوا الى ـ بيان ـ. فقال له صاحب الزنج: «اخفض صوتك لئلا يرتاع الغلمان بخبرك». ثم أمره بالعودة الى الموضع الذي يكون فيه مقامه. ولما أصبح، قاد قواته حتى وصل إلى ما وراء ـ ترسى وبرسونا وسندادان وبيان ـ فاصطدم بقوة معادية، فوجه لقتالها قوة من الزنج ـ بقيادة علي بن أبان ـ فقاتلهم وهزمهم وكان معهم مائة من السود، فأخذهم وضمهم إلى قوته. وقال ـ ريحان ـ لرجاله: **«من أمارات تمام أمركم ما ترون من إتيان هؤلاء القوم بعبيدهم، فيسلمونهم إليكم، فيزيد الله في عددكم»**. ثم سار إلى معسكر العدو الذي كان قد أقيم في طرف النخل على الجانب الغربي من بيان. فوجد هناك ألف وتسعمائة سفينة، وكان في السفن قوم من الحجاج أرادوا سلوك طريق البصرة، فناظرهم بقية يومه إلى وقت غروب الشمس، فجعلوا يصدقونه في جميع

قوله، فردهم إلى سفنهم، **وأحلفهم ألا يخبروا أحداً بعدة أصحابه، وأن يقللوا أمره عند من يسألهم عنه.**

جاء بعد ذلك أحد رجال صاحب الزنج - واسمه حسين الصيدناني - فلما رآه صاحب الزنج قال له: « لم أبطأت عني إلى هذه الغاية؟ » فأجابه: « كنت مختفياً، فلما خرج هذا الجيش دخلت في سواده. وهو يضم من الخول ألفاً ومائتي مقاتل، ومن أصحاب الزينبي ألفاً، ومن البلالية والسعدية زهاء ألفين، والفرسان مائتا فارس. ولما وصلوا الى الأبلة، وقع بينهم وبين أهلها اختلاف، حتى تلاعنوا، وخلفتهم بشاطىء عثمان، وأحسبهم مصبحيك غداً. وستأتيك خيولهم من ناحية سندادان بيان أما مشاتهم - رجالتهم - فسيأتونك من جنبي النهر ».

وجه صاحب الزنج في الصباح المبكر شيخاً ضعيفاً هرماً، لئلا يتعرض له أحد، من أجل التثبت من المعلومات التي وصلته. فلما أبطأ هذا الشيخ بالعودة، وجه قوة من ثلاثمائة فارس - بقيادة فتح الحجام - للاستطلاع. كما وجه قوة أخرى بقيادة يحيى بن محمد، وأمره بالسير إلى سندادان والوصول إلى سوق بيان. وسرعان ما جاءه الخبر بتقدم القوات المعادية، من جنبي النهر. فنظم قوته في بساتين النخل، واحتل موقعاً له على جبل مشرف، ولم تلبث أن ظهرت له الأعلام والرجال، فأمر الزنج، فكبروا، ثم هاجوا القوات المعادية، ولكن هذه القوات صدت الهجوم، فتراجع الزنج حتى بلغوا الجبل، واعادوا تنظيم قواتهم، وانطلقوا للهجوم من جديد، فدفعوهم حتى شاطىء بيان، وأعملوا السيوف فيهم، وقتلوا من قادتهم - أبا العباس بن أيمن المعروف بأبي كباش وبشير القيسي -. وانهزم الناس فذهبوا كل مذهب. واتبعهم السودان الى نهر بيان. فغرق في النهر منهم عدد كبير. واكتشفت قوات الزنج وجود كمين في النهر. فتولى يحيى بن محمد قيادة قوة من الزنج سار بها على امتداد الشاطىء الغربي للنهر، بينما قاد - علي بن أبان - قوة أخرى سار بها على امتداد الشاطىء الشرقي. حتى وصلوا الى موضع الكمين الذي تكون من ألف مقاتل من المغاربة. ووقعت معركة ضارية لم تستمر طويلاً وانتصر فيها الزنج، فأبادوا القوة المعادية إبادة كاملة، وأخذوا أسلحتها، ورجعوا الى معسكرهم، فوجدوا أميرهم - صاحب الزنج - جالساً على شاطىء بيان،

وقد أتى بنيف وثلاثين علماً، وزهاء ألف رأس من رؤوس الاعداء ـ فيها رؤوس قادة جيش البصرة وأبطالها.

أقام صاحب الزنج يومه وليلته، فلما أصبح وجه طليعة إلى شاطىء دجلة، ثم سار وأصحابه فأمر بأخذ السفن التي تذهب من ـ جبى الى بيان ـ وانتقل بها الى الحجر، ووجد الزنج في ـ سلبان ـ مائتي سفينة محملة بأكياس الدقيق وأكسية ـ ألبسة ـ وسواها وفيها عشرة من الزنج. فاستولوا على ذلك كله، وضموا الزنج إليهم. فلما جاء المد مع المغرب، عبر صاحب الزنج وجيشه إلى ـ فوهة القندل ـ وأتاه من السودان خمسون رجلاً فصاروا في عسكره.

انتشر الزنج في بلدة ـ دبا ـ فوجدوا هناك ثلاثمائة رجل من الزنج، فحملوهم مع وكيلهم الى صاحبهم، فأمر بقتل الوكيل ووزع الزنج على قادته، وأمر بانتهاب قرية دبا، فانتهبت. ثم سار حتى وصل إلى ـ مسلحة، الزيني ـ على شاطىء القندل في غربي النهر، وبها زهاء مائتي مقاتل، فهاجمهم ودارت معركة ضارية انتهت بقتل رجال المسلحة جميعهم، ولم ينج منهم أحد.

بات صاحب الزنج ليلته في قصر دبا، ثم غدا في وقت المد قاصداً إلى سبخة القندل، واكتنف أصحابه القرية فانتهبوها، ووجدوا فيها جمعاً من الزنج، فأتوه بهم، ففرقهم على قادته. ثم وصل إلى السبخة فأقام فيها، وتفرق أصحابه في الأنهار حتى وصلوا إلى مربعة دبا. فلما مضت أربعة أيام على إقامته، سار في اليوم الخامس، وقد سرح السفن التي كانت معه في النهر. وسار هو على اليابسة ـ بين نهري الداورداني والحسني ـ وإذا به في مواجهة ستمائة فارس وقد أقبلوا نحوه من ناحية الغرب، فكلمهم الزنج، فاذا هم قوم من الأعراب جاؤوا يسألون عن صاحب الزنج، وأراد قائد الزنج محمد بن سلم، أن يظهر صاحب الزنج وأن يلبي طلب الأعراب في التحدث إليه، فقال: إنها خدعة، وأمر جنده بقتالهم. ودار اشتباك قصير، ورجع جند صاحب الزنج، وانسحب الأعراب. وسار حتى وصل إلى ـ دبا ـ وانتشر أصحابه في النخل فجاؤوا بالغنم والبقر، فجعلوا يذبحون ويأكلون. وأقام ليلته هناك، فلما أصبح سار حتى دخل

ـ الأرخنج ـ فوجدوا هناك بعض المقاتلين. فقتلوا منهم جماعة، وفر الباقون، ووجد الزنج ستمائة غلام من السود، فأخذوهم وقتلوا وكلاءهم وأتوه بهم. ومضى حتى وصل إلى قصر الجوهري على سبخة البرامكة، فأقام فيه ليلته تلك، وتفرق أصحابه في انتهاب كل ما وجدوا.

سار صاحب الزنج وجيشه من السبخة؛ وهو يريد الوصول الى البصرة. فلما كان في بعض الطريق ـ عند نهر الرياحي ـ سمع الزنج وهم يتنادون: إلى السلاح، ورأى قوماً في شرقي نهر الديناري ـ فوجه قوة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة علي بن أبان. وأمره بقتالهم، وعبور النهر إليهم، واحتجز باقي الجيش، وقال له: «إن احتجت الى مزيد من الرجال، فاستمدني». ولكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى طرق سمعه من جديد صياح الزنج: إلى السلاح، فعرف أن قوة أخرى قد جاءت تتقدم نحوه من اتجاه قرية الجعفرية. فوجه لقتالها قوة أخرى بقيادة محمد بن سلم. ونشب القتال في الجعفرية، واستمر بضراوة حتى العصر، ثم قام الزنج بهجوم عنيف، فأمكن لهم انتزاع النصر، وقتلوا من الجند ومن الأعراب ومن أهل البصرة ـ البلالية والسعدية ـ زهاء خمسمائة رجل. وسار صاحب الزنج وجيشه حتى وصل ـ سبخة الجعفرية ـ، فأقام ليلته بين القتلى. فلما أصبح، جمع أصحابه وحذرهم من دخول البصرة، وسار بجيشه، غير أن بعض قواته أسرعت في تقدمها حتى وصلت ـ نهر الشاذاني ـ وأتاهم أهل البصرة بقوة كبيرة. وعلم صاحب الزنج، فوجه قوات كبيرة بقيادة علي بن أبان ومحمد بن سلم وسواهما. ثم وصل صاحب الزنج، وأشرف على المعركة. ورأى كثرة الإصابات في جنده، فأمرهم بالتراجع، غير أن الاشتباكات استمرت حتى العصر؛ ومني الزنج بهزيمة منكرة، وقتل منهم عدد كبير، وغرق آخرون، وتمزق جيش الزنج، وقتل عدد من قادته. وانسحب صاحب الزنج الى موضع ـ يعرف باسم المعلى غربي نهر شيطان ـ وحاول جمع قواته وإعادة تنظيمها، فلم يجتمع له إلا خمسمائة رجل. وأمر بالنفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته، فلم يرجع إليه أحد، وبات ليلته، فلما كان في بعض الليل، جاءته قوة استطلاع من ثلاثين رجلاً، كان قد وجهها الى ـ نهر حرب ـ فعلم أن أهل البصرة قد انتهبوا السفن التي كانت معه، وأخذوا الدواب التي كانت فيها، وظفروا بمتاع من

متاعه، وبرسائل من رسائله، وبأمتعة أخرى، فلما أصبح من غد، نظر في عدد أصحابه، فاذا هم ألف رجل. بمن كانوا قد انضموا إليه في الليل. فأرسل ثلاثة من قادته لمناظرة أهل البصرة واقناعهم بعدم التعرض له؛ وهم محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيي بن محمد. وسار هؤلاء ودخل محمد بن سلم إلى جمع أهل البصرة فلما صار في وسطهم، قتلوه واحتزوا رأسه، وعاد الاثنان فأعلما صاحب الزنج بما حدث، فأمرهما بكتمان الأمر عن الناس حتى يعلمهم هو بذلك. فلما صلى العصر، نعى محمد بن سلم لأصحابه وقال لهم: «**إنكم تقتلون به في غد عشرة آلاف من أهل البصرة**». أما أهل البصرة، فقد اغتروا بالنصر الذي حققوه، فجمعوا في اليوم التالي جموعهم، وانتدبوا لقيادتهم رجلاً منهم يعرف باسم ـ حماد الساجي ـ، وكان من غزاة البحر وله علم بركوبها والحرب فيها ـ فجمع المطوعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع، ومن تطوع معه من حزبي البلالية والسعدية، ورافق الجمع من أحب الاستمتاع برؤية القتال من الهاشميين والقرشيين وسائر أصناف الناس، وازدحم الناس في السفن النهرية حرصاً على حضور ذلك المشهد، ومضى جمهور الناس مشاة ـ رجالة ـ منهم من معه السلاح، ومنهم من لا سلاح معهم. وأقبل هؤلاء حتى سدوا ما ينفذ فيه البصر تكاثفاً وكثرة.

ولما علم صاحب الزنج بمسيرهم إليه ـ وهو في موضعه عند نهر شيطان ـ. وجه قوة لنصب كمين في الجانب الشرقي من النهر بقيادة أبي الليث الأصبهاني وزريق. ووجه قوة لنصب كمين آخر على الجانب الغربي من النهر بقيادة شبل وحسين الحمامي. وأمر علي بن أبان بقيادة بقية قواته لمجابهة الهجوم، وأمرهم أن يجثوا لهم ويستتروا بدروعهم ـ تروسهم ـ فلا يثور إليهم منهم ثائر حتى يصل إليهم أهل البصرة ويهاجموهم بالسيوف. حتى إذا ما هاجموهم خرج الكمينان من خلفهم، وأعملوا فيهم السيوف. ووقعت المعركة. وبوغت أهل البصرة، وبدأ النظارة والمشاهدون بالهرب، فغرقت طائفة ولحقت السيوف بآخرين، حتى تمت إبادة أكثر ذلك الجمع، ولم ينج إلا القليل. وكثر المفقودون بالبصرة، وعلا العويل من نسائهم، وهذا هو يوم الشذا الذي ذكره الناس، وأعظموا ما كان فيه من القتل. وجمع الخبيث ـ صاحب الزنج ـ رؤوس القتلى وأرسلها إلى البصرة، فجاء أهلها

يبحثون عن رؤوس أهلهم، فيأخذ رأس كل رجل أولياؤه. **«وقوي عدو الله بعد هذا اليوم، وتمكن الرعب في قلوب أهل البصرة منه. وأمسكوا عن حربه»**. وأرسلت الرسائل إلى أمير المؤمنين ببغداد، فوجه مدداً إلى أهل البصرة بقيادة جعلان التركي. وأمر أبا الأحوص الباهلي بالمصير إلى الأبلة والياً عليها. وأمده برجل من الاتراك يقال له جريح. وأراد الزنج دخول البصرة واحتلالها، فقال لهم صاحبهم: **لا، بل ابعدوا عنها، فقد أرعبناهم وأخفناهم وأمنتم جانبهم. فالرأي الآن أن تدعوا حربهم حتى يكونوا هم الذين يطلبونكم»**. وسار بأصحابه الى سبخة ـ أبي قرة ـ وهي سبخة متوسطة النخل والقرى والعمارات، فأمرهم باتخاذ الأكواخ. وبثهم يميناً وشمالاً، يغير بهم على القرى، يقتل أهلها وينهب أموالهم ومواشيهم.

أ ـ انتصارات الزنج وإحراق البصرة

هكذا مضت سنة على اندلاع ثورة الزنج، وأصبحت الثورة راسخة القدم، لها جذورها وفروعها، ولها تنظيماتها. وقد أفادت الثورة من وقوع اضطرابات في مستهل السنة التالية (٢٥٦ هـ = ٨٦٩ م) لاكتساب المزيد من القوة، وكان في طليعة هذه الاضطرابات (خروج العامة على أمير المؤمنين المهتدي ثم خلعه وموته وخلافة المعتمد على الله) بالإضافة الى متاعب في أقاليم أخرى. مما سمح لصاحب الزنج بممارسة عمله بحرية أكبر. وكان ـ جعلان ـ الذي جاء الى البصرة لحرب صاحب الزنج، قد زحف بجنده حتى وصل على بعد فرسخ واحد من معسكر صاحب الزنج، فتوقف، وخندق على نفسه وعلى من معه، وأقام ستة أشهر في خندقه لم يمارس خلالها أي نشاط قتالي ـ واكتفى بارسال قوة من بني هاشم ومن تطوع من أهل البصرة ـ بقيادة الزينبي ـ لحرب الخبيث صاحب الزنج. فاكتفت هذه القوة بالاشتباك مع الزنج بالحجارة والنشاب ـ ولم يتمكن جعلان من الاشتراك في هذا الاشتباك لأن قوته كانت من الفرسان ـ وكان مجال عمل الفرسان محدوداً بسبب ضيق الموضع وما فيه من النخل والدغل. وكان صاحب الزنج قد درس الموقف، فوجه قوة من جنده ـ للتسلل

والسيطرة على مداخل الخندق ومخارجه، ومباغتة ـ الزينبي ـ وقواته بهجوم ليلي. **ونجحت** هذه القوة في تنفيذ مهمتها، فقتلت جماعة وريع الباقون روعاً شديداً. وترك جعلان عسكره وانصرف الى البصرة. وكان الزينبي قبل ذلك بفترة قصيرة قد وجه قوة من مقاتلي البلالية والسعدية، لقتال صاحب الزنج، فوجه لهم هذا قوتين من ناحيتين، فلم يثبتوا لقتال الزنج الذين قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانصرفوا مفلولين. وعمل أمير المؤمنين عندما ظهر له عجز ـ جعلان ـ وعدم كفاءته، على عزله وعين مكانه سعيد الحاجب ووجهه لقتال الزنج الذين انتقلوا أثناء ذلك من سبخة أبي قرة الى نهر أبي الخصيب. علم ـ صاحب الزنج ـ أن هناك أربعة وعشرين مركباً من مراكب البحر قد اجتمعت تريد البصرة، وأن أصحاب هذه المراكب قد قرروا شد مراكبهم بعضها الى بعض حتى تصير كالجزيرة، يتصل أولها بآخرها، والسير بها في دجلة لقتال ـ الخبيث ـ الذي قطع السبيل وأفسد في الارض. فندب ـ صاحب الزنج ـ أصحابه وحرضهم عليها، وقال لهم: «هذه الغنيمة الباردة». ولما طلعت المراكب، نهض ـ الخبيث ـ وأصحابه وركبوا الزوارق النهرية الصغيرة، وأحاطوا بالمراكب، وهاجموها بعنف، وقتلوا مقاتلتها، وسبوا ما فيها من الرقيق، وغنموا منها أموالاً عظاماً لا تحصى ولا يعرف قدرها، فأنهب ـ صاحب الزنج ـ أصحابه ثلاثة أيام، ثم أمر بما بقي فحازه له.

انصرف ـ صاحب الزنج ـ لتوسيع منطقة نفوذه، وأخذ بادىء ذي بدء بتوجيه السرايا إلى **الأبلة**، وجعل يحاربهم من ناحية شاطىء عثمان بقوات المشاة، مع القيام بهجمات عبر دجلة ـ بواسطة السفن ـ. وجعلت سراياه تضرب إلى ناحية نهر معقل. وعندما عرف ـ صاحب الزنج ـ بأن اللحظة المناسبة قد أزفت، أصدر أمره باجتياح ـ **الأبلة** ـ فأضرمت النار بالأبنية ـ الخشبية ـ فأسرعت النار في التهاب الأبنية المتكاثفة، وجاءت ريح عاصفة، فأطارت شرر ذلك الحريق فزاد اتساع دائرة الحريق، وقتل بالأبلة خلق كثير، وغرق خلق كبير، وحويت الأسلاب، فكان ما احترق من الأقبعة أكثر مما انتهب.

علم أهل ـ عبادان ـ بما فعله الزنج في الأبلة، فصعقت قلوبهم، وخافوهم

على أنفسهم وحرمهم، فأعطوا بأيديهم، وسلموا لصاحب الزنج بلدهم، فدخلها الزنج، وأخذوا من كان فيها من السود، وحملوا ما كان فيها من السلاح، فوزعه صاحب الزنج على أصحابه.

أفاد ـ صاحب الزنج ـ من جيش الرعب الذي كان يتقدم جيشه، فسار بجيشه الى ـ **جبى** ـ فلم يثبت له أهلها، وهربوا منه، فدخل الزنج ـ جبى ـ وقتلوا وأحرقوا ونهبوا وأخربوا ما وراءها، وساروا حتى وصلوا الى ـ **الأهواز** ـ فهرب الناس منهم أيضاً، فلم يقاتلهم كثير أحد، فدخلوا المدينة، فاحتووها ونهبوها، ونزل بأهل البصرة رعب كبير، فانتقل كثير من أهلها عنها، وتفرقوا في بلدان شتى، وكثرت الأراجيف من عوامها.

ومضى عام، وجاء عام (**٢٥٧ هـ = ٨٧٠ م**) وثورة الزنج في تطور، غير أنها شهدت في هذا العام بعض الانتكاسات، فعندما وصل (سعيد بن الحاجب) الى البصرة، وشاهد ما نزل بها من الدمار المادي، وما نزل بأهلها من الانهيار المعنوي، مضى بجيشه الى ـ نهر معقل ـ فوجد هنالك جيشاً لصاحب الزنج، فأوقع به وهزمه. واستنقذ ما كان في أيدي الزنج من النساء والنهب. وأصابت سعيداً في تلك الوقعة جراحات، منها جرح في فمه ـ ولكنه سار بالرغم من ذلك الى الموضع الذي كان معروفاً باسم ـ عسكر أبي جعفر المنصور. فأقام فيه ليله، وبلغه أن صاحب الزنج قد حشد جيشاً له في ـ الفرات ـ فتوجه لقتاله، وباغته وهزمه ـ واستأمن له عمران زوج جدة ابن صاحب الزنج المعروف باسم انكلاي ـ وتفرق جمع الزنج، وأصابهم الهلع ـ حتى ذكر بأن المرأة من سكان الفرات كانت تقبض على المقاتل من رجال الزنج فتأتي به عسكر سعيد ما به منها امتناع. ثم توجه سعيد لحرب الخبيث ـ صاحب الزنج ـ فعبر إلى غربي دجلة، فأوقع به وقعات في أيام متوالية، ثم انصرف سعيد الى معسكره ـ بهطمه ـ فأقام به وهو يحارب صاحب الزنج لأكثر من شهر. ثم أن صاحب الزنج

ثم أن صاحب الزنج وجه قوة من ألف رجل للقيام بإغارة ليلية ـ **وقبل طلوع** الفجر ـ على معسكر سعيد ابن الحاجب، وتم تنفيذ الإغارة بصورة مباغتة **أذهلت جند** سعيد بن الحاجب فقتل الزنج منهم مقتلة عظيمة، وأحرقوا معسكر سعيد، **مما حمل أمير**

المؤمنين على استدعاء سعيد بن الحاجب إلى بغداد، وعزله، وإسناد قيادة جيشه إلى قائد حرب الأهواز وصاحب خراجها ـ منصور بن جعفر الخياط ـ فكان أول ما فعله منصور هو جمع السفن التي تنقل الحبوب والمواد التموينية؛ ونقل هذه المواد إلى البصرة، فضاق بالزنج الميرة، ونقصت موادهم التموينية، ثم حشد منصور جيشه، وتوجه به نحو معسكر صاحب الزنج ـ عبر دجلة ـ فنزل على قصر ـ على دجلة ـ كان صاحب الزنج يستخدمه، فأحرقه وما حوله، ثم اقتحم معسكر الزنج الذين نصبوا له كميناً، فقتلوا من جنده عدداً كبيراً ـ ودفع الباقين الى الماء فغرق منهم عدد آخر. وحمل الزنج من رؤوس أعدائهم اكثر من خمسمائة رأس، وحملت إلى قائد الزنج في نهر معقل ـ يحيى بن محمد البحراني ـ فأمر بنصب بعضها. ووجه صاحب الزنج جيشاً بقيادة ـ علي بن أبان ـ لدعم جيش البحراني؛ والانتشار في الأهواز ـ وتصادف سير هذا الجيش مع عودة جيش أمير المؤمنين ـ المعتمد ـ من فارس بقيادة ابراهيم بن سيما، فباغت هذا الجيش قوات الزنج وقتل منهم عدداً كبيراً وهرب ـ علي بن أبان ـ وأصابته طعنة في أخمصه، فعجز عن السير الى الأهواز، وتوجه الى ـ جبى ـ. وقسم إبراهيم بن سيما جيشه الى قوتين تولى قيادة قوة منها وسار بها على طريق الفرات نحو ـ جبى ـ بينما تولى شاهين بن بسطام قيادة القوة الثانية وسار بها على طريق نهر موسى، وحددا موعداً معيناً للالتقاء ومهاجمة ـ علي بن أبان ـ. وعرف علي بن أبان بأمر وصول شاهين بن بسطام وقوته الى نهر موسى، فوجه لقتالها قوة كافية ونشبت معركة ضارية بين القوتين ـ وقت العصر ـ وثبت أصحاب شاهين، وقاتلوا قتالاً شديداً، ثم صدمهم الزنج صدمة صادقة، فولوا منهزمين، وقتل شاهين بن بسطام وابن له وكانا في مقدمة القوم، وقتل منهم بشر كثير. ووصلت الى ـ علي بن أبان ـ معلومات عن وصول ابراهيم بن سيما الى نهر جبى. فسار لقتاله وليس معه اكثر من خمسين رجلاً، واقترب من المعسكر المعادي وسمع ضجيج أهل العسكر وكلامهم، فلما سكنت حركتهم، باغتهم بهجومه ـ وقت العشاء الآخرة، فأوقع بهم وقعة غليظة، قتل فيها جمعاً كثيراً. وانسحب علي بن أبان، حيث ورد إليه كتاب صاحب الزنج بالمسير الى البصرة لحرب أهلها.

كان أمير البصرة وقائد حربها ـ منصور بن جعفر الخياط ـ قد رجع بعد هزيمته

الى البصرة، وقد ضعف أمره، فانصرف لاعادة تنظيم قواته، وتأمين الامدادات والمواد التموينية لأهل البصرة، فبدأت أمور البصرة بالازدهار، وأصاب أهلها بعض الرخاء، فساء ذلك صاحب الزنج، فوجه جنده لقتال أهل البصرة، فكانوا يقاتلونهم صباح مساء، ثم وجه ـ علي بن أبان ـ وقواته لحصارها والتضييق عليها، فعاد حال أهل البصرة الى ما كانت عليه حالهم من نقص الأغذية وشح التموين، ولما عرف الخبيث ـ صاحب الزنج ـ بضعف أهلها وتفرقهم، قرر جمع قواته للهجوم على أهل البصرة وتدميرها. وبدأ يشيع في أصحابه ما يدعم به من روحهم المعنوية ـ من ذلك قوله: **«اجتهدت في الدعاء على أهل البصرة؛ وابتهلت إلى الله في تعجيل خرابها، فخوطبت، فقيل لي: إنما البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة، فأولت انكسار نصف الرغيف انكساف القمر المتوقع في هذه الأيام، وما أخلق أمر البصرة أن يكون بعده» . وأفاض أصحابه في تناقل هذا الحديث، وأخذوا في الاستعداد لحرب البصرة وتخريبها .**

أرسل الخبيث صاحب الزنج أحد كبار أنصاره الى الأعراب الضاربين حول البصرة، فأتاه منهم بخلق كثير، فأنزلهم بالقندل ـ وأسلم قيادتهم الى ـ سليمان بن موسى الشعراني ـ وكلفه بتموين الأعراب على مهاجمة البصرة والاغارة على أطرافها. فلما كان الكسوف، وجه قوة بقيادة ـ علي بن أبان ـ وضم إليه طائفة من الأعراب، وأمره بدخول البصرة من ناحية ـ بني سعد ـ. كما أمر يحيى بن محمد البحراني باجتياح البصرة من ناحية ـ نهر عدي ـ وضم سائر الأعراب إليه ـ. وانطلق علي بن أبان في هجومه، فاصطدم بمقاومة الجند الذين كان يقودهم التركي بغـراج فأقام يقاتلهم يومين، إلى أن أمكن له اقتحام البصرة وقت صلاة الجمعة، فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت (١٣ و١٤ شوال ٢٥٧ هـ) وأثناء ذلك كان يحيى بن محمد البحراني قد اقتحم البصرة من ناحيته، ولقيه إبراهيم بن يحيى المهلبي، فاستأمنه لأهل البصرة، فآمنهم، ونادى منادي أهل البصرة: **«من أراد الأمان فليحضر دار ابراهيم»** فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملؤوا الرحاب. فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة، فأمر بإغلاق الطرق والدروب لئلا يتفرقوا وغدر بهم. وأمر أصحابه بقتلهم.

فقتل كل من شهد ذلك المشهد إلا الشاذ، ثم انصرف الى قصر عيسى بن جعفر بالخريبة فأقام فيه. واندلعت النيران في سائر انحاء البصرة، فيما بقي القتل مستمراً في أهلها، الذين ارتفع ضجيجهم وهم يقتلون، فكانت أصوات التشهد تسمع من مكان بعيد. وأحرق المسجد الجامع. وسارت النار تحرق كل شيء تمر به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع؛ فيما استمر الزنج خلال الأيام التالية بالبحث عن المختبئين واستخراجهم فمن كان ذا مال، استصفي ماله وقتل، ومن كان معدماً عوجل بقتله. **وجاء إلى الخبيث صاحب الزنج قوم من العلوية الذين كانوا بالبصرة - منهم علي بن أحمد ابن عيسى بن زيد، وعبدالله بن علي في جماعة من نسائهم وحرمهم. فلما جاؤوه ترك الانتساب الى احمد بن عيسى، وانتسب إلى يحي بن زيد - ولكن المسلمين عرفوا كذب انتسابه، لأن يحي لم يعقب إلا بنتاً ماتت وهي ترضع. وعندما لم يبق من البصرة إلا الرماد، أمر صاحب الزنج قواته بتركها وانسحب منها.** ترددت أصداء حريق البصرة قوية في أرجاء بلاد المسلمين، وفزع الناس وثارت مشاعرهم، لما قام به الزنج من أعمال وما ارتكبوه من جرائم وحشية، ووجه أمير المؤمنين قوة لحرب الزنج بقيادة محمد المعروف بالمولد، فسار هذا الى الأبلة، واجتمع من أهل البصرة خلق كثير ممن كان قد نجح في الهرب من المذبحة، وتولى قيادتهم رجل اسمه - برية - فسار بهم الى نهر الغوثي. ولما علم صاحب الزنج بقدوم محمد المولد وقوته، كتب الى يحي بن محمد البحراني، وأمره بمحاربة هذا الجيش، فسار يحي وحارب محمداً المولد عشرة أيام. ثم نظم إغارة واستمر القتال في اليوم التالي حتى العصر، ثم انتصر الزنج، ودخلوا المعسكر فغنموا ما فيه، وقاموا بمطاردة محمد وجيشه. وعمل الزنج أثناء المطاردة على انتهاب الحوانيت التي كانت في طريقهم، ثم عادوا فمروا بقرية - الجامدة - فأوقعوا بأهلها، وانتهبوا كل القرى التي مروا بها، وسفكوا ما تمكنوا من سفكه من الدماء، واستمروا في سيرهم حتى وصلوا نهر معقل، فأقاموا هناك.

جاءت سنة ٢٥٨ هـ = ٨٧١ م وهي تحمل معها المزيد من الأحداث المثيرة في ثورة الزنج؛ فقد أصدر الخبيث صاحب الزنج أمره الى قائده - علي بن أبان - بالتوجه

الى ـ جبى ـ لحرب منصور بن جعفر بن دينار الخياط ـ الذي كان قد أقام معسكره في الأهواز. فسار علي بن أبان بجيشه، وأقام في مواجهة معسكر منصور شهراً، ثم وجه صاحب الزنج قوة لدعم علي بن أبان اختار رجالها من المقاتلين الأشداء، وحملهم في اثنتي عشرة سفينة نهرية ـ شذاة ـ وولى قيادتهم لأبي الليث الأصبهاني وأمره بالسمع والطاعة لعلي بن أبان. ولكن هذا ما إن وصل الى معسكر علي، حتى أقام مخالفاً له. مستبداً بالرأي عليه. وجاء منصور بقواته، فأسرع أبو الليث لركوب السفن ـ دون إعلام علي بن أبان او الاتفاق معه على خطة للهجوم ـ ودارت معركة انتصر فيها جند منصور واستولوا على السفن وقتل خلقاً كثيراً من الزنج والبيضان، وهرب أبو الليث فالتحق بصاحب الزنج ـ. وابتعد علي بن أبان بجيشه، وغاب شهراً، ثم رجع لقتال منصور، وأرسل عناصر جاسوسيته ومفارز استطلاعه لجمع المعلومات عن معسكر منصور. وعلم أن هناك قوة قد وضعها منصور في قرية ـ كرنبا ـ. فنظم إغارة ليلية على هذه القوة، وباغتها بهجومه وقتل قائدها وعامة من كان معه، وغنم ما كان في معسكره، ونهب أفراساً وجدها ثم أحرق المعسكر وانصرف من ليلته، وعاد الى معسكر على نهر جبى. وعلم المنصور بذلك، فسار بقواته حتى وصل الى الخيزرانية، فخرج إليه علي في قوة من الزنج، ودارت معركة قصيرة، ثم انهزم منصور، وتفرق عنه أصحابه، وانقطع عنهم، ولحقت به طائفة من الزنج، فلم يزل يقاتلها حتى تقصفت رماحه ونفذت سهامه ولم يبق معه سلاح. فسار الى النهر ليعبر، فسبقه بعض الزنج، وأمسكوا به واحتزوا رأسه. وقتل معه أخوه خلف بن جعفر.

كان أمير المؤمنين المعتمد، قد عقد لأخيه أبي أحمد بن المتوكل، ووجهه لحرب الزنج، وعين معه قائداً اسمه ـ مفلح ـ وأرسل معه جيشاً، وصفه جماعة من مشايخ أهل بغداد بقولهم: «**قد رأينا جيوشاً كثيرة من الخلفاء، فما رأينا مثل هذا الجيش؛ أحسن عدة، وأكمل سلاحاً وعتاداً، وأكثر عدداً وجمعاً**» وتبع ذلك الجيش من متسوقة أهل بغداد خلق كثير. ما إن علم صاحب الزنج بوصول جيش أمير المؤمنين، حتى أذن لقائده ـ يحي بن محمد البحراني ـ بالانتقال من معسكره على نهر معقل، إلى نهر العباس، ولحق به معظم جند الزنج، أما ـ علي بن أبان ـ فكان

معسكراً في ـ جبى ـ ومعه جمع كبير من الزنج، وقد صارت البصرة مغنماً لهم، فكانوا يغادونها ويراوحونها لنقل ما تقع عليه أيديهم. وهكذا لم يبق مع صاحب الجند إلا قوات قليلة. وبينما هو كذلك وصل إليه جيش أمير المؤمنين. وهرب من وجهه كل من كان في معسكر نهر معقل من الزنج. وأرسل صاحب الزنج طلائعه وعناصر استطلاعه لجمع المعلومات عن حجم جيش أمير المؤمنين وقوته وأسماء قادته، فلما عرف كبر هذا الجيش ومقدار قواته أرسل إلى ـ علي بن أبان ـ وطلب إليه الانضمام اليه. وجاء علي بن أبان فأقام معسكره بازاء معسكر قائده ـ صاحب الزنج ـ الذي انطلق في اليوم التالي لتفقد الجيش واستطلاع معسكر أمير المؤمنين، ودراسة الأرض، حيث أمطرت السماء يومها مطراً خفيفاً، فأصبحت الأرض ثرية تزل عنها الأقدام، وعاد بعد جولته الى معسكره، ووجه رسالة الى علي بن أبان، وأمره بدفع اكبر قوة من المشاة، ودارت معركة ـ أصيب فيها قائد جيش أمير المؤمنين ـ مفلح ـ(*) بسهم لم يعرف من رماه. واستطاع الزنج انتزاع النصر، وزال ما كان بهم من الخوف والرهبة عندما وقعت أبصارهم على جيش أمير المؤمنين، فانطلقوا يقتلون قدر ما يستطيعون، وجاؤوا وهم يحملون الرؤوس بأسنانهم، حتى ألقوها بين يدي صاحب الزنج، فكثرت الرؤوس يومئذ حتى ملأت كل شيء، وجعل الزنج يقتسمون لحوم القتلى ويتهادونها بينهم.

عمل أبو أحمد بن المتوكل على تنظيم انسحاب جيشه الى الأبلة، ولم يلبث مفلح أن مات من إصابته بالسهم في صدغه، فحملت جثته الى ـ سامرا ـ فدفن بها. وأخذ أبو أحمد في إعادة تنظيم قواته، وجمع ما كان قد تفرق منها، استعداداً للمعركة القادمة.

بينما كانت هذه المعركة تتطور لمصلحة الزنج، كانت هناك معركة أخرى تـدور

(*) لم يكن الخبيث صاحب الزنج يعرف كيف قتل مفلح، فلما بلغه أنه أصيب بسهم، ولم ير أحداً ينتحل رميه، ادعى انه هو الذي رمى السهم. وقال: سقط بين يدي سهم، فأتاني به خادمي ـ واح ـ فدفعه إلي. فرميت به فأصبت مفلحاً. ولما سمع ذلك محمد بن الحسن قال: «لقد كذب، لأني كنت حاضراً ذلك المشهد، وإنه ما نزل عن فرسه حتى أتاه الخبر بهزيمة العدو، وحملت إليه الرؤوس، وانقضت الحرب».

في الوقت ذاته في غير مصلحتهم. إذ بينما كان ـ يحيى بن محمد البحراني ـ يسير نحو فوهة نهر العباس، اصطدم بقوة من ثلاثمائة وسبعين فارساً من قوات عامل الأهواز، فلما أبصر يحيى بهذه القوة استقلها واستخف بها، وقارنها بكثرة من كان معه من القوات، فهان عليه أمرها، وأقبل على قتالها. فما كان من هذه القوة إلا أن استقبلت الزنج بالسهام، واكثرت فيهم الجراح. فلما رأى ذلك يحيى، عبر إليهم ومعه عشرون ومائة فارس. مع جمع كبير من المشاة الرجال. وانسحب فرسان الاهواز فانضموا الى بقية قواتهم. وولج الزنج وقائدهم نهر العباس في وقت قلة الماء في النهر. والسفن جانحة على الطين. فلما أبصر أصحاب تلك السفن بالزنج، تركوا سفنهم، وحازها الزنج، وغنموا ما كان فيها من غنائم عظيمة جليلة. ومضوا بها نحو بطيحة ـ الصحناة ـ. وتركوا الطريق النهج، حتى وصلوا البطيحة، وسرح يحيى الخيل التي كانت معه وجعلها تحت قيادة أبي الليث الأصبهاني، وأمره بالسير بها الى معسكر قائد الزنج. وكان الخبيث صاحب الزنج، قد أرسل رسالة الى يحيى البحراني أعلمه فيها بتوجه جيش أمير المؤمنين نحوه، وأمره بالتحرز. فوجه البحراني الطلائع إلى دجلة. وتصادف وصول هذه الطلائع مع وصول طلائع جيش أمير المؤمنين بقيادة أبي أحمد الذي سار من الأبلة إلى نهر أبي أسد بهدف منع الامدادات من الوصول الى الزنج.

رجعت طلائع الزنج الى يحيى البحراني، وأعلموه بكبر جيش أمير المؤمنين، فرجع يحيى في الطريق الذي كان سلكه بمشقة شديدة نالته ونالت أصحابه، وأصابهم وباء من إقامتهم في تلك البطيحة، فكثر المرض فيهم. فلما قربوا من نهر العباس، وجه مقدمته بقيادة يحيى بن محمد سليمان بن جامع، فمضى يقود أوائل الزنج، وهم يجرون سفنهم، يريدون الخروج من نهر العباس. ولكنهم جابهوا سفناً لأمير المؤمنين كانت تحمي فوهة النهر ومعها جمع من الفرسان والرجالة. فترك الزنج سفنهم وقد نزل بهم الروع، وألقوا أنفسهم في غربي نهر العباس، ومضوا على طريق الزيدان نحو معسكر الخبيث صاحب الزنج. وبقي يحيى وهو يجهل ما فعلته طليعته ومقدمته، وبينما هو كذلك وهو في وسط جنده؛ إذا بقوة من جيش أمير المؤمنين ـ بقيادة طاشتمر التركي ـ وهي تباغته بالهجوم. وفي هذا الوقت، أقبلت الأعلام الحمراء من الجانب الغربي من نهر

العباس، فلما رآها الزنج، ألقوا أنفسهم في الماء جملة، فعبروا إلى الجانب الشرقي. ولم يبق مع يحيي إلا بضعة عشر رجلاً، فنهض يحيي عند ذلك، فأخذ درقته وسيفه، واحتزم منديله، وتلقى القوم الذين أقبلوا عليه، وبدأ الاشتباك بالتراشق بالسهام. وأصيب يحيي البحراني بأسهم ثلاثة في عضده وساقه اليسرى، فحمله أصحابه إلى الجانب الشرقي من النهر، وأثقلت يحيي الجراحات التي أصابته. فلما رأى الزنج ما نزل به اشتد جزعهم، وضعفت قلوبهم، فتركوا القتال، وحاز جند أمير المؤمنين الغنائم التي كانت في السفن بالجانب الغربي من النهر، فلما حووها، أقعدوا في بعض تلك السفن النفاطين، وعبروهم إلى شرقي النهر، فأحرقوا ما كان هناك من السفن التي كانت في أيدي الزنج. وانفض الزنج عن يحيي، فجعلوا يتسللون بقية نهارهم، بعد قتل فيهم ذريع، وأسر كثير. فلما أمسوا وأسدف الليل، طاروا على وجوههم. وحاول يحيي بن محمد الأزرق البحراني التسلل والهرب، فعرفه قوم، وسلموه إلى أبي أحمد، الذي حمله الى أمير المؤمنين المعتمد بسامرا، فأمر ببناء دكة بالحير، ثم رفع للناس حتى أبصروه. وجلس المعتمد من غد، فضرب يحيي بين يديه مائتي سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم خبط بالسيف، ثم ذبح ثم أحرق(*).

لم يستقر جيش أمير المؤمنين طويلاً في معسكره - بجوار نهر ابي الأسد، فقد انتشرت الأوبئة بين جنده، وفشا فيهم الموت، فانتظر قائد الجيش - أبو أحمد بن المتوكل - حتى أبل من نجا من الجند من علته، ثم انصرف بجيشه راجعاً إلى - باذاورد -. فعسكر به، وأمر بتجديد الآلات، وإعطاء من معه من الجند أرزاقهم، وإصلاح السفن والمعابر، وشحنها بالقواد من مواليه وغلمانه، ثم نهض نحو معسكر الخبيث

(*) لما علم صاحب الزنج بقتل قائده يحيي قال: «عظم علي قتله، واشتد اهتمامي به، فخوطبت فقيل لي: قتله خير لك، إنه كان شرهاً، ثم أقبل علي جماعة كنت أنا فيهم. وكان من شرهه أنا غنمنا غنيمة من بعض ما كنا نصيبه، فكان فيه عقدان، فوقعا في يد يحيي، فأخفى عني أعظمها شأناً، وعرض علي أخسها، واستوهبنيه فوهبته له. فرفع لي العقد الذي أخفاه فدعوته فقلت: أحضرني العقد الذي أخفيته، فأتاني بالعقد الذي وهبته له. وجحد أن يكون قد أخذ غيره. فجعلت أصف له العقد الآخر. فبهت وذهب فأتاني به واستوهبنيه فوهبته له. وأمرته بالاستغفار» وذكر أن قائد الزنج قال في بعض أيامه: لقد عرضت علي النبوة فأبيتها، لأن لها أعباء خفت ألا أطيق حملها.

ـ صاحب الزنج ـ. وأمر جماعة من قواده ـ قادته ـ بالتوجه نحو مواضع حددها لهم من نهر أبي خصيب وغيره، وأمر جماعة منهم بالبقاء معه وملازمته لخوض المعركة في الموضع الذي يكون فيه. والتقى الفريقان وليس مع أبي أحمد إلا قلة من جنده، فلم يزل عن موضعه إشفاقاً من أن يطمع فيه الزنج. وفيمن بإزائهم من أصحابه وهم بسبخة نهر ـ منكي ـ وتأمل الزنج تفرق أصحاب أبي احمد عنه، وعرفوا موضعه. فأكثروا جمعهم عليه، واستمرت الحرب، وكثر القتل والجراح بين الفريقين. وأحرق جند أبي أحمد قصوراً ومنازل من منازل الزنج، واستنقذوا من النساء جمعاً كثيراً، وصرف الزنج جمعهم الى الموضع الذي كان به أبو أحمد. وركب أبو أحمد سفينة، وتوسط الحرب محرضاً أصحابه وجنده، فجاءه من جمع الزنج ما علم أنه لا يستطيع مقاومتهم بمثل ما كان معه من القوة الصغيرة، ورأى أنه من الحزم محاجزتهم ـ ايقافهم ـ فأمر جنده بالرجوع الى سفنهم على تؤدة ومهل. وتحرك أبو أحمد بسفينته بعد أن استقر اكثر جنده في سفنهم، وبقيت طائفة من الجند في مواجهة الزنج ـ لحماية الانسحاب ـ فلجؤوا الى الأدغال والمضايق، فانعزلوا عن أصحابهم، فخرجت عليهم كمائن الزنج، فاقتطعوهم وأوقعوا بهم، فدافعوا عن أنفسهم، وقاتلوا قتالاً شديداً، وقتلوا عدداً كثيراً من الزنج، وأدركتهم المنايا فقتلوا وحملوا الى قائد الزنج مائة رأس وعشرة أرؤس، فزاد ذلك من عتوه. ثم انصرف أبو أحمد بجيشه راجعاً الى معسكره في ـ الباذاورد ـ وأقام يعبىء أصحابه للرجوع الى الزنج، فوقعت نار في طرف من أطراف معسكره في أيام عصوف الريح، فاحترق المعسكر، ورحل أبو أحمد بجيشه الى واسط، حيث عمل على توزيع جيشه وتفريقه. ومكث هناك سبعة أشهر، **ثم أعاد تنظيم جيشه (في ربيع الأول من سنة ٢٥٩ هـ = ٨٧٢ م) واستخلف على واسط قائده ـ محمداً المولد ـ وترك معه قوة كافية، وسار ببقية جيشه الى سامرا.**

عندما علم قائد الزنج باحتراق معسكر أبي أحمد وارتحاله وجنده عنه، عاد للعيث والفساد، وانقطعت عنه المواد التموينية، فوجه معظم جيشه بقيادة ـ علي بن أبان المهلبي ـ نحو الأهواز. وكان والي الأهواز يومها رجل تركي اسمه ـ أصغجون ـ فسار بجيشه للقاء جيش الزنج. والتقى الجيشان في صحراء دستماران ـ ودارت معركة قاسية

انتصر فيها الزنج. وقتل قائد جيش الأهواز ـ نيزك ـ وغرق أصغجون. وأسر كبار قادة جيش الأهواز. وكتب علي بن أبان إلى الخبيث صاحب الزنج بأمر الواقعة، وحمل إليه رؤوساً واعلاماً كثيرة. ودخل علي بن أبان الأهواز، فأقام يعيث بها وبما حولها من القرى.

كان أمير المؤمنين ـ المعتمد ـ قد نظم خلال ذلك جيشاً، أسند قيادته الى ـ موسى بن بغا ـ فوجهه لحرب الزنج. وخرج فشيعه الى ظاهر بغداد. وسار ـ موسى بن بغا ـ بجيشه بقيادة اسحاق بن كنداج الى البصرة. وأرسل قوة ثالثة بقيادة ابراهيم بن سيما الى ـ باذاورد ـ وأمرهم بالجد في محاربة صاحب الزنج.

ب ـ الصراع المرير لانتزاع النصر

وصل عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز، فأقام على ـ قنطرة أربك ـ عشرة أيام، ثم مضى لقتال الزنج الذين كان يقودهم علي بن أبان المهلبي ـ فهزمه المهلبي. وانسحب ابن مفلح فأعاد تنظيم قواته، ورجع بها. وقاتل المهلبي فهزمه، وأوقع به وقعة غليظة، وقتل من الزنج قتلاً ذريعاً، وأسر أسرى كثيرة، وهرب علي بن أبان ومن معه من الزنج حتى وصلوا إلى ـ بيان ـ وأراد الخبيث صاحب الزنج ردهم للقتال، فلم يرجعوا للذعر الذي خالط قلوبهم، فلما رأى ذلك، أذن لهم في دخول عسكره، فدخلوا جميعاً وأقاموا بمدينته. وتابع عبد الرحمن بن مفلح تقدمه حتى وصل إلى ـ حصن المهدي ـ وأقام معسكره فيه. فوجه إليه الخبيث صاحب الزنج جيشاً بقيادة ـ علي بن أبان ـ فهاجمه، ولكنه عجز عن النيل منه، فانسحب من المعركة، وتوجه نحو الموضع المعروف باسم ـ الدكر ـ. فهاجمه إبراهيم بن سيما بجيشه من ـ الباذاورد ـ وهزمه. فأعاد علي بن أبان تنظيم قواته وهاجم جيش ابراهيم، فكانت الهزيمة المنكرة من نصيبه في هجومه الثاني أيضاً. فمضى ـ علي بن أبان ـ منهزماً في جوف الليل، ومعه الأدلاء، فساروا به عبر الأجام والأدغال، حتى وصلوا به ـ نهر يحيى ـ. وعندما علم عبد الرحمن بن مفلح بمكانه، وجه إليه قوة بقيادة ـ طاشتمر ـ فلم يتمكن من الوصول الى نهر يحيى ـ بسبب وعورة الطريق، وامتناع علي بن أبان والزنج بحقول القصب. فعمل ـ طاشتمر ـ على

اضرام النار بالقصب، فخرج الزنج منه هاربين؛ فأسر منهم أسرى؛ وعاد الى قائده عبد الرحمن حاملاً معه الأسرى. ومضى علي بن أبان هارباً حتى وصل ـ نسوخاً ـ فأقام هناك فيمن بقي معه من الزنج. ثم سار الى ـ نهر السدرة ـ وكتب الى الخبيث يستمده بالرجال والسفن. فأرسل إليه ثلاث عشرة سفينة ـ شذاة ـ فيها جمع كبير من الزنج. فسار بهم لقتال عبد الرحمن بن مفلح، فخرج اليه عبد الرحمن بمن معه، غير أنه لم يحدث يوم لقائهما قتال. وتواقف الجيشان. فلما كان الليل، انتخب ـ علي بن أبان ـ جماعة من أصحابه ممن يثق بجلدهم وصبرهم، ومضى بهم بعد أن ترك معسكره في مكانه ليخفي أمر تحركه. وسار حتى وصل إلى ما وراء معسكر عبدالرحمن، ثم باغته بهجومه، فنال منه ومن أصحابه نيلاً. وانحاز عبد الرحمن عنه، وترك أربع سفن من سفنه، فأخذها علي وانصرف. وانسحب عبد الرحمن بجيشه الى ـ الدولاب ـ فأقام به، وأعد قوة من رجاله، وولى عليها ـ طاشتمر ـ وأرسلها لقتال ـ علي بن أبان ـ. فسارت هذه القوة حتى وصلت إلى ناحية ـ باب آزر ـ وهاجمت علي بن أبان. وأوقعت به وبقواته، وهرب ـ علي بن أبان ـ الى نهر السدرة. فكتب ـ طاشتمر ـ الى عبد الرحمن بانهزام علي عنه، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وصل الى ـ العمود ـ فأقام هناك، وأعد قواته للحرب، وهيأ سفنه، وأسند قيادتها الى ـ طاشتمر ـ ثم سار إلى فوهة نهر السدرة، فهاجم علي بن أبان. وقتل من الزنج عدداً كبيراً، وأخذ منهم عشر سفن، وهرب علي بن أبان، ورجع الى الخبيث مهزوماً مفلولاً. وسار عبد الرحمن من فوره الى ـ بيان ـ حيث أقام فيها معسكره. فكان عبد الرحمن بن مفلح، وابراهيم بن سيما، يتناوبان الهجوم على معسكر الخبيث، فيوقعان به، ويخيفان من فيه من الجند، بينما كان إسحاق بن كنداج يعمل في البصرة على قطع التموين والامدادات عن معسكر الخبيث. فكان الخبيث ـ صاحب الزنج ـ يجمع قواته في اليوم الذي يخاف فيه من هجوم عبد الرحمن بن مفلح، وإبراهيم بن سيما، إلى أن ينتهي الهجوم، ثم يوجه قوة منهم إلى ناحية البصرة لمهاجمة قوات إسحاق بن كنداج. وأقاموا على ذلك بضعة عشر شهراً، إلى أن وصل أمر أمير المؤمنين باستدعاء موسى بن بغا، وتعيين مسرور البلخي ـ لقيادة الحرب ضد الزنج وصاحبهم الخبيث.

★ ★ ★

وقعت في سنتي ٢٦٠ و ٢٦١ هـ (٨٧٣ و ٨٧٤ م) مجموعة من أعمال التمرد في طبرستان ورامهرمز ـ مما تطلب توجيه الجهد للقضاء على الثورات المستجدة. ورافق ذلك إعادة تنظيم في القيادات مرات متتالية، مما أفسح المجال أمام ـ الخبيث صاحب الزنج ـ لالتقاط أنفاسه واستعادة بعض قوته، وصار باستطاعته استئناف نشاطاته التخريبية.

★ ★ ★

كان أول ما فعله مسرور البلخي بعد تعيينه قائداً لنواحي دجلة، أن وجه قوة الى ـ الباذاورد ـ بقيادة ـ جعلان التركي. ووجه صاحب الزنج قوة بقيادة رجل من أهل ـ جبى ـ اسمه احمد بن مهدي ـ وجهزه بالسفن المحملة بالرجال رماة النشاب ـ فسار الجبائي في نهر المرأة، وأخذ في الاغارة على القرى ـ بنواحي المذار ـ فيعيث فيها، ويعود إلى نهر المرأة فيقيم به. ولما رأى ـ الجبائي ـ عدم وجود قوات لأمير المؤمنين في البطيحة ودست ميسان، كتب بذلك إلى صاحب الزنج. فوجه مجموعات من قواته. ودارت معارك متفرقة، استطاع الزنج في نهايتها السيطرة على البطيحة ودست ميسان. وكانت الوقعة بين الزنج وبين أحمد بن ليثويه. من أكبر الوقائع التي جرت في هذه السنة (٢٦٢ هـ = ٨٧٥ م). إذ كان مسرور البلخي قد وجه جيشاً بقيادة أحمد بن ليثويه الى ناحية الأهواز، فلما وصل إليها نزل بمدينة السوس. فبوغت بتحالف الصفارية(*) مع الزنج وبتوجيه جيش مشترك من الصفارية والزنج الى السوس. فجهز أحمد بن ليثويه للقاء هذا الجيش قبل أن يصل إلى السوس. ودارت معركة عنيفة انتصر فيها ـ ابن ليثويه ـ وقتل من الزنج وحلفائهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم جماعة،

(★) كان يعقوب بن الليث الصفار من قادة أمير المؤمنين المعتمد وولاته في خراسان، فلما كانت سنة ٢٥٩ هـ ـ طمع يعقوب في الاستيلاء على المشرق. ودخل هراة ونيسابور وبلاد فارس ودخل رامهرمز سنة ٢٦٢ هـ مما حمل أمير المؤمنين على السير بنفسه لمحاربته. وكان يعقوب قد عين ـ محمد بن عبيد الله بن أزاذ مرد الكردي على الأهواز ـ فلما علم هذا بتقدم جيش أحمد بن ليثويه، كتب الى الخبيث صاحب الزنج يعلمه انضمامه اليه، فأجابه الخبيث بأنه يوافق بشرط أن يكون علي ابن أبان هو والي الأهواز. وأن يكون محمد بن عبيد الله خلفاً له ـ ووافق هذا فوجه علي بن أبان جيشاً إلى محمد بن عبيد الله بقيادة أخيه الخليل بن أبان.

وسار أحمد بن ليثويه حتى جندي سابور. بينما سار علي بن أبان من الأهواز لدعم حليفه الصفاري ـ محمد بن عبيد الله الذي استقبله ومعه جمع من الأكراد والصعاليك. وسار الجيشان لقتال أحمد بن ليثويه؛ ولكنهما تحركا على طرفي ـ نهر المسرقان ـ. ونظما التعاون فيما بينهما. وعندما علم أحمد بن ليثويه بتحرك الجيش المشترك عاد عن جندي سابور، ووصل إلى السوس. وحدث خلاف بين الصفارية والزنج عندما وقف إمام المسجد في تستر، فدعا على المنبر للخليفة أمير المؤمنين ثم للصفار، ولم يذكر قائد الزنج، فقاد علي بن أبان جيشه من الزنج، ورجع إلى الأهواز، وعلم ـ أحمد بن ليثويه ـ بانصراف علي بن أبان وجيشه، فرجع بسرعة إلى تستر، وهاجم محمد بن عبيد الله ومن معه، فقتل منهم جماعة، وهرب محمد بن عبيد الله، ووقع أبو داود الصعلوك أسيراً، فأرسل الى أمير المؤمنين المعتمد، وأقام أحمد بن ليثويه ـ بتستر ـ. فلما علم علي بن أبان، خرج بجيشه لحرب ابن ليثويه، وسار حتى وصل إلى قرية اسمها ـ برنجان ـ. ووجه طلائعه لجمع المعلومات، فعادت هذه الطلائع بسرعة وأعلمته أن ابن ليثويه قد سار لقتاله، وأن أوائل خيله قد وصلت الى قرية اسمها ـ الباهليين ـ. فسار علي بن أبان للقائه، وهو يبشر أصحابه ويعدهم الظفر، فلما وصل بجيشه الى الباهليين، استقبله ابن ليثويه بمجموعة من فرسانه لا يزيدون على أربعمائة فارس، ولكن سرعان ما انضمت إليهم قوة أخرى من الفرسان. فكثرت خيول ابن ليثويه، واستأمن جماعة من الأعراب الذين كانوا مع علي بن أبان إلى ابن ليثويه، وانهزمت بقية قوة فرسان ـ علي بن أبان ـ وتفرق أكثر الزنج، واشتد القتال ضد المشاة، وترجل ـ علي بن أبان ـ وباشر القتال بنفسه راجلاً، ولكنه لم يلبث حتى فر هارباً، ولجأ إلى ـ المسرقان ـ وقذف نفسه بالماء، وأصابه سهم في ساقه، وانصرف مفلولاً، وقتل من جيشه جماعة كبيرة من أبطال جيشه المعروفين.

لم يتوقف ـ علي بن أبان ـ في الأهواز، وإنما مضى في سيره حتى لحق بمعسكر صاحب الزنج، وأقام فيه، وعالج ما قد أصابه من الجراح حتى برأ، ثم كر راجعاً إلى الأهواز (سنة ٢٦٣ هـ = ٨٧٦ م) ووجه جيشاً كثيفاً بقيادة أخيه ـ الخليل بن أبان ـ وابن أخيه ـ محمد بن صالح ـ لقتال أحمد بن ليثويه؛ الذي توافرت له

المعلومات عن تحرك هذا الجيش، فأسرع بقيادة جيشه، والتقى الجيشان على بعد فرسخ من الموقع الذي كان معروفاً باسم ـ معسكر مكرم ـ ونظم ـ ابن ليثويه ـ كميناً، وبدأ هجومه، ثم قام بمناورة خداعية تظاهر فيها بالانسحاب، فطمع الزنج فيه، وطاردوه حتى تجاوزوا الكمين، فخرج الكمين من ورائهم، فانهزموا وتفرقوا. وعاد ـ ابن ليثويه ـ بجيشه، فنال حاجته من الزنج، فرجعوا ممزقين مفلولين. وانصرف ابن ليثويه بجيشه الى ـ تستر ـ. ولكنه لم يستقر فيها طويلاً. فقد علم أن يعقوب بن الليث الصفار قد أقبل بجيشه من فارس، ووصل إلى ـ النوبندجان ـ فانسحب ـ أحمد بن ليثويه ـ من تستر، التي دخلها يعقوب ثم انتقل منها الى جندي سابور، وأرسل قوة إلى الأهواز بقيادة رجل اسمه ـ الحصن بن العنبر ـ. ولم يبق في تلك الناحية أحد من جند أمير المؤمنين.

وقع بعد ذلك صراع بين ـ الصفار والزنج، فعندما اقترب ـ الحصن بن العنبر ـ من الأهواز، خرج عنها علي بن أبان ونزل نهر السدرة؛ وجعل أصحابه وأصحاب الحصن يغير بعضهم على بعض، فيصيب كل فريق منهم من صاحبه، إلى أن استعد علي ابن أبان، فسار إلى الأهواز، وأوقع بالحصن ومن معه وقعة غليظة، قتل فيها من جند يعقوب خلقاً كثيراً، وغنم غنائم كثيرة، وأصاب خيلاً، وهرب الحصن ومن معه. وأقام علي بن أبان بالأهواز، واستباح ما كان فيها، ثم رجع عنها إلى نهر السدرة، وكتب إلى أحد قادته ـ واسمه بهبوذ ـ بالهجوم على رجل من الأكراد من أصحاب الصفار كان مقيماً في ـ دورق ـ. فهاجمه بهبوذ وقتل رجاله وأسره، فمن عليه وأطلقه. وكان علي بن أبان يتوقع بعد ذلك مسير يعقوب إليه، لكن يعقوب اكتفى بتوجيه قوة لدعم الحصن بن العنبر بقيادة أخيه ـ الفضل بن العنبر ـ وأمرهما بالكف عن قتال أصحاب الخبيث، والاقتصار على المقام بالأهواز، وكتب إلى علي بن أبان وسأله المهادنة. وتوقف الفريقان ـ أصحاب الصفار وأصحاب الزنج ـ عن التعرض بعضهم لبعض.

صار باستطاعة الزنج توجيه جهدهم ضد جيش أمير المؤمنين، بعد أن تم لهم الصلح مع الصفار. وكان قائد جيش أمير المؤمنين معسكراً في ـ بردودا ـ بقيادة تكين

البخاري. فسار سليمان بن جامع بجيشه حتى وصل إلى ـ أكرمهر ـ على بعد خمس فراسخ من معسكر ـ تكين ـ فعمل على حشد قواته من الفرسان والمشاة. ووجه قوة كافية في السفن بقيادة أحمد بن مهدي الجبائي للاشتباك مع جيش تكين وإتعابهم ثم التظاهر بالانسحاب حتى موقع جيش سليمان بن جامع، بحيث يمكن استدراج جيش تكين وتطويقه وتدميره. وتم تنفيذ الخطة بنجاح كبير، فتمت إبادة وتدمير معظم جيش تكين، وأعاد سليمان بن جامع تنظيم قواته، وباغت معسكر تكين بهجوم ليلي ـ بدأه عند المغرب ـ ودارت رحى معركة ضارية، انتهت بانتصار الزنج الذين دخلوا معسكر تكين وغنموا ما وجدوا فيه، وأحرقوه. وانصرف سليمان بن جامع بغنائمه وانتصاره. ثم حمل ما أراده من الغنائم والأعلام وسار إلى معسكر صاحب الزنج، لدراسة الموقف.

استمرت الحرب مع الزنج في هذه السنة (٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م). وهي متماثلة في أهدافها متشابهة في أساليبها وطرائقها، وكان من أبرز أحداثها دخول الزنج إلى واسط ونهبها وسبيها وهرب أهلها عنها. ثم تبع ذلك في السنة التالية (٢٦٥ هـ = ٨٧٨ م) تجدد القتال بين أحمد بن ليثويه وسليمان بن جامع كان النصر فيه لأحمد بن ليثويه على الزنج. وكذلك حقق تكين البخاري نصراً على الزنج وقائدهم علي بن أبان. ثم كان من أبرز أحداث سنة (٢٦٦ هـ = ٨٧٩ م) دخول الزنج الى رامهرمز. وتجدد الصراع بينهم وبين الصفارية. وبدأ التحول الحاسم في غير مصلحة الزنج اعتباراً من سنة (٢٦٧ هـ = ٨٨٠ م) حيث تولى أبو العباس بن الموفق قيادة الحرب وأمكن له طرد الزنج من جميع قرى دجلة. وقد يكون من المناسب التوقف عند هذه الموقعة التي كانت بمثابة نقطة التحول في الصراع ضد الزنج.

علم أبو أحمد المتوكل ما فعله الزنج بمدينة واسط وما نزل بأهلها من البلاء، فندب ابنه أبا العباس لحرب الزنج، وجهزه بجيش من الفرسان والمشاة ضم عشرة آلاف رجل، وخرج هذا الجيش بعد استعراضه في بغداد، وهو في أحسن زي وأجمل هيئة وأكمل عدة. ومعهم السفن والزوارق والمعابر. وسار أبو العباس بجيشه الى المدائن، ثم رحل إلى دير العاقول.

عندما توجه أبو العباس لحرب الزنج، اجتمع قادتهم، وبحثوا الموقف، فقالوا: **«هذا فتى حدث، لم تطل ممارسته الحروب وتدربه بها، فالرأي لنا أن نرميه بجدنا كله، ونجتهد في أول لقية نلقاه في إزالته، فلعل ذلك أن يروعه، فيكون سبباً لانصرافه عنا»**.

وجه أبو العباس من دير العاقول قوة استطلاع بقيادة قائد السفن ـ نصير المعروف بأبي حمزة ـ وسرعان ما وصلت رسالة من نصير إلى أبي العباس، أعلمه فيها أن سليمان ابن جامع قد أقبل بحشد كبير من المشاة والفرسان والسفن ونزل الجزيرة بحضرة ـ بردودا ـ وأن سليمان بن موسى الشعراني قد أقبل بقوة كبيرة أخرى من المشاة والفرسان والسفن فوصل إلى ـ نهر أبان ـ. وتحرك أبو العباس على الفور ووصل إلى ـ جرجرايا ـ ثم فم الصلح، فجاءته المعلومات بأن الزنج قد حشدوا معظم قواتهم في جيش ضخم وصل أوله الى ـ الصلح ـ وانتشر حتى بستان موسى بن بغا ـ في أسفل واسط ـ. فلما عرف ذلك، عدل في سيره عن الطريق، ودفع مقدمته، فاصطدمت بمقدمة قوات الزنج، ووقع اشتباك، تظاهر فيه جند أبو العباس بالهزيمة والانسحاب، وطمع الزنج واغتروا، وأمعنوا في مطاردتهم، وجعلوا يقولون لهم: **«اطلبوا أميراً للحرب، فإن أميركم قد شغل نفسه بالصيد»**. فلما قربوا من أبي العباس، خرج عليهم فيمن معه من المشاة والفرسان وأمر قائد مقدمته ـ نصير ـ بقوله: «إلى أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب! ارجع إليهم». فرجع نصير. وركب أبو العباس في إحدى السفن، ووجه قواته لتطويق الزنج، وسرعان ما أحاط بهم من كل جانب. **ومنح الله أبا العباس أكتافهم، يقتلونهم ويطردونهم، حتى وصلت المطاردة إلى ست فراسخ من الموضع الذي لقوهم فيه، وأخذوا منهم عدداً من الزوارق والسفن، واستأمن منهم قوم، وأسر منهم أسرى، وغرق منهم آخرون لم يتمكنوا من الوصول إلى السفن، فكان ذلك أول الفتح على أبي العباس بن أبي أحمد.**

لما انقضت الحرب في هذا اليوم، أشار على أبي العباس قواده وأولياؤه أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه ـ من الصلح ـ إشفاقاً عليه من مقاربة الزنج. فأبى إلا نزول واسط. وركب من غد، فدخل واسطاً في أحسن زي، وكان يوم

جمعة، فأقام حتى صلى بها صلاة الجمعة، واستأمن إليه خلق كثير، ثم انحدر إلى ـ العمر ـ وهو مكان على بعد فرسخ من واسط، فأقام فيه معسكره. وقال: «أجعل معسكري أسفل واسط، ليأمن من في واسط شر الزنج». وأخذ في بناء السفن والمعابر، وجعل يراوح القوم القتال ويغاديهم. ونظم الاستطلاع وتدابير الأمن، فوضع في كل زورق اثنين من خاصة غلمانه.

عمل ـ سليمان بن جامع ـ على إعادة حشد قوات الزنج وتنظيمها، وشكل منها ثلاث فرق: فرقة منها وجهها عن طريق نهر أبان ـ ووجه الفرقة الثانية عن طريق برتمرتا، ووجه الفرقة الثالثة عن طريق بردودا، ووضع خطته لمباغتة معسكر أبي العباس بالهجوم من ثلاث اتجاهات، ولكن أبا العباس كان مستعداً لمجابهة مثل هذا الاحتمال، ودارت معركة ضارية انتهت بهزيمة الزنج هزيمة منكرة، فتفرقوا في كل اتجاه، وطاردهم جند أبي العباس حتى اختفت آثارهم. ثم انصرف أبو العباس راجعاً، وأخذ في التوقف عند مفترق الطرق والدروب ـ لاستطلاعها ـ ومعه الأدلاء، حتى وصل معسكره، فأقام به مريحاً نفسه وأصحابه. ولم يلبث أن جاءه مخبر، فأعلمه أن الزنج قد أعادوا تجميع قواتهم، واستعدوا للإغارة على معسكره، ومهاجمته من ثلاث اتجاهات، وأنهم قالوا: «إن أبا العباس هو حدث غر ـ يغر بنفسه» وأنهم قد نظموا مجموعات لنصب الكمائن. فاستعد أبو العباس لمجابهة الهجوم. ثم توافرت له المعلومات بأن الزنج قد حشدوا في ـ برتمرتا ـ زهاء عشرة آلاف مقاتل، وحشدوا مثلها في ـ قس هثا ـ وأنهم دفعوا عبر النهر بعشرين سفينة كبيرة محملة بالجند تكون هي مقدمة الهجوم، حتى إذا ما تمكنت هذه القوم من اجتذاب جيش أبي العباس. خرجت عليه الكمائن من خلفه وهاجمته بقية القوات. فأصدر أبو العباس أمره بمنع الناس من مغادرة مواقعهم، أو القيام بمطاردة الجند المتقدمين عبر النهر. ونظم أبو العباس قواته تنظيماً رائعاً. ووجه قوة بقيادة قائد السفن ـ نصير المعروف بأبي حمزة ـ لمجابهة القوة المعادية. ودارت معركة ضارية على جبهة واسعة ـ من حد قرية الرمل إلى الرصافة ـ ثم كانت الهزيمة على الزنج، واستولى جند أبي العباس على أربع عشرة سفينة كبيرة من سفن الزنج، وهرب قائدا الزنج ـ سليمان بن جامع وأحمد بن مهدي الجبائي ـ بعد أن أشرفا على الهلاك. وفرا راجلين،

وأخذت دوابها بحلاها وآلتها. واستولى الجند على كثير من متاع الزنج وسلاحهم. وعاد أبو العباس الى معسكره في ـ العمر ـ. وأمر بإصلاح ما أخذ من الزنج من السفن والزوارق، وشحنها بالجند.

مضى على ذلك عشرون يوماً، لم يظهر خلالها أحد من الزنج؛ إلا ما كان من ـ الجبائي ـ الذي كان يجيء في الطلائع في كل ثلاثة أيام وينصرف، وقد عمل خلال هذه الفترة على حفر آبار كثيرة على طريق نهر سنداد، ثم غطاها وموهها وأخفى مواضعها. ولكن حدث أن سقط أحد الزنج في حفرة من هذه الحفر، أثناء مطاردة قام بها جند أبي العباس. فتم العمل لكشف بقية الآبار والحفر. ولما فشل الزنج في اجتذاب قوات أبي العباس، توقفوا شهراً آخر عن ممارسة أي نشاط قتالي.

كتب ـ سليمان بن جامع ـ رسالة إلى صاحب الزنج طلب فيها دعمه بسفن كبيرة، لكل واحدة منهن أربعون مجذافاً، فأرسل له أربعين سفينة بعد عشرين يوماً. ومع كل سفينة مقاتلان وملاحيها والسيوف والرماح والتراس. فوجه سليمان قوة بقيادة أحمد بن مهدي الجبائي للتمركز مقابل معسكر أبي العباس، ومعاودة التعرض له ومحاربته في كل يوم، فإذا ما خرج إليهم جند أبي العباس، انسحبوا من مواجهتهم، وتأتي الطلائع خلال ذلك، فتعمل على قطع القناطر، والرمي على الفرسان بالنشاب ـ السهام ـ وكذلك إضرام النار بما يمكن العثور عليه من سفن ـ نصير ـ واستمر الجبائي في ممارسة هذه الأعمال زهاء شهرين. وعمل أبو العباس من جانبه على تنظيم كمين ـ في قرية الرمل ـ فدفع بمجموعة من السفن أمام الجيش حتى يطمع الزنج فيها، وأعد مجموعة من السفن شحن فيها نخبة مختارة من مقاتليه الأشداء وخصص واحدة منها لركوبه ـ فكان عددها خمس عشرة سفينة، وأمر بوضعها في مقدمة الجيش وأسرع الزنج لمهاجمة السفن، واستولوا على بعضها، وأسروا أسرى، وارتفع النداء: «لقد أخذ الزنج سفننا» فسمع أبو العباس النداء وهو يتغدى، فنهض إلى سفينته التي كانت قد أعدت له، وتقدم الجيش، ولم ينتظر لحاق قادته وجنده، فتبعه منهم من أسرع بالركوب. ووصلوا الى الزنج، فلما شاهد الزنج ذلك، قذف الله الرعب في قلوبهم، فقذفوا أنفسهم في الماء وانهزموا، وتم استخلاص ما كان الزنج قد أخذوه، واستولوا

على إحدى وثلاثين سفينة من سفن الزنج. وهرب ـ الجبائي ـ في ثلاث سفن. وأراد الجند مطاردة الزنج، غير أن أبا العباس منعهم لما أصاب جنده من اللغوب ـ شدة التعب ـ وعاد بهم إلى معسكره، وترك قوة كافية عند فوهة نهر ـ بردودا ـ فلما دخل معسكره، أمر لمن كان صحبه بالأطواق والخلع والأسورة، وأمر بإصلاح السفن التي تم أخذها من الزنج، وأمر أبا حمزة أن يجعل مقامه بما معه من السفن في دجلة ـ بحذاء خسرو سابور ـ. وقرر أبو العباس بعدها أن يتوغل في ـ نهر مازروان ـ والوصول إلى قرية الحجاجية ومنها إلى ـ نهر الأمير ـ لاستطلاع تلك المواضع، والتعرف على الطرق التي تتبعها سفن الزنج؛ فأمر ـ نصير ـ بالتقدم بما معه من السفن والزوارق، وسار يتبعه، حتى إذا ما اقترب من الحجاجية، شاهد عبارة للزنج وعليها عشرة منهم، فأسرع جند أبي العباس إليها، وقذف الزنج بأنفسهم في الماء، وتم الاستيلاء على العبارة، فاذا هي مملوءة بالشعير، وقد بقي فيها زنجي واحد، تم استجوابه فأفاد بأنه لم يشاهد أي سفينة من سفن ـ نصير ـ واحتار أبو العباس في أمره، ثم شاهد الجند على شاطىء النهر أغناماً، فخرجوا لانتهابها ولم يبق مع أبي العباس إلا نفر قليل. وبدأ الزنج في الظهور على طرفي النهر، وقد أنذرهم أصحابهم الذين هربوا من العبارة، وسرعان ما تكاثر جمعهم حتى زادوا على الألفين. وأخذ أبو العباس يرميهم بالنشاب، فأصاب منهم جنديين، والتحقت بأبي العباس في هذه اللحظة الحرجة قوة من قواته، فاشتبكت مع الزنج وتمكنت من تفريقهم وإلحاق الهزيمة بهم. وعاد أبو العباس إلى معسكره، وقد غنم جنده من الغنم والبقر والجواميس شيئاً كثيراً. **وأمر أبو العباس بثلاثة من الملاحين الذين كانوا معه وتركوه لانتهاب الغنم، فضربت أعناقهم، وأمر لمن بقي معه بالأرزاق والتموين لشهر، وأمر بالنداء في الملاحين ألا يبرح أحد سفينته أثناء المعركة، فمن فعل ذلك فقد حل دمه ـ جاز قتله ـ.**

انهزم الزنج أجمعون، وساروا متفرقين حتى لحقوا بمعسكر ـ طهيثا ـ وجمع سليمان ابن جامع جنده وعمل على تحصين طهيثا. وفعل سليمان بن موسى الشعراني مثل ذلك بسوق الخميس. وكان في مدينة ـ الصينية ـ جيش كثيف للزنج بقيادة نصر السندي ـ فانطلقوا يخربون كل ما وجدوا إلى تخريبه سبيلاً ـ ويحملون ما قدروا على حمله من

الغلات والمواد التموينية. ويعملون على تحصين مواضعهم. فعمل أبو العباس على بث طلائعه في جميع النواحي، ثم وجه جماعة من قادته الى ـ الصينية ـ. وركب مع قوة من جنده في السفن، وأمر بنقل خيول من بر مساور إلى طريق الظهر. ثم سار الجيش حتى وصل إلى ـ الهرث ـ وأمر بنقل خيول أخرى إلى الهرث، فعبرت وصارت إلى الجانب الغربي من دجلة؛ وسارت على طريق درب العمال. فلما أبصر الزنج الخيل، دخلتهم منها رهبة شديدة، فلجؤوا إلى الماء والسفن ولم يلبثوا حتى باغتتهم السفن والزوارق، فلم يجدوا ملجأ واستسلموا، فقتل منهم فريق وأسر فريق، وألقى بعضهم نفسه في الماء، واستولى جند أبي العباس على سفنهم وهي مملوءة أرزاً، كما استولوا على سفينة رئيسهم نصر السندي، وانهزم الباقون، فلحقت فئة منهم بمعسكر ـ طهيثا ـ بينما لحقت فئة أخرى بمعسكر ـ سوق الخميس ـ. ورجع أبو العباس غانماً إلى معسكره، وقد فتح الصينية وأجلى الزنج عنها.

علم أبو العباس أن جيشاً عظيماً من الزنج بقيادة ثابت بن أبي دلف ولؤلؤ الزنجيان، فانتخب أبو العباس مجموعة من خيرة مقاتليه وسار بهم على خيل سريعة، فوافى جمعهم في ـ عبدسي ـ عند السحر، فأوقع بهم وقعة غليظة، قُتل فيها من أبطالهم ومن رجالهم الأشداء خلق كثير، وانهزموا. وظفر أبو العباس بقائدهم ـ ثابت بن أبي دلف ـ، فمنَّ عليه واستبقاه وضمه إلى بعض قادته. وأصاب لؤلؤاً سهم فهلك منه، واستنقذ يومئذ من النساء اللواتي كن في أيدي الزنج خلقاً كثيراً. فأمر أبو العباس بإطلاقهن وردهن إلى أهلهن، وأخذ كل ما كان الزنج جمعوه. وأمر أبو العباس أصحابه، بعد أن عاد بهم إلى معسكره، بأخذ قسطهم من الراحة، ليسير بهم الى ـ سوق الخميس ـ ودعا نصيراً فأمره بتعبئة أصحابه للمسير إليها، حتى إذا ما أنهى استعداداته، سار بجيشه حتى وصل مجمع أنهار ثلاثة: نهر براطق، ونهر الرق، والنهر الذي يؤدي إلى رواطا وعبدسي. وسار نصير في نهر براطق، وأقام أبو العباس على فوهة النهر، وغاب عنه نصير، وخرج جمع كبير من الزنج، فمنعوا قوات أبي العباس من دخول النهر، وأخذوا يحاربون هذه القوات ويصيحون بها: «قد أخذنا نصيراً فماذا تصنعون» وسمع ذلك أبو العباس فوجه سفينة

استطلاع ـ ذات عشرين جذافاً ـ بقيادة محمد بن شعيب لمعرفة أخبار نصير. وعندما رجع محمد بن شعيب من مهمته، أعلم أبا العباس بأن الزنج قد أقاموا سداً على النهر، وأنهم أخذوا بعض سفن نصير، فقاتلهم نصير قتالاً شديداً، وأحرق السد، كما أضرم النار في مدينة للزنج، واستعاد السفن التي أخذها الزنج في بداية الأمر، وأنه أسر منهم جماعة كثيرة. وانتظر أبو العباس حتى إذا ما قارب النهار نهايته، نظم كميناً واجتذب قوة من الزنج، وخاض معهم معركة ضارية، **وأصابت أبا العباس وأصحابه سهام كثيرة ـ حتى انتزع من لبادة أبي العباس التي تستر الدرع خمس وعشرون نشابة وانتزعت من لبادة أحد أصحابه أربعون نشابة، وكذلك من لبابيد سائر الملاحين.**

وأظفر الله أبا العباس بست سفن كبيرة من سفن الزنج، وانهزموا، واتجه أبو العباس وجنده نحو الشط، وخرج من الزنج المقاتلة بالسيوف والتراس، ثم انهزموا لا يلوون على شيء للرهبة التي وصلت إلى قلوبهم، ورجع أبو العباس سالماً غانماً، فخلع على الملاحين.

علم الموفق أبو أحمد بن المتوكل أن صاحب الزنج قد كتب إلى قائده ـ علي بن أبان المهلبي ـ رسالة أمره فيها بزج كل قواته لدعم سليمان بن جامع، وأن يجتمعا على حرب أبي العباس بن أبي أحمد ـ. فقرر السير بنفسه، وخرج من مدينة السلام بجيش كثيف، وسار به حتى نزل على فرسخ من واسط، فأقام هنالك يومه وليلته، فتلقاه ابنه أبو العباس في قوة من الفرسان فيها وجوه قادته وجنده، فسأله أبو أحمد عن خبر أصحابه، فوصف له بلاءهم ونصحهم، فأمر أبو أحمد له ولهم بخلع فخلعت عليهم. وانصرف أبو العباس إلى معسكره في ـ العمر ـ فأقام يومه، فلما كانت صبيحة الغد، رحل أبو أحمد منحدراً في الماء، وتلقاه ابنه أبو العباس بجميع من معه من الجند في هيئة الحرب والزي الذي كانوا يلقون به أصحاب الخائن، فجعل يسير أمامه حتى وصل الى نهر ـ شيرزاد ـ. ثم الى فوهة ـ بر مساور ـ في اليوم التالي؛ وأقام يومين، ثم رحل نحو مدينة ـ سوق الخميس ـ ومعه نخبة ممن اختارهم من الفرسان والمشاة، وخلف معظم جنده وكثيراً من المشاة والفرسان في معسكره. واستقبله ابنه أبو العباس ومعه

أسرى ورؤوس قتلى، من أصحاب سليمان بن موسى الشعراني، وكان أبو العباس قد اصطدم وهو يتقدم قوات أبيه، بقوة من زنج الشعراني، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم جماعة، فأمر أبو أحمد بضرب أعناق الأسرى، فضربت. ثم أمر بنقل الخيول ـ وفرسانها ـ للتحرك على جانبي نهر ـ براطق ـ وأمر ابنه أبا العباس بالتقدم في السفن والزوارق، واتبعه أبو أحمد ببقية الجيش. فلما بصر سليمان ومن معه من الزنج وغيرهم تحرك الجيش، اشتبكوا معه، وسرعان ما انهزموا وتفرقوا. وصعد أصحاب أبي العباس سور المدينة، ووضعوا السيوف فيمن لقيهم، وتفرق الزنج وأتباعهم، ودخل جند أبي العباس المدينة، فقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا بشراً كثيراً، وحووا ما كان في المدينة، وهرب الشعراني ومن أفلت منهم معه، وطاردهم جند أبي أحمد حتى وصلوا البطائح. فغرق من الزنج خلق كثير، ولجأ الباقون الى الآجام. وأمر أبو أحمد جنده بالعودة الى معسكرهم قبل غروب الشمس، **وانصرف وقد استنقذ من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة، سوى من ظفر به من الزنجيات اللواتي كن في سوق الخميس. فأمر أبو أحمد بحياطة النساء جميعاً، وحملهن إلى واسط، ليدفعن إلى أوليائهن.**

بات الموفق أبو أحمد ليله في معسكره على ضفة نهر براطق، ثم باكر المدينة من غد، فأذن للناس بالاستيلاء على ما في المدينة من أمتعة الزنج، وأخذ ما كان فيها أجمع، وأمر بهدم سورها وردم خندقها، وإحراق ما كان بقي فيها من السفن. وعاد إلى معسكره في ـ بر مساور ـ وقد ظفر بما في النواحي والقرى التي كانت في يد الشعراني وأصحابه من غلات الحنطة والشعير والأرز، فأمر ببيع ذلك، وصرف ثمنه في اعطيات مواليه وغلمانه وجنده وأهل عسكره. وانهزم سليمان الشعراني وأخواه ومن أفلت، وسلب الشعراني ولده وما كان بيده من مال، ولحق بالمذار ـ فكتب الى الخائن بخبره، وما نزل به، واعتصامه بالمذار. وأصيب صاحب الزنج بصدمة أذهلته وقصمت ظهره، فأسرع وكتب إلى سليمان بن جامع، وحذره من مثل ما نزل بالشعراني، وأمره بالتيقظ في أمره والدفاع عن منطقته.

أقام الموفق أبو أحمد بمعسكره في ـ بر مساور ـ لمدة يومين، عمل خلالهما على ارسال

عناصر استطلاعه وعيونه ـ جواسيسه ـ لجمع المعلومات عن الشعراني وسليمان بن جامع. وتوافرت المعلومات عن إقامة سليمان بن جامع ـ بمدينة طهيثا والتي سماها سليمان باسم مدينة المنصورة ـ. فأمر أبو أحمد بالرحيل إلى ـ بردودا ـ إذ كان المسلك إلى طهيثا منه، وتقدم أبو العباس في السفن والزوارق، وأمر من خلفه في ـ بر مساور ـ بالانتقال جميعاً الى ـ بردودا ـ **وأقام أبو أحمد في بردودا، وأمر بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من أمر عسكره، وأمر بوضع العطاء، وإصلاح سفن الجسور ليحدرها معه، واستكثر من العمال والآلات التي تسد بها الأنهار وتصلح بها الطرق للخيل، ثم خلف حامية في بردودا بقيادة بغراج التركي**. وسار حتى وصل الى نهر ـ مهروذ ـ وأمر بإقامة جسر على هذا النهر، فعبر الفرسان والأثقال، وسار الى ـ طهيثا ـ وألقى حصاراً عليها، واصطدم قرب أسوار المدينة بجمع كبير من الزنج. وخرج عليه كمناء من مواضع شتى، ونشبت الحرب واشتدت، فترجل جماعة من الفرسان، ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التي كانوا وغلوها. **ورمى أبو العباس سهماً أصاب فيه أحمد بن مهدي الجبائي في إحدى منخريه، فخرق كل شيء وصل إليه حتى خالط دماغه، فخر صريعاً، ثم هلك، فعظمت المصيبة على صاحب الزنج**. واشتد جزعه. وعاد أبو أحمد الى معسكره، وأمر جنده بالتحارس ليلتهم والتأهب للحرب. فلما أصبحوا ـ عبأ أبو أحمد جيشه، وجعلهم كتائب يتلو بعضهم بعضاً، فرساناً ومشاة؛ وأمر بالسفن والزوارق أن يسار بها معه في نهر المنذر الذي يخترق مدينة طهيثا. وسار نحو الزنج، حتى انتهى إلى سور المدينة، فرتب قادة جنده في المواضع التي يخاف خروج الزنج عليه منها، وقدم المشاة أمام الفرسان، وترك قوات بالمواضع التي قد يخرج الكمناء منها. ونزل فصلى أربع ركعات، وابتهل الى الله عز وجل في النصر له وللمسلمين. ثم دعا بسلاحه فلبسه. وأمر ابنه أبا العباس بالتقدم الى السور، وتحضيض الجند على الحرب، ففعل ذلك.

كان الزنج قد حصنوا مدينتهم بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به. فلما وصل جند جيش أبي أحمد، تهيبوا عبور الخندق الأول، وأحجموا عنه، فحرضهم قوادهم، وترجلوا معهم، فاقتحموه متجاسرين عليه، وعبروه،

ووصلوا الى الزنج المدافعين عن السور، فوضعوا السيوف فيهم. وعبرت شرذمة من الفرسان الخندق خوضاً، فلما رأى الزنج إقدام الجند، ولوا منهزمين، واتبعهم جند أبي أحمد، وجعلوا يقفون عند كل سور وخندق إذا انتهوا إليه، وجعل جند أبي أحمد يكشفونهم في كل موقف وقفوه، حتى وصلوا اسوار المدينة. ودخلت السفن والزوارق المدينة من النهر، وأخذت في اغراق كل ما مرت لهم به من السفن والزوارق، وانقضوا على من بجافتي النهر، يقتلون ويأسرون، حتى أجلوا الزنج عن المدينة وعما اتصل بها. وأفلت - سليمان بن جامع - في نفر من أصحابه، فاستحر القتل فيهم والأسر،

واستنقذ أبو أحمد من نساء أهل واسط وصبيانهم، ومما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زهاء عشرة آلاف، فأمر أبو أحمد بالعناية بهم والانفاق عليهم وحملوا إلى واسط، ودفعوا إلى أهليهم. واحتوى أبو أحمد وجنده على كل ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي. وكان ذلك شيئاً جليل القدر. فأمر أبو أحمد ببيع ما أصاب من الغلات وغير ذلك، وحمله إلى بيت ماله، وصرفه في أعطيات من في عسكره من مواليه وجنوده، فحملوا من ذلك ما تهيأ لهم حمله، وأسر من نساء سليمان وأولاده عدة. ولجأ جمع كثير من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة. فأمر أبو أحمد فعقد جسراً على نهر المنذر، فعبر الناس إلى غربيه، وأقام أبو أحمد في - طهيثا - سبعة عشر يوماً. وأمر بهدم سور المدينة وردم خنادقها ومطاردة الزنج في الآجام. وجعل لكل من أتاه برجل منهم مكافأة - جعلاً -. فتسارع الناس لمطاردتهم.

فكان إذا أتي بالواحد منهم عفا عنه، وخلع عليه، وضمه الى قادة جنده بهدف استمالتهم وصرفهم عن طاعة صاحب الزنج. ووجه أبو أحمد قوة بالسفن والزوارق لمطاردة سليمان بن جامع ومن هرب معه من الزنج وغيرهم. وتقدم في فتح النواحي التي كان الفاسق يسيطر عليها لعزله ومنعه من الوصول الى دجلة، وعمل أثناء إقامته في - طهيثاً - على إعادة السكان الذين كان الفاسق قد طردهم من دورهم وحقولهم. ثم عاد - أبو أحمد - إلى معسكره في - بردودا - بعد أن تم له إحكام ما أراد إحكامه من أمور النواحي، وبدأ استعداداته على الفور للسير إلى الأهواز، وأرسل من يقوم

بإصلاح الطرق والمنازل وإعداد المواد التموينية وتخزين ما يحتاجه الجيش منها. وعندما انهى أبو أحمد استعداداته انحدر من واسط. واجتاح الأقاليم بسرعة حتى وصل السوس.

علم الفاسق ـ صاحب الزنج ـ، بما تعرضت له قواته في ـ طهيثا ـ وسواها. فأصابه الاضطراب، ونزل به الهلع. فكتب الى عامله في ـ الأهواز ـ وكان معه زهاء ثلاثين ألفاً من المقاتلين، وأمره بترك كل ما عنده من الأثاث والمواد التموينية والأغذية، والسير إليه بسرعة. فامتثل العامل للأمر وسار بجيشه. وترك في جبى والأهواز من أصناف الحبوب والتمر والمواشي شيء عظيم. وكتب الفاسق أيضاً الى عامله على الفندم والباسيان وما اتصل بهما من النواحي والقرى بين الأهواز وفارس. وأمره بالقدوم عليه. وجاء جيش أبي أحمد فاستولى على ما وجده في الأهواز وفي هذه النواحي من الطعام والتمر، فكان ذلك قوة له على الفاسق، وضعفاً للفاسق. وتفرق الزنج في القرى، وانتهبوها وأجلوا عنها أهلها. وتخلف خلق كثير من الفرسان والمشاة، فأقاموا بنواحي الأهواز، وكتبوا يسألون أبا أحمد الأمان، لما سمعوه من عفوه عمن ظفر بهم من الزنج في ـ طهيثا ـ. ورحل أبو أحمد عن السوس، وسار الى ـ جندي سابور ـ ثم سار منها الى ـ تستر ـ. وأقام أياماً بالأهواز فأعاد تنظيم أمورها، وجمع ما يحتاجه من المواد التموينية وأشرف على اصلاح القناطر والجسور. وجاءه زهاء ألف رجل من رجال صاحب الزنج، فأحسن إليهم، وضمهم الى قادة جنده. ووقعت مجموعة من المعارك والاشتباكات العنيفة انتصر فيها جند أبي أحمد بفضل استعدادهم الدائم للقتال، وبفضل ما كان يقدمه المستأمنون تباعاً من المعلومات عن تحركات قادة الزنج ومخططاتهم، مما كان يتيح الفرصة أمام قادة ابي أحمد لإعداد المخططات المعاكسة ونصب الكمائن، واستدراج قادة الزنج وقواتهم للمعركة.

سار أبو أحمد ونزل بجنده على ضفة ـ نهر المبارك ـ في منتصف شهر رجب سنة ٢٦٧ هـ ـ وكان أول ما فعله هو أن كتب كتاباً الى قائد الزنج: **«دعاه فيه الى التوبة والإنابة إلى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوة والرسالة، ويعلمه أن التوبة له مبسوطة، والأمان له**

موجود، فإن هو نزع عما هو عليه من الأمور التي يسخطها الله، ودخل في جماعة المسلمين، محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمه، وكان له الحظ الجزيل في دنياه» . أرسل أبو أحمد كتابه هذا مع رسوله الى الخبيث، والتمس الرسول ايصاله، فامتنع أصحاب الخبيث من ايصال الكتاب، فألقاه الرسول اليهم، فأخذوه وأتوا به الى الخبيث، فقرأه، فلم يزده ما كان فيه من الوعظ، إلا نفوراً وإصراراً، ولم يجب عن الكتاب بشيء، وأقام على اغتراره، ورجع الرسول الى أبي أحمد فأخبره بما فعل، وأقام أبو أحمد زهاء اسبوع وهو مشغول بتجهيز السفن والزوارق وتنظيم القوات، وتخير الرماة وترتيبهم، ثم سار بجيشه، ومعه ابنه أبو العباس الى مدينة الخبيث - التي سماها المختارة وتقع على نهر أبي الخصيب - فأشرف عليها وتأملها، فرأى من منعتها وحصانتها بالسور والخنادق المحيطة بها، وما تم تخريبه من الطرق المؤدية إليها، وكذلك ما تم إعداده من المجانيق والعرادات وسائر الآلات التي جهزت بها الأسوار لحمايتها والدفاع عنها، مما لم ير مثله ممن تقدم من الخارجين على أمير المؤمنين. وأمر أبو أحمد ابنه أبا العباس بالتقدم الى سور المدينة، ورشق من عليه بالسهام، ففعل ذلك، ودار اشتباك عنيف، وأصابت الجراح جند الطرفين، واستمر الاشتباك الى الليل. **وكان جيش أبي أحمد يضم خمسين ألف رجل، والفاسق يومئذ في زهاء ثلاثمائة ألف إنسان، كلهم يقاتل ويدافع، فمن ضارب بسيف وطاعن برمح وقاذف بمقلاع ورام بعرادة . او منجنيق، وأضعفهم أمر الرماة بالحجارة عن أيديهم وهم النظارة المكثرون السواد، والمعتنون بالنعير والصياح، والنساء يشركنهم في ذلك.**

أقام أبو أحمد معسكره بإزاء مدينة الفاسق، وأمر فنودي أن الأمان مبسوط للناس، أسودهم وأبيضهم، إلا الخبيث، وأمر بسهام فعلقت فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان مثل الذي نودي به، ووعد الناس فيها الإحسان، ورمي بها الى معسكر الخبيث، فمالت إليه قلوب أصحاب المارق بالرهبة والطمع فيما وعدهم من إحسانه وعفوه. وأتاه جمع كثير. وعرف أبو أحمد أن أمره سيطول، فأمر ببناء المدينة - التي حملت اسم الموفقية - وحملت اليها المواد التموينية والأرزاق، وأقبل التجار بصنوف التجارات والأمتعة، واتخذت الأسواق فعمرت المدينة بسرعة. كل ذلك، والاشتباكات والاغارات مستمرة. وحاول صاحب الزنج في احدى هجماته الوصول الى

معسكر المسلمين، ففشل في ذلك، وقتل منهم كثير، **وأسر قائد كبير من قادة الزنج اسمه ـ صندل الزنجي ـ فلما حمل الى أبي أحمد أمر به فرمي بالسهام، ثم أمر به فقتل، جزاء وفاقاً، لأنه كان يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهن، ويقلبهن تقليب الإماء، فإن امتنعت منهن امرأة ضرب وجهها ودفعها الى بعض علوج الزنج يبيعها بأوكس الثمن، وكثر المستأمنة من الزنج وغيرهم وتتابعوا، فبلغ عدد من وافى معسكر أبي أحمد منهم خلال هذه الفترة خمسة آلاف رجل من بين أبيض وأسود**. تابع ـ أبو أحمد تضييق الخناق يوماً بعد يوم على صاحب الزنج، الذي حاول فك طوق الحصار، وتنظيم اغارات مباغتة على معسكر أبي أحمد، لكن الفشل كان من نصيبه في معظم الأحيان، وكان كل يوم يمضي يزيد من ضعف صاحب الزنج، ويدفع بالمزيد من رجاله للانضمام الى معسكر أبي أحمد، واستمرت الحرب طوال عامين (٢٦٨ و ٢٦٩ هـ = ٨٨١ و ٨٨٢ م) الى أن تمكن الموفق أبو أحمد من اقتحام مدينة صاحب الزنج وقد امكن له قبل ذلك إحداث ثغرات في سور المدينة، ولكن صاحب الزنج تمكن في كل مرة من سد الثغرات، وإصلاح الاضرار، كما استطاع باستمرار تأمين دعم لقواته، مما ساعده على الاستمرار في المقاومة. ونزل بجند أمير المؤمنين أذى كثيراً، ولكن أبو أحمد تمكن من معالجة كل المواقف بحكمة بالغة وكفاءة عالية، مما أرغم صاحب الزنج في النهاية على الانتقال من غربي نهر أبي خصيب الى شرقيه، وانقطعت عنه الميرة من كل وجه. وكان أبو أحمد قد طبق سياسة حازمة ضد الأعراب الذين كانوا يمدون صاحب الزنج بالميرة ـ والمواد التموينية ـ فبات صاحب الزنج في ضيق شديد. وظهر لأبي أحمد ان الثمرة قد أينعت. فقرر السير بالحرب حتى نهايتها، وقد يكون بالمستطاع تجاوز سلسلة المعارك والأحداث التي استمرت طوال السنتين الاخيرتين من الحرب، للتوقف عند تلك النهاية الظافرة التي ارتبطت بالعمل الدؤوب الذي قاده ووجهه الموفق أبو أحمد بن المتوكل؛ وعمل معه ابنه أبو العباس، إلى جانب عدد من القادة الذين برهنوا على إخلاص رائع، وإيمان راسخ للقضية التي يحاربون من أجلها، قضية الانتصار للإسلام، **والعمل للطاعة** والجماعة.

جـ - الأيام الأخيرة - والنصر الحاسم

اعتاد الموفق أبو أحمد على مغاداة الفاسق الحرب ومراوحته، وكان الخبيث - صاحب الزنج - قد أعاد بناء بعض الثلم التي ثلمت في السور، فأمر الموفق بهدم ذلك، وهدم ما يتصل به. وركب في عشية من العشايا في أول وقت العصر، وقد كانت الحرب متصلة في ذلك اليوم، مما يلي نهر منكي، والفسقة مجتمعون في تلك الناحية قد شغلوا أنفسهم بها، وظنوا أنهم لا يحاربون إلا فيها، فوصل الموفق وقد أعد الفعلة، وتقرب في نهر منكي، وناوش الفسقة فيه، حتى إذا استعرت الحرب، أمر الجذافين أن يحثوا السير ففعلوا، ووصلوا الى - جوي كور - وهو نهر متفرع عن دجلة - وقد خلا من المقاتلة والرجال، فأخرج الفعلة، فهدموا من السور ما كان يلي ذلك النهر، وصعد المقاتلة وولجوا النهر، فقتلوا فيه من الزنج مقتلة عظيمة، ووصلوا الى قصور من قصورهم، فانتهبوا ما كان فيها وأحرقوها واستنقذوا عدداً من النساء اللواتي كن فيها، وأخذوا خيلاً من خيولهم فحملوها إلى غربي دجلة، وانصرف الموفق في وقت غروب الشمس بالظفر والسلامة، وغاداهم الحرب والقصد لهدم السور، فأسرع فيه، ودارت معركة ضارية، وسقط عدد كبير من القتلى، وزاد عدد الجرحى على الألفين، واستطاع جند الموفق في النهاية الوصول الى منزل صاحب الزنج واحراقه مع احراق القصور المجاورة والتي كانت لكبار أصحاب الزنج. واضطرمت النار في هذه البيوت، واتصلت بما يليها، وأعجلت النار الخبيث فخرج هارباً، وصعد غلمان الموفق قصر الخبيث، فانتهبوا ما لم تأت النار عليه من الأمتعة الفاخرة والذهب والفضة والجوهر والحلي وغير ذلك، واستنقذوا جماعة من النساء اللواتي كان الخبيث استرقهن. ودخل غلمان الموفق سائر دور الخبيث فأضرموها ناراً، وعظم سرور الناس بما هيأ الله لهم في هذا اليوم.

لقد ظهرت في معركة هذا اليوم فائدة ظلال الخشب التي أمر بصنعها الموفق لحماية السفن، والتي تمت تغطيتها بجلود الجواميس، وتغطية ذلك بالخيش المطلي بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الاحراق، فقد أمكن بذلك حماية

الراحمة والغاشية وجماعة الحذاق النفاطين الذين قاموا بإحراق دار الفاسق صاحب الزنج، ودور أصحابه. وفي هذا اليوم أيضاً عمل أبو العباس على قطع سلسلة حديد عظيمة وثيقة كان الخبيث قطع بها نهر أبي الخصيب ليمنع السفن من دخوله، وحازها، فحملت في بعض سفنه.

كان الموفق أبو أحمد مريضاً يعاني من وجع المفاصل ـ فاشتدت علته، وانصرف لمدة شهرين ـ شعبان ورمضان ـ فلما استبل من علته وتماثل، أمر بإعداد ما يحتاج إليه لحرب الفسقة، فتأهب لذلك جميع أصحابه.

أفاد الخبيث عدو الله من انشغال الموفق بعلته، فعمل على إعادة بناء القنطرة القائمة على نهر الخصيب، وزاد فيها ما ظن انه قد أحكمها، ونصب دونها أدقال ساج وصَل بعضها ببعض وألبسها الحديد، وأقام سداً بالحجارة ليضيق المدخل فيمنع السفن من الدخول. كما أن إقامة السد، قد زادت من شدة التيار، فبات قادراً على جرف السفن، فأمر الموفق قائدين من قادته بقيادة اربعة آلاف مقاتل، وأن يتقدما كل على جانب من جانبي النهر ـ شرقيه وغربيه ـ حتى يصلا الى القنطرة التي أصلحها الفاجر، وما عمل في وجهها من السد ـ السكر ـ فيحاربا أصحاب الخبيث حتى يجلياهم عن القنطرة، وأعدّ معهما النجارين والفعلة لقطع القنطرة والسدود التي وضعت أمامها. وأمر بإعداد سفن محشوة بالقصب المصبوب عليه النفط، لتدخل النهر وتضرم النار فتحرق بها القنطرة في وقت المد. وركب الموفق في الجيش حتى وصل الى فوهة نهر أبي الخصيب ـ وأمر بإخراج المقاتلة في عدة مواضع من أعلى معسكر الخبيث وأسفله، ليشغلهم بذلك عن التعاون مع الجند المدافعين عن القنطرة. وتقدم القائدان في جندهما، وتلقاهما أصحاب الخائن من الزنج يقودهم ابنه ـ أنكلاي ـ وعلي بن أبان المهلبي وسليمان بن جامع، فاشتبكت الحرب بين الفريقين، ودامت، وقاتل الفسقة أشد قتال دفاعاً عن القنطرة. فكثر القتل والجراح بين الفريقين، واتصلت الحرب إلى وقت صلاة العصر. ثم إن جند الموفق أزالوا الفسقة عن القنطرة وجاوزوها. وأخذ النجارون والفعلة في هدم القنطرة، ولكن تعذر عليهم الاسراع في هدمها بسبب إحكام بنائها وقوتها وقوة السدود التي تحميها. فأمر الموفق عند ذلك، بإدخال السفن التي فيها

القصب والنفط، وضربها بالنـار. وإرسـالها مـع الماء، ووصلـت السفـن الى القنطـرة فأحرقتها، وتمكن النجارون من قطع السدود وتدميرها. واستطاع أصحاب السفن دخول النهر فدخلوه. وكشفوا أصحاب الفاجر عن مواقفهم حتى وصلوا إلى الجسر الأول الذي يتلو هذه القنطرة، وقتل من الفجرة خلق كثير، واستأمن فريق منهم، فأمر الموفق أن يخلع عليهم في ساعتهم تلك، وأن يوقفوا بحيث يراهم أصحابهم، ليرغبوا في مثل ما صار إليه من استأمن. **وأقبل الليل، وكره الموفق أن يظلم الليل والجيش موغل في النهر، فيتهيأ للفجرة بذلك انتهاز فـرصـة. فـأمـر النـاس بالانصراف، فانصرفوا سالمين الى المدينة ـ الموفقية ـ. وأمر الموفق بالكتابة الى النواحي، بما هيأ الله له من الفتح والظفر، ليقرأ بذلك على المنابر. وأمر بإثابة المحسنين من جنده كل على قدر غنائهم وبلائهم وحسن طاعتهم، ليزدادوا بذلك جداً واجتهاداً في حرب عدوهم.**

عاد العمال في الغد لاستتمام قلع ما بقي من القنطرة، فوجدوا أن الفجرة قد أعادوا بناء ما تهدم منها في ليلتهم تلك، فأمر الموفق بنصب عرادتين كانتا قد أعدتا في سفينتين، ونصبت لهما القواعد حتى استقرتا، ووكل بهما من أصحاب السفن، وأمر برمي كل من يقترب من أصحاب الفاسق، ومنعهم من العمل في الليل أو النهار، فتجنب الفجرة الاقتراب من الموضع وأحجموا عنه، وألح الموكلون بقلع هذه الحجارة بعد ذلك حتى استتموا ما أرادوا واتسع المجال أمام السفن والزوارق في دخول النهر والخروج منه.

لما أحرقت دار الفاسق ودمرت وانتهب ما فيها، وأخرج طريداً سليباً من غربي نهر أبي خصيب، تحول إلى شرقيه. ولجأ الى التحصن في المنازل الواغلة في نهر أبي خصيب، ونزل منزلاً وجمع فيه عياله وولده حوله، ونقل أسواقه الى قرب الموضع الذي اعتصم به. وضعف أمره ضعفاً شديداً، وتبين للناس زوال أمره، فتهيبوا جلب الميرة إليه، فانقطعت عنه كل مادة تموينية ـ غذائية ـ فأكلوا الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم

لم يزل الأمر بهم إلى أن كانوا يتبعون الناس، فإذا خلا أحدهم بامرأة أو صبي أو رجل، ذبحه وأكله، ثم صار القوي من الزنج يأكل الضعيف. ثم أكلوا لحم أولادهم. ونبشوا الموتى وأكلوا لحومها.

عرف الموفق أبو أحمد ما نزل بالزنج، وما وصل إليه حالهم، فقرر ان يخرب الجانب الشرقي لتصير حال الخبيث فيه كحاله في الغربي في الجلاء عنه. فأمر ابنه أبا العباس في ركوب السفن، وترك له أمر اختيار الجند ـ اشجعهم وأصلبهم ـ مع أخذ ما يحتاجه من العمال ـ الفعلة ـ لهدم كل ما يلقاهم من دور أصحاب الفاجر ومنازلهم. وأمر الموفق جماعة من قادته وجنده بالتوجه نحو دار الهمداني ومعهم العمال ـ الفعلة ـ وكان هذا الموضع محصناً بجمع كثير من أصحاب الخبيث من الزنج وغيرهم، وعليه عرادات ومجانيق منصوبة ـ اشتبكت الحرب وكثر القتلى والجرحى الى ان كشف جند الموفق الزنج، وأبعدوهم، ووضعوا فيهم السلاح، فقتل منهم مقتلة عظيمة. والتقى جند الموفق وجند أبي العباس وشنوا هجوماً مدمراً على الزنج، فولوا منهزمين، وانتهوا الى دار الهمداني وعليها الاعلام. فتعذر على جند الموفق صعود السور العالي والحصين المحيط بالدار. فوضعوا عليها السلاليم الطوال، فلم تبلغ آخره. فرمى بعض جند الموفق بكلاليب كانوا أعدوها، وجعلوا فيها الحبال لمثل هذا الموضع، فأثبتوها في الأعلام وجذبوها، فانقلبت الأعلام منكوسة من أعلى السور حتى صارت في أيدي أصحاب الموفق، فلم يشك المدافعون عن هذه الدار أن أصحاب الموفق وجنده قد صعدوها فوجلوا وانهزموا وأسلموها وما حولها، وصعد النفاطون فأحرقوا ما كان عليها من المجانيق والعرادات وما كان فيها للهمداني من متاع وأثاث، وأحرقوا ما كان حولها من دور الفجرة، واستنقذوا في هذا اليوم من نساء المسلمين المأسورات عدداً كثيراً، فأمر الموفق بحملهن في السفن والمعابر الى الموفقية. استمرت الحرب من أول النهار الى ما بعد صلاة العصر، واستأمن يومئذ جماعة من أصحاب الفاسق. وجماعة من خاصة غلمانه الذين كانوا في داره يلون خدمته، فآمنهم الموفق وأمر بالإحسان إليهم، وأن يخلع عليهم، ويوصلوا وتجرى لهم الأرزاق. وانصرف الموفق، وأمر أن تنكس أعلام الفاسق في صدور السفن ليراها أصحابه. ودلت جماعة من المستأمنة الموفق على سوق

عظيمة كانت للخبيث في ظهر دار الهمداني، متصلة بالجسر الأول المعقود على نهر أبي الخصيب، كان الخبيث سماها المباركة، وأعلموه أنه إن تمكن من إحراقها، فإنه لن يبقى هناك سوق لصاحب الزنج، وأن التجار الذين بهم قوامهم سيخرجون، وقد يضطرون لطلب الأمان. فقرر الموفق عندها مهاجمة السوق من ثلاث اتجاهات. ووزع جيشه الى ثلاث مجموعات، وقام بالهجوم وفزع الزنج، ونهضوا كرجل واحد، واستعرت الحرب وغلظت. وقام جند الموفق بإضرام النار في أطراف السوق فاحترق، واتصلت النار بأكثر السوق. فكان الفريقان يتحاربون والنار محيطة بهم، ولقد كان ما علا من ظلال ـ مظلات ـ يحترق فيقع على رؤوس المقاتلين، واستمر القتال على أشده حتى غابت الشمس وأقبل الليل. فحجزت الظلمة بين المتقاتلين، وانصرف الموفق وجنده الى سفنهم، ورجع الزنج الى طاغوتهم. وجلا أهل السوق عنه، وانتقلوا الى أعلى مدينته بما استنقذوه من أموالهم وأمتعتهم.

عمل الخبيث في الجانب الشرقي ما كان قد عمله من قبل في الجانب الغربي، فاحتفر بعد هذه الوقعة خندقاً عريضاً من حد ـ جوى كور ـ إلى نهر الغربي، وعني عناية خاصة بتحصين ما بين دار الكرنبائي حتى جوى كور، لأن معظم منازل أصحابه ومساكنهم كانت في هذا الموضع. وكان امتداد الخندق والسور يحيط بالمواضع والبساتين التي تم اخلاؤها ما بين حد جوى كور وحتى النهر الغربي. وكانت الحرب إذا وقعت في هذا الموضع، قصد الزنج من موضعهم إليه للدفاع عنه. فقرر الموفق عند ذلك ان يدمر باقي السور إلى النهر الغربي. **ووقعت معركتان قاسيتان قاتل الزنج فيهما بعناد كبير، وأفادوا من قوة تحصيناتهم وأسوارهم لإنزال الخسائر الكبيرة في صفوف جند الموفق، مما اضطره لاعادة النظر في اساليب الهجوم التي اتبعها في الهجومين السابقين. وتبين له أنه كان يجب مهاجمة معسكر الزنج من عدة مواضع، ليفرق جمعهم، فيخف وطؤهم على من يقصد سور النهر الغربي.** فأعاد تنظيم قواته تنظيماً جديداً للمعركة وأمر ابنه أبا العباس ومجموعة القادة التابعين له في العبور واختيار أنجاد رجاله. ووجه قوة بقيادة مولاه مسرور للهجوم من ناحية نهر منكي، وأمره أن يخرج رجاله في ذلك الموضع وما يتصل به من الجبال

والنخل لإشغال الفجرة من تلك الجهة ونظم السفن على هذه المواضع لتعمل حتى أسفل النهر الغربي. وأمر قادة غلمانه ان يخرجوا في أصحابهم فيحاربوا الفسقة في حصنهم ومعقلهم، وألا ينصرفوا عنهم حتى يفتح الله لهم أو يبلغ إرادته منهم. ووكل بالسور من يهدمه، وبدأ الهجوم، وأسرع الفسقة كعادتهم، وأطمعهم ما حققوه من نصر في الموقعتين السابقتين، فثبت لهم جند الموفق، وصدقوهم اللقاء، حتى أنزل الله عليهم نصره، فأزالوا الفسقة عن مواقفهم، وقوي أصحاب الموفق، فحملوا عليهم حملة كشفوهم بها، فانهزموا وتخلوا عن حصنهم. وصار في أيدي جند الموفق فهدموه، وأحرقوا منازلهم، وغنموا ما كان فيها، واتبعوا المنهزمين منهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة؛ وأسروا. واستنقذوا من النساء المأسورات خلقاً كثيراً، فأمر الموفق بحملهن والإحسان إليهن. وأمر أصحابه بالرجوع الى سفنهم، ففعلوا، وانصرف إلى معسكره بالموفقية.

عمل الموفق أبو أحمد بعد ذلك على إصلاح المسالك والطرق في جنبي نهر أبي الخصيب، وفي قصر الفاسق حتى يتسع المجال أمام المقاتلين لدخول المعركة والخروج منها. وقرر بعد ذلك تدمير الجسر الأول الذي كان قائماً على نهر أبي الخصيب، الأمر الذي يحرم الزنج من تبادل الدعم والمعاونة عند وقوع المعركة في نواحي معسكرهم. وأمر باعداد سفينة كبيرة تملأ قصباً قد سقي النفط، وأن ينصب في وسط السفينة دقل طويل - سارية عالية - يمنعها من تجاوز الجسر إذا اصطدمت به. وانتهز الفرصة في غفلة الزنج وتفرقهم. فقدمت السفينة في آخر النهار. وأشعلت فيها النار. وأرسلت وقد قوي المد. فوصلت الى القنطرة، وأسرع الزنج، وتجمعوا وكثروا، حتى ستروا الجسر وما يليه، وجعلوا يقذفون السفينة بالحجارة والآجر ويهيلون عليها التراب، وغاص بعضهم فنقبها، وكانت السفينة قد أحرقت شيئاً يسيراً من الجسر فأطفأه الزنج، وأغرقوا السفينة.

رأى الموفق أبو أحمد ما فعله الزنج، فزاد تصميمه على مجاهدتهم لتدمير الجسر، وكلف قائدين من قادته بالعبور مع جندهما وما يلزمهما من الاعتدة والنفاطين والآلات التي تقطع بها الجسور. وأمر أحدهما بالسير على الجانب الشرقي من النهر، وأمر الثاني

بالسير على الجانب الغربي منه. وركب الموفق وجنده السفن والزوارق واتجه نحو فوهة نهر الخصيب، فسبق إلى الجسر القائد الذي سار على الجانب الغربي من النهر، فأوقع بمن كان قائماً على حمايته والدفاع عنه، وقتل منهم جماعة، وضرب الجسر بالنار، وطرح عليه القصب وما كان أعد له من الأشياء المحرقة، فانكشف من كان هناك من الزنج ووصل بعد ذلك من تحرك على الجانب الشرقي من النهر، فقام بدوره بإحراق الجسر.

كان صاحب الزنج قد أمر ابنه ـ انكلاي ـ وسليمان بن جامع بالتمركز في جيشهما للدفاع عن الجسر، وإحباط كل محاولة لقطعه، ففعلا ذلك، فاتجه اليهما الجند القريبون منهم، وحاربوهما حرباً غليظة حتى انكشفا وتراجعا مهزومين. وتقدم جند الموفق فتجاوزوا الجسر، ووصلوا الى الحظيرة التي كان يعمل فيه عمال الفاسق لصنع السفن والزوارق وجميع آلات الحرب. فأحرق ذلك عن آخره. ووصل جند الموفق إلى سجن كان للفاسق في غربي نهر أبي الخصيب، فدافع عنه الزنج ساعة من النهار، وغلبهم عليه جند الموفق، وخلصوا من كان فيه من الرجال والنساء، كما اقتحم الجند دار مصلح ـ وهو من قدماء قادة الفاسق ـ فنهبوها وسبوا ولده ونساءه وأحرقوا ما تهيأ لهم إحراقه في طريقهم. وبقيت من الجسر عند وسطه أدقال ـ سواري ـ كان الفاسق قد أحكمها، فأمر الموفق ابنه أبا العباس بدفع بعض الزوارق الى ذلك الموضع وعليها العمال، فقطعوها، وجذبوها، وأخرجوها عن النهر، فسقط ما بقي من قنطرة الجسر. وعاد الموفق بجيشه وقد حقق هدفه. فتم هدم وتدمير ما كان يعيق المقاتلين عن محاربة الفجرة من قصور الفاسق وقصور أصحابه. كما تم توسيع الطرق على جانبي النهر. مما أرغم الفاسق وجميع أصحابه على الانتقال الى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب. وزاد الرعب في قلوب أصحاب الفاسق، فمال جمع كثير من قادته وأصحابه الذين كان لا يظن انهم يفارقونه، إلى طلب الأمان، فبذل ذلك لهم، فخرجوا الى معسكر الموفق، فتقبلهم وأحسن اليهم وألحقهم بنظرائهم في الأرزاق والصلات والخلع.

واظب الموفق على ادخال السفن والزوارق في النهر، وأمر بإحراق ما كان على ضفتيه من منازل الفجرة، وما في بطنه من السفن، وأحب تمرين جنده على دخول النهر وممارسة التحرك فيه استعداداً لإحراق الجسر الثاني، والوصول

الى أقصى مواضع الفجرة ـ الزنج ـ.

عمل صاحب الزنج على جمع ما بقي له من السفن البحرية وغيرها، وحشدها امام الجسر الثاني، وجمع قادته وأنجاد رجاله وجنده هنالك. فأمر الموفق بعض جنده بالاقتراب من الجسر وإحراق ما يمكن لهم احراقه من المراكب البحرية، والاستيلاء على ما يمكن أخذه منها. وتم تنفيذ ذلك، فزاد عملهم من حيطة صاحب الزنج وتدابيره للدفاع عن الجسر. وألزم نفسه وجميع أصحابه بحراسته والدفاع عنه. ولكن الموفق أبا أحمد وضع خطة محكمة لمهاجمة الجسر الثاني. وكانت مشابهة لخطة تدمير الجسر الاول. مع زيادة القوى للاحاطة بميدان المعركة. وجاءت النتائج مشابهة لما حدث عند تدمير الجسر الاول.

كان من أول نتائج هذه المعركة، تقدم ـ سليمان بن موسى الشعراني ـ أحد رؤساء أصحاب الفاسق، بطلب الأمان له من الموفق أبي أحمد. وامتنع أبو أحمد عن منحه الأمان نظراً لما كان سلف منه من العيث وسفك الدماء، ثم عاد عن قراره ووافق على منحه الأمان بهدف استصلاح القادة الآخرين وإفساح المجال أمامهم، وتبعه شبل بن سالم، ولحق بهما عدد من قدماء قادة صاحب الزنج، فأحسن الموفق إليهم، ووفى لهم، وضمهم الى قادته.

عمل الموفق بعد ذلك على ارسال السرايا الى معسكر الزنج، ليلاً ونهاراً، من جانبي نهر الخصيب، ويكدهم بالحرب، ويحرمهم من النوم في ليلهم، ويمنعهم من طلب أقواتهم. وجنده في ذلك يتعرفون على المسالك، ويتدربون على الوغول في مدينة الزنج واقتحامها. ويزيلون بذلك الهيبة التي كانت تحول بينهم وبين مثل هذا الاقتحام. ثم جلس الموفق مجلساً عاماً، وأمر بإحضار قادة المستأمنة ووجوه فرسانهم ومشاتهم من الزنج والبيض، فأدخلوا عليه، ووقفوا بحيث يسمعون كلامه، ثم خاطبهم؛ فعرفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل وانتهاك المحارم. وما كان الفاسق دين لهم من معاصي الله، وأن ذلك قد كان أباح له دماءهم. وأنه قد غفر الزلة وعفا عن الهفوة وبذل الأمان، وعاد من لجأ إليه بفضله، فأجزل الصلات وأسنى الأرزاق وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة، وان ما كان منهم من

ذلك يوجب عليهم حقه وطاعته، وأنهم لن يأتوا شيئاً يتعرضون به لطاعة ربهم والاستدعاء لرضا سلطانهم، أولى بهم من الجد والاجتهاد في مجاهدة عدو الله الخائن وأصحابه، وأنهم من الخبرة بمسالك معسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته والمعاقل التي أعدها للهرب إليها على ما ليس عليه غيرهم، فهم أحرياء ان يمحضوه نصيحتهم، ويجتهدوا في الولوج على الخبيث، والتوغل إليه في حصونه، حتى يمكنهم الله منه ومن أشياعه فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، وإن من قصر منهم استدعى من سلطانه اسقاط حاله وتصغير منزلته ووضع مرتبته. فارتفعت أصواتهم جميعاً بالدعاء للموفق والإقرار بإحسانه، وبما هم عليه من صحة الضمائر في السمع والطاعة والجد في مجاهدة عدوه، وبذل دمائهم ومهجهم في كل ما يقربهم منه. وان ما دعاهم إليه قد قوى نيتهم ودلهم على ثقته بهم وإحلاله إياهم محل أوليائه. وسألوه ان يفردهم بناحية يحاربون فيها، فيظهر من حسن نياتهم ونكايتهم في العدوّ ما يعرف به إخلاصهم وتورعهم عما كانوا عليه من جهلهم. فأجابهم الموفق الى ما سألوا. وعرفهم حسن موقع ما ظهر له من طاعتهم. وخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد.

مضى الموفق في استعداداته للهجوم النهائي على الفاسق في مدينته بالجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، فأمر بجمع السفن والمعابر من دجلة والبطيحة ونواحيها ليضيفها الى ما في معسكره: إذ كان ما لديه منها أقل مما يحتاجه جيشه الكبير. وأحصى ما في السفن والزوارق والعبارات التي كانت تنقل الخيل، فكانوا زهاء عشرة الآف ملاح، ممن يتقاضون رواتب شهرية من بيت المال، بالاضافة الى سفن أهل المعسكر التي تحمل فيها المواد التموينية ـ الميرة ـ ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما كان لدى كل قائد، ومن يحضر من قادته من السفن والزوارق. فلما تكاملت له السفن والمعابر. ورضي عددها، أمر ابنه أبـا العباس وقادة جنده بالاستعداد والتأهب للقاء عدوهم. وأمر بتوزيع السفن والمعابر لنقل الخيل وجند المشاة. وضم الى ابنه أبي العباس قادة من قادته وثمانية آلاف من جنده، وأمره أن ينزل بجيشه على الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب، ثم يسير الى مؤخرة معسكر الفاسق حتى يتجاوز دار المعروف بالمهلبي، حيث

كان الخبيث قد عمل على تحصينها ووضع فيها قوة كبيرة من جنده لحماية مؤخرة معسكره. وليحبط كل محاولة للاقتراب من هذا الموضع. وأحضر قائده ـ راشداً ـ ومعه عشرون ألفاً من الفرسان والمشاة ـ وأمره بالنزول على الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب. ووجه قوة من جنده نحو دار ـ الكرنبائي كاتب المهلبي ـ والواقعة على زاوية في الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، وأمرها بالتقدم على شاطىء النهر حتى تصل الى الدار التي نزلها الخبيث. كما أمر قوة من جنده بالخروج على فوهة نهر أبي شاكر ـ وهو أسفل من نهر أبي الخصيب ـ وأمر قوة أخرى بالخروج على فوهة نهر ـ جوى كور ـ. وأوعز الى الجميع في تقديم المشاة امام الفرسان، وأن يزحفوا بجميعهم نحو دار الخائن، فإن أظفرهم الله به وبمن فيها من أهله وولده، وإلا قصدوا دار المهلبي ليلقاهم هناك جند أبي العباس فتكون قوتهم واحدة على صاحب الزنج وقواته.

تحرّك الجيش الكبير عشية يوم الاثنين لسبع ليال خلون من ذي القعدة، سنة تسع وستين ومائتين (٨٨٢ م). ودفعت السفن الى النهر. وسارت كتائب الفرسان يتلو بعضها بعضاً، ومشت كتائب المشاة، وسارت السفن منذ صلاة الظهر الى آخر وقت العشاء الآخرة حتى وصلوا الى موضع من أسفل المعسكر. وكان الموفق قد أمر بإصلاحه وتنظيفه وتنقية ما فيه من خراب ودخل، وردم سواقيه وأنهاره حتى استوى واتسع وبعدت أقطاره، واتخذ فيه قصراً وميداناً لاستعراض قوات المشاة والفرسان بإزاء قصر الفاسق، وهدفه من ذلك هو إبطال ما كان الخبيث يعد به أصحابه من سرعة انتقاله عن موضعه، فأراد ان يعلم الفريقين أنه غير راحل حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. **فبات الجيش ليلة الثلاثاء في هذا الموضع بإزاء معسكر الفاسق، وكان الجميع زهاء خمسين ألف رجل من المشاة والفرسان، في أحسن زي وأكمل هيئة، وجعلوا يكبرون ويهللون ويقرؤون القرآن ويصلون ويوقدون النار.**

رأى الخبيث ـ صاحب الزنج ـ من كثرة الجمع والعدة والعدد ما بهر عقله وعقول أصحابه. وركب الموفق في عشية يوم الاثنين السفن التي خصّصها له ولقوات قيادته ـ وكانت مائة وخمسين سفينة ـ وشحنها بأنجاد أبطاله ومواليه من حملة الرماح ورماة السهام ـ النشاب ـ ونشرها من أول معسكر الخبيث حتى آخره لتكون حصناً للجيش

من ورائها. وطرحت مراسيها لتكون قريبة من الشاطىء. واحتفظ لنفسه ولمرافقيه ورجال حرسه بعدد من السفن لمواكبته عند اقتحامه النهر، **وانتخب من المشاة والفرسان عشرة آلاف رجل، وأمرهم بالسير على جانبي نهر أبي الخصيب، وأن يسيروا لمسيره ويقفوا لوقوفه، ويتصرفوا فيما يرى أن يصرفهم فيه أثناء المعركة.** توجه الموفق لقتال الخبيث صاحب الزنج - صباح يوم الثلاثاء - وتوجه كل قائد من قادته لتنفيذ المهمة التي كلف بتنفيذها. وزحف الجيش نحو الفاسق وأصحابه، فتلقاهم الخبيث في جيشه. واشتبكت القوات، ودارت رحى المعركة، وكثر القتل والجراح بين الفريقين، ودافع الزنج عن مواقعهم في المدينة بعناد وصلابة، واستماتوا. وصبر أصحاب الموفق وجنده، وصدقوا القتال، فمنَّ الله عليهم بالنصر، وهزم الفسقة، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا من مقاتلتهم وأنجادهم جمعاً كثيراً. وحمل الأسرى الى الموفق، فأمر بهم فضربت أعناقهم في المعركة، وتوجه بقواته الى دار الكافر فوصلها وقد حشد الكافر فيها أبطال جنده للدفاع عنها، فلمّا لم يغنوا عنها شيئاً أسلمها، وتفرق جنده عنها. واقتحمها جند الموفق، وفيها بقايا ما كان سلم للخبيث من ماله وأثاثه، فانتهبوا ذلك كله، وأخذوا حرمه وولده الذكور والإناث، وكانوا أكثر من مائة بين امرأة وصبي، وحملوا الى الموفق، فأمر بنقلهم الى مدينة الموفقية، والتوكل بهم، والإحسان إليهم، وتخلّص الفاسق ومضى هارباً نحو دار المهلبي، لا يلوي على أهل ولا مال، وأحرقت داره وما بقي فيها من متاع وأثاث، وكان جماعة من قادة أبي العباس قد عبروا نهر أبي الخصيب أثناء ذلك، وساروا إلى دار المهلبي، ولم ينتظروا التحاق جندهم بهم. فوصلوا إلى الدار وقد لجأ إليها أكثر الزنج بعد انسحابهم من دار الخبيث، فدخل قادة أبي العباس الدار، وتشاغل جندهم بالنهب وأخذ ما كان قد استولى عليه المهلبي من حرم المسلمين وأولاده منهن، وجعل كل من ظفر بشيء انصرف به الى سفينته في نهر أبي الخصيب. ولما رأى الزنج قلة من بقي منهم، وتشاغلهم بالنهب، انقضوا عليهم من عدة مواضع كانوا قد كمنوا فيها، فطردوهم عن مواضعهم، وأرغموهم على التراجع والانسحاب، وطاردهم الزنج حتى وصلوا بهم الى نهر أبي الخصيب، وقتلوا من مشاتهم وفرسانهم جماعة قليلة، وارتجعوا

بعض ما كانوا قد أخذوه من النساء والمتاع. وكان فريق من جند الموفق الذين اقتحموا دار الخبيث ـ في شرقي نهر أبي الخصيب قد تشاغلوا أيضاً بالنهب وحمل الغنائم الى سفنهم، فأطمع ذلك الزنج فيهم، وانقضوا عليهم، فأبعدوهم، وطاردوهم. وثبتت جماعة من قادة الجند ومعها أشداء المقاتلين وأبطالهم، فردوا الزنج، حتى ثاب الناس وتراجعوا الى مواقفهم. ودامت الحرب بينهم الى وقت صلاة العصر. فأمر الموفق أبو أحمد عندها جنده ان يهاجموا الزنج بكل قواتهم، ففعلوا ذلك، وانهزم الزنج، وأخذتهم السيوف حتى وصلوا الى دار الخبيث، فرأى الموفق عند ذلك ان يعود بجنده، فأمرهم بالرجوع، وانصرف على هدوء وسكون. وأقام الموفق في النهر، يحميهم، حتى دخلوا سفنهم، وأدخلوها خيلهم. وأحجم الزنج عن مطاردتهم لما نالهم في المرحلة الأخيرة من المعركة.

طلب الموفق الى ابنه أبي العباس ان يوجّه قوة في خمس سفن بقيادة واحد من قادته، الى مؤخر معسكر الخبيث بنهر أبي الخصيب، لاحراق بيادر ثم جليل قدرها، كان الخبيث يقوت أصحابه منها ـ من الزنج وغيرهم ـ ففعل ذلك وأحرق اكثره. وكان إحراق ذلك من أقوى الأشياء على إدخال الضعف على الفاسق وأصحابه، إذ لم يكن لهم معول في قوتهم غيره، فأمر أبو أحمد بالكتابة الى الآفاق للإعلام بما تهيأ له على الخبيث وأصحابه من النصر في هذا اليوم، ليقرأ على الناس. وانصرف الموفق ومعه أبو العباس وسائر قادته وجميع جيشه وقد غنموا أموال الفاسق، واستنقذوا جمعاً كثيراً من النساء اللواتي كان غلب عليهن من حرم المسلمين، وجعلن يخرجن في ذلك اليوم أرتالاً الى فوهة نهر أبي الخصيب، فيحملن في السفن الى الموفقية حتى انقضاء القتال.

استقبل الموفق في معسكره جيشاً من عشرة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان بقيادة صاعد بن مخلد ـ وقد قدم إليه من سامرا. فأمر الموفق بمنح هذا الجيش الراحة، وتجديد أسلحته وإصلاح أموره. والاستعداد لمحاربة الخبيث.

بينا كان الموفق أبو أحمد ماضياً في استعداداته، وصلته رسالة من ـ لؤلؤ ـ قائد جيش حاكم مصر ـ ابن طولون ـ يستأذنه في القدوم عليه ليشاركه في حرب الفاسق. فأجابه الى ذلك، وأذن له في القدوم عليه، وأخر تنفيذ ما كان قرره

من الإسراع في حرب صاحب الزنج انتظاراً منه قدوم لؤلؤ الذي كان يومها مقيماً بالرقة في جيش عظيم من الفراغنة والأتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم من نخبة جند ابن طولون. وتحرك لؤلؤ فوصل الى معسكر الموفق يوم الخميس لليلتين خلتا من شهر المحرم سنة سبعين ومائتين (٨٨٣ م). فجلس له الموفق أبـو أحمد، وحضر ابنه أبو العباس وصاعد والقادة، فأدخل عليه لؤلؤ في زي حسن، فأمر أبو العباس ان ينزل معسكراً كان أعد له بإزاء نهر أبي الخصيب، فنزله في أصحابه. ثم تقدّم إليه في وقت مبكر من اليوم التالي ـ الجمعة ـ ومعه قادته للسلام عليه، فقرّبه الموفق ووعده وأصحابه خيراً، وأمر أن يخلع عليه وعلى خمسين ومائة قائد من قادته، وحمله على خيل كثيرة، بالسروج واللجم المحلاة بالذهب والفضة، وحمل بين يديه من أصناف الكسى والأموال في البدور ما حمله مائة غلام. وأمر لقادته من الصلات والحملان والكسى على قدر محل كل إنسان منهم عنده وأقطعه ضياعاً جليلة القدر، وصرفه الى عسكره بأجمل حال، وأعدت له ولجنده الأنزال والعلوفات، وأمره برفع جرائد لأصحابه بمبلغ أرزاقهم على مراتبهم، فرفع ذلك، فأمر لكل إنسان منهم بالضعف مما كان يجري له وضع لهم بالعطاء عند رفع الجرائد، ووفوا ما رسم لهم. ثم طلب الى لؤلؤ الاستعداد للعبور الى غربي دجلة لمحاربة صاحب الزنج وجيشه.

كان الخبيث ـ صاحب الزنج ـ قد عمل بعد هزيمته على نهر أبي الخصيب، وقطع القناطر والجسور، فبنى سداً على جانبي النهر، وجعل في وسطه باباً ضيقاً لتتسارع مياه التيار، فتمنع السفن من دخوله، ويتعذّر خروجها منه في المد. فقرر الموفق أبو أحمد أن تبدأ المعركة بتدمير هذا السد، وحاول ذلك، فاشتد دفاع الزنج عنه، وجعلوا يزيدون فيه كل يوم وليلة، قرر الموفق أبو أحمد زج قوات لؤلؤ فريقاً بعد فريق، حتى يتمرنوا على قتال الزنج، ويتعرفوا على الطرق والمسالك في مدينتهم. ودفع بقوة من جيش لؤلؤ ـ بقيادة لؤلؤ، للقتال عند السد، وأمر بإرسال العمال ـ الفعلة ـ للقيام بهدم السد. ورأى الموفق من نجدة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة جنده وصبرهم على ألم الجراح، وثبات العدد القليل منهم في مواجهة الحشد الكبير لقوات الزنج، ما سرّه، فأمر لؤلؤاً بصرف جنده إشفاقاً عليهم، وضناً بهم، ووصلهم الموفق وأحسن إليهم

وردّهم الى معسكرهم. وألح الموفق على هذا السد، فكان يحارب المدافعين عنه من الزنج، بجنود لؤلؤ وغيرهم، فيما كان العمال يعملون على تدميره واقتلاعه، ويحارب الخبيث وجنده من عدة نواحٍ، فيحرق مساكنهم، ويقتل مقاتلتهم، ويستأمن إليه الجماعة من قادتهم ورؤسائهم.

كانت قد بقيت للزنج وقائدهم أرض من ناحية نهر الغربي، لهم فيها مزارع وخضر وقنطرتان على نهر الغربي، يعبرون عليهما الى هذه الأرض. وعلم أبو العباس بذلك فاستأذن والده الموفق في مهاجمتها، فأذن له، وأمره باختيار الرجال من شجعان جنده وأجلدهم. ففعل ذلك، ووجّه قوة من جنده بقيادة قائده ـ زيرك ـ لنصب كمين في غربي النهر، وأمره ألا يتحرك إلا عندما يرى هزيمة الزنج. ووجّه قوة أخرى بقيادة قائده ـ رشيق ـ الى نهر العميسين، لشن هجوم على الزنج من خلفهم. ثم أقام هو ومن معه من الجند في السفن عند فوهة نهر الغربي. فلمّا قام رشيق بهجومه المباغت من وراء ظهور الزنج، راعهم، فأقبلوا يريدون العبور الى غربيه ليهربوا الى معسكرهم، ولكن أبا العباس أسرع إليهم في السفن، وبثّ جنده على حافتي النهر، فلحقوا بهم، ووضعوا السيف فيهم، فقتل منهم في النهر وعلى ضفتيه خلق كثير، وأسر منهم أسرى، وأفلت آخرون، فتلقاهم ـ زيرك ـ وجنده، فقتلوهم ولم يُفلت منهم إلاّ الشريد، وأخذ جند أبي العباس من أسلحتهم ما ثقل عليهم حمله، حتى إنهم ألقوا أكثره. ودمر أبو العباس القنطرتين، وأمر بإخراج ما كان فيهما من السدود والأخشاب ونقلها الى دجلة، وانصرف الى والده الموفق بالأسرى والرؤوس، فطيف بها في المعسكر، وانقطع عن الزنج ما كانوا يرتفقون به من المزارع التي كانت لهم بنهر الغربي.

أخذت الأرض تضيق على الخبيث يوماً بعد يوم، فيما كانت تتزايد اتساعاً ورحباً على الموفق وجنده، وسهل عليه في موضعه الذي كان مقيماً فيه كل ما أراده من رخص الأسعار، وتدفق الامداد والتموين، ممّا كان يحمل إليه من الأموال من البلدان، وأخذ الناس في الالتحاق بمعسكره رغبة في جهاد الخبيث ومن معه من أشياعه. فكان ممن وصل إليه من المطوعة جمع كبير من المشاة والفرسان من نواحي الأهواز بقيادة عامل ـ ايذج ـ ونواحيها. أحمد بن دينار والذي لازم الموفق حتى آخر يوم من حرب الزنج.

ثم قدم بعده ألفـا رجل من أهل البحرين بقيادة رجل من عبدالقيس، فجلس لهم الموفق أبو أحمد، ودخل إليه رئيسهم ووجوههم، فأمر أن يخلع عليهم، واستعرضهم أجمعين، وأمر بإقامة الانزال لهم.

وورد بعدهم زهاء ألف رجل من نواحي فارس بقيادة شيخ من المطوعة يكنى ـ أبا سلمة ـ فجلس لهم الموفق، وتقدم إليه هذا الشيخ ووجوه أصحابه، فأمر لهم بالخلع، وأقرّ لهم الانزال ثم تتابعت المطوعة من البلدان، فيما كان الموفق يتابع استعداد قواته، وأمر بإعداد السفن والمعابر وإصلاح آلة الحرب في الماء وعلى الظهر ـ اليابسة ـ واختار من يثق ببأسه ونجدته في الحرب من المشاة والفرسان، لضيق المواضع التي كان يحارب فيها وصعوبتها وكثرة الخنادق والأنهار بها، فكان عدة من تخير من الفرسان زهاء ألفي فارس ومن المشاة خمسين ألفاً أو يزيدون، سوى من عبر من المطوعة والجند غير المسجلين في ديوان الجند، وخلف بالموفقية من لم تتسع السفن لحمله جمعاً كثيراً معظمهم من الفرسان. وأصدر الموفق أمره الى ابنه أبي العباس بالتوجه الى الموضع الذي كان يحتله من الجانب الشرقي ـ بازاء دار المهلبي ـ. وأصدر أمره أيضاً الى ـ صاعد بن مخلد ـ بالتوجه الى ناحية نهر أبي شاكر ـ في الجانب الشرقي كذلك ـ. ونشر قوة بقيادة قادته من فوهة نهر أبي الخصيب حتى نهر الغربي. وزجّ قوة من عشرين ألف مقاتل من المشاة والفرسان بقيادة راشد ولؤلؤ، للانطلاق من حد دار الكرنبائي الى نهر أبي شاكر. فسارت كتائبهم يتلو بعضها بعضاً. ووجّه قوة للعمل من خلف دار المهلبي، فتخرج هذه القوة وراء الزنج عندما يقع الاشتباك وتبدأ المعركة. وأمر الناس ان يزحفوا بجميعهم لقتال الزنج، لا يتقدم بعضهم بعضاً. وجعل لهم شارة الزحف بتحريك علم أسود أمر بنصبه على دار الكرنبائي بفوهة نهر أبي الخصيب، في موضع منها مشيد عال، وأن ينفخ لهم ببوق بعيد الصوت. وانطلق بعض من كان على نهر ـ جوى كور ـ قبل ظهور شارة بدء الهجوم، واقتربوا من دار المهلبي، فلقيهم الزنج وردوهم الى مواضعهم، وقتلوا منهم جمعاً، ولم يشعر سائر الناس بما حدث لهؤلاء المتسرعين للقتال لكثرتهم ولبعد المسافة فيما بين بعضهم وبعض. فلمّا خرج القادة وجندهم واحتلوا المواقع التي حددت لهم. واستوى المشاة والفرسان في أماكنهم، أمر

الموفق بتحريك العلم والنفخ في البوق، ودخل النهر في السفن، وزحف الناس يتلو بعضهم بعضاً. فلقيهم الزنج وقد حشدوا وجمعوا واجترؤوا بما تهيأ لهم من النصر على من كان تسرع إليهم. فلقيهم الجيش بنيات صادقة وبصائر نافذة. فأزالوهم عن مواضعهم بعد كرات كانت بين الفريقين، قتل فيها منهم جمع كثير. وصبر جند الموفق، فمنّ الله عليهم بالنصر، ومنحهم اكتاف الفسقة - الزنج - فولوا منهزمين، وطاردهم جند الموفق يقتلون ويأسرون. وأحاط جند الموفق بالزنج الفجرة من كل موضع، فقتل الله منهم في ذلك اليوم ما لا يحيط به الإحصاء، وغرق منهم في نهر - جوى كور - مثل ذلك، وحوى جند الموفق مدينة الفاسق بأسرها، واستنقذوا من كان فيها من الأسرى من الرجال والنساء والصبيان، وظفروا بجميع عيال - علي بن أبان المهلبي وأخويه الخليل ومحمد ابني أبان وسليمان بن جامع وأولادهم، وعبروا بهم الى مدينة الموفقية. ومضى الفاسق في أصحابه ومعه المهلبي وابنه انكلاي وسليمان بن جامع وقادة الزنج وغيرهم - هراباً -. عامدين لموضع كان الخبيث قد اختاره لنفسه ولمن معه، ليلجأ إليه إذا ما غلب على مدينته، وذلك على نهر السفياني. وانصرف جند الموفق - حين انهزم الخبيث، وظفروا بما ظفروا به، فأقاموا عند دار المهلبي الواغلة في نهر أبي الخصيب، وتشاغلوا بانتهاب ما كان في الدار وإحراقها وما يليها. وتفرقوا في طلب النهب، وكل ما بقي للفاسق وأصحابه مجموعاً في تلك الدار.

تقدم الموفق أبو أحمد في السفن نحو نهر السفياني، ومعه لؤلؤ في جنده من المشاة والفرسان، فانعزل عن باقي الجيش الذي ظنّ أفراده أن الموفق قد انصرف فعادوا الى سفنهم بما حووا، ووصل الموفق ومن معه الى معسكر الفاسق وأصحابه وهم منهزمون، فطاردهم لؤلؤ وجنده حتى عبروا نهر السفياني، فاقتحم لؤلؤ النهر بفرسه، ولحق به جنده، ومضى الفاسق هارباً حتى وصل الى نهر - القريري - فوصل إليه لؤلؤ وجنده، فأوقعوا به وبمن معه وأحلودم، فولوا هاربين وهم يطاردونهم حتى تجاوزوا نهر القريري، وعبر لؤلؤ وجنده النهر خلفهم، وألجؤوهم الى نهر المساوان، فعبروه واعتصموا بجبل وراءه. وانفرد لؤلؤ وجنده بهذا العمل دون سائر الجيش، فأقبل عليه الموفق وشكره على صدق جهاده وحميد فعله، وحمله معه في سفينته، وجدد له من البر

والكرامة ورفيع المرتبة بما هو أهل له. وأمره بالانصراف وجنده، ورجع الموفق في السفينة في نهر أبي الخصيب، وجند لؤلؤ يسايرونه، فلمّا حاذى دار المهلبي، لم ير بها أحداً من جنده، فعرف أنهم قد انصرفوا، فاشتد غيظه عليهم، وسار قاصداً لقصره، وأمر لؤلؤ بالمضي بجنده الى معسكره، وأيقن بالفتح لما رأى من بشائره وأماراته. واستبشر الناس جميعاً بما هيأ الله من هزيمة الفاسق وجنده وإخراجهم من مدينتهم، واستباحة كل ما كان لهم من مال وذخيرة وسلاح، واستنقاذ جميع من كان في أيديهم من الأسرى. **وكان في نفس الموفق أبي أحمد على أصحابه من الغيظ لمخالفتهم أمره، وتركهم مواقعهم بدون أمره. فجمع القادة والرؤساء، ووبّخهم على ما كان منهم، وأغلظ لهم، وبين لهم عجزهم.** فاعتذروا بما ظنّوه من انصرافه، وانهم لم يعلموا بمسيره الى الفاسق ووصوله الى حيث وصل من معسكره، وأنهم لو عرفوا ذلك لأسرعوا نحوه، ولما برحوا موضعهم، وتحالفوا وتعاقدوا على ألا ينصرف منهم أحد إذا توجهوا نحو الخبيث، حتى يظفرهم الله به، فإن أعياهم ذلك، أقاموا بمواضعهم حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألوا الموفق ان يأمر برد السفن التي يعبرون فيها الى الموفقية عند خروجهم منها للحرب، لتقطع أطماع الذين يريدون الرجوع عن حرب الفاسق من ذلك، فجزاهم الموفق أبو أحمد الخير على تنصلهم من خطئهم. ووعدهم الإحسان، وأمرهم التأهب للعبور، وأن يعظوا أصحابهم بمثل الذي وُعظوا به. وأقام الموفق في معسكره أربعة أيام تم خلالها إصلاح ما يحتاج للإصلاح، فلمّا كمل ذلك، تقدّم الى من يثق إليه من خاصته وقادة جنده ومواليه. وحدد لهم بدقة ما يجب عليهم عمله في وقت عبورهم. ثم أمرهم باحتلال مواقعهم التي عيّنها لكل واحد منهم، وتمت التحضيرات بدقة مثيرة. ولم يبق إلاّ إعطاء الشارة لبدء الهجوم الجديد.

كان الخبيث صاحب الزنج وأصحابه قد رجعوا الى المدينة بعد انصراف جيش الموفق عنها، وأقاموا بها، وأملوا أن تتطاول بهم الأيام، وتتدافع عنهم المناجزة، فوجد الموفق المتسرعين من مشاة جنده وفرسانهم وقد سبقوا الكتلة الرئيسة للجيش، وانقضوا على الخبيث وأصحابه فطردوهم عن مواقعهم، فانهزم الزنج وتفرقوا لا يلوي بعضهم على بعض، واتبعهم الجيش يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم، وانعزل الخبيث في جماعة

من جنده وقادة جيشه. وفارقه ابنه ـ انكلاي ـ وسليمان بن جامع، فتوجّه نحوهم فريق من الجند الكثيف ممّن كان قد تم تكليفهم للقيام بهذا الواجب فوضعوا فيهم السلاح، فوقع سليمان بن جامع أسيراً وقتل اكثر من كان معه، وحمل الى الموفق بغير عهد ولا عقد، فاستبشر الناس بأسر سليمان وارتفع الصوت بالتكبير والتهليل، وأيقن الجند بالفتح، إذ كان أكثر أصحاب الزنج غناء وعناداً في القتال. وأسر بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني ـ وهو أحد أمراء جيوش صاحب الزنج ـ وأسر نادر الأسود المعروف بالحفّار، وهو أحد قدماء أصحاب الفاجر. فأمر الموفق بالاستيثاق منهم ونقلهم في سفينة لأبي العباس. ثم إن الزنج الذين انعزلوا مع الفاسق، انقضوا على الجند وهاجموهم بعنف، فأزالوهم عن مواقفهم، ففتروا لذلك، وشعر الموفق بفتورهم، فجد في طلب الفاسق، وأمعن في نهر الخصيب، فشدّ ذلك من قلوب جنده.فعادوا وجدوا في المطاردة. **ووصل الموفق الى نهر أبي الخصيب، فوصل إليه أحد الجند مبشراً بقتل الخبيث، ولم يلبث ان وافاه بشير آخر ومعه كفّ زعم أنها كفه، ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض على فرس ومعه رأس الخبيث، فأدناه منه، وعرضه على جماعة ممّن كان بحضرته من قادة المستأمنة، فعرفوه. فخرّ لله ساجداً على ما أولاه وأبلاه. وسجد أبو العباس وقادة جند الموفق شكراً لله، واكثروا حمد الله والثناء عليه. وأمر الموفق برفع رأس الفاجر على قناة ونصبه بين يديه، فتأمّله الناس، وعرفوا صحة الخبر بقتله، فارتفعت أصواتهم بالحمدلله.** وسار الموفّق ورأس الخبيث بين يديه على القناة، وسليمان بن جامع والهمداني مصلوبان في السفن، حتى وصل قصره بالموفقية. وأمر ابنه أبا العباس بركوب السفينة، وإبقاء الرأس وسليمان والهمداني على حالهم، والسير بهم الى ـ نهر جطى ـ وهو أول عسكر الموفق، لتقع عليهم عيون الناس جميعاً في العسكر، ففعل ذلك وانصرف الى أبيه أبي أحمد، فأمر بحبس سليمان والهمداني، وإصلاح الرأس وتنقيته.

تتابع وصول الزنج الى معسكر الموفق في ذلك اليوم، فالتحق منهم زهاء ألف رجل، ورأى الموفق بذل الأمان، لما رأى من كثرتهم وشجاعتهم، لئلا تبقى منهم بقية تخاف معرتها على الإسلام وأهله. فكان من استأمن من قادة الزنج ورجالهم في اليومين

التاليين زهاء خمسة آلاف زنجي.

وانعزلت منهم قوة من ألف رجل، اتجهوا نحو الصحراء. فمات أكثرهم عطشاً، وظفر الأعراب بمن سلم منهم واسترقوهم. وعلم الموفق بهرب انكلاي والمهلبي، ومقامهما مع من بقي من قادة الزنج ورجالهم، فأرسل مفارز من قواته اختار رجالها من بين أنجاد جنده، وأمرها بمطاردتهم والتضييق عليهم. فظفر بهم الموفّق وبمن معهم، حتى لم يبق أحد. فأمر الموفق بحبسهما، غير أن أكبر حدث وقع في ذلك اليوم هو استئمان ـ درمويه الزنجي ـ واستسلامه الى الموفق أبي أحمد. وكان ـ درمويه ـ هذا من انجاد الزنج وأبطالهم. وكان الخبيث قد وجهه قبل هلاكه بمدة طويلة الى أواخر نهر الفهرج ـ وهي من البصرة في غربي دجلة ـ فأقام هنالك بموضع وعر كثير النخل والدغل والآجام، متصل بالبطيحة. وكان ـ درمويه ـ ومن معه هنالك يقطعون على السابلة في زوارق خفاف وسفن اتخذوها لأنفسهم، فإذا طاردهم أصحاب السفن، دخلوا الى الأنهار الضيقة واعتصموا بمواضع الأدغال منها. وإذا تعذّر عليهم مسلك نهر منها لضيقها، خرجوا من سفنهم وحملوها على ظهورهم، ولجؤوا الى هذه المواضع الممتنعة. وفي خلال ذلك يغيرون على قرى البطيحة وما يليها، فيقتلون ويسلبون من ظفروا به. فمكث ـ درمـويه ـ ومن معه يفعلون هذه الأفعال الى ان قتل الفاجر وهم بموضعهم، لا يعلمون بشيء ممّا حدث على صاحبهم. فلمّا فتح بقتل الخبيث، وأمن الناس وانتشروا في طلب المكاسب وحمل التجارات، وسلكت السابلة دجلة، أوقع درمويه بهم فقتل وسلب، فأوحش الناس ذلك، واشرأب لمثل ما فيه درمويه جماعة من شرار الناس وفساقهم، وحدثوا أنفسهم بالسير إليه والإقامة معه.

وقرر الموفق توجيه جيش من جنده السودان، وممن لهم خبرة بالحرب في الأدغال ومضايق الأنهار. وأعد لذلك صغار السفن وصنوف السلاح. فبينما هو في ذلك، وصله رسول من قبل درمويه وهو يطلب الأمان لنفسه ولأصحابه. فرأى الموفق ان يؤمنه ليقطع مادة الشر الذي كان فيه الناس من الفاجر وأشياعه. وذكر أن سبب طلب ـ درمويه ـ الأمان هو أنه كان قد أوقع بقوم ممن خرجوا من جيش الموفق قاصدين منازلهم بمدينة السلام. فيهم نسوة، فقتلهم وسلبهم وغلب على النسوة اللاتي كنّ معهم،

فلمّا صرن في يده، أخبرنه بقتل الفاسق والظفر بالمهلبي وأنكلاي وسليمان بن جامع وغيرهم من قادة الفاسق ممن صاروا في قبضة الموفق، بالإضافة الى من حصل على الأمـان من الموفق والذين صفح عنهم وأحسن إليهم. فأسقط في يده. ولم ير لنفسه ملجأ إلاّ التعوّذ بالأمان، وسؤال الموفق الصفح عن جرائمه، فأجابه الموفق الى ما طلبه، وأسرع فخرج وجميع من معه حتى وصل الى معسكر الموفق. فأحسن الموفق إليه والى أصحابه، وعندها ردّ ـ درمويه ـ كل شيء ممّا كان قد أخذه من أموال الناس وأمتعتهم، وأظهر صدق توبته وإنابته، فخلع الموفق عليه وعلى أصحابه وضمهم الى قواته. **وكتب الى أمصار الإسلام بالنداء في أهل البصرة والأبلة ونواحي دجلة وأهل الأهواز ونواحيها وأهل واسط وما حولها، بقتل الفاسق وانتهاء ثورة الزنج. وأن يؤمروا بالعودة الى أوطانهم. وأقام الموفق بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمنة وإيناساً. واختار لولاية الأقاليم رجالاً ممن عرفوا بتقواهم وحسن إدارتهم. وعاد بعد ذلك إلى مدينة السلام. وقد انصرف الناس لبناء ما خربته ثورة الزنج.**

د ـ مع الشمر في نهاية ثورة الزنج.

كان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٨ م) وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة سبعين ومائتين (٨٨٣ م) فكانت أيامه من لدن خرج الى اليوم الذي قتل فيه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين (٨٦٩ م) وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقه لها، لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة سبع وخمسين ومائتين. وقال الشعراء أشعاراً كثيرة في ثورة الزنج، وفيما كان من أمر الموفق مع الخبيث. فمما قيل في ذلك **قول يحي بن محمد الأسلمي ـ ومن قصيدة طويلة له ـ:**

أقـول وقـد جـاء البشير بـوقعـة   أعـزت مـن الإسلام مـا كـان واهيـا
جزى الله خير النـاس للنـاس بعـدمـا   أبيح حماهم ـ خير ما كـان جـازيـا

تفـــرد إذ لم ينصـــر الله نـــاصر ... بتجديـد ديـن كـان أصبح بـاليـا
وتشديـد ملـك قـد وهـى بعـد عـزة ... وإدراك ثـــارات تبير الأعـــاديـــا
ورد عمارات أزيلـت وأخـــربـــت ... ليرجـــع فيء قـــد تخـرم وافيـــا
ويرجـع أمصاراً أبيحـت وأحـرقـت ... مـراراً فقـد أمسـت قـواءً عـوافيـا
ويشفـــي صـدور المؤمنين بـــوقعـة ... يقـــرّ بها منّـــا العيـون البـــواكيـا
ويتلى كتـــاب الله في كـــل مسجـــد ... ويلقـى دعـــاء الطـــالبين خـــاسيـا
فـأعـرض عـــن أحبـــابـــه ونعيمـــه ... وعـن لـذة الدنيـا وأقبـل غـــازيـــاً.

ومن ذلك أيضاً قوله في قصيدة طويلة أخرى.

أيـــن نجـوم الكـــاذب المـارق ... مـــا كـــان بـــالطّـــب ولا الحـــاذق
صبحـــه بـــالنحس سعـــد بـــدا ... لسيـــد في قـــولـــه صـــادق
فخـــــر في مـــــأزقـــه مسلماً ... الى أســـود الغـــاب في المـــازق
وذاق مـــن كـــأس الردى شربـــة ... كـــريهة الطعـــم على الذائـــق.

وقال يحي بن خالد:

يـا بـن الخلائـف مـن أرومـة هـــاشم ... والغـامـريـن النـاس بـــالأفضـــال.
والذائـديـن عـــن الحريم عـــدوّهـــم ... والمعلمين لكـــل يـــوم نـــزال
ملـك أعـــاد الديـــن بعـــد دروســـه ... واستنقـــذ الأسرى مـــن الأغـــلال
أنـت المجير مـن الزمـــان إذا سطـــا ... وإليـــك يقصـــد راغـــب بســـؤال
أطفـأت نيران النفـــاق وقـــد علـت ... يـــا واهـــب الآمـــال والآجـــال
لله درك مـــن سليـــل خلائـــف ... مـــاضي العـــزيمة طـــاهـــر السربـــال
أفنيـــت جمع المارقين فـــأصبحـــوا ... متلـــدديـــن قـــد أيقنـــوا بـــزوال
أمطـــرتهم عـــزمـــات رأيٍ حـــازم ... ملأت قلـــوبهُم مـــن الأهـــوال
لما طغـــى الرجس اللعين قصـــدتـــه ... بـــالمشرفي وبـــالقنـــا الجـــوال
وتـــركتـــه والطير يحجـــل حـــولـــه ... متقطـــع الأوداج والأوصـــال
يهوي الى مـــر الجحيم وقعـــرهـــا ... بسلاســـل قـــد أوهنتـــه ثقـــال

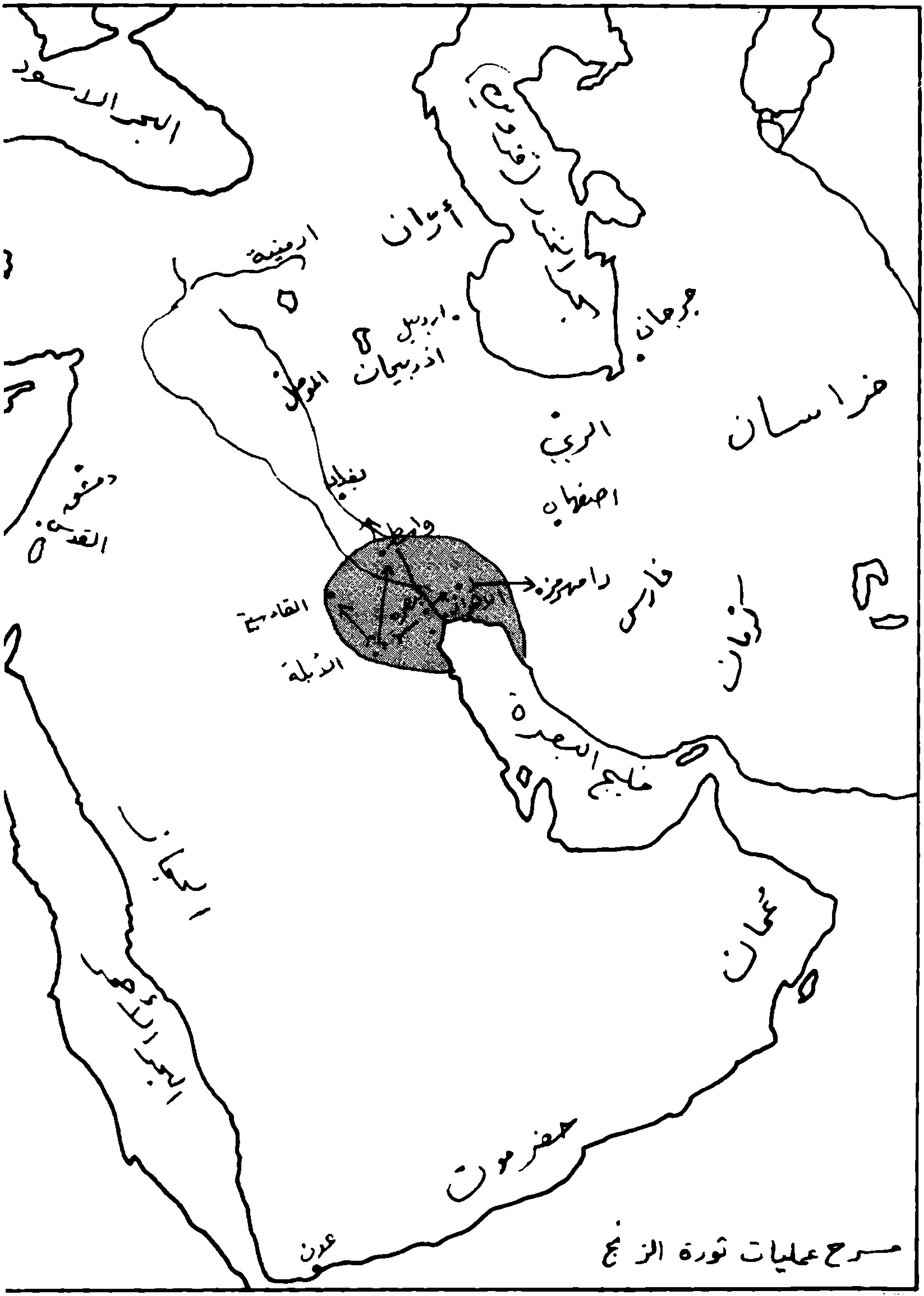
هـذا بما كسبـت يـداه ومـا جنـى ... وبما أتـى مـن سيء الأعمـال
أقـررت عين الديـن ممن قـاده ... وأدلتـه مـن قـاتـل الأطفـال
صـال الموفـق بـالعـراق فـأفـزعـت ... مـن بـالمغـارب صـولـة الأبطـال

وفيه قال أيضاً يحي بن خالد بن مروان:

أبِـن لي جـوابـاً أيها المنـزل القفـر ... فلا زال منهلاً بسـاحـاتـك القطـر
أبِـن لي عـن الجيران أيـن تحملـوا ... وهل عادت الدنيا ؟ وهل رجع السفـر ؟
وكيـف تجيـب الدار بعـد دروسهـا ... ولم يبـق مـن أعلام سـاكنهـا سطـر
منـازل أبكـاني مغـاني أهلهـا ... وضـاقـت بي الدنيـا وأسلمني الصبر
كـأنهم قـوم رغـا البكـر فيهـم ... وكـان على الأيـام في هلكهـم نـذر
وعاثت صروف الدهر فيهم فأسرعـت ... وشر ذوي الاصعاد مـا فعـل الدهـر
فقـد طـابـت الدنيـا وأينـع نبتهـا ... بيمـن ولي العهـد وانقلـب الأمـر
وعاد الى الأوطـان مـن كـان هـارباً ... ولم يبـق للملعـون في مـوضـع إثـر
بسيـف ولي العهـد طـالـت يـد الهدى ... وأشرق وجـه الديـن واصطلم الكفـر
وجـاهـدهـم في الله حـق جهـاده ... بنفس لها طـول السلامـة والنصر

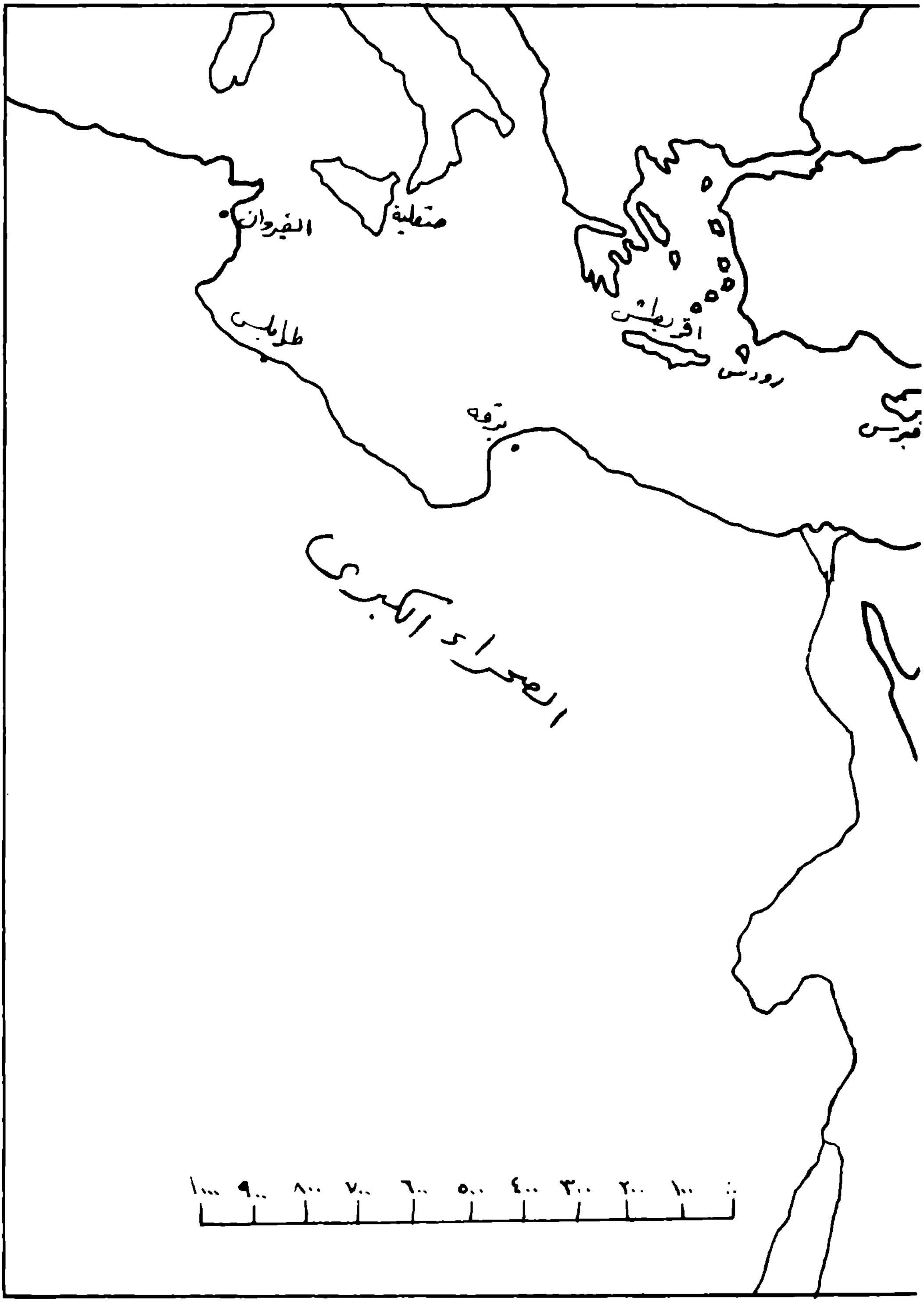
وقال يحي بن محمد ـ من قصيدة طويلة:

عني اشتغـالـك إني عنـك في شغـل ... لا تعـذلي مـن بـه وقـرٌ عـن العـذل
لا تعـذلي في ارتحالي إنني رجـل ... وقـف على الشـد والأسفـار والرحـل
فيم المقـام إذا مـا ضـاق بي بلـد ... كـأنني لحجـال العين والكلـل
ما استيقظت همّة لم تلـف صـاحبهـا ... يقظـان قـد جـانبتـه لـذة المقـل
ولم يبـت آمِنـاً مـن لم يبـت وجلاً ... مـن أن يبيـت لـه جـار على وجـل



مسرح عمليات ثورة الزنج

ثورة الزنج ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ
المنطقة المظللة



القيروان
صقلية
طرابلس
اقريطش
رودس
قبرس
برقه
الصحراء الكبرى
١٠٠٠ ٩٠٠ ٨٠٠ ٧٠٠ ٦٠٠ ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

٦ ـ القرامطة بعد الزنج ٢٧٨ ـ ٢٧٨ هـ.

أ ـ القرامطة يعيدون تنظيم أمورهم.

ب ـ ماذا حدث في مكة المكرمة؟

٦ ـ القرامطة بعد الزنج ٢٧٨ ـ ٢٧٨ هـ.

لم يكد المسلمون يتنفسون الصعداء مما أحدثته ثورة الزنج، حتى دهمتهم دهماء تمثلت بحركة القرامطة، وهي حركة طالما شغلت الناس في القديم والحديث، بسبب دورها المنحرف وبسبب ما تشعّب عنها. ففي سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م تحرك قوم بسواد الكوفة عرفوا باسم القرامطة. وكان ابتداء أمرهم فيما ذكر أن رجلاً منهم قدم من ناحية ـ خوزستان ـ الى سواد الكوفة، واستقرّ بموضع يقال له ـ النهرين ـ. وأظهر الزهد والتقشّف فكان يسف الخوص، ويأكل من كسب يده، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة، وكان إذا قعد إليه رجل ذاكره أمر الدين، وزهده في الدنيا، وأعلمه ان الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه. ثم أعلمهم أنه يدعو الى إمام من آل بيت الرسول، فلم يزل على ذلك حتى استجاب له جمع كثير. فاتخذ منهم اثني عشر نقيباً، وأمرهم ان يدعوا الناس الى مذهبهم. وقال: أنتم كحواري عيسى ابن مريم. فاشتغل أهل النواحي هناك عن أعمالهم بما ذكر لهم من الصلوات، وكان للأمير الهيصم في تلك النواحي ضياع، فرأى تقصير العمال الزراعيين عن أعمالهم، وسأل عن السبب، فعلم بخبر ذلك الرجل، فأخذه وحبسه وحلف أن يقتله لما اطلع على مذهبه ولكن بعض الجواري سرقت مفتاح الحجرة التي سجن فيها صاحب القرامطة وأطلقت سراحه في الليل. فلما أصبح ـ الهيصم ـ فتح الباب ليقتلـه فلم يجده. وشاع ذلك في الناس، فافتتن أهل تلك الناحية، وقالوا: رفع ـ كما رفع السيد المسيح ـ. ثم ظهر في ناحية أخرى؛ ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم؛ وسألوه عن قصته، فقال لهم: « لا يمكن أحداً أن ينالني بسوء ». فعظم في أعينهم. ثم خاف على نفسه؛ فخرج الى ناحية الشام، فلم يعرف عنه أي خبر. **وقيل إن ـ قرمط ـ هو لقب رجل كان بسواد الكوفة، يحمل غلة السواد على أثوار له، واسمه ـ حمدان ـ. ثم فشا مذهب القرامطة بسواد الكوفة. وقدم قوم من الكوفة فرفعوا أمر القرامطة الى أمير المؤمنين، وأخبروه ان القرامطة قد أحدثوا ديناً غير دين**

الإسلام وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ، إلاّ من بايعهم، فلم يلتفت إليهم ولم يسمع قولهم.

وكان فيما حكي عن القرامطة من مذهبهم، أنهم جاؤوا بكتاب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. يقول الفرج بن عثمان ـ وهو من قرية يقال لها نصرانة ـ داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد ابن الحنفية، وهو جبريل» وذكر ان المسيح تصور له في جسم الإنسان وقال له: «إنك الداعية، وإنك الحجة، وانك الناقة، وانك الدابة، وانك يحيي بن زكريا، وانك روح القدس» وعرفه ان الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها. وان الأذان في كل صلاة ان يقول المؤذن: «الله اكبر الله اكبر الله اكبر، أشهد ان لا إلّه إلاّ الله ـ مرتين ـ أشهد ان آدم رسول الله، أشهد ان نوحاً رسول الله، أشهد ان ابراهيم رسول الله، أشهد ان موسى رسول الله، أشهد ان عيسى رسول الله، أشهد ان محمداً رسول الله، أشهد أن أحمد بن محمد ابن الحنفية رسول الله». وان يقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهي مما زعم بأنه منزل على أحمد بن محمد ابن الحنفية. **وجعل القبلة الى بيت المقدس، والحج الى بيت المقدس، وجعل يوم الاثنين يوماً لا عمل فيه بدلاً من يوم الجمعة. وأما سورة الاستفتاح ـ فهي:** «الحمدلله بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه. قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي. اتقوني يا أولي الألباب. وأنا الذي لا أسأل عمّا أفعل وأنا العليم الحكيم، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي، وأخلدته في نعمتي، ومن زال عن أمري، وكذب رسلي، أخذته مهاناً في عذابي، وأتممت أجلي وأظهرت أمري على ألسنة رسلي، وأنا الذي لم يعل عليّ جبّار إلا وضعته ولا عزيز إلاّ أذللته، وليس الذي أصر على أمري وداوم على جهالته، وقالوا لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون». **ثم يركع ويقول في ركوعه:** «سبحان ربي ربّ العزة وتعالى عمّا يصف الظالمون» يقولها مرتين. **فإذا سجد قال:** «الله أعلى، الله أعلى، الله أعظم، الله أعظم» ومن شريعته أن **يصوم يومين في السنة، وهما:**

المهرجان والنيروز. وأن النبيذ حرام والخمر حلال. ولا غسل من جنابة إلاّ الوضوء كوضوء الصلاة. وأن من حاربه وجب قتله. ومن لم يحاربه ممن يخالفه أخذ منه الجزية. ولا يأكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب. **وكان مصير قرمط الى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج، فسار قرمط إليه وقال له: اني على مذهب ورأي، ومعي مائة ألف ضارب سيف، فتناظرني، فان اتفقنا على المذهب، انضممت إليك بمن معي، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك. فتناظرا، فاختلفت آراؤهما فانصرف قرمط عنه.**

مضى القرامطة بدعوتهم، وأخذ أمرهم في الظهور بناحية ـ **البحرين**ـ حيث توجّه إليها رجل منهم يعرف باسم ـ يحي بن المهدي ـ ونزل على رجل يعرف باسم ـ علي بن المعلى بن حمدان ـ وهو مولى الزيادنيين وكان يغالي في التشيع، فأظهر له يحي انه رسول المهدي ـ **وكان ذلك سنة ٢٨١ هـ = ٨٩٤ م** ـ. وذكر أنه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى أمره وأن ظهوره قد قرب، فوجه علي بن المعلى الى الشيعة من أهل القطيف فجمعهم وأقرأهم الكتاب الذي مع يحي بن المهدي إليهم ـ من المهدي ـ فأجابوه وأعلموه أنهم خارجون معه إذا ظهر أمره. وكان فيمن أجابه ـ **أبو سعيد الجنابي** ـ **وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم**، ثم غاب عنهم يحي بن المهدي، ثم رجع ومعه كتاب زعم أنه من المهدي الى شيعته وفيه: «بأن رسولي يحي بن المهدي قد عرفني مسارعتكم الى أمري، فليدفع إليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثين» ففعلوا ذلك. ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب جاء فيه: «أن ادفعوا الى يحي خمس أموالكم» فدفعوا إليه الخمس. وكان يحي يتردد في قبائل قيس، ويورد إليهم كتباً زعم أنها من المهدي، وأنه ظاهر، فكونوا على أهبة. وحكى إنسان منهم يقال له ـ ابراهيم الصائغ ـ **أنه كان عند أبي سعيد الجنابي وأتاه يحي فأكلوا طعاماً، فلمّا فرغوا خرج أبو سعيد من بيته وأمر امرأته ان تدخل الى يحي وان لا تمنعه إن أراد.** فعلم الوالي بذلك فأخذ يحي وضربه وحلق رأسه ولحيته. وهرب أبو سعيد الجنابي الى جنابا. وسار يحي بن المهدي الى بني كلاب وعقيل والخريس، فاجتمعوا معه. فعظم أمر أبي سعيد حتى إذا ما كانت سنة ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م. اجتمع إليه

جماعة من الأعراب والقرامطة ـ بالبحرين ـ وقوي أمره، فقتل من حوله من أهل القرى، ثم سار الى القطيف، فقتل من بها. وأظهر انه يريد البصرة، فكتب والي البصرة ـ أحمد بن محمد بن يحيي الواثقي ـ الى أمير المؤمنين ـ المعتضد ـ بذلك، فأمره ببناء سور على البصرة، واستخدام الخراج. وكان مبلغ الخراج عليه أربعة عشر ألف دينار. كما وجه قوة من ثلاثمائة رجل بالسفن إلى البصرة، وعزل والي ـ **العباس بن عمرو الغنوي** ـ عن بلاد فارس، وعينه والياً على اليمامة والبحرين، وضمّ إليه زهاء ألفي رجل، وأمره بمحاربة القرامطة. وسار الغنوي الى البصرة فاجتمع إليه جمع كثير من المتطوعة والجند والخدم. ثم سار منها لقتال ـ أبي سعيد الجنابي ـ فلقيه مساء. وتناوشوا القتال، وحجز بينهم الليل، فلمّا كان الليل، انصرف عن الغنوي من كان معه من أعراب بني ضبة ـ وكانوا ثلاثمائة ـ إلى البصرة، وتبعهم مطوعة البصرة. فلمّا أصبح الغنوي باكر الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم قامت قوة من جناح الغنوي ـ من مائة رجل ـ فهاجمت جناح الجنابي، وأوغلت في تقدمها فطوقتها قوات الجنابي وأبادتها كما قام الجنابي بهجوم على الغنوي فهزم قواته وأخذ الغنوي أسيراً واستولى على كل ما حواه معسكره، فلمّا كان الغد أحضر الجنابي أسرى جيش الغنوي وقتلهم جميعاً. وبقي الغنوي أسيراً عدة أيام، ثم أطلقه وأعطاه ـ رسالة مغلقة ـ وقال له: «أوصلها الى أمير المؤمنين المعتضد فإن لي فيها أسراراً». فلمّا دخل الغنوي على المعتضد عاتبه المعتضد، فسلّمه الغنوي الكتاب، وفتح الكتاب، وإذ ليس فيه شيء. فقال المعتضد مخاطباً الغنوي: «انه أراد أن يعلمني أني أنفذتك إليه في العدد الكثير، فردك فرداً». وأما الجنابي، فإنه سار بعد ذلك الى ـ هجر ـ فدخلها وأمن أهلها. وكانت قافلة تحمل الزاد ـ التموين ـ قد خرجت من البصرة في نحو أربعمائة رجل على الرواحل، ومعهم الطعام والكسوة والماء، فخرج عليهم بنو أسد وأخذوا الرواحل وما عليها. فاضطربت البصرة. وعزم أهلها على الانتقال منها فمنعهم واليها ـ الواثقي ـ. وخرج بدر غلام الطائفي بقوة، فهاجم القرامطة على غرة منهم ـ بنواحي ميسان ـ وغيرها. وقتل منهم مقتلة. ثم تركهم خوفاً أن تخرب السواد، وكانوا فلاحيه، وطارد رؤساءهم فقتل من ظفر به منهم.

كان ـ **زكرويه بن مهرويه** ـ واسمه يحي ويكنى بأبي القاسم ولقبه الشيخ، هو أحد دعاة القرامطة، فلمّا رأى ان جيوش المعتضد متتابعة لمحاربة القرامطة في الكوفة وسوادها. وأن القتل قد أبادهم؛ سعى في استغواء من قرب من الكوفة من أعراب قبائل أسد وطيء وسواهم فلم يجبه منهم أحد، فأرسل أولاده إلى ـ كلب بن وبرة ـ فاستغووهم، فلم يجبهم منهم إلا الفخذ المعروف ـ ببني القليص بن ضمضم بن عدي بن خباب ـ ومواليهم خاصة، فبايعوا في آخر سنة ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ م بناحية السماوة، **وزعم زكرويه بن مهرويه ـ أنه محمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ وقيل لم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد اسمه عبدالله ـ** وزعم ان له بالبلاد مائة ألف تابع، وأن ناقته التي يركبها مأمورة فإذا تتبعوها في مسيرها نصروا. وأظهر غلاماً له عضد ناقصة وذكر أنه ابنه، وأتاه جماعة من بني الأصبع وسموا الفاطميين، ودانوا بدينه. فقصدهم ـ شبل ـ غلام المعتضد من ناحية ـ الرصافة ـ فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة. وسار زكرويه بجموعه، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها الى ان وصلوا قرب **دمشق** ـ فخرج إليهم ـ **طغج بن جف** ـ عاملها لأمير مصر ـ هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ـ فحاربهم، فهزموه أكثر من مرة.

تابع ـ شبل ـ غلام أحمد بن محمد الطائي ـ حرب القرامطة بسواد الكوفة، وظفر برئيس لهم يعرف باسم أبي الفوارس ـ فسيره الى أمير المؤمنين المعتضد، فأحضره بين يديه وقال له: «أخبرني هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسامكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل؟» فقال أبو الفوارس: «يا هذا! إن حلت روح الله فينا فما يضرك؟ وإن حلت روح إبليس فما ينفعك؟ لا تسأل عمّا لا يعنيك واسأل عمّا يخصّك». فقال له المعتضد: «ما تقول فيما يخصّني؟». وأجاب القرمطي: «أقول إن رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حي، فهل طلب الخلافة ام هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه. ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم. فبماذا تستحقون انتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع

جدك عنها؟». فأمر به المعتضد، فعذب، وخلعت عظامه، ثم قطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه، ثم حملت جثته الى الياسرية فصلب مع من صلب هنالك من القرامطة. ولم يلبث المعتضد أن مات(*) واستراح القرامطة من عدو شديد البأس.

اشتد أمر القرامطة على أهل دمشق ـ سنة ٢٩٠ هـ = ٩٠٢ م. فوجه إليهم أميرها ـ طغج بن جف ـ جيشاً بقيادة غلام له اسمه بشير، فهزمه القرامطة وقتلوه ثم شرعوا في حصار دمشق والتضييق على أهلها، وقتلوا جند طغج حتى لم يبق منهم إلاّ القليل، وأشرف أهل دمشق على الهلكة، وهاج أهل بغداد، فوعدهم أمير المؤمنين بإرسال نجدة الى دمشق وأهلها، ووجّه المصريون قوات كثيرة. فقاتلوا الشيخ مقدم القرامطة، وقتلوه على باب دمشق حيث رماه بعض المغاربة بمذراق وقذفه نفاط بالنار فاحترق. وقتل من القرامطة خلق كثير. وكان هذا القرمطي يزعم أنه إذا أشار بيده الى جهة من التي فيها محاربوه، انهزموا. **فلمّا قتل وقتل أصحابه، اجتمع من بقي منهم على أخيه ـ الحسين، وسمى نفسه أحمد، وكنيته أبو العباس، ودعا الناس، فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم، فاشتدت شوكته، وأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آيته ـ فسار الى دمشق فصالحه أهلها على خراج دفعوه إليه وانصرف عنهم.**

(*) المعتضد بالله، أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل (٢٤٢ ـ ٢٨٩ هـ = ٨٥٦ ـ ٩٠١ م) تولى الخلافة سنة ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م وكان شجاعاً، مقداماً، عفيفاً، حكى القاضي اسماعيل بن إسحق قال: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه، فأطلت النظر فيهم، فلمّا قمت أمرني بالقعود، فجلست حتى تفرق الناس، فقال: يا قاضي، والله ما حللت سراويلي على غير حلال قط، وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته، ويكفون عن الظلم خوفاً منه. فلما حضرته الوفاة أنشد:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى	وخذ صفوها ما إن صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر إني أمنته	فلم يبق لي خلا ولم يرع لي حقاً.
قتلت صناديد الرجال ولم أرع	عدواً ولم أمهل على طغيه خلقاً
وأخليت دار الملك من كل نازع	فشردتهم غرباً ومزّقتهم شرقاً
فلمّا بلغت النجم عزاً ورفعة	وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقاً
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي	فها أنذا في حفرتي عاجلاً ألقى
فيا ليت شعري بعد موتي ما ألقى	الى نعم الرحمن أم ناره ألقى.

سار الحسين ـ صاحب الشامة ـ بقواته الى أطراف ـ **حمص** ـ فغلب عليها، وخطب له على منابرها، وتسمى ـ بأمير المؤمنين المهدي ـ وأتاه ابن عمه ـ عيسى بن المهدي المسمى عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ـ فلقبه المدثر وزعم انه المدثر الذي في القرآن ـ وعهد إليه. ولقب غلاماً من أهله بلقب ـ المطوق ـ وقلده قتل أسرى المسلمين. ولمّا أطاعه أهل حمص، وفتحوا له بابها خوفاً منه على أنفسهم، سار إلى ـ **حماه** ـ **و** ـ **معرة النعمان** ـ وغيرهما فقتل أهلها، وقتل النساء والصبيان، ثم سار الى ـ **بعلبك** ـ فقتل عامة أهلها ولم يبق منهم إلاّ اليسير. ثم سار الى ـ **سلمية** ـ فمنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الأمان، ففتحوا له بابها، فغدر بهم، وبدأ بمن فيها من بني هاشم، وكانوا جماعة، فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب، ثم خرج منها وليس بها عين تطرف. وسار فيما حولها من القرى يسبي ويقتل ويقطع الطرق. وذكر عن متطبب بباب المحول يدعى أبا الحسن قال: « جاءتني امرأة بعدما أدخل القرمطي صاحب الشامة بغداد، وقالت: أريد ان تعالج جرحاً في كتفي. فقلت لها: ههنا امرأة تعالج النساء. فجلست في انتظارها وهي تبكي. فسألتها عن قصّتها فقالت: كان لي ولد طالت غيبته عني، فخرجت أطوف عليه البلاد، فلم اعثر عليه، فخرجت من ـ الرقة ـ في طلبه، حتى نزلت في معسكر القرمطي؛ فرأيته، فشكوت إليه حالي وحال أخواته، فقال: دعيني من هذا وأخبريني ما دينك؟ فقلت: أما تعرف ما ديني؟ فقال: ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه اليوم. فعجبت من ذلك، وخرج وتركني وأرسل اليّ خبزاً، فلم أمسّه حتى عاد فأصلحه، وأتاه رجل من أصحابه فسألني هل أحسن من أمر النساء شيئاً؟ وأجبته: نعم. فأدخلني داراً؛ فإذا امرأة تطلق، فقعدت بين يديها، وجعلت أكلمها ولا تكلمني حتى ولدت غلاماً، فأصلحت من شأنه، وتلطفت بها حتى كلمتني. فسألتها عن حالها فقالت: أنا امرأة هاشمية، أخذنا هؤلاء الأقوام، فذبحوا أبي وأهلي جميعاً. وأخذني صاحبهم، فأقمت عنده خمسة أيام. ثم أمر بقتلي، فطلبني منه أربعة أنفس من قواده، فوهبني لهم. وكنت معهم، فوالله ما أدري ممّن هذا الولد منهم ثم جاء رجل، فقالت لي: هنيه. فهنّيته فأعطاني سبيكة فضة. وجاء آخر، وآخر، أهنىء كل واحد منهم ويعطيني سبيكة فضة، وجاء الرابع ومعه جماعة فهنّيته، فأعطاني ألف

درهم. وبتنا ليلتنا، فلمّا أصبحنا قلت للمرأة: قد وجب حقّي عليك، فالله الله خلّصيني. قالت: ممّن أخلّصك؟ فأخبرتها خبر ابني. فقالت لي: عليك بالرجل الذي جاء آخر القوم. فأقمت يومي، فلما أمسيت وجاء الرجل، قمت له وقبلت يده ورجله، ووعدته أنني أعود بعد أن أوصل ما معي الى بناتي. فدعا قوماً من غلمانه، وأمرهم بحملي الى مكان ذكره، وقال: اتركوها فيه وارجعوا، فساروا بي عشرة فراسخ، فلحقنا ابني فضربني بالسيف فجرحني ومنعه القوم. وساروا بي إلى المكان الذي سمّاه لهم صاحبهم، وتركوني وجئت الى ههنا. وعندما قدم الأمير بالقرامطة وبالأسارى، رأيت ابني فيهم، على جمل عليه برانس وهو يبكي. فقلت له: لا خفف الله عنك ولا خلّصك».

ضجّ أهل الشام ومصر، وكتبوا الى أمير المؤمنين المكتفي بما يلقون من القرمطي وأصحابه من القتل والسبي وتخريب البلاد، فأمر الجند بالتأهب، وخرج من بغداد في رمضان، وسار الى الشام، وجعل طريقه على الموصل، ودفع أمامه قوة متقدمة من عشرة آلاف رجل بقيادة ـ أبي الأغر ـ الذي سار بقوته حتى وصل قريباً من حلب، فباغتهم القرمطي صاحب الشامة بهجومه، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وانسحب ابو الأغر ومعه ألف رجل فدخل حلب. فتبعهم القرمطي الى باب حلب، فحاربه أبو الأغر بمن بقي معه وأهل البلد فرجع القرمطي عنهم. وسار المكتفي حتى نزل الرقة وسير الجيوش اليه بقيادة الكاتب محمد بن سليمان. وكان القرمطي صاحب الشامة قد اصطدم بجيش قدم من مصر بقيادة بدر مولى ابن طولون، فانهزم القرمطي. وقتل من أصحابه خلق كثير. ومضى من سلم منهم نحو البادية، فوجّه المكتفي في أثرهم القوات بقيادة الحسين ابن حمدان وغيره من القادة. وفي تلك الفترة ذاتها قاد أمير البحرين ـ ابن بانو ـ قواته وباغت حصناً للقرامطة، فظفر بمن فيه، كما اصطدم بقوة للقرامطة بقيادة أحد أقارب أبي سعيد الجنابي، فانتصر ابن بانو ـ وقتل قائد قوة القرامطة. وسار ابن بانو الى القطيف فافتتحها. هذا فيما كان جند أمير المؤمنين ـ المكتفي ـ بقيادة محمد بن سليمان يطاردون القرمطي صاحب الشامة حتى التقوا به على بعد اثني عشر ميلاً من مدينة ـ حماه ـ. ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة القرامطة، وقتلوا كل قتلة، وأسر

من رجالهم بشر كثير وتفرّق الباقون في البوادي، وتبعهم جند أمير المؤمنين. فلمّا رأى صاحب الشامة ما نزل بأصحابه، حمل أخاً له يكنى ـ أبا الفضل ـ مالاً، وأمره أن يلحق بالبوادي الى أن يظهر بمكان فيسير إليه. وركب هو وابن عمه المسمى ـ بالمدثر ـ وصاحبه ـ المطوق ـ. وغلام له رومي، وأخذ دليلاً وسار يريد الكوفة عرضاً في البرية، فوصل الى الدالية من نواحي الفرات وقد نفد ما معهم من الزاد والعلف. فوجّه بعض أصحابه الى الدالية لشراء ما يحتاجون إليه، واشتبه أهل الدالية فرفعوا الأمر الى الوالي الذي حقّق في الأمر، وعرف مكان ـ صاحب الشامة، فسار اليهم واعتقلهم. ووجههم الى المكتفي بالرقة، ورجعت الجيوش من المطاردة بعد أن قتلت من القرامطة وأسرت. وظهر في هذا الصراع اسم ـ الحسين بن حمدان ـ الذي كان من أكثر الناس أثراً في الحرب. وكتب ـ محمد بن سليمان ـ الى أمير المؤمنين المكتفي، فأثنى على ما أبلاه الحسين بن حمدان، وما فعله ـ بنوشيبان الذين اصطلوا الحرب وهزموا القرامطة وأكثروا القتل فيهم والأسر حتى لم ينج منهم إلاّ القليل. ووصل القرمطي صاحب الشامة الى الرقة يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٣ م وقد أركب على فالج ـ وهو الجمل ذو السنامين. وبين يديه المدثر والمطوّق على جملين. وسار المكتفي الى بغداد ومعه صاحب الشامة وكبار رجال القرامطة وأمر المكتفي بحبس القرامطة، ثم أمر بقطع أيديهم وأرجلهم وضرب أعناقهم.

كان ـ **زكرويه بن مهرويه** ـ يتابع التطورات من الكوفة، فلما علم بقتل ـ صاحب الشامة ـ أخذ في التحرك بسرعة وكتب إلى أشياعه يثبتهم ويعلمهم أنه مما أوصي إليه أن صاحب الشامة وأخاه يقتلان، وأن إمامه الذي هو حي يظهر بعدهما ويظفر. **ثم أرسل رجلاً كان يعلم الصبيان بالزابوقة ـ من الفلوجة ـ يسمى عبد الله بن سعيد ويكنى أبا غانم فسمي نصراً**. فدار على أحياء العرب من كلب وغيرهم يدعوهم إلى رأيه، فلم يقبله منهم أحد، إلا رجلاً من بني زياد ـ يسمى مقدام بن الكيال ـ واستغوى طوائف من الاصبغيين المنتمين إلى ـ الفواطم ـ وغيرهم من العليصيين وصعاليك من سائر بطون كلب. وتوجه بهم نحو الشام، مغتنماً فرصة غياب والي دمشق والأردن ـ أحمد بن كيغلغ ـ في مصر. فوصل إلى ـ **بصرى واذرعات والبثينة** ـ

فحارب أهلها ثم أمنهم. فلما استسلموا إليه قتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم، ثم قصد ـ دمشق ـ فخرج إليهم نائب ابن كيغلغ ـ وهو صالح بن الفضل ـ فهزمه القرامطة، ومزقوا جنده، ودمروا معسكره وقتلوا صالحاً. وساروا إلى دمشق ـ فمنعهم أهلها، فتوجهوا إلى ـ طبرية ـ وانضم إليهم جماعة من جند دمشق، افتتنوا بهم. فتصدى لهم عامل ابن كيغلغ في الأردن ـ وهو يوسف بن بغامردي ـ فهزموه وبذلوا له الأمان وغدروا به وقتلوه ونهبوا طبرية. وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا النساء. فأرسل أمير المؤمنين إلى الحسين بن حمدان وجماعة من قادته، وأمرهم بمطاردة القرامطة. وسار الجند حتى وصلوا دمشق، فلما علم بهم القرامطة، ساروا نحو السماوة. وتبعهم الحسين في السماوة وهم ينتقلون في المياه ويغورونها ـ يفسدونها ويعملون على ردم آبارها ـ حتى وصلوا إلى ماءين يعرف أحدهما بالدمعانة والآخر بالحبالة. وانقطع ـ ابن حمدان ـ عنهم لعدم وجود المياه، وعاد إلى الرحبة. فسار القرامطة ليلاً بقيادة نصر إلى ـ هيت ـ وأهلها غافلون، فنهبوا ربضها، واستولوا على السفن ونهبوا الأموال والمتاع وصادروا ثلاثة آلاف راحلة من الحنطة. وتحصن أهل ـ هيث ـ بمدينتهم ودافعوا عنها، فلم يقدر القرامطة على دخولها. وقتلوا من أمكن لهم العثور عليه من أهل هيت ـ فقتلوا حوالى مائتي رجل ـ. وعلم أمير المؤمنين المكتفي، فأرسل جيشاً بقيادة ـ محمد بن اسحق بن كنداج ـ فانسحب القرامطة ورجعوا إلى الماءين، فسار جند أمير المؤمنين لمطاردتهم، فوجد قائدهم ـ محمد بن اسحق ـ أن القرامطة قد غوروا المياه. فأرسل إليهم المكتفي من بغداد الأزواد والدواب، كما كتب إلى ـ ابن حمدان ـ بالمسير إليهم من جهة الرحبة، ليجتمع هو ومحمد على حربهم ـ وأسرع ابن حمدان بجيشه، فلما علم الكلبيون بتقدم الجيش نحوهم، عملوا على قتل نصر ـ قتله رجل منهم يقال له الذئب بن القائم ـ وسار برأسه إلى المكتفي متقرباً بذلك مستأمناً، فأجيب إلى ذلك، وأجيز بجائزة سنية، وأمر بعدم التعرض للكلبيين. واقتتلت القرامطة بعد قتل نصر حتى سالت بينهم الدماء، وسارت فرقة منهم كرهت أمورهم إلى ـ بني أسد بنواحي عين التمر ـ واعتذروا إلى أمير المؤمنين المكتفي فقبل عذرهم. وبقي على الماءين بقيتهم. فكتب أمير المؤمنين إلى ابن حمدان وأمره بمعاودتهم واجتثاث أصلهم. فأرسل إليهم

ـ زكرويه بن مهرويه ـ داعية له ـ يسمى القاسم بن أحمد ويعرف بأبي محمد ـ « وأعلمهم أن ما فعله ـ الذئب ـ قد نفره منهم، وأنهم ارتدوا عن دين القرامطة، وأن وقت ظهور القرامطة قد آن أوانه، وأنه قد بايع له من أهل الكوفة أربعون ألفاً، وأن يوم موعدهم الذي ذكره الله في شأن موسى ﷺ وعدوه فرعون إذ يقول:﴿إن موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ وأمرهم أن يخفوا أمرهم وأن يسيروا إلى الكوفة يوم النحر ـ عيد الأضحى ـ سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م. فإنهم لا يمنعون منها، وأنه يظهر لهم، وينجز لهم وعده الذي يعدهم إياه، وأن يحملوا إليه القاسم بن أحمد ». فامتثلوا رأيه، ووصلوا إلى باب الكوفة وقد انصرف الناس من صلاة عيد الأضحى.

فأقاموا معسكرهم، وكانوا زهاء ثمانمائة فارس عليهم الدروع والجواشن والآلات الحسنة، وضربوا قبة على ـ القاسم بن أحمد ـ وقالوا: « **هذا أثر رسول الله** ». ودعوا: « **يا لثارات الحسين** » وهم يعنون ـ الحسين بن مهرويه الذي صلب ببغداد. وجعلوا شعارهم: « **يا أحمد ـ يا محمد** » وهم يعنون ابني زكرويه المقتولين. ورفعوا الأعلام البيض. وأرادوا استمالة رعاع الناس بالكوفة بما يفعلون، فلم يلتفت إليهم أحد، فقتل القرامطة نحواً من عشرين نفساً من أهل الكوفة ممن أمكن لهم اللحاق به. ودخل مدينة الكوفة مائة فارس من القرامطة. فقتل منهم عشرين نفساً وطردوا منها. وبادر أهل الكوفة إلى حمل السلاح ونهض بهم واليها اسحق بن عمران فحارب القرامطة حتى العصر وهزمهم، فانسحبوا إلى القادسية. وكتب الوالي اسحق إلى أمير المؤمنين يستمده. فأمده بجيش وصل إلى الصوان ـ قرب القادسية ـ **وكان ـ زكرويه بن مهرويه ـ قد صنع لنفسه ملجأ أعده منذ سنين كثيرة بقرية ـ الدرية ـ وكان على الملجأ ـ الجب ـ باب حديد محكم العمل، فإذا خاف زكرويه المطاردة، وضع تنوراً هناك على الباب، وقامت امرأة تسجره، فلا يفطن إليه. وكان ربما أخفي في بيت خلف باب الدار التي كان بها ساكناً، فإذا انفتح باب الدار انطبق على باب البيت، فيدخل الداخل الدار فلا يرى شيئاً**. فلما علم القرامطة بقدوم جيش أمير المؤمنين ـ استخرجوا زكرويه من الملجأ ـ الجب ـ. وحملوه على أيديهم وسموه « ولي الله » ولما رأوه ـ سجدوا له، وحضر معه جماعة من دعاته وخاصته

« وأعلمهم أن ـ القاسم بن أحمد ـ هو من أعظم الناس عليهم ذمة ومنة لأنه ردهم إلى الدين بعد ارتدادهم عنه. وأنهم إن امتثلوا أوامره أنجز موعدهم وبلغوا آمالهم، ورمز لهم رموزاً ذكر فيها آيات من القرآن نقلها عن الوجه الذي أنزلت فيه. فاعترف له من رسخ الكفر في قلبه أنه رئيسهم وكهفهم، وأيقنوا بالنصر وبلوغ الأمل ». وسار بهم ـ زكرويه ـ وهو محجوب عنهم، يدعونه ـ السيد ـ ولا يبرزونه، والقاسم هو الذي يتولى الأمور. وأعلمهم أن أهل السواد قاطبة خارجون إليه، فأقام ـ بسقي الفرات ـ عدة أيام، فلم يصل إليه منهم إلا خمسمائة رجل، ثم وصلت إليه قوات أمير المؤمنين، فلقيهم ـ زكرويه ـ بالصوان، وقاتلهم، واشتدت الحرب بينهم، وكانت الهزيمة أول النهار على القرامطة، وكان ـ زكرويه ـ قد نصب لهم كميناً من خلفهم، فلم يشعر جند أمير المؤمنين إلا والسيف فيهم من ورائهم؛ فانهزموا أقبح هزيمة، ووضع القرامطة السيف فيهم، فقتلوهم كيف شاؤوا، وغنموا متاعهم، ولم يسلم من جند أمير المؤمنين إلا من تمكن من الهرب أو من أثخن بالجراح فوضع نفسه بين القتلى فتحاملوا بعد ذلك. واستولى القرامطة على أكثر من ثلاثمائة جمازة عليها المال والسلاح وخمسمائة بغل. وقتل من جند أمير المؤمنين ألف وخمسمائة رجل ـ سوى الغلمان ـ وقوي القرامطة بما غنموا. ولما ورد خبر هذه الوقعة إلى بغداد، أعظمها الخليفة والناس ـ وندب قائده ـ محمد بن اسحق بن كنداج ـ لحرب القرامطة. وضم إليه من الأعراب ـ بني شيبان ـ وغيرهم أكثر من ألفي رجل، وأعطاهم الأرزاق. ورحل زكرويه من مكانه إلى نهر المثنية هرباً من نتن القتلى.

ما إن وصل ـ زكرويه ـ إلى المثنية حتى وصلته الأنباء عن داعية القرامطة باليمن والذي وصل إلى صنعاء، فحاربه أهلها، فانتصر عليهم وقتلهم فلم ينج منهم إلا القليل. وأنه تغلب على سائر مدن اليمن، ثم اجتمع أهل صنعاء وغيرها على حرب القرامطة فهزموهم، وأرغموهم على اللجوء إلى موضع من نواحي اليمن.

قرر ـ زكرويه ـ الهجوم على قوافل الحجاج ونهبها، فغادر وقواته نهر المثنية ووصل إلى ـ السلمان ـ وأقام ينتظرهم. ووصلت القافلة الأولى من الحجاج في اليوم السابع من المحرم إلى واقصة ـ فأنذر أهلها الحجاج، وأخبروهم بقرب القرامطة. فارتحلوا

لساعتهم، وسار الترامطة إلى ـ واقصة ـ فسألوا أهلها عن الحجاج، فأعلموهم أنهم ساروا؛ فاتهمهم زكرويه وقتل العلافة وأحرق العلف. وتحصن أهل ـ واقصة ـ في حصنهم، فحصرهم أياماً ثم ارتحل عنهم نحو ـ زبالة ـ وأغار في طريقه على جماعة من بني أسد، ووصل جند أمير المؤمنين المكلفين بحماية الحجاج. فبلغهم مسير ـ زكرويه ـ من السلمان، فاقتاد قائد الجند ـ علان ابن كشمرد ـ قوة من الفرسان الخفيفة، وسار بها من ـ عيون الطف ـ إلى ـ واقصة ـ وكانت القافلة الأولى قد تجاوزتها. ولقي ـ زكرويه القرمطي ـ قافلة من حجاج خراسان عند ـ عقبة الشيطان ـ عند رجوعهم من مكة، فحاربهم حرباً قاسية، فلما رأى شدة حربهم، سألهم: «هل فيكم نائب أمير المؤمنين؟» فقالوا: «ما معنا أحد». فقال لهم: «لست أريدكم». فاطمأنوا، وساروا، فلما ساروا غدر بهم وباغتهم بهجومه، وقتلهم عن آخرهم، ولم ينج إلا الشريد، وسبوا من النساء ما أرادوا، وقتلوا منهن. ولقي بعض المنهزمين ـ علان بن كشمرد ـ فأخبروه خبرهم. وقالوا له: «ما بينك وبينهم إلا القليل، ولو رأوك لقويت نفوسهم، فالله الله فيهم». فقال علان: «لا أعرض جند أمير المؤمنين للقتل». ورجع هو وأصحابه. وكتب من نجا من هذه القافلة الثانية إلى رؤساء القافلة الثالثة من الحجاج، وأعلموهم ما جرى من القرامطة، وأمروهم بالحذر وتجنب السير على الطريق الرئيسي الذي يصل إلى ـ واسط والبصرة ـ أو الرجوع إلى ـ فيد والمدينة ـ إلى أن تصل جيوش أمير المؤمنين. فلم يسمعوا ولم يقيموا. وسارت القرامطة من العقبة بعد مهاجمة الحجاج، وردموا الآبار والبرك بالجيف والتراب والحجارة في كل من ـ واقصة والثعلبية والعقبة ـ. وسواها من المناهل في جميع طريقهم. وأقام بالهبير ينتظر القافلة الثالثة، فساروا فصادفوه هناك، فقاتلهم ـ زكرويه ـ ثلاثة أيام ـ وهم على غير ماء ـ فاستسلموا لشدة العطش، فوضع فيهم السيف، وقتلهم عن آخرهم، وجمع القتلى كالتل. وأرسل خلف المنهزمين من يبذل لهم الأمان، فلما رجعوا قتلهم. وكان في القتلى مبارك القمي وولده أبو العشائر بن حمدان. **وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى يعرضن عليهم الماء، فمن كلمهن قتلنه، وبلغت عدة القتلى عشرين ألفاً، ولم ينج إلا من كان بين القتلى فلم يفطن له، فنجا بعد ذلك، أو من هرب عند**

اشتغال القرامطة بالقتل والنهب. فكان من مات من هؤلاء أكثر ممن سلم ومن استعبدوه. وكان مبلغ ما أخذوه من هذه القافلة ألفي ألف دينار، وكان في جملة ما أخذوا فيها أموال الطولونية وأنشابهم. ذلك أنه لما عزم الطولونيون على الانتقال من مصر إلى بغداد خافوا أن يستصحبوها فتؤخذ منهم. فعملوا الذهب والنقرة سبائك وجعلوها في حدائج الجمال وجميع مالهم من الحلي والجوهر. وسيروا الجميع إلى مكة سراً. وسار من مكة في هذه القافلة، فأخذها القرامطة. ونشر ـ زكرويه ـ الطلائع خوفاً من جند أمير المؤمنين الذين كانوا بالقادسية وأقام ينتظر وصول من كان في الحج من جند أمير المؤمنين الذين توقفوا ـ بفيد ـ وهم ينتظرون ما سيفعله القرامطة. فلما علموا بما فعله القرامطة، انتظروا وصول جند أمير المؤمنين ومعهـم التجـار وأربـاب الأمـوال. فسار إليهم القرامطة بقيادة ـ زكرويه ـ إلى ـ فيد ـ. وعملوا أثناء سيرهم على ردم الآبار وتدمير المصانع وتغوير المياه وافسادها. وعلم أهل فيد ومن بها من الحجاج بتحرك القرامطة نحوهم، فتحصنوا بالحصنين اللذين بفيد. ووصل القرامطة وحاصروهم، وأرسل ـ زكرويه ـ إلى أهل فيد وأمرهم بإخراج الحجاج وتسليم الحصنين له مقابل منحهم الأمان. ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه، فتهددهم بالنهب والقتل، فازداد امتناعهم. فأقام على حصارهم أياماً، ثم انصرف عنهم إلى جعفر أبي موسى.

عظم على أمير المؤمنين خاصة، وعلى كافة المسلمين عامة، ما فعله القرامطة بالحجاج، فجهز أمير المؤمنين المكتفي الجيوش وسيرها لقتال القرامطة بقيادة ـ وصيف ابن صوارتكين ـ. واختار وصيف السير على طريق ـ خفان ـ ولم يلبث أن اصطدم بقوات القرامطة بقيادة ـ زكرويه ـ فاقتتلوا يومهم، ثم حجز الليل بينهم، وباتوا يتحارسون. ثم بكروا إلى القتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من القرامطة عدد كبير، **ووصل جند أمير المؤمنين إلى عدو الله زكرويه، فضربه بعض الجند وهو هارب بالسيف على رأسه فبلغت الضربة دماغه، وأخذه أسيراً، وأخذ خليفته وجماعة من خواصه وأقربائه وفيهم ابنه وكاتبه وزوجته، واحتوى الجند على ما في معسكر القرامطة، وعاش زكرويه خمسة أيام ومات، فسيرت جيفته والأسرى إلى بغداد. وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام فأوقع بهم الحسين بن حمدان،**

فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان وحمل رأس زكرويه إلى خراسان لئلا ينقطع الحجاج. وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب ـ زكرويه ـ يعرف أحدهما بالحداد، والآخر بالمنتقم ـ وهو أخو امرأة زكرويه ـ كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم، فلما أخذوهما سيروهما إلى بغداد، وتتبع أمير المؤمنين القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم وحبس بعضهم، ومات بعضهم بالحبس.

كان مقتل ـ زكرويه ـ سنة ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م. بمثابة الضربة القاضية لحركة القرامطة. وخيل للناس أنهم استراحوا من شرهم. ومات أمير المؤمنين المكتفي بالسنة التالية (*) . ومضت سنوات لم يمارس خلالها القرامطة أي نشاط ظاهر، وفي سنة ٢٩٩ هـ = ٩١١ م. جاء نفر من القرامطة من أصحاب أبي سعيد الجنابي إلى باب البصرة ـ وقت صلاة يوم الجمعة، وجاء الانذار بوصول القرامطة، فخرج إليهم الموكلون بحفظ باب البصرة، فرأوا رجلين منهم، فقتل القرامطة رجلاً من أهل البصرة، وعاد الباقون، وأسرع والي البصرة ـ محمد بن اسحق بن كنداجيق ـ في جمع كبير لمطاردة القرامطة، فلم ير منهم أحداً، فسير في أثرهم جماعة، فأدركوهم وكانوا نحو ثلاثين رجلاً، فقاتلوهم، فقتل بينهم جماعة. وعاد ابن كنداجيق، وأغلق أبواب البصرة ظناً منه أن أولئك القرامطة كانوا مقدمة لأصحابهم، وكتب إلى الوزير ببغداد، يعرفه وصول القرامطة ويستمده. فلما أصبح ولم ير للقرامطة أثراً، ندم على ما فعل، وسير إليه من بغداد جنداً مع بعض القادة.

(*) المكتفي بالله، أبو محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل (٢٦٤ـ٢٩٥ هـ = ٨٧٧ـ٩٠٧ م) وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً. وكان يضرب المثل بحسنه في زمانه، ومن حين تولى الخلافة ضعف أمرها، يحكى أنه صلى بالناس يوم عيد النحر، كان بين يديه ألوية الملوك، وترجل الملوك والامراء بين يديه ـ ما خلا وزيره القاسم بن عبيد الله، فانه ركب وسايره دون الناس. فكان هذا أول وهن وقع في حق الخلفاء. وخلفه المقتدر بالله ـ أبو الفضل جعفر بن المعتضد.

أ ـ القرامطة يميدون تنظيم أمورهم.

اكتملت نكبة القرامطة بقتل كبيرهم ـ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ـ (*) والذي كان قد استولى على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين. وكان أمير المؤمنين المقتدر قد كتب إلى أبي سعيد كتاباً ليناً في ما عنده من أسرى المسلمين، ويناظره، ويقيم الدليل على فساد مذهبه، وأرسله مع الرسل، فلما وصلوا إلى البصرة بلغهم خبر موته، فأعلموا الخليفة بذلك، فأمرهم بالمسير إلى ولده، فأتوا **أبا طاهر**، فأكرم الرسل، وأطلق الأسرى وأنفذهم إلى بغداد، وأجاب عن الكتاب (سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م). وأمضى أبو طاهر سليمان عشر سنوات في إعادة تنظيم قواته، وإعادة نشر شبكاته، لم يمارس خلالها أي نشاط ظاهري. حتى إذا ما كانت سنة ٣١١ هـ = ٩٢٣ م. قاد أبو طاهر قواته المكونة من ألف وسبعمائة رجل، ووصل إلى ـ **البصرة** ـ ليلاً، فوضع السلاليم الشعر على السور، وصعد القرامطة على السور، وفتحوا الباب، وقتلوا الموكلين به. ولم يشعر أمير البصرة ـ سبك المفلحي ـ بالهجوم إلا في السحر، ولم يعرف أنهم القرامطة. وظن أنهم عرب تجمعوا، فركب إليهم، ولقيهم، فقتلوه، ووضعوا السيف في أهل البصرة، وهرب الناس إلى الكلأ. وحاربوا القرامطة عشرة أيام، فظفر بهم القرامطة، وقتلوا خلقاً كثيراً، وطرح الناس أنفسهم في الماء فغرق أكثرهم. وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوماً، يحمل من البصرة ما يقدر على حمله من المال والأمتعة والنساء والصبيان، ثم عاد إلى بلده. واستعمل أمير المؤمنين المقتدر على البصرة ـ محمد بن عبد الله الفارقي ـ فانحدر إليها وقد انسحب القرامطة منها. فلما كانت السنة التالية (٣١٢ هـ = ٩٢٤ م) قاد أبو طاهر سليمان جيشاً كبيراً،

(*) كان أصله كيالاً، فهرب واستغوى خلقاً من القرامطة والاعراب، وشغل المعتضد عنه الموت فاستفحل أمره، ووقع له مع عساكر المكتفي وقائع وأمور مما سبق ذكره. وقتله خادم له صقلبي في الحمام. أراده على الفاحشة، فخنقه الخادم. فلما قتله استدعى رجلاً من أكابر قادة القرامطة، وقال له: السيد يستدعيك، فلما دخل قتله، ففعل ذلك بأربعة نفر من رؤسائهم. واستدعى الخامس، فلما دخل فطن لذلك وأمسك بيد الخادم، وصاح، فدخل الناس وصاح النساء، وجرى بينهم وبين الخادم مناظرات ثم قتلوه. وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه سعيد وهو الاكبر، فعجز عن الأمر، فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان.

وسار به إلى ـ الهبير ـ لمهاجمة قوافل الحجاج عند رجوعهم من مكة. فوقع على قافلة تقدمت معظم الحجيج، وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم، فنهبهم، واتصل الخبر بباقي الحجاج وهم ـ بفيد ـ فأقاموا بها حتى فني زادهم، فارتحلوا مسرعين. وكان ـ أبو الهيجاء بن حمدان ـ قد أشار عليهم بالعود إلى وادي القرى وعدم الاقامة ـ بفيد ـ فاستطالوا الطريق ولم يقبلوا منه. فلما فني زادهم سار بهم أبو الهيجاء على طريق الكوفة. فهاجمهم القرامطة وأخذوهم، وأسروا أبا الهيجاء وأحمد بن كشمرد ونحرير، وأحمد بن بدر عم والدة المقتدر، واستولى القرامطة على جمال الحجاج جميعها، وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان. وعاد إلى ـ هجر ـ. وترك الحجاج في موضعهم، فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس. ثم عمل ـ أبو طاهر ـ على اطلاق سراح الأسرى ـ وفيهم ابن حمدان وغيره ـ وأرسل إلى المقتدر يطلب تعيينه والياً ـ أميراً ـ على البصرة والأهواز، فلم يجبه المقتدر إلى ما طلب، ورفض منحه الامارة.

رد ـ أبو طاهر القرمطي ـ على ذلك، فقاد جيشه، وغادر ـ هجر ـ وهو يريد مهاجمة قافلة للحجاج. وكان ـ جعفر بن ورقاء الشيباني ـ متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة. فلما خرجت قافلة الحجاج من بغداد، سار ـ جعفر ـ على مقدمتها. ومعه ألف رجل من بني شيبان. كما رافق قافلة الحجاج عدد من قادة أمير المؤمنين ـ منهم ثمال صاحب البحر وجني الصفواني وطريف السبكري ـ ومعهم ستة آلاف رجل. فلقي أبو طاهر القرمطي قوات جعفر الشيباني، فقاتله جعفر، فبينما هو يقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه، فانهزم من بين أيديهم. فلقي قافلة الحجاج الأولى وقد انحدرت من العقبة، فردهم إلى الكوفة ومعهم جند أمير المؤمنين، وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة، فقاتلهم، فانهزم جند أمير المؤمنين، وقتل منهم، وأسر جنياً الصفواني، وهرب الباقون والحجاج من الكوفة، **ودخل أبو طاهر الكوفة،** وأقام ستة أيام بظاهر الكوفة. يدخل البلد نهاراً فيقيم في الجامع إلى الليل، ثم يخرج يبيت في معسكره، وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك، وعاد إلى هجر. ودخل المنهزمون بغداد. فأمر المقتدر أحد قادته ـ مؤنس المظفر ـ بالخروج إلى الكوفة. فسار

إليها ووصلها وقد عاد القرامطة عنها. فاستخلف عليها ـ ياقوتاً ـ وسار مؤنس إلى ـ واسط ـ خوفاً عليها من أبي طاهر والقرامطة، وخاف أهل بغداد، وانتقل الناس إلى الجانب الشرقي. ولم يحج في هذه السنة من الناس أحد. ثم عاد ـ أبو طاهر القرمطي ـ سنة **٣١٣ هـ = ٩٢٥ م** فاعترض قافلة للحجاج ـ عند زبالة ـ فقاتل جند أمير المؤمنين قوات القرامطة فانتصر القرامطة، وفرضوا على الحجاج قطيعة ـ مبلغاً معيناً من المال ـ فأخذوا المال، وكفوا عنهم، وسار الحجاج إلى مكة.

أصدر أمير المؤمنين المقتدر أمره إلى ـ يوسف بن أبي الساج ـ بالمسير من ـ أذربيجان ـ إلى واسط لمحاربة أبي طاهر القرمطي. وجعل له أموال الخراج بنواحي همذان وساوه وقم وقاشان وماه البصرة وماه الكوفة وماسبذان ليستعين بها على محاربة القرامطة

وصلت المعلومات إلى أمير المؤمنين ـ المقتدر ـ عن مسير أبي طاهر القرمطي من هجر إلى الكوفة، ثم وردت معلومات من البصرة بأن أبا طاهر والقرامطة قد مروا قريباً من الكوفة. فكتب المقتدر إلى يوسف بن أبي الساج، وأعلمه بما توافر له من المعلومات، وأمره بالتحرك سريعاً إلى الكوفة، فسار ابن أبي الساج من واسط في منتصف شهر رمضان (**٣١٥ هـ ـ ٩٢٧ م**). ولكن أبا طاهر والقرامطة وصلوا إلى الكوفة قبل يوم واحد من وصول يوسف بن أبي الساج وجنده، فهرب منها نواب أمير المؤمنين واستولى عليها أبو طاهر، وأخذ القرامطة ما كان قد خزن في الكوفة من المواد التموينية والأغذية والعلوفة لجيش أمير المؤمنين ـ ومنها مائة كر دقيقاً وألف كر شعيراً. فتقوى بها القرامطة بعد أن كان قد نفد ما معهم من الطعام والمؤونة. فلما وصل جند أمير المؤمنين بقيادة يوسف، منعهم القرامطة من دخول الكوفة، فأرسل يوسف بن أبي الساج إلى القرامطة، ودعاهم إلى طاعة المقتدر وأنذرهم بالحرب بعد يومين إن هم أبوا الخضوع، فردوا عليه: «**لا طاعة علينا إلا لله تعالى، والموعد بيننا للحرب غداً**».

وجاء الغد، وابتدأ أوباش الجند بالشتم ورمي الحجارة، ورأى يوسف قلة القرامطة، فاحتقرهم وقال: «**سيقع هؤلاء الكلاب في قبضتي بعد ساعة**». وأعد كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل المعركة لإرساله إلى أمير المؤمنين، تهاوناً بالقرامطة واستصغاراً لشأنهم. ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض، فسمع أبو طاهر القرمطي أصوات البوقات

والزعقات، فقال لصاحب له: «ما هذا؟». فأجابه صاحبه: «فشل» فعقب أبو طاهر: «أجل» ولم يزد على هذا. فاقتتلوا من ضحوة النهار إلى غروب الشمس، وصبر الفريقان، ولما رأى أبو طاهر القرمطي شدة القتال، نزل فخاض المعركة ومعه جماعة ممن يثق بهم، وهاجم بهم - فطحن جند أمير المؤمنين ومزقهم فانهزموا بين يديه - وأسر يوسف وعدداً كثيراً من أصحابه، وكان أسره وقت المغرب، وحملوه إلى عسكرهم وضربت له خيمة وفرش. ووكل به أبو طاهر طبيباً يعالج جراحه - وورد الخبر إلى بغداد بذلك، فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان، ودخل المنهزمون إلى بغداد مشاة حفاة عراة، فقرر - مؤنس المظفر - السير بجيشه إلى الكوفة، فجاءته المعلومات بأن القرامطة قد ساروا يريدون - عين التمر - فوجه من بغداد خمسمائة سفينة فيها الجند لمنع القرامطة من عبور نهر الفرات. ووجه فرقة من الجند إلى الأنبار لحمايتها والدفاع عنها ومنع القرامطة من العبور هنالك. ثم إن القرامطة ساروا إلى الأنبار، فعمل أهلها على قطع الجسر، فنزل القرامطة غرب الفرات. وأرسل أبو طاهر القرمطي قوة من جنده إلى - الحديثة - فأتوه بالسفن التي قامت بنقل ثلاثمائة رجل من القرامطة إلى شرقي النهر. فقاتلوا جند أمير المؤمنين، وهزموهم، وقتلوا منهم جماعة. واستولى القرامطة على مدينة الأنبار، وعقدوا الجسر، وعبر أبو طاهر وقوة من الفرسان الخفيفة إلى الجهة الشرقية، وترك الكتلة الرئيسة من قواته على أرض الجانب الغربي من الفرات.

وصلت المعلومات إلى بغداد بعبور أبي طاهر والقرامطة واستيلائهم على الأنبار، فخرج - نصر الحاجب - بجيش جرار؛ حتى وصل إلى معسكر - مؤنس المظفر - الذي بات يضم نيفاً وأربعين ألف مقاتل - سوى الغلمان ومن يريد النهب -. وكان ممن معه أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ومن إخوته أبو الوليد وأبو السرايا في أصحابهم. وساروا حتى بلغوا نهر - زبارا - على فرسخين من بغداد - عند عقرقوف - فأشار أبو الهيجاء بن حمدان بقطع القنطرة التي عليه فقطعوها. وسار أبو طاهر القرمطي ومن معه نحوهم، فوصلوا إلى نهر - زبارا - وفي مقدمتهم رجل أسود يقال له - صبح -. فما زال الأسود يقترب من النهر، والنشاب تنهال عليه حتى أشرف على القنطرة فرآها مقطوعة.

فعاد وهو مثل القنفذ. وأراد القرامطة العبور فلم يتمكنوا من ذلك لعدم وجود مخاضة في النهر، ولما أشرفوا على معسكر جند أمير المؤمنين، هرب منهم خلق كثير إلى بغداد، من غير أن يقع أي اشتباك، فلما رأى ابن حمدان ذلك، قال لمؤنس: **«كيف رأيت ما أشرت به عليكم، فوالله لو عبر القرامطة النهر لانهزم كل من معك، ولأخذوا بغداد»**. ولما رأى القرامطة ذلك عادوا إلى ـ الأنبار ـ.

وجه مؤنس المظفر قوة من ستة آلاف مقاتل بقيادة القائد ـ يلبق ـ لقتال القرامطة في غربي الفرات، وتحرير ـ ابن أبي الساج ـ وسواه من أسرى المسلمين، وكان أبو طاهر القرمطي قد ركب زورق صياد وأعطاه ألف دينار لينقله من شرقي الفرات إلى غربيه، فلما وصل قويت قلوب أصحابه القرامطة، وانطلقوا لقتال مؤنس المظفر، فدارت رحى معركة طاحنة، انتهت بانتصار القرامطة وهزيمة جند أمير المؤمنين. ورأى أبو طاهر أن ابن أبي الساج قد خرج من خيمته التي كان معتقلاً فيها، ينظر ويرجو الخلاص وقد ناداه أصحابه: «أبشر بالفرج». فلما انهزموا ـ أحضره وقال له: «أردت الهرب، وطمعت أن يخلصك غلمانك»، وأمر به فضربت عنقه بحضرته، وضرب أعناق جماعة كانوا بالأسر. وشاع خبر انتصار القرامطة فأصاب الهلع قلوب أهل بغداد، فاستأجر كثير منهم سفناً ونقلوا إليها أموالهم وربطوها لينحدروا بها إلى واسط، ومنهم من نقل متاعه إلى حلوان ليسيروا إلى خراسان. **وكان عدة القرامطة ألف وخمسمائة رجل، منهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل ـ مشاة ـ. وقيل كانوا ألفين وسبعمائة. ولما علم المقتدر بعدة عسكر القرامطة وعدة عسكره قال: «لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة»**.

توجه القرامطة بعد ذلك إلى مدينة ـ هيت ـ. وكان المقتدر قد سير إليها سعيد بن حمدان وهارون بن غريب، فلما وصلها القرامطة وجدوا أن جند أمير المؤمنين قد سبقوهم إليها، فقاتلوهم على السور، وقتل من القرامطة جماعة كثيرة، فعادوا عنها. ولما بلغ أهل بغداد عودهم عن ـ هيت ـ سكنت قلوبهم. وجاء إنسان الى وزير أمير المؤمنين المقتدر ـ وكان الوزير يومها علي بن عيسى ـ وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة، وأنه يكاتب أبا طاهر بالأخبار، فأحضره وسأله،

فاعترف أنه قرمطي، وقال: « ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم، ولا بد لله من حجة في أرضه، وإمامنا هو المهدي محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب. ولسنا كالرافضة والاثني عشرية الذين يقولون بجهلهم: إن لهم إماماً ينتظرونه، ويكذب بعضهم على بعض فيقول: قد رأيته وسمعته وهو يقرأ. ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه». فقال له الوزير: «لقد خالطت عسكرنا وعرفتهم، فمن فيهم على مذهبك؟» فأجاب القرمطي: «وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة، كيف تطمع مني أنني أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم؟ لا أفعل ذلك». فأمر به، فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب حتى مات بعد ثلاثة أيام.

لما سار القرامطة من الأنبار، عاد مؤنس الخادم إلى بغداد فدخلها ثالث المحرم سنة ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م. وسار القرامطة بقيادة أبي طاهر الى ـ الدالية ـ من طريق الفرات. فلم يجدوا فيها شيئاً، فقتلوا من أهلها جماعة. ثم سار إلى الرحبة فدخلها ثامن المحرم، بعد أن حاربه أهلها، فوضع فيهم السيف بعد أن ظفر بهم. فسار ـ مؤنس المظفر بجيشه إلى الرقة، وجعل طريقه على الموصل، فوصلها ونزل بها. وأرسل أهل ـ قرقيساء إلى أبي طاهر يطلبون منه الأمان، فأمنهم وأمرهم أن لا يظهر أحد منهم بالنهار، فأجابوه إلى ذلك. ووجه أبو طاهر سرية من القرامطة إلى الاعراب بالجزيرة. فنهبوهم وأخذوا أموالهم واستاقوا خمسة آلاف جمل ومواشي كثيرة، فخافه الأعراب خوفاً شديداً وهربوا من بين يديه. وفرض عليهم إتاوة قدرها دينار على كل رأس يحملونها إليه في ـ هجر ـ. ثم سار أبو طاهر وقرامطته من الرحبة الى الرقة، فدخل القرامطة الربض وقتلوا من أهل الرقة ثلاثين رجلاً. وأعان أهل الرقة أهل الربض، وقتلوا من القرامطة جماعة فقاتلوهم ثلاثة أيام أشد قتال، واشتد أهل الربض في حربهم، ورموا القرامطة من أعالي دورهم بالماء والتراب والآجر، وقذفوهم بسهام مسمومة فمات منهم نحو مائة رجل، وانصرفوا عنها مفلولين. وأرسل أبو طاهر سرية من القرامطة الى رأس عين وكفرتوثا، فطلب أهلها الأمان فأمنوهم. وساروا أيضاً إلى ـ سنجار ـ

فنهبوا الجبال، ونازلوا سنجار، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم. وعاد القرامطة الى الرحبة. ووصل ـ مؤنس ـ الى الرقة بعد انصراف القرامطة عنها. ثم إن القرامطة ساروا إلى ـ هيت ـ وقد أحكم أهلها سور مدينتهم. فقاتلوهم، فعاد القرامطة إلى الكوفة. وعلم أمير المؤمنين بما حدث، فوجه جيشاً من بغداد بقيادة هارون بن غريب وبني بن نفيس ونصر الحاجب. ووصل فرسان القرامطة الى قصر ابن هبيرة، فقتلوا منه جماعة ثم إن ـ نصراً الحاجب ـ أصيب بالحمى واشتدت عليه وطأة المرض، فتجلد وسار حتى اقترب من جند القرامطة وليست به قوة للنهوض وخوض المعركة. فاستخلف أحمد بن كيغلغ. وأرسل نصراً الحاجب الى بغداد فمات في الطريق، فجعل مكانه على الجيش ـ هارون بن غريب ـ وانصرف القرامطة إلى البرية، وعاد هارون إلى بغداد، فدخلها وجيشه.

كان من نتيجة الانتصارات التي حققها القرامطة، وما نشروه من الذعر، أن اشتد أمر أنصارهم في السواد. واجتمع من كان يعتقد مذهب القرامطة فيكتم اعتقاده خوفاً، وأظهروا اعتقادهم، واجتمع منهم بسواد واسط أكثر من عشرة آلاف رجل، وولوا أمرهم رجلاً يعرف باسم ـ حريث بن مسعود ـ واجتمعت طائفة أخرى ـ بعين التمر ـ، ونواحيها في جمع كثير، وولوا أمرهم إنساناً يسمى ـ عيسى بن موسى ـ وكانوا يدعون الى المهدي الذي ظهر ببلاد المغرب ـ جد الفاطميين ـ. وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها، وجبى الخراج، وصرف العمال عن السواد. وسار ـ حريث بن مسعود ـ إلى أعمال الموفقي. وبنى بها داراً أسماها ـ دار الهجرة ـ واستولى على تلك الناحية، فكانوا ينهبون ويسبون ويقتلون. وكان يتقلد الحرب بواسط ـ بني بن نفيس ـ فقاتلهم فهزموه، فأرسل أمير المؤمنين المقتدر بالله، قوة لقتال ـ حريث بن مسعود ـ ووجه قوة أخرى لقتال ـ عيسى بن موسى ـ وانتصر جند أمير المؤمنين على القرامطة، وأسروا منهم عدداً كبيراً، وقتلوا أكثر مما أسروا. وأخذت أعلامهم، وكانت بيضاء وقد كتب عليها: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم الوارثين**﴾. فأدخلت الأعلام الى بغداد منكوسة، واضمحل أمر من بالسواد من القرامطة، وكفى الله الناس شرهم.

ب ـ ماذا حدث في مكة المكرمة؟

أقبل موسم الحج من سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م. وسارت قوافل الحجاج من بغداد ـ وعليها منصور الديلمي ـ ووصلت إلى مكة المكرمة بسلام؛ وأدى الحجاج مناسك الحج؛ فلما كان يوم التروية ـ وهو من أشرف الأيام ـ بوغت الحجاج بانقضاض القرامطة عليهم، فنهبوا أموالهم، واستباحوا قتالهم في رحاب مكة وشعابها، وحتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة ـ فيما كان رئيسهم أبو طاهر ـ قد اتخذ له مجلساً عند باب الكعبة وهو يرقب ما يجري حوله، والرجال تصرع، والسيوف تعمل في الناس. وتفجر حقده على المسلمين المؤمنين حجاج بيت الله الحرام(*). وكان الناس يفرون منهم فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يغني عنهم ذلك شيئاً، فيقتلهم القرامطة وهم على ذلك، وتابع يوم الطواف، فلحقتهم سيوف القرامطة وأفنتهم(**). ودخل رجل من القرامطة إلى دائرة الطواف وهو راكب على فرسه، وفي حالة السكر، فبال فرسه عند البيت، ثم ضرب الحجر الأسود بدبوس ـ مخل ـ فكسره ثم اقتلعه، وألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحاداً لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه أحد [١]. وأرسل القرامطة الحجر الأسود إلى مدينتهم وقاعدتهم ـ هجر ـ. وخرج أمير مكة يومها ـ ابن محارب ـ ومعه جماعة من الأشراف، فسألوا صاحب القرامطة أموالهم. فلم يقبل فقاتلوه، فقتلهم أجمعين. وأمر صاحب القرامطة ـ أبو طاهر ـ بقلع باب البيت الحرام، فقلع، وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب، فسقط الرجل ومات. وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا، بغير كفن ولا غسل ولا صلى أحد على أحد منهم. وجرد

(*) قال القرمطي أبو طاهر ـ وقد تناثرت أشلاء الحجاج المسلمين حوله:

أنـــا لله وبـــالله أنـــا ... يخلـــق الخلـــق وأفنيهـــم أنـــا

(**) كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طوافه أخذته السيوف، فقال وهو يلفظ أنفاسه:

تـرى المحبين صرعـى في ديـارهـم ... كفتيـة الكهـف لا يـدرون كم لبثـوا

(١) قال القرمطي لما اقتلع الحجر الأسود شعراً يدل على عظيم زندقته. وكان مما قاله:

فلـو كـان هـذا البيـت لله ربنـا ... لصب علينـا النـار مـن فـوقنـا صبـا
لأنـا حججنـا حجـة جـاهليـة ... محللـة لم تبـق شرقـاً ولا غـربـاً
وأنـا تـركنـا بين زمـزم والصفـا ... جبـابـر لا تبقـى سـوى ربها ربـا

الكعبة من كسوتها فقسمها بين أصحابه، وأخذ جميع ما كان فيها من آثار الخلفاء التي زينوا بها الكعبة، وذهبوا ـ بدرة اليتيم ـ وكانت تزن فيما ذكر أهل مكة أربعة عشر مثقالاً، وبقرطي مارية، وقرن كبش ابراهيم، وعصا موسى، ملبسين بالذهب، مرصعين بالجوهر، وطبق ومكبة من ذهب، وسبعة عشر قنديلاً كانت بها فضة، وثلاثة محاريب فضة كانت دون القامة، منصوبة في صدر البيت. ثم انصرف القرامطة لنهب دور مكة. وأقام القرمطي أبو طاهر بمكة أحد عشر يوماً. ثم انسحب وقرامطته وعادوا إلى ـ هجر ـ.

علم المهدي أبو محمد عبيد الله العلوي الذي كان قد استولى على الحكم في مصر وافريقية، بما فعله القرامطة، فكتب الى صاحب القرامطة أبي طاهر، وأنكر عليه فعلته ولامه ولعنه وأقام عليه القيامة، وكان مما قاله له: «لقد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت. وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة» فلما وصله هذا الكتاب أجاب: «إن الناس قد اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج، ولا أقدر على منعهم».

مضت خمس سنوات، لم يمارس القرامطة خلالها نشاطاً كبيراً، فقد أمكن لهم الحصول على أموال ضخمة؛ وكان أنصارهم في البلاد يثيرون الرعب ويحصلون على الاتاوات من مختلف البلاد. وفي سنة ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م. عمل حاجب أمير المؤمنين ـ محمد بن ياقوت ـ على ارسال رسول إلى أبي طاهر القرمطي دعاه الى طاعة الخليفة ليقره على ما بيده من البلاد، ويقلده بعد ذلك ما شاء من البلدان ويحسن إليه، والتمس منه عدم التعرض للحجاج. وأن يعيد الحجر الأسود إلى مكة. فأجاب أبو طاهر إلى أنه لن يتعرض للحجاج ولن يصيبهم منه مكروه. ولم يجب على رد الحجر الأسود إلى مكة. وطلب أن ترسل له المواد التموينية من البصرة ليخطب للخليفة في أعمال ـ نواحي ـ هجر. فسار الحجاج إلى مكة وعادوا ولم يعترض لهم أحد من

القرامطة. وبدأ أمر القرامطة بالانحلال، وبدأ القرامطة بالتفسخ والتمزق. وانصرف بعضهم لقتال بعض. وكان من ذلك ما حدث سنة ٣٢٦ هـ = ٩٣٨ م بخاصة، حيث عمل أحد كبار القرامطة ـ واسمه ابن سنبر وهو من خواص أبي سعيد القرمطي والمطلعين على سره ـ على التآمر مع رجل من أصبهان لقتل رجل من خصومه من كبار القرامطة اسمه ـ أبو حفص الشريك ـ وذلك مقابل قيام ابن سنبر بدعم الاصبهاني ليحل محل أبي طاهر في زعامة القرامطة. وحضر الاصبهاني، فخضع له القرامطة وأطاعوه ودانوا له حتى انه كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً يقول عنه: «انه مريض» وذلك يعني أنه قد شك في دينه، فيكون ذلك أمراً بقتله. وعلم أبو طاهر أن الاصبهاني يعد العدة لقتله، فأسرع بنصب شرك له وقتله وذلك بعد أن تمكن من قتل خلق كثير من عظماء القرامطة وشجعانهم وكان هذا سبب إقامة أبي طاهر وإخوته في ـ هجر ـ وعدم مغادرتهم لها، وقعودهم عن غزو البلاد والإفساد فيها.

ولم يطل الأمد كثيراً، فقد أصيب أبو طاهر ـ بالجدري ـ وطال عذابه، وتقطعت أوصاله وأطرافه، وتناثر الدود من لحمه حتى جاءته سكرة الموت بالحق سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م وكان له ثلاثة إخوة، إلا أن أحداً منهم لم يكن لديه خبث أبي طاهر أو قدرته. **وبقي الحجر الأسود لدى الإخوة القرامطة حتى ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م حيث عمل القرامطة على إعادة الحجر الأسود إلى ـ مكة المكرمة ـ**. وكان القائد بجكم ـ قد بذل لهم في رده خمسين ألف دينار فلم يجيبوه. فردوه في هذه السنة ـ وقالوا: «أخذناه بأمر وأعدناه بأمر». فكانت مدة احتفاظ القرامطة بالحجر اثنتين وعشرين سنة.

★ ★ ★

أدى تمزق القرامطة إلى توزعهم بين مراكز القوى. وكان البويهيون قد نشروا هيمنتهم على أقطار المشرق، فيما كان العلويون ـ الفاطميون قد سيطروا على مصر والمغرب ـ وبقيت بلاد الشام، والسيطرة عليها، هي مجال الاحتكاك بين آل بويه والفاطميين. وحدث في سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م. أن وجه معز الدولة أبو الحسين

أحمد بن بويه قوة من جيشه إلى ـ عُمان ـ فخضع نافع الاسود للبويهيين، وخطب لمعز الدولة، وضرب له اسمه على الدينار والدرهم. فلما رجعت قوة البويهيين ثار أهل عمان، فأخرجوا نافع الأسود، وأدخلوا القرامطة الهجريين اليهم وتسلموا البلد، فكانوا يقيمون فيه نهاراً، ويخرجون ليلاً إلى معسكرهم. وكتبوا إلى أصحابهم بهجر؛ يعرفونهم الخبر، ويطلبون توجيهاتهم فيما يفعلون. ثم أرسل القرامطة سرية إلى عُمان والشراة فتجمع كثير من الرجال في شعاب الجبال، فأوقعوا بالقرامطة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وعاد الباقون. وكان هناك رجل من كبار القرامطة قد استأمن لسيف الدولة الحمداني، فوثق به وكلفه بحماية السواحل. فلما تمكن مروان القرمطي، فرض سيطرته على مدينة حمص وغيرها وأعلن تمرده. فوجه إليه سيف الدولة قوة بقيادة ـ بدر ـ وأمكن له قتل مروان، والقضاء على تمرده.

اضطربت الأوضاع في عُمان، فوجه المعز البويهي في السنة التالية (٣٥٥ هـ = ٩٦٥ م) جيشاً أمكن له السيطرة عليها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة.

اتجهت الأحداث على جبهة الشام في غير مصلحة القرامطة أيضاً. ففي سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م مات ـ كافور الأخشيدي ـ وانتقل الحكم الى المعز لدين الله أبي تميم محمد بن اسماعيل العلوي، فأمر بتوجيه جيش من مصر بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي لاحتلال بلاد الشام وانتزاعها من قبضة البويهيين. فسار جعفر بجيشه الى الرملة، وهناك اصطدم بجيش بقيادة أبي محمد الحسن بن عبدالله بن طغج ـ فقاتله، وجرت بينهما حروب كان الظفر فيها لجعفر بن فلاح وجيشه؛ وأسر ابن طغج فأرسل الى المعز في مصر ـ ودخل جعفر بن فلاح مدينة الرملة عنوة، فقتل كثيراً من أهلها، ثم أمن من بقي وجبى الخراج. وسار الى طبرية فرأى أن حاكمها ـ ابن ملهم ـ قد أقام الدعوة للمعز لدين الله، فسار عنها إلى دمشق، فقاتله أهلها فظفر بهم، ودخل دمشق ونهب منها ثم كف عن الباقي. وأقام الخطبة للمعز يوم الجمعة لأيام خلت من المحرم (سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م). وقطعت الخطبة العباسية.

عندما علم القرامطة باستيلاء جعفر بن فلاح على دمشق ـ أهمهم الأمر

وأزعجهم، ذلك لأنهم كانوا قد اتفقوا مع أميرها السابق ابن طغج على أن يحمل إليهم كل سنة ثلاثمائة ألف دينار . فلما ملكها جعفر علموا أن المال يفوتهم، فعزموا على قصد الشام بقيادة أميرهم الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطي؛ الذي أرسل الى عز الدولة بختيار ـ البويهي ـ طلباً لدعمه بالمال والسلاح . فأرسل اليه بختيار ما طلبه . وعلم جعفر بن فلاح بمسيرهم إليه ولكنه استهان بهم، ولم يتخذ تدابير الحيطة. فلم يشعر بهم حتى باغتوه بهجومهم في ظاهر دمشق وقتلوه وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه. وملكوا دمشق وأمنوا أهلها. وجلس صاحب القرامطة الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطي وبكى رفيقه في التشيع جعفر بن فلاح. وندب الأيام التي أوقعت بين أبناء المذهب الواحد ـ الفاطمي والقرمطي ـ.

سار القرامطة بعد ذلك بقيادة صاحبهم الى الرملة، واستولوا على جميع البلاد ما بين دمشق والرملة. فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا الى يافا فتحصنوا بها. واستولى القرامطة على الرملة. وساروا إلى مصر وتركوا قوة لحصار يافا. فلما وصلوا إلى مصر انضم إليهم جمع كبير من العرب والجند والأخشيدية والكافورية، فاجتمعوا بعين شمس وجمع جوهر الصقلي جيشه وخرج لقتالهم. فاقتتلوا غير مرة والظفر في جميع تلك الأيام للقرامطة، وحصروا المغاربة حصراً شديداً. ثم إن المغاربة خرجوا في بعض الأيام من مصر، وحملوا على ميمنة القرامطة، فانهزم من بها من العرب وغيرهم، وقصدوا معسكر القرامطة فنهبوه. واضطر القرامطة للانسحاب والعودة إلى الشام، فنزلوا الرملة، ثم حصروا يافا حصاراً شديداً وضيقوا على من بها. فسير جوهر الصقلي نجدة من مصر الى الحامية المصرية المدافعة عن يافا والتي ضمت خمسة عشر مركباً من المواد التموينية. فأرسل القرامطة مراكبهم إليها واستولوا عليها ـ ولم ينج منها غير مركبين فغنمها الروم(*).

(*) أشاع المغاربة أن القرامطة قد خافوا فانسحبوا من مصر. فقال الحسين بن بهرام مقدم القرامطة شعراً في المغاربة أصحاب المعز لدين الله منه.

زعمت رجال الغرب أني هبتها ... فدمي إذاً ما بينهم مطلول
يا مصر إن لم أسق أرضك من دم ... يروي ثراك فلا سقاني النيل

تأخر رد فعل حاكم مصر ـ المعز لدين الله ـ حتى سنة ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م. فأمر بتعيين القائد ـ ظالم بن موهوب العقيلي ـ حاكماً على دمشق. كما وجه قوة أخرى لمطاردة القرامطة بقيادة القائد أبي محمود ـ وسار ظالم ـ الى دمشق، فدخلها وعظم حاله وكثرت جموعه وأمواله وعدته. واعتقل أبا المنجا وابنه ـ صاحبي القرمطي الحسين بن بهرام ـ ومعهما جماعة من القرامطة وحبسهم وأخذ أموالهم وجميع ما يملكونه. وكان ممن تم حبسهم قرمطي يعرف باسم النابلسي ـ كان قد ذكر: «بأنه لو كان معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة وواحداً في الروم» فأمر به وسلخ جلده وحشي تبناً وصلب.

لم يستقر حكم المعز لدين الله العلوي في دمشق، فقد جاء الفتكين التركي ـ مولى معز الدولة بن بويه ـ وانتزع حمص ودمشق وصيدا وعكا وطبرية وسواها. وقطع ذكر المعز لدين الله العلوي، وخطب للخليفة العباسي الطائع لله. فأسرع المعز لارسال جيش من مصر بقيادة جوهر الصقلي. **ووصل جوهر وجيشه الى دمشق (سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) وألقى الحصار عليها. وقاتل ـ الفتكين ـ وأهل دمشق قتالاً ضارياً أذهل جوهراً، ودامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كبير من الطائفتين. فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة، أشاروا على ـ الفتكين ـ بالكتابة الى الحسين بن بهرام القرمطي، واستنجاده. فسار القرمطي إليه من الاحساء. فلما قرب منه رحل جوهر عن دمشق خوفاً من أن يبقى بين عدوين ـ أهل دمشق في مواجهته والقرامطة من خلفه ـ وانسحب جوهر بعد حصار لدمشق دام سبعة أشهر.**

انضم القرمطي وقواته الى قوات ـ الفتكين ـ وساروا جميعاً في أثر جوهر، فأدركوه وقد نزل بظاهر الرملة، وسير أثقاله إلى عسقلان. فاقتتلوا، فكان جمع الفتكين والقرمطي متفوقاً بما ضمه من رجال الشام والعرب وغيرهم؛ فكانوا خمسين ألف فارس وراجل، فنزلوا على نهر الطواحين ـ على ثلاثة فراسخ من الرملة ـ وقطعوا ماء النهر عن البلد، فاحتاج جوهر ومن معه إلى ماء المطر في الصهاريج ـ وهو قليل لا يكفيهم ـ فرحل إلى عسقلان، وتبعه الفتكين والقرمطي، فحصراه بها، وطال الحصار، وقلت

المواد التموينية في معسكر جوهر، وعدمت الأقوات، وكان الزمن شتاء، مما أرغم جند جوهر على أكل الميتة. وكان جوهر يراسل ـ الفتكين ـ ويدعوه الى الاتفاق والتفاهم، والطاعة، مقابل تقديم وعود كثيرة واغراءات وفيرة، فكان الفتكين يرغب في مثل ذلك، إلا أن القرمطي كان يمنعه من القبول ويخوفه من الاتفاق مع جوهر. وعندما زادت الشدة على جوهر ومن معه حتى وصل الأمر إلى حد الهلاك، كتب إلى ـ الفتكين ـ وطلب الاجتماع به، والتقيا راكبين، فقال له جوهر: **« قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الاسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة، وأريقت فيها الدماء ونهبت الأموال، ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى. وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة، وبذلت لك الرغائب، فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة، فراقب الله تعالى، وراجع نفسك، وغلب رأيك على هوى غيرك» فرد عليه الفتكين: «أنا والله واثق بك في صحة الرأي والمشورة منك، لكنني غير متمكن مما تدعوني إليه بسبب القرمطي الذي أحوجتني أنت إلى مداراته والقبول منه»**. فقال جوهر: « إذا كان الأمر على ما ذكرت، فإنني أصدقك الحال تعويلاً على أمانتك، وما أجده من الفتوة عندك. لقد ضاق الأمر بنا، وأريد أن تمن علي بنفسي وبمن معي من المسلمين. وأعود إلى صاحبي شاكراً لك، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف». فأجابه إلى ذلك، وحلف له على الوفاء به. وعاد الفتكين واجتمع بالقرمطي، وأعلمه بما تم الاتفاق عليه. فقال له القرمطي: « لقد أخطأت، فان جوهراً له رأي وحزم ومكيدة، وسيرجع إلى صاحبه، فيحمله على قصدنا بما لا طاقة لنا به ـ والصواب أن ترجع عن ذلك ليموتوا جوعاً، ونأخذهم بالسيف». فامتنع الفتكين عن الأخذ برأيه. وقال للقرمطي: « لا أغدر به » وأذن لجوهر ولمن معه بالمسير إلى مصر.

ما إن وصل جوهر إلى مصر، حتى اجتمع بالعزيز بالله ـ إذ كان المعز لدين الله قد توفي في تلك الفترة ـ وشرح له ما حدث معه، وقال له: « إن كنت تريدهم فاخرج إليهم بنفسك وإلا فانهم واصلون على إثري». فخرج العزيز وجمع الرجال، وفرق الأموال وسار نحو بلاد الشام، وجوهر على مقدمته. فلما علم ـ الفتكين ـ والقرمطي

عادا بقواتهما إلى الرملة، وجمعا العرب وغيرهم، وحشدا ما أمكن لهما جمعه. ووصل العزيز فنزل بظاهر الرملة فنزلا بالقرب منه، ثم اصطفوا للحرب (في المحرم سنة ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م) فرأى العزيز من شجاعة الفتكين ما أعجبه، فأرسل إليه في تلك الحال يدعوه إلى طاعته، ويبذل له الرغائب والولايات، وأن يجعله مقدم عسكره، والمرجوع إليه في دولته، وطلب إليه أن يحضر عنده ويسمع قوله. فترجل الفتكين، وقبل الأرض بين الصفين، وقال للرسول: «قل لأمير المؤمنين لو قدم هذا القول - قبل الآن - لسارعت وقبلت، وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى». وحمل على الميسرة فهزمها وقتل كثيراً منها. فلما رأى العزيز ذلك، نظم هجوماً عاماً - بقوات القلب والميمنة - فانهزم القرمطي والفتكين ومن معهما، ووضع المغاربة السيف، فاكثروا القتل حتى بلغت عدة من قتل عشرين ألفاً، ونزل العزيز في خيامه، وجاءه جنده بالأسرى، فكافأ كل من جاءه بأسير - وخلع عليه -. وبذل لمن أتاه بالقائد - الفتكين - أسيراً مائة ألف دينار، وكان الفتكين قد مضى منهزماً، ونال منه العطش، فلقيه - المفرج بن دغفل الطائي - وكانت بينهما صداقة قديمة، فطلب منه - الفتكين - ماء، فسقاه وأخذه معه إلى بيته، فأنزله وأكرمه، وسار إلى العزيز بالله فأعلمه بأسر - الفتكين - وطلب منه المال، فأعطاه ما ضمنه، وسير معه من تسلم - الفتكين - منه. فلما وصل الفتكين إلى العزيز، لم يشك أنه سيقتله بوقته، فرأى من اكرام العزيز له والاحسان إليه ما أعجزه عن النطق. وأمر له بالخيام، فنصبت، وأعاد إليه جميع من كان يخدمه، فلم يفقد من حاله شيئاً. وحمل إليه من التحف والأموال ما لم ير مثله، وأخذه معه إلى مصر. وجعله من أخص رجاله وحجابه. **وأما الحسين القرمطي - فانه وصل منهزماً إلى طبرية فأدركه رسول العزيز يدعوه إلى العود إليه ليحسن إليه ويفعل معه أكثر مما فعل مع الفتكين، فلم يرجع، فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار، وجعلها له كل سنة، فكان يرسلها إليه. وعاد إلى الاحساء.** ولما عاد العزيز إلى مصر، أنزل الفتكين عند قصره، وزاد أمره وتحكم فتكبر على وزيره - يعقوب بن كلس - وترك الركوب إليه، فصارت بينهما عداوة متأكدة، فوضع عليه من سقاه سماً فمات. وحزن عليه العزيز، واتهم الوزير فحبسه نيفاً وأربعين يوماً، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار، ثم

رضي عنه وخلع عليه وأعاده إلى وزارته.

لم يعد للقرامطة على ما هو راضح القدرة لفرض وجودهم على الآخرين، أو على بقية مراكز القوى في الدولة العباسية، إلا أنه بقي لهم قدر كاف من القدرة للحصول على الأموال. وكان ارتباطهم المعنوي بالدولة الفاطمية ـ حيث تجمع حجة التشيع بينهما ـ هو ضمان مادي لاستمرار وجودهم. إلا أنهم كانوا على استعداد لتأجير سيوفهم لكل راغب أو كل ذي حاجة. من ذلك ما حدث سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م. عندما تولى صاحب القرامطة ـ أبو بكر محمد بن علي بن شاهويه قوة من ألف رجل، وسار بهم إلى الكوفة وأقام الخطبة بها لعضد الدولة ـ البويهي ـ وأسقط خطبة عز الدولة بختيار. كما أن ما سبق ذكره عن تحالف الحسين القرمطي مع أهل دمشق وأميرها ـ الفتكين ـ هو نموذج أو مثال آخر للتحالف ـ السياسي بلغة العصر ـ والذي لم تكن للعقائدية فيه أي دور أساسي.

فقد القرامطة دعماً كبيراً بموت مقدمها وصاحبها ـ الحسين ويقال أيضاً الحسن بن أحمد القرمطي (سنة ٣٦٦ هـ)(*). فلم يظهر للقرامطة نشاط يذكر حتى سنة

(*) الحسين ـ أو الحسن ـ بن أحمد بن أبي سعيد بن بهرام الجنابي ـ أبو طاهر القرمطي المعروف بالأعصم أو بالأعظم ـ ولد بالاحساء (٢٧٨ ـ ٣٦٦ هـ = ٨٩١ ـ ٩٧٦ م) كان يلبس الثياب القصيرة ـ أصله فارسي ـ والجنابي نسبة إلى جنابة ـ بلدة صغيرة من سواحل فارس ـ والقرمطي ـ في اللغة تقارب الشيء بعضه من بعض، ويقال خط مقرمط، ومشي مقرمط إذا كان شديد التقارب بعضه من بعض، وكاب أبو سعيد قصيراً، مجتمع الخلق، أسمر كريه المنظر، ولذلك قيل له قرمطي، ونسبت إليه القرامطة. وكان الحسين شاعراً ـ كتب إلى جعفر بن فلاح ـ الذي كان حاكماً على دمشق ـ قبل وقوع الحرب بينهما:

الكتب معذرة والرسل مخبرة ... والحق متبع والخير محمود
والحرب ساكنة والخيل صافنة ... والسلم مبتذل والظل ممدود
فإن أنبتم فمقبول إنابتكم ... وإن أبيتم فهذا الكور مشدود
على ظهور المنايا أو يردن فنا ... دمشق والباب مسدود ومردود
إني امرؤ ليس من شأني ولا أربي ... طبل يرن ولا ناي ولا عود
ولا اعتكاف على خمر ومجمرة ... وذات دل لها غنج وتفنيد
ولا أبيت بطين البطن من شبع ... ولي رفيق خميص البطن مجهود

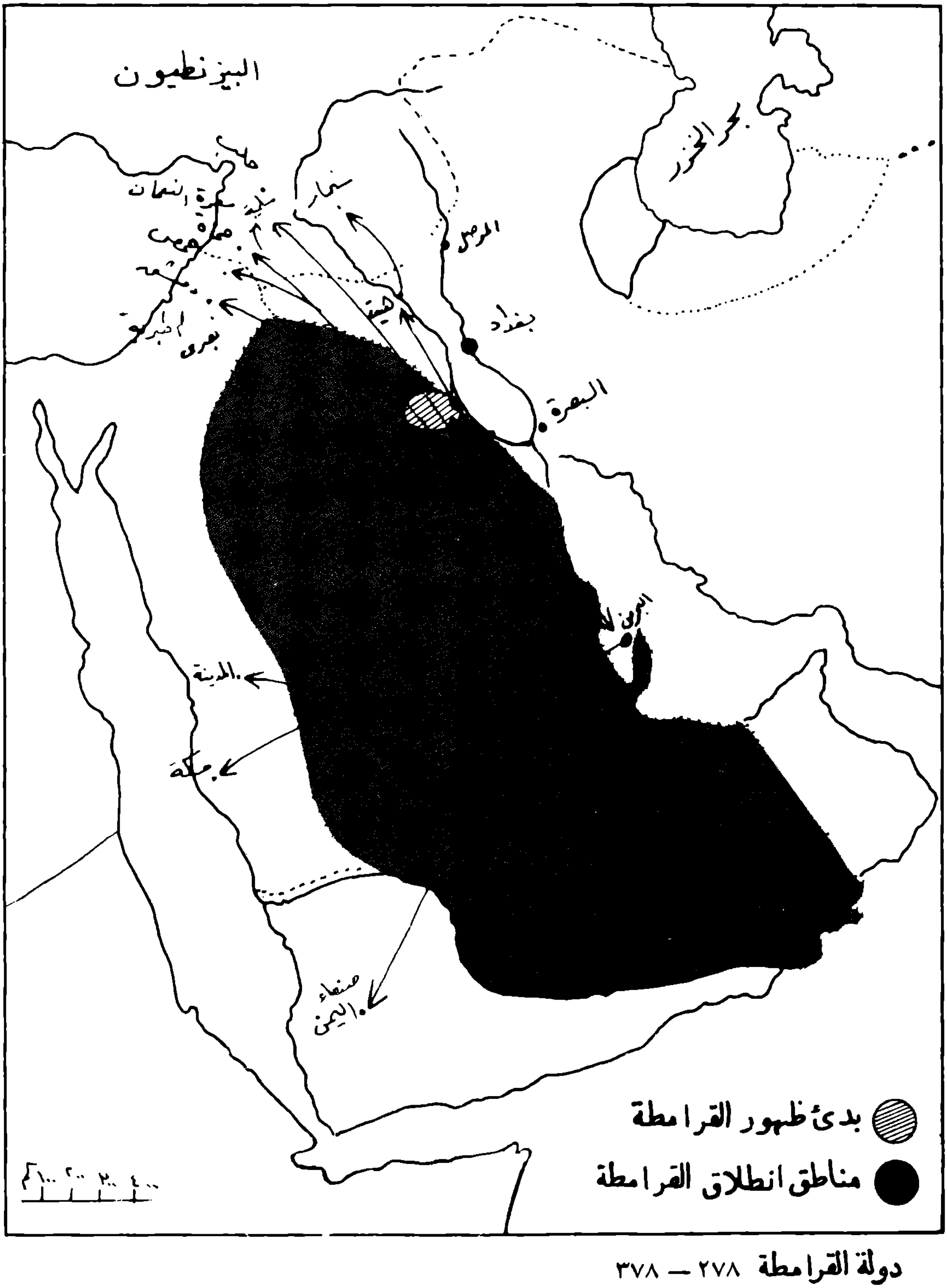
٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م. عندما قام اثنان من الستة القرامطة الملقبين ـ بالسادة ـ وهما اسحق وجعفر الهجريان، فقادا جموعاً كبيرة من القرامطة، وتوجها الى الكوفة، وأقاما الخطبة لشرف الدولة أبي الفوارس ـ ابن عضد الدولة البويهي ـ فانزعج الناس لذلك لما في النفوس من هيبة القرامطة وبأسهم. وكان لهم من الهيبة ما إن عضد الدولة وبختيار أقطعاهم الكثير. وكان نائبهم ببغداد ـ المعروف باسم أبي بكر بن شاهويه ـ يتحكم تحكم الوزراء مما دفع صمصام الدولة أبو كاليجار البويهي ـ وهو أخو شرف الدولة ـ على اعتقاله. فقام القرمطيان بمحاولتهما للسيطرة على الكوفة، وجمعا الخراج، وجبيا المال، فأرسل صمصام الدولة جيشاً حارب القرامطة وهزمهم. فعادوا ووجهوا جيشاً آخر في عدد كثير وعدة فاضلة. ولكن الدائرة دارت على القرامطة، وقتل مقدمهم وغيره وأسر جماعة، ونهب سوادهم. وتبعهم جند صمصام الدولة الى القادسية فلم يلحقوا بهم ـ وزال من حينئذ وجودهم. فلما كانت سنة ٣٧٨ هـ = ٩٨٨ م. قام رجل من بني المنفتق يعرف بالاصفر ـ فجمع جمعاً كبيراً، واجتاح ديارهم في الاحساء والقطيف، ولم يبق للقرامطة ذكر.

= ولا تساءت بي الدنيا إلى طمع ... يوماً ولا غرني فيها المواعيد

ومن شعره أيضاً:

إني وقومي في أحساب قومهم ... كمسجد الخيف في بحبوحة الخيف

ما علق السيف منا يا ابن عاشرة ... إلا وهجمتُهُ أمضى من السيف



دولة القرامطة ٢٧٨ — ٣٧٨

٧ ـ الدولة العلوية الفاطمية

لا ـ الدعوة الفاطمية

ا ـ بناء الدولة والصراع مع مصر

ب ـ المعز لدين الله في مصر والشام

جـ ـ العهد الجديد

د ـ ضعف من بعد قوة

لا ـ الدعوة الفاطمية.

لم تتمكن كل الحركات التي انتحلت التشيع لآل البيت من إقامة دولة، وحتى القرامطة الذين نجحوا في فرض وجودهم؛ وإقامة قاعدة ثابتة لهم في ـ هجر ـ لم يقيموا تنظيم دولة شيعية. فكانوا حركة ـ أو ثورة بالمفهوم الحديث ـ تضم مجموعات من العصابات والمنظمات المنتشرة في عدد من المدن والارياف، هدفها النهب والسلب وإيذاء العرب المسلمين خاصة والمسلمين عامة. وقد تمخضت هذه الحركات في نهاية الأمر عن دولة عرفت باسم ـ الفاطميين أو العلويين ـ. ولقد أثارت نسبة الحركة إلى الفاطميين أو العلويين جدلاً كبيراً في التاريخ فهناك من أيد صحة نسبها ودافع عنها، وهناك من أدانها باعتبارها حركة هدامة فكان ممن دافع عنها من الشيعة ـ الشريف الرضي (*) والمرتضى وأخوه الرضي وابن البطحاوي وابن الأزرق وابن الاكفاني وابن الخرزي وأبو العباس الابيوردي وأبو حامد والكشفلي والقدوري والصيمري وأبو الفضل النسوي وأبو جعفر النسفي وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة. وزعم القائلون بصحة نسبه أن الذين كتبوا، إنما كتبوا خوفاً وتقية وانه لا علم لهم بالاحساب.

لقد ذكر في هذه الحركة أن مؤسسها هو: محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وهناك من ينسب هذا النسب فيجعله **(عبد الله بن ميمون القداح ـ الذي ينسب**

(*) كان والد الشريف الرضي من رجال الدولة العباسية. ولكن ابنه كان من المتشيعين. فكان من شعر الشريف الرضي:

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حمي
ألبس الذل في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النـ ... ـاس جميعاً محمد وعلي
إن ذلي بذلك الجد عز ... وأوامي بذلك الربع ري

إلى القداحية). وقيل هو: «عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب» رضي الله عنهم.

قال القاضي عبد الجبار البصري: «اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، ويلقب بالمهدي، **وكان أبوه يهودياً حداداً بمدينة سلمية ـ ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح**. وأهل الدعوة أبو القاسم الأبيض العلوي وغيره يزعمون أن سعيداً إنما هو من امرأة الحسين المذكور ـ وأن الحسين رباه وعلمه اسرار الدعوة. وزوجته هي بنت أبي الشلغلغ، فجاءه ابن فسماه عبد الرحمن، فلما دخل المغرب وأخذ سجلماسة تسمى بعبيد الله، ثم تكنى بأبي محمد، وسمى ابنه الحسن. وزعمت المغاربة أنه يتيم رباه وليس بابنه ولا بابن زوجته. وكناه أبا القاسم. وجعله ولي عهده ـ انتهى». وقال القاضي أبو بكر الباقلاني:

«القداح جد عبيد الله كان مجوسياً، ودخل عبيد الله المغرب وادعى أنه علوي، ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وكان باطنياً خبيثاً حريصاً على إزالة ملة الإسلام. أعدم الفقه والعلم ليتمكن من إغراء الخلق. وجاء أولاده فساروا على نهجه، وأباحوا الخمر والفروج، وأشاعوا الرفض، وبثوا دعاة فأفسدوا عقائد أهل جبال بلاد الشام ـ مثل النصيرية بالتصغير ـ والدرزية ـ وهي طائفة من الاسماعيلية تقول بإثبات الامامة لاسماعيل بن جعفر الصادق لأنه ابنه الأكبر. وكان القداح كاذباً محترفاً. وهو أصل دعاة القرامطة».

وقال ابن خلكان: «اختلف في نسبهم، فقال صاحب تاريخ القيروان: هو عبيد الله ابن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم». وقال غيره: «هو علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وقيل: هو عبيد الله بن التقي بن الوفي بن الرضي ـ وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله. والرضي المذكور هو ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر. واسم التقي الحسين، واسم الوفي أحمد، واسم الرضي عبد الله. وإنما استتروا خوفاً على أنفسهم لأنهم كانوا

مطلوبين من جهة الخلفاء من بني العباس، لأنهم علموا أن فيهم من يروم الخلافة أسوة بغيرهم من العلويين، وقضاياهم ووقائعهم في ذلك مشهورة، وانما تسمى المهدي ـ عبيد الله ـ استتاراً. هذا عند من يصحح نسبه، وأما الذي ينكر نسبه فيقول: **إن اسمه سعيد، ولقبه عبيد الله، وزوج أمه الحسين بن أحمد القداح ـ كان كحالاً يقدح العين إذا نزل فيها ماء»**. وقال ابن خلكان: «جاء المعز من افريقية إلى مصر ـ فلما قرب منها وخرج الناس للقائه، اجتمع به جماعة من الأشراف، **فقال له من بينهم الشريف عبد الله بن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز: سنعقد مجلساً ونسرد عليكم نسبنا. فلما استقر المعز بالقصر، جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤوسكم أحد؟. فقالوا: لم يبق معتبر. فسلَّ عند ذلك نصف سيفه، وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبي. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا. وفي نسب المعز أقوال كثيرة أخرى، أضربت عن ذكرها خوف الاطالة. والظاهر أنه ليس بشريف وأنه مدّعٍ. والله أعلم»**.

زعم الأمير عبد العزيز، صاحب تاريخ افريقية والمغرب، أن نسبه معروف في اليهودية، ونقل فيه عن جماعة من العلماء، وقد استقصى ذكر ابتداء دولتهم وبالغ، وأحسن فيما ذكر وقال: «لما بعث الله تعالى سيد الأولين والآخرين محمداً ﷺ، عظم ذلك على اليهود والنصارى والروم والفرس وقريش وسائر العرب. لأنه سفه أحلامهم، وعاب أديانهم وآلهتهم، وفرق جمعهم، فاجتمعوا يداً واحدة عليه. فكفاه الله كيدهم، ونصره عليهم، فأسلم منهم من هداه الله تعالى. فلما قبض ﷺ، نجم النفاق وارتدت العرب، وظنوا أن الصحابة يضعفون بعده، فجاهد أبو بكر رضي الله عنه، فقتل مسيلمة ورد الردة وأذل الكفر ووطأ جزيرة العرب، وغزا فارس والروم. فلما حضرته الوفاة ظنوا أن بوفاته ينتقض الإسلام، فاستخلف عمر بن الخطاب، فأذل فارس والروم وغلب على ممالكها، فدس عليه المنافقون أبا لؤلؤة فقتله ظناً أن بقتله ينطفىء نور الإسلام، فولي بعده عثمان، فزاد في الفتوح، واتسعت ممالك الإسلام. فلما قتل وولي بعده أمير المؤمنين علي، قام بالأمر أحسن قيام. **فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة، أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة، وتشكيك ضعفة العقول**

في دينهم بأمور قد ضبطها المحدثون وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه. فكان أول من فعل ذلك أبو الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بني أسد، وأبو شاكر ميمون بن ديصان صاحب كتاب ـ الميزان في نصرة الزندقة ـ. وغيرهما، فألقوا إلى من وثقوا به: **أن لكل شيء من العبادات باطناً، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف من الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك، ولا حرم عليهم شيئاً. وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات، وإنما هذه قيود للعامة ساقطة عن الخاصة. وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي ﷺ، ليستروا أمرهم، ويستميلوا العامة، وتفرق أصحابهم في البلاد، وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه.** فقتل أبو الخطاب وجماعة من أصحابه بالكوفة. وكان أصحابه قالوا له: إنا نخاف الجند. فقال لهم: إن أسلحتهم لا تعمل فيكم، فلما ابتدؤوا في ضرب أعناقهم، قال له أصحابه: ألم تقل إن سيوفهم لا تعمل فينا؟ فقال: إذا كان قد أراد الله فما حيلتي؟ وتفرقت هذه الطائفة في البلاد، **وتعلموا الشعبذة والنارنجيات والزور والنجوم والكيميا، فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم وعلى العامة بإظهار الزهد.** ونشأ لابن ديصان ابن يقال له: عبد الله القداح، علمه الحيل، وأطلعه على أسرار هذه النحلة فحذق وتقدم، **وكان بنواحي كرخ وأصبهان رجل يعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بدندان، يتولى تلك المواضع وله نيابة عظيمة، وكان يبغض العرب ويجمع مساويهم، فسار إليه القداح وعرفه من ذلك ما زاد به محله، وأشار عليه أن لا يظهر ما في نفسه، إنما يكتمه ويظهر التشيع والطعن على الصحابة، فإن الطعن فيهم طعن في الشريعة، فإن بطريقهم وصلت إلى من بعدهم.** فاستحسن عبدالله القداح قوله، وأعطاه مالاً عظيماً ينفقه على الدعاة إلى هذا المذهب، فسيره إلى نواحي الأهواز والبصرة والكوفة والطالقان وخراسان وسلمية من أرض حمص. وفرقه في دعاته. وتوفي القداح ودندان ـ وإنما لقب القداح لأنه كان يعالج العيون ويقدحها. فلما توفي القداح قام بعده ابنه أحمد مقامه، وصحبه انسان يقال له: رستم بن الحسين بن حوشب بن دادان النجار من أهل الكوفة، فكانا يقصدان المشاهد ـ قبور الصحابة والأولياء ـ وكان باليمن رجل اسمه

ـ محمد بن الفضل ـ كثير المال والعشيرة من أهل الجند، يتشيع، فجاء إلى مشهد الحسين ابن علي يزوره، فرآه ـ أحمد ورستم ـ يبكي كثيراً، فلما خرج اجتمع به أحمد وطمع فيه لما رأى من بكائه، وألقى إليه مذهبه، فقبله. وسير معه النجار إلى اليمن **وأمره بلزوم العبادة والزهد ودعاء الناس إلى المهدي، وأنه خارج في هذا الزمان باليمن**ـ فسار النجار إلى اليمن ونزل بمدينة ـ عدن ـ على مقربة قوم من الشيعة يعرفون ـ **ببني موسى** ـ وأخذ في بيع ما معه. وأتاه بنو موسى وقالوا له: فيم جئت؟ **فقال**: للتجارة.. فقالوا له: أنت لست بتاجر، وإنما أنت رسول المهدي. وقد بلغنا خبرك. ونحن بنو موسى، ولعلك قد سمعت بنا، فانبسط ولا تحتشم فإنا اخوانك. فأظهر أمره، وقوى عزائمهم، وقرب أمر المهدي، وأمرهم بالاستكثار من الخيل والسلاح، وأخبرهم أن هذا أوان ظهور المهدي، ومن عندهم يظهر. واتصلت أخباره بالشيعة الذين بالعراق، فساروا إليه، فكثر جمعهم، وعظم بأسهم، وأغاروا على من جاورهم، وسبوا وجبوا الأموال. وأرسل إلى من بالكوفة من ولد عبد الله القداح هدايا عظيمة، **وكانوا قد أرسلوا إلى المغرب رجلين؛ أحدهما يعرف بالحلواني، والآخر يعرف بأبي سفيان، وقالوا لهما: إن المغرب أرض بور، فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر. فسارا فنزل أحدهما بارض كتامة ببلد يسمى ـ مرمجنة ـ ونزل الآخر ـ بسوق حمار** ـ فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف. فأقاما سنين كثيرة، وماتا، وكان أحدهما قريب الوفاة من الآخر. وكان أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء، قد سار إلى ابن حوشب النجار، وصحبه بعدن، وصار من كبار أصحابه، وكان له علم وفهم ودهاء ومكر. **فلما وصل خبر وفاة الحلواني وأبي سفيان إلى ابن حوشب، قال لأبي عبدالله الشيعي: إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك**. فخرج أبو عبد الله إلى مكة، وأعطاه ابن حوشب مالاً ،وسير معه عبد الله بن أبي ملاحف، فلما قدم أبو عبد الله مكة، سأل عن حجاج كتامة، فأرشد إليهم، فاجتمع بهم ولم يعرفهم قصده، وجلس قريباً منهم، فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك،

وحدثهم بما لم يعلموه، فلما أراد القيام؛ سألوه أن يأذن لهم في زيارته والانبساط معه، فأذن لهم في ذلك، فسألوه: أين مقصدك؟ فقال: أريد مصر. ففرحوا بصحبته. وكان من رؤساء الكتاميين بمكة رجل اسمه - حريص الجميلي - وآخر اسمه - موسى بن مكاد - فرحلوا وهو لا يخبرهم بغرضه، وأظهر لهم العبادة والزهد، فازدادوا فيه رغبة وخدموه، وكان يسألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم، وعن طاعتهم لسلطان افريقية، فقالوا: ماله علينا طاعة، وبيننا وبينه عشرة أيام. فسألهم: وهل تحملون السلاح؟ فأجابوه: هو شغلنا. ولم يزل يتعرف على أحوالهم حتى وصلوا إلى مصر، فلما أراد وداعهم، قالوا له: أي شيء تطلب بمصر؟ فأجابهم: أطلب التعليم بها!. قالوا: إذا كنت تقصد هذا، فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك. ولم يزالوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم بعد الخضوع والسؤال. فسار معهم. فلما قاربوا بلادهم، لقيهم رجال من الشيعة، فأخبروهم بخبره، فرغبوا في نزوله عندهم، واقترعوا فيمن يضيفه منهم، ثم رحلوا حتى وصلوا إلى أرض كتامة (سنة ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م). فسأله قوم منهم أن ينزل عندهم حتى يقاتلوا دونه. فسألهم: **أين يكون فج الأخيار؟** فتعجبوا من ذلك، ولم يكونوا قد ذكروه له. وأجابوه: عند بني سليمان. فقال: إليه نقصد، ثم نأتي كل قوم منكم في ديارهم ونزورهم في بيوتهم. فأرضى بذلك الجميع. وسار إلى جبل يقال له - اكنجان - وفيه - فج الأخيار - فقال: **هذا فج الأخيار، وما سمي إلا بكم، ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان. فإنهم كتامة، وبخروجكم من هذا الفج يسمى - فج الأخيار -.** فتسامعت القبائل، وصنع من الحيل والمكيدات والنارنجيات ما أذهل عقولهم. وأتاه البربر من كل مكان، وعظم أمره إلى أن تقاتلت كتامة عليه مع قبائل البربر، وسلم من القتل مراراً وهو في كل ذلك لا يذكر اسم - المهدي - فاجتمع أهل العلم على مناظرته وقتله، فلم يتركه الكتاميون يناظرهم - **وكان اسمه عندهم أبا عبد الله المشرقي** - وعلم أمير افريقية ابراهيم بن أحمد بن الأغلب بأمره، فأرسل إلى عامله على مدينة - ميلة - يسأله عن أمره، فصغره، وذكر له أنه يلبس الخشن، ويأمر بالخير والعبادة. فسكت عنه. ثم إن أبا عبد الله قال للكتاميين: **أنا**

صاحب البذر الذي ذكر لكم أبو سفيان والحلواني، فازدادت محبتهم له، وتعظيمهم لأمره. وتفرقت كلمة البربر وكتامة بسببه، فأراد بعضهم قتله، فاختفى، ووقع بينهم قتال شديد. واتصل الخبر بإنسان من أكابر كتامة ـ اسمه الحسن بن هرون ـ فأخذ أبو عبدالله إليه ودافع عنه. ومضيا إلى مدينة ـ ناصرون ـ فأتته القبائل من كل مكان، وعظم شأنه، وصارت الرياسة ـ للحسن بن هرون ـ وسلم إليه أبو عبد الله أعنة الخيل، وظهر من الاستتار، وشهر الحروب، فكان الظفر له فيها، وغنم الأموال. فحصن مدينة نصرون وحفر خندقاً حولها. فزحفت القبائل إليها، فاقتتلوا ثم اصطلحوا، ثم عاودوا القتال. وكان بينهم وقائع كثيرة ظفر بها، وصارت إليه أموالهم، فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة. فلما تم ـ لأبي عبد الله ذلك ـ زحف بجيشه إلى ـ مدينة ميلة ـ فجاءه منها رجل اسمه الحسن بن أحمد. فأطلعه على غرة البلد، فقاتل أهله قتالاً شديداً، وأخذ الأرباض، فطلبوا منه الأمان، فأمنهم، ودخل مدينة ـ ميلة ـ ـ وعلم أمير افريقية ـ وهو يومئذ ابراهيم بن أحمد ـ بما حدث، فوجه جيشاً في اثني عشر ألفاً، وتبعهم مثلهم ـ بقيادة ابنه الأحول. فالتقيا، واقتتل العسكران فانهزم أبو عبد الله إلى جبل انكجان، فوصل الأحول إلى مدينة ناصرون، فأحرقها وأحرق مدينة ميلة ـ ولم يجد بها أحداً ـ. وعمل أبو عبد الله على بناء ـ دار هجرة ـ في ـ انكجان ـ. فقصده أصحابه، وعاد الأحول إلى افريقية، فسار أبو عبد الله بعد رحيلهم، وغنم ما رأى مما تخلف عنهم. وأتاه خبر وفاة أمير افريقية ـ ابراهيم بن أحمد ابن الأغلب ـ فسره ذلك، ثم علم بقتل ابنه أبي العباس وولاية زيادة الله واشتغاله باللهو واللعب فاشتد سروره. وكان الأحول قد جمع جيشاً كبيراً أيام أخيه أبي العباس، ولقي أبا عبد الله، فانهزم الأحول، إلا أنه بقي قريباً منه يقاتله ويمنعه من التقدم، فلما ولي أبو مضر زيادة الله افريقية، أحضر الأحول وقتله ـ ولم يكن أحول وإنما كان يكسر عينه إذا أدام النظر فلقب به ـ. فلما قتل انتشرت حينئذ جيوش أبي عبد الله في البلاد، وصار يقول: **المهدي يخرج في هذه الأيام ويملك الأرض، فيا طوبى لمن هاجر إلي وأطاعني. ويغري الناس بأبي مضر زيادة الله ويعيبه.** وكان كل من عند زيادة الله من الوزراء شيعة، فلا يسوءهم أن يظفر أبو عبد الله، لا سيما مع ما كان

يذكر لهم من الكرامات التي للمهدي من إحياء الموتى، ورد الشمس من مغربها، وملكه الأرض بأسرها. وأبو عبدالله يرسل إليهم ويسحرهم ويعدهم».

كان أولاد ـ عبدالله بن ميمون القداح ـ قد زعموا بعد موت أبيهم أنهم من ذرية عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يسترون ويسرون أمرهم ويخفون أشخاصهم. وكان أكبر أبناء القداح واسمه أحمد قد توفي وخلف ابنه محمداً الذي كان يكاتبه الدعاة في البلاد. وتوفي محمد وخلفه أحمد والحسين، فسار الحسين إلى ـ سلمية من أرض حمص ـ وله بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح، ووكلاء وغلمان. وبقي ببغداد من أولاد القداح ـ أبو الشلغلغ ـ وكان الحسين يدعي أنه الوصي وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب، وأنهم يكاتبونه ويراسلونه. **واتفق أنه جرى بحضرته حديث عن النساء بسلمية، فوصفوا له امرأة رجل يهودي حداد، مات عنها زوجها، وهي في غاية الحسن ولها ولد من الحداد يماثلها في الجمال، فتزوجها وأحبها وحسن موقعها معه**. وأحب ولدها وأدبه وعلمه، فتعلم العلم، وصارت له نفس عظيمة، وهمة كبيرة. وعرفه أسرار الدعوة من قول وفعل، وعين له مكان الدعاة، وأعطاه الأموال والعلامات ـ الرموز والأسماء الحركية ـ وأمر أصحابه بطاعته وخدمته، **وأنه الإمام** والوصي. وزوجه ابنة عمه أبي الشلغلغ **ـ ثم عهد الحسين إلى عبيد الله ـ ابن اليهودية ـ وقال له: «إنك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة، وتلقى محناً شديدة»**. وتوفي الحسين، وقام بعده عبيدالله ـ وانتشرت دعوته، وبذل الأموال. وأرسل إليه داعيته **في افريقية** ـ أبو عبدالله ـ رجالاً من كتامة ـ من المغرب ليخبروه بما فتح الله عليه، **وأنهم ينتظرونه**. وشاع خبره عند الناس أيام أمير المؤمنين المكتفي. فأرسل في طلبه، فهرب هو وولده أبو القاسم نزار وهو يومئذ غلام ـ وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، وذلك أيام زيادة الله. فلما وصل إلى مصر، أقام مستتراً بزي التجار. وكان عامل مصر يومئذ ـ عيسى النوشري ـ فأتته الكتب من أمير المؤمنين بصفة أبي عبيد الله وحليته، وأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه ـ وكان بعض خاصة عيسى متشيعاً، فأخبر أبا عبيد الله وأشار عليه بالانصراف، فخرج من مصر مع أصحابه، ومعه أموال كثيرة فأوسع النفقة على من صحبه، فلما وصل الكتاب إلى النوشري، فرق الرسل في طلب

أبي عبيد الله. وخرج بنفسه، فلحقه، فلما رآه لم يشك فيه، وقبض عليه، ونزل ببستان، ووكل به من يحرسه. فلما حضر الطعام دعاه ليأكل، فأعلمه أنه صائم، فرق له، وقال له: «أعلمني بحقيقة حالك حتى أطلقك». فخوفه أبو عبيد الله بالله تعالى، وأنكر حاله، ولم يزل يخوفه ويتلطفه حتى أطلقه وخلى سبيله، وأراد أن يرسل معه من يوصله إلى رفقته. فقال له أبو عبيد الله: «لا حاجة في ذلك». ودعا له. وقيل - إنه أعطاه سراً من المال حتى أطلقه -. فرجع بعض أصحاب عيسى النوشري عليه باللوم، فندم على إطلاقه. وأراد إرسال الجيش وراءه ليردوه. وكان أبو عبيد الله لما لحق أصحابه، رأى ابنه أبا القاسم قد ضيع كلباً له يصيد به - وهو يبكي عليه - فعرفه عبيده أنهم تركوه في البستان الذي كانوا فيه. فرجع أبو عبيد الله بسبب الكلب حتى دخل البستان ومعه عبيده، فرآهم النوشري، فسأل عنهم، فقيل له إنه أبو عبيد الله وقد عاد بسبب الكلب. فقال النوشري لأصحابه: «قبحكم الله، أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذه. فلو كان يطلب الخلافة أو كان مريباً لكان يطوي المراحل ويخفي نفسه، وما كان ليرجع في طلب كلب».

سار أبو عبيد الله مجداً هارباً، فلحقه لصوص بموضع يقال له - الطاحونة - فأخذوا بعض متاعه - وكانت عنده رسائل وكتب وملاحم لآبائه - فأخذت، فعظم أمرها عليه. ووصل أبو عبيد الله إلى مدينة - طرابلس - وتفرق من صحبه من التجار. وكان في صحبته أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي - الداعية - فوجهه أبو عبيد الله إلى القيروان، وأمره أن يلحق بكتامة. فلما وصل أبو العباس إلى القيروان، وجد أن المعلومات والأخبار قد سبقته إلى زيادة الله، فقبض زيادة الله على أبي العباس واستجوبه، فأنكر أن يكون قد صحب أبا عبيد الله، وقال له: «إنما أنا رجل تاجر، قد صحبت رجلاً في القافلة». فحبسه، وعلم أبو عبيد الله، فسار إلى قسطيلة. ووصل كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بالقبض على أبي عبيد الله. وكان هذا قد أهدى عامل طرابلس هدايا، واجتمع به. فكتب العامل إلى زيادة الله وأعلمه أنه قد سار ولم يدركه. **ولما وصل أبو عبيد الله إلى قسطيلة لم يتوجه للقاء أبي عبدالله الشيعي - داعيته - لأن أخاه أبا العباس كان قد اعتقل، وعرف أنه إذا اجتمع به،**

تحول شكهم به إلى يقين فقتلوه. فتركه وتوجه إلى سجلماسة فأقام بها - والجواسيس - العيون يطاردونه. وكان حاكم سجلماسة رجلاً يعرف باسم - اليسع بن مدرار - فأهدى له أبو عبيد الله الهدايا وواصله، **فقربه اليسع وأحبه. فأتاه كتاب زيادة الله يعرفه أنه الرجل الذي يدعو إليه أبو عبدالله الشيعي، فقبض عليه وسجنه.**

كان زيادة الله قد أخذ في حشد قواته لمجابهة القدرة المتعاظمة لقوات أبي عبد الله بعد استيلائها على ميلة وسطيف وسواها. ووزع الأموال، **فنظم جيشاً ضم أربعين ألف مقاتل، ولم يترك بإفريقية شجاعاً إلا ضمه لجيشه الذي انضم إليه من المتطوعين بمثل عدده.** إلا أن زيادة الله ارتكب خطأً كبيراً عندما أسند قيادة هذا الجيش إلى أحد أقاربه - واسمه ابراهيم بن خنيش - إذ كان هذا جاهلاً بأمور الحرب وقيادة الجيوش. وسار ابراهيم بجيشه إلى قسطينة الهواء - وهي مدينة قديمة حصينة - وهناك انضم اليه جمع كبير من كتامة ممن لم يخضعوا لأبي عبد الله. فقتل في طريقه كثيراً من أصحاب أبي عبد الله وأنصاره. وخاف أبو عبد الله. فأقام ابراهيم أمام قسطينة ستة أشهر فيما كان أبو عبدالله متحصناً في الجبل. فلما رأى ابراهيم أن أبا عبدالله لا يتقدم لقتاله، بادر وزحف بجيشه المحتشد إلى بلد اسمه - كرمة -. فأخرج إليه أبو عبدالله قوة من الفرسان الذين اختارهم. فلما رأى ابراهيم قوة الفرسان سار لقتالهم بنفسه ولم يصحبه أحد من جنده. وكانت أثقال الجيش محملة على ظهور الدواب، فلم يأمر بانزالها. ونشبت الحرب، واقتتلوا قتالاً شديداً، وعندها قاد أبو عبدالله جيشه، وتمكن من الحاق الهزيمة بابراهيم وجيشه، فجرح ابراهيم، وتمت الهزيمة على الجيش جميعه. واستولى جند أبي عبدالله على الأثقال بأسرها، وقتلوا من جيش إبراهيم خلقاً كثيراً، وانسحب إبراهيم بفلول جيشه الممزق إلى القيروان. واهتاجت بلاد أفريقية، وعظم أمر أبي عبد الله، واستقرت دولته، وكتب كتاباً إلى أبي عبيدالله - وهو في سجن سجلماسة - يبشره وأرسل الكتاب مع أحد ثقاته الذي دخل السجن في زي قصاب يبيع اللحم، فاجتمع به وعرفه ذلك. وسار أبو عبدالله إلى مدينة - **طبنة** - فحصرها ونصب عليها الدبابات، ونقب برجاً وبدنة، فسقط السور بعد قتال شديد،

واستولى على المدينة، فاحتمى المقدمون بحصن البلد، فحصرهم، فطلبوا الأمان، فأمنهم وأمن أهل البلد. وسار إلى مدينة ـ **بلزمة** ـ وكان قد حصرها مراراً كثيرة فلم يظفر بها، فلما حصرها الآن ضيق عليها، وجد في القتال، ونصب عليها الدبابات، ورماها بالنار، فأحرقها وفتحها بالسيف، وقتل الرجال، وهدم الأسوار. ووصلت الأخبار إلى زيادة الله، فعظم عليه الأمر، وأخذ في حشد القوى وأمكن له **جمع جيش من اثني عشر ألفاً**، وأسند قيادته إلى ـ هرون بن الطبني ـ. فسار هرون وجيشه، واجتمع معه خلق كثير وقصد مدينة ـ دار ملوك ـ وكان أهلها قد أطاعوا أبا عبد الله، فقتل هرون أهلها وهدم الحصن. ولقيه في طريقه فرسان كان قد وجههم أبو عبدالله للاستطلاع، فلما رآهم جند هرون اضطربوا وصاحوا صيحة عظيمة وهربوا من غير قتال. فظن فرسان أبي عبدالله أنها خدعة، فلما عرفوا أنها هزيمة، أسرعوا في تحركهم، ووضعوا السيف فقتلوا ما لا يحصى عدداً من جند هرون. وقتل هرون أمير الجند. وفتح أبو عبدالله مدينة ـ **تيجس** ـ صلحاً، فاشتد الأمر حينئذ على زيادة الله، وأخرج الأموال، وحشد الجيوش وخرج بنفسه لمحاربة أبي عبدالله، ووصل إلى الاربس (**سنة ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م**) فقال له وجوه دولته: « إنك تغرر بنفسك، فإنك إن هزمت لا يبقى لنا ملجأ. والرأي أن ترجع إلى مستقر ملكك، وترسل الجيش مع من تثق به. فإن كان الفتح لنا، فنصل إليك. وإن كان غير ذلك فتكون ملجأ لنا ». فأخذ برأيهم. ووجه الجيش بقيادة ابن عم له ـ هو ابراهيم بن أبي الأغلب ـ وكان شجاعاً. وعلم أبو عبدالله بذلك، وكان أهل ـ **باغاية** ـ قد كاتبوه بالطاعة، فسار إليهم. فلما قرب منها هرب عاملها إلى ـ الاربس ـ فدخلها أبو عبد الله، وترك بها جنداً، وعاد إلى ـ انكجان ـ. فلما علم زيادة الله زاده ذلك غماً وحزناً فانصرف إلى الأكل والشرب والشهوات، وساعده على ذلك أصحابه. ثم إن أبا عبدالله وجه قوة من الفرسان إلى مدينة ـ **مجانة** ـ فافتتحها عنوة وقتل عاملها. ووجه قوة أخرى إلى ـ **تيفاش** ـ ففتحها وأمن أهلها. وقصد جماعة من رؤساء القبائل أبا عبد الله يطلبون الأمان، فأمنهم، وسار بنفسه إلى ـ **مسكيانة** ـ **ثم إلى** ـ **تبسة** ـ **ثم إلى مدبرة** ـ فوجد فيها أهل ـ قصر الأفريقي ـ ومدينة مرجنة ومدينة مجانة وأخلاطاً من الناس وقد

التجؤوا إليها وتحصنوا فيها - وهي حصينة - فنزل عليها، وقاتلها، فطلب أهلها الأمان، فأمنهم، لكن جنده غدروا بهم، ووضعوا السيف فيهم وانتهبوهم. ثم سار أبو عبدالله بجيشه إلى - **القصرين** - من قمودة، فنزل هناك. وجاءه أهل القصرين بطلب الأمان فأمنهم. علم قائد الجيش - إبراهيم بن أبي الأغلب - أن أبا عبد الله يريد مهاجمة زيادة الله في قاعدته - رقادة -. ولما كان يعرف أنه ليست لدى زيادة الله قوات كبيرة، فقد خرج من الاربس، ونزل دردمين. وسير أبو عبدالله سرية إلى - دردمين - فجرى بينها وبين جند زيادة الله قتال، فقتل من أصحاب أبي عبد الله جماعة وانهزم الباقون. واستبطأ أبو عبدالله خبرهم، فسار في جميع عساكره، فلقي أصحابه منهزمين، فلما رأوه قويت قلوبهم، ورجعوا فانقضوا على جند ابراهيم، وقتلوا منهم جماعة، وحجز الليل بينهم. ثم سار أبو عبدالله إلى **قسطيلة** - فحصرها، فقاتله أهلها، ثم طلبوا الأمان فأمنهم. وأخذ ما كان لزيادة الله فيها من الأموال والعدد. ورحل إلى - **قفصة** - فطلب أهلها الأمان فأمنهم. ورجع إلى - **باغاية** - فترك بها جيشاً وعاد إلى جبل - انكجان -.

سار ابراهيم بن أبي الأغلب في جيشه إلى - باغاية - وحصرها، فلما علم أبو عبد الله بذلك، جمع جيشه وتحرك بسرعة نحوها، ووجه قوة من اثني عشر ألف فارس، وأمر قائدها بالسير إلى - باغاية - فإذا وجد بأن ابراهيم قد ارتحل عنها، فعليه ألا يجاوز فج - العرعار -. ومضت هذه القوة، وكان أصحاب أبي عبدالله في باغاية قد قاتلوا ابراهيم وجيشه قتالاً شديداً، فلما رأى صبرهم، عجب هو وأصحابه منهم، وأرعب ذلك قلوبهم، فلما علموا بتقدم قوات أبي عبدالله، رجعوا مع قائدهم ابراهيم إلى الاربس. ووصل جند أبي عبدالله فلم يروا أحداً، فنهبوا ما وجدوا وعادوا.

جاء فصل الربيع من سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م. وطاب الزمان وحشد كل طرف قواته واستعد لحسم الصراع المسلح، فجمع أبو عبدالله جيشاً بلغ مائتي مقاتل من الفرسان والمشاة. واجتمع مع زيادة الله بالأربس - بقيادة ابراهيم - ما لا يحصى عدداً. والتقت القوتان، واقتتل جندهما أشد قتال، واستمرت الحرب بينهما واستطالت أيامها. وانتصر جند زيادة الله في مراحلها الأولى، فعمل أبو عبدالله على

اختيار ستمائة مقاتل من أفضل فرسانه، وأمرهم بالتحرك للقيام باستدارة واسعة من أجل الوصول إلى مؤخرة قوات زيادة الله. وحدد لهم الطريق المناسب للتحرك، واتفق أن فعل إبراهيم مثل ذلك، فالتقت القوتان، واقتتل فرسانها عند مضيق صعب، فانهزم جند ابراهيم، وارتفع الصراخ في مؤخرة قوات جند ابراهيم للانذار بقوة الاغارة، فانهزم جيش ابراهيم وتمزق وهرب كل قوم إلى جهة بلادهم، وسار ابراهيم وبعض من معه منهزماً إلى القيروان. وقام جند أبي عبدالله بمطاردتهم، يأسرون ويقتلون، وغنموا من الأموال والخيل والأسلحة شيئاً كثيراً، ودخل جند أبو عبدالله - الاربس - فقتلوا بها خلقاً عظيماً، ودخل كثير من أهلها الجامع، فقتل فيه أكثر من ثلاثة آلاف، ونهبوا البلد. ومضى زيادة الله هارباً إلى مصر. وانصرف أبو عبدالله إلى قمودة-. وعندما علم أهل - **رقادة** - بهزيمة جند زيادة الله، هربوا على وجوههم في الليل فمنهم من لجأ إلى القصر القديم، ومنهم من لجأ إلى القيروان، ولجأ آخرون إلى سوسة. ودخل أهل القيروان رقادة، ونهبوا ما فيها، وأخذ القوي الضعيف، ونهبت قصور بني الأغلب. وبقي النهب ستة أيام. ووصل ابراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان، وسار إلى قصر الإمارة. واجتمع إلى أهل القيروان، ونادى مناديه بالأمان وتسكين الناس، وذكر لهم أحوال زيادة الله، وما كان عليه حتى أفسد ملكه، وصغر أمر - أبي عبدالله الشيعي، ووعدهم أن يقاتل عنهم ويحمي حريمهم وبلدهم وطلب منهم المساعدة بالسمع والطاعة والأموال، فقالوا له: «**إنما نحن فقهاء وعامة وتجار، وما في أموالنا ما يبلغ غرضك، وليس لنا بالقتال طاقة**» فأمرهم بالانصراف. فلما خرجوا من عنده وأعلموا الناس بما قالوا، صاحوا به: «**اخرج عنا - فمالك عندنا سمع ولا طاعة**». وشتموه فخرج عنهم وهم يرجمونه.

علم أبو عبد الله بهرب زيادة الله وهو بناحية - سبيبة - فسار إلى - وادي النمل - ووجه قوة من ألف فارس للعمل على مقدمة جيشه بقيادة - عروبة بن يوسف وحسن ابن أبي خنزير - فسارت هذه المقدمة إلى - رقادة -. فوصلتها ووجدت الناس وهم ينتهبون ما بقي من الأمتعة والأثاث. فأمنوهم، ولم يتعرضوا لأحد، وتركوا لكل

واحد ما حمله. فأتى الناس إلى القيروان وأخبروا أهلها الذين أظهروا فرحهم وبهجتهم. وسار أبو عبد الله إلى القيروان فخرج الفقهاء ووجوه البلد لاستقباله، وسلموا عليه وهنؤوه بالفتح، فرد عليهم رداً حسناً. وحدثهم. وأعطاهم الأمان، فأعجبهم ذلك وسرهم. وذموا زيادة الله وذكروا مساويه، **فقال لهم: «ما كان إلا قوياً، وله منعة ودولة شامخة، وما قصر في مدافعته، ولكن أمر الله لا يعاند ولا يدافع».** فأمسكوا عن الكلام، ورجعوا إلى القيروان. ودخل أبو عبد الله ـ رقادة ـ فنزل ببعض قصورها، وفرق دورها على كتامة، إذ لم يكن من أهلها أحد قد بقي فيها. وأمر فنودي بالأمان. ورجع الناس إلى اوطانهم، وأخرج العمال إلى البلاد، وطلب أهل الشر والمفسدين فقتلهم. **وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسلاح وغير ذلك، فاجتمع كثير منه ـ وفيه كثير من الجواري لهن مقدار وحظ من الجمال. فسأل عمن يكفلهن، فذكر له امرأة صالحة، كانت لزيادة الله، فأحضرها وأحسن إليها، وأمر بحفظهن وبتقديم ما يصلحهن، ولم ينظر إلى واحدة منهن. ولما حضرت الجمعة، أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا له ولم يذكروا أحداً. وأمر بضرب السكة ـ النقود ـ وأن لا ينقش عليها اسم. ولكنه جعل مكان الاسم من وجه: «بلغت حجة الله» ومن الوجه الآخر: (تفرق أعداء الله). ونقش على السلاح: (عدة في سبيل الله). ووسم الخيل على أفخاذها: (الملك لله) وأقام على ما كان عليه من لبس الادم الخشن، والقليل من الطعام الغليظ.**

استقرت الأمور لأبي عبد الله في ـ رقادة ـ وسائر بلاد افريقية. وجاءه أخوه الأكبر أبو العباس، ففرح بلقائه، واستخلفه في ـ رقادة ـ. وسار في جيوش عظيمة اهتز المغرب لخروجها. و خافت زناته من أبي عبد الله وجيوشه، وتطايرت القبائل من طريقه، وجاءته وفود القبائل فأعلنت دخولها في طاعته. وسار في طريقه إلى مدينة ـ سجلماسة ـ لتحرير أبي عبيد الله واطلاقه من سجنه. وتم له ذلك، وقتل أمير مدينة سجلماسة ـ اليسع ـ.

أخيراً، التقى الداعية أبو عبد الله، بأبي عبيد الله، وأظهر الناس مسرة عظيمة

كادت تذهب بعقولهم. وتقدم أبو عبد الله من إمامه أبي عبيد الله وابنه أبي القاسم فأركبها، ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديها، وأبو عبد الله يقول للناس وهو يبكي من شدة الفرح: **«هذا مولاكم»**. ووصل الركب إلى ـ سجلماسة ـ فنزل فيها أربعين يوماً. وسار أبو عبد الله إلى افريقية، وأحضر الأموال من ـ أنكجان ـ فجعلها احمالاً وعاد بها إلى رقادة فوصلها (سنة ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م). وسار أبو عبيد الله من سجلماسة نحو ـ رقادة ـ فلما قرب منها، تلقاه أهلها وأهل القيروان، وعلى مقدمتهم أبو عبد الله ورؤساء كتامة مشاة بين يديه، وولده أبو القاسم خلفه؛ فسلموا عليه، فرد رداً جميلاً وأمرهم بالانصراف. ونزل بقصر من قصور رقادة. **وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد، وتلقب بلقب ـ المهدي أمير المؤمنين ـ وجلس بعد صلاة الجمعة رجل يعرف ـ بالشريف ـ ومعه الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى مذهبهم، فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حبس، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس ـ وهم قليل ـ وقتل كثيراً ممن لم يوافقهم على مذهبهم. وعرض عليه أبو عبد الله جواري زيادة الله، فاختار منهن كثيراً لنفسه ولولده أيضاً، وفرق ما بقي على وجوه كتامة**. وقسم عليهم أعمال افريقية؛ ودون الدواوين، وجبى الأموال، واستقرت قدمه، ودانت له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها جميعها، واستعمل على جزيرة صقلية ـ الحسن بن أحمد بن أبي الخنزير ـ ولكن هذا أساء السيرة في أهل صقلية وظلمهم، فثاروا به وأخذوه وحبسوه، وكتبوا إلى المهدي بذلك واعتذروا فقبل عذرهم، واستعمل عليهم ـ علي بن عمر البلوي ـ فوصل إلى صقلية في نهاية سنة ٢٩٩ هـ. **هكذا زال ملك بني الأغلب وملك بني مدرار ـ الذين منهم اليسع ـ وكان لهم ثلاثون ومائة سنة منفردين بسجلماسة. وزال ملك بني رستم بن تاهرت. ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت. وملك المهدي افريقية جميعها.**

* * *

لم يجتمع سيفان في غمد واحد، ولم يجتمع ملكان إلا أخرج أحدهما الآخر. فلا الغمد يتسع لسيفين، ولا المملكة تستقيم لأكثر من حاكم. وهكذا فقد كان

لا بد من ظهور خلاف بين الداعية أبي عبدالله الذي كان له الفضل في إقامة الحكم العلوي في المغرب، وبين المهدي أبي عبيدالله الذي ارتفعت الدعوة باسمه ـ ولكن هذا الخلاف حدث بأسرع مما يمكن توقعه. إذ لم تكد الأمور تستقيم لأبي عبيد الله ـ المهدي ـ حتى باشر بممارسة الأمور بنفسه. وكف يد أبي عبد الله ويد أخيه أبي العباس. فاغتاظ ابو العباس، وعظم عليه الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء. فأخذ يزري على المهدي في مجلس أخيه، ويتكلم فيه، وأخوه ينهاه ولا يرضى فعله، فلا يزيده ذلك إلا لجاجاً. ثم أظهر أبو عبد الله ما في نفسه، وتحدث إلى أبي عبيد الله المهدي، فقال له: «لو كنت تجلس في قصرك، وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس». وكان المهدي قد علم شيئاً مما يجري بين أبي عبد الله وأخيه من الأحاديث، فتأكد عندئذ مما كان قد علمه، ولكنه رد على أبي عبد الله رداً لطيفاً. واستمر أبو العباس في استثارة مقدمي الدعاة، فمن رأى منه قبولاً للتحريض كشف له ما في نفسه، وقال له: «ما جازاكم على ما فعلتم؟». وذكر لهم الأموال التي أخذها المهدي من أنكجان. وقال: «هلا قسمها فيكم؟» وكل ذلك يصل إلى سمع المهدي وهو يتغافل وأبو عبد الله يداري. ثم صار أبو العباس يقول: «إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه لأن المهدي يختم بالحاجات، ويأتي بالآيات الباهرة». فأخذ قوله بقلوب كثير من الناس ـ منهم إنسان من كتامة يقال له ـ شيخ المشايخ ـ فواجه المهدي بذلك وقال له: «إن كنت المهدي فأظهر لنا آية، فقد شككنا فيك» فقتله المهدي. فخافه أبو عبد الله، وعلم أن المهدي قد تغير عليه. واتفق هو وأخوه ومن معهما على الاجتماع عند رجل منهم ـ لقبه أبو زاكي ـ لاتخاذ قرار بقتل المهدي. وتحرك المهدي بسرعة أكبر، فاستدعى ـ أبا زاكي ـ وأرسله والياً على طرابلس، وكتب إلى عاملها أن يقتله عند وصوله. فلما وصلها، قتله عاملها وأرسل رأسه إلى المهدي. **وأمر المهدي رجالاً له بقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العباس. فقتلهما ـ في اليوم الذي قتل فيه أبا زاكي ـ وقام المهدي فصلى على أبي عبد الله ودعا له وقال: «رحمك الله أبا عبد الله ـ وجزاك خيراً بجميل سعيك»**. وثارت فتنة بسبب قتلهما، وجرد أصحابهما

السيوف، فركب المهدي، وأمن الناس، فسكتوا، ثم تتبعهم حتى قتلهم جميعاً. وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان قتل فيها خلق كثير، فخرج المهدي، وسكن الفتنة، **وأمر الدعاة بالكف عن فرض التشيع على العامة**. ولما استقامت أمور الدولة للمهدي، عهد إلى ولده أبي القاسم ـ نزار ـ بالخلافة، ورجعت كتامة إلى بلادهم، فأقاموا طفلاً، وقالوا: «هذا هو المهدي». ثم زعموا أنه نبي يوحى إليه. وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت. وزحفوا إلى مدينة ـ ميلة ـ فبلغ ذلك المهدي، فأخرج ابنه أبا القاسم، فحصرهم، فقاتلوه، فهزمهم واتبعهم حتى أجلاهم إلى البحر، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وقتل الطفل الذي أقاموه. وأعلن أهل صقلية تمردهم على عامل المهدي ـ ابن وهب ـ فوجه المهدي اسطولاً، وقضى على التمرد، وجاء بابن وهب فقتله. وأعلن أهل ـ تاهرت ـ تمردهم، فغزاها المهدي وقضى على التمرد. وقتل قادته. كما قتل جماعة من ـ بني الأغلب ـ برقادة، كانوا قد رجعوا عليها بعد وفاة زيادة الله. وعادت الفتنة فاجتاحت جزيرة صقلية (سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م) فأرسل المهدي الأسطول الذي حمل جيشاً ضخماً قضى على الفتنة، وقتل قادتها. وأقام حامية كبيرة في جزيرة صقلية لاخضاع ثائرتها.

أ ـ بناء الدولة، والصراع مع مصر.

لقد قامت دولة للشيعة سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م. إلا أن هذه الدولة لم تكن ذات تأثير كبير على العالم الاسلامي وهي منعزلة في أقصى الغرب. ولهذا فقد وضع المهدي هدفه التالي ـ وهو الاستيلاء على مصر ـ. وكانت أول محاولة له في هذا المجال إرسال جيش من افريقية بقيادة ابنه أبي القاسم نزار (سنة ٣٠١ هـ = ٩١٣ م). فسار الجيش إلى برقة، واستولى عليها. ثم تقدم نحو مصر، فاستولى على الاسكندرية، ووصل إلى الفيوم، وسيطر على عدد من المدن، وضيق على أهلها. فوجه أمير المؤمنين المقتدر بالله جيشاً كثيفاً بقيادة ـ مؤنس الخادم ـ فحارب جيش أبي القاسم وهزمه، وطرده من مصر، فعاد أبو القاسم بجيشه ممزقاً مهزوماً. فلما كانت السنة التالية (٣٠٢ هـ = ٩١٤ م) جهز أبو محمد عبيد الله العلوي ـ الملقب بالمهدي ـ جيشاً ضخماً، وأسند قيادته إلى قائد من قادته ـ اسمه حباسة ـ ووجهه نحو مصر. فسار هذا الجيش براً،

ووصل إلى الاسكندرية، فاستولى عليها، ثم سار منها حتى وصل إلى منتصف المسافة بين الاسكندرية والفيوم. فبلغ ذلك المقتدر، فعاد ووجه جيشاً بقيادة ـ مؤنس ـ وأمدّه بالسلاح والمال. فسار مؤنس مجداً حتى وصل مصر، والتقى الجيشان. فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من الفريقين جمع كثير، وجرح مثلهم، ثم كان بينهم وقعة أخرى بلغت من العنف والشدة كمثل سابقتها، وأعقبتها وقعة ثالثة ورابعة، انهزم فيها المغاربة أصحاب العلوي، وقتلوا وأسروا. فكان مبلغ القتلى سبعة آلاف. وهرب الباقون وعادوا إلى الغرب، فلما وصلوا إلى الغرب أمر المهدي بقتل قائد الجيش ـ حباسة ـ. ورافق ذلك تفجر ثورة في القيروان ضد المهدي بقيادة ـ عروبة بن يوسف الكتامي ـ الذي اجتمع إليه خلق كثير من كتامة والبرابر ـ. فأخرج المهدي اليهم جيشاً بقيادة مولاه ـ غالب، فاقتتلوا قتالاً شديداً في ظاهر القيروان، وقتل عروبة وبنو عمه وقتل معهم عالم لا يحصون عدداً. وجمعت رؤوس مقدميهم في قفة وحملت إلى المهدي، فقال: **« ما أعجب أمور الدنيا، قد جمعت هذه القفة رؤوس هؤلاء، وقد كان يضيق بعساكرهم فضاء المغرب »**.

أراد ـ المهدي ـ بناء مدينة تحمل اسمه وتكون عاصمة لمملكته. فسار بنفسه (سنة ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م) وارتاد موضعاً على ساحل البحر ما بين تونس وقرطاجنة. فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحصن من موضع شبه جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند. فأمر ببناء المدينة عليها. وأطلق عليها اسم ـ المهدية ـ. وجعل لها سوراً محكماً، وأبواباً عظيمة، وزن كل مصراع مائة قنطار. وأشرف على بنائها فكان هو الذي يأمر الصناع بما يعملون. ثم أمر ببناء دار لصناعة السفن ورصيفاً يتسع لمائتي سفينة وعليها باب مغلق. وحفر في أرضها أهراء لحفظ الطعام ومصانع للماء. وبنى فيها القصور والدور فلما فرغ منها قال: **« اليوم أمنت على الفاطميات ـ يعني بناته »**. وارتحل عنها. ولما رأى إعجاب الناس بها وبحصانتها قال: « هذا لساعة من نهار ».

عاد المهدي من جديد لمشروع فتح مصر (سنة ٣٠٦ هـ = ٩١٨ م) فوجه إليها جيشاً كثيفاً بقيادة ابنه أبي القاسم، وصل إلى مصر في ربيع الأول سنة ٣٠٧ هـ =

٩١٩ م فنزل في الاسكندرية. فخرج عامل أمير المؤمنين المقتدر منها، ودخلها أبو القاسم، وتقدم إلى الجيزة، واحتل الاشمونين وكثيراً من مدن صعيد مصر. وكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول في طاعته، فلم يقبلوا منه، ووردت بذلك الأخبار إلى بغداد. فوجه المقتدر جيشاً بقيادة ـ مؤنس الخادم ـ الذي سار بسرعة إلى مصر، وجرت بينه وبين أبي القاسم عدة وقعات. ووصل أثناء ذلك أسطول من افريقية ضم ثمانين مركباً لدعم أبي القاسم. بقيادة ـ سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ـ وكانا من القادة الاكفاء الشجعان. فأمر المقتدر بتوجيه أسطول من طرطوس ضم ٢٥ مركباً، فيها النفط والعدد بقيادة قائد لقبه ـ أبو اليمن ـ. فالتقت المراكب بالمراكب، واقتتلوا عند مصب نهر رشيد، فانتصر أبو اليمن وأحرق كثيراً من مراكب المهدي. وهلك أكثر جندها. وأسر منهم كثير في مقدمتهم سليمان الخادم ويعقوب، فقتل من الأسرى كثير وأطلق كثير. ومات سليمان في الحبس بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد، ثم هرب منها وعاد إلى افريقية. وكان أبو القاسم يقود أثناء ذلك حرباً ضارية ضد جيش مؤنس الخادم. كان النصر فيها لمؤنس ـ الذي لقبه أمير المؤمنين بالمظفر ـ ووقع الوباء في معسكر أبي القاسم ومات من جنده عدد كبير، فعاد من سلم إلى افريقية، وجيش مؤنس الخادم يطاردهم حتى أجلاهم عن مصر ـ ووصل أبو القاسم إلى المهدية بفلول جيشه الممزق.

كان على المهدي أن يصرف جهده لضمان الاستقرار في افريقية التي كانت في حالة هياج مستمر. وكان الصراع بين القبائل قائماً بصورة مستمرة. وحدث في سنة ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م أن قام محمد بن خرز الزناتي باجتياح معسكر لقبائل كتامة فقتل منهم خلقاً كثيراً. فعظم ذلك على المهدي فسير جيشاً كبيراً بقيادة ابنه أبي القاسم. وأسرعت قبائل زناتة بالتفرق. وسار أبو القاسم حتى وصل إلى ما وراء تاهرت. فلما عاد من حملته، خط برمحه في الأرض أساس مدينة سماها المحمدية ـ وهي المسيلة ـ وكان بنو كملان يستقرون في ناحيتها، فتوجس منهم شراً، وأمر بنقلهم إلى فحص القيروان. حتى يكونوا قريباً منه وتحت أنظاره. وانتقل خلق كثير إلى المحمدية، وأمر عاملها أن يكثر من الطعام، ويخزنه ويحتفظ به، ليكون مركز إمداد وتموين في تلك الناحية التي

تفتقر للأغذية. وتوفي المهدي (*) وقد وطد دعائم دولته، ومهد بالحكم من بعده لابنه أبي القاسم نزار. وتلقب بلقب (القائم بأمر الله).

واجه القائم بأمر الله مع بداية حكمه مجموعة من المتاعب. وثار عليه جماعة فتمكن منهم، وكان من أشدهم رجل يقال له (ابن طالوت القرشي) في ناحية طرابلس، وزعم أنه ـ ولد المهدي ـ ونهض معه أقوام زحف بهم إلى مدينة طرابلس، فقاتله أهلها، ثم تبين للبربر كذبه، فقتلوه وحملوا رأسه إلى ـ القائم بأمر الله ـ. وجهز القائم أيضاً جيشاً كثيفاً أسند قيادته إلى ـ ميسور الفتى ـ ووجهه إلى المغرب. فوصل هذا الجيش إلى فاس، ثم إلى تكرور. وهزم هناك قوة للخوارج. كما وجه جيشاً في البحر إلى جنوة. وسير جيشاً كبيراً بالغ بالنفقة عليه وتجهيزه، وأسند قيادته إلى خادمه ـ زيدان ـ ووجهه إلى مصر. فوصل هذا الجيش إلى الاسكندرية. فأخرج إليه أمير مصر ـ محمد الاخشيد جيشاً كثيفاً، قاتل جيش القائم وهزمه وقتل منه عدداً كبيراً. فعاد الجيش مهزوماً. **غير أن أكبر وأخطر ما جابهه (القائم بأمر الله) هو تلك الثورة التي قامت بها ـ زناتة ـ والتي قادها ـ أبو يزيد الخارجي ـ سنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م.**

كان أبو يزيد هذا من ـ زناتة ـ واسم والده ـ كنداد ـ من مدينة توزر ـ من قسطيلية ـ وكان كنداد يتردد على بلاد السودان للتجارة، فتزوج جارية هوارية وجاء بها إلى توزر فولدت له ـ أبا يزيد ـ الذي نشأ في توزر، وتعلم القرآن، وخالط جماعة من النكارية فمالت نفسه إلى مذهبهم، ثم سافر إلى ـ تاهرت ـ فأقام بها يعلم الصبيان إلى أن خرج أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة للالتقاء بالمهدي، فانتقل أبو يزيد إلى تقبوس المدينة القريبة من توزر ـ واشترى ضيعة وأقام يعلم فيها الصبيان. **وكان مذهبه تكفير أهل الإسلام. واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطة.**

(*) المهدي ـ أبو محمد ـ عبيد الله العلوي. (٢٥٩ـ٣٢٢ هـ = ٨٧٢ـ٩٣٣ م) مات وعمره ثلاث وستون سنة، وكانت ولايته منذ دخل رقادة ودعي له بالامامة إلى أن توفي أربعا وعشرين سنة. قضاها في جهد مستمر للقضاء على خصومه وأعدائه. اشتهر بالخبث والدهاء والبطش. وكان ذا كفاءة عالية في إدارة الدولة، وهو يشبه في بعض صفاته أبا العباس السفاح.

وبدأ يحتسب على الناس في أفعالهم ومذاهبهم، وأمكن له تنظيم جماعة كانوا يعظمونه، ولم يزل على ذلك حتى اشتدت شوكته وكثر أتباعه. فانطلق يغير على القرى المجاورة ويحرق ويفسد، وزحف إلى ـ باغاية ـ وحصرها. وهزم جيوش القائم بأمر الله، ودخل ـ مرمجنة، أو مرماجنة ـ. فلقيه رجل من أهلها وأهدى له حماراً أشهب مليح الصورة، فركبه أبو يزيد من ذلك اليوم. وكان أبو يزيد قصيراً أعرج، يلبس جبة صوف قصيرة، قبيح الصورة. ثم إنه هزم ـ كتامة ـ. ووجه قوة من جيشه إلى ـ سبيبة ـ ففتحها وصلب عاملها وسار إلى ـ الأربس ـ ففتحها ونهبها وأحرقها. ولجأ الناس إلى الجامع فقتلهم فيه، فلما علم بذلك أهل ـ المهدية ـ استعظموه، وقالوا للقائم بأمر الله: «إن الأربس هي باب افريقية، فلو أخذت زالت دولة المهدي» فقال لهم: «لا بد أن يبلغ أبو يزيد المصلى وهو أقصى غايته».

عرف (القائم بأمر الله) أن تأخره في مجابهة الموقف قد يؤدي إلى خروج الأمر من قبضته. فأعاد تنظيم جيوشه بسرعة. ووجه جيشاً إلى ـ رقادة ـ وجيشاً آخر إلى ـ القيروان ـ. وشرع بحشد المزيد من الجند. مما أخاف أبا يزيد فقرر السيطرة على المدن وتدميرها وقتل أهلها. فوجه ـ القائم بأمر الله ـ جيشاً بقيادة فتاه ـ ميسور ـ وكلفه بتعقب آثار أبي يزيد. كما وجه قوة من جيشه بقيادة فتاه ـ بشرى ـ إلى مدينة ـ باجة ـ. فلما علم أبا يزيد بتحرك القوة التي يقودها ـ بشرى ـ ترك كتلة جيشه وسار على رأس قوة من الفرسان الخفيفة. فالتقى بقوة بشرى عند ـ باجة، فانهزم جند أبي يزيد حتى لم يبق معه إلا أربعمائة مقاتل، فقال لهم أبو يزيد ـ «هيا بنا نباغتهم بالهجوم على معسكرهم ـ خيامهم». فانهزم بشرى إلى تونس بعد معركة قصيرة وعنيفة. وقتل من جنده عدد كبير ـ من وجوه كتامة وغيرهم. ودخل أبو يزيد مدينة باجة، فأحرقها ونهبها وقتلوا الأطفال، وأخذوا النساء. وكتب إلى القبائل ودعاها لمبايعته. فجاءته قبائل كثيرة، فعمل الأخبية والبنود وآلات الحرب.

لما وصل القائد ـ بشرى ـ إلى تونس، جمع الناس، وأعطاهم المال، فاجتمع إليه خلق كثير، فنظمهم ووجههم لقتال أبي يزيد. فوجه إليهم أبو يزيد جيشاً، فالتقوا واقتتلوا ودارت الدائرة على جيش أبي يزيد، ورجع جيش ـ بشرى إلى تونس ظافراً.

ووقعت فتنة في تونس، ونهب أهلها دار أميرهم، فهرب. وكاتبوا أبا يزيد، **فأعطاهم** الأمان وولى عليهم رجلاً منهم ـ اسمه رحمون ـ. وانتقل أبو يزيد إلى ـ فحص أبي صالح ـ وخافه الناس فانتقلوا إلى القيروان، وأتاه كثير منهم خوفاً ورعباً. وأمر ـ القائم بأمر الله ـ قائده بشرى **بارسال قوات استطلاع ونشر شبكة جواسيس ـ عيون ـ لمتابعة تحركات أبي يزيد**. فمضى بشرى مع قواته نحو أبي يزيد. فلما علم هـذا وجه قوة من جنده وأمر مقدمها ـ قائدها ـ **بأن يقتل ويمثل وينهب ليرعب قلوب الناس،** ففعل ذلك، والتقى بالقائد بشرى وقواته، فاقتتلوا، وانهزم جند أبي يزيد وقتل منهم أربعة آلاف وأسر خمسمائة، فوجههم بشرى إلى المهدية مقيدين في السلاسل، فقتلهم العامة.

غضب أبو يزيد لما نزل بقواته، فجمع جموعه وسار لقتال الكتاميين، ووصل إلى الجزيرة، وجرى قتال بين طلائع القوتين، فانهزمت طلائع الكتاميين، وتبعهم البربر ـ إلى رقادة ـ **ونزل أبو يزيد بالغرب من القيروان في مائة ألف مقاتل**. ثم تحرك في اليوم التالي إلى الشرق من ـ رقادة ـ. ولم يلتفت عاملها ـ خليل ـ إلى أبي يزيد، ولم يظهر استعداداً لقتاله، وجاءه الناس يخبرونه بقربهم، فأمر أن لا يخرج أحد لقتالهم إلى أن يصل ميسور وجيشه. فلما علم أبو يزيد ذلك، وجه بعض قواته إلى القيروان، فأنشبوا القتال، فجرى بينهم قتال عظيم قتل فيه خلق كثير من أهل القيروان، وانهزموا. فصاح الناس بأميرهم خليل، فخرج من باب تونس لقتال قوات أبي يزيد ـ وهو كاره لهذا القتال ـ وأقبل أبو يزيد بجمعه، فانهزم خليل بغير قتال. ودخل القيروان واعتصم بداره وأغلق بابه ـ على أمل وصول ميسور ـ. وفعل كذلك أصحابه. ودخل البربر المدينة فقتلوا وأفسدوا وقاتلهم بعض الناس في أطراف البلد. وبعث أبو يزيد قوة بقيادة ـ أيوب الزويلي ـ اقتحمت القيروان، فنهبت وقتلت وارتكبت أعمالاً شنيعة، وحاصرت خليلاً في داره فنزل هو ومن معه بالأمان، وحمل خليل إلى أبي يزيد فقتله. وخرج شيوخ أهل القيروان إلى أبي يزيد وهو ـ برقادة ـ فسلموا عليه، وطلبوا الأمان، فماطلهم، وجنده يقتلون وينهبون، فعاودوا «الشكوى»، وقالوا له: «لقد خربت المدينة» فقال لهم: «وما يكون؟ خربت مكة والبيت المقدس». ثم أمر

بالأمان، وبقي طائفة من البربر ينهبون، فأتاهم الخبر بوصول ميسور وجيشه، فخرج عند ذلك البربر من المدينة. وعلم (القائم بأمر الله) أن قوماً من ـ بني كملان ـ قد كتبوا إلى أبي يزيد، ووعدوه أن يمكنوه من ميسور وجيشه، فأسرع القائم بالكتابة إلى ميسور وأعلمه بما توافر له من المعلومات وحذره وأمره بطردهم. فرجعوا إلى أبي يزيد ـ خائبين ـ وقالوا له: « إذا عجلت ظفرت به ». فسار أبو يزيد من يومه، واصطدمت قواته بقوات ميسور، ودارت رحى المعركة، واشتد القتال، وانهزمت ميسرة أبي يزيد. فلما رأى أبو يزيد ذلك حمل على ميسور، فانهزم أصحاب ميسور، وعطف ميسور بفرسه فكبا به وسقط عنه، وقاتل أصحابه عليه ليحموه، فتوجه إليه بنو كملان الذين طردهم، فاشتد القتال حينئذ وقتل ميسور وحمل رأسه إلى أبي يزيد، وانهزم عامة عسكره. وأرسل الكتب إلى عامة البلاد يخبر بهذا الظفر، وطيف برأس ميسور بالقيروان. وعلم القائم بأمر الله بالهزيمة فخاف هو ومن معه بالمهدية، وانتقل أهلها من أرباضها إلى البلد، فاجتمعوا واحتموا بسوره، فمنعهم القائم، ووعدهم الظفر، فعادوا إلى ـ زويلة ـ واستعدوا للحصار. وأقام أبو يزيد شهرين وثمانية أيام في خيم ميسور وهو يبعث السرايا إلى كل ناحية فيغنمون ويعودون، **وأرسل سرية إلى سوسة، ففتحوها بالسيف، وقتلوا الرجال، وسبوا النساء وأحرقوها، وشقوا فروج النساء، وبقروا البطون، حتى لم يبق موضع في افريقية معمور ولا سقف مرفوع.** ومضى جميع من بقي إلى القيروان حفاة عراة. ومن تخلص من السبي مات جوعاً وعطشاً. وأمر القائم بأمر الله بحفر الخنادق حول أرباض المهدية (في آخر ربيع الآخر سنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م) وكتب إلى زيري بن مناد سيد صنهاجة وإلى سادات كتامة والقبائل يحثهم على الاجتماع بالمهدية، وقتال النكار، فتأهبوا للمسير إليه. وعلم أبو يزيد بذلك، فتحرك بسرعة أكبر وقاد قواته مباشرة ونزل بها على بعد خمسة عشر ميلاً من المهدية، ووجه سراياه إليها، فانتهبت ما وجدت في نواحي المدينة، وقتلت من صادفته، واجتمع الناس إلى ـ المهدية ـ. واتفقت كتامة وأصحاب (القائم بأمر الله) على مهاجمة معسكر أبي يزيد، والافادة من توزع سراياه وانتشارها. وعلم أبو يزيد بذلك وقد أتاه ولده ـ فضل ـ بجيشه من القيروان. فوجهه لقتال كتامة. ووقع الصدا

على بعد ستة أميال من المهدية، وعلم أبو يزيد فركب ومعه كل من بقي معه، فلقي جند ابنه منهزمين وقد قتل كثير منهم. فلما رآه الكتاميون انهزموا من غير قتال. فانطلق أبو يزيد لمطاردتهم حتى وصل إلى ـ باب الفتح ـ واقتحم بعض البربر باب الفتح ـ ثم عاد أبو يزيد وجيشه إلى معسكره. وعاد أبو يزيد ـ بعد شهر ـ فهاجم المهدية من قطاع ـ باب الفتح ـ ووجه قوة أخرى إلى قطاع باب بكر، ثم وقف هو أمام الخندق الذي حفره جند القائم بأمر الله ـ حديثاً ـ. ووقع اشتباك مع الحامية المدافعة عن الخندق. ثم اقتحم أبو يزيد وجنده البحر حتى بلغ الماء صدور الخيل، حتى جاوزوا السور المحدث، فانهزم من أمامهم الجند المدافعون عن الخندق. وطاردهم أبو يزيد حتى وصل إلى باب المهدية عند المصلى الذي أقيم لصلاة العيد ويقع على بعد رمية سهم من المهدية. وتفرق أصحابه في زويلة ينهبون ويقتلون، وأهلها يطلبون الأمان، والقتال عند باب الفتح مستمر بين كتامة والبربر وهم لا يعلمون ما صنع أبو يزيد في ذلك القطاع، وانقض الكتاميون على البربر، فهزموهم وقتلوا فيهم. وعلم أبو يزيد بوصول قبائل صنهاجة بقيادة زيري بن مناد، فخاف المقام، فتوجه إلى باب الفتح، ليهاجم صنهاجة وكتامة من ورائهم. فلما رأى أهل الأرباض ذلك، ظنوا أن القائم بأمر الله قد خرج بنفسه من المهدية، فكبروا وقويت نفوسهم واشتد قتالهم. فتحير أبو يزيد، وعرفه أهل تلك الناحية، فانقضوا عليه ليقتلوه، فاشتد القتال عنده، وهدم بعض أصحابه حائطاً، وخرج منه فتخلص من المعركة ووصل إلى معسكره بعد المغرب. وحجز الليل بين المتقاتلين، بعد أن انهزم البربر وتفرقوا. ثم رحل أبو يزيد إلى ـ ثرنوطة ـ وحفر خندقاً حول معسكره، واجتمع إليه خلق عظيم من افريقية والبربر وأهل نفوسة والزاب وأقاصي المغرب. فعاد وحاصر المهدية حصاراً شديداً، ومنع الناس من الدخول إليها والخروج منها. ثم قام بالهجوم عليها، فجرى قتال عظيم، وقتل جماعة من كبار قادة ـ القائم بأمر الله ـ واقتحم أبو يزيد بنفسه حتى وصل إلى قرب الباب، فعرفه بعض الجند، فقبض على لجام حصانه وصاح: «هذا أبو يزيد، فاقتلوه» فأتاه رجل من جند أبي يزيد فقطع يده وخلص أبا يزيد. ولما رأى أبو يزيد شدة قتال جند القائم بأمر الله، كتب إلى عامل القيروان وأمره بإرسال المقاتلين من

أهلها، ففعل. وعندما وصلوا قادهم للهجوم، وجرى قتال شديد، انهزم فيه أبو يزيد هزيمة منكرة، وقتل فيها جماعة من جنده. وقتل عدد اكبر من أهل القيروان.

قاد أبو يزيد هجومه الرابع على المهدية - فجرى قتال عظيم، وانصرف أبو يزيد إلى معسكره، وكثر خروج الناس من الجوع والغلاء، ففتح عند ذلك القائم بأمر الله أبواب الاهراء الذي صنعه أبوه - المهدي - وملأه بالأطعمة. وفرق ما فيه على رجاله. وعظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الدواب والميتة. وخرج من المهدية أكثر السوقة والتجار ولم يبق بها سوى الجند، فكان البربر يأخذون من خرج ويقتلونهم ويشقون بطونهم طلباً للذهب. ثم وصلت - كتامة - فنزلت بمدينة - قسنطينة - فخاف أبو يزيد، ووجه جيشاً كبيراً لقتالهم. ووقعت معركة انتصرت فيها كتامة، ومزقت جيش أبي يزيد. وكان البربر يأتون إلى أبي يزيد من كل ناحية، فينهبون ويقتلون ويرجعون إلى منازلهم حتى أفنوا ما كان في افريقية. فلما لم يبق شيء مما يمكن نهبه، توقفوا عن المجيء إليه، ولم يبق معه سوى أهل أوراس وبني كملان. وعلم - القائم بأمر الله - بتفرق جند أبي يزيد، وجه جيشه لقتاله، ووقعت معركة ضارية طوال أيام متتالية وكثر القتل في الجندين المتحاربين. وهرب كثير من أهل المهدية إلى جزيرة صقلية وطرابلس ومصر وبلاد الروم. وعاد أبو يزيد فأمكن له حشد جيش ضخم سار به إلى المهدية وقاتل حاميتها المدافعة عنها. واشتد الضيق على الكتاميين، فاختاروا مائتي فارس من أشداء مقاتليهم للانقضاض بهجوم صاعق على قوات أبي يزيد. ونجح الهجوم فقتل عدد كبير من جيش أبي يزيد، وأسر منهم. وكاد الكتاميون يصلون إلى أبي يزيد الذي قاتل عنه رجاله بحماسة حتى خلصوه. وفرح أهل المهدية بهذا النصر، وأخذوا الأسرى في الحبال الى المدينة. ودخلت سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م، وأبو يزيد قائم على حصار المهدية. والقتال مستمر بين جيشه والحامية المدافعة عنها.

ظهر في افريقية - مع بداية سنة ٣٣٤ هـ - رجل دعا الناس إلى نفسه وادعى أنه عباسي جاء من بغداد ومعه أعلام سود، فأجابه خلق كثير، وظفر به بعض أصحاب أبي يزيد، وقبض عليه وسيره إلى أبي يزيد فقتله.

هرب في تلك الفترة أيضاً بعض أصحاب أبي يزيد، وانضموا إلى معسكر القائم بأمر الله في المهدية ـ بسبب عداوة كانت بينهم ـ. وخرجوا مع جند القائم بأمر الله فقاتلوا رجال أبي يزيد، وانتصروا عليهم. فتفرق عند ذلك أصحاب أبي يزيد. ولم يبق معه غير هوارة وأهل اوراس وبني كملان وكان اعتماده عليهم. ثم اجتمع رؤساء من بقي وتشاوروا في أمرهم، واتفقوا على التوجه إلى القيروان لجمع البربر من كل ناحية والرجوع بعد ذلك إلى معسكر أبي يزيد. وركبوا خيولهم ومضوا نحو القيروان ومعهم أكثر الجند. فبعث إليهم أبو يزيد ليردهم، فلم يقبلوا منه. فرحل مسرعاً وتبعهم وليس معه اكثر من ثلاثين رجلاً، وترك جميع أثقاله. وعندما وصل إلى القيروان نزل المصلى، ولم يخرج لاستقباله أحد من أهل القيروان ـ سوى عامله ـ وخرج الصبيان يلعبون حوله ويضحكون منه.

علم ـ القائم بأمر الله ـ برحيل أبي يزيد وجنده، وخرج الناس إلى معسكره فاستولوا على أثقاله. ووجدوا الخيام والطعام وغير ذلك على حاله، فأخذوه وتقووا به، واستراحوا من شدة الحصار ورخصت الأسعار. ووجه القائم بأمر الله عماله لطرد عمال أبي يزيد من البلاد. ولما رأى أهل القيروان قلة من مع أبي يزيد من الجند، خافوا القائم، وأرادوا أن يقبضوا على أبي يزيد، ثم هابوه، فكتبوا إلى القائم وسألوه الأمان، فلم يجبهم إلى طلبهم.

لقد حدث ذلك وعامل أبي يزيد في القيروان منصرف إلى الأكل والشرب وغير ذلك، مما أغضب أبا يزيد فأنكر على عامله انصرافه عن الاعداد للحرب، وأمره بجمع الجند من القيروان، فقام العامل بجمع أهل القيروان وتحدث إليهم برقة وخوفهم من القائم بأمر الله، فخرجوا للقتال. وتسامع الناس في البلاد بذلك فجاءه المقاتلون من كل ناحية. وكان أهل المدائن والقرى لما سمعوا تفرق عساكر أبي يزيد أخذوا عماله، فمنهم من قتل ومنهم من أرسل إلى القائم بأمر الله في المهدية. وثار أهل ـ سوسة ـ فقبضوا على جماعة من أصحابه وأرسلوهم إلى القائم بأمر الله. فشكر لهم ذلك. وأرسل إليهم سبع مراكب من الطعام، فلما اجتمعت عساكر أبي يزيد، أرسل الجيوش إلى البلاد وأمرهم بالقتل والسبي والنهب والتدمير وإحراق المنازل، فوصلت قواته إلى

تونس، فدخلوها بالسيف، ونهبوا جميع ما فيها، وسبوا النساء والأطفال، وقتلوا الرجال، وهدموا المساجد، وهرب كثير من الناس إلى البحر، فغرق. وأسرع القائم بأمر الله فأرسل جيشاً إلى تونس، فخرج جيش أبي يزيد للقتال ووقعت معركة ضارية انتهت بهزيمة جيش القائم بأمر الله، وفصل الليل بين الجيشين. وانسحب جيش القائم بأمر الله إلى جبل الرصاص، ثم إلى اصطفورة. وقام جيش أبي يزيد بمطاردته فلحق به ودارت رحى معركة ثانية صبر فيها جند جيش القائم بأمر الله، فانهزم جيش أبي يزيد وقتل من جنده عدد كبير، وطاردوه حتى تونس، وأخرجوا من كان فيها من جند أبي يزيد، وقتل أكثرهم، وأخذ لهم من الطعام شيء كثير. وكان لأبي يزيد ولد اسمه ـ أيوب ـ فلما بلغه الخبر، وجه جيشاً كبيراً بقيادة ابنه، أيوب، وانضمت إليه فلول الجيش الممزق، وسار إلى تونس فقتل من عاد إليها، وأحرق ما بقي فيها، وتوجه إلى ـ باجة ـ فقتل من بها من أصحاب القائم بأمر الله، ودخلها بالسيف وأحرقها. ووقع في هذه المدة من القتل والسبي والتخريب ما لا يوصف، واتفق جماعة على قتل أبي يزيد، وأرسلوا إلى القائم، فرغبهم ووعدهم. وعلم أبو يزيد بأمرهم فقتلهم. وهجم رجال من البربر في الليل على رجل من أهل القيروان، وأخذوا ماله وثلاث بنات أبكار. فلما أصبح واجتمع الناس لصلاة الصبح، قام الرجل في الجامع. وصاح وذكر ما حل له. فقام الناس معه، وصاحوا، فاجتمع الخلق العظيم، ووصلوا إلى أبي يزيد فأسمعوه كلاماً غليظاً. فاعتذر إليهم وتلطف لهم، وأمر برد البنات، فلما انصرفوا وجدوا في طريقهم رجلاً مقتولاً، فسألوا عنه، فقيل لهم: **«إن فضل بن أبي يزيد قتله وأخذ امرأته وكانت جميلة»** فحمل الناس المقتول إلى الجامع، وقالوا: **«لا طاعة إلا للقائم بأمر الله»**. وأرادوا الوثوب بأبي يزيد، فاجتمع أصحاب أبي يزيد عنده، ولاموه، وقالوا له: **«فتحت على نفسك ما لا طاقة لك به، لا سيما والقائم قريب منا»**. فجمع أهل القيروان، واعتذر إليهم، وأعطاهم العهود أنه لا يقتل ولا ينهب ولا يأخذ الحريم. فأتاه سبي أهل تونس ـ وهم عنده ـ فوثبوا إليهم وخلصوهم.

كان ـ القائم بأمر الله ـ قد أرسل إلى مقدم من مقدميه ـ اسمه علي بن حمدون ـ وأمره بجمع الجند، وحشد من يستطيع حشده من ـ المسيلة ـ فجمع منها ومن سطيف

وغيرها، وأمكن له حشد جيش ضخم، وتبعه بعض بني هراس، فاتجه ـ علي ـ بجيشه إلى المهدية. وعلم أيوب بن أبي يزيد ـ وهو بمدينة باجة ـ بتحرك هذا الجيش، فقاد قواته وانقض بصورة مباغتة على جيش علي وهو في معسكره. فاستباح المعسكر، وقتل من استطاع قتله من جنده. وغنم أثقال الجيش، وهرب علي مع فلول جيشه الممزق. ثم علم أيوب أن قوة من جيش المهدي قد خرجت من المهدية نحو تونس، فقاد قوة من الفرسان الخفيفة، وسار بها بسرعة حتى وصل إلى هذه القوة واصطدم بها، ووقعت بين القوتين معركة ضارية قتل فيها جمع كبير من الطرفين، إلا أن قوة أيوب هي التي انتصرت، وانهزم جند القائم بأمر الله، ولكنهم اعادوا تنظيم قوتهم وخاضوا معركة ثانية، وتبعتها معركة ثالثة، ثم قرروا خوض معركة حاسمة، وعزموا على الموت، وحملوا حملة رجل واحد. فانهزم أصحاب أبي يزيد، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأخذت أثقالهم وعددهم. وانهزم أيوب وأصحابه إلى القيروان. وعظم ذلك على أبي يزيد، وأراد أن يهرب عن القيروان. فأشار عليه أصحابه بالتوقف وعدم التسرع. فعمل على حشد جيش كبير، وأخرج ابنه أيوب ثانية لقتال علي بن حمدون بمكان يقال له ـ بلطة ـ. ووقعت مجموعة من المعارك البعيدة عن الحسم ـ فمرة يظفر أيوب ومرة يظفر علي بن حمدون ـ. وكان علي قد عهد إلى من يثق به لحراسة المدينة. وكان يحرس باباً منها رجل اسمه ـ أحمد ـ فراسل أيوب في التسليم إليه مقابل مال يأخذه، فأجابه أيوب إلى ما طلب. وقاتل على ذلك الباب، ففتحه أحمد، ودخله أصحاب أبي يزيد فقتلوا من كان بها، وهرب علي بن حمدون ومعه ثلاثمائة فارس وأربعمائة راجل ـ مشاة ـ إلى بلاد كتامة. وكتب إلى قبائل كتامة ونفزة ومزاتة وغيرهم، فاجتمعوا وعسكروا على مدينة ـ قسنطينة ـ. فوجه علي بن حمدون قوة إلى هوارة، فقتلوا هوارة وغنموا أموالهم. وكان اعتماد أبي يزيد عليهم. فاتصل الخبر بأبي يزيد، فوجه إليهم جيشاً كبيراً وقسمه إلى مجموعات مقاتلة يتبع بعضها بعضاً. فكانت بينهم حروب كثيرة كان النصر فيها لعلي بن حمدون، فيما كان القائم بأمر الله قد وجه قواته الى تيجس وباغاية، فاستولى عليهما، وقضى على قوات أبي يزيد التي كانت تدافع عنهما.

حاول أبو يزيد الانتقام لهزائمه، فحشد جيشاً سار به إلى ـ سوسة ـ. وحاصر فيها

جيشاً قوياً من جيوش القائم بأمر الله، وانصرف لقتاله كل يوم، فكان النصر من نصيبه في يوم، والهزيمة من نصيبه في اليوم التالي، وهكذا، وعمل الدبابات والمنجنيقات فقتل من أهل سوسة خلق كثير. **وأصاب المرض القائم بأمر الله، فعهد بالملك من بعده لابنه، ولم يلبث أن توفي(*) فقام بالأمر بعده ابنه اسماعيل، وتلقب بالمنصور بالله، وكتم موت أبيه خوفاً من أن يعلم بذلك أبو يزيد. وأبقى الأمور على حالها، ولم يتسمَّ بالخليفة، ولم يغير السكة ولا الخطبة ولا البنود، وبقي على ذلك إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد.**

وكان أول ما فعله المنصور بعد وفاة أبيه أن صنع المراكب وشحنها بالرجال، ووجهها من المهدية، إلى سوسة بقيادة الكاتب رشيق ويعقوب بن إسحق وأمرهما أن لا يقاتلا حتى يأمرهما، ثم سار من الغد نحو سوسة ولم يعلم أصحابه ذلك، فلما انتصف الطريق علموا، فتضرعوا إليه وسألوه أن يعود، وألا يخاطر بنفسه، فعاد وأرسل الى رشيق ويعقوب ببدء القتال والجد فيه. فوصلوا إلى سوسة وقد أعدّ أبو يزيد الحطب لإحراق السور، وعمل دبابة عظيمة. وانضمت قوات المنصور الباقية في سوسة إلى القوات التي وصلت عن طريق البحر. وانطلقت لقتال جيش أبي يزيد الذي ركب للقتال بنفسه. واقتتلوا واشتدت الحرب، وانهزم بعض أصحاب المنصور حتى دخلوا المدينة، فألقى رشيق النار في الحطب الذي جمعه أبو يزيد وفي الدبابة، فاشتعلت النار وأظلم الجو بالدخان. فلما رأى أبو يزيد وأصحابه ذلك خافوا وظنوا أن جندهم في تلك الناحية قد هلكوا، ولهذا تمكن أصحاب المنصور من إحراق الحطب، إذ لم ير بعضهم

(*) القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبدالله المهدي العلوي صاحب افريقية - توفي لثلاث عشرة مضت من شوال سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م. قال عنه الحافظ أبو عبدالله الذهبي: «كان القائم شراً من أبيه المهدي، زنديقاً ملعوناً، وذكر القاضي عبدالجبار أنه أظهر سب الانبياء عليهم السلام. وكان مناديه ينادي العنوا الغار وما حوى. وقتل خلقاً من العلماء. وكان يراسل أبا طاهر القرمطي إلى البحرين وهجر، ويأمره باحراق المساجد والمصاحف» وقال ابن مسكويه تعليقاً على ذلك: «ان التدبير إذا بني على أصول خارجة عن الصواب، وإن خفي في الابتداء، ظهر على طول الزمان. ومثل ذلك مثل من ينحرف عن جادة الطريق انحرافاً يسيراً، ولا يظهر انحرافه في المبدأ، حتى إذا طال به المسير، بعد عن السمت. وكلما ازداد امعاناً في السير، زاد بعده عن الجادة، وظهر خطأه، وتفاوت أمره».

بعضاً. فانهزم أبو يزيد وأصحابه، وخرج جند المنصور فوضعوا السيف فيمن تخلف من البربر، وأحرقوا لهم خيامهم. ومضى أبو يزيد هارباً بسرعة حتى وصل القيروان ولما أراد دخولها منعه أهلها، ورجعوا إلى دار عامله فحصروه وأرادوا كسر الباب، فنثر الدنانير على رؤوس الناس، فاشتغلوا عنه، فخرج إلى أبي يزيد. وأخذ أبو يزيد امرأته أم أيوب، وتبعه أصحابه بعيالاتهم، ورحلوا إلى ناحية سبيبة ـ وهي على مسافة يومين من القيروان؛ فنزلوها.

علم المنصور بما فعله أهل القيروان، فزال غضبه عنهم، وسرته فعلتهم بأبي يزيد، فسار من المهدية إلى ـ سوسة ـ. وكتب كتاباً إلى أهل القيروان، أعطاهم فيه الأمان، فطابت نفوسهم وسكنت، ثم سار من سوسة إلى القيروان، فخرج أهلها لاستقباله، فعاد وأمنهم ووعدهم خيراً، ووجد في القيروان من حـرم أبي يزيد وأولاده جماعة، فحملهم إلى المهدية، وأجرى عليهم الأرزاق. وانقطعت الأخبار عن أبي يزيد، فوجه سرية استطلاع لمعرفة أخبار القيروان. وعلم المنصور فوجه سرية لمقاتلتها، فالتقوا واقتتلوا، ووجه قائد سرية أبي يزيد قوة لنصب كمين، ثم هاجم سرية المنصور وتظاهر بالانسحاب فطاردته سرية المنصور حتى موضع الكمين، وتعرض أكثر أفراد السرية للقتل. وتسامع الناس بأخبار هذه الوقعة، فتسارعوا إلى أبي يزيد، وانضموا إليه، فكثر جمعه، وعاد بقواته لمهاجمة القيروان. وكان المنصور قد أمر بحفر خندق على معسكره. فوزع أبو يزيد جيشه على ثلاث فرق. وتوجه هو بشجعان رجاله إلى خندق المنصور. فاقتتلوا، وعظم الأمر، وكان الظفر للمنصور، ثم عاودوا القتال، فباشر المنصور القتال بنفسه وجعل يحمل يميناً وشمالاً والمظلة على رأسه كالعلم ومعه خمسمائة فارس وأبو يزيد في مقدار ثلاثين ألفاً. فانهزم أصحاب المنصور هزيمة منكرة حتى دخل عليهم جند أبو يزيد خندقهم ونهبوه وبقي المنصور وليس معه أكثر من عشرين فارساً. وأقبل أبو يزيد نحو المنصور، فلما رآه أشهر سيفه، وثبت مكانه، وحمل بنفسه على أبي يزيد حتى كاد يقتله، وولى أبو يزيد هارباً، وقتل المنصور من أدركه منهم. وأرسل من يعيد إليه جنده، فعادوا، وكان بعضهم قد سار على طريق المهدية، وسلك آخرون طريق سوسة. واستمر القتال حتى الظهر، وقتل من الجندين عدد كبير، **وكان**

يوماً من الأيام المشهورة لم يكن في ماضي الأيام مثله. ورأى الناس من شجاعة المنصور ما لم يظنوه، فزادت هيبته في قلوبهم. ورحل أبو يزيد عن القيروان، ثم أعاد تنظيم قواته ورجع إلى القيروان، فلم يخرج لقتاله أحد، ففعل ذلك غير مرة. ونادى منادي المنصور أن من أتى برأس أبي يزيد فله عشرة آلاف دينار. ثم عمل على حشد قواته، وزجها في القتال، فجرى قتال شديد، فانهزم جيش المنصور، فأعاد تنظيم قواته وهاجم وانتصر. ثم افترق الجيشان وقد انتصف بعضهم من بعض، وقتل بينهم جمع عظيم. وعادت الحرب فكانت راية النصر تنتقل نوباً، مرة لهذا، ومرة لهذا. وعمل أبو يزيد على ارسال السرايا، لقطع الطريق بين المهدية والقيروان وسوسة. ثم إنه أرسل إلى المنصور وطلب منه أن يسلم إليه حرمه وعياله الذين خلفهم بالقيروان وأخذهم المنصور، ووعده إن فعل ذلك دخل في طاعته على أن يؤمنه وأصحابه. وحلف له بأغلظ الأيمان على ذلك. فأجابه المنصور إلى ما طلب، وأحضر عياله وسيرهم إليه مكرمين بعد أن وصلهم وأحسن كسوتهم وأكرمهم. فلما وصلوا إليه، نكث جميع ما عقده، وقال: «**إنما وجههم خوفاً مني**». ومضت بقية أيام سنة ٣٣٤ هـ، ودخلت سنة **٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م** وهم على حالهم في القتال. **وجرى مع بداية العام الجديد قتال بين الفريقين ما سمع بمثله**. فقد قاد أبو يزيد جيشه في هجوم عنيف، وانقضَّ البربر على المنصور الذي رد عليهم بهجوم مضاد، وراح يضرب فيهم فانهزموا منه بعد أن قتل خلق كثير. فلما انتصف المحرم، أعاد المنصور تنظيم قواته، فجعل في الميمنة أهل افريقية وجعل كتامة في الميسرة ووقف هو وجنده الخاص في القلب. فوقع بينه وبين جيش أبي يزيد قتال شديد. وحمل أبو يزيد على الميمنة فهزمها، ثم حمل على القلب فبادر إليه المنصور، وقال: «**هذا يوم الفتح إن شاء الله تعالى**». وحمل هو ومن معه حملة رجل واحد، فانهزم أبو يزيد، وأخذت السيوف أصحابه فولوا منهزمين، وأسلموا أثقالهم. وهرب أبو يزيد على وجهه فقتل من أصحابه ما لا يحصى. فكان ما أخذه أطفال القيروان من رؤوس القتلى عشرة آلاف رأس وسار أبو يزيد إلى ـ تاه مديت ـ. وأعاد المنصور تنظيم قواته، وتجهز لمطاردته. واستخلف على المهدية ـ مذام الصقلي ـ. وسار نحو مدينة ـ باغاية ـ حيث علم أن أبا يزيد قد عمل على

حصارها لأنها أغلقت أبوابها في وجهه عندما سار إليها منهزماً بعد معركته السابقة. فأدركه المنصور ـ وقد كاد يفتحها ـ. فلما قرب منه، هرب أبو يزيد. ومضى يبحث عن مكان يتحصَّن فيه، فكان كلما قصد موضعاً وجد أن المنصور قد سبقه إليه، حتى وصل طبنة. والتقى المنصور هناك برسل بعث بهم ـ محمد بن خزر الزناتي ـ وهو من أعيان أصحاب أبي يزيد. وقد جاؤوا بطلب الأمان، فأمنه المنصور، وأمره أن يرصد تحركات أبي يزيد، الذي استمر في الهرب حتى وصل إلى جبل للبربر ـ يسمى برزال ـ وأهله على مذهب أبي يزيد، وسلك رمال الصحراء ليختفي أثره. فاجتمع معه خلق كثير، فعاد بهم إلى نواحي ـ مقبرة ـ والمنصور بها. فعمل أبو يزيد على نصب الكمائن. ووزع جنده فيها. فلما وصل المنصور كشف أمر الكمائن. وتقدم منها حذراً. فعمل أبو يزيد عندها على إعادة تجميع قواته وتنظيمها وقادها إلى المعركة. جرى قتال صاخب انهزمت فيه ميمنة المنصور، فقام المنصور بنفسه بقيادة هجوم مضاد، هزم فيه أبو يزيد، وأسلمته هزيمته الى جبل ـ سارات ـ فتابع المنصور طريقه لمطاردته حتى دخل مدينة المسيلة، ثم سار في أعقاب أبي يزيد عبر جبال وعرة وأودية سحيقة خشنة الأرض. لكن الأدلاء منعوه من التوغل في أرض لم يسلكها من قبل جيش قط. وان ما وراء ذلك رمال بلاد السودان وقفارها، وليس فيها عمارة. وأن أبا يزيد اختار الموت جوعاً وعطشاً على القتل بالسيف. ورأى المنصور صعوبة الحصول على التموين لجيشه، فقرر العودة إلى بلاد صنهاجة. ووصل إلى موضع يقال له ـ قرية دمرة ـ فاتصل به الأمير زيري بن مناد الصنهاجي الحميري ومعه مقاتلو صنهاجة ـ وزيري هذا هو جد بني باديس ملوك افريقية فيما بعد ـ. فأكرمه المنصور وأحسن إليه. كما وصل إلى المنصور كتاب من ـ محمد بن خزر ـ أعلمه فيه عن مكان أبي يزيد في الصحراء. ولكن المنصور أصيب بوعكة منعته من التحرك، فلما أفاق من مرضه، رحل إلى ـ المسيلة ـ فوجد أن أبا يزيد قد سبقه إليها، وأقام على حصارها، فلما بلغه تقدم المنصور بجيشه هرب منه نحو بلاد السودان. لكن بني كملان خدعوه ومنعوه من الاستمرار في الهرب، فصعد إلى جبال كتامة وعجيسة وغيرها، وتحصن بها، واجتمع إليه أهلها، وصاروا ينزلون يتخطفون الناس. فسار المنصور إليه، فلم ينزل أبو يزيد لقتاله، فلما

عاد قام أبو يزيد بالانقضاض على مؤخرة جيش المنصور ـ ساقته ـ فرجع المنصور ووقعت المعركة، وانهزم أبو يزيد واستسلم أولاده وأصحابه للأسر. ولحق به فارسان، فعقر فرسه وسقط عنه، فأركبه بعض أصحابه، ولحقه زيري بن مناد فطعنه فألقاه، وكثر القتال عليه، فخلصه أصحابه وخلصوا معه. وتبعهم جند المنصور فقتلوا منهم ما زاد على عشرة آلاف مقاتل. ثم سار المنصور في أثره، فاقتتلوا أيضاً أشد قتال. ولم يقدر أحد الفريقين على الانتصار لضيق المكان وخشونته، ثم انهزم أبو يزيد أيضاً واحترقت أثقاله وما فيها. **وصعد جنده إلى قمم الجبال وأخذوا في دفع الصخور والقائها على جند المنصور. واشتد القتال حول المنصور حتى تماسك الجند بالأيدي، وكثر القتل حتى ظنوا أنه الفناء.** وافترقوا على السواء. والتجأ أبو يزيد إلى قلعة منيعة للكتاميين فاحتمى بها. وفي ذلك اليوم. أتى إلى المنصور جند له من كتامة ومعهم رجل ظهر في أرضهم وادعى الربوبية، فأمر المنصور بقتله. وأقبلت هوارة، وأكثر من كان مع أبي يزيد، يطلبون الأمان، فأمنهم المنصور. وسار إلى قلعة كتامة، فحصر أبا يزيد فيها، وفرق جنده حولها، فاشتبك جند أبي يزيد مع جنده بالنبال ـ السهام ـ وزحف إليها المنصور غير مرة، ففي آخرها ملك أصحابه بعض القلعة، وألقوا فيها النيران، وانهزم أصحاب أبي يزيد وقتلوا قتلاً ذريعاً. ودخل أبو يزيد وأولاده وأعيان أصحابه الى قصر في القلعة واجتمعوا فيه، فاحترقت أبوابه وأدركهم القتل. فأمر المنصور بإشعال النار في شعاب الجبل، وبين يديه، لئلا يهرب أبو يزيد. فصار الليل كالنهار. فلما كان آخر الليل، خرج أصحابه ـ وهم يحملونه على أيديهم ـ وانقضوا بهجوم صاعق. وتمكنوا من فتح ثغرة، ونزل من القلعة خلق كثير، فأخذوا أسرى. وأفادوا بخروج أبي يزيد. فأمر المنصور قوات للبحث عنه وقال: «ما أظنه إلا قريباً منا». فبينما هم كذلك، إذ جاء ثلاثة من أصحاب أبي يزيد وهم يحملونه. وحمل الى المنصور فسجد شكراً لله تعالى والناس يكبرون حوله. ومات أبو يزيد متأثراً بجراحه. فأمر المنصور بسلخ جلده وحشاه تبناً، ووضعه في قفص عمل له، ووضع معه قردين يلعبان عليه. وأمر بكتابة الكتب الى سائر البلاد بالبشارة. ثم خرج على المنصور عدد من الخوارج ـ منهم محمد بن خزر ـ وكان يريد نصرة أبي يزيد.

فظفر به المنصور وقتله (سنة ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م). وخرج أيضاً - فضل بن أبي يزيد، وأفسد وقطع الطريق فغدر به بعض أصحابه وقتله. وحمل رأسه الى المنصور. وعاد المنصور بعدها الى المهدية.

* * *

لقد صرفت ثورة أبي يزيد خلفاء المهدي عن كل تفكير للتوسع - نحو مصر - وشغلتهم بأنفسهم طوال ثلاث سنوات اتصل فيها القتال، واستنزفت حربها كل جهد. وتوفي الأخشيد(*) وثورة أبي يزيد في ذروة قوتها وشدتها، وجاء كافور الى حكم مصر، فلما انتهت ثورة أبي يزيد، انصرف المنصور لاعادة تنظيم أمور دولته التي أنهكتها الحرب. كما أن الصراع المستمر في جزيرة صقلية، تطلب تركيز جهد خاص واهتمام خاص للقضاء على حركات التمرد من جهة، ولمحاربة الروم من جهة ثانية - على نحو ما حدث في سنتي ٣٣٦ و ٣٤٠ هـ - ولقد استطاع المنصور توطيد دعائم دولته، غير أن المنية عاجلته(**) فمات ولما يحقق الهدف الكبير الذي وضعه المهدي لدولته وهو الاستيلاء على مصر.

(*) الأخشيد - هو لقب أبي‌بكر محمد بن طغج صاحب مصر (٢٦٨ - ٣٣٥ هـ = ٨٨١ - ٩٤٦ م) ولد ببغداد، ومات بدمشق، وكان له حكم مصر. وولي الأمر من بعده ابنه أبو القاسم أنوجور - وكان صغيراً. فاستضعفه قائد جند الأخشيد - كافور الخادم الاسود - فحكم عليه. وكان الأخشيد - ابن طغج - جباناً، شديد التيقظ في حروبه. وكان جيشه يحتوي على اربعمائة رجل وله خمسة آلاف مملوك، يحرسونه بالليل نوبة، كل نوبة ألفا مملوك، ويوكل بجانب خيمته، ثم لا يثق بعد ذلك فيمضي إلى خيم الفراشين فينام. ولقب **الأخشيد** هو لقب ملوك ما وراء النهر - إذ كان أصل ابن طغج من فرغانة - ولقب الأخشيد عندهم مثل لقب **قيصر** عند الروم ولقب **كسرى** عند الفرس ولقب **الافشين** عند أشر وسنة ولقب **خوارزم شاه** في خوارزم. ولقب **خاقان** عند الترك، ولقب **صول** عند أهل جرجان، ولقب **الاصبهبذ** في أذربيجان. **وسالار** في طبرستان. ولقب **أمير المؤمنين** عند المسلمين. وكان الأخشيد على مذهب الجبائي المعتزلي.

(**) المنصور بالله - أبو الطاهر اسماعيل بن القائم أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي - ثالث خلفاء الفاطميين (٣٠٢ - ٣٤١ هـ = ٩١٤ - ٩٥٢ م) كانت مدة خلافته سبع سنين وستة أشهر، وكان خطيباً بليغاً، يخترع الخطبة لوقته. اشتهر في حربه بالشجاعة والعقل. خلف خمس بنين وخمس بنات. وولي من بعده ابنه معد الذي تلقب بلقب المعز لدين الله - وكان عمره أربعاً وعشرين سنة.

ب ـ المعز لدين الله في مصر والشام.

مضى على قيام الدولة العلوية ـ الفاطمية ـ زهاء نصف قرن عندما انتهت إليه الخلافة، وسبقه في هذه الخلافة ثلاثة: المهدي فالقائم فالمنصور، وأصبح بنيان الدولة محكماً، فكان أول ما عمله المعز لدين الله وقد آلت إليه الخلافة، أن أعاد تنظيم إدارة مملكته، ثم انطلق بجولة في بعض أرجاء مملكته، فصعد جبال أوراس، التي بقيت ملجأ وملاذاً لكل خارج على سلطة الدولة، وفيها بنو كملان ومليلة وقبيلتان من هوارة ممن لم يدخلوا في طاعة من تقدمه، فأطاعوا المعز ودخلوا معه البلاد. وأمر نوابه بالإحسان إلى البربر، فلم يبق منهم أحد إلا أتاه. وأحسن إليهم المعز وعظم أمره. وكان في جملة من استأمن إليه ـ محمد بن خزر الزناتي، أخو معبد، فأمنه المعز وأحسن إليه.

ولكن أقاصي المغرب بقيت بعيدة عن سيطرة العلويين ـ الفاطميين ـ فقرر المعز اخضاعه ونظم جيشاً كثيفاً، أسند قيادته إلى جوهر الصقلي ـ أبي الحسن ـ والذي كان قد علت مرتبته وأصبح وزيراً وكلفه بالتوجه إلى المغرب، وضم إليه قوات من القبائل مع امرائها وفي طليعتهم ـ زيري بن مناد الصنهاجي ـ. فسار جوهر إلى ـ تاهرت ـ حيث جاءه ـ يعلى بن محمد الزناتي ـ فأكرمه جوهر وأحسن إليه، غير أن يعلى الزناتي عاد فأعلن تمرده، فقبض عليه جوهر، وثار رجال يعلى، فقاتلهم جوهر وهزمهم وقام بمطاردتهم حتى مدينة ـ أفكان ـ ودخلها بالسيف، ونهبها ونهب قصور يعلى، وأخذ ولده ـ وكان صبياً ـ فأسره. وأمر بهدم ـ أفكان واحراقها بالنار. ثم سار منها إلى مدينة ـ فاس ـ وكان أميرها أحمد بن بكر ـ فقام بإغلاق أبواب مدينته واعتصم فيها، وألقى جوهر الحصار على ـ فاس ـ وقاتل أهلها مدة، فلم يظفر بها. ووصلته هدايا الأمراء الفاطميين وهو بأقاصي السوس، واشاروا على جوهر وأصحابه بالرحيل إلى سجلماسة. حيث كانت قد مضت فترة ستة عشر عاماً على أميرها، محمد بن واسول، وهو مستقل بحكمها، وتلقب بلقب الشاكر لله وخوطب بأمير المؤمنين وضرب النقود باسمه، فلما علم محمد بن واسول بتوجه جوهر نحوه، هرب من سجلماسة، ثم أراد الرجوع إليها، فلقيه، أقوام وأخذوه أسيراً وحملوه إلى جوهر. ومضى جوهر حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ـ وأمر أن يصطاد له من سمكه، ووضع الصيد في قلال

ـ جرار ـ ماء، وأرسلها إلى المعز. وسار في تلك البلاد جميعها، فافتتحها وعاد إلى فاس، فقاتلها مدة طويلة. فعمل زيري بن مناد الصنهاجي ـ وكانت الامارة نوباً بينه وبين جوهر ـ على اختيار مجموعة من أشداء رجاله، وأمرهم بأخذ السلاليم والانقضاض على ـ فاس ـ. فصعد الرجال إلى السور الأدنى في السلاليم، وأهل فاس آمنون، وقتلوا من وجدوا عليه من المقاتلة، ونزلوا إلى السور الثاني، وفتحوا الأبواب، وأشعلوا المشاعل، وضربوا الطبول، فلما سمعها جوهر ركب في جنده، ودخل فاس، فاختفى حاكمها، إلا أنه أمكن العثور عليه واعتقاله بعد يومين ـ فوضع مع حاكم سجلماسة، ثم حملا في قفصين إلى المعز بالمهدية. واعطيت امارة تاهرت إلى زيري بن مناد الصنهاجي ـ وعاد جوهر ظافراً (في رمضان سنة ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م).

لم يكن باستطاعة الحاكم العلوي ـ المعز لدين الله ـ المغامرة باقتحام مصر، وقد عرف أن حاكمها ـ كافور الاخشيدي ـ (*) قد أحكم الأمور فيها، حتى إن دعاته في مصر كتبوا له: «**إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعز الدنيا كلها ـ ويعنون بالحجر الأسود الاستاذ كافوراً الأخشيدي الخصي**». وكان كافور يومئذ أمير مصر نيابة عن ابن الأخشيد، وعن أمير الشام الحسن بن عبيد الله بن طغج، وكان الحسن هذا هو الأمير إلا أنه كان ضعيفاً رخواً، فطمع الجنود فيه وكرهوه وكرههم، مما ساعد كافوراً على أن يستبد بالحسن ويتحكم فيه. وأفاد داعية المعز في القاهرة ـ أبو جعفر بن نصر ـ من هذا

(*) أبو المسك الاستاذ كافور الحبشي الأسود الخصي الخادم الاخشيدي. اشتراه الأخشيد وتقدم عنده حتى صار من اكبر قواده لعقله ورأيه وشجاعته، ثم صار اتابك ـ قائد جيش ـ ولده من بعده، وكان صبياً، فبقي الاسم لأبي القاسم أنوجور والحكم لكافور، فأحسن سياسة الأمور حتى مات أنوجور سنة ٣٤٩ هـ. وأقام كافور في الملك بعده أخاه علياً حتى مات هذا في بداية سنة ٣٥٥ هـ وأصبح كافور هو أمير مصر. وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم. وقصته مع المتنبي من القصص الشهيرة. وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله ندماء. وكان عظيم الهيبة، وله حجاب يمتنع عن الامراء، وله جوار مغنيات، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد، وكان كريماً كثير الخلع والهبات، خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جَيد العقل داهية، وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس وكان يتهجد، ويمرغ وجهه ساجداً، ويقول: «اللهم لا تسلط علي مخلوقاً». مات سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٦ م.

الموقف، فتقرب إلى الحسن، وضمه إلى الشيعة، وقال له: «**هؤلاء القوم قد طمعوا فيك، والمعز لك مثل الوالد، فإن شئت كاتبته ليشد منك، ويكون من وراء ظهرك**» فرد عليه الحسن: «أي والله، قد أحرقوا قلبي». وكتب إلى المعز يخبره. وأراد المعز الاستجابة لطلب الحسن، والافادة من هذه الفرصة، لكن أم المعز منعته من ذلك، وسألته تأخير كل عمل لتحج خفية - وتستطلع أحوال مصر - فأجابها. وحجت، فلما وصلت إلى مصر، علم الاستاذ كافور الاخشيدي، فجاء إليها وخدمها وحمل إليها الهدايا، وبعث في خدمتها أجناداً، فلما رجعت من حجها، منعت ولدها المعز من غزو مصر. ثم تطورت الأحداث لمصلحة المعز لدين الله، فقد تحرك الروم وقاموا بغزو بلاد الشام، واستولوا على الثغور وطرسوس وانطاكية وأذنة وعين زربة والمصيصة وغيرها. وفرح المعز بمصاب المسلمين. وبلغه أن بني بويه قد غلبوا على بني العباس، حتى لم يعد لامراء المسلمين العباسيين أمر ولا نهي، فاشتد طمعه في البلاد. ومات كافور الاخشيدي فاختلفت القلوب في مصر، ووقع بها غلاء شديد، **وامتلأت البلاد رفضاً وتشيعاً وسباً للصحابة. ففي بغداد أصبح معز الدولة البويهي - والبويهيون من الشيعة - هو المستبد بأمور الدولة، واستبد بنو حمدان ببلاد الشام. وتحكم العلويون بإفريقية، والقرامطة يعيثون في الأرض فساداً - وكل ملوك البلاد - مصراً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد كانوا رفضاً، وكذلك الحجاز وغيره، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة**. وباتت كل الظروف مناسبة للاستيلاء على مصر - فشرع المعز لدين الله بالعمل لاغتنام الفرصة.

جهز المعز لدين الله جيشاً ضخماً من مائة ألف مقاتل، وعين لقيادته وزيره جوهر الصقلي. وأصحبه من الأموال والخزائن ما لا يحصى، وأطلق يده في جميع ذلك، وأفرغ الذهب في صور الأرحاء - حجر الطاحون - وحملها على الجمال لعظم ذلك في قلوب الناس (*). وسار جوهر بجيشه، فلما اتصل خبر مسيره إلى جند الجيش

(*) وفي ذلك قال شاعر الأندلس محمد بن هانىء قصيدته المشهورة وهي:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الافق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

الاخشيدي بمصر، هربوا عنها جميعهم قبل وصوله، ثم إنه وصلها يوم ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م. وأقيمت الدعوة للمعز في الجامع العتيق ولما كان يوم الجمعة من منتصف شهر رمضان، صعد جوهر خطيباً، وخطب ودعا لمولاه المعز بإفريقية. ثم سار إلى جامع ابن طولون، **وأمر المؤذن فأذن (بحيَّ على العمل) بدلاً من (حي على الفلاح) وهو أول ما أذن بمصر - وجهر في الصلاة (ببسم الله الرحمن الرحيم).**

ولما استقر جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة. وانصرف جوهر لاعادة تنظيم الأمور في مصر. فلما شعر أن الأمور قد استقرت له. وجه جيشاً إلى بلاد الشام بقيادة أحد قادته - جعفر بن فلاح الكتامي -. فسار جعفر حتى وصل - الرملة - فاصطدم بجيش قاده - أبو محمد الحسن بن عبيدالله بن طغج - وجرت بينهما وقائع ومعارك كان الظفر فيها لجعفر بن فلاح، وأسر ابن طغج وغيره من القواد، فسيرهم إلى جوهر الذي أرسلهم إلى المعز بإفريقية. ودخل جعفر بن فلاح عنوة إلى الرملة، فقتل كثيراً من أهل البلد، ثم أمن من بقي، وجبى الخراج، وسار إلى طبرية، فرأى أن أميرها - ابن ملهم - قد أقام الدعوة للمعز لدين الله، فسار إلى دمشق، فقاتله أهلها، فظفر بهم وملك البلد، ونهب بعضه وكف عن الباقي، وأقام الخطبة للمعز - يوم الجمعة لأيام خلت من المحرم سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م. وقطعت الخطبة العباسية. وثار أهل دمشق في الجمعة التالية بسبب قطع الدعاء للخليفة العباسي. فقاتلهم جعفر بن فلاح ومن معه قتالاً شديداً، وصبر أهل دمشق، ثم افترقوا آخر النهار. فلما كان الغد تزاحف الفريقان،

= فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
الا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولابات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائنا ... وإن سار عن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ... وزف كما زف الصباح الملمع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة ... بأيمن فال في الذي أنت تجمع
فإن يك في مصر ظماء لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لا يغار بنعمة ... فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

واقتتلوا، وكثر القتلى من الجانبين، ودام القتال، فعاد عسكر دمشق منهزمين. وقام الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي ـ وكان جليل القدر نافذ الحكم في أهل دمشق ـ فحرضهم على متابعة الحرب، وأمرهم بالصبر. وواصل المغاربة الحملات على الدماشقة حتى ألجؤوهم إلى باب البلد، ووصل المغاربة إلى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا. فلما رأى الشريف أبو القاسم ما لقي الناس من المغاربة، خرجوا من البلد ليلاً، فأصبح الناس حيارى. ولكن الشريف الجعفري خرج إلى جعفر بن فلاح بطلب الصلح، فأعاده ابن فلاح وأمره بتسكين الناس وتطييب قلوبهم. ووعدهم بالجميل، ففعل الشريف الجعفري ما أمر به. وتقدم إلى جند دمشق وإلى العامة بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها إلى أن يدخل جعفر بن فلاح البلد ويطوف فيه ويعود إلى معسكره خارج دمشق. ففعل أهل دمشق ذلك، ودخل المغاربة البلد وعاثوا فيه فساداً ونهبوا منه، فثار الناس وحملوا عليهم ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا منهم جماعة، وشرعوا في تحصين البلد وحفر الخنادق، وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس للدفاع عن البلد. وأحجمت المغاربة عنهم. ومشى الناس إلى الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى الهاشمي، فطلبوا منه أن يسعى فيما يعود بصلاح الحال، ففعل. وأمكن الوصول إلى اتفاق على الصلح. وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت الحرب. ودخل جعفر بن فلاح ومعه صاحب الشرطة إلى البلد، فصلى مع الناس صلاة الجمعة، وسكنهم وطيب قلوبهم، وقبض على جماعة من الذين اشتركوا في الثورة ـ وفي مقدمتهم الشريف أبو القاسم ـ وسيره إلى مصر. واستقر أمر دمشق، وأصبحت خاضعة لحكم المعز لدين الله.

ثورة الزناتي ضد المعز في أفريقية.

عندما كانت الأحداث تتتابع متسارعة بشكل مثير على جبهة الشام ومصر، حدثت ثورة ضد المعز في افريقية، فقد خرج فيها ـ أبو خزر الزناتي ـ واجتمع إليه جموع عظيمة من البربر والنكار ـ الثوار ـ فخرج المعز يريد قتاله بنفسه حتى بلغ مدينة ـ باغاية ـ. وكان أبو خزر قريباً منها وهو يقاتل نائب المعز عليها. فلما سمع أبو خزر بقرب المعز، تفرقت عنه جموعه. وسار المعز لمطاردته، فسلك أبو خزر الأوعار، فعاد

المعز وأمر أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بالمسير لمطاردته حيثما اتجه. فسار في أثره حتى خفي عليه خبره، ووصل المعز إلى مستقره بالمنصورية. وما هي إلا برهة حتى وصل إليه أبو خزر الزناتي مستأمناً وطالباً الدخول في طاعته. وقبل منه المعز ذلك وفرح به وأجرى عليه رزقاً كثيراً. ووصل عقيب ذلك أيضاً رسول من قبل جوهر أعلمه بإقامة الدعوة له في مصر والشام. ودعاه إلى المسير إليه، ففرح المعز فرحاً شديداً، أظهره لكافة الناس. ومدحه الشعراء (*).

انطلق دعاة الشيعة، من قاعدتهم الجديدة دمشق، لفرض سيطرتهم على بلاد الشام. وأمكن لهم في السنة التالية (٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م) فرض هيمنتهم على الحمدانيين، فخطب قرعوية ـ غلام سيف الدولة بن حمدان وأبو المعالي بن سيف الدولة، بالدعاء في حلب وحمص للمعز لدين الله العلوي صاحب المغرب ومصر. **وفي العاشر من المحرم من هذه السنة ذاتها (٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م) عملت الرافضة بدعتهم الشنعاء، فغلقت الأسواق في كل بلاد الإسلام. ودارت النساء سافرات عن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي رضوان الله عليهما، ويلطمن وجوههن وحج بالناس من العراق الشريف النقيب أبو أحمد الموسوي والد الرضي والمرتضى، والثلاثة رافضة، وهم محط رحال الشيعة في زمانهم.**

أصبح باستطاعة المعز لدين الله مغادرة عاصمته القديمة ـ المهدية ـ والانتقال إلى عاصمة مملكته الجديدة ـ القاهرة ـ. فقد مضت فترة زادت على الثلاث سنوات منذ أن دخل جوهر بجيشه إلى مصر. فانتقل المعز إلى سردانية ـ القريبة من القيروان ـ ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك، حتى ان الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين، وحمل كل طاحونتين على جمل، وسار عنها. واستعمل المعز على بلاد افريقية ـ يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري ـ إلا أنه لم يجعل له حكماً على جزيرة صقلية، ولا على مدينة

(*) من ذلك ما قاله الشاعر محمد بن هانىء الأندلسي:

يقول بنو العباس قد فتحت مصر ... فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر ... تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

طرابلس الغرب ولا على اجدابية وسرت. فعين حسن بن علي بن الحسين والياً على صقلية، وعين زيادة الله بن القديم لجباية أموال أفريقية، كما عين عبد الجبار الخراساني ـ عاملاً على الخراج، وأمرهم بالانقياد ليوسف بن زيري. ومضت على المعز لدين الله فترة ستة أشهر وهو بسردانية أمكن له خلالها إعادة تنظيم أمور دولته، ثم رحل عنها ومعه يوسف بلكين وهو يوصيه بما يفعله، وسار إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه، فهرب منه بها جمع من عسكره ممن لم يرغبوا في الرحيل إلى مصر، ولجؤوا إلى جبال نفوسة، فبعث قوة للبحث عنهم، فلم يتمكنوا من العثور عليهم. ثم سار إلى مصر. فلما وصل إلى برقة، ومعه الشاعر الاندلسي محمد بن هانيء، فمدحه وغالى في مدحه (*) ثم سار المعز حتى وصل إلى الاسكندرية، وأتاه أهل مصر وأعيانها، فلقيهم وأكرمهم وأحسن إليهم. وسار بعد ذلك فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م وأنزل جنده في معسكرات مصر والقاهرة، وبقي كثير منهم في الخيام.

لقد كان انتقال المعز إلى القاهرة هو بداية لمتاعب ومشكلات جديدة على جبهتي الشرق والغرب، ولكن نواب المعز الاكفاء استطاعوا معالجة المواقف المختلفة.

(*) محمد بن هانيء أبو القاسم، وقيل أبو الحسن الأزدي الأندلسي، وذكر أنه من من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، وقيل: بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم. وكان أبوه من قرية من قرى المهدية، وكان شاعراً أديباً ـ مثله في المغرب كمثل المتنبي في المشرق. وكان حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم، واتصل بأمير أشبيلية، وحظي عنده، إلا أنه كان كثير الانهاك في اللذات، متهماً بمذهب الفلاسفة. ولما اشتهر عنه ذلك، نقم عليه أهل إشبيلية، واتهم أمير إشبيلية باتباعه لمذهبه، فأشار على ابن هانيء بالغيبة عن البلد مدة حتى ينسى خبره. فخرج إلى عدوة المغرب وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة. وضمه المعز إليه وبالغ في اكرامه. ومدح ابن هانيء ـ المعز ـ بقصائد شهيرة، وعندما سار المعز إلى القاهرة، خرج معه ابن هانيء مشيعاً، ثم عاد لأخذ عياله والالتحاق به، فقتل غيلة في أواخر رجب سنة ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م. ووجدت جثته على جانب البحر، ولا يدري أحد من قتله. ومن شعره في مدح المعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وكذلك:

حل برقادة المسيح ... حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالي ... فكل شيء سواه ريح

فعل جبهة الغرب، انصرف - يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري - بعد وداع المعز، فأقام بمدينة المنصورية يعقد الولايات للعمال على البلاد، ثم سار في البلاد، وباشر الأعمال، وطيب قلوب الناس. واجتمعت صنهاجة ومن والاها على طاعته. واستعان بأهله. فقد كان جده - مناد - كبيراً في قومه كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمر به. وجاء ابنه - بلكين - فكان من رجال الحرب الأشداء، وكذلك زيري. فكان - ليوسف - عون كبير في هؤلاء، فاتسع ملكه، وعلت مكانته، مما اثار غيرة - **زناتة** - فجمعت جموعها وسارت لحربه، فتصدى - **زيري** - لحربها. وقاد قواته، وباغت زناتة وهي غافلة بأرض مغيلة، فقتل منهم كثيراً، وغنم ما معهم، فكثر أتباعه حتى ضاقت الأرض بهم، وقالوا له: «لو اتخذت لنا بلداً غير هذا» فسار بهم إلى موضع مدينة أشير، فرأى ما فيه من العيون فاستحسنه وبنى فيه مدينة أشير، وسكنها هو وأصحابه (سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م). وكانت زناتة تفسد في البلاد، فإذا هوجمت احتمى رجالها بالجبال والبراري. فلما بنيت أشير، صارت صنهاجة بين البلاد وبين زناتة والبربر، وعلم - زيري - بما تمارسه - غمازة - من الفساد، واستحلال رجالها للمحرمات، وأنه قد ظهر فيهم نبي. فسار إليهم وغزاهم وظفر بهم وأخذ الذي كان يدعي النبوة أسيراً وأحضر الفقهاء، فقتله. ثم إن زناتة حصرت مدينة أشير، فجمع لهم زيري - جموعاً كثيرة، وجرى بينهم عدة وقعات، قتل فيها كثير من الفريقين، ثم ظفر بهم واستباحهم. وأمر - يوسف بن زيري - بنقلهم إلى قرب مدينة أشير، فبنوا عندها مدينة سموها (**تلمسان**). وظهر بجبل اوراس رجل اسمه - سعيد بن يوسف - أعلن تمرده على المنصور، وزاد جمعه، فوجه اليه - زيري - جيشاً بقيادة ابنه بلكين، فلقيه عند - باغاية - واقتتلوا، فقتل الخارجي ومن معه من هوارة وغيرهم - مما زاد من مكانته عند المعز. ثم إن بلكين بن زيري، قصد - محمد بن الحسين بن خزر الزناتي - وقد خرج عن طاعة المعز، وكثر جمعه وعظم شأنه، فظفر به، واكثر القتل في أصحابه. فسر المعز بذلك سروراً عظيماً، إذ كان يخشى من قوة يوسف بلكين وكثرة أتباعه مما يمكنه من التغلب على أهله فيما لو اتفق مع زناتة - فلما تمكن العداء بين صنهاجة وزناتة، صار باستطاعة المعز أن يزيد من دعمه ليوسف بلكين - دون خوف من قوته المتعاظمة.

ولكن هذا الدعم قد أثار غضب أمير مدينة مسيلة ـ جعفر بن علي ـ ففارق بلاده ولحق بزناتة، فقبلوه قبولاً عظيماً وملكوه عليهم، فأعلن عصيانه على المعز، فسار ـ زيري ـ في جمع كثير من صنهاجة وغيرهم، فالتقوا واشتد القتال بينهم ـ وكبا بزيري فرسه، فوقع فقتل. ورأى جعفر من زناتة تغيراً عن طاعته، وندماً على قتل زيري، فقال لهم: « إن ابنه يوسف لن يترك ثأر أبيه، ولا يرضى بمن قتل منكم، والرأي أن نتحصن بالجبال المنيعة والأوعار » فأجابوه إلى ذلك، أما هو، فحمل ماله وأهله في المراكب، وسار بهم إلى الاندلس، حيث أحسن الأمير الأموي استقباله وأكرمه وأحسن إليه. ثم إن ـ يوسف ـ جمع فأكثر وقصد زناتة واكثر القتل فيهم وسبى نساءهم وغنم أولادهم. وأمر أن يجعل القدور على رؤوسهم ويطبخ فيها. ولما علم المعز بذلك سره أيضاً وزاد في اقطاعه المسيلة والزاب وما تبعهما من النواحي. وفي تلك السنة أيضاً (٣٦٤ هـ = ٩٧٤ م) ظهر رجل اسمه ـ خلف بن حسين ـ وتحصن بقلعة منيعة، واجتمع إليه خلق كثير من البربر وغيرهم. فسار إليهم يوسف، ونازل القلعة، وحاربه، فقتل بينهما عدة قتلى، وافتتحها، وهرب خلف بن حسين، وقتل ممن كان بها خلق كثير، وبعث إلى القيروان من رؤوسهم سبعة آلاف رأس، ثم قبض على خلف، وأمر به فطيف به على جمل، ثم صلب وسير رأسه إلى مصر. وهدأ المغرب واستقرت أموره.

أما على جبهة الشرق، فقد خاض الحكم العلوي صراعاً ضد العباسيين من جهة، وضد منافسيه من الشيعة ـ آل بويه والقرامطة ـ. ولقد سبق التعرض لنموذج من هذا الصراع في بحث ـ القرامطة ـ وتجدر الاشارة هنا إلى ما قام به ـ الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي، عندما علم باستيلاء جوهر الصقلي على مصر والشام، وقدوم المعز إلى القاهرة. فقد توجه الحسن هذا الى بغداد، وسأل أمير المؤمنين ـ المطيع لله العباسي ـ عن طريق وزيره الشيعي عز الدولة بختيار ـ أن يمده بمال ورجال، ويوليه الشام ومصر، ليخرج المعز منها، فامتنع أمير المؤمنين من ذلك ـ وقال: **« كلهم قرامطة وعلى دين واحد، فأما المصريون ـ يعني بني عبيد المهدي ـ فأماتوا السنن، وقتلوا العلماء، وأما هؤلاء ـ يعني القرامطة ـ فقتلوا الحجاج وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا ما فعلوا »**. ولكن بختيار ـ أعطاه مالاً

وسلاحاً بصورة سرية ـ فسار القرمطي ـ ومعه اعلام سود ـ وأظهر أن أمير المؤمنين قد ولاه ـ وكتب على الأعلام اسم ـ المطيع عبد الكريم، وتحته مكتوب ـ السادة الراجعون إلى الحق ـ. وعندما ملك القرمطي بلاد الشام، ودخل دمشق، لعن المعز على منبر دمشق وأباه وقال: **«هؤلاء من ولد القداح ـ كذابون مخترقون، اعداء الإسلام ونحن أعلم بهم. ومن عندنا خرج جدهم القداح»** ثم أقام القرمطي الدعوة لبني العباس، وسار إلى مصر بعساكره. غير أن المعز تمكن من الانتصار عليه، وعاد فدخل دمشق.

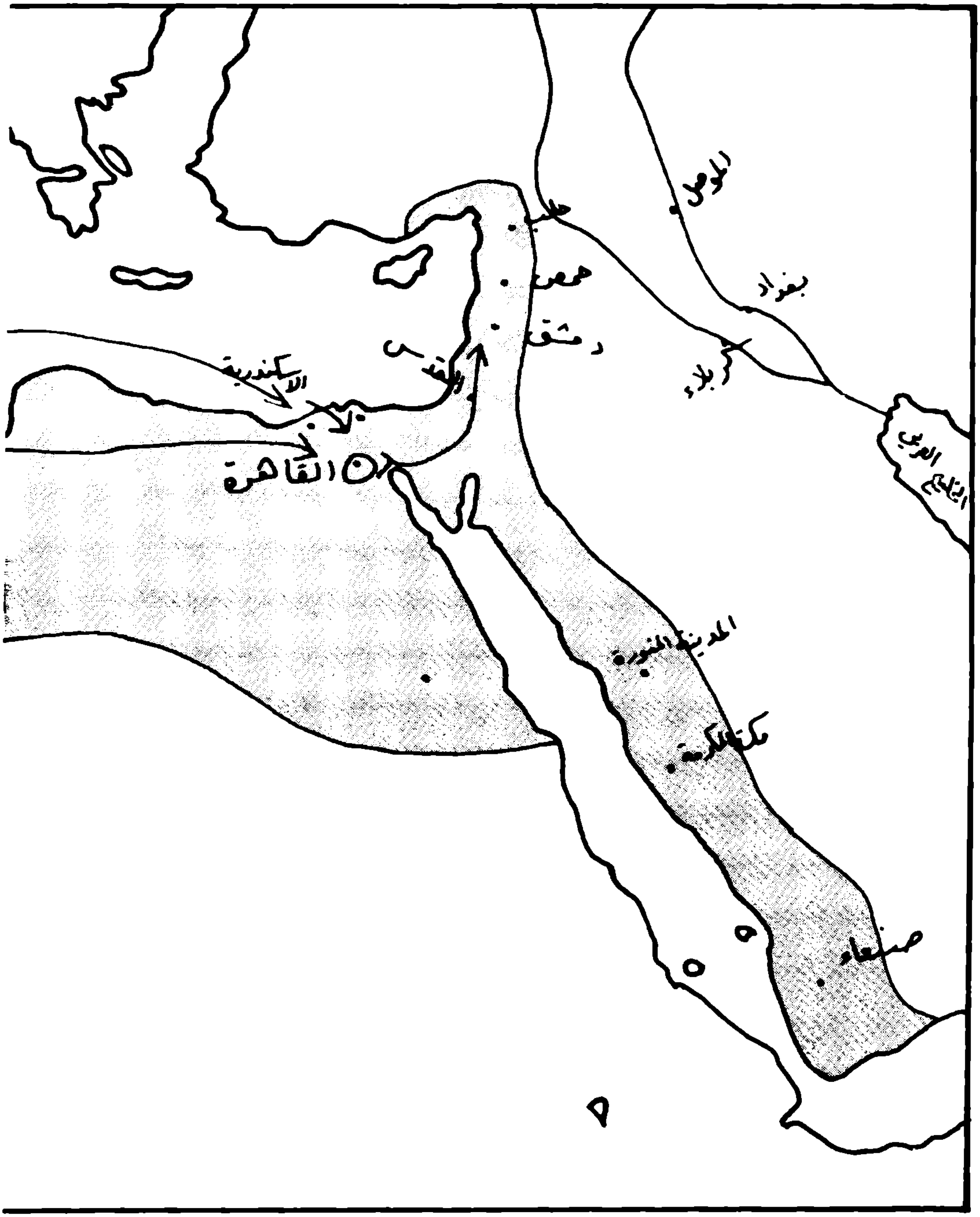
أما بالنسبة للمعز لدين الله، فإنه احتجب في قصره بعد دخوله القاهرة، وبعث عيونه ينقلون إليه أخبار الناس، وهو متوفر في النعم والأغذية المسمنة والأطلية التي تنقي البشرة وتحسن اللون، ثم ظهر للناس بعد مدة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب. وزعم أنه كان غائباً في السماء، وأن الله رفعه إليه. فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفاً.

عندما فتح جوهر بلاد مصر والشام ـ باسم المعز لدين الله ـ ظن الحسن بن عبيد الله ابن طغج أمير الشام، أن المعز سيعيده إلى حكم مملكة أبيه الاخشيد، لا سيما بعد زوال العقبة التي كانت تعترض مثل هذا التعيين ـ وهي وجود كافور الاخشيدي ـ. فجاء الحسن الى جوهر ـ في الرملة ـ فأرسله إلى المعز، فلما دخل عليه قربه ورحب به. وقال له: «أنت ولدي، وكاتبتني على دخول مصر، وانما بعثت جوهراً لينصرك، ولقد لحقني بتجهيز الجيوش الى مصر أربعة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار». فظن الحسن أن الأمر كما قال المعز ولم يعرف أنه يخدعه. فذكر له اسماء عدد من قادة مصر والأمراء فيها وأصحاب الأموال، وعرفه حلل المصريين. وقال له: «إن كل واحد من هؤلاء مثل قارون في الغنى». فأمر المعز باستئصالهم ومصادرة أموالهم وحبسهم ـ مع الحسن ـ فكان ذلك آخر العهد بهم.

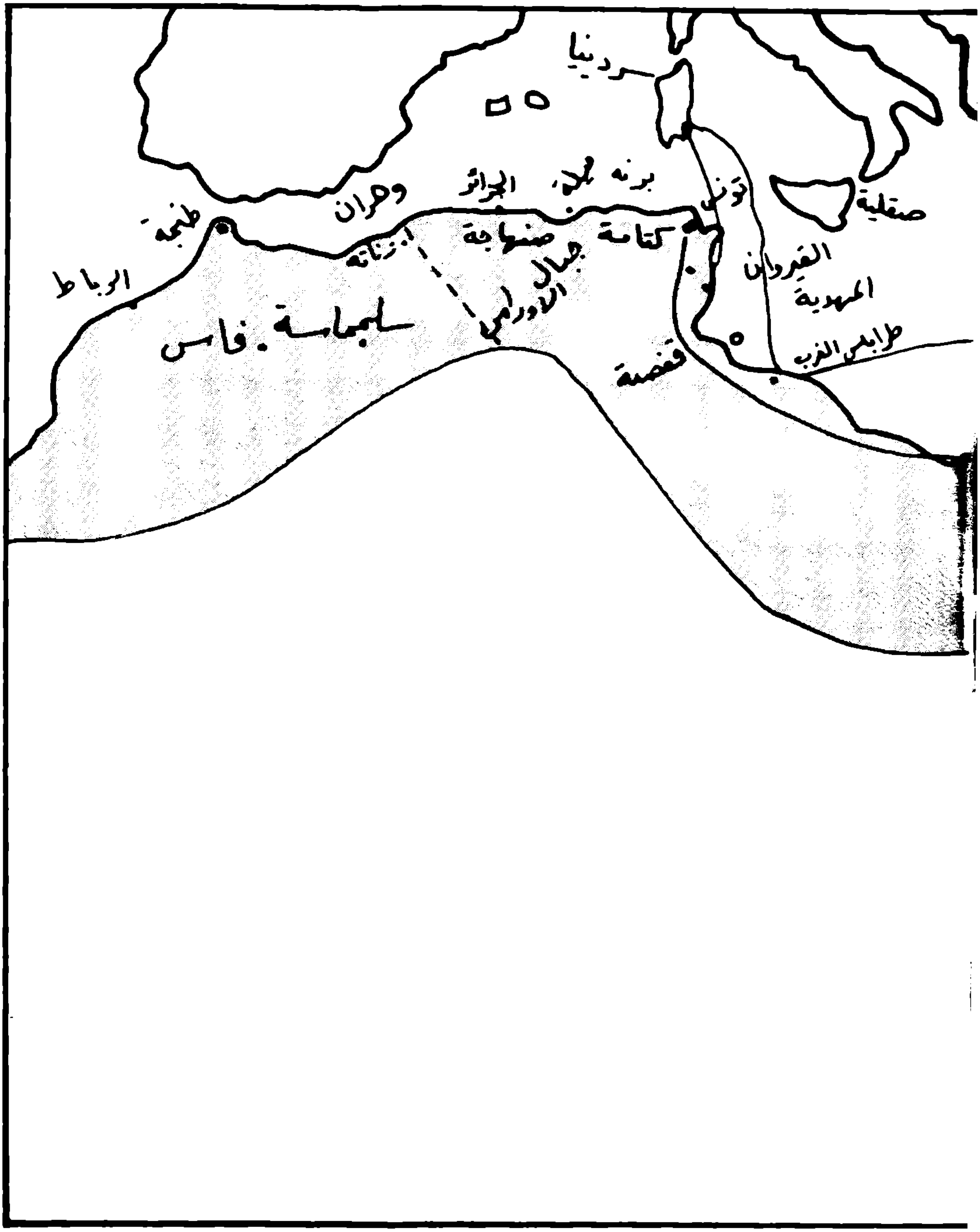
وكان المعز مغرى بمعرفة طالعه بالنجوم، فنظر في مولده وطالعه، فحكم له بخوف عليه ـ وتعرضه للخطر في فترة معينة ـ فاستشار منجمه فيما يزيله عنه، فأشار عليه أن

يعمل سرداباً تحت الأرض ويتوارى فيه إلى حين تجاوز ذلك الوقت، فعمل له السرداب، وأحضر قادته وكتابه، وقال لهم: « إن بيني وبين الله عهداً في وعد وعدنيه، وقد قرب أوانه، وقد جعلت نزاراً ولدي - هو ولي عهدي بعدي، ولقبته العزيز بالله، واستخلفته عليكم وعلى تدبير أموركم مدة غيبتي. فالزموا الطاعة له، واتركوا المخالفة واسلكوا الطريق السديدة». فقالوا: الأمر أمرك ونحن عبيدك وخدمك. ووصى العزيز ولده بما أراد، وجعل القائد جوهراً مدبره والقائم بأمره بين يديه، ثم نزل إلى السرداب وأقام فيه سنة. وكانت المغاربة إذا رأوا غماماً سائراً. ترجل الفارس منهم إلى الأرض وأومأ بالسلام - يشير إلى أن المعز فيه -. ثم خرج المعز بعد ذلك، وجلس للناس، فدخلوا عليه على طبقاتهم، ودعوا له - وعاد لممارسة حكمه كما كان. ولم يلبث طويلاً حتى انتابته الحمى فمات (*) لقد ابتدع المعز مراسم خاصة لإظهار أبهة الحكم في مناسبات ظهوره للعامة - مثل الركوب في أول العام من كل سنة، وفي يومي عيد الفطر والنحر وفتح خليج السد وفي خطبة شهر رمضان. واهتم بإقامة - خزانة الكتب في أحد مجالس البيمارستان - وضم إليه ما زاد على مائة ألف مجلد - في سائر العلوم.

(★) المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي. رابع الخلفاء الفاطميين ولد بالمهدية ومات بالقاهرة. (٣١٩ - ٣٦٥ = ٩٣١ - ٩٧٥ م) وكانت مدة حكمه ٢٤ سنة. منها سنتان وتسعة أشهر في مصر. وبويع من بعده لابنه نزار بن معد أبو منصور - ولقب العزيز بالله - ودعاه بعضهم العزيز بدين الله. والمعز لدين الله هو الذي وسع ملكه حتى امتد من المحيط الأطلسي حتى بلاد الشام. وخطب له في مكة والمدينة. وكان المعز عالماً فاضلاً شجاعاً، سار على نهج أبيه في حسن السيرة وانصاف الرعية. وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة، ثم أمر الدعاة باظهاره، إلا أنه لم يخرج فيه إلى حد يذم فيه.



الدولة العلوية الفاطمية



سردينيا
هـ ٥
برنه
بجاية
الجزائر
وهران
طنجة
الرباط
تونس
صقلية
القيروان
المهدية
طرابلس الغرب
قفصة
كتامة
صنهاجة
زناتة
جبال الأوراس
سجلماسة
فاس

جـ - العهد الجديد

تولى العزيز بالله - أبو منصور - نزار الخلافة، وقد توطدت دعائم الدولة، ورغم ذلك فقد عمل العزيز بالله نزار على إخفاء موت أبيه إلى عيد النحر، فصلى بالناس، وخطبهم، ودعا لنفسه، وعزى بأبيه. وكان يدبر الأمور منذ مات أبوه إلى أن أظهره. وكان أول ما فعله هو أن ضرب دنانير باسمه، وأرسلها إلى المغرب ليتداولها الناس. وأقر يوسف بلكين على ولاية افريقية، وأضاف إليه حكم طرابلس وسرت وأجدابية. وقد أفاد - يوسف بلكين - من ذلك لتوطيد سلطته ولفرض قبيلته صنهاجة على افريقية كلها. وتصدت قبائل (زناتة) لمجابهة يوسف بلكين، فعمل - خزرون بن فلفول بن خزر الزناتي بحشد جيش كبير، وسار به إلى - سجلماسة - فلقيه حاكمها فانتصر خزرون عليه وقتله وملك - سجلماسة - وأخذ منها من الأموال والعدد شيئاً كثيراً. وبعث برأس حاكمها إلى أمير الاندلس - الأموي -. وعظم شأن - زناتة - واشتد ملكهم. فسار يوسف بلكين إلى فاس وسجلماسة وطرد كل عمال بني أمية، وهربت زناتة منه، فلجأ كثير منهم إلى سبتة - التي بقيت دائماً تحت حكم أمير الأندلس - وكان في طريق يوسف بلكين غابات كثيفة لا يمكن لأحد عبورها، فأمر بإحراقها وقطع أشجارها، حتى شق طريقاً لعبور الجيش، ثم مضى بنفسه حتى أشرف على سبتة من جبل مطل عليها. وأمضى فترة وهو يستطلعها لمعرفة نقاط ضعفها، فرأى أنه لا يمكن احتلالها إلا بمساعدة الأسطول. وخاف أهل سبتة خوفاً عظيماً. ثم رجع يوسف بلكين إلى البصرة - وهي مدينة حسنة تسمى بصرة في المغرب -. فلما علمت زناتة بتحركه، رحلت إلى أقاصي الغرب عبر الرمال والصحارى. ودخل يوسف البصرة. وكانت قد عمرها أمير الاندلس عمارة عظيمة - فأمر بهدمها ونهبها. **ورحل إلى بلد - برغواطة - وكان ملكهم - عبس ابن أم الأنصار - رجلاً مشعبذاً ساحراً ادعى النبوة فأطاعوه في كل ما أمرهم به، وجعل لهم شريعة خاصة بهم، فغزاه يوسف بلكين. وجرت بينهم حروب عظيمة لا توصف انتهت بانتصار يوسف بلكين، وقتل الله - عبس ابن أم الانصار - وهزم جنده وقتلوا قتلاً ذريعاً، وسبي من أبنائهم ونسائهم ما لا يحصى، وسيره إلى افريقية. فقال**

أهل افريقية: «**بأنه لم يدخل إليهم من السبي مثله قط**». وأقام يوسف بلكين بتلك الناحية قاهراً لأهلها، وأهل سبتة منه خائفون، وزناته هاربون (من سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) وكانت لهم وقائع كثيرة مع قوات يوسف بلكين وعماله - ولاته - حتى إذا ما كانت سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م. تقدم خزرون الزناتي بقواته ودخل - سجلماسة - وطرد عامل يوسف بلكين ونهب ما فيها من الأموال والعدد. وفي الوقت ذاته تولى - فاس زيري بن عطية الزناتي - قيادة قوة أخرى من زناتة، فهاجم فاس وتغلب عليها وطرد عامل يوسف. وأسرع يوسف بلكين فقاد جيشه لحرب زناتة الثائرة، ووصل إلى - وارقلين - وهناك اعتل بالقولنج، ومات بعد أن أوصى بولاية ابنه المنصور (*) الذي كان بمدينة أشير - تلمسان -. فجلس للعزاء بأبيه، وأتاه أهل القيروان وسائر البلاد يعزونه بأبيه ويهنئونه بالولاية. فأحسن إلى الناس، وقال لهم: «**إن أبي يوسف وجدي زيري كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب - يعني أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب**» ثم سار إلى القيروان. وسكن برقادة، وولى الأعمال واستعمل الأمراء. وأرسل هدية عظيمة إلى العزيز بالله بمصر - قيل إن قيمتها بلغت ألف ألف دينار». ثم عاد إلى أشير واستخلف على جباية الأموال بالقيروان والمهدية وجميع افريقية رجلاً يقال له - عبدالله بن الكاتب -.

أدرك العزيز بالله نزار خطر المنصور، ونزوعه للاستقلال بأمور افريقية، وذلك رغم ما أظهره المنصور من المداهنة والرياء - بإرسال الهدايا الثمينة - فبعث رجلاً من

(*) كان المعز بن المنصور العبيدي قد استخلف يوسف بلكين على افريقية عند توجهه إلى الديار المصرية سنة ٣٦١ هـ. وأمر الناس بالسمع والطاعة له، وسلم إليه البلاد، وخرجت العمال وجباة الأموال باسمه. وأوصاه المعز بأمور كثيرة، وأكد عليه في فعلها. ثم قال: «إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، والسيف عن البربر، ولا تول أحداً من اخوانك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك. وافعل مع أهل الحاضرة - المدن - خيراً». وأحسن يوسف بلكين السيرة في إدارة بلاده، والنظر في مصالح رعيته. إلى أن توفي في دار كلان - أو وارقلين - لسبع بقين من ذي الحجة سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م. وقد توفي عن اربعمائة حظية، حتى قيل ان البشائر قد وفدت عليه بولادة سبعة عشرة ولداً في يوم واحد.

دعاته اسمه ـ أبو الفهم حسن بن نصر ـ للاتصال بقبائل كتامة ودعوتها لطاعة العزيز بالله، وذلك مقابل ارسال جيش من مصر لدعمها ضد المنصور. وقام أبو الفهم بواجبه وجمع الانصار وكثر أتباعه، وقاد الجيوش، وعظم شأنه، وعزم المنصور على قصده؛ ويظهر أنه شعر بالدور الذي يمارسه العزيز بالله، فأرسل إلى العزيز بمصر وشرح له الموقف. فأرسل العزيز رسولين إلى المنصور، ينهاه عن التعرض لأبي الفهم وكتامة. وأمرهما أن يسيرا إلى كتامة بعد تسليم الرسالة إلى المنصور، فلما وصلا إلى المنصور، وأبلغاه رسالة العزيز، أغلظ القول لهما وللعزيز أيضاً، وأغلظا له، فأمرهما بالمقام عنده. ولم يتركهما يمضيان إلى كتامة واحتجزهما لمدة شهرين تقريباً عمل خلالهما على اكمال اعداد قواته، ثم سار بها إلى مدينة ميلة، وأراد قتل أهلها وسبي نسائهم وذراريهم، فخرجوا إليه يتضرعون ويبكون، فعفا عنهم وضرب سورها. وسار منها إلى كتامة، والرسولان معه، فكان لا يمر بقصر ولا منزل إلا هدمه حتى وصل الى عاصمة كتامة ـ مدينة سطيف ـ فاقتتلوا عندها قتالاً عظيماً، فانهزمت كتامة وهرب أبو الفهم إلى جبل وعر فيه قوم من كتامة يقال لهم ـ بنو ابراهيم ـ فأرسل إليهم المنصور يتهددهم إن لم يسلموه، فأجابوه: «هو ضيفنا ولا نسلمه، ولكن أرسل أنت إليه فخذه، ونحن لا نمنعه ـ لا ندافع عنه». فأرسل واعتقله وضربه ضرباً شديداً ثم قتله وسلخه وأكلت صنهاجة وعبيد المنصور لحمه. وقتل معه جماعة من الدعاة ووجوه كتامة، وعاد إلى أشير، ورد الرسولين إلى العزيز. فأخبراه بما فعل بأبي الفهم، وقالا: **جئنا من عند شياطين يأكلون الناس»**. فأرسل العزيز الى المنصور، يطيب قلبه، وأرسل إليه هدية ولم يذكر له أبا الفهم.

ومضت سنتان ظهر بعدهما في كتامة رجل آخر من الدعاة (سنة ٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م) لم يعرف من أي موضع جاء، وزعم أن أباه هو ولد القائم العلوي جد المعز لدين الله، فعمل أكثر مما عمله أبو الفهم، واجتمعت عليه كتامة، واتخذ البنود والطبول، وضرب السكة ـ النقود ـ وجرت بينه وبين نائب المنصور وجنده حروب كثيرة ووقعات متعددة في مدينة ميلة ومدينة سطيف، وانهزم هذا الداعية ـ الذي عرف باسم أبي الفرج ـ وانهزمت معه كتامة، وقتل منهم مقتلة عظيمة،

واختفى أبو الفرج في غار في جبل، فوثب عليه غلامان كانا له فأخذاه وأتيا به المنصور، فسره ذلك وقتله شر قتلة، وشحن المنصور بلاد كتامة بالجند، وبث عماله فيها، ولم يدخلها عامل قبل ذلك، فجبوا أموالهم، وضيقوا على أهلها، ورجع المنصور إلى مدينة ـ أشير ـ فأتاه ـ سعيد بن خزرون الزناتي ـ فدخل في طاعته، واختص به، وعلت منزلته عنده، فقال له المنصور يوماً: **«يا سعيد! هل تعرف أحداً أكرم مني»**. وكان قد منحه مالاً كثيراً. فقال: **«نعم! أنا أكرم منك»** فسأله المنصور: **«وكيف ذلك؟»** فأجابه: **«لأنك جدت علي بالمال؛ وأنا جدت عليك بنفسي»**. فاستعمله المنصور والياً على ـ طبنة ـ وزوج ابنه ببعض بنات سعيد، فلامه على ذلك بعض أهله. فقال لهم: «كان أبي وجدي يستتبعانهم بالسيف. وأما أنا فمن رماني برمح رميته بكيس ـ من الدنانير ـ حتى تكون مودتهم طبعاً واختياراً. ورجع سعيد إلى أهله وبقي إلى سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م. ثم عاد إلى المنصور زائراً؛ واعتل أياماً ومات. فقدم ابنه فلفل بن سعيد على المنصور، فأحسن إليه وحمل إليه مالاً كثيراً فرده إلى ولاية أبيه ـ طبنة ـ.

لقد كان المنصور يعتمد بالدرجة الاولى على قبيلته ـ صنهاجة ـ وعلى أقاربه، غير أن صنهاجة لم تكن متفقة جميعها على تأييد الحكم العلوي، وقد ظهر ذلك ـ ربما للمرة الأولى ـ سنة ٣٧٣ هـ = ٩٨٣ م حيث انتقل أولاد زيري بن مناد وهم: زاوي وجلالة وماكسن ـ اخوة بلكين ـ إلى الاندلس بسبب خلاف وقع بينهم وبين أخيهم حماد، فتوجهوا الى ـ طنجة ـ ومنها إلى قرطبة، التي كانت يومها تحت حكم الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فاستقبلهم الحاجب المنصور، وسر بهم، وأجرى عليهم الوظائف، وأكرمهم، وسألهم عن سبب انتقالهم، فقالوا له: «إنما اخترناك على غيرك، وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله». فاستحسن ذلك منهم، ووعدهم ووصلهم، فأقاموا أياماً، ثم دخلوا عليه وسألوه انجاز ما وعدهم به من الغزو. فقال لهم: «انظروا ما أردتم من الجند نعطيكم» فردوا عليه بقولهم: **«ما يدخل معنا بلاد العدو غيرنا ـ إلا الذين معنا من بني عمنا وصنهاجة وموالينا»**. فأعطاهم الخيل والاموال والسلاح، وبعث معهم الأدلاء. وكان الطريق ضيقاً، فساروا إلى أرض

جيليقية ـ غاليسيا شمال غرب الأندلس ـ ووصلوها ليلاً، فنظموا كميناً في بستان قريب من المدينة، وقتلوا كل من به، وقطعوا أشجاره، فلما أصبحوا، خرج جماعة من البلد، فباغتوهم وأخذوهم وقتلوهم جميعهم. ورجع من تمكن من الهرب فأنذر أهل المدينة الذين أسرعوا لمطاردة عدوهم. فلما أحس فرسان صنهاجة بذلك، كمنوا وراء ربوة، فلما جاوزهم جيش جيليقية، خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا مؤخرتهم ـ ساقتهم ـ فلما سمع أهل جيليقية التكبير، ظنوا أن العدد كثير جداً، فانهزموا وتبعهم فرسان صنهاجة، فقتلوا خلقاً كثيراً، وغنموا دوابهم وسلاحهم، وعادوا إلى قرطبة. فعظم ذلك عند ابن أبي عامر، ورأى من شجاعتهم ما لم يره من جند الأندلس، فأحسن إليهم وجعلهم بطانته. ولقد عانى المنصور في إدارته لإفريقية من تمرد أهله، وبني عمومته ـ على نحو ما حدث سنة (٣٧٩ هـ = ٩٨٩ م) عندما خرج عمه أبو البهار على طاعته وحاربه ـ. ولكنه استطاع التغلب على كافة الصعوبات والعقبات الى أن وافته المنية (سنة ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م) فخلفه ابنه باديس (*) في إمارة افريقية. فسار على نهج أبيه، واقتدى بسيرته.

كان العزيز بالله نزار يعتمد في إدارته للبلاد على مراكز القوى، ويعمل في الوقت ذاته على إضعاف هذه المراكز، وضرب بعضها ببعض، حتى لا تتمكن إحداها من الاخلال بالتوازن. ولكن وعندما كانت تظهر شخصية قوية مثل ـ المنصور ـ الذي سبق ذكره، فإن العزيز بالله كان يجد نفسه مرغماً على مهادنة هذه الشخصية، وانتظار الفرص المناسبة. وكانت شبكة الدعاة المنتشرة في كافة أرجاء البلاد، والمرتبطة مباشرة

(*) المنصور بن يوسف بلكين أمير افريقية، توفي في أوائل ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ. وهو خارج صبرة ـ ودفن بقصره، وكان ملكاً شجاعاً كريماً حازماً، ولم يزل مظفراً منصوراً حسن السيرة، محباً للعدل والرعية، أوسعهم عدلاً، وأسقط البقايا عن أهل افريقية ـ وكانت مالاً جليلاً ـ. ولما توفي ولي بعده ابنه باديس ويكنى أبا مناد. فلما استقر في الأمر سار إلى سردانية، وأتاه الناس من كل ناحية للتعزية والتهنئة. وأراد أعمام أبيه ـ بنو زيري ـ أن يتمردوا عليه، فمنعهم أصحاب أبيه وأصحابه. وكان مولد باديس سنة ٣٧٤ هـ = ٩٨٤ م. وأتته الخلع والعهد بالولاية من الحاكم بأمر الله بمصر، فقرىء العهد وبايع للحاكم هو وجماعة بني عمه وكبار القادة. وثار رجل صنهاجي ـ اسمه خليفة بن مبارك ـ ضد باديس. فألقي القبض عليه وسجن ـ ولم يقتل احتقاراً.

بالعزيز في مصر، تقدم له المعلومات الدقيقة عن الاوضاع المختلفة والمواقف المتطورة، مما كان يساعده على ضبط الأمور والسيطرة عليها، والتدخل في الوقت المناسب. ولهذا كان قادة مراكز القوى - مثل المنصور - يحرصون على إقامة علاقات جيدة مع الناس، لمنعهم من التمرد والثورة، ولحرمان حاكم مصر - العزيز بالله - من فرصة التدخل بشؤونهم وبطريقة ادارتهم للبلاد. فكان ذلك ينعكس على الناس على شكل أمن واستقرار وإشاعة للعدل.

وعلى كل حال، فقد خسرت افريقية بموت المنصور قائداً فذاً وحاكماً عادلاً. وكان (جوهر الصقلي) (*) قد سبقه بالرحيل إلى العالم الآخر. فخسرت الدولة العلوية رجلين من كبار رجالها وقائدين من كبار قادتها، الذين وطدوا دعائم حكمها.

اشتهر العزيز خلال فترة حكمه، بأن كان كريماً شجاعاً فيه رفق بالرعية، ساس الملك بنجاح. وزادت مملكته على مملكة أبيه، وفتحت له حمص وحماة وشيرز وحلب، وخطب له - المقلد العجيلي - صاحب الموصل وأعمالها بالموصل

(*) القائد أبو الحسن جوهر بن عبدالله - المعروف بالكاتب الرومي - أصله أرمني. وكان من موالي المعز الذي أمره بفتح مصر بعد موت الاستاذ كافور الأخشيدي، فشق مصر، ونزل في مكان القاهرة، وأسس من ليلته (القصرين) وخطب يوم الجمعة الآتية لمولاه المعز، وقطع خطبة بني العباس عن منابر الديار المصرية، وكذلك أزال اسمهم عن السكة - النقود - وألغى الشعار العباسي - الأسود - وألبس الخطباء الثياب البيض. وذكر في خطبته الأئمة الاثني عشر. وأظهر الاحسان للناس فكان يجلس بنفسه في كل يوم سبت للنظر في المظالم. ومعه الوزير والقاضي وجماعة من أكابر الفقهاء. وأمر جوهر بالزيادة عقيب الخطبة اعتباراً من يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م. وكانت هذه الزيادة هي: «اللهم صلِّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. اللهم وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز» وأمر ببناء الجامع الأزهر الذي فرغ من بنائه في السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م وأقام بمصر حتى وصل إليه مولاه المعز، وهو نافذ الأمر، واستمر على علو منزلته وارتفاع درجته، متولياً للأمور حتى ما قبل وفاته بأشهر (سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م) حيث حل محله ابنه أبو عبدالله الحسين الذي كان يقال له - قائد القواد - وهو أكبر أمراء الحاكم. ولم يبق شاعر بمصر إلا رثاه وذكر مآثره. وكان ناصحاً لمولاه، مخلصاً لدولته، على دين مولاه في التشيع، فلذلك ابتدع بدعاً كثيرة، عليه وزرها وإثمها.

(سنة ٣٨٢ هـ = ٩٩٢ م) وضرب اسمه على السكة والبنود. وخطب له باليمن، وهو الذي رتب الفطرة في عيد شوال، وكانت تعمل على غير هذه الهيئة. وكانت الفطرة تعمل وتفرق بالديوان، ثم نقلت في عدة أماكن، وكان مصروفها في كل سنة عشرة آلاف دينار. وبنى في أيامه (قصر البحر) في القاهرة. الذي لم يكن مثله لا في الشرق ولا في الغرب، وكان يدخل إليه من باب البحر المنسوب لهذا القصر.

عمل العزيز خلال فترة حكمه على استخدام النصارى، فعين - عيسى بن نسطورس، وكان نصرانياً من أقباط مصر - وفيه جلادة وكفاية، فضبط الأمور وجمع الأموال، ووفر كثيراً من الخراج، وأعز النصارى فقلدهم الأعمال والدواوين، وأخرج الكتاب المتصرفين من المسلمين، واستناب في الشام رجلاً يهودياً يعرف باسم - منشا بن ابراهيم بن الفرار - فسلك مسلكه في اعزاز اليهود وتقديمهم على المسلمين. واستولى أهل هاتين الملتين على الدولة. فكتب رجل من أجلاد المسلمين رقعة، وسلمها إلى امرأة، وبذل لها مالاً وفيراً من أجل اعتراض العزيز، ورفع الظلامة إليه، وتسليمها إلى يده وكان مضمون الرقعة: **«يا أمير المؤمنين! بالذي عز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشا بن الفرار، وأذل المسلمين بك، إلا نظرت في أمري»**.

وكان العزيز يركب بغلة سريعة في المشي، وإذا ركبها تدفقت كالموج، ولم تلحق. فوقفت له المرأة في ضيق، فلما قاربها، رمتها إليه، فسارع الركابي إلى أخذ الرقعة على العادة، وغاصت المرأة في جموع الناس. ولما قرأها العزيز أمر بالبحث عن المرأة، فلم يعثر لها على أثر. ولما عاد إلى قصره، استدعى قاضي قضاته - أبا عبدالله محمد بن النعمان، وكان متقدماً عنده في خواصه وأهل أنسه، فأعطاه الرقعة وقال له: «قف عليها» فلما قرأها قال له: «ما عندك في هذا الأمر؟» فأجاب القاضي: «مولانا أعرف بوجه الرأي والتدبير» فقال العزيز معقباً: «صدقت كاتبتها وهي تنبهنا على ما كنا عليه من الغفلة والخطأ». ثم وقع خلاف بين الوزير ابن كلس - والشاعر الحسن بن بشر الدمشقي - (*) مما زاد من قناعة العزيز بضرورة تغيير هذا الوضع، فأمر بالقبض

(★) كان الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي، قد كتب رقعة إلى وزير العزيز وكاتب الانشاء - أبي نصر عبدالله الحسين القيرواني - جاء فيها:

على اليهودي والنصراني. وعلى سائر الكتاب النصارى، فأخذ من اليهودي مالاً كثيراً، وكتب العزيز الى الشام بأن ترد الاعمال في الدواوين إلى الكتاب المسلمين، وأن يتم الاعتماد في الاشراف عليهم على القضاة في البلاد، ثم ان عيسى طرح نفسه على ـ ست الملك بنت العزيز ـ وكان يحبها حباً شديداً ولا يرد لها قولاً، واستشفع بها في الصفح عنه وتجديد الاصطناع له. وحمل الى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار. وكتب إلى العزيز رقعة يذكر فيها بخدمته وحرمته. فرضي العزيز عنه، وأعاده إلى ما كان عليه. وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوينه وأعماله. وعلى كل حال، فان دور اليهود والنصارى كان قد بدأ قبل ذلك عندما تم تعيين ـ أبي الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ـ وزيراً للعزيز ـ سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م ـ وكان أبو الفرج هذا يهودياً خبيثاً ذا مكر وحيلة ودهاء وفطنة، لفظته بغداد فسار إلى الشام، ونزل بالرملة، وعمل وكيلاً للتجار، فلما اجتمعت الاموال التي للتجار عنده، حملها وهرب بها إلى مصر في أيام كافور الأخشيدي، وحمل إليه متاعاً كثيراً، فحوله كافور على ضياع مصر ليحصل منها ثمن تجارته. فكان إذا دخل ضيعة عرف غلتها وارتفاعها وظاهر أمرها وباطنها، وكان

= قل لأبي نصر صاحب القصر ... والمتأتي لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز ... منه بحسن الثناء والذكر
وأعط أو امنح ولا تخف أحداً ... فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ماذا يراد به ... وهو إذا ما درى فما يدري

فجاء ابن كلس الى العزيز، وأنشده الشعر، فقال له العزيز: «هذا شيء اشتركنا فيه في الهجاء. فشاركني في العفو عنه». ولكن الشاعر الدمشقي عاد للنقد والهجاء فقال:

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ... ابن وروح القدس فضل

وأراد ابن كلس الفتك بالشاعر الدمشقي، لكن العزيز منعه، وجاء ابن كلس إلى العزيز وقال له: «لم يبق للعفو عن هذا معنى، وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك، فانه قد ذكر نديمك زبارج، وذكرني وسبك بقوله:

زبارجي نديم وكلس وزير ... نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

وجاء ابن كلس بالشاعر. وقتله، رغم معارضة العزيز وعدم موافقته على قتله.

ماهراً في أعماله، لا يسأل عن شيء من أمورها إلا أخبر به عن صحة ودقة، فكبرت حاله. وعلم كافور بخبره وما فيه من الفطنة والسياسة، فقال: **«لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً»**. فبلغه ما قال كافور، فطمع في الوزارة، ودخل جامع مصر في يوم جمعة، وقال: **«أنا أسلم على يد كافور»**. وعرف وزير كافور ـ ابن حنزابه ـ ما هو عليه من الطمع بالوزارة، فقصده، وخاف منه فهرب إلى المغرب، وقصد يهوداً كانوا هناك مع أبي تميم المعز لدين الله، وهم أصحاب أمره، فصارت له عندهم حرمة. ولم يزل معهم حتى جاء برفقة المعز لدين الله إلى مصر. واليهود معه. فلما ولي العزيز استوزره، ووثق به. حتى إنه عندما مرض، عاده العزيز وقال له: «لوددت أنك تباع فأبتاعك بملكي. فهل من حاجة توصي بها». فبكى وقبل يده ووضعها على عينه. وقال: **«أما فيما يخصني، فإنك أرعى لحقي من أن أوصيك بمخلفي. ولكن فيما يتعلق بدولتك، فسالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك. واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة. ولا تبق على المفرج بن دغفل»** ومات أبو الفرج سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م. فحزن العزيز عليه. وحضر جنازته، وصلى عليه وألحقه بيده في قصره. وأغلق الدواوين عدة أيام. وخلف أبو الفرج من المال شيئاً كثيراً، وقيل إنه كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار. ورثاه مائة شاعر. وقلد العزيز الوزارة إلى عيسى بن نسطورس ـ الذي سبق ذكره.

وانتابت العزيز مجموعة من الأمراض في آن واحد ـ النقرس والحصا والقولنج ـ ولما اشتد عليه المرض استدعى القاضي محمد بن النعمان **وأبا محمد الحسن بن عمار الكتامي** الملقب ـ أمين الدولة ـ وهو أول من تلقب من المغاربة، وكان شيخ كتامة وسيدها، **ثم** خاطبهما في أمر ولده أبي علي المنصور، **وأوصى له بالخلافة، ولقبه الحاكم بأمر الله.** كما أحضر المتولي لأمر داره أرجوان الخادم، وجعله مدبر دولة ابنه الحاكم، **وأخذ له** البيعة. ومات العزيز (*) ولم ينكتم خبر موته ساعة واحدة. وقام ـ **أرجوان الخادم ـ**

(*) العزيز بالله أبو منصور نزار بن المعز أبي تميم معد العلوي. خامس الخلفاء العبيديين أو المهديين ـ مات لليلتين بقيتا من رمضان وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر ونصف (٣٤٣ ـ ٣٨٦ هـ = ٩٥٤ ـ ٩٩٦ م) وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً. ـ

فأخذ له البيعة على الناس. وخرج الناس في اليوم التالي لاستقبال الحاكم الذي دخل البلد وبين يديه البنود والرايات، وعلى رأسه المظلة يحملها ـ ريدان الصقلبي ـ. وتقدم الحسن ابن عمار شيخ كتامة وسيدها، وحكم في دولته، واستولى عليها. فأشار عليه ثقاته بقتل الحاكم، وقالوا له: **«لا حاجة بنا إلى من يستعبدنا»** فلم يفعل احتقاراً للحاكم واستصغاراً لشأنه، **إذ كان عمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر**. وانبسطت كتامة في البلاد، وحكموا فيها، ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية وحريمهم. كل ذلك وأرجوان الخادم ملازم للحاكم في القصر، يحرسه، واتفق مع خادم عضد الدولة البويهي ـ واسمه **شكر العضدي** ـ على الكتابة إلى أمير الشام للفاطميين ـ منجوتكين ـ وأعلمه بما يقوم به ـ الحسن بن عمار ـ. فتجهز ـ منجوتكين ـ وسار من دمشق نحو مصر. فوصل الخبر الى ابن عمار الذي أعلن أن منجوتكين قد تمرد على الحاكم، واستنفر الجند، ووجه جيشاً كثيفاً لقتاله بقيادة ـ **أبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي** ـ فساروا اليه فلقوه بعسقلان، فانهزم منجوتكين وقتل من جيشه ألفا رجل، ثم أسر منجوتكين وحمل إلى مصر، فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه استمالة للمشارقة ـ أهل الشام ـ. واستعمل ابن عمار على الشام أبا تميم سليمان بن جعفر. فسار إلى طبرية. واستعمل أخاه علياً لحكم دمشق. فامتنع أهلها عليه ـ فكاتبهم أبو تميم يتهددهم، فخافوا وأذعنوا بالطاعة واعتذروا من فعل سفهائهم، وأخرجوا إلى علي، فلم يعبأ بهم، وركب ودخل البلد، فأحرق وقتل وعاد إلى معسكره. وقدم عليهم أبو تميم، فأحسن إليهم، وأمنهم، وأطلق سراح المعتقلين منهم، وعين أخاه علياً على طرابلس وعزل عنها ـ **جيش بن الصمصامة الكتامي** ـ فمضى الى مصر ـ واتفق مع أرجوان الخادم للعمل ضد الحسن بن عمار. وأفاد أرجوان الخادم من ابتعاد كتامة عن مصر مع أبي تميم، وحرض المشارقة على الفتك بمن بقي بمصر منهم وبابن عمار معهم، فبلغ ذلك ابن عمار، فعمل على الايقاع بأرجوان الخادم وشكر العضدي، وجاء عيون ـ جواسيس ـ أرجوان، فأعلموه بما قرره ابن عمار للايقاع به وبشكر العضدي فاحتاطا، ودخلا قصر

= ولد بالمهدية ودفن بالعمارية في حجرة من القصر عند أبيه. وعندما مات حدثت (ست الملك ابنة العزيز) نفسها بالوثوب على الأمر. واجلاس ابن عمتها عبدالله ـ وكانت مشتهاة عليه. فأحس الوزير ـ ارجوان الخادم ـ بذلك، فقبض عليها، وحملها مع ألف فارس الى قصرها بالقاهرة.

الحاكم باكين، وثارت الفتنة، واجتمعت المشارقة فوزع عليهم الحاكم الأموال، فهاجموا ابن عمار ومن معه، فانهزم واختفى. فلما ظفر أرجوان الخادم، أظهر الحاكم وأجلسه وجدد له البيعة، وكتب الى كبار القادة والناس بدمشق للايقاع بأبي تميم، فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنة، فخرج هارباً. وقتلوا من كان عنده من كتامة. وعادت الفتنة بدمشق، واستولى عليها الأحداث. وعمل ـ أرجوان الخادم ـ بعدها على السماح ـ لأبي محمد الحسن بن عمار الكتامي ـ بالخروج من ملجئه ومخبئه، وأعاد إليه اقطاعه، لكنه أمره باغلاق بابه. وحدث عصيان في مدينة صور حيث عمل أهلها على تسليم قيادتهم إلى رجل ملاح اسمه ـ **العلاقة** ـ. وأعلن ـ المفرج بن دغفل ـ أيضاً العصيان وسار بقواته الى الرملة، وعاث فساداً في البلاد. وزاد الموقف تدهوراً على أرض بلاد الشام، حيث تولى امبراطور الروم ـ الدوقس ـ قيادة جيشه، وألقى الحصار على قلعة ـ أفامية ـ. فأصدر أرجوان الخادم أمره بتوجيه قوات ضخمة بقيادة ـ **جيش ابن الصمصامة** ـ فسار حتى نزل بالرملة، فأطاعه واليها. وظفر فيها بأبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي. ووجه جيش قسماً من قواته بقيادة أبي عبدالله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان إلى صور، فغزاها براً وبحراً. فأرسل ـ العلاقة ـ إلى ملك الروم يستنجده، فسير إليه عدة مراكب مشحونة بالرجال، فالتقوا بمراكب المسلمين على صور، فاقتتلوا وظفر المسلمون وانهزم الروم، وقتل منهم جمع، فلما انهزموا تخاذل أهل صور، وضعفت نفوسهم، مما ساعد ـ أبا عبدالله بن حمدان ـ على احتلال مدينة صور، ونهبها وقتل الكثير من جندها، وأخذ ـ العلاقة ـ أسيراً، فأرسله إلى مصر فسلخ وصلب بها. وفي الوقت ذاته، سار جيش بن الصمصامة ـ بمعظم قواته لقتال ـ المفرج بن دغفل، فهرب هذا، وأرسل بطلب العفو، فمنحه جيش الأمان. وسار ـ جيش ـ بعدها نحو الشمال، فلما وصل إلى دمشق استقبله أهلها مذعنين، فأحسن إلى رؤساء الأحداث، وأطلق المؤن، وأباح دم كل مغربي يتعرض لأهلها فاطمأنوا إليه. وسار إلى أفامية، فاصطدم عندها بالروم الذين تمكنوا من هزيمته، ولم يصمد إلا ـ بشارة الاخشيدي ـ ومعه خمسمائة فارس. ونزل الروم فاجتاحوا معسكر المسلمين ونهبوا ما فيه، فيما كان ملك الروم ـ الدوقس ـ واقفاً ومعه ابنه وحاشيته، فتوجه إليه

رجل كردي ـ اسمه أحمد بن الضحاك ـ وتظاهر بأنه يطلب الأمان، وعندما اقترب من ملك الروم طعنه فقتله. وصاح المسلمون: «قتل عدو الله». وعادوا فهاجموا الروم. وجرت الوقعة في مـرج أفيـح يحيـط به جبل يعرف بالمضيق، لا يسلكه إلا رجل في أثر رجل، ومن جانبه بحيرة أفامية ونهر العاصي ـ المقلوب ـ. فلم يكن للروم مهرب. فتمكن المسلمون منهم، ومضى النهار وهم يقتلون فيهم حتى ان المسلمين احتزوا من رؤوس القتلى عشرة آلاف رأس ـ أرسلهم جيش بن الصمصامة ـ الى مصر ـ وبات المسلمون مبيت المنصورين الغانمين المسرورين، بما منحهم الله اياهم من الكفاية، ووهب لهم من الظفر، ووافى العرب من غد بما نهبوه من دواب ـ وخيول ـ المسلمين أثناء الهزيمة، فمنهم من رد، ومنهم من باع بالثمن البخس، لأن جيش بن الصمصامة، نادى في معسكره بألا يبتاع أحد من العرب. ووقع ولدا ـ الدوقس ـ في أسر بعض المسلمين، فابتاعهما جيش بن الصمصامة بستة آلاف دينار. وأخذهما إليه ـ وأقام على حصن أفامية اسبوعاً ثم سار إلى باب انطاكية ومعه ألفـاً رجل من الأسرى ـ ونهب النواحي المحيطة بانطاكية، وأحرق القرى. وانصرف عائداً إلى دمشق. وكان الزمان شتاء فالتمس من أهلها أن يخلوا له قرية على باب دمشق ـ اسمها بيت لهيا ـ لينزل وجنده فيها. فأجابوه إلى ذلك. وأحسن السيرة في أهل دمشق، واستخص رؤساء الاحداث برعايته، وجعل يبسط الطعام كل يوم لهم ولمن يجيء معهم من أصحابهم، فكان يحضر كل انسان منهم في جمع من أصحابه وأشياعه، وأمرهم إذا فرغوا من الطعام أن ينتقلوا إلى حجرة خاصة لغسل أيديهم فيها، واستمر على ذلك برهة من الزمن. وفي يوم من الأيام، نظم بعض جنده وأمرهم بقتل رؤساء الاحداث عندما يدخلون الحجرة لغسل أيديهم هم وأصحابهم، فقتل منهم نحو ثلاثة آلاف رجل، ودخل دمشق بعدها، وطاف بها، واستغاث الناس وسألوه العفو، فعفا عنهم. وأحضر الأشراف وقتل من رؤساء الأحداث بين أيديهم، وسير الأشراف إلى مصر، وأخذ أموالهم ونعمهم، ولم يلبث بعدها طويلاً حتى مات وخلفه ابنه محمد.

أرسل ـ أرجوان الخادم ـ بعد هذه الحادثة رسالة إلى ملك الروم ـ باسيل ـ حملها، ابن أبي العلاء، ودعاه إلى المهادنة والموادعة، وأرسل إليه الهدايا على

سبيل التآلف والملاطفة، وقابل باسيل ذلك بأحسن قبول. وتقررت الموادعة لمدة عشر سنين. وأرسل باسيل مقابل الهدية هدية مماثلة على ما جرت به العادة. واستقامت الأمور على يد أرجوان الذي أرسل جيشاً ـ أيضاً ـ إلى برقة وطرابلس الغرب ففتحها واستعمل عليها ـ أنساً الصقلبي ـ ونصح الحاكم وبالغ في ذلك ولازم خدمته، فثقل مكانه على الحاكم فقتله (سنة ٣٨٩ هـ = ٩٩٩ م) وكان خصياً أبيض. وكان لأرجوان وزير نصراني اسمه فهد بن ابراهيم، فاستوزره الحاكم. ثم إن الحاكم عين ـ الحسين بن جوهر ـ مكان أرجوان ولقبه ـ قائد القواد ـ ثم قتل أبا محمد الحسن بن عمار الكتامي وقتل بعده ـ الحسين بن جوهر ـ. واستمر في تعيين الوزير بعد الوزير وقتلهم الواحد بعد الآخر. ثم إن الحاكم بأمر الله جهز جيشاً كبيراً أسند قيادته إلى ـ يارختكين ـ وكلفه بالسير إلى مدينة حلب ومحاصرتها والاستيلاء عليها. فخاف ـ حسان بن مفرج الطائي ـ فنصب كميناً لهذا الجيش عندما غادر غزة في طريقه الى عسقلان. وساعده والده في نصب هذا الكمين الذي استطاع قتل قائد الجيش وكبار قادته وتمزيق الجيش بعد معركة ضارية قتل فيها عدد كبير من جند الفريقين. وأفاد حسان ووالده من هذا النصر فسارا بجيشهما إلى الرملة فألقيا الحصار عليها. وتم لهما نهب النواحي، وكثر جمعهما واستوليا على الرملة وما تبعها. وأرسلا إلى أمير مكة الشريف أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي الحسني وخاطباه بأمير المؤمنين، وطلباه إليهما ليبايعا له بالخلافة، فحضر واستناب بمكة وخوطب بالخلافة. وعظم الأمر على الحاكم بأمر الله، فأرسل إلى حسان وأباه يعاتبهما، وضمن لهما الاقطاع الكثيرة والعطاء الجزيل، واستمالهما، فعدلا عن أبي الفتوح ورداه إلى مكة وعاد حسان وأبوه إلى طاعة الحاكم. ولم يلبث الحاكم بعد ذلك طويلاً حتى أرسل جيشاً بقيادة ـ علي بن جعفر بن فلاح ـ فلما وصل إلى الرملة، طرد حسان بن مفرج الطائي وعشيرته عن تلك الأرض، واستولى على ما كان له من الحصون في جبل الشراة، وصادر له أمواله وذخائره، وسار إلى دمشق، وعمل والياً عليها ـ سنة ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ م. وبقي حسان متشرداً لمدة سنتين، وسار والده إلى مصر، فأمنه الحاكم، وأقطعه، وسار حسان إلى مصر فأكرمه وأحسن إليه. ثم عمل الحاكم على دس السم الى مفرج والد حسان فمات مسموماً. وضعف أمر حسان.

يمكن بعد ذلك تجاوز ما وقع على أرض ـ افريقية ـ من صراعات بين مراكز القوى المختلفة وكذلك ما وقع منها على أرض بلاد الشام، للتوقف قليلاً على ما حدث في مصر ذاتها ـ سنة ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦ م، مما كان له علاقة مباشرة بحاكم مصر. ففي هذه السنة، **عظم أمر الوليد ـ الذي عرف بلقب أبي ركوة ـ لأنه كان يحمل معه ركوة في أسفاره اقتداء بسنة الصوفية ـ وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ـ ويقرب في النسب من المؤيد هشام بن الحاكم الأموي أمير الأندلس. وكان أبو ركوة هذا قد هرب من الأندلس عندما سيطر الحاجب المنصور بن أبي عامر على حكم الاندلس، واحتجز المؤيد وأخفاه عن الناس وتتبع أهله من بني أمية ممن يصلح منهم للملك فقتل من استطاع قتله منهم وهرب الباقون فتشردوا ـ ومنهم أبو ركوة الذي لم يكن عمره يومها اكثر من عشرين عاماً.** فسار إلى مصر، وكتب الحديث، ثم سار إلى مكة واليمن، وعاد إلى مصر، ودعا بها إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله. **وكانت الظروف في مصر مهيأة لقبول مثل هذه الدعوة، فقد أسرف الحاكم بأمر الله في قتل القادة وحبسهم ومصادرة أموالهم والتضييق عليهم، فأصبحت القبائل في حالة شديدة من العسر والضنك، وباتت وهي على استعداد للتمرد والثورة بعد أن امتدت يد الحاكم بأمر الله إلى شيوخ هذه القبائل ورجالها بالقتل والحبس.** واستجاب ـ بنوقرة ـ قبل سواهم لدعوة ـ أبي ركوة ـ ثم تبعتهم قبائل أخرى كان العداء مستحكماً بينها، ثم جاء ظلم الحاكم بأمر الله ليدفعها نحو الصلح والتعاون ضد الحاكم بأمر الله (وهكذا زال العداء بين زناتة وبين بني قرة، وترك رجال القبيلتين وراء ظهورهم ما كان بينهم من حروب، وما كان يفصل بينهم من دماء). وأقام ـ أبو ركوة ـ في وسط بني قرة، وانصرف لتعليم الخط والدين لصبيانهم، وعرف رجال بني قرة ما كان عليه أبو ركوة من الصلاح والنسك، فعهدوا إليه أن يكون الامام في صلواتهم. وشرع أبو ركوة في دعوتهم للعمل ضد الحاكم بأمر الله، فاستجابوا له، وبايعوه، واتفقوا عليه، وخاطبوه ـ هم وزناتة ـ بالإمامة. وكانوا بنواحي برقة. فلما علم حاكم برقة ـ الوالي ـ بأمر أبي ركوة، كتب إلى الحاكم بأمر الله، واستأذنه في التوجه لحربه، فمنعه من ذلك. ولم يمهله

أبو ركوة على كل حال، فسار بجموع بني قرة وزناتة إلى برقة بعد أن اتفق معهم على أن يحتفظ لنفسه بثلث الغنائم وأن يترك لهم الثلثين يقتسمانها بين زناتة وبين بني قرة. وخرج حاكم برقة للقتال ودارت معركة ضارية انتصر فيها أبو ركوة ودخل برقة، وقوي هو ومن معه بما حصلوا عليه من الأموال والسلاح وغيره. وجمع أهل برقة مائتي الف دينار لأبي ركوة، كما أخذ رجلاً من اليهود كان متهماً بالودائع، فاستولى منه على مائتي ألف دينار. وضربوا السكة - الدنانير والدراهم - وعليها ألقاب أبي ركوة - وخطب بالناس، في خطبة يوم الجمعة، ولعن الحاكم في خطبته، وأصبح جيش أبي ركوة يضم ستة عشر ألف مقاتل. ونادى منادي أبي ركوة، فأمر بالكف عن الرعية، والامتناع عن النهب، وأظهر العدل، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

وصل المنهزمون من برقة إلى مصر، ودخلوا على الحاكم بأمر الله، وأعلموه بما حدث، فعظم عليه الأمر، وأهمته نفسه وملكه، وعاود الاحسان إلى الناس، والكف عن أذاهم. ونـدب، عسكـراً نحو خمسـة آلاف فـارس بقيـادة - ينـال الطويل -. فسار ينال بمن معه حتى وصل إلى - الحمام - وبينها وبين برقة صحراء - مفازة - ليس فيها إلا منزلان، لا يلقى السالك الماء إلا في آبار عميقة، لا يمكن الوصول إليها إلا بصعوبة وشدة، فوجه أبو ركوة قوة من ألف فارس، وأمرهم بالسير إلى - ينال ومطاردته قبل وصوله إلى الماء، والعمل على تغوير الآبار - ردمها - عند عودتهم. ففعلوا ذلك، وعادوا. وسار أبو ركوة حينئذ بقواته، فلقي ينال ورجاله وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش، فقاتلهم، واشتد القتال، وانقض ينال على مقاتلي أبي ركوة، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأبو ركوة واقف مع كتلة قواته الرئيسة دون أن يشترك في المعركة. واستأمن إليه جماعة كثيرة من رجال كتامة لما نالهم من الأذى والقتل على يد الحاكم بأمر الله. وأخذوا الأمان لمن بقي من أصحابهم الذين لم يلبثوا حتى لحقوا بهم. فحمل بهم عندها - أبو ركوة - فقتل كثيراً ممن بقي مع ينال الذي وقع أسيراً. فطلب إليه أبو ركوة أن يلعن الحاكم ليخلي سبيله، فرفض هذا وبصق في وجه أبي ركوة، فأمر بقتله، وقطع إرباً إرباً، وأخذ أبو ركوة مائة الف دينار كانت مع ينال، وجميع ما كان معه. وعاد أبو ركوة إلى برقة وقد امتلأت أيدي جنده

بالغنائم وانتشر ذكره، وعظمت هيبته. وأقام ببرقة، وترددت سراياه إلى الصعيد وأرض مصر: **وقام الحاكم بأمر الله وقعد، وأسقط في يده، وندم على ما فرط، وفرح جند مصر وأعيانها. وعلم الحاكم ذلك، فاشتد خوفه وقلقه وأظهر الاعتذار عن الذي فعله. وكتب الناس إلى أبي ركوة يستدعونه، وممن كتب إليه - الحسين بن جوهر - المعروف بقائد القواد.** فسار حينئذ عن برقة إلى الصعيد، وعلم الحاكم بأمر الله، فبلغ منه الذعر كل مبلغ، وجمع جنده واستشارهم. وكتب إلى الشام يستدعي الجند، فجاءه الدعم من الشام. وفرق الأموال والسلاح والخيول. وبلغ عدد أفراد جيشه اثني عشر ألف رجل بين فارس وراجل سوى العرب، فأسند قيادتهم إلى - الفضل بن عبدالله - ووجهه لقتال أبي ركوة. فلما اقترب من أبي ركوة، أراد أبو ركوة مهاجمته، غير أن الفضل امتنع عن خوض المعركة، واكتفى بمشاغلته، وأخذ باجراء الاتصالات مع كبار رجال أبي ركوة، لاغرائهم واستمالتهم، **فأجابه قائد كبير من بني قرة - اسمه الماضي - وأخذ يإعلامه عن أخبار أبي ركوة ونواياه.** وتناقصت المواد التموينية في معسكر الفضل مما اضطره لخوض المعركة التي وقعت في - كوم شريك - فقتل من الفريقين عدد كبير من الجند. ورأى الفضل من جمع أبي ركوة ما أفزعه، فرجع إلى معسكره. **وراسل بنوقرة العرب الذين في معسكر الفضل يستدعونهم إليهم ويذكرونهم بأعمال الحاكم بأمر الله،** وما فعله بهم، فأجابوهم. واتفقوا على أن تكون الشام للعرب، وأن تبقى مصر لأبي ركوة ومن معه. وحددوا موعداً في ليلة يسير فيها أبو ركوة إلى الفضل، فإذا اشتبك معه تخلى العرب عنه وانهزموا، فلا يبقى في مصر من يجابهه **- وأسرع - الماضي - فكتب سرا إلى الفضل بما تم الاتفاق عليه.** فلما كان ليلة الميعاد، جمع الفضل رؤساء العرب ودعاهم للافطار عنده، وأظهر أنه صائم، وطاولهم الحديث وتركهم في خيمة واعتزلهم، ووصى أصحابه بالحذر. وأراد رؤساء العرب العودة إلى خيامهم فتمهلهم الفضل وطاولهم ثم أحضر الطعام، فأكلوا وتحدثوا. ووجه الفضل سرية إلى طريق أبي ركوة، فاصطدمت السرية بقوة متقدمة من قوات أبي ركوة، ودارت رحى معركة بين القوتين، ووصل الخبر إلى معسكر الفضل، فاهتاج الجند، وأراد رؤساء العرب الركوب

فمنعهم الفضل، وأرسل إلى أصحابهم ممن لا علم لهم بالاتفاق، وأمرهم بالركوب للقتال، فركبوا واشتد القتال، ورأى رجال بنوقرة أن الأمر مختلف عما تم الاتفاق عليه. ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد ضاعت منهم الفرصة لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه، فتورطوا بالحرب. وجاء أبو ركوة بقواته لدعم القوات المشتبكة في المعركة، فلما رآه الفضل انسحب بقواته، وعاد إلى الدفاع والتملص. وجهز الحاكم بأمر الله قوة أخرى من أربعة آلاف فارس، وعبروا إلى الجيزة، فلما علم أبو ركوة بتحركهم أسرع لقتالهم، وضبط الطرق حتى لا يعلم الفضل بتحركه. ولم يتمكن ـ الماضي ـ من إرسال المعلومات إلى الفضل. وقطع ـ أبو ركوة ـ مسيرة خمس ليال في ليلتين، وباغتوا فرسان الحاكم بالجيزة، فقتلوا منهم ألف فارس تقريباً. وخاف أهل مصر، ولم يخرج الحاكم من قصره، واكتفى بتوجيه القوة المتوافرة عنده إلى الجيزة. ورجع أبو ركوة فنزل عند الهرمين، ثم انصرف من يومه. وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً ليقرأه على القادة وجاء فيه: «إن أبا ركوة قد انهزم أمام جندنا». وكتب إليه سراً يعلمه الحال، فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبي ركوة تسكيناً للناس. ثم سار أبو ركوة إلى موضع يعرف باسم ـ السبخة ـ وهو موضع كثير الأشجار. وتبعه الفضل، وكمن أبو ركوة بقواته بين الأشجار، وطارد جند الفضل، وتظاهر جند أبي ركوة بالانسحاب والتراجع ليستجروا جند الفضل نحو الكمين. فلما رأى جند الكمين قوات أبي ركوة وهو يتراجع ظنوها الهزيمة، فولوا يتبعونهم، وطاردهم جند الفضل فقتلوا منهم ألوفاً كثيرة. وانهزم أبو ركوة ومعه بنوقرة. وساروا إلى معسكرهم. فلما بلغوها أراد أبو ركوة إعادة تنظيم قواته والانطلاق بها للهجوم. لكن ـ الماضي ـ أحبط المحاولة وأمكن له اقناع كبار القادة في بني قرة. فقالوا له: «قد قاتلنا معك حتى لم تبق لدينا قدرة على القتال، فخذ لنفسك وانج». فسار إلى النوبة، ووصل إلى حصن يعرف باسم ـ حصن جبل النوبة ـ وحاول الاستيلاء على الحصن بالخديعة، لكن الفضل كان يتحرك بسرعة اكبر، فأرسل إلى حاكم الحصن يعلمه بحقيقته. وبذلك أمكن إلقاء القبض عليه. فحمل إلى ـ الفضل ـ الذي أكرمه وأنزله في مضاربه. ثم حمله إلى مصر. وحاول أبو ركوة الاعتذار للحاكم بأمر الله واستعطافه، لكن الحاكم لم يغفر له ذنبه، وأمر به فشهر في

مصر، وطيف به. ولما أراد قتله وجده ميتاً (*) ومرض الفضل فبالغ الحاكم بأمر الله بإكرامه حتى انه عاده في مرضه مرتين، فاستعظم الناس ذلك، حتى إذا ما عوفي من مرضه. أمر بقتله فقتل.

استراح الحاكم بأمر الله من شر ـ أبي ركوة ـ فلما كانت السنة التالية (٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م) أصدر الحاكم أمراً بهدم بيعة قمامة وهي بالبيت المقدس ـ كنيسة القيامة ـ وأباح للعامة نهب ما فيها من الأموال والأمتعة وغير ذلك، وكان السبب هو ما يمارسه النصارى من الزور والبهتان في يوم الفصح، حيث يحتالون بالنار على الجهلة ويزعمون أنها نزلت من السماء. وهي نار كان يتم صنعها بدهن البلسان في خيوط الابريسم، ويدهنون الرقاع بالكبريت وغيره بصناعة لطيفة لخداع الطغام والعوام. كما أمر الحاكم بهدم عدة كنائس ببلاد

(*) كتب أبو ركوة إلى الحاكم بأمر الله رسالة جاء فيها: «يا مولاي، الذنوب عظيمة، وأعظم منها عفوك، والدماء حرام ما لم يحللها سخطك، وقد أحسنتَ وأسأتُ، وما ظلمت إلا نفسي، وسوء عملي أوبقني.». وأقول:

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن	مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة	سوى فزرع الموت الذي أنا شارب
وقد قادني جرمي إليك برمتي	كما خر ميتاً في رحى الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي	فيارب ظن ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي	وأخذك منه واجباً لك واجب

ولكن الحاكم بأمر الله لم يصفح عن أبي ركوة، وأمر أن يشهر به على جمل ويطاف به، وزينت القاهرة أحسن زينة، وكان بها شيخ يقال له ـ الابزاري ـ إذا خرج خارجي صنع له طرطوراً، وعمل فيه ألوان الخرق المصبوغة، وأخذ قرداً، ووضعت في يده درة ـ عصاً ـ قد درب على أن يضرب بها الخارجي من ورائه. فأركب أبو ركوة جملاً بسنامين. وألبس الطرطور. وأركب الابزاري خلفه والقرد بيده الدرة وهو يضربه والجند حوله. وبين يديه خمسة عشر فيلاً مزينة. ودخل القاهرة ورؤوس أصحابه بين يديه، قد رفعت على الخشب والقصب. وجلس الحاكم في سدة على باب الذهب وقد وقف الحرس من الترك والديلم، عليهم السلاح، وبأيديهم السيوف والرماح، وتحتهم الخيول عليها الدروع السابغة ـ التجافيف ـ وكان يوماً عظيماً. وأمر الحاكم بإخراج أبي ركوة وهو على هذه الصورة إلى ظاهر القاهرة، وضرب عنقه. فلما حمل إلى هناك وانزل، وجد ميتاً ـ فحمل إلى الحاكم، فأمر بصلبه. (سنة ٣٩٧ هـ).

مصر . ونودي في النصارى: « من أحب الدخول في دين الإسلام دخل، ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمناً . ومن أقام منهم على دينـه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم بفرض تعليق الصلبان على صدورهم . وأن يكون الصليب من خشب زنته أربعة أرطال . وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة أرطال . وأن يكون في عنق الواحد منهم إذا دخل الحمام قربة زنة خمسة أرطال ـ بأجراس، وأن لا يركبوا خيلاً . ثم عاد بعد هذا كله، فأمر بإعادة بناء الكنائس التي هدمها . وأذن لمن أسلم منهم في الارتداد إلى دينه . وقال: « ننزه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له، ولا يعرف باطنه » .

أصدر الحاكم بأمر الله أمره سنة ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م بإلغاء صلاة التراويح. فضج الناس واشتدت وطأتهم على ملك مصر ـ الحاكم ـ لكثرة ما فعله بالناس من الأمور المنكرة التي خرق فيها السنن، وجأر الناس بالدعاء على الحاكم في اعقاب الصلوات، وظوهر بذلك، فأشفق الحاكم وخاف، وأمر بعمارة دار العلم بمصر وفرشها، ونقل إليها الكتب العظيمة. وأسكنها من شيوخ السنة شيخين (في سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م) أحدهما هو أبو بكر الانطاكي. وخلع عليهما، وقربهما. ورسم لهما بحضور مجلسه وملازمته، وجمع الفقهاء والمحدثين إليها. وأمر أن يقرأ بها فضائل الصحابة، ورفع عنهم الاعتراض في ذلك. وأطلق صلاة التراويح والضحى. وغير الأذان. وجعل مكان (حي على خير العمل) (الصلاة خير من النوم). وركب بنفسه إلى جامع عمرو بن العاص، وصلى فيه الضحى. وأظهر الميل إلى مذهب الامام مالك والقول به. ووضع للجامع تنوراً من فضة يوقد فيه ألف ومائتا فتيلة واثنين آخرين من دونه، وزفهم بالدبادب والبوقات والتهليل والتكبير. ونصبهم ليلة النصف من شعبان. وحضر أول يوم من رمضان إلى الجامع الذي بالقاهرة، وحمل إليه الفرش الكثيرة وقناديل الذهب والفضة، فكثر الدعاء له ولبس الصوف في هذه السنة يوم الجمعة، عاشر شهر رمضان وركب الحمار وأظهر النسك. وخطب بالناس يوم الجمعة، وصلى بهم، ومنع من أن يخاطب بلقب (مولانا) ومن (تقبيل الأرض بين يديه). وخصص الرواتب لمن يأوي المساجد من الفقراء والقراء والغرباء وأبناء السبيل وأجرى لهم الأرزاق. وصاغ محراباً

عظيماً من فضة وعشرة قناديل. ورصع المحراب بالجوهر ونصبه بالمسجد الجامع. وأقام على ذلك ثلاث سنين، يحمل الطيب والبخور والشموع إلى الجوامع، وفعل ما لم يفعله أحد. وعاد الحاكم لطبيعته بعد ذلك، فقتل الفقيه أبا بكر الانطاكي، والشيخ الآخر. وخلقاً كثيراً آخرين من أهل ـ السنة ـ لا لأمر يقتضي ذلك، وفعل ذلك كله في يوم واحد. وأغلق دار العلم ومنع من جميع ما كان فعله. وزاد على ما كان يفعله من قتل للعلماء والفقهاء.

لم يكن باستطاعة الخلفاء العباسيين تجاهل ما يمثله الحكم في مصر، لاسيما بعد أن استطاع هذا الحكم السيطرة على أقطار واسعة من أقاليم العالم الإسلامي باسم ـ **التشيع** ـ فصدر **في سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م محضر ببغداد، حرره كبار رجال الشيعة** وسواهم ـ وتضمن **القدح في نسب العلويين خلفاء مصر. وكتب فيه المرتضى** وأخوه الرضي وابن البطحاوي العلوي وابن الأزرق الموسوي والزكي أبو يعلى عمر ابن محمد وعدد من القضاة والعلماء، وجاء فيه: « هم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي ـ اخوان الكافرين ونطف الشياطين ـ شهادة يتقربون بها إلى الله، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر، وهو منصور ابن نزار الملقب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال ـ ابن معد بن إسماعيل ابن عبدالرحمن بن سعيد ـ لا أسعده الله، فإنه لما صار إلى المغرب، تسمى بعبيد الله، وتلقب بالمهدي. هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ـ عليه وعليهم اللعنة ـ أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وأن ذلك باطل وزور. وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبيين توقف عن اطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الانكار شائعاً بالحرمين في أول أمرهم بالمغرب. منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم. أو يذهب وهم إلى تصديقهم. وان هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق وفجار وزنادقة، ولمذهب التنويه والمجوسية معتقدون، وقد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية ـ وكتب في شهر ربيع الآخر ـ سنة اثنتين واربعمائة ».

مضى الحاكم بأمر الله قدماً مع تناقضاته، ففي سنة ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م أصدر

الحاكم أمره بإبطال المنجمين وطردهم من بلاده، وأعتق أكثر مماليكه، وأمر بحبس النساء في البيوت، وصلحت سيرته واستمر في ذلك حتى سنة ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م حيث أمر بمنع النساء من الخروج من بيوتهن أبداً؛ ومن أن يطلعن من الأسطحة ومن الطاقات ومن دخول الحمامات، وأبطل صنعة الخفاف لهن، وقتل عدة نسوة خالفن أمره، وأغرق جماعة من العجائز، وهدم بعض الحمامات على النساء. وجهز نساء عجائز كثيرة يستعلمن أحوال النساء، واعداد قوائم بأسماء من يعشقن أو من يعشقهن، وأسماء من يتعرض لهن. فمن وجد منهن كذلك، قتلها وأهلكها. ثم إنه أكثر من الدوران بنفسه ليلاً ونهاراً في البلد في طلب ذلك، فضاق الحال، واشتد على النساء وعلى الفساق إذ لم يتمكن أحد منهم أن يصل إلى أحد - إلا نادراً.

لقد افتضحت الشيعة؛ وسقط قناع التشيع، وبدأ التفجر ضد الشيعة في كل مكان.

ففي سنة ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م. وبينما كان المعز بن باديس راكباً في القيروان، والناس يسلمون عليه ويدعون له، مر بجماعة فسأل عنهم فقيل له: «هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر». فقال المعز أمير افريقية: «رضي الله عن أبي بكر، وعمر». وتفجر الغضب الدفين دفعة واحدة، فتسارع الناس إلى درب المقلى من القيروان حيث كانت تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم. وانبسطت أيدي العامة في الشيعة، وأغراهم عامل القيروان وحرضهم، فقتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم. وقتلوا في جميع افريقية. واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور - قرب القيروان، فتحصنوا به، فحصرهم العامة وضيقوا عليهم، فاشتد عليهم الجوع، فأخذوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم. ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع، فقتلوا كلهم. وكانت الشيعة تسمى بالمغرب - المشارقة - نسبة إلى عبيد الله الشيعي الذي جاء من المشرق. وأكثر الشعراء ذكر هذه الحادثة.

بينما كانت هذه التطورات تأخذ مساراتها على أرض المغرب، كان المشرق يعيش تطورات مماثلة. ففي البصرة وواسط وقعت فتنة كبيرة بين أهل السنة والشيعة فانتصر أهل السنة وهرب وجوه الشيعة والعلويين. واجتاحت بغداد فتنة مماثلة (سنة ٤٠٨ هـ). فعمل أمير المؤمنين القادر بالله على استتابة فقهاء المعتزلة، فأظهروا الرجوع

وتبرؤوا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذت خطوطهم - تواقيعهم - بذلك. وأنهم متى خالفوا أحل فيهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم. **وعمل - محمود بن سبكتكين - على تنفيذ أمر أمير المؤمنين، واستن بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من بلاد خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة، وصلبهم وحبسهم ونفاهم وأمر بلعنهم على المنابر**. وأبعد جميع طوائف أهل البدع، ونفاهم عن ديارهم. وصار ذلك سنة في ديار الإسلام. أما في - مصر - ذاتها، مقر الحاكم بأمر الله وقاعدته، فقد وصل الهيجان ذروته (سنة ٤١١ هـ = ١٠٢٠ م) حيث أظهر أهلها الكره للحاكم من سوء أفعاله، فكانوا يكتبون إليه الرقاع وفيها سبه وسب أسلافه، والدعاء عليه، حتى انهم عملوا من قراطيس صورة امرأة وبيدها رقعة، فلما رآها ظن أنها امرأة تشتكي، فأمر بأخذ الرقعة منها، فقرأها، وفيها كل لعن وشتيمة قبيحة، وذكر حرمه بما يكره، فأمر باحضار المرأة، فقيل له: «إنها من قراطيس». فأمر باحراق مصر ونهبها. ففعلوا ذلك، وقاتل أهلها أشد قتال، وانضم إلى أهل مصر في اليوم الثالث الاتراك والمشارقة، فاشتدت شوكتهم، وأرسلوا إلى الحاكم يسألونه الصفح ويعتذرون، فلم يقبل، فهددوه، ولما رأى قوتهم أمر بالكف عنهم وقد أحرق بعض مصر ونهب بعضها. وتتبع المصريون من أخذ من نسائهم وأولادهم، فابتاعوا ذلك بعد أن فضحوهن، فازداد غيظهم منه وحنقهم عليه. ثم ان الحاكم بأمر الله أوحش أخته (**ست الملك**) وأرسل إليها مراسلات قبيحة قال فيها: «**بلغني أن الرجال يدخلون إليك**» وتهددها بالقتل. فأرسلت إلى قائد كبير من قادة الحاكم. **اسمه ابن دواس**، وكان أيضاً يخاف الحاكم - وقالت له: «اني أريد أن ألقاك» فحضرت عنده وقالت له: «**قد جئت إليك في أمر تحفظ به نفسك ونفسي. وأنت تعلم ما يعتقده أخي فيك. وهو إذا ما تمكن منك فإنه لن يبقي عليك. وأنا كذلك، وقد انضاف إلى هذا ما تظاهر به مما يكرهه المسلمون ولا يصبرون عليه. وأخاف أن يثوروا به فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة**». فأجابها إلى ما أرادت. فقالت له: «إنه يصعد إلى هذا الجبل غداً، وليس معه غلام إلا الركابي وصبي، وينفرد بنفسه. فتقيم رجلين تثق بهما

يقتلانه ويقتلان الصبي. وتقيم ولده بعده. وتكون أنت مدبر الدولة ـ وأزيد في اقطاعك مائة ألف دينار ».

ركب الحاكم بأمر الله في اليوم التالي، على عادته، وخرج يطوف حتى وصل إلى شرقي حلوان، ومعه ركابيان، فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وامر لهم بجائزة. ثم عاد الركابي الآخر. وضاع كل أثر للحاكم. فلما كان ثالث ذي القعدة، خرج صاحب المظلة ـ مظفر الصقلبي ـ وغيره من خواص الحاكم، ومعهم القاضي، فبلغوا حلوان. ودخلوا في الجبل. فبصروا بالحمار الذي كان عليه راكباً، وقد ضربت يداه بسيف وعليه سرجه ولجامه. فاتبعوا الأثر، فانتهوا إلى البركة التي شرقي حلوان، فرأوا ثيابه، وهي سبع قطع صوف، وهي مزرورة بحالها لم تحل. وفيها أثر السكاكين، فعادوا ولم يشكوا في قتله.

هكذا عاش الحاكم بأمر الله حياة غريبة، ومات ميتة أكثر غرابة (*)

كان قادة الجند والرؤساء قد أرسلوا خلال ذلك إلى ـ ست الملك ـ يسألون عن الحاكم، فقالت لهم: « ذكر لي أنه يغيب سبعة أيام. وما هنا إلا الخير ». فانصرفوا على سكون وطمأنينة. ومضت ـ ست الملك ـ إلى ترتيب الأمور. وبعثت الأموال إلى القواد على يد ـ ابن دواس ـ. فلما كان اليوم السابع؛ ألبست ـ أبا الحسن علي بن الحاكم ـ أفخر الملابس، وهو صبي، واستدعت ابن دواس وقالت له: « المعول في قيام هذه الدولة عليك، وتدبيرها موكل اليك، وهذا الصبي ولدك، فابذل في خدمته وسعك » فقبل الأرض، ووعدها بالطاعة، ووضعت التاج على رأس الصبي ـ وهو تاج عظيم فيه من الجواهر ما لا يوجد في خزانة خليفة، وهو تاج المعز جد أبيه ـ وأركبته مركباً من مراكب الخليفة وخرج بين يديه الوزير وأرباب الدولة. فلما صار إلى باب القصر.

(*) الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور ابن العزيز بالله نزار بن المعز العلوي ـ حاكم مصر ـ وسادس الخلفاء العبيديين (٣٧٥ ـ ٤١١ هـ = ٩٨٥ ـ ١٠٢٠ م) مات وعمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر ومدة حكمه خمس وعشرون سنة. كان جواداً بالمال، سفاكاً للدماء. خلفه ابنه أبو الحسن علي بن الحاكم. بوصاية ست الملك ـ ولقب بلقب الظاهر لإعزاز دين الله.

صاح ابن دواس: **«يا عبيد الدولة؛ مولاتنا السيدة تقول لكم: هذا مولاكم، فسلموا عليه»** فقبلوا الأرض بأجمعهم. وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل. وبايعوا له: ولقب الظاهر لإعزاز دين الله. وكتبت الكتب إلى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة له. وأقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيام. واستدعت ـ ست الملك ـ القائد ابن دواس ـ وقالت له: «غداً نخلع عليك». فقبل ابن دواس الأرض؛ وفرح. وأصبح من الغد فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهى ـ وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه ويحملون السيوف بين يديه ويقتلون من يأمرهم بقتله. فاستدعتهم ـ ست الملك ـ وأغلقت أبواب القصر. وقالت لنسيم صاحب الستر: **«اخرج وقل للعبيد: ان ابن دواس هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه»** وقتل ابن دواس، وقتل معه العبدين اللذين قتلا الحاكم، وقتل كل من اطلع على سرها. فقامت الهيبة ـ لست الملك ـ في النفوس، واستقام لها الأمر. وعاشت بعد الحاكم أربع سنين وماتت.

د ـ ضعف من بعد قوة.

لقد ظهرت بواكير الضعف في فكر الدولة العبيدية ـ العلوية الفاطمية ـ وفي ممارسات حكامها؛ غير أنها بقيت تمتلك قدراً كافياً من القوة لمتابعة دورها. ولقد جاء الظاهر لاعزاز دين الله ـ والدولة في حالة انهيار، وبقيت (ست الملك) تمارس دورها بكفاءة عالية حتى توفيت سنة ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م، فاضطلع الظاهر بأعباء الحكم بكفاءة، وتوافر له رجال أكفاء، ففوض الأمور إلى وزيره أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي[١] وكان الحاكم في دولته أمير الجيوش بدر بن عبدالله الجمالي ـ والذي كان

(١) أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي. كان وزير الظاهر، ثم وزير المستنصر، سلك في وزارته العفة العظيمة ـ وكانت علامته (الحمد لله شكراً لنعمه). غضب عليه الحاكم بأمر الله، فأمر بقطع يديه من المرفقين سنة ٤٠٤ هـ. ثم استعمله في بعض اعماله سنة ٤٠٩ هـ ـ وأصبح وزيراً سنة ٤١٩ هـ. وتوفي سنة ٤٣٦ هـ ـ ومارس اعماله جميعها وهو مقطوع اليدين. ولم يعدم رغم ما اشتهر عنه من العفة، شاعراً يهجوه بقوله:

يا أجعأ إسمع وقل ... ودع الرقاعة والتحامق
أأقمت نفسك في الثقا ... ت وهبك فيما قلت صادق
أمن الأمانة والتقى ... قطعت يداك من المرافق

عادلاً، حسن السيرة. فأمكن له الاحتفاظ بمصر والشام. وكان جميل السيرة، حسن السياسة منصفاً للرعية، وساعده استقرار الأمور له، واعتماده على رجال أكفاء، للانصراف إلى ملذاته، والعيش حياة الدعة والراحة. وجاءه الموت(*) فخلعه ابنه المستنصر بالله، الذي لم يكد يبدأ عهده حتى جاء اليه (**الحسن بن الصباح الاسماعيلي**) في زي تاجر، وطلب منه الاذن بالسماح له بنشر الدعوة له بخراسان وبلاد العجم ـ بلاد فارس ـ فأذن له في ذلك، فقال له الحسن: «**ومن إمامي بعدك؟**» فأجابه المستنصر: «**ابني نزار**». وهكذا نشأ الاعتقاد لدى الاسماعيلية بإمامة نزار.

استمر الصراع بين العباسيين والعلويين. وفي سنة ٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م، أعلن أمير حران والرقة ـ شبيب بن وثاب النميري ـ قطع خطبة المستنصر بالله وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله وفي سنة ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م. أعلن أمير افريقية ـ المعز بن باديس ـ الدعاء للدولة العباسية، وخطب لأمير المؤمنين القائم بأمر الله، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد افريقية وجميع ما يفتحه. وجاء في الكتاب الذي حمله رسول أمير المؤمنين القائم: «**من عبدالله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين، إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام وشرف الإمام وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيد سنة رسول الله ﷺ ـ أبي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي أمير المؤمنين بولاية المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين:.. الخ**». وأرسل إليه سيفاً وفرساً وأعلاماً، فوصلت إلى المعز يوم الجمعة، وأدخلت إلى الجامع والخطيب ـ ابن الفاكاه ـ على المنبر يخطب الخطبة الثانية. فقال الخطيب: «**هذا لواء الحمد يجمعكم، وهذا معز الدين ـ ابن باديس ـ يسمعكم، وأستغفر الله لي ولكم**» وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت، وأحرقت أعلامهم.

(*) الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن علي بن أبي علي المنصور ـ سابع الخلفاء العبيديين (٣٩٤ـ٤٢٧ هـ = ١٠٠٣ـ١٠٣٥ م) كانت مدة حكمه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر ونيف. خطب له في مصر والشام وافريقية. خلفه ابنه المستنصر بالله.

كان (الحسن بن الصباح الاسماعيلي) قد انصرف منذ سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م لنشر الدعوة لطاعة المستنصر بالله صاحب مصر. وتبعه جمع كبير من الناس، وأظهر مذاهب أنكرها أهل بلاد ما وراء النهر. وعلم أمير البلاد ـ بفراجان ـ خبر الاسماعيلية. وأراد الايقاع بهم، وخاف أن يسلم منه بعض من أجابهم لدعوتهم من أهل تلك البلاد، فتظاهر لبعضهم أنه يميل إليهم، وأنه يريد الدخول في مذاهبهم. وأحضرهم مجالسه، ولم يزل معهم حتى عرف جميع من أجابهم، حتى إذا ما كانت سنة ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م، عمل على قتل الاسماعيلية الذين كانوا في قبضته، وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها. فقتلوا.

قام المعز بن باديس بإرسال اسطوله لغزو جزائر القسطنطينية (سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧ م). فظفر الاسطول وغنم وعاد. وسار المستنصر على الاتجاه المضاد، فعمل على تجديد الهدنة التي كانت معقودة بين دولته وبين الروم ـ البيزنطيين ـ وحمل المستنصر لملك الروم هدية عظيمة قابلها ملك الروم بهدية مماثلة ـ على ما جرت به العادة. وبات باستطاعة المستنصر توجيه جهده نحو افريقية، فأخذ في إرسال العرب إلى الغرب (سنة ٤٤٢ هـ = ١٠٥٠ م) وأصلح ما كان بين ـ بني زغبة ورياح من العداء إذ كان بينهم حروب وأحقاد كثيرة ـ وأعطاهم الأموال، وأمرهم بالسير إلى القيروان وملكهم ما يفتحونه، ووعدهم بالدعم والامدادات. ووصل العرب إلى أرض برقة وما حولها، فوجدوا بلاداً كثيرة المرعى، خالية من الأهل، لأن زناتة كانوا أهلها، فأبادهم المعز ابن باديس فأقامت العرب بها واستوطنتها، وعاثوا فساداً في أطراف البلاد. وبلغ ذلك المعز، فأهمل أمرهم استصغاراً لشأنهم واستخفافاً بهم. وبدأت العرب بالتوسع. فملكت مدينة طرابلس (سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م) وتتابع وصول القبائل العربيةَ إلى افريقية، فوصلت بعد بني زغبة ورياح قبائل الاسبنج وبنو عدي. واتفقت كلمة القبائل على تنصيب (**مؤنس بن يحي المرداسي**) شيخاً عليها، تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه. وسار أمراء العرب إلى ـ المعز بن باديس ـ فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً. فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت

أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فقرر المعز بن باديس العمل ضد العرب، وكان المعز لما رأى تقاعد صنهاجة عن قتال زناتة، اشترى العبيد وأوسع لهم في العطاء، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك. فقادهم مع من انضم إليه من صنهاجة فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها من الرجالة ـ المشاة. وسار إلى جندران ـ وهو جبل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام. وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز، هالهم ذلك وعظم عليهم. فقال لهم (مؤنس بن يحيي المرداسي): «ما هذا يوم فرار». فسألوه: «أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الدروع ـ الكذاغندات ـ والمغافر؟» فأجابهم: «العيون». والتحم القتال، واشتدت الحرب. فاتفقت صنهاجة على التراجع وترك المعز مع عبيده حتى يرى فعلهم ويقتل أكثرهم؛ فعند ذلك يرجعون لمهاجمة العرب، وانسحبت صنهاجة، وثبت العبيد مع المعز وكثر القتل فيهم، وعندما أرادت صنهاجة الرجوع لمهاجمة العرب، لم تتمكن من ذلك، واستمرت الهزيمة. وقتل من صنهاجة عدد كبير. ودخل المعز بن باديس مدينة القيروان مهزوماً، على كثرة من معه(*) . وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال ومتاع. وصمم المعز على الانتقام لهذه الهزيمة، فجمع جيشاً من سبعة وعشرين ألف فارس. وأخفى استعداداته، ثم انطلق بسرعة ليسبق الاخبار. وباغت العرب وهم في صلاة عيد يوم النحر. فركبت العرب خيولهم، وقامت بهجوم مضاد. وانهزمت صنهاجة. وقتل منهم عالم كثير. ثم جمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير، فلما أشرف على بيوت العرب وهو جنوب جبل جندران. ووقع الاشتباك، واشتد القتال، وكانت العرب سبعة آلاف فارس، فانهزمت صنهاجة ومضى كل رجل منهم إلى منزله، وانهزمت زناتة، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله. ثم انهزم وعاد إلى المنصورية. وأحصى من قتل من صنهاجة ذلك اليوم، فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة. ثم أقبلت العرب حتى نزلت بمصلى القيروان. وتجددت الحرب،

(*) وفي ذلك قال بعض الشعراء:

وابن باديس لأفضل مالك ... ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهم غلبتهم ... ثلاثة آلاف إن ذا لمحال

فقتل من أهل المنصورية ورقادة خلق كثير. فلما رأى ذلك المعز، سمح لهم بدخول القيروان للحصول على ما يحتاجون إليه. فلما دخلوا استطالت عليهم العامة ووقعت بينهم معركة، وحاصرت العرب القيروان. واستولى ـ مؤنس بن يحيى ـ على مدينة باجة. وطلب المعز إلى الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب. وشرعت العرب في هدم الحصون والقصور وقطع الثمار وتخريب الأنهار، فيما كان المعز والناس ينتقلون إلى المهدية حتى سنة ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م. ودخلت العرب القيروان فنهبوها. وعظم شأن العرب، واشتركوا مع بلكين في حرب زناتة سنة ٤٥٠ هـ ـ فانهزمت زناتة وقتل منها عدد كثير. ثم وقعت الحرب بين العرب وبين هوارة سنة ٤٥٣ هـ ـ فانهزمت هوارة وقتل منها الكثير. وتمكن المستنصر بذلك من اشغال المعز ابن باديس بنفسه، وصرفه عن التفكير بالتعرض له.

لقد أفاد المستنصر من قوة العرب لضرب خصومه في افريقية، كما أفاد منهم للقضاء على خصومه في مصر ذاتها، على نحو ما حدث سنة ٤٤٣ هـ = ١٠٥١ م. عندما أعلن بنوقرة تمردهم على المستنصر، وأقاموا بالجيزة ـ مقابل القاهرة ـ وتظاهروا بالفساد. فوجه إليهم المستنصر بالله جيشاً لقتالهم، لكن بني قرة انتصروا على هذا الجيش، واكثروا فيه القتل، ثم انتقلوا إلى طرف البر. وعظم الأمر على المستنصر بالله، وجمع العرب من طيء وكلب وغيرهما وسيرهم في أثر بني قرة، فلحقوا بهم عند ـ البحيرة ـ فقاتلوهم، واشتدت الحرب، وكثر القتل في بني قرة، وانهزموا. وعاد الجند إلى مصر. وتركوا قوة كافية في مقابل بني قرة، لمجابهتهم إذا ما حاولوا مرة أخرى التعرض للبلاد وأهلها.

لم يلبث الخصم الأول للمستنصر بالله ـ وهو حاكم افريقية المعز بن باديس ـ (*) أن

(★) المعز بن باديس الصنهاجي ـ أمير افريقية (٣٩٨-٤٥٣ هـ = ١٠٠٧-١٠٦١ م). كانت مدة ملكه سبعاً وأربعين سنة، عرف عنه أنه رقيق القلب، خاشع، متجنب لسفك الدماء إلا في اقامة الحدود. حليم يتجاوز عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه. مكرم لأهل العلم، كثير العطاء لهم. ولما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق ـ الذي قال:

لكـل حـي وإن طـال المدى هلـك   لا عز مملكـة يبقـى ولا ملـك

=

توفي سنة ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م. وظن المستنصر بالله أنه قد استراح من عدو خطير، وأن الأمور قد تستقيم له. لكن - **تميم بن المعز بن باديس** - استلم راية القيادة، وبرهن على أنه يفوق والده مراساً وبأساً. ذلك أن حكام البلاد كانوا قد طمعوا بسبب العرب، وزالت الهيبة والطاعة عن المعز في أيامه الأخيرة. فلما مات ازداد طمعهم. وأظهر كثير منهم التمرد والعصيان، وكان أولهم القائد حمو بن مليك - أمير صفاقس الذي استعان بالعرب، وسار بهم إلى المهدية ليحاصرها. فخرج إليه تميم، وصافه، واقتتلوا فانهزم حمو وأصحابه، وكثر القتل فيهم. وهرب حمو فنجا بنفسه، وتفرق عنه جنده. (سنة ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م). ثم سار - تميم - إلى سوسة، وكان أهلها قد تمردوا على أبيه المعز، فاستولى عليها، وعفا عن أهلها.

لقد كان لزاماً على تميم بن المعز بن باديس، احتمال نتائج الاحقاد المتوارثة، فقد توافرت لديه المعلومات (سنة ٤٥٧ هـ = ١٠٦٤ م) أن الناصر بن علناس بن محمد بن حماد - قد استعد لحربه، وقد انضمت إليهم جموع قبائل المغرب من صنهاجة ومن زناتة، بالإضافة إلى العرب من عدي وأنبج وبني هلال. وأنه - أي الناصر بن علناس - قد قرر مهاجمة تميم بن المعز في قاعدته ومستقر ملكه - المهدية - فما كان من تميم إلا أن استدعى كبار رجال - بني رياح - وقال لهم: **«أنتم تعلمون أن المهدية هي حصن منيع أكثره في البحر، لا يقاتل منه في البر غير أربعة أبراج يكفيها لحمايتها والدفاع عنها أربعون رجل. وإنما جمع الناصر هذه الحشود ليهاجمكم».**

= ولي المعز على أعقابه فرمى ... أو كاد ينهد من أركانه الفلك
مضى فقيداً وأبقى في خزائنه ... هام الملوك، وما أدراك ما ملكوا؟
ما كان إلا حساماً سله قدر ... على الذين بقوا في الأرض وانهمكوا
كأنه لم يخض للموت بحر وغى ... خضر البحار إذا قيست به برك
ولم يجد بقناطير مقنطرة ... قد أرعبت باسمه ابريزها السكك
روح المعز وروح الشمس قد قبضا ... فانظر بأي ضياء يصعد الفلك

ولما توفي ملك بعده ابنه تميم الذي كان قد ولد بمغرة - المنصورية - سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م. وولاه أبوه المهدية سنة ٤٤٥ هـ. فلما انتقل أبوه إلى المهدية. قام على خدمته، حتى إذا ما توفي المعز - سار تميم على نهجه، في حسن السيرة ومحبة أهل العلم.

فقالوا له: « **إنما تقوله هو الحق. ونحن نحتاج المعونة** ». فأعطاهم المال والسلاح من الرماح والسيوف والدروع والدروق. فجمعوا قومهم وتحالفوا واتفقوا على لقاء الناصر، وأرسلوا إلى من كان مع الناصر من اعراب ـ بني هلال ـ يقبحون عندهم مساعدتهم للناصر، ويخوفونهم منه أن يقوى وأن يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة، وإنما يستمر لهم المقام في البلاد، ويتم لهم الاستيلاء على البلاد بفضل الاختلاف وضعف السلطان. فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة، وقالوا لهم: « **اجعلوا أول حملة تحملونها علينا، فعندها ننهزم بالناس، ثم نعود للانقضاض عليهم، ويكون لنا ثلث الغنيمة** ». وهكذا استقر الأمر بينهم. كما أرسل قائدهم ـ المعز بن زيري الزناتي ـ إلى من كان مع الناصر من زناتة بمثل ذلك، فوعدوه أيضاً أن ينهزموا. وسارت رياح وزناتة بكاملها للقتال. ووقعت المعركة على أبواب سبتة. وحملت رياح على بني هلال، وحمل المعز على زناتة. فانهزمت الطائفتان، وتبعهم جند الناصر منهزمين. ووقع فيهم القتل. **فكان مبلغ من قتل من صنهاجة وزناتة أربعاً وعشرين ألفاً**. وسلم ناصر في نفر يسير ـ وقتل أخوه في المعركة ـ القاسم بن علناس. وغنمت العرب جميع ما كان من مال وسلاح ودواب وغير ذلك، فاقتسموها على ما استقر بينهم. وبهذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد. وارسل العرب إلى تميم الألوية والطبول وخيم الناصر والخيول. فردها تميم اليهم، وقال لهم: « **يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمي ـ يقصد الناصر بن علناس ـ** » فأرضى العرب.

مضى تميم بن المعز بن باديس لدعم بنيان دولته. فقاد في السنة التالية (٤٥٨ هـ = ١٠٦٥ م) جيشاً كثيفاً، وسار به إلى تونس التي كانت قد خرجت عن الطاعة منذ أيام أبيه. ومر بطريقه على القيروان، فعرف حاكمها ـ قائد بن ميمون ـ أنه لا طاقة له بتميم وجيشه، فترك القيروان التي دخلها تميم، ثم سار منها إلى ـ قابس ـ فامتنع حاكمها ـ ابن خراسان ـ فحاصره تميم لمدة سنة وشهرين حتى أخضعه وجابه تميم موقفاً صعباً سنة ٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م، إذ عمل مالك بن علوي الصخري على جمع العرب، فأكثر. وسار بهم إلى المهدية. وحاصرها. فنهض له تميم بن المعز وطرده، فسار مالك منها إلى القيروان فحاصرها واستولى عليها، فوجه إليه تميم جيشاً كبيراً، مما أرغم

مالك على مغادرة القيروان والانسحاب منها.

لقد كان هذا الصراع شراً كله، وكان شر ما فيه هو استطالاته عبر البحر إلى الجزر التي كانت للمسلمين - وخاصة صقلية، حيث كان يصطرع على أرضها أصحاب حكام مصر مع أصحاب افريقية، وهو الصراع الذي وصل نهايته سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م. عندما استولى الفرنج على جزيرة صقلية، وأصبح روجر ملكاً عليها. وأسكنها الروم والفرنج. ولم يترك لأحد من أهلها - المسلمين - حاماً ولا دكاناً ولا طاحوناً. وسلك طريق المسلمين في تنظيم الحجاب والحرس والشرطة وغير ذلك، وخالف عادة الفرنج الذين لم تكن لديهم معرفة بذلك. وجعل له ديواناً للمظالم. ترفع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم ولو من ولده. وأكرم المسلمين وقربهم، فأحبوه. **وعمر أسطولاً كبيراً، وملك الجزائر التي بين المهدية وصقلية؛ مثل مالطة وقوصرة وجربة وقرقنة وتطاول إلى سواحل إفريقية.**

لم يكن الموقف على الجبهة الداخلية في مصر بأفضل مما كان على الجبهة الداخلية في افريقية. فقد انحل أمر الخلافة في القاهرة. وفسدت أحوال المستنصر بالله العلوي بسبب تحكم والدته التي كانت غالبة على أمره. وقد عينت وزيراً لها - اليهودي أبا سعيد ابراهيم التستري، الذي أشار عليها بتعيين أبي نصر الفلاحي في الوزارة ولكن الفلاحي أخذ في تدبير الأمور بمفرده، مما أغضب التستري، وخاف الفلاحي، فاصطنع الغلمان الأتراك واستمالهم وزاد في أرزاقهم. فلما وثق بهم أمرهم بقتل اليهودي فقتلوه. وغضبت أم المستنصر فأغرت به ولدها فقبض على الفلاحي فقتله. وعينت أم المستنصر بعده لوزارتها - أبا البركات حسن بن محمد، وكلفته بافساد أحوال الأتراك وإضعافهم، وشراء العبيد للمستنصر والاستكثار منهم، ثم أمرته باغراء العبيد لقتل الأتراك، فخاف أبو البركات عاقبة ذلك وعلم انه يورث شراً وفساداً، فرفض ولم يفعل، فعزلته أم المستنصر. وعينت مكانه - أبا محمد اليازوري وهو من قرية من قرى الرملة اسمها يازور - وأمرته أيضاً بذلك فلم يفعل، وأصلح الأمور إلى أن قتل. وحل محله في الوزارة - أبو عبد الله الحسين بن البابلي -. فأمرته أم المستنصر بما أمرت به غيره من الوزراء بإغراء العبيد لقتل الاتراك، ففعل. وتغيرت نيات الاتراك تجاه المستنصر. فلما

كان يوم خروج الحجاج من مصر (سنة ٤٦٥ هـ ١٠٧٣ م) ركب المستنصر لتشييع الحجاج. فتقدم بعض الاتراك بفرسه حتى وصل إلى صف العبيد المحدثين الذين كانوا يحيطون بالمستنصر، فضربه أحدهم فجرحه. فعظم ذلك على الاتراك، ونشبت بينهم الحرب، ثم اصطلحوا على تسليم العبد الذي ضرب الجندي التركي وجرحه. واستحكمت العداوة، فقال الوزير للعبيد: خذوا حذركم. فاجتمعوا في معسكرهم. وعرف الأتراك ذلك، فاجتمعوا إلى مقدميهم **وقصدوا - ناصر الدولة أبا علي الحسن بن حمدان وهو من أولاد ناصر الدولة بن حمدان بمصر، وكان قد تقدم فيها تقدماً عظيماً وأصبح اكبر قائد بمصر** - وشكوا إليه أمرهم. واستمالوا المصامدة وكتامة وتعاهدوا وتعاقدوا. فقوي الأتراك وضعف العبيد المحدثون، فخرجوا من القاهرة إلى الصعيد، ليجتمعوا هناك، فانضم إليهم خلق كثير حتى زاد عددهم على الخمسين ألف فارس وراجل. فخاف الأتراك وشكوا إلى المستنصر، فأخبرهم أنه لا علم له بما فعل العبيد، وأنه لا حقيقة لما قالوه. فظنوا قوله حيلة لخداعهم. ثم قوي الخبر بقرب العبيد منهم بكثرتهم، فأجفل الأتراك وكتامة والمصامدة وكانت عدتهم ستة آلاف مقاتل، والتقوا عند - كوم الريش - واقتتلوا، فانهزم الاتراك ومن معهم نحو القاهرة. وكان بعضهم قد كمن في خمسمائة فارس. فلما انهزم الاتراك. خرج الكمين على مؤخرة العبيد ومن معهم، وحملوا عليهم حملة منكرة، وضربت البوقات، فارتاع العبيد وظنوها مكيدة من المستنصر، وأنه قد ركب في باقي العسكر، فانهزموا. **وعاد عليهم الاتراك، وحكموا فيهم السيوف. فقتل منهم وغرق نحو أربعين ألفاً. وكان يوماً مشهوداً.** وقويت نفوس الاتراك. وعرفوا حسن رأي المستنصر فيهم. وتجمعوا وحشدوا، فتضاعفت عدتهم، وزادت حاجتهم للانفاق فيهم، ففرغت الخزائن واضطربت الأمور. وتجمع باقي الجند من الشام وغيره في الصعيد، وانضم إليهم العبيد. فصاروا خمسة عشر ألف فارس وراجل، وساروا إلى الجيزة. فخرج عليهم الأتراك ومن معهم واقتتلوا في الماء عدة أيام ثم عبر الأتراك النيل إليهم مع ناصر الدولة بن حمدان، فاقتتلوا، وانهزم العبيد إلى الصعيد، وعاد ناصر الدولة والأتراك منصورين. وأعاد العبيد تنظيم قواتهم في الصعيد واجتمع لهم خمسة عشر ألف فارس

وراجل. فقلق الأتراك لذلك، وحضر مقدموهم دار المستنصر لشكوى حالهم. فأمرت أم المستنصر من عندها من العبيد بالهجوم على المقدمين والفتك بهم، ففعلوا ذلك. وعلم ناصر الدولة بما حدث فخرج إلى ظاهر البلد، واجتمع الاتراك إليه. ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد ومن تبعهم من مصر والقاهرة. وحلف الأمير ناصر الدولة بن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه، وألا يذوق طعاماً، حتى يحسم الصراع معهم. واستمر القتال ثلاثة أيام، ثم ظفر بهم ناصر الدولة وأكثر القتل فيهم، وهرب من سلم منهم وزال وجودهم من القاهرة. وكان بالإسكندرية جماعة من العبيد، فلما انتهت هذه المعركة طلبوا الأمان. فأمنوا، وأخذت منهم الاسكندرية. ولم يبق إلا العبيد الذين في الصعيد. فلما خلت الدولة للاتراك، طمعوا في المستنصر، وزالت هيبته من نفوسهم، وطلبوا الأموال حتى فرغت الخزائن ولم يبق فيها شيء البتة. ولما وصل الأمر إلى هذا الحد، وعاد الاتراك لطلب الأموال» اعتذر المستنصر. فطلب ناصر الدولة ـ العروض ـ فأخرجت إليهم. وقومت بالثمن البخس، وصرفت إلى الجند. وقيل ان مخصصات الاتراك كانت عشرين ألف دينار في الشهر، فأصبحت الآن أربعمائة ألف دينار. ثم إن العبيد اجتمعوا بالصعيد وأفسدوا وقطعوا الطريق وأخافوا السبيل. فسار إليهم ناصر الدولة في جيش كثيف، فهرب العبيد إلى الصعيد الأعلى، فلحق بهم وقاتلهم فقاتلوه. وانهزم ناصر الدولة منهم وعاد إلى الجيزة بمصر. واجتمع إليه من سلم من جنده، وشغبوا على المستنصر، واتهموه بتقوية العبيد، والميل إليهم. ثم جهزوا جيشاً وساروا لقتال العبيد بالصعيد، وقاتلوهم فقتل من العبيد عدد كبير وتمزقوا تمزقاً تاماً. وعظم أمر ناصر الدولة، وقويت شوكته، وتفرد بالأمر دون الأتراك. فغضبوا من ذلك، وعظم عليهم الأمر، وفسدت نياتهم، وشكوا أمرهم إلى الوزير الخطير. وقالوا له: «كلما خرج من الخليفة مال أخذ ناصر الدولة أكثره له ولحاشيته، ولا يصل إلينا منه إلا القليل». فقال لهم الوزير: «إنما وصل إلى هذا وغيره بكم، فلو فارقتموه لم يتم له أمر» فاتفق أمرهم على مفارقة ناصر الدولة وإخراجه من مصر. واجتمعوا إلى المستنصر بالله، وشكوا، وسألوه أن يخرج عنهم ناصر الدولة، فأرسل اليه وأمره بمغادرة مصر. وتهدده إن لم يفعل، فخرج من القاهرة إلى الجيزة. ونهبت داره ودور حاشيته

وأصحابه. فلما كان الليل، دخل ناصر الدولة مستخفياً إلى القائد المعروف ـ بتاج الملوك شادي ـ فقبل رجله، وقال: « اصطنعني » فأجابه تاج الملوك: « أفعل » واتفق معه على قتل الوزير الخطير ومقدم من الاتراك اسمه ـ الدكز ـ. وأمكن قتل الوزير، إلا أن القائد الدكز تحرك بحذر وأمكن له جمع قواته من الاتراك، وركب معه المستنصر، فحمل على ناصر الدولة، وانهزم ناصر الدولة وقتل من أصحابه خلق كثير، ومضى منهزماً على وجهه لا يلوي على شيء. وتبعه فل أصحابه، حتى وصل إلى ـ بني سنبس ـ فأقام عندهم، وصاهرهم، فقوي بهم. ووجه المستنصر جيشاً لابعاد ناصر الدولة عن مصر. فسار الجيش حتى قرب من مكانه، وانقسم إلى ثلاث مجموعات للعبور. وأسرع ناصر الدولة، فقاتل المجموعة الأولى فور عبورها وانتصر عليها وقتل معظم أفرادها. ولم يعرف جند المجموعة الثانية بما حدث، فلما عبروا بوغتوا برؤية رؤوس أصحابهم وقد رفعت على الرماح، فأصاب الرعب قلوبهم، وقتل أكثرهم. وقويت نفس ناصر الدولة. وعبرت المجموعة الثالثة فهزمها ناصر الدولة واكثر القتل في جندها وأسر مقدمها. وعظم أمر ناصر الدولة، ونهب الريف، فأقطعه وقطع الميرة ـ والمواد التموينية ـ عن مصر براً وبحراً. فغلت الأسعار. وكثر الموت بالجوع. وامتدت أيدي الجند بالقاهرة إلى النهب والقتل، وعظم الوباء. حتى أن أهل البيت الواحد كانوا يموتون كلهم في ليلة واحدة. وعمل الاتراك على ارسال الرسائل إلى ناصر الدولة بطلب الصلح، واصطلحوا على أن يكون تاج الملوك شادي نائباً عن ناصر الدولة بالقاهرة، وأن يكون هو الذي يحمل إليه الأموال؛ وألا يبقى لأحد معه حكم. فلما دخل تاج الملوك شادي إلى القاهرة، خرج على الاتفاق واستبد بالأموال ولم يرسل إلى ناصر الدولة شيئاً منه. فسار ناصر الدولة إلى الجيزة، واستدعى إليه شادي وغيره من مقدمي الأتراك، فخرجوا إليه إلا أقلهم فقبض عليهم كلهم، ونهب ناحيتي مصر وأحرق كثيراً منها. فوجه إليه المستنصر جنداً باغتوه بالهجوم، فهرب ناصر الدولة، وجمع جيشه وعاد إليهم فقاتلهم وهزمهم. **وقطع خطبة المستنصر بالاسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الريف. وأرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب خلعاً ليخطب له بمصر. واضمحل أمر المستنصر وبطل ذكره، وتفرق الناس من**

القاهرة. وأرسل ناصر الدولة إليه أيضاً بطلب المال، فرآه الرسول جالساً على حصير وليس حوله إلا ثلاثة من الخدم. ولم ير الرسول شيئاً من آثار المملكة. فلما أدى الرسالة، قال له المستنصر: **«أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟»** فبكى الرسول، وعاد إلى ناصر الدولة فأخبره الخبر. فأجرى له ناصر الدولة كل يوم مائة دينار. وعاد إلى القاهرة وحكم فيها، وأذل المستنصر وأصحابه. وكان في كل ما يعمله يظهر التسنن، ويعيب على المستنصر تشيعه، وكان المغاربة على مذهب السنة، فأعانوه على ما أراد، وقبض على أم المستنصر وصادرها بخمسين ألف دينار، وتفرق عن المستنصر أولاده وكثير من أهله، وساروا إلى الغرب وغيره من البلاد. فمات كثير منهم جوعاً. وأراد ناصر الدولة أن يخطب لأمير المؤمنين العباسي في القاهرة، ولكنه كان يخشى من أصحاب المستنصر وقادته، فأخذ في العمل على تفريقهم في البلاد، وعرف القائد التركي ـ الدكز ـ ما يريده ناصر الدولة. فاتفق مع قادة الاتراك على قتل ناصر الدولة، فقتلوه ثم قتلوا أخاه ـ فخر العرب ـ وأخاهما تاج المعالي في ليلة واحدة. وزال حكم بني حمدان من مصر. واسندت الوزارة إلى القائد ـ أمير الجيوش بدر الجمالي(*) .

(*) أمير الجيوش بدر الجمالي (٤٠٧-٤٨٧ هـ = ١٠١٦-١٠٩٤ م) عينه المستنصر حاكماً على بلاد الشام سنة ٤٥٥ هـ = ١٠٦٣ م. وقد عرف بكفاءته، غير أنه جرى بينه وبين الرعية والجند بدمشق ما خاف على نفسه، فخرج عنها هارباً، وجمع وحشد وقدم على الشام فاستولى عليه بأسره سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م. ثم خالفه أهل دمشق مرة أخرى، فهرب منهم سنة ٤٦٠ هـ. وخرب العامة والجند قصر الامارة. ثم سار أمير الجيوش إلى مصر فتقدم بها، وعظم شأنه حتى وقف أشراف الناس وكبراؤهم وشعراؤهم على بابه. دون أن يحظى كثير منهم بمقابلته، وخرج يوماً إلى الصيد، فخرج الشاعر عبد الرزاق العليمي في أثره، حتى إذا ما قاربه وقف على مرتفع من الأرض، وأومأ برقعة كانت في يده، وأنشد:

نحـــن التجـار وهـــذه أعلامنـــا ... در وجـــود يمينـــك المبتـــاع
قلـــب وفتشهـــا بسمعـــك إنما ... هـــي جـــوهـــر يختـــاره الأسماع
كســدت علينـــا بـــالشـــآم وكلما ... قـــل النفـــاق تعطـــل الصنـــاع
فـــأتـــاك يحملهـــا إليـــك تجارهـــا ... ومطيهـــا الآمـــال والأطمـــاع
حتى أنـاخـوهـا ببـــابـــك والرجـا ... مـــن دونـــك السمـــار والبيـــاع

جابهت دولة المستنصر خطراً جديداً جاءها من الشرق. فقد كانت دمشق وساحل بلاد الشام تحت حكم العلويين ـ الفاطميين ـ. فلما كانت سنة ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م توجهت قوة من الاتراك ـ الخوارزمية ـ بقيادة اتسز، وطردت أمير دمشق المعلى بن حيدرة، الذي هرب إلى بانياس ثم إلى صور ثم أخذ إلى مصر فحبس بها حتى مات. وأقيمت الخطبة في دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من ذي القعدة (٤٦٨ هـ) لأمير المؤمنين المقتدي بأمر الله العباسي. وكان ذلك آخر يوم خطب فيه للعلويين المصريين. وتغلب ـ اتسز على اكثر بلاد الشام. ومنع الأذان بجملة (حي على خير العمل) ففرح أهل دمشق فرحاً عظيماً. فلما كانت السنة التالية (٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) سار ـ **اتسز** ـ بجيشه إلى مصر. وكان أمير الجيوش بدر الجمالي قد انصرف لتدريب الجيوش وتنظيمها. لكنها بقيت أضعف من جيش أتسز فعمل بدر الجمالي على تجنب قتال اتسز عندما نزل بظاهر القاهرة. وانتشرت قوات اتسز في القرى، إلا أنها أساءت إلى الناس، وظلمتهم، وأخذت أموالهم، وفعلت الافاعيل القبيحة، فضج أبناء مصر، وأرسل رؤساء القرى ومقدموها إلى المستنصر بالله يشكون إليه ما نزل بهم، فرد عليهم بقوله: **« اني عاجز عن دفع هذا العدد »** . فقالوا له: **« نحن نرسل إليك من عندنا من الرجال المقاتلة، يكونون معك. ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحاً. وقد أمن جند هذا العدو وتفرقوا في البلاد، فنثور بهم في ليلة واحدة ونقتلهم. وتخرج أنت إليه فيمن اجتمع عندك من الرجال، فلا يكون له بك قوة »** . فأجابهم إلى ذلك، وأرسلوا إليه الرجال، وثاروا كلهم في ليلة واحدة. فأوقعوا بقوات اتسز، وقتلوا جندها عن آخرهم إلا من كان في معسكر اتسز ـ وخرج جند المستنصر في حشد كبير بمن كان عند المستنصر ومن انضم إليه من العرب.

= فوهبت ما لم يعطه في دهره ... هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا ... فالناس بعدك كلهم أتباع
يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى ... ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا

وكان في يد بدر الجمالي ـ بازي ـ فالقاه وانفرد عن الجيش، وجعل يسترد الابيات وهو ينشدها إلى أن استقر في مجلسه. ثم قال لغلمانه من أحبني فليخلع على هذا الشاعر. فخرج من عنده ومعه سبعون بغلاً يحمل الخلع والتحف. وأمر له بعشرة آلاف درهم.

واقتتلوا فانهزم اتسز وقتل أكثر أصحابه. وقتل أخ له، وقطعت يد آخر. فسار إلى دمشق وليس معه إلا عدد قليل من جنده. فوجد أن أهل دمشق قد حفظوا له أمواله وأمدوا له جنده، فشكرهم. وسار بجيشه إلى القدس، فرأى أهله وقد حاصروا الحامية التي تركها في القدس في محراب داود عليه السلام. فلما اقترب ـ اتسز ـ(*) من القدس تحصن أهله، وسبوه. فقاتلهم، وفتح البلد عنوة، ونهبه، وقتل من أهله فأكثر، حتى انه قتل من التجأ إلى المسجد الأقصى. وكف عمن كان عند الصخرة وحدها. وصار باستطاعـة أمير الجيوش بدر الجمالي الانتقال للهجوم. فوجه في سنة ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م. جيشاً لحصار دمشق بقيادة ـ نصر الدولة ـ. وضاق الأمر على ـ اتسز ـ فأرسل إلى تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان يستمده، فسـار تتش في حشـد كبير مـن التركمان، فلما علم المصريون بقربه، أجفلوا من بين يديه، ومضوا شبه المنهزمين. وخرج اتسز لاستقبال تتش عند سور البلد، فاغتاظ تتش منه لأنه لم يخرج لاستقباله بعيداً عن دمشق، وأمر بالقبض على اتسز وقتله. وأصبحت دمشق والقدس واكثر مدن الشام تحت حكم تتش بن ألب أرسلان واقيمت فيها جيعاً الدعوة العباسية، وقطعت الخطبة العلوية.

عاد أمير الجيوش بدر الجمالي، فقاد جنده وخرج بنفسه إلى بلاد الشام (سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٨٥ م) ووصـل دمشـق التي كـان يـدافـع عنهـا تـاج الدولـة تتش، فحاصرها، وضيق عليها، وقاتل جيشها، فلم يظفر منها بشيء، واضطر إلى رفع الحصار والعودة بجنده إلى مصر. ويظهر أن بدر الجمالي كان يريد أن يتخذ من بلاد الشام ـ أو من بعضها على الأقل ـ قاعدة متقدمة للدفاع عن مصر. ولهذا فقد وجه جيشه (سنة ٤٨٢ هـ = ١٠٨٩ م) بقيادة عدد من المقدمين، فحاصر مدينة صور التي لم تتمكن من الدفاع لعدم وجود حامية قوية فيها، فاستسلمت لجيش مصر. الذي تابع

(*) أتسز ـ أو اتشز ـ بن أوف الخوارزمي ـ ويعرف باسم الاقسيس. ولقبه المعظم. كان من كبار قادة الترك الخوارزمية، وأجودهم سيرة وأصحهم سريرة، أزال الرفض ـ التشيع ـ عن أهل الشام. وأبطل جملة (حي على خير العمل) من الأذان. وأمر بالترضي عن الصحابة أجمعين ـ قتل سنة ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م.

اعماله القتالية فاستولى على مدينة صيدا ثم مدينة عكا، ثم مدينة جبيل. واستعمل أمير الجيوش على هذه البلاد الامراء والعمال. الذين عملوا على اصلاح أحوال البلاد. وتحقيق الأمن فيها. وحكموا بالعدل. وعاد الجيش إلى مصر. ولكن مدينة صور أعلنت تمردها سنة ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م بقيادة حاكمها - منير الدولة الجيوشي -. وأسرع أمير الجيوش بتوجيه جنده إلى صور، وثار أهل صور على حاكمهم، وانضموا إلى جيش مصر الذي دخل مدينة صور وقاتل منير الدولة وقواته وانتصر عليهم، وحمل منير الدولة وكبار قادته إلى مصر. فتم قتلهم. مات - أمير الجيوش بدر الجمالي - وقد أعاد للدولة بعض هيبتها وبعض قوتها. وتبعه بعد أشهر قليلة المستنصر بالله. وورث الفضل بن بدر الجمالي الوزارة عن أبيه. فعمل على تنصيب أبي القاسم أحمد المستعلي بالله لخلافة أبيه المستنصر بالله (*). وكان على الأفضل بن بدر الجمالي - في عهد المستعلي بالله أن يجابه الصليبيين الذين استولوا على القدس سنة ٤٩٢ هـ = ١٠٩٨ م. وبدأت بذلك مرحلة جديدة من الصراعات والحروب.

(*) المستنصر بالله أبو تميم معد بن أبي الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله العلوي صاحب مصر والشام (٤٢٠-٤٨٧ هـ = ١٠٢٩-١٠٩٤ م) وهو ثامن خلفاء العبيديين. جابه في حياته خطوباً جساماً، وأشرف على الهلاك، واحتمل الكثير من المحن والنوائب. وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر. وكان قد أوصى بالخلافة لابنه الاكبر نزار. ولكن الأفضل بن بدر الجمالي خلع نزاراً وبايع للمستعلي بالله - أبي القاسم - الذي كان قد ولد سنة ٤٦٧ هـ = ١٠٧٤ م. فهرب نزار إلى الاسكندرية، ولجأ إلى حاكمها - الفتكين - وبايعه أهل الاسكندرية، وسموه المصطفى لدين الله، فسار إليه الأفضل، وحاصر الاسكندرية إلى أن تم له الاستيلاء عليها، وأخذ - الفتكين - وقتله. وتسلم - نزاراً - فبنى عليه حائطاً فمات. ونزار هذا هو الذي يدعو له الاسماعيلية وفقاً لوصية أبيه المستنصر. أما المستعلي بالله - والذي هو تاسع الخلفاء العبيديين، فإنه لم يعمر طويلاً. وتوفي سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م.

﴿قَاتِلُوهُمْ: يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ، وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.

صدق الله العظيم ـ سورة التوبة ـ الآية ١٤.

الفصل الثاني

الحروب الخارجية

- ١ ـ الجهاد على جبهة الروم.
  - أ ـ قصة حرب الروم في نصف قرن.
  - ب ـ الرشيد وإعادة التنظيم.
  - جـ ـ عمورية المعتصم والعودة للهدوء.
  - د ـ ضعف القيادة.
- ٢ ـ الحمدانيون وحرب الثغور.
  - أ ـ بنو حمدان.
  - ب ـ سيف الدولة والحروب مع الروم.
  - جـ ـ المأزق الصعب.
  - د ـ الأيام الأخيرة للحمدانيين.
- ٣ ـ الاتراك السلاجقة.
  - أ ـ الروم ومناوراتهم بين مراكز القوى.
  - ب ـ السلاجقة وجهاد الروم.
  - جـ ـ ملاز كرد.
- ٤ ـ الحروب على جبهة الشرق.
  - ا ـ سبكتكين ودولته.
  - ب ـ يمين الدولة محمود في أعظم غزواته.
  - جـ ـ بناء الجبهة الداخلية
  - د ـ على نهج السلف.
- ٥ ـ الحروب البحرية
  - أ ـ مصر تقود الجهاد البحري.
  - ب ـ صقلية قاعدة للمسلمين.

١ - الجهاد على جبهة الروم

ا - قصة حرب الروم في نصف قرن .

ب - الرشيد وإعادة التنظيم .

جـ - عمورية المعتصم والمودة للهدوء .

د - ضعف القيادة . .

أ ـ قصة حرب الروم في نصف قرن .

تنفس الروم الصعداء بزوال الحكم الأموي الذي جثم على صدرهم؛ والذي وضع منذ أيام معاوية بن أبي سفيان نهجاً ثابتاً بالتضييق على الروم؛ وشد وثاقهم؛ فلما حدث التحول، قام ملك الروم ـ قسطنطين ـ بقيادة جيوشه إلى ملطية وكمخ؛ فنازل كمخ؛ فأرسل أهلها إلى أهل ملطية يستنجدونهم؛ فسار إليهم منها ثمانمائة مقاتل، فقاتلهم الروم؛ فانهزم المسلمون. ونازل الروم ملطية وحصروها؛ والجزيرة يومئذ مفتونة بالقتال بين العباسيين والأمويين (سنة ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م). فأرسل قسطنطين إلى أهل ملطية: **«إني لم أحصركم إلا على علم من المسلمين واختلافهم؛ فلكم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتى أحترث ملطية»**. فلم يجيبوه إلى ذلك؛ فنصب المجانيق؛ فأذعنوا وسلموا البلد على الأمان؛ وانتقلوا إلى بلاد الإسلام؛ وحملوا ما أمكنهم حمله؛ وما لم يقدروا على حمله ألقوه في الآبار والمجاري. ورحلوا عنها عائدين؛ وتفرق أهلها في بلاد الجزيرة. ولما علم ملك الروم برحيلهم سار إلى قاليقالا؛ فنزل مرج الخصي؛ وأرسل كوشان الأرمني فحصرها، ونقب أخَوان من الأرمن من أهل المدينة ردماً كان في سورها؛ فدخل كوشان ومن معه المدينة؛ وغلبوا عليها؛ وقتلوا رجالها وسبوا النساء؛ وساق الغنائم إلى ملك الروم(*) . ولم يكن باستطاعة أمراء العباسيين إغضاء الطرف عمّا كان يحدث على حدود بلاد الروم. فلما كانت سنة ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م. **تولى (صالح بن عبدالله) قيادة الصائفة ومعه أختاه أم عيسى ولبابة بنتا علي ـ وكانتا نذرتا أن تجاهدا في سبيل الله ـ إن زال ملك بني أمية ـ** وكان معه أيضاً (العباس بن محمد بن علي) و(عيسى بن علي بن عبدالله). وبنى صالح ما كان ملك الروم أخربه من سور ملطية؛ وقام المنصور

(*) الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ١٣٣ و١٣٩ هـ وتاريخ الطبري احداث سنوات ١٣٨ هـ ـ و١٣٩.

فاستفدى من ملك الروم أسرى (قاليقالا) وغيرهم؛ وبناها وعمرها ورد اليها أهلها؛ وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة فأقاموا بها وحموها . وتكررت الصوائف من دربي الحدث وملطية (بقياة جعفر بن حنظلة المهراني والحسن بن قحطبة). وأقبل صاحب الروم ـ قسطنطين ـ في مائة ألف مقاتل؛ ونزل جَيْحان؛ فلما بلغه كثرة المسلمين أحجم عنهم، ثم لم يكن بعد ذلك صائفة حتى سنة ١٤٦ هـ. بسبب انصراف (المنصور) للقضاء على فتنة (عبدالله بن الحسن). وقد كانت الاضطرابات الداخلية حافزاً للتحرك على الحدود ففي سنة ١٤٥ هـ ـ خرجت الترك والخزر بباب الأبواب (باكوحالياً) فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة. **فقام مالك بن عبدالله الخثعمي ـ وهو من أهل فلسطين ويقال له: مالك الصوائف ـ بغزو بلاد الروم؛ فغنم غنائم كثيرة؛ ثم قفل؛ فلما وصل إلى درب الحدث على خمسة عشر ميلاً بموضع يدعى (الرهوة) نزل بها ثلاثاً؛ وباع الغنائم؛ وقسم سهام الغنيمة؛ فسميت تلك الرهوة باسم (رهوة مالك) .**

عاد الترك بقيادة إسترخان الخوارزمي للاغارة على ناحية أرمينية؛ ودخلوا تفليس، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة خلقاً كثيراً . وبلغ ذلك أبا جعفر المنصور؛ فوجه لحربهم جبرئيل بن يحي؛ وأمر حرب بن عبد الله الراوندي بالقوة التي معه في الموصل لاخضاع الخوارج بالجزيرة، للتوجه ودعم جبرئيل ـ وسار (حرب) ومعه ألفان من الجند. فانتصر عليهم الترك وهزم جبرئيل وقتل حرب ونكب المسلمون (سنة سبع وأربعين ومائة). فلما كانت السنة التالية؛ وجه المنصور جيشاً بقيادة (حميد بن قحطبة) لحرب الترك في أرمينية؛ فسار حميد حتى دخل تفليس، فوجد أن الاتراك قد ارتحلوا؛ فانصرف ولم يلق منهم أحداً. ولم تحدث بعد ذلك مواجهة أو غزو حتى (سنة ١٥٢ هـ) حيث تولى محمد بن إبراهيم الامام ـ وقيل أخوه عبد الوهاب بن إبراهيم ـ قيادة الصائفة. ولكنه توقف عن الغزو ولم يدخل (الدروب). وفي السنة التالية (١٥٣ هـ) غزا الصائفة (معيوف بن يحي الحجوري) فصار إلى حصن من حصون الروم ليلاً؛ وأهله نيام؛ فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة، ثم صار إلى اللاذقية المحترقة؛ ففتحها وأخرج منها ستة آلاف رأس من

السبي؛ سوى الرجال البالغين. وشهدت الحدود حالة من الهدوء (حتى سنة ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م) حيث تولى (العباس بن محمد) قيادة الصائفة؛ ودفع العباس على مقدمته (الحسن الوصيف) في الموالي، وكان المهدي قد ضم إليه جماعة من قواد أهل خراسان وغيرهم. وخرج المهدي فعسكر (بالبردان) حتى أنفذ العباس بن محمد ومن قطع عليه البعث معه؛ ولم يجعل للعباس على (الحسن الوصيف) ولاية في عزل ولا غيره. وسار العباس بن محمد ففتح غزاتة هذه مدينة للروم ومطمورة معها، ووصل إلى أنقرة، ولما لم يجابهه أحد، قفل راجعاً ولم يصب من المسلمين أحد. **وفي السنة الثانية (١٦٠ هـ = ٧٧٦ م) تولى (ثمامة بن الوليد) قيادة الصائفة؛ فنزل مرج دابق؛ وجاشت الروم؛ وهو مغتر؛ فأتت طلائعه وعيونه بذلك؛ فلم يحفل بما جاؤوا به؛ وخرج إلى الروم؛ وعليها ميخائيل بسرعان الناس؛ فأصيب من المسلمين عدة؛ وكان (عيسى بن علي) مرابطاً بحصن مرعش يومئذ، فلم يكن للمسلمين في ذلك العام صائفة من أجل ذلك.** وفي السنة التالية؛ قاد قائد الروم (ميخائيل) جيشاً من ثمانين ألفاً؛ فأتى عمق مرعش، فقتل وسبى وغنم، ثم حاصر مرعش؛ وقتل عدداً كبيراً من المسلمين. وانصرف (ميخائيل) إلى جيحان. وتجنب (ثمامة بن الوليد) الصدام؛ مما أغضب المهدي، فأخذ في التجهز لغزو الروم. وقاد (الحسن بن قحطبة) الصائفة في ثلاثين ألف مرتزق سوى المتطوعة - فبلغ (حمة أذْرُولية) فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم؛ من غير أن يفتح حصناً؛ أو يلقى جمعاً؛ وسمته الروم (التنين). ورجع بالناس سالمين.

علم أمير المؤمنين (المهدي) بحشود الروم؛ فخرج من الغد إلى (البردان) متوجهاً إلى الصائفة؛ واستخلف ببغداد (موسى بن المهدي). وقطع البعوث للصائفة على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم. وأقام في (البردان) نحواً من شهرين وهو يتعبأ ويتحشد ويعطي الجنود؛ وأخرج بها صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه (سنة ١٦٣ هـ = ٧٧٩ م). وعندما أنهى الاستعدادات، أسند قيادة الصائفة إلى ولي العهد (هرون الرشيد) ورفده بالحسن وسليمان ولدي خالد بن برمك وعيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح والربيع، والحسن بن قحطبة؛ وشيع (المهدي) ابنه (هرون) حتى قطع

الدرب وبلغ نهر جيحان؛ وارتاد بها المدينة التي تسمى (المهدية). وسار هرون حتى نزل رستاقاً من رساتيق أرض الروم فيه قلعة (يقال لها سمَالو) فأقام عليها ثمانياً وثلاثين ليلة؛ ونصب عليها المجانيق؛ حتى فتحها الله بعد تخريب لها؛ وعطش وجوع أصاب أهلها؛ وبعد قتل وجراحات كانت في المسلمين. وكان فتحها على شروط شرطوها لأنفسهم وهي: لا يقتلوا ولا يُرَحلوا؛ ولا يفرق بينهم؛ فأعطوا ذلك، فنزلوا. ووفى هرون لهم. ثم قفل بالمسلمين سالمين؛ إلا من كان أصيب منهم أثناء القتال. فلما كانت السنة التالية قاد (عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب) الصائفة؛ وسار بها من درب (الحدث) فأتاه بطريق الروم ميخائيل في نحو من تسعين ألفاً؛ فيهم بطريق الأرمن طازاذ؛ فخاف عبد الكبير ومنع الناس من القتال ورجع بهم؛ فأراد المهدي قتله؛ فكلم فيه فحبسه في المطبق. فلما كانت السنة التالية: (١٦٥ هـ = ٧٨١ م) وجه المهدي ابنه (هرون الرشيد) لقيادة الصائفة وغزو بلاد الروم في خمسة وتسعين ألفاً وتسعمائة مقاتل. فأوغل هرون في بلاد الروم؛ وافتتح (ماجدة) ولقيته خيول قومس القوامسة (نقيطا) فبارزه (يزيد بن مزيد الشيباني) وقتله وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم. وسار هرون بجيشه لقتال قائد مسالح الروم ـ الدمستق ـ فجاءه هذا حاملاً معه مائة ألف دينار؛ وثلاثة وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً. ومن الورق أحداً وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم. وتابع هرون تقدمه حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية، وكانت ملكة الروم يومها أغسطة امرأة ليون، وذلك لأن زوجها كان قد هلك وترك ابناً صغيراً في حجرها ـ وصايتها ـ **فجرت بينها وبين هرون الرشيد اتصالات بواسطة الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة؛ وإعطائه الفدية؛ فقبل ذلك منها هرون. وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم الأدلاء والأسواق في طريقه؛ ذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين فأجابته إلى ما طلب. وتضمنت شروط الصلح دفع تسعين أو سبعين ألف دينار؛ تسؤديها في نيسان الأول في كل سنة وفي حزيران**. فقبل ذلك منها؛ فأقامت له الأسواق في منصرفه. ووجهت معه رسولاً إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب

والفضة والعَرض. وكتبوا كتاب المدنة إلى ثلاث سنين؛ وسلمت الأسارى. وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً. **وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفاً ـ وقتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً.**

وكان مما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها عشرون ألف دابة؛ وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس. وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف. وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم؛ والدرع بأقل من درهم؛ وعشرون سيفاً بدرهم، فقال الشاعر (مروان بن أبي حفصة) يمتدح هرون؛ ويشيد بانتصاره:

أطفت بِقُسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذلَّ سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها؛ والحرب تغلي قدورها

عاد الروم فنقضوا الصلح الذي كان جرى بينهم وبين هرون؛ وغدروا (سنة ١٦٨ هـ = ٧٨٤ م). فكان بين أول الصلح وغدر الروم ونكثهم به اثنان وثلاثون شهراً. فوجه والي الجزيرة وقنسرين (علي بن سليمان) جيشاً بقيادة (يزيد بن بدر بن البطال) فغزا بلاد الروم، وظفر وغنم. وفي السنة التالية تولى (معيوف بن يحيى) قيادة الصائفة وسار بها من درب الراهب. وكان بطريق الروم قد قاد جيشه إلى (الحديثة) فهرب الوالي وأهل السوق، فدخلها الروم؛ فقصدهم (معيوف) فبلغ مدينة (أشنة) فغنم وسبى ورجع، **انقضى بذلك نصف قرن منذ قيام الدولة العباسية؛ توقفت فيها الصوائف، وحرب الثغور، عن المسيرة المنتظمة التي كانت عليها في العهد الأموي. ولكن مقابل ذلك أخذت حرب الثغور في أحيان كثيرة شكل حملات ضخمة؛ بجيوش جرارة؛ لم يعرفها العهد الأموي.** وكان باستطاعة الروم الافادة من فترة العطالة هذه؛ غير أن الروم ـ البيزنطيين ـ قد تعرضوا بدورهم لهزات عنيفة واضطرابات قوية كادت تعصف بكيان الدولة؛ كما تعرضت دولة الروم للحرب على جبهة الغرب ـ البلغار ـ مما وضعها أمام خيار صعب؛ اضطرها لقبول المدنة وعقدها مع الرشيد.

ولقد أدى زيادة حجم الجيوش الإسلامية إلى إجراء تبديل كبير في بنيتها التنظيمية

وفي طريقة ادارة الحرب؛ وفقدت الجيوش بعض مرونتها وخفة حركتها؛ بسبب اعتمادها على (الأسواق ـ أو الذيل الاداري وفقاً للمصطلحات الحديثة). وظهرت ضرورة تعيين قادة للشؤون الادارية والمالية (فقد كانت مهمة يحيى بن خالد البرمكي في حملة الرشيد سنة ١٦٣) هي العناية بأمر العسكر ونفقاته وكتابته. كما ظهر دور ما يمكن تسميته (بهيئة الأركان) حيث كان يعمل الربيع الحاجب ويحيى مع الرشيد الذي كان يشاورهما ويعمل برأيهما. ولقد ظهرت حاجة الجيش للامداد الاداري عندما فرض الرشيد على ملكة الروم (تأمين الأسواق للجند) وتم ذبح مائة ألف رأس من البقر والغنم لتأمين اطعام الجيش (في غزوة سنة ١٦٥ هـ). وصحيح أنه تم تأمين متطلبات الجيش من مسرح العمليات، مما ضمن نوعاً من خفة الحركة للجيش؛ إلا أن تأمين مثل هذا الامداد قد ربط تحرك الجيش بمصدر تموينه؛ مما فرض بالتالي قيوداً على تحركه. وكان ذلك أبرز ما حدث من تطورات على مستوى التنظيم والادارة، أما بالنسبة للأعمال القتالية على مستوى العمليات؛ فقد سارت على النهج المميز لأساليب قتال المسلمين = وأبرز ملامحه: **الروح الهجومية؛ والتصميم على انتزاع النصر والروح المعنوية العالية.**

ب ـ الرشيد ـ واعادة التنظيم.

لقد مارس الرشيد قيادة الصوائف قبل أن يتولى (إمارة المؤمنين) وعرف أهمية حرب الثغور؛ وخطر الروم على الدولة؛ فكان أول عمل له (سنة ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م) **هو عزل هذه الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين ـ وكانت من قبل تابعة لها ـ وجعلها حيزاً واحداً وسميت (العواصم). وأمر بإعادة تحصين وبناء (طرسوس) لتكون عاصمة متقدمة.** وكلف (أبا سليم فرج ـ الخادم التركي) بهذه المهمة، فلما تم البناء؛ نزلها الناس. وكلف (سليمان بن عبدالله البكائي) لقيادة الصائفة في هذه السنة. وقام (اسحق بن سليمان بن علي) بقيادة الصائفة في السنة التالية (١٧٢ هـ = ٧٨٨ م) وقاد (عبد الملك بن صالح) غزوة الصائفة سنة ١٧٤ هـ؛ وفي السنة التالية قادها (عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح) فبلغ (اقريطية) وأصاب المسلمين في

غزاتهم هذه برد شديد تقطعت له أيديهم وأرجلهم. واستمرت الصوائف بعد ذلك فقادها سنة ١٧٦ هـ (عبد الرحمن بن عبد الملك) وقادها في السنة التالية (عبد الرزاق ابن عبد الحميد التغلبي. حتى إذا ما كانت سنة ١٨١ هـ = ٧٩٧ م غزا الرشيد بنفسه أرض الروم؛ فافتتح بها عنوة حصن الصفصاف ـ وفي ذلك قال شاعر الرشيد (مروان ابن أبي حفصة):

إن أمير المؤمنين المصطفى   قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

وفي الوقت ذاته قاد (عبد الملك بن صالح) غزوة الصائفة؛ وأوغل بها حتى بلغ أنقرة وافتتح مطمورة. وقام عبد الرحمن بن عبد الملك بقيادة الصائفة في السنة التالية (١٨٢ هـ) فبلغ مدينة (دفسوس) والتي قيل انها هي مدينة (أصحاب الكهف).

لقد بلغ من شدة اهتمام الرشيد بحرب الروم؛ أنه وهب ابنه (القاسم) لله؛ وجعله قرباناً؛ ووقفه للجهاد في سبيل الله فولاه سنة ١٨٧ هـ = ٨٠٢ م قيادة الثغور، وأغزاه الصائفة. ودخل (القاسم) أرض الروم؛ فأناخ على (قُرة) وحاصرها؛ ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث؛ فأناخ على حصن (سنان) حتى جهدوا؛ فبعثت إليه الروم تبذل له ثلاثمائة وعشرين رجلاً من أسارى المسلمين؛ على أن يرحل عنهم؛ فأجابهم إلى ذلك؛ ورحل عن (قرة) و(حصن سنان) صلحاً. ولكن سرعان ما نكث الروم ميثاقهم الذي عقدوه مع القاسم؛ وذلك بمجرد انسحاب القاسم. ويظهر أن الهزيمة التي نزلت بالروم كانت سبباً في حدوث انقلاب. فقد عمل الروم سنة ١٨٢ هـ على سمل عيني ملكهم قسطنطين بن أليون، وأقروا أمه ريني ـ الملقبه بأغسطة ـ على الملك. فلما نزلت الهزيمة بقوات الروم مرة أخرى سنة ١٨٧ هـ ـ عاد الروم فخلعوا ريني، وملكوا عليها نقفور؛ وتذكر الروم أن نقفور هذا هو من أولاد جفنة من غسان ـ ملوك الشام قبل الفتح ـ وأنه كان قبل الملك يلي ديوان الخراج، ثم ماتت ريني بعد خمسة أشهر من خلع الروم إياها، فلما ملك نقفور واستوثقت له الروم بالطاعة؛ كتب إلى الرشيد:

«من نقفور ملك الروم؛ إلى هارون ملك العرب؛ أما بعد: فإن الملكة التي كانت

قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها؛ لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن؛ فإذا قرأت كتابي؛ فاردد ما حصل قبلك من أموالها؛ وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك». **فلما قرأ الرشيد الكتاب؛ استفزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه أو يخاطبه؛ وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم، واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يتركه يستبد برأيه دونه - فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا بن الكافرة. والجواب ما تراه دون أن تسمعه»**. ثم شخص من يومه؛ وسار حتى أناخ بباب (هرقلة) ففتح وغنم واصطفى وأفاد وخرب وحرق واصطلم. فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة؛ فأجابه إلى ذلك. فلما رجع من غزوته وصار بالرقة؛ نقض نقفور العهد وخان الميثاق. وكان البرد شديداً؛ مما أقنع نقفور بعدم إمكان عودة الرشيد إليه، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فلم يتمكن أحد من رجال الرشيد من إخباره؛ إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام، فاحتيل عليه بشاعر من جنده ليعلمه بالخبر؛ ووضع الشاعر قصيدة ألقاها على الرشيد (*) .

(*) قيل ان هذا الشاعر هو أبو محمد عبدالله بن يوسف؛ وقيل انه الحجاج بن يوسف التيمي. وكانت القصيدة:

نقض الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البَوار تدور
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... غنمٌ أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفي النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شُعَلُ الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً ... عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلتٌ ... هبلَتْكَ أمك ما ظننت غرورا

فقال الرشيد: «أو قد فعل ذلك نقفور؟» ورجع إلى بلاد الروم في أشد زمان وأعظم كلفة حتى شفي؛ واشتفى وبلغ ما أراد (*) لكنه أرجأ تصفية الحساب إلى وقت آخر. وفي السنة التالية (١٨٨ هـ) تولى ابراهيم بن جبريل قيادة الصائفة؛ ودخل أرض الروم من درب الصفصاف؛ فخرج نقفور للقائه؛ غير أن اضطرابات وقعت على جبهة الغراب - أرغمت نقفور على الانسحاب وتجنب القتال مع المسلمين الذين تمكنوا من قتل أربعين ألفاً وسبعمائة من جند الروم؛ وأخذوا أربعة آلاف دابة ورجعوا سالمين - لم يصب منهم إلا ثلاثة بجراح. **فلما كانت السنة التالية (١٨٩ هـ) كان الفداء**

ألقاك حَيْنك في زواجر بحره — فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر — قَرُبت ديارك أم نأت بك دورُ
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً — عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه — فعدُوُّهُ أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه — والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه — والنصح من نصحائِهِ مشكور
نُصْح الإمام على الأنام فريضة — ولأهلها كفارة وطهور

تاريخ الطبري ٨/٣٠٨ - ٣٠٩ - احداث سنة ١٨٧ هـ.

(*) **وفي ذلك قال اسماعيل بن القاسم - أبو العتاهية:**

إمام الهدى أصبحت بالدين معنياً — وأصبحت تسقي كل مستمطر
لك اسمان شُقا من رشاد ومن هدى — فأنت الذي تدعى رشيداً ومهديا
إذا ما سخطْت الشيءَ كان مُسْخطاً — وإن ترض شيئاً كان في الناس مرضيا
بسطت لنا شرقاً وغرباً يد العلا — فأوسعت شرقياً وأوسعت غربيا
ووشيت وجه الأرض بالجود والندى — فأصبح وجه الأرض بالجود مَوْشِيّا
قضى الله أن يصفو لهارون ملكه — وكان قضاء الله في الخلق مقضيا
تحلبت الدنيا لهارون بالرضا — فأصبح نقفور لهارونَ ذميا

وقال - التيمي:

لجت بنقفور الردى عَبَثاً — لما رأته بغيل الليث قد عبثا
ومن يَزُرْ غيله لا يخل من فزع — إن فات أنيابه والمخلب الشبثا
خان العهود ومن ينكث بها فعلى — حوبائه لا على أعدائه نكثا
كان الإمام الذي ترجى فواضله — أذاقه ثمر الحلم الذي ورثا
فرد ألفته من بعد أن عطفت — أزواجه مرهاً بيكينة شعثا

بين المسلمين والروم؛ فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به (*) **.**

وجاءت سنة الحسم (١٩٠ هـ) فاستخلف الرشيد ابنه عبدالله المأمون بالرقة؛ وفوض إليه الأمور؛ وكتب إلى الآفاق بالسمع له والطاعة. ودفع إليه خاتم المنصور يتيمن به؛ وهو خاتم الخاصة ونقشه «الله ثقتي آمنت به». وأثناء ذلك كانت الروم قد خرجت إلى (عين زربة) و (كنيسة السوداء) فأغارت وأسرت؛ فاستنقذ أهل المصيصة ما كان في أيديهم. فيما كان الرشيد قد حشد مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع والمطوعة؛ وسوى من لا ديوان له؛ وبث الجيوش والسرايا في بلاد الروم. فوجه قوة بقيادة عبدالله بن مالك لحصار (ذي الكلاع) ووجه داود بن عيسى ابن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً. وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن (الصقالبة) وحصن (دبسة). وافتتح يزيد من مخلد (الصفصاف) و (ملقوبية).

وعكف الرشيد على حصار (هرقلة) طوال ثلاثين يوماً؛ إلى أن فتحها الله؛ فأخربها وسبى أهلها (**) ثم سار الرشيد إلى (الطوانة) فعسكر بها؛ ثم رحل عنها

(*) **وفي ذلك قال شاعر الرشيد مروان بن أبي حفصة:**

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها ... محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها ... وقالوا: سجون المشركين قبورها

(**) **وفي ذلك قال أبو العتاهية:**

ألا نادت هرقلة بالخراب ... من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ... ويبرق بالمُذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم ... وأبشر بالغنيمة والاياب

وكان الرشيد قد اتخذ قبل غزاته قلنسوة كتب عليها (غاز حاج) فكان يلبسها. وفي ذلك قال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طِمِرّ ... وفي أرض التَّرفُّهِ فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الأمور

وخلف عليها عقبة بن جعفر. وأمر ببناء منزل هنالك. كما ولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر؛ فبلغ حميد (قبرس) فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً؛ فأقدمهم الرافقة، فتولى بيعهم القاضي أبو البختري؛ فبلغ أسقف قبرس ألفي دينار. وأسرع (نقفور) لطلب الصلح وقد جهدته الحرب؛ وبعث إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار - منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق دينارين - وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتاباً نسخته: **«لعبدالله هارون أمير المؤمنين؛ من نقفور ملك الروم؛ سلام عليكم؛ أما بعد أيها الملك؛ إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك؛ هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة؛ كنت قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»**. واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته. فأمر الرشيد بطلب الجارية؛ فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه؛ وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسل نقفور؛ وبعث إليه بما سأل من العطر؛ وبعث إليه من التمور والأخبصة والزبيب والترياق. فأرسل نقفور هدية الى الرشيد اشتملت على وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم؛ ومائة ثوب ديباج؛ ومائتي ثوب بزيون - حرير مطرز - واثني عشر بازياً؛ وأربعة أكلب من كلاب الصيد؛ وثلاثة براذين. **وكان نقفور اشترط ألا يخرب (ذا الكلاع) ولا (صملة) ولا (حصن سنان). واشترط الرشيد عليه ألا يعمر (هرقلة) وعلى أن يحمل نقفور ثلاثمائةألف دينار.**

يظهر أن فتح (هرقلة) وهزيمة الروم؛ لم تكن على درجة كافية من القوة لحمل الروم - البيزنطيين - على الجنوح الى السلم بصورة دائمة. فكانت هذه الغزوة على ضخامتها واتساعها وعلى ما حققته من أهداف ونتائج؛ مثلها كمثل أي غزوة أخرى واجهها الروم عبر صراعهم المستمر. ففي السنة التالية لهذه الغزوة (سنة ١٩١ هـ = ٨٠٦ م) قاد (يزيد بن مخلد الهبيري) غزوة الصائفة في أرض الروم،

ومعه عشرة آلاف مقاتل؛ فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه على بعد مرحلتين من (طرسوس) وقتلوا معه خمسين رجلاً؛ وسلم الباقون. فولى الرشيد (هرثمة بن أعين) لقيادة الصائفة، وضم إليه ثلاثين ألفاً من جند خراسان؛ ووجه معه مسرور الخادم للاضطلاع بالاعباء الادارية ـ النفقات وجميع الأمور خلا الرئاسة أو القيادة ـ. ومضى الرشيد إلى درب الحدث، فرتب هنالك (عبدالله بن مالك). ورتب بمرعش (سعيد ابن سلم بن قتيبة). فأغارت الروم عليها؛ وأصابوا من المسلمين؛ وسعيد بن سلم مقيم بها. ثم انصرفوا. ووجه الرشيد أيضاً إلى طرسوس (محمداً بن يزيد بن مزيد) وعندما أنهى الرشيد تنظيم الثغور؛ واطمأن على المسلمين؛ عاد إلى الرقة.

توفي الرشيد سنة ١٩٣ هـ = ٨٠٨ م. وقتل في السنة ذاتها ملك الروم نقفور في حربه مع البرجان ـ البلغار ـ وذلك بعد أن حكم بلاد الروم لمدة سبع سنين؛ وملك بعده ابنه استبراق الذي كان جريحاً ولم يلبث أن فارق الحياة بعد شهرين؛ فأصبح ميخائيل بن جرجس ملكاً على الروم. وشغلت الدولة الاسلامية ـ العباسية ـ بصراعاتها الداخلية، وبالحرب بين الأخوين الأمين والمأمون، فعرفت جبهة الثغور نوعاً من الهدوء النسبي حتى سنة ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م.

حدثت في هذه الفترة ذاتها تطورات داخلية شغلت دولة الروم ـ البيزنطيين ـ بأمورها؛ وصرفتها عن التعرض للمسلمين؛ ووفقاً لما ذكرته المصادر العربية؛ ففي سنة ١٩٤ هـ «وثب الروم على ملكها ميخائيل فهرب وترهب وكان ملكه سنتين». وفي سنة ٢٠٠ هـ: «قتلت الروم ملكها أليون؛ فكان قد ملك عليهم سبع سنين وستة أشهر؛ وملكوا عليهم ميخائيل بن جرجس ثانية». وفي سنة ٢٠٩: «مات ميخائيل بن جرجس صاحب الروم، وكان ملكه تسع سنين. وملكت الروم عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل».

* * *

استقر الأمر للمأمون بعد قتل الأمين (سنة ١٩٨ هـ = ٨١٣ م) فحاول السير على نهج أبيه الرشيد وكان من أبرز أعماله قيادته لحملة كبيرة (سنة ٢١٥) حيث غادر

مدينة السلام لغزو الروم؛ واستخلف حين رحل عن مدينة السلام (اسحاق بن ابراهيم ابن مصعب) ثم سلك المأمون طريق الموصل، حتى صار إلى منبج، ثم إلى دابق؛ ثم إلى أنطاكية؛ ثم إلى المصيصة؛ ثم خرج منها إلى طرسوس. ثم دخل من طرسوس إلى بلاد الروم. وأقام على حصن (ماجدة) فافتتحه ومنَّ على أهله؛ ثم أقام على (حصن قرة) فحارب أهلها حتى طلبوا الأمان؛ فآمنهم، وأمر بهدم الحصن. ووجه قوة بقيادة (أشناس) إلى (حصن سندس) فأتاه برئيسه. ووجه قوة أخرى بقيادة (عجيف) و (جعفر الخياط) إلى (حصن سنان) فسمع قائده وأطاع؛ وخرج المأمون من بلاد الروم؛ ومضى الى دمشق.

علم المأمون في السنة التالية (٢١٦ هـ) باقدام ملك الروم على قتل قوم من أهل (طرسوس) و (المصيصة) - بلغ عددهم ألفاً وستمائة مسلم- . فقاد المأمون جيشه؛ ودخل بلاد الروم؛ ووصلته رسالة من ملك الروم (توفيل بن ميخائيل) بدأها بذكر نفسه قبل ذكر المأمون، فلم يقرأها المأمون، ومضى في طريقه، فوافاه رسل (توفيل) بمدينة (أذنة) ومعهم خمسمائة رجل من أسارى المسلمين. إلا أن المأمون مضى في طريقه؛ ونزل على (أنطيغوا) فخرج أهلها على صلح. وصار المأمون إلى (هرقلة) فخرج إليه أهلها على صلح؛ ووجه أخاه (أبا إسحاق) ففتح الله له ثلاثين حصناً ومطمورة. ووجه يحيى بن أكثم من (طوانة) فأغار وقتل وحرق وأصاب سبياً ورجع إلى العسكر. ثم خرج المأمون إلى (كيسوم) فأقام بها يومين أو ثلاثة؛ ثم ارتحل إلى دمشق بعد أن أقام في بلاد الروم مدة ثلاث أشهر. وعاد المأمون في السنة ذاتها فدخل أرض الروم؛ وأناخ على (لؤلؤة) لمدة مائة يوم، ثم رحل عنها وخلف عليها قوة بقيادة (عجيف) فاختدعه أهلها وأسروه؛ فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه، وجاء ملك الروم (توفيل) فأحاط بعجيف، فوجه المأمون الجنود إليه؛ فارتحل (توفيل) قبل وصولهم. وخرج أهل (لؤلؤة) إلى عجيف بأمان. فلما كانت السنة التالية (٢١٧) وصلت إلى المأمون رسالة من ملك الروم (توفيل) سأله فيها الصلح؛ وبدأ بنفسه، وكانت نسخة الرسالة: «أما بعد! فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما. ولست حرياً بأن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه

إلى نفسك؛ وفي علمك كاف عن إخبارك. وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة؛ راغباً في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً: مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر؛ وفك المستأسر؛ وأمن الطرق والبيضة - المدن - **فإن أبيت فلا أدِبَّ لك في الخمر** (*) **ولا أزخرف لك في القول؛ فإني لخائض إليك غمارها؛ آخذ عليك أسدادها - حواجزها وعوائقها - شانّ خيلها ورجالها**. وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة؛ بيني وبينك علم الحجة والسلام». فكتب إليه المأمون: «أما بعد! فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة؛ ودعوتَ إليه من الموادعة؛ وخلطت فيه من اللين والشدة؛ مما استعطفت به؛ من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال؛ **فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة؛ وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه؛ لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم؛ ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم؛ ثم أوصل إليهم من الإمداد؛ وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد؛ هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم؛ موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة أو كريم منقلب؛ غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة؛ من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية؛ فإن أبيت ففدية توجب الذمة، وتثبت نظرة؛ وإن تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى»**.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يوجه فيها (أمير المؤمنين) موعظة الى (ملك الروم) باختيار واحدة من ثلاث: الاسلام أو (الفدية التي توجب الذمة) أو الحرب.

(*) الخمر - بالتحريك: كل ما واراك من شجر أو بناء أو غيره. وخمر كفرح: توارى. ومن أمثال العرب: «يدب له الضراء ويمشي الخمر» والضراء كسحاب: الشجر الملتف في الوادي - يقال: (توارى الصيد في ضراء) و (فلان يمشي الضراء) إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر - مثل يضرب للرجل يختل أو يخدع صاحبه - تاريخ الطبري - احداث سنة ٢١٧ هـ.

وسار (توفيل) على نهج من سبقه من ملوك الروم؛ فاختار (الفدية التي توجب الذمة). وتم الصلح أو المهادنة. ولكن لم يكن باستطاعة أمير المؤمنين (المأمون) الاعتماد على العهود والمواثيق ـ بعد أن تكرر نكث الروم وغدرهم. فوجه ابنه (العباس) إلى (طوانة) وأمره ببنائها لتكون ثغراً حصيناً من ثغور المسلمين في بلاد الروم، وأرسل له الفعلة والفروض؛ فابتدأ البناء؛ وبناها ميلاً في ميل؛ وجعل سورها على ثلاثة فراسخ؛ وجعل لها أربعة أبواب؛ وبنى على كل باب حصناً. ثم كتب المأمون إلى أخيه (إسحق ابن الرشيد) بفرض أربعة آلاف رجل على جند دمشق وحمص والأردن وفلسطين؛ وأن يخصص لكل فارس مائة درهم ولكل راجل أربعين درهماً؛ وفرض على مصر فرضاً. وكتب الى (العباس) بما فرضه على قنسرين والجزيرة؛ وإلى (إسحق بن إبراهيم) بما فرضه على أهل بغداد وهم ألفا رجل. وخرج بعضهم حتى وافى (طوانة) ونزلها مع العباس.

هكذا توقفت مرة أخرى الصوائف، ويظهر أن ملك الروم كان بحاجة لسلم مؤقت أو لهدنة محدودة بمثل ما كان يحتاجها أمير المؤمنين (المأمون). ويمكن صرف النظر عن (التحديات أو المبارزات الكلامية). فقد كان هناك ثمة نوع من التوازن في الصراع؛ ولم تتأثر دولة الروم تأثراً كبيراً بضياع حصن أو تدمير قلعة أو اجتياح اقليم؛ واستمرت في حربها: وكانت تضغط على حكام وأمراء المسلمين بما تأخذه من الأسرى، ثم لتبادل عليهم أو تفتديهم بمن يماثلهم من الأسرى. وصحيح أن الحملات التي قادها الرشيد ثم قادها المأمون من بعده؛ قد بلغت من الضخامة، ومن الحجم؛ ما لم تبلغه حملة أخرى ـ في العهد الأموي ـ إلا أن عدم انتظام الصوائف قد أفسح الفرصة أمام الروم لتنفس الصعداء. والعمل في الوقت ذاته للافادة من فترات الهدوء لزيادة قدراتهم القتالية؛ وحشد قوات ضخمة لم تتح لهم فرصة من قبل لحشد مثلها: مع الامساك ـ أو حتى محاولة الامساك بالمبادأة. وكان ذلك بمثابة تحول حاسم في الصراع على جبهة الروم.

كان (بابك الخرمي) قد تحرك في ناحية (البذ) بين أذربيجان وآران سنة ٢٠١ هـ = ٨١٦ م (*) وأفاد من الصراعات الداخلية ليبسط نفوذه على السند؛ وأصبح يشكل خطراً كبيراً على الدولة العربية ـ الاسلامية، حتى انه قتل في عشرين سنة (حتى سنة ٢٢٣ هـ) حوالى مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة. وقد أمكن لهم هزيمة جيوش (يحيى بن معاذ) و (عيسى بن محمد بن أبي خالد) و (أحمد بن الجنيد). وأسر ثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعة من أحرار العرب المسلمين. فلما استقر الأمر للمعتصم، وجه جيشاً كبيراً بقيادة (الافشين) فأمكن له الانتصار على بابك الخرمي ـ وحمله أسيراً الى بغداد حيث جرى قتله. وأمر الأفشين أسرى المسلمين ليكتبوا إلى أهلهم وأوليائهم، فجاء منهم خلق كثير وأخذوا من كان لهم من حرمة أو قرابة وبقي منهم كثيرون ينتظرون أن يجيء أولياؤهم. **والمهم في الأمر هو أنه لما شعر (بابك الخرمي) بالحلقة وهي تضيق حول عنقه؛ وأنه أشرف في حربه مع الأفشين على الهلاك؛ وأيقن بالضعف من نفسه عن حربه؛ كتب الى ملك الروم (توفيل بن ميخائيل بن جرجس) يعلمه أن ملك العرب ـ المعتصم ـ قد وجه عساكره ومقاتليه إليه، حتى وجه خياطه ـ ويعني جعفر بن دينار ـ وطباخه ـ ويعني إيتاخ ـ ولم يبق على بابه أحد. فإن أردت الخروج إليه؛ فاعلم أنه ليس في وجهك**

(*) الخرم تعني (الفرج) وهي مقالات المجوس: والرجل منهم ينكح أمه وأخته وابنته؛ ولهذا يسمونه (دين الفرج). ويعتقدون مذهب التناسخ؛ وأن الأرواح تنتقل من حيوان الى غيره. ولهذا فقد زعم (بابك الخرمي) أن روح (جاويدان بن سهل) صاحب البذ قد دخلت فيه ـ ومعنى جاويدان = الدائم أو الباقي ـ فتبعه أصحاب جاويدان وعظم أمره. وبابك الخرمي هذا هو ابن حرام والده رجل من الصعاليك يقال له مطر ـ قال: «كنا مع ابن الرواد ـ وكانت أم بابك واسمها ـ ترنو مبذ العوراء من علوج ابن الرواد ـ فكنت أنزل عليها وكانت مصكة ـ قوية ـ فكانت تخدمني وتغسل ثيابي: فنظرت إليها يوماً؛ فواثبتها بشبق السفر وطول الغربة، فأقررته في رحمها. ثم غبنا غيبة بعد ذلك، ثم قدمنا فإذا هي تطلبني، فنزلت في منزل آخر، فصارت إلي يوماً فقالت: حين ملأت بطني تنزل ها هنا وتتركني! فأذاعت أنه مني ـ فقلت والله لئن ذكرتني لأقتلنك! فأمسكت عني؛ فهو والله ابني» تاريخ الطبري والكامل ـ احداث ٢٠١ و ٢٢٣.

أحد يمنعك. وقد طمع (بابك الخرمي) في أن يخفف تحرك ملك الروم عنه بعض الضيق، بحيث يضطر المعتصم لسحب قسم من قواته لمواجهة تحرك جيش الروم. واهتبل ملك الروم (تيوفيل) هذه الفرصة، **وقاد جيشاً من مائة ألف ـ فيهم من الجند نيف وسبعون ألفاً ـ وبقيتهم أتباع.** وانضم إليهم قوم من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم ـ وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره إليه ـ. وقاد (توفيل) هذا الجيش الى (زبطرة) فقتل الرجال الذين فيها؛ وسبى الذراري والنساء التي فيها وأحرقها. وأغار من فوره على (ملطية) وهاجم عدداً من حصون المسلمين. وسبى من المسلمات اكثر من ألف امرأة؛ ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل عيونهم وقطع أذانهم وأنافهم. وأسرع أهل الثغور من الشام والجزيرة لنجدة إخوانهم ـ إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح.

بلغ الأمر (المعتصم) وهو بسامراء؛ فاستعظمه وكبر عليه؛ وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم (وامعتصماه) فأجابها وهو جالس على سريره (لبيك! لبيك!). ونهض من ساعته وصاح في قصره (النفير! النفير!) ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالاً وسكة حديد وحقيبة فيها زاده، وانتقل الى دار العامة؛ وأحضر من أهل مدينة السلام قاضيها (عبدالرحمن بن اسحاق) و(شعبة بن سهل). ومعهما ثلثمائة وثمانية وعشرون رجلاً من أهل العدالة؛ **فأشهدهم على** ما وقف من الضياع فجعل ثلثاً لولده: وثلثاً لله؛ وثلثاً لمواليه، ثم أقام عسكره بغربي دجلة. ووجه قوات بقيادة (عجيف بن عنبسة) و (عمرو الفرغاني) و (محمد كوتاه) وجماعة من القواد إلى (زبطرة) إعانة لأهلها. فوجدوا ان ملك الروم قد انصرف إلى بلاده: فتوقفوا حتى رجع الناس الى قراهم واطمأنوا. ومضى المعتصم؛ فتجهز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة قط؛ من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم؛ والبغال؛ والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط. ولما فرغ المعتصم من أمر (بابك الخرمي) سأل: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟» فقيل له: **«عمورية، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام؛ وهي عين النصرانية. وهي أشرف عندهم من**

القسطنطينية» . ونظم (المعتصم) جيشه؛ وجعل على مقدمته (أشناس) ويتلوه (محمد بن ابراهيم) وعلى ميمنته (ايتاخ) وعلى ميسرته (جعفر بن دينار بن عبدالله الخياط) وعلى القلب (عجيف بن عنبسة).

سار (المعتصم) بجيشه؛ ودخل بلاد الروم، وأقام على نهر اللمس أو (لامس) وهو على (سلوقية) قريباً من البحر، بينه وبين (طرسوس) مسيرة يوم؛ وعليه كان يتم الفداء - تبادل الأسرى - بين المسلمين والروم. وأمضى المعتصم (الأفشين خيذر بن كاوس) الى مدينة (سروج) وأمره بالانطلاق منها الى (درب الحدث) وحدد له يوماً معيناً للدخول؛ وترك يوماً بينه وبين دخول القوة التي يقودها (أشناس) ويوماً بين القوة التي يرافقها (المعتصم) وبين (أشناس). وحدد مدينة (أنقرة) مكاناً لالتقاء قوى (الأفشين) و (أشناس) وقوته. على أن يتم الانطلاق منها إذا ما فتحها الله على المسلمين إلى (عمورية). وأمر المعتصم بأن يسير أشناس وقوته من درب طرسوس. وأمره أن ينتظره (بالصفصاف). ثم دفع المعتصم مقدماته بعد يومين بقيادة (وصيف).

وصل (أشناس) إلى (مرج الأسقف) وهناك وصله كتاب من المعتصم الذي كان قد وصل الى المطامير؛ يعلمه فيه أن ملك الروم موجود في المنطقة وأنه ينتظر وصول جند المسلمين حتى نهر (لامس) ليباغتهم بهجومه. وأمر المعتصم قائده (أشناس) بالتوقف في (مرج الاسقف) لأنه كان ينتظر وصول المؤخرة (الساقة) التي كان يتولى قيادتها (جعفر بن دينار) والتي كانت لا تزال تعبر مضيق الدرب؛ ومعها الأثقال والمجانيق، فإذا ما انتهى عبور المؤخرة، فسينطلق المعتصم للتوغل في بلاد الروم.

أقام (أشناس) بمرج الأسقف ثلاثة أيام؛ ثم وصله أمر من المعتصم بتوجيه سرية بقيادة قائد من قواده للحصول على معلومات عن العدو؛ وأخذ أسرى. فوجه أشناس سرية من مائتي رجل بقيادة (عمرو الفرغاني). وسارت السرية طوال الليل حتى وصلت (حصن قرة) وحاولت الحصول على بعض الأسرى فلم تتمكن من ذلك؛ وشعر قائد (حصن قرة) بوجود سرية المسلمين فقاد قوة من فرسانه؛ وخرج من حصن قرة. وأقام كميناً في شعاب الجبل الكبير المحيط بناحية - رستاق - قرة. وعرف (عمر الفرغاني) بأمر الكمين الذي أعده له قائد حصن قرة بين (قرة) و (درة) فقاد سريته

الى (درة) ونصب كميناً أمضى به ليلته، فلما انفجر عمود الصبح وزع سريته على ثلاث مجموعات، وأمرهم أن يركضوا ركضاً سريعاً، وبأقصى ما يستطيعونه؛ حتى يأتوه بأسير يعرف شيئاً عن مكان ملك الروم وما لديه من القوات، ووعد قادة المجموعات ان يوافوه في بعض المواضع التي عرفها الأدلاء؛ ووجه مع كل مجموعة دليلين. وانطلقت المجموعات الثلاث مع الصبح، وسارت على ثلاث اتجاهات؛ وأمكن لها الحصول على عدد من أسرى الروم؛ كان بعضهم من أهل عسكر الملك؛ وبعضهم من الضواحي؛ وأخذ (عمر) رجلاً من فرسان أهل (قرة) واستجوبه؛ فعلم منه ان ملك الروم وجنده قد توقفوا على بعد أربعة فراسخ وراء نهر اللمس؛ وأن قائد حصن قرة قد عرف بأمرهم فقاد قوة ونصب كميناً في الجبل المشرف على موقعهم؛ فوقف عمرو في نقطة الازدلاف التي وعد فيها قادة مجموعاته للالتقاء معه، وأمر الأدلاء الذين معه ان يتفرقوا في رؤوس الجبال؛ وأن يشرفوا على المجموعات التي تفرقت في شعاب الجبل؛ وإنذارها حتى لا يباغتها كمين قائد حصن قرة. فرأى الأدلاء المجموعات. ولوحوا لها؛ فأقبلت واجتمع الجميع ثم نزلوا الجبل؛ وارتحلوا نحو المعسكر ـ ومعهم عدد من أسرى جند ملك الروم؛ وساروا حتى وصلوا معسكر أشناس في اللمس.

وعرف (القائد أشناس) من الأسرى الذين قام باستجوابهم بأن ملك الروم قد أقام مع جنده في معسكره عند نهر اللمس طوال ثلاثين يوماً وهو ينتظر عبور المعتصم ومقدمته؛ ثم إنه علم بتقدم جيش ضخم من خلفه ـ بقيادة الأفشين فقاد جيشه وسار في ناحية الأرمنياق ـ بعد أن استخلف على معسكره ابن خاله. فما كان من (أشناس) إلا أن أسرع بإرسال الرجل الذي أعلمه بهذه المعلومات الى المعتصم؛ فوجه المعتصم من عسكره قوماً من الأدلاء؛ وضمن لكل رجل منهم عشرة الآف درهم، إن هم استطاعوا حمل رسالته الى الافشين، وقد تضمنت الرسالة تحديد المكان الذي وصل اليه المعتصم، مع أمر الافشين بالتوقف في مكانه إشفاقاً من أن يباغته ملك الروم بهجومه. كما كتب المعتصم رسالة إلى أشناس أمره فيها بتوجيه رسالة من قبله ـ من الأدلاء الذين يعرفون الجبال والشعاب؛ وضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم؛ إن هو أوصل الكتاب لاعلام الافشين عن تقدم ملك الروم نحوه، مع الطلب إليه بالتوقف الى

أن يصله أمر جديد من أمير المؤمنين ـ المعتصم ـ.

توجهت الرسل إلى ناحية (الأفشين) فلم يلحقه أحد منهم؛ وذلك لأنه كان قد أوغل في بلاد الروم؛ ووصلت مؤخرة القوات والأثقال فأصدر (المعتصم) أمره إلى (أشناس) بالتقدم، وتبعه بفاصل مرحلة واحدة بينهما؛ حتى وصلوا على بعد ثلاث مراحل من (أنقرة) ولما تصلهم أي معلومات عن الأفشين. **وتعرض معسكر المعتصم لضيق شديد في الحصول على الماء والمواد التموينية والعلف.** وكان (أشناس) قد تمكن خلال تقدمه من أسر عدد من جند الروم؛ فأمر بضرب أعناقهم؛ فتقدم إليه شيخ كبير؛ وقال له: «ما تنتفع من القتل وأنت في هذا الضيق؛ وعسكرك في حاجة للماء والزاد؛ وها هنا قوم قد هربوا من أنقرة خوفاً من أن ينزل بهم ملك العرب؛ وهم بالقرب منا ها هنا؛ معهم من الميرة والطعام والشعير شيء كثير؟ وجه معي قوماً لأدفعهم إليهم وخل سبيلي!». واختار أشناس خمسمائة من أفضل فرسانه الذين تطوعوا لمهمة مرافقة الشيخ؛ وقام بنفسه باختبار خيولهم؛ ثم سار هؤلاء ومعهم الادلاء (بقيادة مالك بن كيدر) وأمضوا ليلتهم في مسيرة شاقة عبر شعاب الوادي الصعبة؛ فلما طلع الفجر، سار مالك بمن معه حتى أشرف على معسكر أهل أنقرة ـ وهم في طرف ملاحة ـ. فهاجمهم، واشتبك معهم، وأسر عدداً من الجرحى؛ وسألهم عن سبب جراحاتهم؛ فعلم منهم أن ملك الروم قد اشتبك في معركة ضارية مع (الأفشين) وقد هزم الأفشين في البداية، ثم أعاد تنظيم قواته وفرسانه وهاجم ملك الروم من جديد، حتى أمكن له الانتصار عليه في آخر النهار. فلما انسحب الملك بمن بقي معه إلى معسكره عند نهر اللمس، وجد أن معسكره قد قوض؛ وجنده قد تمزق؛ فكتب إلى المدن والحصون بإعادة كافة الجنود إلى موضع عينه حتى يهاجم ملك العرب عند عمورية.

أسرع (مالك بن كيدر) بقيادة جنده على طريق العودة إلى معسكر أشناس، وقد حمل معه الأسرى والكثير من البقر والأغنام والحبوب، وسار مجداً حتى لحق بأنقرة. ووصل المعتصم وقواته في اليوم التالي، فعلم بالمعركة الظافرة التي قادها (الأفشين) فسر بذلك سروراً كبيراً. ثم ورده بعد ذلك بيوم واحد رسول من قبل الأفشين يعلمه أنه

قادم عليه بأنقرة. **وعندما تكامل تجمع الجيش، أعاد المعتصم تنظيم قواته؛ فقسمها إلى ثلاث جيوش، جيش على الأيسر بقيادة أشناس، وجيش في الوسط ـ بقيادة المعتصم، وجيش على الميمنة بقيادة الأفشين، وترك مسافة فرسخين لتفصل بين كل جيش والجيش التالي المجاور له؛ وأمر كل جيش بأن يكون له ميمنة وميسرة. كما أمرهم بان يحرقوا القرى ويخربوها، ويأخذوا من لحقوا فيها من السبي. ولما كانت هناك مسافة سبع مراحل بين انقرة وعمورية. فقد حدد المعتصم مكان النزول لكل مرحلة على أن يقيم كل جيش عند نزوله باتخاذ الترتيبات محافظاً على نظام التحرك ذاته، وبحيث يكون لكل جيش معسكره، المنفصل عن الجيشين الآخرين.**

كان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية، وحملوه على التنصر وزوجوه فتاة منهم، فلما وصل المسلمون قرر اللحاق بهم؛ وأخذ في انتظار الفرصة. ووصل المعتصم بجيشه، وأجرى الاستطلاع، وجال حول عمورية ثم قسمها إلى ثلاثة قطاعات، لكل جيش قطاع، وصير لكل واحد منهم أبراجاً على قدر عدد أفراد الجيش وقوته، فكان لكل قائد ما بين البرجين إلى عشرين برجاً؛ وتحصن أهل عمورية؛ وتحرزوا؛ وأظهروا تصميمهم على القتال. وأفاد المسلم المتنصر من غفلة حرس باب الحصن، فهرب وجاء إلى المعتصم؛ وأعلمه أن موضعاً من المدينة قد اجتاحه سيل شديد فهدم سوره، فكتب ملك الروم إلى قائد عمورية ببناء ذلك الموضع؛ غير أن هذا القائد توانى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع؛ فتخوف القائد أن يمر الملك على تلك الناحية فيشاهد الثلمة في السور، فوجه الصناع وبنى وجه السور بصف واحد من الحجارة، وصير وراءه من جانب المدينة حشواً. ثم عقد فوقه الشرف كما كان. وحدد ذلك الرجل للمعتصم مكان الثلمة، فأمر المعتصم بإقامة مضربه في ذلك الموضع؛ ونصب المجانيق على ذلك البناء؛ فانفرج السور عن الثغرة من المكان الذي حدده الرجل؛ فلما رأى أهل عمورية انفراج السور، علقوا عليه الخشب الكبار ـ العمد ـ وكل واحد يلاصق الآخر؛ فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر، فعلقوا خشباً غيره، وصيروا فوق الخشب البراذع ليدعموا السور. فلما ألحت المجانيق على ذلك

الموضع انصدع السور؛ فكتب قائد حامية عمورية (ياطس) إلى ملك الروم يعلمه أمر السور: وأرسل الكتاب مع غلام رومي ورجل يتحدث باللغة العربية بفصاحة؛ فلما خرجا من الخندق أمسك بهما الجند المسلمون وحملوهما إلى (عمرو الفرغاني بن أربخا) فوجههما عمرو إلى القائد (أشناس) فأرسلهما أشناس إلى المعتصم، فاستجوبهما وفتشهما، فعثر على الكتاب. الذي تضمن نصه: «إعلاماً لملك الروم بإحاطة جند المسلمين لعمورية بجيش كثيف؛ حتى ضاق بهم الموضع، وأن قائد حامية عمورية ـ ياطس ـ قد قرر جمع فرسانه والخروج بهم ليلاً للهجوم على المسلمين بصورة مباغتة، في محاولة للخروج من دائرة الحصار والوصول إلى الملك ـ ملك الروم». فلما قرأ المعتصم الكتاب، أمر للرجل الذي يتكلم منهما بالعربية والغلام الرومي. بمال وفير؛ فأسلما؛ وخلع عليهما؛ وأمر بهما حين طلعت الشمس فطافا حول عمورية. وتوقفا في مواجهة البرج الذي يقف فيه ياطس وهما يلبسان الثياب التي أهداها لهما المعتصم ـ خلعها عليهما ـ ومعهما الكتاب يلوحان به، فعرف ياطس أن رسالته قد وصلت المعتصم. وأمر المعتصم بتشديد الحراسة وتنظيم المناوبة. وإقامة الفرسان على خيولهم وهم على استعداد كامل للقتال، خشية المباغتة. واستمر الحصار الشديد إلى أن تم هدم السور؛ وأحدث انهياره وسقوطه دوياً مرعباً؛ طابت له نفوس المسلمين؛ وتفطرت له قلوب النصارى.

كان المعتصم حين نزل عمورية، وشاهد سعة خندقها وطول سورها، قد أمر بضع مجانيق كبيرة على قدر اتساع السور. يسع كل منجنيق منها أربعة رجال؛ فتم صنعها بإتقان واحكام، وكانت تتحرك على مساند لها عجلات. وأمر الجنود بحشو جلود الأغنام والماعز وما يتم ذبحه وأكل لحمه، بالتراب؛ ثم دحرجتها لردم الخندق. وتم أيضاً صنع دبابات كبار تتسع كل دبابة منها عشرة رجال. وبدأ العمل ـ بجهد ـ إلى أن تم ردم الخندق بالتراب وتسويته مع الأرض ثم دفعت الدبابات، إلا أنها تعلقت هي والمجانيق في منتصف المسافة بسبب تشابكها بالجلود، ولم يتخلص الجنود منها إلا بصعوبة. وبطل عمل الدبابات والمجانيق والسلاليم وغير ذلك حتى أحرقت.

جاء اليوم التالي؛ واحتدم القتال عند الثلمة، وكان القائد (أشناس) وقواته؛ هم الذين بدؤوا الحرب؛ وكان الموضع ضيقاً؛ فلم يتمكنوا من تطوير الأعمال القتالية. فأمر

المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول السور؛ فجمع بعضها إلى بعض؛ وحشدها جميعها في مواجهة الثلمة، وأمر بتركيز الرمي على ذلك الموضع. وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه؛ فأجادوا الحرب وتقدموا. وكان المعتصم ممتطياً صهوة جواده في مواجهة الثلمة؛ ومعه كبار القواد وفيهم أفشين وأشناس؛ فيما كان بقية القواد مع جند المشاة. وأعجب المعتصم بما أظهره جنده من الشجاعة ومن العناد في القتال، فقال: «ما كان أحسن الحرب اليوم!». وقال عمرو الفرغاني معقباً: «الحرب اليوم هي أجود مما كانت عليه بالأمس». وسمعها أشناس، فكتمها في نفسه، حتى إذا ما انتصف النهار؛ وانصرف المعتصم إلى مضربه، وانصرف القواد إلى مضاربهم لتناول طعام الغداء؛ واقترب أشناس من مضربه؛ ترجل له قواده كما كانوا يفعلون - وفيهم عمرو الفرغاني وأحمد بن الخليل بن هشام؛ فمشوا بين يديه كعادتهم عند مضربه؛ فقال لهم أشناس: «يا أولاد الزنا! إيش تمشون بين يدي! كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث تقفون بين يدي أمير المؤمنين فتقولون: إن الحرب اليوم هي أجود مما كانت عليه بالأمس - وكأن الذين قاتلوا بالأمس هم جند غيركم - انصرفوا إلى مضاربكم».

كانت الحرب في اليوم الثالث على اصحاب أمير المؤمنين خاصة؛ ومعهم المغاربة والأتراك. وكان القائد (ايتاخ) هو قائد حرب هذا اليوم. فقاتل الجند وأحسنوا القتال، واتسع لهم الموضع المنثلم؛ فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات. وكان قواد ملك الروم عندما نزل بهم عسكر المعتصم قد اقتسموا البروج؛ لكل قائد وأصحابه عدة أبرجة؛ وكان المسؤول عن الموضع الذي انثلم من السور رجلاً من قواد الروم يقال له (وندوا) وتفسيره بالعربية (ثَور) فقاتل الرجل وأصحابه قتالاً شديداً بالليل والنهار والحرب عليه وعلى أصحابه، ولم يدعمه (ياطس) أو غيره بأي دعم. فلما كان الليل؛ مضى القائد الموكل بالثلمة إلى أصحابه - بقية القادة - وقال لهم: «إن الحرب علي وعلى أصحابي. ولم يبق معي أحد إلا قد جرح. فصيروا أصحابكم على الثلمة يرمون قليلاً. وإلا افتضحتم وذهبت المدينة». فأبوا أن يمدوه بأحد - وقالوا له: «سلم السور من ناحيتك ولسنا نسألك أن تمدنا؛ فشأنك وناحيتك؛ فليس لك

عندنا مدد ». فاعتزم هو وأصحابه على أن يخرجوا إلى أمير المؤمنين المعتصم؛ ويسألوه الأمان على الذرية؛ ويسلموا إليه الحصن بما فيه من المتاع والأثاث والسلاح وغير ذلك. فلما أصبح؛ وكل أصحابه بحماية جانبي الثلمة؛ وخرج فقال: « إني أريد أمير المؤمنين » وأمر أصحابه ألا يحاربوا حتى يعود إليهم؛ فخرج حتى وصل إلى المعتصم. وكان جند المسلمين أثناء ذلك يتقدمون إلى الثلمة حتى وصلوا إلى السور؛ وامتنع الروم عن مقاتلتهم. ودعا المعتصم بفرس فحمل (وندوا) عليه وسار معه حتى صار الناس معهم على حرف الثلمة. وأومأ (عبد الوهاب بن علي) الذي كان يسير في ركب المعتصم إلى الناس: « أن ادخلوا » فدخل الناس المدينة، فالتفت (وندوا) وضرب بيده لحيته؛ فقال له المعتصم: « مالك؟ ». قال: جئت وأنا أريد أن أسمع كلامك وتسمع كلامي؛ فغدرت بي، فقال له المعتصم: « كل شيء تريد أن تقوله فهو لك علي؛ قل ما شئت؛ فإني لست أخالفك » فرد (وندوا) بقوله: « كيف لا تخالفني وقد دخلوا المدينة؟ » فأجابه المعتصم: « اضرب بيدك إلى ما شئت فهو لك؛ واطلب ما شئت فإني أعطيكه » وعاد (وندوا) برفقة المعتصم إلى مضربه.

وقف (ياطس) في برجه؛ وحوله جنده، وقاتلوا بعناد؛ ولجأت طائفة منهم إلى الكنيسة الكبيرة في ناحية من عمورية؛ فقاتلوا قتالاً شديداً؛ فأحرق الناس الكنيسة عليهم، فاحترقوا عن آخرهم؛ ووقعت أعداد كبيرة من جند الروم بين قتيل وجريح. وحاول المعتصم ايقاف الاقتتال، فاستنزل (ياطس) من برجه؛ فحاول هذا المراوغة؛ إلا أنه اضطر للاستسلام في النهاية؛ ورمى سيفه؛ وتقدم إلى المعتصم الذي قنعه بسوطه. وانتهى القتال. وحمل (ياطس) وكبار القادة إلى مضرب المعتصم؛ فيما كان الدمار واللهب يلتهم عمورية (*).

(*) لقد خلد الشاعر العربي أبو تمام حبيب بن أوس الطائي هذه المعركة في قصيدته الشهيرة التي جاء فيها:

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في	متونهن جلاء الشك والريب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عنك المنى حفلاً معسولة الحلب

أقبل جند المسلمين بالأسرى والسبي من كل وجه حتى امتلأ العسكر؛ فأمر المعتصم (سيل الترجمان) بتمييز الأسرى، وعزل أهل الشرف والقدر من الروم؛ ووضعهم في ناحية؛ وعزل الباقين في ناحية أخرى. ثم أمر المعتصم فوكل بالمقاسم قواده. ووكل (أشناس) بما يخرج من ناحيته، ووكل الأفشين بما يخرج من ناحيته، وكذلك وكل ايتاخ بناحيته، وجعفراً الخياط بمثل ذلك في ناحيته؛ ووكل مع كل قائد من هؤلاء رجلاً من قبل (أحمد بن أبي داود) يحصي عليه. فبيعت المقاسم في خمسة أيام؛ فبيع منها ما استباع؛ وأمر بالباقي فضرب بالنار؛ وارتحل المعتصم منصرفاً إلى أرض طرسوس. ولما كان يوم (ايتاخ) قبل أن يرتحل المعتصم منصرفاً؛ وثب الناس على المغنم الذي كان إيتاخ على بيعه. فركب المعتصم بنفسه؛ وجاء مسرعاً؛ وسل سيفه؛ فتنحى الناس عنه، وفروا من بين يديه؛ وكفوا عن انتهاب المغنم؛ فرجع إلى مضربه؛ فلما كان من الغد، أمر ألا ينادى على السبي إلا ثلاثة أصوات؛ ليتروج البيع؛ فمن زاد بعد ثلاثة أصوات وإلا بيع ما يتم بيعه. فكان يفعل ذلك في اليوم الخامس. فكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة، وعشرة عشرة، والمتاع الكثير جملة واحدة.

كان ملك الروم قد وجه رسولاً في أول يوم لنزول المعتصم على عمورية؛ فأمر به المعتصم فأنزل على موضع الماء الذي كان الناس يستقون منه؛ وكان بينه وبين عمورية ثلاثة أميال. ولم يسمح له بمقابلته حتى تم فتح عمورية؛ فلما تم فتحها أذن له في الانصراف إلى ملك الروم؛ فانصرف فيما كان المعتصم يتوجه وجيشه نحو الثغور؛

= أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب
أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا ... فداءها كل أم منهم وأب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب
تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتغب
لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلد ... إلا تقدمه جيش من الرعب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت ... أعمارهم قبل نضج التين والعنب
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

شاعر وقصيدة ـ العماد مصطفى طلاس ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٧ م ـ ص١٦٦ ـ ١٧١ .

وذلك أنه بلغه أن ملك الروم يريد الخروج في أثره لأخذ مؤخرات الجيش والغدر بها. وقضى على الطريق الرئيسي مرحلة، ثم رجع إلى عمورية؛ وأمر الناس بالرجوع؛ ثم عدل اتجاه سيره، فسلك وجيشه طريق وادي الجوز، وفرق الأسرى على القواد، ودفع إلى كل قائد من القواد طائفة منهم للمحافظة عليهم؛ وفرقهم القواد على أصحابهم؛ فساروا في طريق لمسافة أربعين ميلاً، وهو طريق ليس فيه ماء. وتعرض الجند لمعاناة صعبة. وتقدم المعتصم فحمل ومجموعة من جنده الماء خشية أن يهلك الجند عطشاً. وحاول بعض الأسرى الافادة من وعورة الطريق وصعوبة التموين لإحداث الاضطراب. فأمر المعتصم بقتلهم؛ فقتل ستة آلاف رجل في موضعين من وادي الجوز. ورحل المعتصم من ذلك الموضع؛ يريد الثغر حتى دخل طرسوس. وكان قد نصب له الحياض من الأدم حول العسكر من الماء إلى العسكر، بعمورية، والحياض مملوءة، والناس يشربون فيها؛ لا يتعبون في طلب الماء.

لقد استمرت هذه الحملة لمدة خمسة وخمسين يوماً. وكان عدد جند المسلمين ـ فيما ذكره الشاعر أبو تمام تسعين ألفاً، فيما كان جيش الروم قد زاد على مائة ألف. وقد أظهر الطرفان المتصارعان روحاً هجومية عالية؛ وإرادة للقتال. غير أن ادارة الحرب في معسكر المعتصم كانت متفوقة بوضوح.

* * *

توفي المعتصم سنة ٢٢٧ هـ = ٨٤١ م. وتوفي ملك الروم (توفيل) في السنة ذاتها. وتم تنصيب امرأته (تذورة) وابنها ميخائيل بن توفيل الذي كان صبياً ـ على عرش مملكة الروم. وشهدت جبهة الصراع مع الروم ـ البيزنطيين ـ عودة للهدوء النسبي. وتميزت هذه الفترة بحدوث ما كان يتكرر حدوثه في مثل هذه الفترات مثل تبادل الأسرى؛ أو ما كان يعرف بعملية (الفداء بين المسلمين والروم). ففي سنة ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م؛ وصل إلى أمير المؤمنين (الواثق) رسول من قبل ملك الروم (ميخائيل بن توفيل) يسأله أن يفاديَ بمن في يده من أسارى المسلمين. ووافق (الواثق) وحدد يوم عاشوراء (العاشر من المحرم) موعداً للفداء. ثم عقد (الواثق) لأحمد بن سعيد بن سلم

ابن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم؛ وأمره بحضور الفداء. فخرج ومعه سبعة عشر رجلاً من رجال البريد. وكان رسل الروم الذين تقدموا بطلب الفداء قد اختلفوا مع قادة المسلمين في موضوع الفداء، وقالوا: «لا نأخذ في الفداء امرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولا صبياً». فلم يزل ذلك بينهم أياماً حتى رضوا عن كل نفس بنفس. ووجه الواثق بالله ـ أمير المؤمنين ـ إلى بغداد والرقة في شراء من يباع من الرقيق من مماليك؛ فاشترى من قدر عليه منهم، فلم يتكامل العدد المطلوب؛ فأخرج الواثق بالله من قصره من النساء الروميات حتى تكامل العدد. وكان (خاقان الخادم) قد نشأ في الثغر؛ وعمل في خدمة الرشيد؛ وبقي عيناً للمسلمين على الروم في الثغور؛ فكلفه أمير المؤمنين الواثق بالله بالاشراف على عملية الفداء؛ وأمره بامتحان الأسرى المسلمين، فمن قال: «بأن القرآن مخلوق» فودي به. ومن أبى ذلك ترك في أيدي الروم؛ كما أمر بإعطاء جميع من قال: «ان القرآن مخلوق» ممن فودي به ديناراً لكل انسان. وجاء يوم عاشوراء؛ واجتمع المسلمون ومن معهم وقائدان من قواد الروم، والمسلمون والمطوعة في أربعة آلاف بين فارس وراجل. ووقف المسلمون ومن معهم من أسرى الروم من جانب الطرف الشرقي من نهر اللامس؛ فيما وقف الروم ومن معهم من أسرى المسلمين على الجانب الغربي لنهر اللامس. وعقد المسلمون جسراً على النهر؛ وعقد الروم جسراً، فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم، ويرسل الروم الأسير المسلم على جسرهم فيلتقي هذا وذاك في منتصف النهر. فإذا صار المسلم إلى المسلمين كبر وكبروا، وإذا صار الرومي إلى الروم تكلم بكلامهم؛ وتكلموا شبيهاً بالتكبير. وخاف الروم عدد المسلمين لقلتهم وكثرة المسلمين، فآمنهم (خاقان الخادم). وطمأنهم، وضرب بينهم وبين المسلمين أربعين يوماً لا يغزون حتى يصلوا إلى بلادهم ومأمنهم. وقد استمرت عملية الفداء أربعة أيام؛ تم فيها افتداء أربعة آلاف وستمائة انسان مسلم ـ منهم صبيان ونساء ستمائة ـ ومنهم من أهل الذمة أقل من خمسمائة؛ والباقون رجال من جميع الآفاق. وتم في هذه العملية استخلاص جميع من كان في بلاد الروم من أسرى المسلمين. وفضل مع ـ خاقان الخادم ـ عدد كبير من الروم؛ ممن كان أعطاه أمير المؤمنين للفداء؛ فأعطى صاحب الروم مائة نفس؛ ليكون عليهم الفضل؛ استظهاراً مكان من يخشى أن يأسروه

من المسلمين إلى انقضاء المدة؛ ورد الباقين إلى طرسوس. وكان من بين الذين تم افتداؤهم ـ تحريرهم من الأسر ـ ثلاثون رجلاً قد تنصروا عندما كانوا في بلاد الروم.

انقضت مدة الأربعين يوماً؛ والتي تم الاتفاق عليها باعتبارها فترة هدنة بين خاقان الخادم وقادة الروم. فتولى (أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة) غزوة لبلاد الروم؛ فأصاب الناس الثلج والمطر؛ فمات منهم قدر مائتي إنسان؛ وغرق منهم في (البدندون) قوم كثير؛ وأسر منهم نحو من مائتين. فغضب أمير المؤمنين الواثق لذلك، لا سيما عندما بلغه أن أحمد بن سعيد؛ ومعه سبعة آلاف رجل؛ قد جبن عن لقاء قوة للروم؛ رغم تحريض وجوه الناس له ـ وقولهم: «إن عسكراً فيه سبعة آلاف لا يتخوف عليه، فإن كنت لا تواجه القوم فلماذا تطرق بلادهم» ولكنه رغم ذلك تجنب القتال؛ واكتفى باقتياد حوالى ألف بقرة وعشرة آلاف شاة. ولهذا أصدر الواثق أمراً بعزله؛ وتعيين (نصر بن حمزة الخزاعي) مكانه. ولم تحدث بعد ذلك غزوات كبرى؛ أو انتظام في أعمال الصوائف؛ وكل ما حدث طوال خمسة عشر عاماً تقريباً هو نوع من الاشتباكات المحدودة والمتباعدة؛ على نحو ما حدث سنة ٢٤١ هـ، عندما أغارت قوة من الروم على (عين زربة) فأسرت من كان بها من الزط؛ مع نسائهم وذراريهم وجواميسهم وبقرهم. وتكررت عملية تبادل الأسرى ـ الفداء ـ في السنة ذاتها؛ إذ أرسلت ملكة الروم (تذورة أم ميخائيل) إلى أمير المؤمنين المتوكل عليه؛ وعرضت عليه المفاداة لمن في أيدي الروم من المسلمين. فوجه المتوكل رجلاً إلى بلاد الروم لمعرفة صحة من في أيدي الروم من أسارى المسلمين. ليأمر بمفاداتهم. وذكر أن (تذورة) أمرت بعد خروج رسول الخليفة من بلاد الروم بإغراء الأسرى بالتنصر؛ فمن قبل التنصر صار مثله كمثل من سبقه وتنصر، ومن أبى قتلته؛ فقيل بأنها قتلت من الأسرى اثني عشر ألفاً. وأرسل المتوكل إلى عمال الثغور الشامية والجزرية؛ ما تقرر بشأن الفداء الذي حدد موعده في يوم عيد الفطر من سنة ٢٤١ هـ ـ وقد جرى الفداء على نهر اللامس ـ فتم افتداء سبعمائة وخمسة وثمانين مسلماً ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة. **وفي السنة التالية (٢٤٢ هـ = ٨٥٦ م) خرجت الروم من ناحية**

شمشاط حتى قاربوا (آمد) ثم خرجوا من الثغور الجزرية . فانتهبوا عدة قرى؛ وأسروا نحواً من عشرة آلاف إنسان . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، فخرج (قربياس) و(عمر بن عبدالله الأقطع) وقوم من المتطوعة في أثرهم. فلم يلحقوا منهم أحداً . وبعد سنتين (سنة ٢٤٤ هـ) وجه المتوكل قوة الصائفة بقيادة القائد (بغا) لغزو بلاد الروم؛ فقام (بغا) بافتتاح (صملة). فأرسل ملك الروم في السنة التالية مجموعة من أسرى المسلمين إلى (المتوكل). وسأله المفاداة بمن عنده؛ غير أنه لم يحدث أي اتفاق على تبادل الأسرى.

فلما كانت السنة التالية (٢٤٥ هـ) قام الروم بالاغارة على (سميساط) فقتلوا وسبوا نحواً من خمسمائة أسير. ورد المسلمون على ذلك بتوجيه الصائفة بقيادة (علي بن يحيي الأرمني) فقام أهل (لؤلؤة) بمنع رئيسهم من الصعود إليها ثلاثين يوماً. فبعث ملك الروم إليهم بطريقاً يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا إليه (لؤلؤة) فقام أهلها بتسليم البطريق إلى المسلمين، فعرضوا عليه الإسلام أو القتل، فكتب ملك الروم إلى المتوكل يعرض عليه مبادلة البطريق بألف رجل من أسرى المسلمين ـ غير أنه لم يتم الاتفاق على تبادل الأسرى. عمل المسلمون سنة (٢٤٦ هـ) على تكثيف الصوائف. فتولى (عمر بن عبيدالله الأقطع) قيادة الصائفة؛ فأخرج سبعة آلاف رأس. وقام بغزو (قربياس) فأخرج منها خمسة آلاف رأس، وقام (الفضل بن قارن) بقيادة عشرين مركباً وهاجم عن طريق البحر ـ أنطاكية ـ وافتتح حصنها، ثم قام بالغزو (بلكاجور) فغنم وسبى. وقام (علي بن يحيي الأرمني) أيضاً بقيادة الصائفة، فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الخيول والحمير نحواً من عشرة آلاف. ووجه المتوكل وفداً إلى ملك الروم برئاسة (نصر بن الأزهر) ومعه الهدايا ونحواً من ألف نافجة مسك وثيابٌ حرير وزعفران كثير وطرائف وفاوض ملك الروم بشأن المفاداة، فتم الاتفاق على الفداء . وأطلق الروم سراح اكثر من ألفي مسلم ـ منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان ـ مقابل أكثر بقليل من ألف من الروم.

لعل أكبر تحول حدث في هذه الفترة هو الانصراف عن (هدف الحرب) فلم يعد هذا الهدف هو (ضبط الروم) على نحو ما كان عليه في العهد الأموي.

ولم يعد المحافظة على منعة المسلمين واعزازهم والدفاع عنهم على نحو ما كان عليه في صدر العهد العباسي. وأصبح هذا الهدف ـ في هذه المرحلة ـ هو مجرد الحصول على مغنم مادي؛ أو ـ في أفضل الظروف ـ فتح مطمورة أو حصن ثانوي. وتبع ذلك بداهة تناقص في حجم القوى؛ وتراجع في (فن الحرب). واختفت تلك الأعمال الرائعة التي كانت تعتمد على كفاءة القادة. وعلى الروح المعنوية العالية للمسلمين. فلا غرابة إن انتقلت المبادأة إلى أيدي الروم الذين توافرت لهم الظروف المناسبة للعمل بحرية؛ ولم تكن عملية (الحصول على الأسرى) بمثل تلك الأعداد الكبيرة واحتجازهم إلا الدليل المادي الذي حرص الروم على استثماره للبرهان على ما توافر لهم من الاقتدار؛ ولإقناع المسلمين بعجزهم عن مجابهة الروم. ولعل بالمستطاع ملاحظة هذا التحول من خلال موقف أمير المؤمنين المنتصر (٢٢٣-٢٤٨ هـ = ٨٣٧-٨٦٢ م) تجاه حرب العواصم ـ الثغور ـ سواء من أجل ابعاد (الحاجب وصيف). أو في طريقة استنفار المجاهدين في الأقاليم؛ مما يبرز ضعف القيادة وعجزها عن معالجة حرب العواصم بمثل ما كانت عليه معالجتها في السابق، سواء من حيث نجاعة هذه المعالجة وقوتها؛ أو من حيث تعاملها مع مشكلة الصراع المسلح.

د ـ ضعف القيادة:

اسندت إلى (المنتصر بالله) (*) إمارة المؤمنين وليس له من الأمر شيء؛ فقد آلت السلطة إلى قادة الجند وإلى كبار رجال الحاشية، يعزلون ويقتلون؛ ويمارسون السلطة

(*) المنتصر بالله ـ هو الحادي عشر بين الخلفاء العباسيين واسمه محمد بن جعفر (٢٢٣-٢٤٨هـ = ٨٣٧-٨٦٢ م) تولى الخلافة لمدة ستة أشهر فقط ومات وهو ابن خمس وعشرين سنة. بويع من بعده للمستعين بالله ـ ثاني عشر خلفاء العباسيين (٢٢٨-٢٥٢هـ = ٨٤٢-٨٦٦ م) وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر؛ وعمره أربع وعشرون سنة ومات مقتولاً بويع من بعده للمعتز بالله ـ ثالث عشر خلفاء العباسيين (٢٣١-٢٥٥هـ = ٨٤٥-٨٦٨ م) وكانت مدة خلافته أربع سنين وستة أشهر؛ وقتل وعمره أربع وعشرون سنة. بويع من بعده للمهتدي بالله محمد بن الواثق فكان الرابع عشر من الخلفاء العباسيين (٢١٨-٢٥٦ هـ = ٨٣٣-٨٦٩ م) كانت مدة خلافته أحد عشر شهراً وعمره ٣٧ عاماً. وهكذا فقد تم خلال ثمانية أعوام فقط خلع اربعة خلفاء ذهب ثلاثة منهم قتلاً. خلال الفترة (٢٤٨-٢٥٦ هـ = ٨٦٢-٨٦٩ م).

بحرية شبه كاملة. وكان (أحمد بن الخصيب) هو وزير المنتصر بالله؛ وكانت بينه وبين قائد الجند (وصيف) شحناء وتباغض؛ فقام أحمد بن الخصيب بتحريض أمير المؤمنين المنتصر على (وصيف) من أجل ابعاده وتعيينه لقيادة الغزو في الثغور. وقام (المنتصر بالله) بإحضار القائد (وصيف)، فلما حضر، جلس إليه (المنتصر بالله) وقال له: «**إن الطاغية ـ ملك الروم ـ قد تحرك، وهو يريد الثغور؛ ولست آمنه أن يهلك كل ما يمر به من بلاد الإسلام؛ ويقتل ويسبي الذراري؛ وهذا أمر لا يمكن الإمساك عنه؛ فإما شخصت أنا وإما شخصت أنت ـ فإذا غزوت وأردت الرجعة؛ انصرفت إلى باب أمير المؤمنين من فورك**». فرد عليه وصيف: «بل أشخص أنا يا أمير المؤمنين». وعندها التفت (المنتصر بالله) إلى وزيره (أحمد بن الخصيب) وقال له: «يا أحمد! انظر ما يحتاج إليه؛ على أبلغ ما يكون، فأقمه له» ثم عاد لمخاطبة وصيف وقال له: «يا وصيف! مر كاتبك فليوافقه على ما تحتاج إليه». وقام وصيف وابن الخصيب فشرعا على الفور بالاعداد للغزو. وجمع حوالى عشرة آلاف رجل؛ ونظمهم في جيش وضع على مقدمته مزاحم بن خاقان وعلى الميمنة السندي بن بختاشة وعلى المشاة نصر بن سعيد المغربي وعلى الساقة محمد بن رجاء؛ واستعمل على الناس والعسكر خليفته، أباعون، ثم غادر الموصل، **وقام بغزوته (فما أفلح ولا أنجح). فلما عاد، وصله أمر من (المنتصر بالله) بالمقام ببلاد الثغر أربع سنين؛ يغزو في أوقات الغزو منها إلى أن يأتيه رأي أمير المؤمنين.**

تجدر الإشارة إلى ذلك الكتاب الذي وجهه أمير المؤمنين المنتصر بالله عندما أغزى مولاه وصيفاً ـ إلى محمد بن عبد الله بن طاهر ـ والذي كانت نسخته:

«**بسم الله الرحمن الرحيم: من عبدالله محمد المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد ابن عبدالله مولى أمير المؤمنين**: سلام عليك! فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله. أما بعد، فإن الله وله الحمد على آلائه؛ والشكر بجميل بلائه، اختار الإسلام وفضله؛ وأتمه وأكمله؛ وجعله وسيلة إلى رضاه ومثوبته؛ وسبيلاً نهجاً إلى رحمته؛ وسبباً إلى مذخور كرامته؛ فقهر له من خالفه، وأذل له من عَنَدَ عن حقه؛ وابتغى غير سبيله؛ وخصه بأتم الشرائع

وأكملها، وأفضل الأحكام وأعدلها، وبعث به خيرته من خلقه، وصفوته من عباده، محمداً ﷺ، وجعل الجهاد أعظم فرائضه منزلة عنده، وأعلاها رتبة لديه، وأنجحها وسيلة إليه، لأن الله عز وجل أعز دينه، وأذل عتاة الشرك. قال عز وجل آمراً بالجهاد، ومفترضاً له ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُم وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حال لا يكابد في الله نصباً ولا أذى، ولا ينفق نفقة، ولا يقارع عدواً، ولا يقطع بلداً، ولا يطأ أرضاً، إلا وله بذلك أمر مكتوب، وثواب جزيل، وأجر مأمول، قال الله عز وجل: ﴿ذلِكَ بأنّهم لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يطؤون موطئاً يَغيظُ الْكُفار، وَلاَ يَنَالُون مِنْ عَدوٍ نيْلاً إلاّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ ★ وَلاَ يُنْفِقُون نَفَقَةً صَغِيرةً وَلاَ كَبِيرةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وادياً إلاَ كُتِبَ لَهُمْ لِيجْزِيَهُمْ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُــونَ﴾ (٢).

ثم أثنى عز وجل بفضل منزلة المجاهدين على القاعدين عنده، وما وعدهم من جزائه ومثوبته، وما لهم من الزلفى عنده فقال: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُون مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْر أُولِي الضَرَر والمُجَاهِدُون فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسهم. فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى. وَفَضَلَ اللهُ الْمُجَاهدِين عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ (٣).

فبالجهاد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وجعل جنته ثمناً لهم، ورضوانه جزاء لهم على بذلها، وعداً منه حقاً لا ريب فيه، وحكماً عدلاً لا تبديل له. قال الله عزّ وجل:

﴿إنَّ اللهُ اشْتَرى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأن لَهُم الْجَنَّةَ يُقَاتِلونَ في

---

(١) الجزء العاشر ـ سورة التوبة ـ الآية ٤١

(٢) الجزء الحادي عشر ـ سورة التوبة الآية ١٢٠ و ١٢١.

(٣) سورة النساء ٩٥.

سَبِيلِ ٱللهِ فَيَقتُلُون وَيُقْتَلونَ وَعْداً عليهِ حَقاً في ٱلتَوراة وَالإنْجِيل وٱلْقُرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللهِ فَٱسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُم ٱلَّذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ ٱلْفوزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

وحكم الله عز وجل لأحياء المجاهدين بنصره والفوز برحمته؛ وأشهد لموتاهم بالحياة الدائمة؛ والزلفى لديه؛ والحظ الجزيل من ثوابه. فقال:

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ★ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُون بالَّذينَ لَمْ يَلحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنونَ﴾ (٢).

وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم؛ ويسعون به في حط أوزارهم؛ وفكاك رقابهم؛ ويستوجبون به الثواب من ربهم؛ إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلة؛ وأعلى لديه رتبة؛ وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم، لتكون كلمة الله هي العليا. وسمحوا بها دون من وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبيضتهم؛ ووقموا بجهادهم العدو.

وقد رأى أمير المؤمنين ـ لما يحبه من التقرب إلى الله بجهاد عدوه؛ وقضاء حقه عليه فيما استحفظه من دينه؛ والتماس الزلفى له في إعزاز أوليائه؛ وإحلال البأس والنقمة بمن حاد عن دينه وكذب رسله وفارق طاعته؛ أن ينهض ـ وصيفاً ـ مولى أمير المؤمنين في هذا العام الى بلاد الأعداء لله من الكفرة والروم؛ غازياً لما عرف الله أمير المؤمنين من طاعته؛ ومن مناصحته ومحمود نقيبته؛ وخلوص نيته، في كل ما قربه من الله ومن خليفته.

وقد رأى أمير المؤمنين؛ والله ولي معونته وتوفيقه؛ أن تكون موافاة وصيف فيمن أنهض أمير المؤمنين معه من مواليه وجنده وشاكريته ثغر ملطية لأثنتي عشرة ليلة تخلو من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين؛ وذلك من شهور العجم للنصف من

(١) سورة التوبة ١١١.

(٢) آل عمران الآية ١٦٩ و ١٧٠. وانظر تاريخ الطبري والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٢٤٨ هـ.

حزيران ودخوله بلاد أعداء الله في أول يوم من تموز. فاعلم ذلك؛ واكتب الى عمالك على نواحي عملك بنسخة كتاب أمير المؤمنين هذا؛ ومرهم بقراءته على من قبلهم من المسلمين؛ وترغيبهم في الجهاد؛ وحثهم عليه؛ واستنفارهم إليه؛ وتعريفهم ما جعل الله من الثواب لأهله ليعمل ذوو النيات والحسبة والرغبة في الجهاد على حسب ذلك في النهوض إلى عدوهم؛ والخفوف إلى معاونة إخوانهم؛ والذياد عن دينهم؛ والرمي من وراء حوزتهم؛ بموافاة عسكر وصيف مولى أمير المؤمنين ملطية؛ في الوقت الذي حده أمير المؤمنين لهم إن شاء الله؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

لم يكن من عادة أمراء المسلمين تحريض المجاهدين في سبيل الله بمثل هذا الاسلوب؛ على نحو ما سبق عرضه؛ ولم تكن هناك حاجة للأخذ بمثل هذا النهج في تجهيز غزوة لم يتجاوز عدد مقاتليها عشرة آلاف مقاتل؛ لو لم يكن موقف الخليفة (المنتصر بالله) ضعيفاً في مواجهة قائده (وصيف). ولقد كان من عادة امراء المسلمين تكليف أبنائهم أو اخوانهم أو أكثر قادتهم شهرة وكفاءة تشريفاً لهم بقيادة الغزو ـ ولم يكن هذا العمل من قبل عقوبة أو إبعاداً ونفياً. وعلى كل حال؛ فقد أقام (وصيف) في الثغر؛ حتى ورد عليه نبأ موت المنتصر؛ ثم دخل بلاد الروم، وافتتح حصناً يقال له (فروريه) وعاد من غزاته دون أن يحقق نصراً كبيراً. فلما كانت السنة التالية (٢٤٩ هـ = ٨٦٣ م) تولى (جعفر بن دينار) قيادة الصائفة؛ فافتتح حصناً ومطامير؛ واستأذنه (عمر بن عبيدالله الأقطع) بالتوجه الى ناحية من بلاد الروم؛ فأذن له؛ فسار ومعه خلق كثير من أهل (ملطية) فلقيه ملك الروم في جمع عظيم من الروم في موضع (أرز ـ من مرج الأسقف) فحاربه بمن معه محاربة شديدة؛ قتل فيها خلق كثير من الفريقين، ثم أحاطت به الروم وهم ـ خمسون ألفاً ـ فقتل (عمر بن عبيد الله الأقطع) وألفا رجل من المسلمين. وكان النصر للروم الذين استثمروا هذا النصر فساروا الى الثغور الجزرية؛ وكلبوا عليها وعلى حرم المسلمين بها. فبلغ ذلك (علي بن يحيى) وهو راجع من غزاته من أرمينية إلى ميافارقين، فنفر إليهم في جماعة من أهل ميافارقين فقتل في نحو من أربعمائة رجل، وسرعان ما انتشرت أنباء الهزيمة في مدينة السلام

وسامراء وسائر ما قرب منها من مدن الإسلام. وزاد من وقع الهزيمة استشهاد (عمر بن عبيدالله الأقطع) و(علي بن يحي الأرمني) اللذين كانا نابين من أنياب المسلمين؛ شديداً بأسهما؛ عظيماً غناؤهما عنهم في الثغور التي هما بها، فشق ذلك على المسلمين؛ وعظم مقتلهما في صدورهم؛ مع قرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر. **هذا مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين؛ وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولا نظر للمسلمين؛ فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير؛ وانضمت إليها الأبناء والجند - الشاكرية - تظهر أنها تطلب الأرزاق.** وفتحوا سجن (نصر بن مالك) وأخرجوا من فيه ومن كان في (القنطرة) بباب الجسر، حيث كان فيه جماعة من نواحي خراسان والصعاليك من أهل الجبال والمحمرة وغيرهم. وقطعوا أحد الجسرين؛ وضربوا الآخر بالنار فانحدرت سفنه؛ وانتهبوا ديوان قصص المحبسين، وقطعت الدفاتر وألقيت في الماء، كما انتهبوا دار بشر وابراهيم ابني هارون النصرانيين كاتبي (محمد بن عبدالله) وذلك كله بالجانب الشرقي من بغداد. ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامراء أموالاً كثيرة من أموالهم؛ فقووا من خف للنهوض الى الثغور لحرب الروم بذلك؛ واقبلت العامة من نواحي الجبل وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم؛ ولكن ذلك لم يغير من موقف السلطان، الذي لم يوجه جيشاً لحرب الروم في تلك الأيام؛ ولقد حدث في سامراء ما حدث في بغداد؛ فقد وثب نفر من الناس بسامرا - لم يعرفهم أحد - ففتحوا السجن الذي بها؛ وأخرجوا من فيه؛ فوجه القائد (زرافة) جماعة في طلب الذين فعلوا ذلك؛ فوثبت بهم العامة فهزموهم، ثم ركب القادة (اوتامش) و (وصيف) و (بغا) وعامة الأتراك؛ فقتلوا من العامة جماعة، وألقي على وصيف قدر مطبوخ، ورمي بالحجارة؛ فأمر (وصيف) النفاطين؛ فقذفوا ما هنالك من حوانيت التجار ومنازل الناس بالنار. وقامت المغاربة بانتهاب منازل جماعة من العامة في ذلك اليوم، ثم سكن الأمر في نهاية ذلك اليوم.

* * *

لقد أدت سياسة الضعف الداخلية الى انهيارات على جبهة الصراع المسلح الخارجية؛ وانعكست تلك الهزائم الخارجية على الجبهة الداخلية؛ فبرزت الفتن وتعاظمت اعمال التمرد والعصيان. وتوقفت اعمال الصوائف، إلا من بعض اعمال ثانوية. وعلى الرغم من تمكن (المعتمد على الله) (*) من تحقيق انتصارات كثيرة لفرض وجود الدولة - داخلياً - إلا أن ما بذله من جهد لضمان الأمن وتحقيق الاستقرار قد صرفه عن الغزو؛ الأمر الذي سمح للروم بالحصول على الفرصة المناسبة لبناء جبهتهم الداخلية، وامتلاك المبادأة، وممارسة أعمال الغزو؛ والهجوم على ثغور المسلمين.

لقد غاب ذكر الصوائف وغزو بلاد الروم طويلاً حتى إذا ما كانت سنة ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م قام قائد الثغور (عبدالله بن رشيد بن كاوس) بقيادة من **أربعة آلاف مقاتل** ودخل بهم إلى بلاد الروم عن طريق - الثغور الشامية - ووصل إلى (حصنين) و(المسكنين) فغنم المسلمون؛ ورجعوا، فلما تجاوزوا (البدَنْدون) خرج عليهم بطريق سلوقية؛ وبطريق قذيذية؛ وبطريق قرة وكوكب وخرشنة؛ فأحدقوا بالمسلمين، فنزل هؤلاء عن خيولهم، وقاتلوا وقتلوا وتمكن خمسمائة أو ستمائة منهم من الفرار؛ وأسر (عبدالله بن رشيد) بعد أن اثخنته الجراح، وحمل الى لؤلؤة ثم حمل إلى ملك الروم. فلما كانت السنة التالية (٢٦٥ هـ = ٨٧٨ م) خرج خمسة من بطارقة الروم **في ثلاثين ألفاً من جند الروم؛** ووصلوا الى أذنه. ثم الى الموصل؛ وأسروا والي الثغور (أرخوز) وأسروا معه نحو من أربعمائة رجل؛ وقتلوا ممن نفر اليهم نحواً من ألف وأربعمائة رجل؛ وانصرفوا في اليوم الرابع الى بلادهم. ولما كانت الثغور قد أصبحت تحت ولاية والي مصر (أحمد بن طولون) (*) فقد رغب ملك الروم أن يتقدم بمبادأة (حسن نية)

(*) المعتمد على الله - احمد بن أبي جعفر - (٢٢٩ - ٢٧٩ هـ = ٨٤٣ - ٨٩٢ م) هو الخامس عشر بين خلفاء بني العباس - بويع بالخلافة سنة ٢٥٦ هـ = ٨٦٩ م وعمره ٢٥ سنة. وحكم ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر. فبويع المعتضد بالله - أبو العباس احمد بن الموفق ابن المتوكل.

(*) أحمد بن طولون. مؤسس دولة الطولونيين في مصر. ولي مصر سنة ٢٤٤ هـ = ٨٥٥ م وأفاد من ضعف الدولة العباسية حتى صار إليه حكم مصر والشام والثغور الشامية؛ وقد أظهر باستمرار ولاءه للدولة العباسية ودعمه للخليفة؛ كان عاقلاً حازماً كثير المعروف والصدقة متديناً؛ يحب

فأرسل اليه الأسير قائد الثغور (عبدالله بن رشيد بن كاوس). مع عدد من الأسرى، وعدة مصاحف هدية منه له. فلما كانت السنة التالية (٢٦٦ هـ = ٨٧٩ م) خرجت سرية من جند الروم حتى وصلت (تل بَسْمَى) من ديار ربيعة، فقتلت من المسلمين؛ وأسرت نحواً من مائتين وخمسين إنساناً؛ فنفر أهل نصيبين وأهل الموصل؛ فرجعت الروم الى بلادها ـ عبر الثغور الجزرية ـ. وما لبث عامل أحمد بن طولون على الثغور الشامية (سيما) أن قاد **ثلاثمائة رجل من أهل طرسوس**؛ فخرج إليهم الروم من هرقلة بقوة أربعة آلاف مقاتل؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ فقتل المسلمون من الروم خلقاً كثيراً، وأصيب من المسلمين جماعة كثيرة. وفي سنة (٢٦٨ هـ = ٨٨١ م) خرج طاغية الروم (ابن الصقلبية) فنزل على (ملطية). وأسرع أهل مرعش والحدث لنجدة حامية ملطية مما أرغم قوات الروم على الانسحاب. وقام عامل ابن طولون على الثغور الشامية (خلف الفرغاني) فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً؛ وغنم الناس، فبلغ السهم ـ نصيب أو حصة ـ المجاهد أربعين ديناراً. ولكن الثغور الشامية ما لبثت ان أعلنت تمردها على (ابن طولون) فسار ابن طولون في السنة التالية (٢٦٩ هـ = ٨٨٢ م) وغادر مصر، حتى وصل الى دمشق؛ ثم سار الى الثغور الشامية، فنزل (أذنة) و (سديازمان) ثم رجع الى انطاكية ومنها الى حمص، فدمشق؛ ثم عاد الى مصر.

وجاءت سنة ٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م. وفيها خرجت الروم في مائة ألف؛ فنزلوا على قلمية ـ وهي على بعد ستة أميال من طرسوس ـ. وعلم عامل ابن طولون على الثغور الشامية (بازمار) فقاد قوة، وباغت جيش الروم بهجوم ليلي؛ فقتل منهم سبعين ألفاً ـ على ما قيل ـ وقتل مقدمهم وهو بطريق البطارقة؛ وقتل أيضاً بطريق القباذيق. وبطريق الباطليق، وهرب بطريق قرة بعد ان أثخنته الجراح. وغنم المسلمون فيما غنموا سبع صلبان من ذهب وفضة؛ وصليبهم الأعظم المصنوع من الذهب والمزين بالجواهر؛ كما غنم المسلمون خمسة عشر ألف دابة وبغل ومن السروج وغير ذلك؛ وسيوفاً محلاة

= العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين؛ وهو الذي بنى قلعة يافا؛ وكان يميل الى مذهب الشافعي؛ ويكرم أصحابه. توفي سنة ٢٧٠ هـ = ٨٨٣م ودفن عند سفح المقطم ـ على الطريق المواجه للقرافة الصغرى. واقيم ابنه (خارويه) في مكانه ولقب بأبي الجيوش.

وأربع كراسي من ذهب؛ ومائتي كرسي من فضة وآنية كثيرة؛ ونحواً من عشرة آلاف علم ديباج؛ وديباجاً كثيراً وغنائم متنوعة كثيرة. وعاد قائد الثغور الشامية (بازمار) فقاد جيشه سنة ٢٧٤ هـ = ٨٨٧ م، وأوغل في أرض الروم، فأوقع فيها بكثير من أهلها؛ وقتل وغنم وسبى وأسر وعاد سالماً إلى طرسوس. فلما كانت سنة ٢٧٨ هـ = ٨٩١ م. قاد (بازمار) الصائفة ووصل الى (شكند ـ أوسلند) فأصابت (بازمار) شظية من حجر منجنيق في أضلاعه؛ فارتحل عنها بعد ان أشرف على فتحها. وتوفي في الطريق؛ فحمل الى طرسوس؛ ودفن بها.

لقد حاول الخليفة (المعتضد بالله) (*) السيطرة على الأمور؛ وسار على نهج المعتمد؛ إلا أنه لم يتمكن من تحقيق نجاح في حرب الثغور ـ رغم ما اشتهر به من الشجاعة والاقدام. ولقد كان لضعف الطولونيين وصراعاتهم للسيطرة على بلاد الشام والثغور دور في إضعاف الثغور. وقد حدث في سنة ٢٨٧ هـ = ٩٠٠ م، أن اجتمعت الروم؛ وحشدت قواتها، وسارت حتى وصلت باب قلمية من طرسوس؛ فنفر إليهم أمير طرسوس (أبو ثابت) وسار الى نهر الرجان، ولكن الروم أسروه وأصيب الناس معه بنكبة، وكان (ابن كلوب) غازياً في درب السلامة، فلما عاد؛ جمع مشايخ الثغر ليتراضوا بأمير؛ فأجمعوا رأيهم على (ابن الاعرابي) فولوه أمرهم لحرب الثغور. ولكن (محمد بن أبي الساج) تآمر مع مولاه (وصيف خادم) واتفق معه على السيطرة على الثغور. وتنفيذاً لهذا الاتفاق تظاهر (وصيف خادم) بالفرار من (برذعة) الى (ملطية) وكتب الى أمير المؤمنين المعتضد، سأله في رسالته ان يوليه الثغور. ولكن المعتضد شك في الأمر؛ فاستجوب الرسل، فاعترفوا بأن وصيف خادم قد اتفق مع مولاه على خطة لتولي الثغور؛ حتى اذا ما صارت الولاية لوصيف سار إليه مولاه (محمد بن أبي الساج) وقصدا ديار مضر، وتغلبا عليها. فسار المعتضد حتى وصل (عين زربة) ودفع قوة هاجمت (وصيف خادم) وأخذته أسيراً بعد معركة قصيرة؛ وجاءت به الى المعتضد فحبسه؛ وأمر العسكر برد ما نهبوه؛ ففعلوا.

(*) المعتضد بالله ـ أبو العباس أحمد بن الموفق ابن المتوكل. ولي الخلافة سنة ٢٧٩ هـ وهو السادس عشر بين خلفاء بني العباس (٢٤٢ ـ ٢٨٩ هـ = ٨٥٦ ـ ٩٠١ م) وصف بأنه: «كان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته؛ ويكفون عن الظلم خوفاً منه». وخلفه بعده ولده المكتفي بالله أبو محمد.

فلما فرغ المعتضد من أمر (وصيف) سار إلى (المصيصة) . وأحضر رؤساء طرسوس فقبض عليهم لأنهم كاتبوا وصيفاً ؛ وأمر بإحراق مراكب طرسوس التي كانوا يغزون فيها ؛ فأحرقت وجميع آلاتها ؛ وكان من جملتها نحواً من خمسين مركباً قديمة أنفق عليها من الأموال ما لا يحصى ؛ ولا يمكن عمل مثلها ؛ فأضر ذلك بالمسلمين ؛ وفت في أعضادهم ؛ وساعد الروم على الغزو في البحر . وكان إحراقها بإشارة (دميانة غلام بازمار) لشيء كان في نفسه على أهل طرسوس. واستعمل المعتضد على أهل الثغور (الحسن بن علي كورة) ثم عاد الى انطاكية وحلب وغيرهما. فلما كانت السنة التالية (٢٨٨ هـ = ٩٠١ م) وجه (الحسن بن علي كورة) قوة الصائفة بقيادة صاحبه (نزار بن محمد) لغزو بلاد الروم.. فغزا ؛ وفتح حصوناً كثيرة للروم؛ وعاد ومعه الأسرى. **ثم ان الروم ساروا في البر والبحر الى ناحية (كيسوم) فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر الف أسير ـ وعادوا بهم الى بلادهم .**

حدث في عهد أمير المؤمنين (المكتفي بالله) (*) ـ في سنة ٢٩١ هـ = ٩٠٣ م أن أخرج الروم عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف رجل لغزو ثغور المسلمين. فقصد جماعة منهم الى (الحدث) فأغاروا وسبوا وأحرقوا. فسار المعروف (بغلام زرافة) من طرسوس نحو بلاد الروم؛ ففتح مدينة أنطاكية ـ وهي تعادل القسطنطينية عندهم ـ وفتحها بالسيف عنوة؛ فقتل خمسة آلاف رجل؛ وأسر مثلهم؛ واستنقذ من أسارى المسلمين خمسة آلاف؛ وأخذ لهم ستين مركباً؛ فحمل فيها ما غنم لهم من الأموال والمتاع والرقيق. وقدر نصيب كل رجل ألف دينار. واستبشر المسلمون بذلك؛ ورد الروم على ذلك في السنة التالية (٢٩٢ هـ = ٩٠٤ م) بإغارة تولى قيادتها (اندرونقس الرومي) فهاجم مرعش ونواحيها ؛ فنفر أهل المصيصة وأهل طرسوس؛ فأصيب جماعة من المسلمين.

(*) المكتفي بالله ـ أبو محمد علي بن المعتضد بالله ـ السابع عشر بين خلفاء بني العباس (٢٦٤ ـ ٢٩٥ هـ = ٨٧٧ ـ ٩٠٧ م) بويع بالخلافة سنة ٢٩٥ هـ ـ فكانت مدة خلافته ست سنين وسبعة أشهر ، بويع من بعده المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد.

تولى (ابن كيغلغ) سنة ٢٩٤ هـ = ٩٠٦م قيادة غزو بلاد الروم؛ فخرج من طرسوس، ووصل الى شكنـد وفتحها الله عليه؛ وسار الى أليس؛ فسبى من الروم أربعة آلاف أسير، وغنم نحواً من خمسين ألف رأس؛ وقتل من الروم مقتلة عظيمة، وعاد وجيشه سالمين؛ فما كان من قائد الروم في حرب الثغور (البطريق اندرونقس) إلا أن كتب الى أمير المؤمنين المكتفي بالله ـ طالباً الأمان، فأعطاه المكتفي كل ما طلبه: فخرج ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا في حصنه؛ وأعطى هؤلاء المسلمين سلاحاً، ويظهر ان ملك الروم قد عرف ما يريد ان يفعله قائده (أندرونقس) فأرسل جيشاً لاحباط محاولته؛ وسار جمع من المسلمين لدعم (أندرونقس) حتى بلغوا (قونية). وكان أندرونقس ومن معه من المسلمين قد نجحوا في تنفيذ اغارة ليلية على معسكر قوات الملك، وقتلوا خلقاً كثيراً وغنموا ما في عسكرهم.

ولما علم الروم بقيام المسلمين بتخريب قونية، وتقدم قواتهم؛ رجعوا الى بلادهم، ووصل البطريق (أندرونقس) الى بغداد، وأسلم؛ ثم ان ملك الروم أرسل الى أمير المؤمنين المكتفي بطلب الفداء. وتم هذا الفداء بين المسلمين والروم؛ وكان عدة من فودي به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف. **وتوافق هذا الفداء مع وفاة أمير المؤمنين المكتفي؛ وخلافة (المقتدر بالله)** (*) **الذي حاول إعطاء الثغور وحرب الروم ما تستحق من الأهمية، غير أن استفحال دور القرامطة؛ وشق عصا الطاعة في المغرب بظهور الدعوة العلوية؛ وتكاثر الفتن؛ قد صرفه عن غايته**. وذكر ان امير الثغور (رستم) قام سنة ٢٩٩ هـ = ٩١١ م بقيادة الصائفة وغزو بلاد الروم من ناحية طرسوس، فحصر حصن (مليح الأرمني) ثم دخل بلده وأحرقه. وفي سنة ٣٠٢ هـ = ٩١٤ م قام والي طرسوس (بشر الخادم) بغزو بلاد الروم؛ ففتح فيها وغنم وسبى؛ وسبى وأسر مائة وخمسين بطريقاً. وكان مجموع السبي ألفي أسير. **غير ان**

(*) المقتدر بالله ـ أبو الفضل جعفر بن المعتضد؛ الثامن عشر بين خلفاء بني العباس. (٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ = ٨٩٥ ـ ٩٣٢ م). ولي الخلافة سنة ٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م. وكانت مدة خلافته ٢٤ سنة وأحد عشر شهراً. اشتهر عهده بالضعف والتمزق، رغم طول مدته. وقد خلفه القاهر بالله ـ الابن الثالث للمعتضد بالله ـ إلا أنه لم يحكم اكثر من سنة ونصف السنة فخلفه الراضي بالله.

أهم حدث وقع في تلك الفترة هو قدوم رسل ملك الروم الى المقتدر في مدينة السلام (سنة ٣٠٥ هـ = ٩١٧ م) بطلب الهدنة والفداء؛ ورئيساهم شيخ وحدث؛ ومعهما عشرون رومياً؛ فخلع المقتدر عليهما وأكرمهما؛ وكان في الخلع طيالسة ديباج مثقلة؛ وأمر لكل واحد من الاثنين بعشرين ألف درهم. ووصف احتفال المقتدر بمجيء رسل الروم بما يدهش العقول ويشرح الصدور ويسر النفوس؛ من حشد الجند والزينة وآلات الذهب والفضة والجوهر والفرش والفيلة والزرافات والسباع والفهود والطيور حتى بهروا مما رأوا وأجفلوا. وقد أدخل الرسل في البداية على الوزير، وهو في أكمل أبهة، وصفت الأجناد بالسلاح والزينة التامة؛ وأديا الرسالة إليه، ثم إنهما دخلا على المقتدر؛ وقد جلس لهما، واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة؛ وأديا الرسالة، فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم من الفداء، وسير (مؤنساً الخادم) ليحضر الفداء؛ وجعله أميراً على كل بلد يدخله؛ يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه؛ وسير معه جمعاً من الجنود؛ وأطلق لهم أرزاقاً واسعة؛ وأنفذ معه مائة ألف وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين. وسار مؤنس والرسل؛ وكان الفداء على يد مؤنس.

لم تستمر حالة الهدوء على اثر ذلك لأكثر من تسع سنين؛ ففي سنة ٣١٤ هـ = ٩٢٦ م خرجت الروم الى (ملطية) وما يليها بقيادة (الدمستق) و (مليح الأرمني) صاحب الدروب فنزلوا على (ملطية) وحصروها. فصبر أهلها؛ ففتح الروم أبواباً من الربض، ودخلوا ملطية؛ فقاتلهم أهلها وأخرجوهم من المدينة، ولم يظفر الروم من ملطية بشيء، فقاموا بتخريب قرى كثيرة من قراها. ونبشوا الموتى ومثلوا بهم ورحلوا عنهم. وقصد أهل ملطية بغداد مستغيثين، فلم يغاثوا، فعادوا بغير فائدة. وقام اهل طرسوس بغزو الروم في الصائفة فغنموا وعادوا سالمين. وفي سنة ٣١٦ هـ = ٩٢٨ م. **وصل الى بغداد كتاب بموت ملك النصارى الدمستق، فقرىء الكتاب على المنابر (؟). ولكن الفرحة بموت ملك الروم لم تستمر طويلاً؛ إذ سرعان ما جاء الملك الجديد وقاد جيشاً بلغ عدد أفراده ثلاثمائة ألف جندي، وسار به الى (أرمينية) وحاصر خلاط، فصالحه اهلها بعد ما قتل وسبى على قطيعة وعشرة**

آلاف دينار، ثم رحل عنهم بعد أن أخرج المنبر من الجامع وجعل مكانه صليباً، وفعل (ببدليس) كذلك؛ وخافه أهل (أرزن) وغيرهم؛ ففارقوا بلادهم؛ وانحدر أعيانهم الى بغداد؛ واستغاثوا الى الخليفة فلم يغاثوا. ووصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى (ملطية) ومعهم الفؤوس والمعاول؛ وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل. ثم ظهر ان قائد الثغور (مليحاً الأرمني) قد ارسلهم للإقامة فيها؛ فإذا حصرها سلموها إليه، فعلم أهل ملطية بهم؛ فقتلوهم؛ وأخذوا ما معهم. **وهكذا ضعفت الثغور الجزرية ضعفاً كبيراً؛ وباتت عاجزة عن دفع الروم؛ مما حمل أهل ملطية وميافارقين وآمد وأرزن. وغيرها على ارسال وفد الى بغداد لمقابلة الخليفة المقتدر بالله (سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م) لاستئذانه في تسليم الثغور لملك الروم، ولشرح عجزهم، ولاستمداده بالعساكر والجند، حتى تمنع عنهم أذى الروم. ولكن الخليفة المقتدر عجز عن نصرهم، ولم يحصلوا على فائدة؛ فعادوا الى ثغورهم** ولكن؛ وبالرغم من هذا الضعف؛ والتخاذل؛ فإن الثغور لم تعدم رجالاً يقومون بحمايتها؛ فمع عودة وفد الثغور من بغداد خائباً، التقى قائد الثغور (مفلح الساجي) مع قوات ملك الروم؛ فاقتتلوا، وانهزم ملك الروم، ودخل مفلح وراءه الى بلاد الروم. ثم حدث بعد سنتين (أي في سنة ٣١٩ هـ = ٩٣١ م) أن خرج والي طرسوس (ثمال) بجيشه، وعبر نهراً الى بلاد الروم، ونزل عليهم ثلج وصل الى صدور الخيل؛ وأتاهم جمع كثير من الروم، واشتبكوا معهم؛ فأنزل الله نصره على المسلمين؛ وقتلوا من الروم ستمائة وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف؛ وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيئاً كثيراً؛ وعادوا سالمين. حتى إذا ما مضت أربعة أشهر على الغزوة؛ جهز (ثمال) جيشه من جديد؛ وخرج من طرسوس؛ ودخل بلاد الروم في جمع كثير من الفرسان والمشاة؛ فبلغوا عمورية؛ وكان قد تجمع إليها كثير من الروم؛ ففارقوها لما سمعوا بتقدم (ثمال). ودخلها المسلمون فوجدوا فيها من الأمتعة والطعام شيئاً كثيراً؛ فأخذوه؛ وأحرقوا ما كان الروم قد عمروه منها. وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا أنقرة ـ وهي التي كانت تسمى انكورية ـ وعادوا سالمين؛ ولم يلقوا كيداً، فبلغت قيمة السبي مائة ألف دينار، وستة وثلاثين ألف دينار، وزادت مدة هذه الصائفة على الشهرين.

بينما كانت هذه التطورات تحقق نجاحاً في الثغور الشامية، كانت الثغور الجزرية تشهد تطورات مماثلة؛ ولكن بشكل مغاير؛ فقد وجه (ابن الديراني) وغيره من الأرمن وهم بأطراف أرمينية؛ رسائل الى ملك الروم؛ وحرضوه على دخول بلاد الاسلام، ووعدوه النصرة والدعم. فسارت الروم في خلق كثير؛ فخربوا (بزكرى وبلاد خلاط) وما جاورها؛ وقتل من المسلمين خلق كثير؛ وأسروا كثيراً منهم. فبلغ ذلك (مفلحاً غلام يوسف بن ابي الساج) وهو والي أذربيجان. فسار في عسكر كبير؛ وتبعه كثير من المتطوعة الى أرمينية. وقصد (مفلح) بلد (ابن الديراني) ومن حرض الروم؛ وقتل أهله ونهب أمواله. وتحصن (ابن الديراني) بقلعة له، وبالغ الناس في كثرة القتلى من الأرمن - حتى قيل انهم قتلوا مائة ألف قتيل، والله أعلم. وسارت عساكر الروم الى (سميساط) فحصروها، فاستنجد أهلها بوالي الموصل **(سعيد بن حمدان)**. وكان المقتدر قد ولاه الموصل وديار ربيعة وشرط عليه غزو الروم؛ وأن يستنقذ (ملطية) منهم؛ إذ كان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد إليهم فحكموا على المسلمين. فلما جاء رسول أهل (سميساط) إلى (سعيد بن حمدان) تجهز وسار إليهم مسرعاً؛ فوصل وقد كاد الروم يفتحونها؛ فلما قاربهم هربوا منه. وسار منها الى (ملطية) وبها جمع من الروم ومن عسكر (مليح الأرمني) فلما أحسوا باقتراب (سعيد) خرجوا منها، خوفاً من أن يصل سعيد في عسكره ويثور أهلها بهم فيهلكوا؛ ففارقوها. فدخلها سعيد ثم استخلف عليها أميراً وعاد عنها؛ وأوغل في بلاد الروم غازياً ودفع أمامه سريتين فقتلا من الروم خلقاً كثيراً.

حدثت بعد ذلك اشتباكات وغزوات لم تتجاوز حدود الحصول على غنائم وأسرى؛ فلما كانت سنة ٣٢٦ هـ = ٩٣٨ م) وصل الى الخليفة (الراضي بالله) كتاب من ملك الروم مكتوب بالرومية؛ ومعه تفسير بالعربية؛ وقد كانت الرسالة الرومية مكتوبة بالذهب والعربية بالفضة وتضمن نصها: **« من رومانس وقسطنطين واسطفانس عظماء ملوك الروم الى الشريف البهي ضابط سلطان المسلمين. باسم الأب والابن وروح القدس الإله الواحد. الحمد لله ذي الفضل العظيم الرؤوف بعباده الجامع للمفترقات والمؤلف الأمم المختلفة في العداوة حتى يصيروا واحداً؛ الذي جعل**

الصلح أفضل الفضائل؛ إذ هو محمود العاقبة في السماء والأرض؛ ولما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء. حمدنا الله؛ وجئنا بطلب المدنة». ووجه مع الكتاب بهدايا وألطاف كثيرة فاخرة. فكتب إليهم الراضي: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله أبي العباس الامام الراضي بالله أمير المؤمنين الى رومانس وقسطنطين واسطفانس رؤساء الروم. سلام على من اتبع الهدى وتمسك بالعروة الوثقى؛ وسلك سبيل النجاة والزلفى»** ثم أجابهم الى ما طلبوا؛ فكان عدة من فودي من المسلمين ستة آلاف وثلاثمائة بين ذكر وأنثى. وقد تم الفداء على نهر (البدندون).

لقد شن الرشيد الحرب على الروم؛ وفتح هرقلة؛ لمجرد ان بدأ ملك الروم رسالته بنفسه، ولقد تغيرت المواقف؛ وتبدلت موازين القوى بعد قرن ونصف القرن من عمر الزمن، ولكن بالرغم من ظواهر الضعف هذه؛ فقد بقيت للاسلام قوته، وبقي هناك من ينصره؛ وينتصر له.

٢ ـ الحمدانيون وحرب الثغور

أ ـ بنو حمدان .

ب ـ سيف الدولة والحروب مع الروم .

جـ ـ المأزق الصعب .

د ـ الأيام الأخيرة للحمدانيين .

أ ـ بنو حمدان:

كان بنو تغلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار؛ ولهم محل في الكثرة والعدد؛ وكانت مواطنهم بالجزيرة في ديار ربيعة، وكانوا على دين النصرانية في الجاهلية؛ وكانوا خاضعين لملك الروم ـ القيصر ـ. وحاربوا المسلمين مع غسان وهرقل أيام الفتوحات في نصارى العرب يومئذ من غسان وإياد وقضاعة وزابلة وسائر نصارى العرب؛ ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم؛ ثم رجعوا إلى بلادهم في الجزيرة. وفرض عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجزية؛ فقالوا له: «يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة» ففعل (*) وكان قائدهم يومئذ (حنظلة ابن قيس بن هرير من بني مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب ـ أو تغلب). ثم كان منهم بعد ذلك في الإسلام ثلاثة بيوت؛ آل عمر بن الخطاب العدوي، وآل هرون المغمر، وآل حمدان بن حمدون بن الحرث بن لقمان بن أسد. وقد ظهر

(*) تاريخ العلامة ابن خلدون ٤/٤٨٨ (دولة بني حمدان) وفي تاريخ الطبري (٤/٥٤ـ٥٦) قصة هؤلاء ـ كالتالي ـ «خرج الوليد بن عقبة سنة ١٧ هـ حتى قدم على بني تغلب وعرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم؛ إلا إياد بن نزار، فإنهم ارتحلوا بقليتهم، فاقتحموا أرض الروم، فكتب الوليد بذلك إلى عمر بن الخطاب؛ فكتب عمر إلى ملك الروم: «إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا؛ وأتى دارك، فوالله لتخرجنه أو لننبذن إلى النصارى، ثم لنخرجنهم إليك». فأخرجهم ملك الروم، فتم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد، فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم. فكل إيادي في أرض العرب من اولئك الأربعة الآلاف. وخرج وفد منهم إلى عمر، فقال لهم عمر: «أدوا الجزية» فقالوا لعمر: «أبلغنا مأمننا، والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم. والله لتفضحنا من بين العرب» فقال لهم: «أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية وتالله لتؤدنه وأنتم صغرة قمأة. ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكم». قالوا فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء. فقال: «أما نحن فنسميه جزاء؛ وسموه أنتم ما شئتم» وكان في بني تغلب عز وامتناع. فأضعف عليهم الوليد الجزاء. وشرط عليهم ألا ينصروا وليداً إذ أسلم آباؤهم.

منهم رجال كثر كان لهم دورهم في أيام العهد الأموي ثم في أيام العهد العباسي. ويمكن تجاوز تلك المراحل الطويلة؛ والأدوار التي اضطلع بها الرجال الحمدانيون للوصول إلى سنة ٢٩٣ هـ = ٩٠٥ م. ففي هذه السنة عمل أمير المؤمنين المكتفي بالله على تنصيب (**أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون التغلبي العدوي**) أميراً على الموصل؛ بهدف كبح جماح (الأكراد الهذبانية) الذين أفسدوا البلاد. وسار أبو الهيجاء إلى الموصل؛ ولكنه ما كاد يستقر فيها حتى وصلته أصوات الاستغاثة منبعثة من (نينوى) لرد الأكراد الذين أغاروا عليها ونهبوها. فسار أبو الهيجاء من فوره وعبر الجسر إلى الجانب الشرقي، ولحق بالأكراد (عند المعروبة على الخازر) فقاتلوه وقتل رجل من أصحابه. وكتب إلى الخليفة يستدعي النجدة؛ لكن هذه النجدة تأخرت شهوراً كثيرة.

وعندما وصلته سار إلى الأكراد؛ فلما رأوا جده في مطاردتهم؛ هربوا إلى البابه في جبل السلق؛ وهو مضيق في جبل عال مشرف على شهـرزور؛ فامتنعوا فيه. ثم فاوضوه على الاستسلام له؛ وكان ذلك خدعة منهم له حتى يتمكنوا من الانسحاب إلى أذربيجان، فلما شعر أبو الهيجاء أنه خدع؛ اقتاد مجموعة من الفرسان الأشداء ومضى لمطاردتهم حتى تمكن منهم؛ واستولى على سوادهم وبيوتهم وأهلهم وأموالهم. وطلبوا الأمان فأمنهم وأبقى عليهم وردهم إلى بلد حرة، وأعاد لهم أموالهم وأهليهم؛ وأمنت البلاد معه؛ وأحسن السيرة في أهلها. فكان من نتيجة ذلك؛ ومن نتيجة أعمال مثلها؛ أن ولاه الخليفة أعمال قم وقاشان ثم رده بعد ذلك إلى ديار ربيعة؛ فيما كان الحسين بن حمدان على الجزيرة. غير أن الحسين أعلن تمرده سنة ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م؛ بسبب مطالبته بمال كثير؛ فوجه إليه الخليفة المقتدر جيشاً؛ تمكن من قتله، وقبض على أبي الهيجاء وعلى جميع إخوته وحبسوا لفترة قصيرة. ثم أفرج عنهم، وإذ تبين للمقتدر براءتهم من الفتنة؛ وفي سنة ٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م خلع المقتدر على أبي الهيجاء، وقلده طريق خراسان والدينور؛ كما خلع على أخويه أبي العلاء وأبي السرايا. وعاد الأكراد والعرب فأفسدوا بأرض الموصل وطريق خراسان؛ وكان أبو الهيجاء يتولى الجميع وهو ببغداد؛ فيما كان ابنه (ناصر الدولة) بالموصل؛ فأمر أبو الهيجاء ابنه بجمع الرجال والانحدار إلى تكريت؛ وسار هو إليها؛ وجمع العرب ونكل ببعضهم وطلب إليهم رد ما نهبوه،

فردوا على الناس شيئاً كثيراً، ورحل بهم إلى (شهرزور). فوطىء (الأكراد الجلالية) وقاتلهم؛ وانضم إليهم غيرهم فاشتدت شوكتهم؛ ثم انقادوا إليه لما رأوا قوته، وكفوا عن الفساد والشر. وضمن (أبو الهيجاء) للخليفة أعمال الخراج والضياع بالموصل وقردى وبازندى وما يجري معها. وابتسم الدهر (لأبي الهيجاء) ولكن إلى حين، ففي سنة ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م، جرت محاولة لخلع الخليفة المقتدر؛ وقد فشلت المحاولة؛ غير أن أبا الهيجاء قتل فيها (*) وهرب أخوه (أبو السرايا نصر بن حمدان) من بغداد إلى الموصل. وأعاد الخليفة المقتدر في السنة التالية (٣١٨ هـ = ٩٣٠ م) تنظيم الدولة؛ فعزل (**ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان**) عن الموصل؛ وولاه ديار ربيعة ونصيبين وسنجار والخابور ورأس عين ومعها من ديار بكر ميافارقين وأرزن ـ وضمن (ناصر الدولة) ذلك بمبلغ معلوم. كما ولى على الموصل (سعيد ونصر ابني حمدان ـ وهما عمومة ناصر الدولة).

لقد وضع (أبو الهيجاء) حجر الأساس في كيان دولة عربية ـ إسلامية وسط الصراعات الشعوبية التي تميزت بها تلك الفترة. وكان على ورثته النهوض ببناء هذه الدولة وسط متاهة مظلمة من التناقضات الغريبة والمثيرة. من ذلك ما حدث سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م عندما اجتمعت بنو ثعلبة إلى بني أسد القاصدين إلى أرض الموصل ومن معهم من طيء؛ فصاروا يداً واحدة على (بني مالك) ومن معهم من (تغلب) وقرب بعضهم من بعض للحرب. فركب (ناصر الدولة الحسن بن عبدالله ابن حمدان) في أهله ورجاله، ومعه (أبو الأغر بن سعيد بن حمدان) للصلح بينهم. فتكلم (أبو الأغر) فطعنه رجل من حزب (بني ثعلبة) فقتله، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه، فانهزموا؛ وقتل منهم؛ وملكت بيوتهم، وأخذ حريمهم وأموالهم؛ ونجوا على ظهور خيولهم؛ وتبعهم ناصر الدولة إلى (الحديثة) فلما وصلوا إليها لقيهم

(*) عندما سيطر الخليفة المقتدر على الموقف بعث أماناً لأخيه القاهر ـ الذي ترأس المؤامرة ضده ـ ولأبي الهيجاء ـ حتى لا يحدث له مكروه. فمضى الخادم بكتاب الأمان؛ فلقيه خادم آخر ومعه رأس أبي الهيجاء الذي حمل إلى الخليفة؛ فلما رآه المقتدر حزن عليه وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون. ما كان يدخل علي ويسليني ويزيل عني الغم، غيره في هذه الأيام».

(يانس غلام مؤنس) وقد ولي الموصل؛ وهو مصعد إليها. فانضم إليه بنو ثعلبة وبنو أسد؛ وعادوا إلى ديار ربيعة. ومن ذلك ما حدث أيضاً سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م. حيث عمل عم (ناصر الدولة) وهو (أبو العلاء سعيد بن حمدان) على ضمان الموصل وديار ربيعة سراً؛ فما كان من ناصر الدولة إلا أن بعث رجالاً عملوا على قتل عمه عندما دخل داره في الموصل. ولما قتل ناصر الدولة عمه أبا العلاء واتصل خبره بالخليفة (الراضي بالله) عظم ذلك عليه وأنكره، ووجه جيشاً بقيادة الوزير (ابن مقلة) واستطاع ناصر الدولة بمزيج من الدهاء والقوة أن يسيطر على الموقف، وكتب إلى الخليفة يسأله الصفح وأنه يضمن له البلاد؛ فأجيب إلى ذلك؛ واستقر له حكم البلاد. وكذلك ما حدث سنة ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م عندما تأخر (ناصر الدولة) بإرسال ما عليه من المال إلى دار الخلافة، مما حمل الخليفة الراضي بالله إلى قيادة جيش ومعه وزيره (بجكم) إلى الموصل وديار ربيعة؛ ووقعت مجموعة من الاشتباكات؛ وحدث أن تسلل خلال ذلك جماعة من القرامطة إلى بغداد مما حمل الخليفة إلى العودة بسرعة إلى بغداد. وأنفذ (ناصر الدولة) من يطلب الصلح وعجل بإرسال خمسمائة ألف درهم. وأجاب (الراضي) بالموافقة، واستقر الصلح بينهما. **ووقعت في هذه السنة ذاتها ملحمة عظيمة بين (الحسن بن عبدالله بن حمدان) وبين حاكم أقاليم الشرق من بلاد الروم ـ الدمستق ـ ونصرالله الإسلام؛ وهرب الدمستق، وقتل من جنده مقتلة عظيمة؛ وأخذ سرير الدمستق وصليبه.**

جابه الخليفة العباسي (المتقي لله) مأزقاً صعباً سنة ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م؛ فقد تمكن الاتراك والديالمة (من الديلم) من السيطرة على أقاليم واسعة؛ ودخلوا بغداد. فيما كان الفاطميون في مصر قد دخلوا دمشق؛ هذا إلى جانب القرامطة الذين زادوا من تدهور الموقف. واستطاع الخليفة المتقي لله ووزيره (أبو بكر محمد بن رائق) الصمود في قتال الأتراك والديالمة الذين كان يقودهم (أبو عبدالله البريدي) وأخاه (أبو الحسين البريدي). مما اضطر الخليفة إلى الاستنجاد بناصر الدولة ابن حمدان لنصرته على (البريديين) فأرسل ناصر الدولة جيشاً بقيادة أخيه **(سيف الدولة علي بن عبدالله ابن حمدان)** الذي قاد جيشاً كثيفاً إلى تكريت؛ وتصادف وصوله مع هزيمة الخليفة

المتقي لله ووزيره ابن رائق. فقدم سيف الدولة خدمة عظيمة للمتقي؛ وسار معه إلى الموصل. وقام (ناصر الدولة) باستدراج (ابن رائق) فذبحه؛ وأخبر الخليفة المتقي بذلك؛ فابتهج الخليفة لذلك؛ وأمر (ناصر الدولة) بالمسير إليه، فسار ابن حمدان إلى المتقي لله، فخلع عليه ولقبه (**ناصر الدولة**) وجعله (**أمير الأمراء**) . وخلع على أخيه (أبي الحسن علي بن عبدالله) ولقبه (**سيف الدولة**) . وقد استاء الاخشيد من قتل (ابن رائق) فقاد جيشه من مصر، وسار إلى دمشق، فنصب عليها أميراً من قبله بدلاً من (ابن رائق) الذي كان والياً على دمشق قبل توجهه إلى بغداد ثم قتله.

أخذ الحمدانيون على عاتقهم دعم الخليفة؛ والقضاء على اعمال التمرد؛ وأولها ثورة (البريدي) . وكان أبو الحسين البريدي قد انسحب إلى واسط بعد أن ضعف أمره في بغداد؛ فأقام (ناصر الدولة) في المدائن؛ ووجه جيشاً لقتال البريدي بقيادة أخيه (سيف الدولة) وابن عمه (أبي عبدالله الحسين بن سعيد بن حمدان). ووقع الصدام على بعد فرسخين من المدائن وانتصر البريدي، وانسحب سيف الدولة ومن معه إلى المدائن؛ فأعاد (ناصر الدولة) تنظيم الجيش ودعمه بقوات جديدة، ودفعه للمعركة، فانهزم البريدي وانسحب إلى واسط. ولم يتمكن سيف الدولة من استثمار النصر ومطاردة البريدي لما نزل بجيشه من الوهن والجراح. وكان الخليفة المتقي قد سير أهله من بغداد إلى (سامراء ـ سر من رأى). كما كان أعيان الناس قد هربوا من بغداد لما بلغهم سيره من (واسط) فلما بلغهم انتصار (سيف الدولة) عاد الجميع إلى بغداد (*) .

لم يتوقف (سيف الدولة) في أرض المعركة؛ إلا بقدر ما كان يحتاجه جيشه من الراحة، والعناية بالجرحى، ثم سار لقتال (البريدي) فلما وصل إلى (واسط) وجد أن البريديين قد انسحبوا إلى البصرة. وحدثت تطورات في غير مصلحة (سيف الدولة) والحمدانيين. غير أنه أمكن التغلب على العقبات. وكان لتدخل الحمدانيين؛ وإلقاء

(*) أفاد ناصر الدولة من هذا الانتصار لدعم مكانته الاقتصادية والسياسية، فضرب سنة ٣٣١ هـ - كما ورد في تجارب الأمم - نقوداً باسم الخليفة (المتقي لله) وباسم (ناصر الدولة) وباسم أخيه (سيف الدولة).

ثقلهم في كفة الصراع دور أساسي في إضعاف سطوة (البريديين) الذين ضاقت عليهم الدوائر إلى أن قام أبو عبدالله البريدي بقتل أخيه أبي يوسف، ثم لم يلبث أن توفي بعده (سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م). واستراح الحمدانيون؛ وبات باستطاعتهم الانصراف للعمل على جبهة أخرى.

كان البويهيون بقيادة (أبي شجاع بويه بن فناخسرو) وينتسب إلى ملك الفرس في الجاهلية (شابور ذو الاكتاف) قد انطلق منذ سنة ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م. من خراسان وأقام تنظيماً عسكرياً وسياسياً قوياً ـ بواسطة الديالمة ـ وأمكن له ولأولاده الثلاثة (عماد الدولة أبو الحسن علي؛ وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد) أن يبسطوا سيطرتهم خلال عشر سنوات على بلاد فارس ووصلوا إلى بغداد. وهيمنوا على دار الخلافة؛ وطمعوا في اقصاء الحمدانيين عن قاعدتهم (الموصل) والسيطرة على ممتلكاتهم. فوجه (معز الدولة) جيشاً إلى الموصل ونهب سواده، وهزم جيشه الذي كان بقيادة (ينال كوشه) الذي انسحب وانضم إلى ناصر الدولة في (سامرا) ووقعت معركة بين البويهيين والحمدانيين؛ لم تصل إلى درجة الحسم (سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) واستمرت الحرب زهاء سنة انتهت بالصلح؛ واستقر معز الدولة ببغداد. وعاد (ناصر الدولة الحمداني) إلى قاعدته في الموصل. غير أن هذا الصلح لم يكن ثابتاً بين (البويهيين) و(الحمدانيين). ولكن (ناصر الدولة) و(سيف الدولة) تمكنا باستمرار من السيطرة على الموقف. ففي سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م. سار معز الدولة البويهي من بغداد إلى الموصل، فلما علم ناصر الدولة الحمداني بذلك سار عن الموصل إلى نصيبين. ووصل معز الدولة فملك الموصل؛ وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا؛ فكثر الدعاء عليه. وأراد معز الدولة أن يملك جميع بلاد ناصر الدولة، فجاءته معلومات من أخيه (ركن الدولة) بأن جند خراسان قد توجهوا للاستيلاء على الري وجرجان، واستمده بطلب الجند؛ فاضطر معز الدولة لمصالحة ناصر الدولة؛ وترددت الرسل بينهما، واستقر الصلح بينهما على أن يؤدي ناصر الدولة الحمداني عن الموصل وديار الجزيرة كلها وبلاد الشام؛ كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم؛ ويخطب في بلاده لعماد الدولة وركن

الدولة ومعز الدولة بني بويه. فلما استقر الصلح عاد معز الدولة إلى بغداد؛ ورجع ناصر الدولة إلى قاعدته الموصل. واستمر هذا الصلح حتى سنة ٣٤٧ هـ = ٩٥٨ م؛ حيث عاد معز الدولة البويهي لقيادة جيشه؛ والسير نحو الموصل؛ بسبب تأخر ناصر الدولة الحمداني عن دفع ما تم الاتفاق عليه. وانسحب ناصر الدولة إلى نصيبين، واستولى معز الدولة على الموصل. وكان من عادة ناصر الدولة إذا قصده أحد بحرب، أن يغادر الموصل؛ ويصطحب معه جميع الكتاب والوكلاء ومن يعرف أبواب المال ومنافع السلطان؛ وربما جعلهم في قلاعه: مثل قلعة (كواشي) و(الزعفران) وغيرهما. وكان ناصر الدولة يأمر العرب بالإغارة على العلافة ومن يحمل الميرة، فكان الذي يقصد بلاد ناصر الدولة للحرب، يبقى محصوراً ومضيقاً عليه. فلما قصده معز الدولة هذه المرة، فعل ذلك به؛ فضاقت الأقوات على معز الدولة وعسكره؛ وبلغه أن بنصيبين من الغلات السلطانية شيئاً كثيراً؛ فسار عن الموصل نحوها، فلما توسط الطريق؛ بلغه أن أولاد ناصر الدولة (أبا المرجى وهبة الله) بسنجار في عسكر؛ فسير إليهم عسكراً، فلم يشعر أولاد ناصر الدولة بالعسكر إلا وهم ومعهم، فعجلوا عن أخذ أثقالهم؛ فركبوا دوابهم وانهزموا وأقدم جند معز الدولة البويهي على نهب معسكر أبناء ناصر الدولة، ونزلوا في خيامهم. فعاد أبناء ناصر الدولة إليهم؛ وباغتوهم بهجومهم؛ ووضعوا فيهم السيف؛ فقتلوا وأسروا وأقاموا بسنجار. وسار معز الدولة البويهي إلى نصيبين، ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين. ثم سار منها إلى حلب، حيث استقبله أخوه (سيف الدولة - وكان قد ملك حلب) وبالغ في اكرامه؛ وخدمه بنفسه حتى أنه نزع خفه بيديه. وكان أصحاب ناصر الدولة في حصونه ببلاد الموصل والجزيرة؛ يغيرون على أصحاب معز الدولة البويهي؛ فيقتلون فيهم ويأسرون منهم ويقطعون الميرة عنهم. ثم إن (سيف الدولة) راسل (معز الدولة) في الصلح، وترددت الرسل في ذلك؛ فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة؛ بسبب خلفه معه مرة بعد أخرى. فضمن (سيف الدولة) منه البلاد بألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم؛ واطلاق سراح من أسر من أصحابه بسنجار وغيرها؛ واضطر (معز الدولة البويهي) لقبول الصلح؛ رغم تمكنه من البلاد؛ بسبب ضيق الأموال عليه؛ وامتناع الناس من حمل الخراج إليه بحجة عدم تمكنهم من

الوصول إلى غلاتهم؛ وعاد معز الدولة الى بغداد. ورجع (ناصر الدولة الحمداني) من جديد إلى قاعدته الموصل (*).

يمكن بعدئذ التعرض لجهد الحمدانيين لتوسيع حدود دولتهم في بلاد الشام؛ ومجابهة محاولات الاخشيديين حكام مصر. ففي سنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م. سار (سيف الدولة) علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان إلى حلب فملكها؛ واستولى عليها؛ وفارقها (يأنس المؤنسي) عامل الاخشيد على حلب. ولحق بمولاه الأخشيد؛ ثم سار (سيف الدولة) إلى حمص، فلقيه بها عسكر الأخشيد بقيادة صاحب الشام ومصر (محمد بن طغج) مع مولاه (كافور) (اقتتلوا؛ فانهزم عسكر الأخشيد وكافور؛ وملك سيف الدولة مدينة حمص. وسار منها إلى دمشق فحصرها؛ فلم يفتحها أهلها له؛ فرجع. وخرج الأخشيد من مصر إلى الشام؛ وسار خلف سيف الدولة: فالتقيا بقنسرين، فلم يظفر أحد العسكرين بالآخر؛ ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، وعاد الأخشيد إلى دمشق. وتكررت هذه المحاولة (سنة ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) غير أن نصيب المحاولة انتهى إلى الفشل. وبقيت دمشق بيد الاخشيديين. وحلب في قبضة (سيف الدولة).

(*) أخذ الصراع بين (معز الدولة البويهي) و(ناصر الدولة الحمداني) شكل عداء شخصي؛ حتى ان معز الدولة حاول اغتيال ناصر الدولة (وهو ما أورده ابن مسكويه في تجارب الأمم ـ احداث سنة ٣٣٥ هـ) بمايلي: «قصد رجل مضرب ناصر الدولة ـ وهو بباب الشماسية ـ بإزاء معسكر معز الدولة فدخله بالليل؛ ودخل خيمته وهو نائم فيها ولم يشعر به الحراس ولا الحجاب ولا البوابون ولا الخدم، ومضى حتى عرف موضعه وشاهده وهو نائم؛ وعرف موضع رأسه من المخدة؛ ورجع ليطفىء السراج وشمعة كانت بقربه خارج الخيمة، واتفق أن انقلب ناصر الدولة في نومه، بينما كان الرجل يطفىء السراج والشمعة، فلما عاد وقد أظلم الموضع؛ وضع سكينه في الموضع الذي كان فيه تقديره؛ وما شك أن السكين قد وقعت في حلقه؛ فبقي السكين مغرزاً في المخدة مكان رأس ناصر الدولة؛ وخرج الرجل من المضرب وهو يعتقد أنه قتل ناصر الدولة؛ ولما يشعر به أحد. وانتبه ناصر الدولة؛ ورأى السكين؛ فطلب الرجل فلم يلحق به؛ وشاع الخبر فجاء الناس إلى ناصر الدولة للتهنئة بالسلامة. ومضى الرجل إلى (معز الدولة) ليبشره بأنه قد قتله، واستشرحه ما عمل فشرحه له. فقال معز الدولة: «مثل هذا الرجل لا يؤمن» وسلمه إلى أحد كبار رجاله ـ الصيمري ـ فقتله «الصيمري» وتخلص منه؛ ودفن معه دليل جريمته.

ب ـ سيف الدولة والحروب مع الروم:

لقد تصدى الحمدانيون للروم ـ البيزنطيين ـ بحكم موقعهم قريباً من الثغور (في الموصل وحلب) ولكن هذا الصراع لم يأخذ صورته الحقيقية وأبعاده الكاملة إلا في عهد (سيف الدولة الحمداني) (*) لقد انتقل الروم إلى الهجوم الشامل سياسياً وعسكرياً؛ فكان في جملة ظواهر هذا الهجوم السياسي على سبيل المثال ما ذكر في احداث سنة ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م. عندما أرسل ملك الروم إلى الخليفة العباسي ـ المتقي لله ـ يطلب منديلاً زعم أن المسيح قد مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه، وأنه في ناحية (الرها) وذكر أنه إن أرسل المنديل أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين. فما كان من (المتقي لله) إلا أن أحضر القضاة والفقهاء واستفتاهم، فاختلفوا؛ فبعض رأى تسليمه إلى الملك؛ وإطلاق سراح الأسرى. وبعض قال: **«إن هذا المنديل لم يزل من قديم الدهر في بلاد الإسلام، لم يطلبه ملك من ملوك الروم، وفي دفعه إليهم غضاضة»**. وكان في الجماعة (علي بن عيسى الوزير) فقال: «إن خلاص المسلمين من الأسر؛ ومن الضر والضنك الذي هم فيه؛ أولى من حفظ المنديل» فأمر الخليفة بتسليمه إليهم وإطلاق الأسرى. ففعل ذلك؛ وأرسل إلى ملك الروم من يتسلم الأسرى من بلاد الروم.

(*) سيف الدولة (علي بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان) ٣٠٣-٣٥٦ هـ (٩١٥-٩٦٦ م) كان جواداً كريماً شجاعاً، كثير الاحسان على ما كان فيه من تشيع؛ وقد ملك دمشق في بعض السنين؛ واتفق له أشياء غريبة، منها أن خطيبه كان (مصنف الخطب النباتية) أحد الفصحاء والبلغاء؛ ومنها أن شاعره كان المتنبي، ومنها أن مطربه كان أبا نصر الفارابي؛ وقيل: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك؛ بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من الشعراء. ولا غرابة في ذلك؛ فقد كان بنوحمدان ملوكاً وأمراء، أوجههم للصباحة؛ وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة؛ وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم. وقد كان سيف الدولة شاعراً مجيداً. توفي بالفالج، وقيل عسر البول ـ وحمل تابوته إلى (ميافارقين) فدفن بها. ولما توفي سيف الدولة، ملك بلاده بعده ابنه (أبو المعالي شريف). ومن شعره في أخيه ناصر الدولة:

وهبت لك العليا وقد كنت أهلها ... وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
وما كان بي عنها نكول وإنما ... تجاوزت عن حقي فتم لك الحق
أما كنت ترضى أن أكون مصلياً ... إذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

لم تكن القضية على ما كان واضحاً هي قضية منديل؛ بل هي قضية (تحدّ واستفزاز). وكان مثل هذا التحدي قد أخذ صورة أخرى قبل ذلك بعشر سنوات (ففي سنة ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م) سار (الدمستق قرقاش) في خمسين ألفاً من الروم؛ فنازل ملطية؛ وحصرها مدة طويلة؛ فهلك أكثر أهلها جوعاً. وضرب خيمتين على احداهما صليب؛ وقال: «من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب فنرد إليه أهله وماله؛ ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى، وله الأمان على نفسه ونبلغه مأمنه». فانحاز اكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم. وسير الباقين ومعهم بطريق يبلغهم مأمنهم؛ وفتح (ملطية) بالأمان. ثم فتح (سميساط) وخرب النواحي؛ واكثر القتل؛ وفعل الأفاعيل الشنيعة، وصار اكثر البلاد في أيدي الروم.

هكذا سار الصراع على جبهة الروم في تصعيد مستمر؛ ولقد بدأ الدور البارز والأساسي لسيف الدولة ـ على وجه التحديد (بسنة ٣٣٣ هـ = ٩٤٤ م). ففي هذه السنة؛ بلغ الدمستق ما فيه سيف الدولة من الشغل بحرب خصومه؛ فسار في جيش عظيم وأوقع بأهل (بغراس) و(مرعش) وقتل وسبى؛ فأسرع سيف الدولة إلى مضيق وشعاب؛ وأوقع بجيش الدمستق وبيتهم؛ واستنقذ الأسارى والغنيمة من أيدي الروم؛ وانهزم الروم أقبح هزيمة. ثم بلغ سيف الدولة أن مدينة الروم قد تهدم بعض سورها؛ وكان ذلك في الشتاء؛ فاغتنم سيف الدولة الفرصة، فأغار عليهم؛ وقتل وسبى ولكن أصيب بعض جيشه. فلما كانت سنة (٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م) كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم؛ على يد (نصر الثملي) أمير الثغور لسيف الدولة؛ وكان عدة الأسرى ألفين وأربعمائة أسير وثمانين أسيراً من ذكر وانثى. وفضل الروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسيراً لكثرة من معهم من الأسرى، فوفاهم ذلك سيف الدولة؛ وافتداهم وحررهم. وقام الروم في السنة التالية (٣٦٦ هـ = ٩٤٧ م) بالإغارة على أطراف بلاد الشام؛ فسبوا؛ وأسروا، فسار وراءهم سيف الدولة ولحقهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة؛ واسترد ما أخذوا من المسلمين ثم أخذ حصن (برذوية) من الأكراد؛ بعد أن نازلهم مدة. وحصن (برذوية) هذا هو حصن قرب السواحل الشامية على قمة جبل شاهق؛

يضرب بها المثل في جميع بلاد الروم بالحصانة، تحيط بها أودية من جميع نواحيها.

سار (سيف الدولة) في سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م لغزو بلاد الروم؛ فلقيه الروم؛ واقتتلوا، فانهزم سيف الدولة وأخذ الروم (مرعش) وأوقعوا بأهل (طرسوس). أخذ (سيف الدولة) في إجراء استعداداته لغزوة كبرى، وبدأ بحشد قواته (سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م) ووافاه عسكر طرسوس في أربعة آلاف - عليهم القاضي أبو حصين - فسار إلى قيسارية: ثم إلى الفندق؛ ووغل في بلاد الروم، وفتح عدة حصون؛ وسبى وقتل. ثم سار الى سمندو (أو سمندوية) (*) ثم إلى (خرشنة) فأحرق ربضها؛ وكنائسها وربض (صارخة) وما حولها؛ (**) وبينها وبين قسطنطينية سبعة أيام، فلما

(*) كان المتنبي - أبو الطيب - يسير مع مقدمة هذا الجيش؛ وقد أنشد (سيف الدولة) ممتدحاً - لهذه الغزوة:

لهذا اليوم بعد غد أريج ونار في العدو لها أجيج
تبيت بها الحواضر آمنات وتلم في مسالكها الحجيج
فلا زالت عداتك، حيث كانت فرائس أيها الأسد المهيج
عرفتك والصفوف معبيات وأنت بغير سيرك لا تعيج

ومنها:

أبا الغمرات توعدنا النصارى؟ ونحن نجومها وهي البروج
وفينا السيف حملته صدوق إذا لاقى: وغارته لجوج
نعوذه من الأعيان بأساً ويكثر بالدعاء له الضجيج
رضينا، والدمستق غير راض؛ بما حكم القواضب والوشيج
فإن يقدم فقد زرنا سمندو وإن يحجم فموعده الخلج

ديوان المتنبي - تدقيق وتحقيق عبد الوهاب عزام

(**) وفيها قال المتنبي (الديوان ص ٣٠١ - ٣٠٧).

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شَجُعوا
أهل الحفيظة إلا أن تجربهم وفي التجارب بعد الغي ما يزع

وقال:

بالجيش تمتنع السادات كلهم والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنع
قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سرع
حتى أقام على أرباض (خرشنة) تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبي مانكحوا، والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
فخلى له المرج؛ منصوباً (بصارخة) له المنابر، مشهوداً له الجمع =

نزل عليها اصطدمت بمقدمة الدمستق (**والدمستق هو نائب ملك الروم في حكم البلاد الواقعة إلى شرقي القسطنطينية**) . فانتصرت المقدمة على الدمستق وقواته، فلجأ الى (صارخة) وخاف على نفسه؛ ثم جمع قواته؛ والتقى بسيف الدولة فهزمه الله أقبح هزيمة؛ وأسرت بطارقته؛ وغنم المسلمون ما لا يوصف؛ وبقوا في الغزو أشهراً . ثم أن الطرسوسيين قفلوا ـ رجعوا ـ وعاد العربان؛ ورجع سيف الدولة في مضيق صعب يعرف باسم (مقطعة الأثفار) وأخذ عليه الروم الدروب؛ وحالوا بينه وبين المقدمة؛ وقطعوا الشجر وسدوا به الطرق، ودهدهوا الصخور في المضايق؛ والروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون ويأسرون، وتولى سيف الدولة قيادة الساقة ـ المؤخرة ـ لحماية الناس فلما انحدر بعد عبور المضايق ركبه الروم؛ فخرج من الفرسان جماعة، ونزل (سيف الدولة) على (بردى) وهي نهر عظيم؛ وضبط الروم عقبة السير (وهي عقبة طويلة) فلم يقدر على صعودها لضيقها وكثرة العدو بها . وكان معه أربعمائة أسير من وجوه الروم؛ فضرب أعناقهم. وعدل متياسراً في طريق وصفه له بعض الأدلة؛ وأخذ ساقة الناس يحميهم، فكانت الابل كثيرة معيبة؛ وجاءه العدو آخر النهار من خلفه، فعقر جماله وكثيراً من دوابه؛ وحرق الثقل، وقاتل قتال الموت، ونجا في نفر يسير . واستباح الدمستق أكثر الجيش؛ وأسر أمراء وقضاة؛ ووصل سيف الدولة إلى حلب ولما يكد؛ حتى مالت الروم؛ فعاثوا وسبوا ؛ وتزلزل الناس . وجعل سيف الدولة يستنفر الناس فلا ينفر أحد، فمن نجا من العقبة نهاراً لم يرجع؛ ومن بقي تحتها لم تكن فيه نصرة.

= ذم (الدمُسْتُقُ) عينيه وقد طلعت ... سود الغمام فظنوا انها قزع
كم من حشاشة بطريق تضمنها ... للباترات أمين ما له ورع
قل للدمستق: إن المسلمين لكم ... خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا
لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق ... فليس يأكل إلا الميت الضبع
هلا على عقب الوادي وقد صعدت ... أسد تمر فرادى ليس تجتمع
فكل غزو إليكم بعد ذا فله ... فكل غاز لسيف الدولة التبع
وما الجبال لنصران بحامية ... ولو تنصر فيها الأعصم الصدع
وما حدتك في هول ثبت له ... حتى بلوتك والأبطال تمتصع .
فقد يظن شجاعاً من به خرق ... وقد يظن جباناً من به زمع .
إن السلاح جميع الناس يحمله ... وليس كل ذوات المخلب السبع .

وتخاذل الناس وكانوا قد ملوا السفر. ثم لطف الله تعالى: وأرسل الدمستق يطلب الهدنة؛ فلم يجب سيف الدولة؛ وبعث يتهدده؛ ثم جهز جيشاً فدخلوا بلاد الروم من ناحية (حران) فغنموا وأسروا خلقاً، وغزا أهل طرسوس أيضاً في البر والبحر. ثم سار سيف الدولة من حلب إلى (آمد) فحارب الروم؛ وخرب الضياع وانصرف سالماً. واحتال الروم على أخذ (آمد) وسعى لهم في ذلك نصراني؛ على أن ينقب لهم نقباً من مسافة أربعة أميال حتى وصل إلى سورها، وكان نقباً واسعاً وصل من تحت السور الى البلد؛ لكن أهل البلد كشفوا أمره في الوقت المناسب؛ فقتلوا النصراني؛ واحكموا ما نقبه؛ وسدوه.

قاد (سيف الدولة) في السنة التالية (٣٤٠ هـ = ٩٥١ م) قوة الصائفة يريد بلاد الروم؛ وتوقف في بقعة (عربسوس) وأحرق القرى. وعلم أن الدمستق قد حشد جيشاً من أربعين ألف مقاتل؛ فتهيب جيش سيف الدولة الاقدام؛ وأحب سيف الدولة المسير إليها. ولكن (المتنبي) أقنعه بالعدول عن المسير، وصعوبة السير إلى (خرشنة) بسبب كثرة الثلج ـ وهجوم الشتاء (*).

(*) كان مما قاله المتنبي (الديوان ص٣٠٨ ـ ٣١٧).

نزور دياراً ما نحب لها مغنى ... ونسأل فيها غير سكانها الإذنا.
نقود إليها الآخذات لنا المدى ... عليها الكماة المحسنون بها ظناً.
وقد علم الروم الشقيون أننا ... إذا ما تركنا أرضهم خلفنا عدنا.
وأنا إذا ما الموت صرح في الوغى ... لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا.
وإن كنت سيف الدولة العضب فيهم ... فدعنا فكن قبل الضراب القنا اللدنا.

وهي قصيدة طويلة؛ فلما بلغ إلى هذا الموضع؛ قال له سيف الدولة: قل لهؤلاء ـ وأومأ بيده إلى من حوله من العرب والعجم ـ يقولوا كما تقول ـ حتى لا ينثني الجيش:

فنحن الألى لا نأتلي لك نصرة ... وأنت الذي لو أنه وحده يغني.
يقيك الردى من يبتغي عندك العلا ... ومن قال: لا أرضى من العيش بالأدنى
وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى ... وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا.

وقال المتنبي عن توقف الغزوة وعدم السير الى خرشنة بسبب الثلج وهجوم الشتاء:

وأشقى بلاد الله ما الروم أهلها ... بهذا وما فيها لمجدك جاحد.
شننت بها الغارات حتى تركتها ... وجفن الذي فوق الفرنجة ساهد. =

قام الروم (سنة ٣٤١ هـ = ٩٥٢ م) بشن هجوم مباغت على (سروج - وهي بلدة قريبة من حران من ديار مضر) فملكوها وسبوا أهلها؛ وغنموا أموالهم؛ وأخربوا المساجد. فجمع سيف الدولة جيوش الموصل والجزيرة والشام والاعراب. ووغل في بلاد الروم؛ وقتل وسبى. ووصل (مرعش) فهرب (الدمستق) بجيشه بعد معركة قصيرة. ووجد (سيف الدولة) أن (مرعش) بحاجة للاصلاح والترميم؛ فأمر بإصلاحها. ثم انصرف عنها عائداً الى حلب. وبعث الروم بطلب الفداء. ثم وقعت زلازل قوية بحلب والعواصم دامت أربعين يوماً؛ وهلك خلق كثير تحت الروم، وتهدم حصن رعبان (مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات) كما تهدم حصن دلوك وسقط من سور الحصن ثلاثة أبرجة، وخربت قلعة (تل حامد). فأنفذ سيف الدولة قطعة من الجيش بقيادة (أبي فراس الحمداني) فأعاد عمارتها في سبعة وثلاثين يوماً (*).

= مخضّبة والقوم صرعى كأنها … وإن لم يكونوا ساجدين، مساجد
أخو غزوات ما تغب سيوفه … رقابهم، إلاّ وسيحان جامد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها: … مصائب قوم عند قوم فوائد
وكل يرى طرق الشجاعة والندى … ولكن طبع النفس للنفس قائد.
فأنت حسام الملك، والله ضارب … وأنت لواء الدين، والله عاقد.

(*) قال شاعر يمتدح أبا فراس الحمداني في بناء الثغور (ابن تغرى بردى. احداث سنة ٣٤١ هـ).

أرضيت ربك وابن عمك والقنا … وبذلت نفساً لم تزل بذالها
ونزلت رعباناً بما أولتها … تثني عليك سهولها وجبالها

وقال المتنبي في مدح (سيف الدولة) لبناء مرعش (ديوان المتنبي - ص٣١٨-٣٢١).

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم … وأنك، حزب الله، صرت لهم حزبا
فإنك رعت الدهر فيها وريبه … فمن شكّ، فليحدث بساحتها خطبا
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم … ويوماً بجود تطرد الفقر والجدبا.
سراياك تترى؛ والدمُسْتُقُ هارب … وأصحابه قتلى وأمواله نهبى
أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلاً … وأدبر إذ أقبلت، يستبعد القربا
كذا يترك الأعداء من يكره القنا … ويقفل من كانت غنيمته رعبا.
مضى بعدما التف الرماحان ساعة … كما يتلقى الهدبُ في الرقدة الهدبا.
وخلى العذارى والبطاريق والقرى … وشعث النصارى والقرابين والصلبا.

ولما كانت السنة التالية (٣٤٢ هـ = ٩٥٣ م) اضطربت الأمور على (سيف الدولة) في البادية؛ فرحل سيف الدولة من حلب؛ ونزل حران؛ وأخذ رهائن بني عُقيل وقشير والعجلان. ثم قرر القيام بغزو بلاد الروم؛ فعبر نهر الفرات؛ وسار الى (دلوك) ثم إلى (قنطرة صنجة) ومنها الى (درب القلة) وشن الغارة على أرض عرقة وملطية، وعاد ليعبر من درب (موزار) فوجد بأن الروم قد ضبطه عليه، فرجع؛ وتبعه الروم؛ فعطف عليهم؛ فقتل كثيراً من الأرمن؛ ورجع إلى (ملطية). وعبر (قُباقب) وهو نهر؛ حتى ورد المخاض على نهر الفرات - تحت حصن يعرف بالمنشار - فعبر إلى بطن (هنزيط وسمنين) ونزل (بحصن الران). ورحل الى سميساط، فورد عليه بها من خبره أن الروم في بلد المسلمين؛ فأسرع إلى (دلوك) وعبرها، فأدرك الروم عند رجوعهم على نهر جيحان، فهزمهم؛ وأسر (قسطنطين) بن الدمستق؛ وجرح الدمستق في وجهه. وتمزق عسكر الروم الذي حشد فيه (الدمستق) جنداً ضخماً من الروم والروس والبلغار وغيرهم. وعاد (سيف الدولة) ظافراً إلى حلب (*) .

= كفى عجباً أن يعجب الناس أنه ... بنى مرعشاً، تباً لآرائهم تبا.
فمن كان يرضي اللؤم والكفر ملكه ... فهذا الذي يرضي المكارم والربا.

وقال المتنبي؛ في وصف وفد الروم الذي جاء يطلب الهدنة؛ ومدح سيف الدولة (الديوان ٣٣٥-٣٣٩).

رأى ملك الروم ارتياحك للندى ... فقام مقام المجتدي المتملق.
وخلى الرماح السمهرية صاغراً ... لأدرب منه بالطعان وأحذق.
وكاتب من أرض بعيد مرامها ... قريب على خيل حواليك سُبق.
وقد سار في مسراك منها رسوله ... فما سار إلا فوق هام مفلق.
فلما دنا أخفى عليه مكانه ... شعاع الحديد البارق المتألق.
وأقبل يمشي في البساط فما درى ... إلى البحر يمشي أم إلى البدر يرتقي
ولم يثنك الأعداء عن مهجاتهم ... بمثل خضوع في كلام منمق.
وكنت إذا كاتبته قبل هذه ... كتبت إليه في قذال الدمستق.
فإن تعطه بعض الأمان فسائل ... وإن تعطه حد الحسام فأخلق.

(*) في الكامل في التاريخ - جعل ابن الأثير هذه الغزوة في احداث سنة ٣٤٣ هـ - بينما جعلها ابن تغري بردي في احداث سنة ٣٤٢؛ وهو الأكثر صحة على ما يعتقد وفي هذه الغزوة قال المتنبي =

كان أهل (الحدث) قد أسلموها بالأمان إلى الدمستق (سنة ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م) فلما كانت سنة ٣٤٣ هـ = ٩٥٤ م سار سيف الدولة نحو الحدث لبنائها وتحصينها، وبدأ فور وصوله بخط أساسها؛ وحفر أوله بيده ابتغاء ما عند الله جل ذكره من الثواب. ولكن؛ ولما يمض أكثر من ثلاث أيام على بدء العمل حتى أقبل دمستق النصرانية (ابن الفقاس) في نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والروس والبلغر والصقلب والخزرية، ووقعت المعركة الحاسمة بعد ثلاث أيام؛ من أول النهار إلى وقت العصر؛ ثم حمل (سيف الدولة) بنفسه على الدمستق ومعه خمسمائة من غلمانه وأصناف رجاله؛ فقصد موكبه وهزمه؛ وأظفره الله تعالى به؛ وقتل نحو ثلاثة

= (الديوان ص٣٤٧-٣٥٢) قصيدة طويلة - منها:

ليالي بعد الظاعنين شكول ... طوالٌ، وليل العاشقين طويل.
لقيت (بدرب القُلة) الفجر لقية ... شفت كمدي، والليل فيه قتيل.
ويوماً كأن الحسن فيه؛ علامة ... بعثت بها والشمس منك رسول.
وما قبل سيف الدولة اثار عاشق ... ولا طلبت عند الظلام ذحول.
ولكنه يأتي بكل غريبة ... تروق؛ على استغرابها؛ وتهول.
رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى ... وما علموا ان السهام خيول.
شوائل تشوال العقارب بالقنا ... لها مرح من تحته وصهيل.
وما هي إلا خطرة عرضت له ... بحران لبتها قناً ونصول.
فلما تجلى من (دلوك) و(صنجة) ... علت كل طود راية ورعيل.
فما شعروا حتى رأوها مغيرة ... قباحاً؛ وأما خلقها فجميل.
سحائب يمطرن الحديد عليهم ... فكل مكان بالسيوف غسيل.
وأمسى السبايا ينتحبن (بعرقة) ... كأن جيوب الثاكلات ذيول
تسايرها النيران في كل مسلك ... به القوم صرعى والديار طلول.
تمل الحصون الشم طول نزالنا ... فتلقي إلينا أهلها وتزول.
وبتن بحصن (الران) رزحى من الوجى ... وكل عزيز للأمير ذليل
ودون (سميساط) المطامير والملا ... وأودية مجهولة وهجول
لبسن الدجى فيها إلى أرض (مرعش) ... وللروم خطب في البلاد جليل.
على قلب قسطنطين منه تعجب ... وإن كان في ساقيه منه كبول.
لعلك يوماً يا دمستق عائد ... فكم هارب مما إليه يؤول.
نجوت بإحدى مهجتيك جريحة ... وخلفت إحدى مهجتيك تسيل.

آلاف من مقاتلته؛ وأسر خلقاً من فرسانه ومشاته فقتل أكثرهم واستبقى البعض؛ وأسر بطريق سمندوية ولقندوية؛ وهو صهر الدمستق على ابنته (توزس الأعور) كما أسر ابن ابنة الدمستق؛ وأقام على الحدث إلى أن بناها ووضع بيده آخر شرافة منها. ثم جاءته وفود الروم على مرتين (في شهر صفر وفي شهر ربيع الأول من سنة ٣٤٣ هـ) وهي تطلب الفداء؛ وإطلاق سراح الأسرى (*).

بدأت سنة ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م بوصول وفد جديد من قبل ملك الروم الى حلب طلباً للهدنة والفداء؛ ولكن وفي منتصف هذه السنة تقريباً (في جمادى الأولى) ورد على سيف الدولة الخبر بأن الدمستق وجيوش النصرانية قد نزلت ثغر الحدث؛ ونصبت

(*) لقد سجل المتنبي هذه الأحداث في قصائد طويلة (ديوان المتنبي: ص ٣٧٤ - ٣٧٩ و ٣٦٣ - ٣٦٨) منها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم.
هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم.
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم.
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم.
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم.
طريدة دهر ساقها فرددتها ... على الدين بالخطي والدهر راغم.
وكيف ترجى الروم والروس هدمها ... وذا الطعن آساس لها ودعائم.
أتوك يجرون الحديد كأنهم ... سروا بجياد مالهن قوائم.
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما تفهم الحداث إلا التراجم.
ضممت جناحيهم على القلب ضمة ... تموت الخوافي تحتها والقوادم.
أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم ... قفاه على الإقدام للوجه لائم
وقد فجعته بابنه وابن صهره ... وبالصهر حملات الأمير الغواشم
ولست مليكاً هازماً لنظيره ... ولكنك التوحيد للشرك هازم
تشرف عدنان به لا ربيعة ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم
ألا أيها السيف الذي لست مغمداً ... ولا فيك مرتاب ولا منك عاصم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلى ... وراجيك والإسلام أنك سالم
ولم لا يقي الرحمن حديك ما وقى ... وتفليقه هام العدا بك دائم(؟)

مكايد الحصون عليه؛ وقدرت أنها فرصة لما تداخلها من القلق والانزعاج والوصم في تمام بنايته على يد سيف الدولة؛ ولأن ملكهم ألزمهم قصدها؛ وأنجدهم بأصناف الكفر من البلغر والروس والصقلب وغيرهم؛ وأنفذ معهم العدد. فركب سيف الدولة نافراً، وانتقل الى موضع غير الموضع الذي كان به. ونظر فيما وجب أن ينظر فيه في ليلته. وسار سيف الدولة عن حلب، فنزل رعبان؛ وأخبار الحدث مستعجمة عليه بسبب سيطرة الروم على الطرق؛ واتخاذهم لما هو ضروري من التدابير للمحافظة على سر تحركاتهم. فلما أسحر سيف الدولة؛ لبس سلاحه، وأمر أصحابه بمثل ذلك؛ وسار زحفاً؛ وعندما اقترب من الحدث؛ عادت إليه طلائع قواته، وأعلمته أن الروم قد رحلوا ولم يستقر لهم قرار عندما علموا باشراف خيول سيف الدولة على عقبة (يقال لها العوافي). وامتنع أهل الحدث عن ارسال الاخبار؛ أو مغادرة تحصيناتهم؛ خوفاً من الوقوع في كمين يعده لهم الروم. فنزل سيف الدولة بظاهرها؛ وذكر قائد حامية الحدث أن الروم قد نازلوه وحاصروه، فأيده الله بنصر من لدنه؛ ولم يتمكن الروم من أحداث أكثر من نقوب نقبوها في سور قديم من أسوار المدينة. ثم أتت طلائع الروم وأخبرتهم بخبر سيف الدولة في اشرافه على ثغر رعبان؛ فوقعت الصيحة؛ وظهر الاضطراب، وولى كل فريق على وجهه؛ وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم؛ وأخذوا آلة حربهم ووضعوها في حصنهم (*).

(*) سجل المتنبي هذه الأحداث في قصائد طويلة؛ منها «ديوان المتنبي ٤٠٣ - ٤٠٧ و ٣٨٠ - ٣٨٢».

ذي المعالي؛ فليعلون من تعالى ... هكذا، هكذا، وإلاّ فلا، لا
حال أعدائنا عظيم؛ وسيف الـ ... ـدولة ابن السيوف اعظم حالا
كلما أعجلوا النذير مسيراً ... اعجلتهم جياده الإعجالا.
فأتتهم خوارق الأرض ما تحـ ... ـمل إلا الحديد والأبطالا
لا ألوم بن لاون - ملك الرو ... م وإن كان ما تمنى محالا
يجمع الروم والصقالب والبلـ ... ـغر فيها ويجمع الآجالا.
قصدوا هدم سورها فبنوه ... وأتوا كي يقصروه فطالا.
أخذوا الطرق يقطعون بها الرسـ ... ـل فكان انقطاعها إرسالا
ما مضوا لم يقاتلوك ولكن ... القتال الذي كفاك القتالا

استعد (سيف الدولة) لغزاته سنة ٣٤٥ هـ = ٩٥٦ م، وأعد الآلات لعبور نهر أرسناس، وعندما أنهى استعداداته سار من حلب إلى حصن الران؛ ثم اجتاز بحيرة سمنين؛ ثم بهنزيط؛ وعبرت الروم والأرمن (نهر أرسناس) وهو نهر عظيم لا يكاد أحد يعبره سباحة إلا جره وذهب به لشدته وشدة برده. فسبح (سيف الدولة) الخيل حتى عبرته خلفهم إلى (تل بطريق) وهي مدينة للروم؛ فغرق جماعة منهم، وأحرق (سيف الدولة) تل بطريق وقتل من وجد بها؛ وأقام أياماً على أرسناس، وعقد بها (سماريات) يعبر السبي فيها. ثم قفل راجعاً. وقد غضب ملك الروم على البطريق (الدمستق) فأقسم هذا عند ملكه أنه سيعترض سيف الدولة في الدرب؛ وأنه سيجتهد في لقائه. وسأله انجاده ببطارقته، ففعل. وتقدم الدمستق حتى وصل (ميافارقين) وأحرق ونهب وخرب وسبى أهلها ونهب أموالهم. ثم رجع فاعترض (سيف الدولة) في الدرب، وارتفع في ذلك الوقت سحاب عظيم، وجاء مطر جود؛ ووقع القتال تحت المطر؛ ومع البطريق نحو ثلاثة آلاف قوس. فابتلت أوتار القسي؛ فلم تنفع. وانهزم (الدمستق) وأصحابه بعد أن قاتل وأبلى؛ وعلقت به الخيل، فجعل يحمي نفسه حتى سلم. وعاد (سيف الدولة) بجيشه ظافراً. وتوقف في (آمـد). وجاءه رئيس طرسوس في (أذنة) فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً. وعاد إلى حلب (*) .

= نـزلـوا في مصـارع عـرفـوهـا ... ينـدبـون الأعمام والأخـوالا
بسـط الرعـب في اليمين يمينـاً ... فتـولـوا، وفي الشمال شمالا
ينفض الروع أيديـاً ليس تـدري ... أسيـوفـاً حملـن أم أغـلالا
وإذا مـا خـلا الجبـان بـأرض ... طلـب الطعـن وحـده والنـزالا

وقال:

في خميـس مـن الأسـود بئيس ... يفترسـن النفـوس والأمـوالا
مـن أطـاق التماس شيء غلابـاً ... واغتصـابـاً، لم يلتمسـه سـؤالا.

(*) أنشد المتنبي في هذه الغزاة قصيدة طويلة، كما انشد قصيدة أخرى في موضوع (قسم البطريق لملك الروم) بمحاربة سيف الدولة والانتصار عليه. ومما جاء في القصيدتين: «ديوان المتنبي ٤١١ - ٤٢٢»:

الرأي قبـل شجـاعـة الشجعـان ... هـو أول وهـي المحـل الثـاني
لـولا العقـول لكـان أدنـى ضيغـم ... أدنـى إلى شرف مـن الإنسـان =

كانت تلك الغزوات والأيام الشهيرة؛ بما وقع فيها من أحداث مثيرة؛ وبما رافقها من ضجيج؛ قد أخفت الجوانب السلبية؛ أو جوانب الضعف؛ في الصراع بين المسلمين والروم. فقد كان على الحمدانيين ـ وعلى سيف الدولة خاصة ـ مجابهة الصراع على الجبهة الداخلية؛ سواء في حدود إمارة الحمدانيين؛ أو بين الحمدانيين وبين البويهيين الذين باتت لهم الكلمة العليا في دار الخلافة؛ أو بينهم وبين الفاطميين الذين استقر لهم الحكم في مصر. ورغم أن هذه القوى جميعها كانت تتظاهر (بالتشيع) و (الرفض) (*) إلا أن ذلك لم يشكل عائقاً أو مانعاً

قاد الجياد إلى الطعان ولم يقد — إلاّ إلى العادات والأوطان
في جحفل ستر العيون غباره — فكأنما يبصرن بالآذان.
فكأن أرجلها بتربة (منبج) — يطرحن أيديها بحصن (الران).
حتى عبرن (بأرسناس) سوابحاً — ينشرن فيه عمائم الفرسان
فتل الحبال من الغدائر فوقه — وبنى السفين له من الصلبان
خضعت لمنصلك المناصل عنوة — وأذل دينك سائر الأديان.
وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة — والسير ممتنع من الامكان.
والطرق ضيقة المسالك بالقنا — والكفر مجتمع على الايمان
نظروا الى زبر الحديد كأنما — يصعدن بين مناكب العقبان
فرموا بما يرمون عنه وأدبروا — يطأون كل حنية مرنان

وقال:

عقبي اليمين على عقبى الوغى ندم — ماذا يزيدك في إقدامك القسم(؟)
آلى الفتى (ابن شمشقيق) فأحنثه — فتى من الضرب ينسى عنده الكلم
أين البطارق والحلف الذي حلفوا — بمفرق الملك؛ والزعم الذي زعموا(؟)
فلم تتم (سروج) فتح ناظرها — إلا وجيشك في جفنيه مزدحم
والنقع يأخذ (حراناً) وبقعتها — والشمس تسفر أحياناً وتلتثم.

(*) جاء في (البداية والنهاية) احداث سنة ٣٤٧ هـ: «وقع في هذه السنة الصلح بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني. ورجع معز الدولة الى بغداد بعد انعقاد الصلح؛ وقد امتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين؛ وكل ملوك البلاد مصراً وشاماً؛ عراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد؛ كانوا رفضاً؛ وكذلك الحجاز وغيره؛ وغالب بلاد المغرب؛ فكثر السب والتكفير منهم للصحابة».

أمام وقوع الصراعات بين هذه القوى بعضها ضد بعض. وكان الروم قد انتقلوا منذ حين ـ على نحو ما سبق ذكره ـ للهجوم الشامل على بلاد المسلمين. وجاءت غزوات (سيف الدولة) لتعمل على إيقاف الموقف المتدهور ـ بصورة مؤقتة، غير أنها كانت عاجزة عن تحويل التيار لمصلحة المسلمين بصورة نهائية؛ إذ ان مثل هذا التحويل كان يتطلب تغيير موازين القوى؛ فكان الطرف الأكثر قدرة على استنزاف قدرة الخصم هو الطرف الأكثر حظاً في توجيه الصراع لمصلحته. وقد تبين أن (غزوات سيف الدولة) لم تستنزف شيئاً من قدرة الروم؛ بل إن الأمر وقع على نقيض ذلك؛ فقد استنزفت هذه الحروب قدرة الحمدانيين؛ وأضعفت من قدرة (سيف الدولة). وهذا ما أكدته مسيرة الصراع.

ففي سنة ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م؛ غزت الروم طرسوس والرها؛ فقتلوا وسبوا وغنموا وعادوا سالمين؛ وكان في جملة الأسرى (محمد بن ناصر الدولة). وفي السنة التالية (٣٤٩ هـ = ٩٦٠ م) غزا سيف الدولة بلاد الروم ومعه ثلاثون ألفاً؛ فأحرق وفتح عدة حصون؛ وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً؛ وبلغ إلى خرشنة؛ ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق. فلما أرادوا الرجوع قال أهل طرسوس لسيف الدولة: «إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك؛ فلا تقدر على العود منه؛ والرأي أن ترجع معنا» فلم يقبل منهم؛ وتمسك برأيه واستبد؛ وعاد في الدرب الذي دخل منه؛ فظهر الروم عليه ـ انتصروا ـ واستردوا ما كان مع سيف الدولة من الغنائم؛ وأخذوا أثقاله؛ ووضعوا السيف في أصحابه؛ فأتوا عليهم قتلاً وأسراً. وتخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة. أما أهل طرسوس فخرجوا من درب آخر فسلموا. وفي سنة ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م. سار قفل عظيم من انطاكية إلى طرسوس؛ ومعهم صاحب انطاكية؛ فخرج عليهم كمين للروم؛ فأخذ من كان فيها من المسلمين؛ وقتل كثيراً منهم؛ وأفلت صاحب انطاكية وبه جراحات. ثم دخل (نجا) غلام سيف الدولة؛ بلاد الروم من ناحية ميافارقين غازياً؛ فغنم ما قيمته قيمة عظيمة وسبى وأسر وخرج سالماً.

ج - المأزق الصعب:

واجه (سيف الدولة) مأزقاً صعباً سنة ٣٥١ هـ = ٩٦٢ م. فقد تولى الدمستق قيادة جيش من ستين ألفاً وتقدم به حتى وصل (عين زربى) الواقعة في سفح جبل عظيم؛ يشرف عليها. ووجه (الدمستق) بعض جنده فصعدوا الجبل فملكوه؛ ووجه قوات أخرى بالدبابات حتى وصلوا السور وشرعوا في نقبه؛ فلما رأى ذلك أهل (عين زربى) طلبوا الأمان؛ فأمنهم الدمستق؛ وفتحوا له باب المدينة فدخلها؛ ورأى جنده الذين في الجبل وقد انحدروا الى المدينة؛ فندم على إجابة أهلها إلى الأمان؛ ونادى مناديه في البلد؛ أول الليل؛ بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع؛ وأن من تأخر في منزله قتل؛ فخرج من استطاع الخروج؛ فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة؛ وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله؛ فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان؛ وأمر بجمع ما في البلد من السلاح؛ فجمع فكان شيئاً كثيراً. وأمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك؛ ومن أمسى قتل، فخرجوا مزدحمين؛ فمات بالزحمة جماعة؛ ومضوا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات؛ وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار؛ وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم؛ وهدموا سوري المدينة. وأقام (الدمستق) في بلاد الاسلام أحداً وعشرين يوماً، وفتح حول (عين زربى) أربعة وخمسين حصناً للمسلمين؛ بعضها بالسيف؛ وبعضها بالأمان؛ وأن حصناً من تلك الحصون التي فتحت بالأمان؛ أمر أهله بالخروج منه؛ فخرجوا؛ فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين؛ فلحق المسلمين غيرة عظيمة؛ فجردوا سيوفهم؛ فاغتاظ الدمستق لذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل؛ وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق. وكان صاحب طرسوس (ابن الزيات) قد خرج في أربعة آلاف رجل من الطرسوسيين؛ فأوقع بهم الدمستق؛ فقتل أكثرهم. وراسل أهل (بغراس) الدمستق، وقدموا له مائة ألف درهم؛ فأقرهم ولم يتعرض لهم؛ **ثم سار الدمستق إلى (قيسارية) فأقام بها؛ وحشد كل ما أمكن له حشده، حتى أصبحت عدة عسكره مائتي ألف رجل؛ منهم ثلاثون ألف رجل بالجواشن، وثلاثون ألف للهدم وإصلاح الطرق من**

الثلج؛ وأربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. فلما قضى صوم النصارى وأنهى الدمستق استعداداته؛ قاد مجموعة من الفرسان الخفيفة؛ وخرج بهم من (قيسارية) وسار سريعاً حتى سبق خبره، ووصل الى حلب فهاجمها بصورة مباغتة، فيما كان جيشه الكبير قد بدأ تحركه من (قيسارية). ولم يشعر سيف الدولة؛ ولا أهل حلب؛ إلا والروم قد ركبوهم؛ ولم يتمكن (سيف الدولة) من جمع قواته وحشدها؛ فخرج للقتال فيمن معه، فقاتل الدمستق؛ ولم تكن له قدرة على احتمال القتال بسبب قلة من معه والذين قتل أكثرهم؛ حتى لم يبق من أولاد (داود بن حمدان) أحد؛ وقتلوا جميعهم. فانهزم سيف الدولة في نفر يسير. وظفر الدمستق بداره؛ وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين؛ فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثمائة بدرة - صرة - من الدراهم؛ وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل؛ ومن خزائن السلاح ما لا يحصى؛ فأخذ الجميع؛ وخرب الدار؛ وملك الحاضر (الربض). وحصر مدينة حلب، فقاتله أهلها؛ وهدم الروم في السور ثلمة، فقاتلهم أهل حلب عليها؛ فقتل من الروم كثير؛ ودفعوهم عنها؛ فلما جنهم الليل عمروها. فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى (جبل جوشن). ثم إن رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها؛ فلحق الناس أموالهم ليمنعوها؛ فخلا السور منهم؛ فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه؛ وقربوا منه، فلم يمنعهم أحد. فصعدوا الى أعلاه؛ فرأوا الفتنة قائمة في البلد بين أهله؛ فنزلوا وفتحوا الأبواب ودخلوا البلد بالسيف، يقتلون من وجدوا؛ ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا. وكان في حلب ألف وأربعمائة من الأسارى؛ فتخلصوا وأخذوا السلاح؛ وقتلوا الناس؛ وسبى من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية؛ وغنموا ما لا يوصف كثرة؛ فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة؛ أمر الدمستق بإحراق الباقي؛ وأحرق المساجد. وكان قد بذل لأهل البلد الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبي وصبية، ومالاً حدد مبلغه، وينصرف عنهم؛ فلم يجيبوه الى ذلك؛ فملكهم كما سبق ذكره. ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة؛ فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه. وأقام الدمستق تسعة أيام في حلب؛ وأراد الانصراف عنها بما غنم؛ فقال له ابن أخت الملك - وكان معه -: «هذا البلد قد حصل بأيدينا؛ وليس من يدفعنا عنه؛ فلأي

سبب ننصرف عنه؟ » فقال الدمستق: « قد بلغنا ما لم يكن الملك يؤمله؛ وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا ما لم يسمع بمثله ». واستمر الجدل بينهما؛ إلى أن قال له الدمستق: « انزل على القلعة فحاصرها؛ فإنني مقيم بعسكري على باب المدينة » فتقدم ابن اخت الملك إلى القلعة؛ ومعه سيف وترس؛ وتبعه الروم؛ فلما قرب من باب القلعة؛ ألقي عليه حجر، فسقط؛ ورمي بخشب فقتل؛ فأخذه أصحابه وعادوا إلى الدمستق؛ فلما رآه قتيلاً؛ قتل من معه من أسرى المسلمين؛ وكانوا ألفاً ومائتي رجل؛ وعاد إلى بلاده؛ ولم يعرض لسواد حلب وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود إليهم بزعمه.

قام الروم بعد ذلك بفتح حصن (دلوك) وثلاثة حصون مجاورة له بالسيف. وأغاروا على منبج؛ فأسروا حاكمها (أبو فراس بن سعيد بن حمدان). وعمل سيف الدولة على إعادة بناء (عين زربى) وسير حاجبه في جيش؛ مع أهل طرسوس؛ إلى بلاد الروم فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا؛ فقصد الروم (حصن سيسية) فملكوه. وسار غلام سيف الدولة (نجا) في جيش إلى (حصن زياد) فلقيه جمع من الروم؛ فهزمهم؛ واستأمن إليه من الروم خمسمائة رجل؛ فأمنهم. واتصلت أيام الصراع؛ ففي السنة التالية (٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م) دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين. ودخلها أيضاً غلام سيف الدولة بن حمدان (نجا) من درب آخر؛ ولم يكن سيف الدولة معهم لمرضه؛ فإنه كان قد لحقه قبل ذلك بسنتين فالج؛ فأقام على رأس درب من تلك الدروب؛ فأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا إلى (قونية) وعادوا. فرجع سيف الدولة إلى حلب، فلحقه في الطريق غشية أرجف عليه الناس بالموت. واجتمع من رجالة الأرمن جماعة كثيرة؛ وقصدوا (الرها) فأغاروا عليها فغنموا واستاقوا خمسة آلاف رأس من الغنم وخمسمائة رأس من البقر والدواب؛ وأسروا وعادوا موفورين.

لقد كان لهذه التطورات دورها في استثارة الروم والمسلمين. ففي القسطنطينية؛ ثار الروم بملكهم فقتلوه وملكوا غيره. وصار (ابن شمشقيق) دمستقاً؛ وهو الذي يقوله العامة (ابن الشمشكي). أما بالنسبة للمسلمين؛ فقد ظهر

ضعف أمر سيف الدولة بعد تلك الملاحم الكبار التي طير فيها لب العدو ومزقها. إذ قامت الروم فعبرت الروم نهر الفرات؛ لقصد الجزيرة؛ وأغلق أهل الموصل الأسواق، واجتمعوا في المسجد الجامع لذلك؛ ومضوا إلى (ناصر الدولة الحمداني) فضمن لهم الغزو. ووردت الكتب من بغداد أن الرعية أغلقت الأسواق؛ وذهبوا إلى باب الخلافة ومعهم كتاب يشرح مصيبة حلب؛ وضجوا؛ فخرج إليهم الحاجب؛ وأوصل الكتاب إلى الخليفة فقرأه، ثم خرج إليهم فعرفهم أن الخليفة **«بكى» وأنه قال: «بأن ما جرى قد غمني؛ وأنتم تعلمون أن سيفي - معز الدولة البويهي - وأنا أرسله في هذا» فقالوا: «لا نقنع إلا بخروجك أنت؛ وأن تكتب إلى سائر الآفاق؛ وتجمع الجيوش؛ وإلا فانعزل لنولي غيرك»** فغاظه كلامهم. ثم وجه إلى دار معز الدولة؛ فركب ومعه الاتراك؛ فصرفهم صرفاً قبيحاً. ثم جاءت الأخبار بموت طاغية الروم. وأن الخلف واقع بينهم فيمن يملكونه؛ فطمع عسكر طرسوس؛ ودخلوا أرض الروم في عدة وافرة؛ وأوقعوا بالروم ونصروا عليهم؛ وعادوا بغنائم لم ير من دهر مثلها؛ فلما رجعوا ووصلوا إلى الدرب؛ إذا هم بالبطريق (ابن الملايني) على الدرب؛ فاقتتلوا طوال النهار؛ ونصر المسلمون. وبلغ (سيف الدولة) أيضاً اختلاف الروم؛ فبادر؛ ودوخ الأعمال وأحرق؛ وحصل من السبي اكثر من ألفين؛ ومن المواشي مائة ألف رأس، وفرح المؤمنون بالنصر والاستظهار على العدو. ثم توجه سيف الدولة غازياً بعد شهرين؛ فسار على (حران) وعطف على (ملطية) فملأ يديه سبياً وغنائم؛ وعاد إلى حلب. رد (الدمستق) على ذلك في السنة التالية **(٣٥٣ هـ = ٩٦٤ م)** فقاد جيشه وألقى الحصار على (المصيصة) وقاتل أهلها ونقب سورها؛ واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعهم عنه أهلها بعد قتال عظيم؛ وأحرق الروم رستاقها - ريفها - ورستاق أذنة وطرسوس بسبب اقدام أهلها على مساعدة أهل المصيصة أثناء حصارها؛ فقتل من المسلمين خمسة عشر ألف رجل؛ وأقام الروم في بلاد الإسلام خمسة عشر يوماً لم يقصدهم أحد. ثم عادوا؛ وذلك بعد أن أرسل (الدمستق) إلى أهل المصيصة وأذنة وطرسوس: **«اني منصرف عنكم لا لعجز؛ ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء؛ وأنا عائد إليكم؛ فمن انتقل منكم فقد نجا؛ ومن وجدته بعد عودي قتلته»**.

وصل في تلك الفترة رجل من خراسان إلى الشام يريد الجهاد في سبيل الله ومعه نحو خمسة آلاف رجل؛ وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين، فلما وصلوا إلى (سيف الدولة) أخذهم؛ وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن المسلمين؛ فوجدوا الروم قد عادوا، فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء؛ وعاد أكثرهم إلى بغداد ومنها إلى خراسان.

عاد الدمستق فقاد جيشه وسار إلى طرسوس؛ وحصرها، وجرى بين الروم وبين أهل طرسوس قتال واشتباكات كثيرة سقط في بعضها الدمستق (ابن الشمشقيق) إلى الأرض؛ وكاد يؤسر؛ فقاتل عليه الروم وخلصوه؛ وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم. ورحل الروم عنها، وتركوا عسكراً على (المصيصة) مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر، لم يمنعهم منها أحد؛ فاشتد الغلاء على الروم؛ وكان شديداً قبل نزولهم، فلهذا طمعوا في البلاد لعدم وجود الأقوات عندهم. فلما نزل الروم زاد شدة؛ وكثر الوباء أيضاً، فمات من الروم كثير فاضطروا إلى الرحيل. **وقد اشتد الغلاء بانطاكية وجميع الثغور حتى لم يقدر أحد على الخبز؛ وأكل الناس الرطبة والحشيش؛ وانتقل قوم من الثغور إلى دمشق والرملة وغيرها؛ نحو خمسين ألفاً؛ هرباً من الغلاء.**

عمل ملك الروم (نقفور) على بناء مدينة في (قيسارية) لتكون قريبة من بلاد الإسلام؛ ونقل أهله اليها؛ وأسكنها ليغير كل وقت على المسلمين. فأرسل إليه أهل (طرسوس) و(المصيصة) رسولاً **(سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م)** يبذلون له أتاوة؛ ويطلبون منه أن ينفذ إليهم بعض أصحابه يقيم عندهم؛ فعزم على إجابتهم إلى ذلك؛ فأتاه الخبر بأن أهل الثغور قد ضعفوا وعجزوا؛ وأنهم لا ناصر لهم؛ وأن الغلاء قد اشتد عليهم؛ وقد عجزوا عن القوت حتى أكلوا الكلاب والميتة، وكثر فيهم الوباء فيموت منهم في اليوم نحو ثلاثمائة نفس. فعاد (نقفور) عن إجابتهم. وأحضر الرسول؛ وأحرق الكتاب على رأسه واحترقت لحيته؛ وقال له وللوفد المرافق له: **«أنتم كالحية؛ في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت؛ فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته. وأنتم إنما أطعتم لضعفكم؛ وإن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم**

تأذيت بكم. امض إليهم وعرفهم أنه ليس عندي إلا السيف».

جمع نقفور جيوش الروم؛ وسار إلى (المصيصة) بنفسه فحاصرها وفتحها عنوة بالسيف، ووضع السيف في أهلها، فقتل منهم مقتلة عظيمة؛ ثم رفع السيف؛ ونقل كل من بها إلى بلد الروم؛ وكانوا نحو مائتي ألف إنسان. ثم سار إلى (طرسوس) فحصرها، فأذعن أهلها بالطاعة؛ وطلبوا الأمان؛ فأجابهم إليه؛ وفتحوا البلد؛ فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون؛ ويتركوا الباقي؛ ففعلوا ذلك. وساروا براً وبحراً؛ وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا انطاكية. وجعل الملك المسجد الجامع بطرسوس اصطبلاً لدوابه؛ وأحرق المنبر، وأعاد بناء طرسوس وحصنها؛ وجلب المسيرة إليها حتى رخصت الأسعار؛ وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة ملك الروم؛ وتنصر بعضهم؛ وأراد المقام بها ليقرب من بلاد المسلمين، ثم عاد إلى (القسطنطينية) وأراد (الدمستق) وهو (ابن الشمشقيق) أن يقصد (ميافارقين) وبها سيف الدولة، فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية؛ فمضى إليه.

كان عليه (سيف الدولة) مواجهة هذه التحديات الجديدة؛ غير أن متاعبه على جبهته الداخلية قد أعاقته عن ذلك؛ سواء على جبهة أرمينية (حيث أعلن قائد سيف الدولة - نجا -) تمرده فيها. أو على جبهة أنطاكية؛ مما حمله على توجيه جهده لبناء جبهته الداخلية؛ وإحباط اعمال التمرد. **وتزايدات وطأة الأحداث على (سيف الدولة) بوفاة - أو قتل - صديقه وشاعره (أبو الطيب المتنبي)** (*) **. ولكن (سيف الدولة) أحرز نجاحاً مقابلاً باطلاق سراح - وافتداء ابن عمه (ابو فراس الحمداني)** (**) **.**

(★) أبو الطيب المتنبي - أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي (٣٠٣ هـ = ٣٥٤ هـ = ٩١٥ - ٩٦٥ م) اشتهر بمدح سيف الدولة وبمرافقته له في الحروب. عاش حياة مثيرة. وديوانه من مشاهير دواوين الشعر العربي. كان يكثر المقام بالبادية لاقتباس اللغة؛ ونظر في فنون الأدب - وتعاطى قول الشعر من صغره حتى بلغ فيه الغاية؛ وفاق أهل زمانه.

(★★) ورد في (تاريخ الإسلام - احداث سنة ٣٥٥ هـ) في موضوع فداء (أبو فراس الحمداني) ما يلي: =

عاد الروم للهجوم (سنة ٣٥٥ هـ) فخرج جيشهم وقصد مدينة (آمـد) ونزل عليها وحصرها؛ وقاتل أهلها؛ فقتل منهم ثلاثمائة رجل، وأسر نحواً من أربعمائة رجـل؛ غير أنه عجز عن فتحها. فانصرف عنها إلى (دارا) وتقدم حتى (نصيبين) وصادفته قافلة تجارية كانت قادمة من (ميافارقين) فاستولى عليها. وهرب الناس من نصيبين خوفاً من بطش الروم؛ وكان سيف الدولة فيها؛ وفكر في الهرب؛ غير أن الروم عادوا، فبقي فيها. وسار الروم من ديار الجزيرة إلى الشام؛ فنازلوا أنطاكية؛ وأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها؛ وعجزوا عن فتحها، فخربوا ريفها ـ ربضها ـ ونهبوه، وعادوا إلى قاعدتهم (طرسوس).

ومات سيف الدولة (سنة ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م). وتصادف أن مات في تلك السنة أيضاً (الدمستق ـ أغلظ الملوك قلباً وأشدهم كفراً وأقواهم بأساً وأحدهم شوكة وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين) ومات أيضاً ملك الروم في القسطنطينية. وظن الناس أنهم استراحوا من كره القتال. وقد استراحوا فعلاً في تلك السنة؛ ولكن هل كانت قضية الحرب على الثغور هي قضية (الدمستق) أو قضية (سيف الدولة)؟

= «قدم أبو فراس محمد بن ناصر الدولة من الأسر إلى ميافارقين؛ أخذته أخت ملك الروم لتفادي به أخاها؛ فجاء ستة آلاف، فنفذ إليها سيف الدولة أخاها في ثلاثمائة إلى (حصن المناخ) فلما شاهد بعضهم بعضاً سرح المسلمون أسيرهم في خمسة فوارس؛ وسرح الروم أسيرهم أبا الفوارس في خمسة؛ فالتقيا في وسط الطريق وتعانقا؛ ثم صار كل واحد إلى أصحابه؛ فترجلوا له وقبلوا الأرض. ثم احتفل (سيف الدولة) بابن أخيه؛ وحمل له الخيل والمماليك والعدد التامة؛ فمن ذلك مائة مملوك بمناطقهم وسيوفهم وخيولهم؛ وطال مقام (سيف الدولة) بميافارقين؛ فأنفق في سنة وثلاثة أشهر نيفاً وعشرين ألف ألف درهم ومائتين وستين ألف دينار. وتم الفداء فخلص من الأسر ـ من بين أمير إلى راجل ـ ثلاثة آلاف ومائتان وسبعون نفساً. وأنفق سيف الدولة على الفداء ثلاثمائة ألف دينار».

د ـ الأيام الأخيرة للحمدانيين.

لقد استطاع سيف الدولة تحقيق نجاحاته وانتصاراته بفضل سياسته الحكيمة للأمور؛ فقد أمكن له التعاون مع أخيه (ناصر الدولة) حتى أقصى الحدود؛ وأفاد من جميع الحمدانيين؛ ونجح حتى في ترويض خصومه؛ وحملهم على طاعته؛ الأمر الذي ساعده على حشد كافة القوى ضد (الروم) وضد (مراكز القوى المضادة من بويهيين وفاطميين) وحتى ضد مراكز القوى المتمردة. ولكن ما إن ضعف مركز (سيف الدولة) في السنوات الأخيرة؛ بسبب ضعف أو مرض سيف الدولة من جهة؛ وبسبب الاستنزاف المستمر في الحروب من جهة أخرى؛ حتى ظهرت بواكير التمزق بين ورثة (ناصر الدولة) بعضهم ضد بعض؛ وبينهم وبين ابناء عمومتهم (ابناء سيف الدولة). وكان (أبو فراس الحمداني) (*) الضحية الأولى؛ فعندما توفي (سيف الدولة) وخلفه ابنه (أبو المعالي شريف) أظهر جفاء (لأبي الفوارس) وأرسل في طلبه. فانحاز أبو فراس إلى (صدد) وهي قرية في طرف البادية عند حمص؛ فجمع أبو المعالي الاعراب من بني كلاب وغيرهم؛ وسيرهم في طلبه مع قائده (قرعويه) فأدركه وقتله. ولم يلبث (قرعويه) هذا أن استأثر بحكم حلب، وأعلن تمرده على (أبي المعالي شريف) ووقعت معارك بينهما استمرت من ٣٥٨ حتى سنة ٣٦٠ هـ؛ حيث اصطلح قرعويه وأبو المعالي. وخطب لأبي المعالي بحلب ـ وكان بحمص ـ وخطب هو وقرعويه في أعمالهما للمعز لدين الله العلوي صاحب المغرب ومصر. وانعكست هذه التطورات بداهة على جبهة الصراع مع الروم.

(*) أبو فراس بن أبي العلاء سعيد بن حمدان (٣٢٠ـ٣٥٧ هـ = ٩٣٢ـ٩٦٧ م) ولد بمنبج، وكان من الفرسان الشجعان ومن الشعراء الموهوبين؛ قال الثعالبي في وصفه «كان فرد دهره، وشمس عصره؛ أدباً وكرماً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة. وشعره مشهور جمع بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك؛ ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وأبو فراس يعتبر أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام. وكان الصاحب بن عباد يقول: بدىء الشعر بملك وختم بملك ـ وهو يعني امرأ القيس وأبا فراس».

ففي سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م. أقبل نقفور عظيم الروم بجيوشه إلى الشام؛ فخرج من (دربند - وهي التي تسمى باب الأبواب؛ أوباكو حالياً) ونازل انطاكية؛ فلم يلتفتوا إليه؛ فقال: «أرحل وأخرب ثم أعود إليكم من الساحل». ورحل ونازل (معرة مصرين - بنواحي حلب) فأخذها وغدر بأهلها وأسر منهم أربعة آلاف وستمائة نفس؛ ثم نزل على (معرة النعمان) فأحرق جامعها. وكان الناس قد هربوا في كل وجه إلى الحصون والبراري والجبال: ثم سار إلى (كفرطاب) وهي بين المعرة وحلب. وملك (قلعة شيزر) ثم سار إلى حماه وحمص؛ وكان أهلها قد رحلوا عنها وأخلوها؛ فدخلها وصلى في البيعة، وأخرج منها رأس (يحيى بن زكريا) وأحرق الجامع؛ ثم أحرق المدينة؛ وسار إلى (عرقة) وكان حاكم طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه؛ فقصد عرقة؛ وجاء الروم فحصروها وملكوها؛ وأخذوا جميع أموال حاكم طرابلس السابق - ثم أحرقها، وأحرق طرابلس وسار في بلاد الساحل؛ فأتى عليها نهباً وتخريباً؛ وملك ثمانية عشر منبراً؛ فأما القرى فكثير لا يحصى. **وأقام في الشام شهرين؛ يقصد أي موضع شاء، ويخرب ما شاء؛ ولا يمنعه أحد. إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف قواته. وأتاه جماعة منهم وتنصروا؛ وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم؛ فامتنعت العرب من قصدهم؛ وصار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين.** وأراد أن يحصر انطاكية وحلب؛ فبلغه أن أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه فامتنع من ذلك؛ واكتفى بما حصل عليه من مال عظيم قدمه له أهل انطاكية. كما عمل (قرعويه) حاكم حلب على مصانعة ملك الروم بمال وفير. وسير ملك الروم سرية كبيرة إلى الجزيرة، فبلغوا (كفرتوثا)، ونهبوا وسبوا وأحرقوا؛ **وعاد ملك الروم إلى بلاده؛ ومعه من السبي نحو مائة ألف رأس؛ ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان؛ فأما الكهول والشيوخ والعجائز؛ فمنهم من قتله، ومنهم من أطلقه.** لم تكن هذه الأعمال إلا مقدمة لأعمال اكثر تطوراً؛ فعندما قام الروم بغزو ساحل بلاد الشام؛ اتفقوا مع أهل (حصن لوقا - وهم نصارى) على أن يرتحلوا منه إلى انطاكية؛ وأن يتظاهروا بأنهم إنما انتقلوا منه خوفاً من الروم. فإذا صاروا بأنطاكية أعانوهم على فتحها. وانصرف الروم عنهم بعد

اتفاقهم على ذلك؛ وانتقل أهل (حصن لوقا) ونزلوا بأنطاكية؛ بالقرب من الجبل الذي بها. ومضى على هذا الانتقال شهران، عاد بعدها جيش الروم بقيادة أخي الملك نقفور ومعه أربعون ألف رجل؛ فأحاطوا بسور انطاكية؛ وصعدوا الجبل إلى الناحية التي بها أهل (حصن لوقا). فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية؛ طرحوا أنفسهم من السور؛ وملك الروم البلد؛ ووضعوا في أهله السيف. ثم أخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد، وقالوا لهم: «اذهبوا حيث شئتم» فأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا؛ فحملوهم إلى بلاد الروم؛ وكانوا يزيدون على عشرين ألف انسان. ولما ملك الروم انطاكية؛ انفذوا جيشاً كثيفاً إلى حلب **(في سنة ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ أيضاً)** وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة محاصراً لها، وبها (قرعويه) متغلباً عليها، مستبداً بحكمها. فلما علم (أبو المعالي) باقتراب جيش الروم، ابتعد عن حلب؛ وقصد الريف، فجاء الروم وحصروا البلد وقد تحصن أهله بالقلعة؛ فملك الروم المدينة وحصروا القلعة؛ فخرج إليهم جماعة من أهل حلب، وتوسطوا بين الروم وبين قرعويه؛ وترددت الرسل؛ فاستقر الأمر بينهم على (هدنة مؤبدة) مقابل مال يحمله قرعويه إليهم. وأن يضمن (قرعويه) بقاء أهل القرى في قراهم؛ وأن يمنعهم من مغادرتها، حتى يتمكن الروم من شراء ما يحتاجون إليه إذا أرادوا غزو البلاد - وكان مع حلب حماه وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرى. وسلموا الرهائن إلى الروم. وانسحب الروم من حلب وتسلمها المسلمون. ثم أرسل ملك الروم جيشاً إلى (ملاز كرد) من أعمال أرمينية؛ فحصروها، وضيقوا على من بها من المسلمين؛ وملكوها عنوة وقهراً، وعظمت شوكتهم؛ وخافهم المسلمون في أقطار البلاد، وصارت كلها سائبة لا تمتنع عليهم؛ يقصدون أين شاؤوا.

قتل (نقفور - ملك الروم) (*) في السنة ذاتها (٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م) وانصرف

(*) ورد في الكامل في التاريخ (احداث سنة ٣٥٩) عن نقفور - ما يلي: «لم يكن نقفور ملك الروم، من أهل بيت المملكة، وإنما كان دمستقاً - والدمستق عندهم الذي كان يلي بلاد الروم التي هي شرقي خليج القسطنطينية - وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين؛ وهو الذي أخذ حلب أيام سيف الدولة؛ فعظم شأنه عند الروم؛ وهو الذي فتح طرسوس والمصيصة وأذنة وعين زربى

كل طرف لعلاج مشكلاته الداخلية؛ فلما كانت سنة (٣٦١ هـ = ٩٧١ م) أغار ملك الروم على (الرها) ونواحيها؛ وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا (نصيبين) فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد. وفعلوا مثل ذلك (بديار بكر). ولم يكن من (أبي تغلب بن حمدان) في ذلك حركة ولا سعي في دفعه؛ لكنه حمل إليه مالاً كفه به عن نفسه. فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين؛ وأقاموا في الجوامع والمشاهد؛ واستنفروا المسلمين؛ وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي؛ فاستعظمه الناس؛ وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق؛ وطمع الروم؛ وأنهم لا مانع لهم عندهم. فاجتمع معهم أهل بغداد؛ وقصدوا دار الخليفة (الطائع لله) وأرادوا الهجوم عليه. فمنعوا من ذلك؛ وأغلقت الأبواب؛ فأسمعوا ما يقبح ذكره. وكان (بختيار بن معز الدولة البويهي) حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة؛ فخرج إليه وجوه أهل بغداد؛ مستغيثين؛ منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال (عمران بن شاهين - وهو مسلم) وترك جهاد الروم؛ ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها؛ فوعدهم التجهز للغزاة، وأرسل إلى الحاجب (سبكتكين) يأمره بالتجهز للغزو؛ وأن يستنفر العامة؛ ففعل (سبكتكين) ذلك: فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة. وكتب (بختيار) إلى (أبي تغلب بن حمدان) صاحب الموصل، يأمره بإعداد الميرة والعلوفات؛ ويعرفه عزمه على الغزاة؛ فأجابه بإظهار الفرح؛ وإعداد ما طلب منه. ثم اجتاحت بغداد فتنة عظيمة؛ وظهرت العصبية الزائدة؛ وتحزب الناس؛ وظهر العيارون

= وغيرها. ولم يكن نصراني الأصل؛ وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس - يعرف بابن الفقاس - تنصر؛ وكان ابنه هذا شهماً شجاعاً حسن التدبير لما يتولاه؛ فلما عظم أمره وقوي شأنه؛ قتل الملك الذي قبله؛ وملك الروم بعده؛ وتزوج امرأة الملك المقتول على كره منها؛ وكان لها من الملك المقتول ابنان. وجعل نقفور همته قصد بلاد المسلمين والاستيلاء عليها؛ وتم له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض؛ فدوخ البلاد؛ وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه فيضعف البلاد فيملكها، وغلب على الثغور الجزرية والشامية، وسبا وأسر ما يخرج من الحصر؛ وهابه المسلمون هيبة عظيمة؛ ولم يشكوا في أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر؛ لخلو الجميع من مانع. ثم عزم أن يخصي ابني الملك المقتول لينقطع نسلهما ولا يعارض أحد أولاده في الملك. فلما علمت أمهما ذلك احتالت على قتله. وتم لها ذلك بمساعدة الدمستق - ابن الشمشقيق -».

ـ قطاع الطرق ـ وأظهروا الفساد ، وأخذوا أموال الناس ؛ وكان سبب ذلك هو استنفار العامة للغزاة ؛ فاجتمعوا وكثروا ؛ فتولد بينهم من أصناف البنوية والفتيان والسنية والشيعة والعيارين ؛ فنهبت الأموال ؛ وقتل الرجال ؛ وأحرقت الدور ؛ وفي جملة ما احترق محلة الكرخ : وكانت حياً للتجار والشيعة . ثم إن (بختيار) أنفذ إلى (المطيع لله) يطلب منه مالاً يخرجه في الغزاة ؛ **فقال المطيع : « إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي ؛ وتجبى الأموال إلي ؛ وأما إذا كانت حالي هذه ؛ فلا يلزمني شيء من ذلك ؛ وإنما يلزم من البلاد في يده ؛ وليس لي إلا الخطبة ؛ فإن شئتم أن أعتزل فعلت »** . وترددت الرسائل بينهما ؛ حتى بلغوا إلى التهديد ؛ فبذل (المطيع لله) أربعمائة ألف درهم ؛ واحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك ؛ وشاع بين الناس من العراقيين وحجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر . **فلما قبض (بختيار) المال ؛ صرفه في مصالحه ؛ وبطل حديث الغزاة .**

عاود الروم هجومهم في السنة التالية (٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م). وكان ما أحرزه الدمستق من انتصاراته في غزوه لديار ربيعة وديار بكر ، ونهبه لها ؛ وعدم ممانعة أحد له ؛ سبباً في تغذية طمع الدمستق بإمكان استيلائه على (آمـد) فسار إليها. وكان (هزارمرد) غلام أبي الهيجاء بن حمدان ـ يدافع عنها ، فكتب إلى (أبي تغلب) يستصرخه ويستنجده ويعلمه خطورة الموقف. فسير (أبو تغلب) أخاه في الحال (أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة) واجتمعا على حرب الدمستق ؛ وسارا إليه فلقياه في كثرة ؛ لكنهما لقياه في مضيق لا تجول فيه الخيل ؛ والروم على غير أهبة ؛ فانهزموا ؛ وأخذ المسلمون الدمستق أسيراً ؛ ولم يزل محبوساً إلى أن مـرض سنـة ثلاث وستين وثلاثمائـة ؛ فبالغ أبو تغلب في علاجه ؛ وجمع الأطباء ؛ فلم ينفعه ذلك ؛ ومات.

أفاد (عز الدولة بختيار الشريف ـ البويهي) من ضعف الحمدانيين فسار إلى الموصل بهدف الاستيلاء عليها (سنة ٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م) ودارت وقائع واشتباكات انتهت بعقد الصلح. إلى أن كانت سنة (٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م) فاستولى (عضد الدولة) على ملك بني حمدان ؛ وخضع بنو حمدان للبويهيين. ولم يعد لهم دور لا في الحكم ولا في

الجهاد على الثغور الجزرية؛ بسبب خروج الموصل وميافارقين وآمـد وغيرها من ديار بكر. أما بالنسبة للثغور الشامية؛ فقد بقيت في قبضة (أبي المعالي بن سيف الدولة). إلا أن ضياع القسم الشرقي من المملكة الحمدانية قد أدى إلى اضعاف (حكم أبي المعالي ـ في حلب). وكانت دولة الروم تعاني بدورها ظروفاً صعبة، سواء على جبهتها الداخلية؛ أو على جبهتها الغربية ـ مع البلغار ـ مما أدى إلى حدوث تقارب بين الروم والحمدانيين سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م. حيث ذكر ما يلي: «عمل باسيليس بن أرمانوس ملك الروم، على تعيين (ورد) المعروف باسم (سقلاروس) دمستقاً؛ فلما استقر ورد في الولاية أظهر تمرده على ملك الروم؛ وعصاه؛ فاستعان ملك الروم بأبي تغلب بن حمدان ـ وصاهره؛ ولبس التاج؛ وطلب الملك».

يمكن بعـد ذلـك تجاوز الصراعـات الصغـرى بين (الحمـدانيين) في حلـب وبين (الفاطميين) الذين كانوا يحكمون دمشق؛ للوصول إلى ما حدث سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م، حيث توفي (سعد الدولة أبو المعالي بن سيف الدولة بن حمدان) وعهد إلى ابنه (أبي الفضائل) بالحكم من بعده. وفي هذه الفترة؛ أصدر العزيز حاكم مصر أمره بتـوجيـه جيش مـن دمشـق بقيـادة (منجـوتكين) للاستيلاء على (حلـب) فســار (منجوتكين) في جيش كثيف ووصل إلى حلب وحصرها وبها (أبو الفضائل) الذي أسرع بالكتابة إلى ملك الروم (باسيل) يستنجده، وكان (باسيل) يخوض حرباً مع (البلغار) فأرسل إلى نائبه بانطاكية؛ وأمره بإنجاد أبي الفضائل ـ فسار في خمسة آلاف ـ وقيل خمسين ألفاً ـ رجل. ونزل على الجسر الجديد بالعاصي؛ فلما سمع منجوتكين الخبر، سار لقتال الروم قبل وصولهم إلى حلب واجتماعهم (بأبي الفضائل) ودارت معركة حاسمة انتصر فيها (منجوتكين) وجمع من رؤوس قتلى الروم نحو عشرة آلاف رأس، انفذت إلى مصر؛ وشهرت بها. وتبع منجوتكين الروم إلى انطاكية. فنهب بلدها وقراها وأحرقها؛ وقام (أبو الفضائل) بنقل الغلال إلى حلب؛ وأحرق الباقي اضراراً بعساكر مصر. ولما عاد (منجوتكين) الى حلب وحاصرها، جرت مفاوضات بينه وبين (أبي الفضائل) الذي أغرى (منجوتكين) بالانسحاب

ورفع الحصار مقابل مبلغ من المال. وقبل (منجوتكين) العرض؛ وعاد إلى دمشق. فلما علم العزيز بذلك؛ غضب وكتب باعادة الجيش إلى حلب، وأرسل التموين من مصر إلى طرابلس عن طريق البحر، لنقله إلى الجيش أثناء حصار حلب. وقام جيش مصر بحصار حلب لمدة ثلاثة عشر شهراً. فقلت الأقوات بحلب؛ وعاد (أبو الفضائل) فكتب إلى ملك الروم: «متى ضاعت حلب ضاعت انطاكية وعظم عليك الخطب». وكان ملك الروم ـ باسيل ـ قد توسط بلاد البلغار فعاد بسرعة، واضطر جيش مصر للانسحاب، ووصل ملك الروم فنزل على باب حلب؛ وخرج إليه أبو الفضائل؛ ورحل باسيل إلى الشام؛ ففتح حمص وشيزر ونهبها؛ وسار إلى طرابلس فنازلها؛ فامتنعت عليه؛ وأقام عليها نيفاً وأربعين يوماً، فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم.

هكذا تحول الصراع المرير بين الحمدانيين وبين الروم إلى تعاون وتحالف؛ وكان الكسب لمصلحة الروم الذين كان باستطاعتهم حشد قوات اكبر من تلك التي كان يستطيع حشدها أي طرف من الأطراف المتصارعة في ظل حكم الخليفة العباسي. أما بالنسبة للحمدانيين في حلب؛ فقد ضعف أمرهم؛ وأصبحت حلب تابعة للفاطميين في مصر (سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) حيث تولى حكمها (صالح بن مرداس). وكانت تلك النهاية المحزنة للحمدانيين هي البداية لصفحة جديدة من الصراع المسلح.

٢ ـ الاتراك السلاجقة :

ا ـ الروم ومناوراتهم بين مراكز القوى

ب ـ السلاجقة وجهاد الروم .

جـ ـ ملازكرد .

ا - الروم ومناوراتهم بين مراكز القوى

لئن كان للحمدانيين أيام قوتهم؛ وفي عهد سيف الدولة بصورة خاصة؛ شرف حماية الثغور والدفاع عنها؛ وحماية المسلمين من غدر الروم وعدوانهم؛ فإن تلك النهاية المحزنة التي انتهوا إليها؛ واستنصارهم بالروم ثم استنصار الروم بهم؛ قد أفسح المجال الرحب لتبديل السياسة الاستراتيجية للحروب؛ ولتغيير مفاهيم الصراع. الأمر الذي ساعد الروم على توسيع مجال مناوراتهم السياسية بين مراكز القوى الاسلامية؛ واستثمار التناقضات بين هذه المراكز لزيادة نفوذها على حساب المسلمين. ولقد اظهرت مسيرة الصراع على الثغور هذه الحقيقة بشكلها الواضح. **ففي سنة ٤٢٥ هـ = ١٠٣٤ م؛ كانت هناك قلعة متاخمة للأرمن تعرف باسم (قلعة بركوي). وكانت هذه القلعة تحت حكم (أبي الهيجاء - ابن ربيب الدولة ابن أخت وهودان بن مملان) فتنافر هو وخاله؛ فأرسل خاله الى الروم فأطمعهم فيها؛ فسير ملك الروم إليها جمعاً كثيراً فملكوها. فبلغ الخبر الى الخليفة. فأرسل الى أبي الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة؛ فاصطلحا؛ ولم يتمكنا من استعادتها؛ واجتمع اليها خلق كثير من المتطوعة فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم.**

وفي السنة التالية: ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م. كان (نصر الدولة بن مروان) هو الذي يحكم الجزيرة (ديار ربيعة) فثار عليه (ابن وثاب النميري). وجمع جمعاً كثيراً من العرب وغيرهم، واستنجد بالروم الذين كانوا يقيمون (بالرها) فسار معه منهم جيش كثيف؛ وقصد بلد (نصر الدولة بن مروان) ونهب وأخرب. فجمع ابن مروان جموعه وعساكره؛ واستمد (قرواشاً بن المقلد العقيلي) الذي كان يحكم الموصل؛ وأتته الجنود من كل ناحية؛ فلما رأى ابن وثاب ذلك؛ وانه لا يتم له غرض عاد عن بلاده. وأرسل (ابن مروان) إلى ملك الروم يعاتبه على نقض الهدنة وفسخ الصلح الذي كان بينهما؛

وراسل أصحاب لأطراف يستنجدهم للغزاة؛ فكثر جمعه من الجند والمتطوعة؛ وعزم على قصد (الرها) (*) ومحاصرتها؛ فوردت رسل ملك الروم؛ يعتذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان؛ وأرسل الى عسكره الذين بالرها؛ والمقدم عليهم؛ واستنكر ما قاموا به؛ واهدى الى نصر الدولة هدية سنية؛ فترك ما كان عازماً عليه من الغزو وفرق العساكر المجتمعة عنده؛ وأفاد الروم من الهدنة المعقودة بينهم وبين حكام الثغور الجزرية؛ للقيام بالهجوم على الثغور الشامية؛ وذلك على أمل الاستيلاء على مغنم جديد كمثل ما فعلوه عند استيلائهم على قلعة (أفامية) (**) ولهذا سار جيش من الروم إلى ولاية حلب. فخرج اليهم (شبل الدولة بن صالح بن مرداس) (1) فتصافوا واقتتلوا فانهزمت الروم وتبعهم الى عزاز؛ وغنم غنائم كثيرة؛ وعاد سالماً.

(*) كانت (الرها) دائماً تحت حكم المسلمين؛ وتوفي حاكمها (عطير ـ وهو رجل من بني نمير) سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥م) فملكها نصر الدولة بن مروان. فتوسط حاكم حلب ـ صالح بن مرداس ـ لدى نصر الدولة ليعيد الرها الى ورثة عطير وهما: ابن عطير وابن شبل ـ وأن يقسمها بينهما الى نصفين؛ فقبل نصر الدولة الوساطة؛ وسلمها اليهما. وكان في الرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر، فتسلم ابن عطير الكبير؛ وابن شبل الصغير، وبقيت المدينة معهما الى سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م. فراسل ابن عطير ملك الروم ـ أرمانوس ـ وباعه حصته من الرها بعشرين الف دينار وعدة قرى من جلتها قرية حلت اسم (سن ابن عطير) وتسلموا البرج الذي له. ودخلوا البلد فملكوه، وهرب منه أصحاب ابن شبل. وقتل الروم المسلمين؛ وخربوا المساجد، وسمع نصر الدولة الخبر؛ فسير جيشاً الى الرها؛ فحصروها وفتحوها عنوة. واعتصم من بها من الروم بالبرجين؛ واحتمى النصارى بالبيعة التي لهم ـ الكنيسة ـ وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة؛ فحصرهم المسلمون بها؛ وأخرجوهم وقتلوا اكثرهم؛ ونهبوا البلد؛ وبقي الروم بالبرجين. فسير ملك الروم جيشاً من عشرة آلاف مقاتل؛ فانهزم اصحاب ابن مروان، ودخل الروم البلد وما جاورها من بلاد المسلمين. وصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج؛ وحمل إليهم خراجاً.

(**) استولى الروم على (أفامية) سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣١م. وكان السبب في ذلك هو قيام خليفة مصر الفاطمي ـ الظاهر ـ بتسيير جيش الى الشام بقيادة وزيره ـ الازبري ـ والذي تمكن من احتلال افامية، مما حمل حاكمها ـ حسان بن المفرج الطائي على الهرب الى الروم، حيث استقبله ملك الروم؛ ولبس خلعة ملكهم؛ وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب؛ ومعه عسكر كثير، فسار الى ـ أفامية ـ وباغتها، وغنم ما فيها وسبى اهلها وأسرهم.

(1) أصبحت حلب بعد الحمدانيين تحت حكم بني عقيل ثم بني مرداس ـ أو بني صالح ـ نسبة الى

على كل حال؛ وكما كانت اتفاقات الهدنة بين الروم والمسلمين؛ ذات صفة مؤقتة ومحكومة بمصلحة الروم وظروفهم؛ فكذلك كانت أيضاً بالنسبة للمسلمين. وهذا ما ظهر في سنة ٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م. عندما عاد (ابن وثاب وابن عطير) للصلح: والمصاهرة، وجمعا قواتهما؛ وأمدهما (نصر الدولة بن مروان) بجند كثيف. فساروا جميعهم الى ـ السويداء ـ وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت؛ واجتمع إليها أهل القرى المجاورة، فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة؛ وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، وغنموا ما فيها وسبوا خلقاً كثيراً؛ وقصدوا ـ الرها ـ فحصروها وقطعوا الميرة عنها؛ واشتد الأمر؛ فخرج حاكمها البطريق متخفياً؛ ولحق بملك الروم وعرفه الخبر، فسير معه خمسة آلاف فارس، فعاد بهم؛ وتوافرت المعلومات ـ لابن وثاب ومقدم عساكر نصر الدولة ـ عن تحرك قوة الروم؛ فنصبا كميناً؛ فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم، فقتل من الروم خلق كثير وأسر مثلهم وأسر البطريق؛ وحمل الى باب الرها وقيل لحاميتها: «إما أن تفتحوا البلد لنا؛ وإما قتلنا البطريق والأسرى الذين معـه». ففتحوا البلد لعجزهم عن حفظه والدفاع عنه؛ وتحصن جند الروم بالقلعة. ودخل المسلمون المدينة؛ وغنموا ما فيها؛ وامتلأت ايديهم من الغنائم والسبي. وأقام ـ ابن وثاب ـ محاصراً للقلعة؛ ثم إن (حسان بن الجراح الطائي ـ الذي كان متحالفاً مع الروم؛ سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة لحامية قلعة الرها؛ فسمع ابن وثاب بقربه، فسار إليه بسرعة ليلقاه قبل وصوله؛ فخرج الروم من قلعة الرها الى حران، فقاتلهم أهلها؛ وعندما علم (ابن وثاب) بذلك عاد مسرعاً؛ وقاتل الروم؛ فقتل منهم جمعاً كبيراً. وعاد المنهزمون الى الرها. واستمر الصراع حتى سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م. حيث عقد (صالح بن وثاب) صلحاً مع حاكم الروم في ـ حران ـ وتم بموجبه تسليم ربض الرها للروم. فعمر الروم ـ الرها ـ العمارة الحسنة

= مؤسس دولتهم (صالح بن مرداس) وهو من بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة كان ملكاً للرحبة بضواحي حلب. وتعتبر فترة حكم صالح بن مرداس لحلب (٣٩٩ ـ ٤١٩ هـ = ١٠٠٨ ـ ١٠٢٨ م) هي الفترة الرئيسية لحكم بني مرداس، إذ لم تلبث دولته ان انهارت بعد قتله على أيدي الفاطميين، الذين وجهوا جيشاً تمكن من قتل صالح وابنه الأصغر. مما أغرى الروم على ارسال جيش في محاولة للاستيلاء على حلب (تاريخ ابن خلدون ٤ / ٥٨٠ ـ ٥٨٨).

وحصنوها. **وأقدم حاكم مصر، الخليفة العلوي المستنصر بالله؛ على مهادنة ملك الروم، وشرط عليه إطلاق سراح خمسة آلاف اسير مسلم. ومقابل ذلك شرط الروم عليه ان يعمروا بيعة قمامة ـ كنيسة ـ فأرسل ملك الروم إليها من عمرها وأخرج عليها مالاً جليلاً**. غير أن هذه المهادنة لم تستمر طويلاً؛ ففي سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م. تجددت الحرب، وجرى نقض الهدنة؛ وكان السبب في ذلك هو أن ملك الروم شرع في مراسلة حاكم حلب ـ صالح بن مرداس ـ في محاولة لاستمالته والتعاون معه ضد المستنصر ـ ونائبه في بلاد الشام الأزبري ـ وعلم الأزبري بذلك؛ فأرسل الى صالح يتهدده ويتوعده فاعتذر صالح للأزبري ـ ثم إن جمعاً من بني جعفر بن كلاب دخلوا ولاية ـ أفامية ـ فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى، فخرج عليهم جمع من الروم فقاتلوهم وأوقعوا بهم ونكثوا فيهم؛ وأزالوهم عن بلادهم. وبلغ ذلك حاكم حلب فأخرج من كان بها من تجار الفرنج؛ وأرسل الى المتولي بأنطاكية يأمره بإخراج من عنده من تجار المسلمين؛ فأغلظ متولي انطاكية للرسول؛ وأراد قتله ثم تركه. فأرسل حاكم حلب الى (الأزبري) وأعلمه ان الروم يتجهزون لغزو بلاد المسلمين؛ فجهز الأزبري جيشه؛ وسار على مقدمته، فاتفق انهم لقوا جيشاً للروم؛ وقد خرج لمثل ما خرج إليه هؤلاء. والتقى الفريقان بين مدينتي حماة وأفامية؛ واشتد القتال بينهم، ثم إن الله نصر المسلمين وأذل الكافرين، فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة، وأسر ابن عم للملك.

عرفت الثغور بعدها هدنة حتى سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧م حيث تجددت الهدنة بين صاحب مصر وبين ملك الروم. وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة.

وفي هذه السنة ذاتها؛ ظهر رجل اسمه ـ الأصغر التغلبي ـ في مدينة ـ رأس عين ـ **وجمع جمعاً وغزا نواحي الروم؛ وأوغل وغنم وظهر حديثه وقوي أمره. وعاود الغزو** بعدد أكبر من المرة الأولى، فظفر وغنم أضعاف ما غنمه من قبل؛ وتسامع الناس به فقصدوه، وكثر جمعه؛ وثقلت على الروم وطأته. فأرسل ملك الروم الى ـ نصر الدولة ابن مروان ـ وقال له: انك تعرف بما بيننا من الموادعة، وقد فعل هذا الرجل هذه الافاعيل؛ فإن كنت قد رجعت عن المهادنة فعرفنا لندبر أمرنا بحسبه. واتفق في ذلك

الوقت ان وصل رسول من ـ الأصغر ـ الى نصر الدولة أيضاً ؛ ينكر عليه ترك الغزو ؛ والميل الى الدعة ؛ فساءه ذلك أيضاً ؛ واستدعى قوماً من بني نمير ، وقال لهم : « إن هذا الرجل قد أثار الروم علينا ؛ ولا قدرة لنا عليهم » . وبذل لهم مالاً للفتك به ، فساروا اليه ؛ فقربهم ؛ ولازموه ؛ فركب يوماً غير متحرز ، فأبعد وهم معه ، فعطفوا عليه وأخذوه وحملوه الى نصر الدولة بن مروان ؛ فاعتقله . وتلافى أمر الروم .

ب ـ السلاجقة وجهاد الروم

خضعت تركستان لحكم اسرة السامانيين ـ الفارسية ـ في القرن العاشر الميلادي . وأهم ما قامت به هذه الأسرة في التاريخ هو أنها حملت الترك بوسط أسيا على اعتناق الاسلام . وتوجهت أنظار الترك منذ هذا التاريخ نحو الجنوب الغربي من آسيا وشرقي البحر الأبيض المتوسط . ثم برز أول أمير تركي مسلم ـ محمود الغزنوي ـ فطرد السامانيين واحتل مكانهم . ولم يلبث ان أقام امبراطورية ضخمة ، امتدت من اصفهان الى بخارى ولاهور . وانطلقت مجموعات من الاتراك المسلمين في ارتياد اقاليم العالم الاسلامي ؛ فنظم الخليفة العباسي ببغداد فرقاً من الترك ؛ وفعل مثله عدد من امراء المسلمين في الاقاليم . **غير أن أكبر تجمع لهؤلاء الترك هو تجمع عشيرة الترك الغز ـ الذين كانوا من رعايا الغزنويين ـ في براري الآرال ـ وعرفوا باسم ـ السلاجقة ـ .** وقد ألف امراء السلاجقة اتحاداً جمع شملهم : ووحد قدرتهم ، وأفادوا من دعم جموع التركمان الكثيرة العدد لتوسيع سلطاتهم ؛ فلما كانت سنة ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م مات محمود الغزنوي . فخرج السلاجقة على سلطة الغزنويين ، وفي سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م طردوهم الى حيث اتخذوا لهم مستقراً في أملاكهم بالهند . ودخل (طغرل بك) زعيم السلاجقة ـ مدينة اصفهان سنة ٤٤٢ هـ = ١٠٥٠ م . وجعل منها عاصمة له ؛ وشملت دولته بلاد فارس وخراسان . بينما استقر اخوته وابناء عمومته في الجهات التي تتاخم املاكه في الشمال . وأضحى للسلاجقة القدرة والحرية للاغارة على البلاد المجاورة . وفي سنة ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م ، وبناء على دعوة الخليفة العباسي الذي أزعجه ما دبره ضده من مؤامرات ؛ وزيره التركي البساسيري بالاشتراك مع حكام مصر الفاطميين ـ . دخل طغرل الى بغداد ؛ على أنه حامي المذهب السني ـ واتخذ لقب ملك المشرق والمغرب .

لقد ارتبط تاريخ الاتراك السلاجقة بالصراع على الجبهة الداخلية لتوحيد جهود المسلمين السنة ضد المذاهب المختلفة ـ وخاصة ضد الشيعة الفاطميين ـ وعلى الجبهة الخارجية بالجهاد في سبيل الله ـ ضد الروم خاصة ـ ففي سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤م. سار طغرل بك الى أذربيجان وقصد تبريز، حيث أعلن حاكمها الخضوع وحمل إليه ما أرضاه، وأعطاه ولده رهينة. وفعل مثل ذلك في عدد من الأقاليم، ثم سار الى ارمينية، وقصد (ملازكرد) التي كانت تحت حكم الروم، فحصرها وضيق عليها. ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها، فأرسل اليه صاحب دياربكر ـ نصر الدولة بن مروان ـ الهدايا الكثيرة والعساكر، وكان قد خطب له قبل هذا الوقت وأطاعه ـ وأنجز طغرل بك في غزو الروم انجازات عظيمة، ونال منهم من النهب والقتال والقتل والأسر شيئاً كثيراً، وبلغ في غزوته هذه الى ـ أرزن ـ ثم عاد الى أذربيجان مع هجوم فصل الشتاء، ولم يتمكن من فتح (ملازكرد) التي كانت مدينة قوية التحصين. وأعلن أنه سيقيم الى ان ينقضي فصل الشتاء، ثم يعود ليتم غزاته. وتوجه الى الري. فلما كانت السنة التالية، دخل طغرل بك بغداد ـ في موكب عظيم، ومنحه الخليفة لقب (السلطان) وصار يخطب له ـ بعد الدعاء للخليفة على المنابر ـ.

انصرف طغرل بك لإعادة تنظيم الدولة، بعد أن منحه الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) (*) السلطة المطلقة، وكان عليه القضاء على خصوم الدولة العباسية وعلى مراكز

(*) في الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٤٤٩ ـ نص استقبال الخليفة للسلطان طغرل بك ـ وتكليفه كما يلي: «جلس الخليفة جلوساً عاماً، وحضر وجوه عسكر السلطان طغرل بك وأعيان بغداد، وحضر السلطان في الماء، وأصحابه حوله في السميريات ـ الزوارق ـ فلما خرج من السميرية ـ أركب فرساً من مراكب الخليفة، فحضر عند الخليفة، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع، وعليه بردة النبي ﷺ وبيده القضيب الخيزران، فقبل السلطان الأرض، وقبل يده، وأجلس على كرسي، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء، قل له: «ان أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامد لفعلك، مستأنس بقربك. وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده، ورد عليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية». فقبل طغرل بك الأرض، وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه، فقام إلى موضع لبسها فيه، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه. وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب. وأعطى العهد، وخرج، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسين ألف دينار، وخمسين مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وسواها.

القوى المختلفة التي أضعفت من قدرة الدولة. وكان له في أخيه (جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق) (*) عوناً كبيراً، ولكن وفاة أخيه لم تفقده هذا العون؛ فقد جاء ابن أخيه (ألب ارسلان) ليعمل على دعم عمه (طغرل بك) ومساعدته ومشاركته في حمل اعباء الحكم والجهاد. لاسيما في القضاء على نفوذ الفاطميين في بغداد؛ والذي كان يتزعمه الوزير التركي ـ البساسيري ـ والذي كان قد خرج من بغداد عند دخول طغرل بك اليها، ثم توجه الى الانبار واستولى عليها، ثم استولى على الموصل؛ وقوي شأنه؛ وانضم إليه جمع كبير. ثم عاد إلى بغداد؛ مستفيداً من غياب (طغرل بك) وخطب بجامع المنصور للمستنصر بالله العلوي ـ صاحب مصر ـ وأمر فأذن (بحي على خير العمل) بدلاً من (حي علي الصلاة ـ حي على الفلاح) وهي العبارة التي كان يؤذن بها العلويون. واستفحل الخطب مما حمل الخليفة العباسي لمغادرة بغداد ـ الى ان عاد (طغرل بك) فأعاد الخليفة الى بغداد؛ وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله (سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م).

يظهر أن الناس قد قبلوا بالحكم الفاطمي ـ في بلاد الشام ـ على كره منهم؛ ولهذا فما إن ظهر التحرك المضاد بقيادة السلاجقة، حتى بدأت حركة انتفاضة عامة ضد تسلط المتشيعين. وكانت حلب والرحبة أول من اعلن تمرده على الفاطميين (سنة ٤٥٣ هـ) وكان حاكم ديار بكر (نصر الدولة بن مروان الكردي) (**) هو أول من أعلن

(*) جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق: ٣٨٢ ـ ٤٥٢ هـ = ٩٩٢ ـ ١٠٦٠ م. كان حاكم خراسان، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة؛ معترفاً بنعمة الله تعالى عليه. كتب الى أخيه طغرل بك: «بلغني إخرابك البلاد التي فتحتها وملكتها؛ وجلا أهلها عنها؛ وهذا ما لا خفاء به مخالفة أمر الله تعالى في عباده وبلاده: وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وايحاش الرعية. وقد لقينا أعداءنا في قلة فغلبناهم... واستولينا على ممالك خراسان وطبرستان وسجستان. وصرنا ملوكاً متبوعين بعد أن كنا أصاغر تابعين. وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها هذه المقابلة» فرد عليه طغرل بك: «يا أخي، أنت ملكت خراسان وهي بلاد عامرة فخربتها؛ ووجب عليك مع استقرار قدمك فيها عمارتها. وأنا وردت بلاداً أخربها من تقدمني. واجتاحها من كان قبلي: فما أتمكن من عمارتها والاعداء محيطة بها» ابن الأثير ـ احداث سنة ٤٥١ هـ.

(**) نصر الدولة بن مروان الكردي (٣٧١ ـ ٤٥٣ هـ = ٩٨١ ـ ١٠٦١م) صاحب ديار بكر؛ ولقبه القادر بالله. حكم بلاده بحزم. وعمر الثغور، وتنعم تنعماً لم يسمع بمثله عن أحد. وهو من أشهر

تعاونه مع (طغرل بك). ولم تغير وفاته شيئاً من العلاقة بالسلاجقة؛ فقد خلفه ابنه ـ نصر الدولة ـ في ميافارقين بينما تولى الابن الآخر ـ سعيد ـ حكم آمـد. واستمر في التعاون مع السلاجقة.

لم تكن غزوات (طغرل بك) للروم كثيرة، غير ان هذه الغزوات تميزت بقوة كبيرة حملت الهلع الى قلوب الروم؛ وكان (طغــرل) قد أسر بعض ملوك الروم؛ ودفع شقيق الملك فداء لاطلاق سراحه ما مقداره اربعمائة ألف دينار؛ فلم يقبل منه. مما حمل ملك الروم على الكتابة الى (نصر الدولة بن مروان الكردي) للوساطة بينه وبين (طغـرل بك) لاطلاق سراح شقيقه. فأرسل نصر الدولة رسالة ملك الروم مع التماس الاجابة عليها الى طغرل بك، واستجاب طغرل بك فأطلق سراح شقيق الملك بدون فداء؛ وحمله ما لم يحمل في الزمان المتقدم؛ وهو ألف ثوب ديباج وخمسمائة ثوب أصناف وخمسمائة رأس من الكراع الى غير ذلك؛ كما أرسل مائتي ألف دينار ومائة لبنة فضة وثلاثمائة حمار مصرية وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون. كما أرسل إلى ابن مروان هدية شملت عشرة أمناء مسكاً، مما حمل ملك الروم على بناء الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك الاموي بالقسطنطينية، ورفع منارته؛ وعلق فيه القناديل؛ وجعل في محرابه قوساً ونشابة وأشاع المهادنة بينه وبين المسلمين. وهكذا توفي (طغرل بك) (*) وقد ترك دولة مهيبة الجانب؛ قوية الأركان، ثابتة البنيان.

صار باستطاعة خليفة طغرل بك في حكم الأتراك السلاجقة (ألب أرسلان) أن ينصرف لقتال الروم، وهكذا سار في سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م ـ من الري الى أذربيجان، فلما كان بمرند، انضم إليه أمير من أمراء التركمان ممن كانوا يكثرون غزو

= ملوك بني مروان. ودولته هي احدى الدويلات التي تفرعت عن دولة بني حمدان (وهي ثلاث دويلات: دويلة بني المقلد في الموصل، ودويلة بني صالح بن مرداس بحلب، ودولة بني مروان في ديار بكر). غير أن دويلة بني مروان هي دويلة كردية، وانتهى أمر هذه الدويلة باستيلاء الأتراك السلاجقة عليها.

(*) السلطان طغرل بك: (٣٨٥ ـ ٤٥٥ هـ = ٩٩٥ ـ ١٠٦٣م) كان عقيماً، ولم يلد ولداً، كان عاقلاً حليماً، من أشد الناس احتمالاً واكثرهم كتماناً لسره. كان يحافظ على الصلوات وبصوم الاثنين والخميس، وكان لبسه الثياب البياض، وكان قاسياً، وكريماً، وقد حكم بحضرة الخلافة العباسية سبع سنين وأحد عشر شهراً. ولقد خلفه ابن اخيه (ألب ارسلان) وبويع لأخيه سليمان من بعده.

الروم ـ واسمه طغدكين ـ ومعه عشيرته كثيرة العدد وجميعهم قد ألفوا الجهاد في سبيل الله في تلك البلاد وعرفوا مسالكها؛ وتعهد بقيادة الحملة، فسار بها عبر المضائق والمسالك الصعبة؛ فوصل الى نقجوان؛ وأمر بعمل السفن لعبور نهر أرس؛ وهناك انضم إليه منَ الملوك والعساكر ما لا يحصى ممن قدموا من خوى وسلماس وأذربيجان. فلمّا فرغ من حشد العساكر والسفن سار إلى بلاد الكرج ـ أرمينيا ـ وجعل ألب أرسلان مكانه ابنه ـ ملك شاه ـ ووزيره ـ نظام الملك ـ وسار ملك شاه ونظام الملك الى قلعة فيها جمع كثير من الروم؛ فنزل أهلها، وقاتلوا جند المسلمين؛ وقتلوا منهم فئة كثيرة؛ فنزل ملك شاه ونظام الملك؛ وقاتلوا من بالقلعة، وزحفوا إليهم؛ فقتل أمير القلعة، وملكها المسلمون؛ وأنزلوا منها أهلها. وساروا منها الى قلعة ـ سرماري ـ وهي قلعة فيها المياه الجارية والبساتين؛ فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها. وكان بالقرب منها قلعة أخرى، ففتحها ملك شاه وأراد تخريبها، فنهاه نظام الملك عن ذلك؛ وقال له: «إنها ثغر للمسلمين» وشحنها بالرجال والذخائر والأموال والسلاح؛ وسلّم هذه القلاع الى أمير نقجوان ـ. وسار ملك شاه ونظام الملك الى مدينة ـ مريم نشين ـ وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى؛ وعامتهم يتقرّبون إلى أهل هذه البلدة؛ وهي مدينة حصينة سورها من الأحجار الكبار الصلبة والمشدودة بالرصاص والحديد وعندها نهر كبير. فأعد ـ نظام الملك ـ لقتالها ما يحتاج إليه من السفن وغيرها؛ وقاتلها؛ وواصل قتالها ليلاً ونهاراً؛ وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة؛ فضجر الكفّار وأخذهم الإعياء والكلال؛ فوصل المسلمون الى سورها؛ ونصبوا عليها السلالم؛ وصعدوا إلى أعلاه؛ لأن المعاول كلت عن نقبه لقوة حجره؛ فلما رأى أهلها المسلمين على السور؛ فت ذلك في أعضادهم وسقط في أيديهم، ودخل ملك شاه ومعه نظام الملك البلد؛ وأحرقوا البيع ـ الكنائس ـ وخربوها؛ وقتلوا كثيراً من أهلها؛ وأسلم كثير فنجوا من القتل؛ واستدعى ـ ألب أرسلان ـ إليه ابنه ونظام الملك؛ وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده؛ وفتح لملك شاه في طريقه عدة من القلاع والحصون، وأسر من النصارى ما لا يحصون كثرة، وساروا الى ـ سبيذشهر ـ فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها كثير من المسلمين؛ ثم إن الله تعالى يسّر

فتحها؛ فملكها ـ ألب أرسلان ـ وسار منها الى مدينة ـ أعال لال ـ وهي حصينة عالية الأسوار؛ شاهقة البنيان، وهي من جهة الشرق والغرب على جبل عال؛ وعلى الجبل عدة من الحصون؛ ومن الجانبين الآخرين نهر كبير لا يخاض، فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها. وكان ملكها من الكرج. فعقد السلطان ـ ألب أرسلان ـ جسراً على النهر عريضاً؛ واشتد القتال؛ وعظم الخطب؛ فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الأمان؛ والتمسا من السلطان أن يرسل معهما طائفة من الجند، فسيّر معهما جمعاً صالحاً؛ فلما جازوا الفصيل، أحاط بهم الكرج من أهل المدينة؛ وقاتلوهم؛ فأكثروا القتل فيهم؛ ولم يتمكن المسلمون من هزيمتهم لضيق المسلك؛ وخرج الكرج من البلد وقصدوا عسكر المسلمين؛ واشتد القتال، وكان السلطان ـ ألب أرسلان ـ ذلك الوقت يصلي؛ فأتاه الصريخ؛ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته وركب وتقدّم إلى الكفار فقاتلهم؛ وكبر المسلمون عليهم فولوا منهزمين ودخلوا البلد والمسلمون معهم. ودخلها السلطان ألب أرسلان وملكها؛ واعتصم جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة، فقاتلهم المسلمون؛ فأمر السلطان بإلقاء الحطب حول البرج وإحراقه، فتم ذلك وأحرق البرج ومن فيه. وعاد السلطان الى خيامه، وغنم المسلمون من المدينة ما لا يعد ولا يحصى. ولما جنّ الليل عصفت ريح شديدة؛ وكان قد بقي من تلك النار التي أحرق بها البرج بقية كثيرة؛ فأطارتها الريح؛ فاحترقت المدينة بأسرها. وملك السلطان قلعة حصينة كانت الى جانب تلك المدينة وأخذها وسار منها إلى ناحية ـ فرس ـ ومدينة ـ آني ـ وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما ـ دسل ورده ـ و ـ نورة ـ فخرج أهلها مذعنين للمسلمين؛ وخربوا البيع ـ الكنائس ـ وبنوا المساجد. وسار منها إلى مدينة ـ آني ـ فوصل إليها؛ فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لا ترام؛ ثلاثة أرباعها على نهر أرس والربع الآخر على نهر عميق، شديد التيار، حتى انه لو طرحت فيه الحجارة الكبار لدحاها وحملها. ويمر الطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصم. وهي بلدة كبيرة عامرة؛ كثيرة الأهل، فيها ما يزيد على خمسمائة بيعة ـ كنيسة ـ فحصرها السلطان ألب أرسلان؛ وضيق عليها؛ إلاّ أن المسلمين قد أيسوا من فتحها؛ لما رأوا من حصانتها. فعمل السلطان برجاً من خشب، وشحنه بالمقاتلة؛

ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب؛ فكشفوا الروم عن السور. وتقدّم المسلمون إليه لينقبوه. فأتاهم من لطف الله ما لم يكن في حسابهم؛ فانهدمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب؛ فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى، بحيث ان كثيراً من المسلمين عجزوا عن دخول البلد من كثرة القتلى. وأسروا نحواً مما قتلوا. وسارت البشرى بهذه الفتوح في البلاد؛ فسرّ المسلمون؛ وقرىء كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة. فبرز خط الخليفة بالثناء على ـ ألب أرسلان ـ والدعاء له. وقام ـ ألب أرسلان ـ بتنظيم أمور الاقاليم التي فتحها الله عليه؛ وعين لها قائداً ـ أميراً ـ وترك له جيشاً كبيراً؛ وعاد عنها. وراسله ملك الكرج في الهدنة؛ فصالحه على أداء الجزية كل سنة؛ فقبل منه ذلك. وانصرف ـ ألب أرسلان ـ الى أصفهان ـ أو أصبهان ـ ثم الى كرمان فأعاد تنظيم مملكته؛ وانتقل إلى الري ومرو وسواها؛ ووطد علاقاته بالغزنويين والأتراك في بلاد ما وراء النهر ـ افغانستان حالياً ـ.

ج ـ ملازكرد

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي اصطدم فيها الروم بقوة جديدة من قوى المسلمين؛ ولهذا لم يكن غريباً عليهم أن يجرّبوا سبر ـ أو اختبار ـ القدرة القتالية للسلاجقة، فأقبل ملك القسطنطينية (سنة ٤٦٢ هـ = ١٠٦٩ م) وهو يجر جيشاً كثيفاً؛ وقصد بلاد الشام؛ ونزل على مدينة ـ منبج ـ القريبة من حلب؛ ونهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما من جموع العرب؛ وعاد إلى بلاده سالماً غانماً.

عرف حاكم حلب (محمود بن صالح بن مرداس) انه بحاجة لدعم قوة السلاجقة؛ وأن هذه القوة الجديدة هي اكثر قدرة من قوة الفاطميين الآخذة في التداعي؛ فجمع كبار أهل حلب وقال لهم. «هذه دولة جديدة؛ ومملكة شديدة؛ ونحن تحت الخوف منهم؛ وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم. والرأي ان نقيم الخطبة لأمير المؤمنين القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان، قبل ان يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل». وأجابه المشايخ إلى ذلك. ولبس المؤذنون السواد؛ وخطبوا للقائم بأمر الله والسلطان؛ وأرسل أمير المؤمنين الى (محمود) الخلع؛ مع نقيب النقباء؛ فلبسها. وصح ما

توقعه حاكم حلب (محمود بن صالح بن مرداس) فقد تحرك في هذه الفترة (من سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م) السلطان ألب أرسلان، وتوجّه الى ـ دياربكر ـ فخرج إليه صاحبها ـ نصر بن مروان ـ وخدمه بمائة ألف دينار، كما حمل له إقامة، وعندما عرف السلطان أن نفقات هذه الإقامة قد قسطت على البلاد أمر بردها. ووصل إلى ـ آمد ـ فرآها ثغراً منيعاً، فتبرّك به وجعل يمر يده على السور ويمسح بها صدره. وسار الى الرها وانحدر منها إلى حلب، وكان نقيب النقباء ـ أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبي ـ الذي سلم ـ محمود رسالة أمير المؤمنين القائم بأمر الله والخلع ـ موجوداً في حلب، فقال له محمود: «**أسألك الخروج الى السلطان، واستعفاءه لي من الحضور عنده**». فخرج نقيب النقباء، وأخبر السلطان ألب أرسلان بأن حاكم حلب قد لبس الخلع القائمية وخطب لأمير المؤمنين. فقال له ألب أرسلان: «**أي شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذنون ـ حي على خير العمل ـ. ولا بد من الحضور ودوس بساطي**». فامتنع محمود من ذلك، واشتد الحصار على البلد، وغلت الأسعار، وعظم القتال، وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد فوقع حجر منجنيق على فرسه، فلمّا عظم الأمر على محمود: خرج ليلاً ومعه والدته ـ منيعة بنت وثاب النميري ـ فدخلا على السلطان، وقالت له: «هذا ولدي، فافعل به ما تحب». فتلقاهما بالجميل، وخلع على محمود، واعاده إلى بلده: فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً. وعاد ألب أرسلان عن حلب. وعندما وصل الى ـ خوى ـ من أذربيجان، **علم ان ملك الروم ـ أرمانوس ـ قد خرج في مائتي ألف مقاتل** من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد.

وان هذا الجيش قد وصل **الى ـ ملازكرد، من أعمال خلاط ـ**. وكان ألب أرسلان قد فرق جيشه، فلم يتمكن من إعادة جمعها لبعدها وقرب العدو، فسير الأثقال مع زوجته ووزيره نظام الملك الى ـ همذان ـ **وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس،** وجدّ في السير، وقال لهم: «**إني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني ـ ملك شاه ـ ولي عهدي**». وساروا، فلما قارب العدو، جعل له مقدمة، فصادفت

مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف من الروم؛ فاقتتلوا؛ فانهزمت الروسية؛ وأسر مقدمهم وحمل إلى السلطان؛ فجدع أنفه؛ وأرسل الغنائم الى وزيره نظام الملك؛ وأمره أن يرسله إلى بغداد، فلما تقارب العسكران؛ أرسل السلطان ألب أرسلان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة؛ فأجابه ملك الروم؛ **« لا هدنة إلا بالري »** . فانزعج السلطان لذلك؛ فقال له إمامه وفقيهه ـ أبو نصر محمد بن عبدالملك البخاري الحنفي ـ: **« إنك تقاتل عن دين وعدالله بنصره وإظهاره على سائر الأديان؛ وأرجو ان يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة؛ بعد الزوال؛ في الساعة التي تكون الخطباء فيها على المنابر؛ فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر؛ والدعاء مقرون بالإجابة »** . فلما كانت تلك الساعة، صلى بهم؛ وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه؛ ودعا ودعوا معه؛ وقال لهم: **« من أراد الانصراف فلينصرف؛ فما ههنا سلطان يأمر وينهى »** . وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس؛ وعقد ذنب فرسه بيده؛ وفعل عسكره مثله؛ ولبس البياض وتحنط؛ وقال: « إن قتلت فهذا كفني ». وزحف الى الروم، وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء؛ ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه. فحصل المسلمون في وسطهم؛ وحجز الغبار بينهم؛ فقتل المسلمون فيهم كيف شاءوا. وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى، وأسر ملك الروم (*) وحمل الى السلطان ألب أرسلان؛ فضربه السلطان ثلاث مقارع بيده؛ وقال له؛ « ألم أرسل إليك في الهدنة؛ فأبيت؟ » وأجابه ملك الروم: « دعني من التوبيخ؛ وافعل ما تريد ». وسأله السلطان: « ما عزمت ان تفعل بي إن أنت أسرتني » وأجاب ملك الروم: « القبيح » وعاد السلطان فسأله: « فما

(*) ذكر ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٤٦٤ هـ ـ القصة الطريفة لأسر ملك الروم، بما يلي: « قام احد غلمان القائد ـ كوهرائين ـ بأسر ملك الروم، ولم يعرفه، وأراد قتله؛ فقال له خادم كان مع الملك: لا تقتله فإنه الملك؛ وكان القائد كوهرائين قد عرض هذا الغلام على الوزير ـ نظام الملك ـ فرده استحقاراً له؛ فأثنى عليه كوهرائين؛ فقال نظام المُلك: عسى ان يأتينا بملك الروم أسيراً. فكان كذلك. فلما أسر الغلام الملك احضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك؛ فأمر باحضاره ».

تظن أنني فاعل بك ؟ » . وأجاب ملك الروم : « إما أن تقتلني ؛ وإما ان تشهرني في بلاد الإسلام ؛ والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك » فقال له السلطان : « ما عزمت على غير هذا » . ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها ؛ وأن يطلق كل أسير مسلم في بلاد الروم .

واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله في خيمة ؛ وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهّز بها ؛ فأطلق له جماعة من البطارقة ؛ وخلع عليه من الغد . فقال ملك الروم : « أين جهة السلطان » فدل عليها ؛ فقام وكشف رأسه ؛ وأومأ إلى الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة . وسيره إلى بلاده ؛ وسير معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه ؛ وشيعه السلطان فرسخاً .

وأما الروم ، فلما بلغهم خبر الوقعة ؛ وثب ميخائيل على المملكة ، فملك البلاد ؛ فلما وصل الملك أرمانوس الى قلعة دوقية ؛ بلغه الخبر ، فلبس الصوف ؛ وأظهر الزهد ؛ وأرسل الى ميخائيل يعرفه ما تقرر مع السلطان ـ ألب أرسلان ـ وقال له : « إن شئت ان تفعل ما استقر ؛ وإن شئت أمسكت » . فأجابه ميخائيل بإيثار ما استقر ؛ وطلب وساطته ؛ وسؤال السلطان في ذلك . وجمع أرمانوس ما عنده من المال ؛ فكان مائتي ألف دينار ، فأرسله الى السلطان ألب أرسلان ؛ كما أرسل طبقاً ذهباً عليه جواهر بتسعين ألف دينار ، وحلف له أنه لا يقدر على غير ذلك . ثم إن أرمانوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم .

لم يعمر السلطان ألب أرسلان طويلاً بعد انتصاره هذا ؛ ففي السنة التالية (٤٦٥ هـ = ١٠٧٣ م) سار إلى بلاد ما وراء نهر جيحون ؛ وعقد جسراً على النهر ؛ وعبر عليه في نيف وعشرين يوماً وعسكره يزيد على مائتي ألف فارس ؛ فأتاه أصحابه بقائد متمرد في إحدى القلاع ؛ واسمه ـ يوسف الخوارزمي ـ وحمل الى قرب سرير السلطان ، مع غلامين ؛ فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه إليها ؛ فقال يوسف للسلطان : « يا مخنث ! مثلي يقتل هذه القتلة ؟ » فغضب السلطان ألب أرسلان ، وأخذ القوس والنشاب ؛ وقال للغلامين : خلياه . ورماه السلطان بسهم فأخطأه ـ ولم يكن

يخطىء سهمه ـ فوثب يوسف يريده والسلطان على سدة؛ فلما رأى يوسف وهو يسير نحوه؛ قام عن السدة ونزل عنها، فعثر فوقع على وجهه؛ فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، وأسرع إليه بعض الجند فقطعوه. وقال السلطان وهو يحتضر: « ما من وجه قصدته أو عدو أردته؛ إلا استعنت بالله عليه. ولما كان أمس، صعدت على تل؛ فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر؛ فقلت في نفسي؛ أنا ملك الدنيا؛ وما يقدر أحد علي؛ فعجزني الله تعالى بأضعف خلقه. وأنا أستغفر الله تعالى وأستقيله من ذلك الخاطر » وتوفي ـ ألب أرسلان ـ (*) وقد اتسع ملكه؛ وخطب له بحلب ومكة والمدينة، وخلفه ابنه ملك شاه.

عرفت الثغور والعواصم حالة من الهدوء والاستقرار بعد معركة ـ ملازكرد ـ فقد هيمن الأتراك السلاجقة على أرمينية؛ وأوغلوا في تقدمهم في أقاليم الروم؛ وغاب كل ذكر لتلك الحملات العسكرية المنتظمة ـ الصوائف ـ أو غير المنتظمة، والتي أخذت شكل أعمال اجتياح واسع بقوات كثيفة. ولعل من أبرز الأحداث التي وقعت بعد ذلك؛ استيلاء السلاجقة على انطاكية (سنة ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م) ففي هذه السنة كان (سليمان بن قتلمش) هو المتولي لحكم ـ قونية وأقصر وأعمالها ـ فسار الى انطاكية وملكها، وكانت بيد الروم من سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م فلما كانت هذه السنة؛ سار عنها حاكمها ـ الفردوس الرومي ـ الى القسطنطينية؛ بعد أن أقام فيها حامية قوية. إلاّ أن سكان المدينة وحتى الجند، كانوا من الناقمين على ـ الفردوس الرومي ـ بسبب ظلمه وسوء إدارته؛ فأفادوا من غيابه واتصلوا بسليمان بن قتلمش، واستدعوه لاستلام

(*) محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل بن سلجوق ـ ولقبه ألب أرسلان (٤٢٤ ـ ٤٦٥ هـ = ١٠٣٢ ـ ١٠٧٣ م) كان كريماً، عادلاً، عاقلاً، لا يسمع السعايات، اتسع ملكه جداً؛ ودان له العالم. وبحق قيل له ملك العالم. وكان رحيم القلب؛ رفيقاً بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي. وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم وأحكام الشريعة؛ ولما اشتهر بين الملوك حسن سيرته، مع محافظته على عهوده؛ أقبل عليه الملوك والأمراء، وأذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وساروا إليه من أقاصي ما وراء نهر سيحون وجيحون الى أقصى الشام. وكان شديد العناية بكف الجند عن أموال الرعية.

انطاكية؛ فركب البحر في ثلاثمائة فارس وكثير من المشاة ـ الرجالة ـ وخرج من البحر؛ وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة؛ حتى وصل إليها للموعد. فنصب السلاليم بالاتفاق مع حامية المدينة؛ وصعد السور، واجتمع بالحامية، وأخذ البلد، غير أن نفراً من أهل البلد حاولوا المقاومة؛ فقاتلهم وهزمهم مرة بعد أخرى. وقتل كثير من رجال المقاومة ثم عفا عنهم؛ وتسلم القلعة المعروفة باسم ـ القسيان ـ وأخذ من الأموال ما يجاوز الاحصاء؛ وأحسن الى الرعية؛ وأشاع فيهم العدل؛ وأمرهم ببناء ما تم تخريبه؛ ومنع أصحابه من النزول في دورهم ومخالطتهم. ولما ملك سليمان انطاكية ـ أرسل الى السلطان ـ ملك شاه ـ يبشره بذلك؛ وينسب هذا الفتح إليه؛ لأنه من أهلـه؛ وممن يتولى طاعته. فأظهر ملك شاه البشارة به وهنأه الناس (*) .

انصرف الأتراك السلاجقة لتوطيد سلطانهم، وخاضوا صراعاً مريراً ضد الفاطميين الذين تمكّنوا من بسط نفوذهم على مدينتي (القدس) و(دمشق) واللتين تمركز الصراع حولها. هذا فيما كان الغرب يعد العدة للقيام بالحرب الصليبية. وتسارعت الأحداث. وأقبلت جحافل الحملة الصليبية الأولى؛ فوصلت الى الشرق.. عن طريق القسطنطينية؛ واستولت على انطاكية ـ سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م.

وبدأت الحروب الصليبية.

(*) كان مما قاله الشاعر الأبيوردي بهذه المناسبة:

لمعت كناصية الحصان الأشقر ... نار بمعتلج الكثيب الأعفر
وفتحت انطاكية الروم التي ... نشزت معاقلها على الاسكندر
وطئت مناكبها جيادك فانثنت ... تلقي أجنتها بنات الأصفر.

٤ ـ الحروب على جبهة الشرق

ا ـ سبكتكين ودولته .

ب ـ يمين الدولة محمود في أعظم غزواته .

جـ ـ بناء الجبهة الداخلية .

د ـ على نهج السلف .

١ ـ سبكتكين ودولته .

وصف المؤرخ ابن خلدون دولة بني سبكتكين بقوله : « هذه الدولة من فروع دولة بني سامان ـ السامانية أو السامانيون ـ وناشئة عنها . وبلغت من الاستطالة والعز المبالغ العظيمة . واستولت على ما كانت عليه دولة بني سامان في عدوتي نهر جيحون وما وراء النهر وخراسان وعراق العجم وبلاد الترك وزيادة بلاد الهند . وكان مبدأ أمرهم على غزنة » (*) لم تكن دولة ـ سبكتكين ـ إلا استطالة لدول وكيانات سبقتها ـ مثل بني الصفار ـ أو الصفاريون ـ وبني سامان؛ ثم هي حلقة اتصال لما قام بعدها من كيانات مثل الغز والسلاجقة. غير أن دولة سبكتكين تميزت عما سبقها من الدول وعما تبعها بتوجيه الجهد الأكبر نحو الحروب الخارجية؛ اعلاء لدين الله واعزازاً له ودفاعاً عنه. وتعود بداية ظهور هذه الدولة إلى سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م حيث كان سبكتكين يومها صاحب جيش غزنة للسامانيين؛ وتوفي أمير غزنة ـ أبو اسحاق الساماني ـ دون أن يترك من يخلفه؛ فاجتمع قادة الجند؛ ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم. فاتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وعفته وصرامته. فقدموه عليهم؛ وولوه أمرهم؛ وحلفوا له؛ وأطاعوه. فوليهم وأحسن السيرة فيهم، وساس أمورهم سياسة حسنة، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال. ثم إنه جمع العساكر وسار نحو الهند مجاهداً، وجرى بينه وبين الهنود حروب يشيب لها الوليد. وكشف بلادهم وشن الغارات وطمع فيها وخافه الهند؛ ففتح من بلادهم حصوناً ومعاقل وقتل منهم ما لا يدخل تحت الاحصاء. واتفق له في بعض غزواته أن الهنود اجتمعوا في خلق كثير؛ وطاولوه الأيام؛ وماطلوه القتال؛ فعدم الزاد عند المسلمين وعجزوا عن الامتيار ـ الحصول على الميرة ـ فشكوا إليه ما هم فيه؛ فقال لهم: « إني استصحبت لنفسي شيئاً من السويق استظهاراً. وأنا أقسمه بينهم قسمة عادلة على السواء إلى أن يمن الله

(*) تاريخ ابن خلدون ٤ / ٧٧١ . طبعة دار الفكر ببروت

بالفرج». فكان يعطي كل انسان منهم ملء قدح، ويأخذ لنفسه مثل أحدهم، فيجتزىء به يوماً وليلة، وهم مع ذلك يقاتلون الكفار، فرزقهم الله النصر عليهم والظفر بهم، فقتلوا منهم وأسروا خلقاً كثيراً. ثم ان سبكتكين عظم شأنه وارتفع قدره وحسن بين الناس ذكره، وتعلقت الأطماع بالاستعانة به، فأخذ في توسيع حدود دولته على حساب خصومه، واستولى على ـ قصدار، وبست ـ فلما فرغ من ذلك عاد وغزا الهند، فافتتح قلاعاً حصينة على شواهق الجبال وعاد سالماً ظافراً، ولما رأى ملك الهند جيبال[1] انتقاص بلاده من أطرافها، حشد جيوشه، وجمع قواته، واستكثر من الفيلة. وسار لقتال سبكتكين، وقد باض الشيطان برأسه وفرخ. فسار سبكتكين عن غزنة للقائه، ومعه جيشه وعدد كبير من المجاهدين المتطوعة، فالتقوا واقتتلوا أياماً كثيرة، وصبر الفريقان. وجاء الشتاء بصواعقه وأمطاره وبرده الشديد، حتى هلك الهنود، وعميت عليهم المذاهب، واستسلموا لشدة ما عاينوه. وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب الصلح، وترددت الرسل، فأجابهم إليه بعد امتناع. وتم الاتفاق على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلاً يحملها إليه. ورهن عند سبكتكين جماعة من أهله حتى يتم تسليم البلاد. وسير معه ـ سبكتكين ـ من يتسلمها. فلما ابتعد ـ جيبال ـ بجيشه، قبض على من معه من المسلمين، وجعلهم عنده عوضاً عن رهائنه. فلما علم سبكتكين بذلك، جمع جيشه وسار نحو الهند، فأخرب كل ما مر عليه من بلادهم، وقصد ـ لمغان، أو لامغان ـ وهي من أحسن قلاعهم، فافتتحها عنوة، وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعار الإسلام. وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها، فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة. فلما علم بذلك الملك ـ جيبال ـ سقط في يده، وجمع جنده وسار في مائة ألف مقاتل، فلقيه سبكتكين، وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود، ففعلوا ذلك، فضجر الهنود من دوام القتال معهم، وحملوا حملة واحدة. فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب، وحمل أيضاً المسلمون جميعهم، واختلط بعضهم ببعض، فانهزم الهنود، وأخذهم السيف من كل جانب، وأسر منهم ما لا يعد، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة، وذل الهنود بعد هذه الوقعة، ولم يكن لهم بعدها راية، ورضوا بأن لا يطلبوا

(١) في ابن خلدون (جيال) وليس جيبال كما في ابن الأثير.

في أقاصي بلادهم. ولما قوي سبكتكين بعد هذه الوقعة، أطاعه الأفغانية والخلج. تابع سبكتكين جهاده على ثغور الهند ـ فيما كانت الدولة السامانية تعاني الضعف والمتاعب على جبهتها الداخلية؛ مما حمل أمير بخارى وسمرقند ـ الامير الرضا نوح بن منصور الساماني ـ إلى الاستعانة بمولاه وقائده ـ سبكتكين ـ ضد خصومه. وولاه سنة ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م ولاية خراسان فوجه سبكتكين ابنه محمود لدعم نوح ومساعدته، فأمكن بذلك القضاء على التمرد والاستيلاء على نيسابور. وأنعم الأمير نوح على سبكتكين بلقب ناصر الدولة. كما أنعم على ابنه محمود بلقب سيف الدولة ـ أو يمين الدولة وهو اللقب الذي اشتهر به وولاهما خراسان. فأحسنا السيرة، وأقام سبكتكين في هراة، بينما أقام محمود بنيسابور. لم يلبث (الأمير نوح)[١] أن توفي، وتبعه (سبكتكين)[٢] بعد فترة قصيرة. فاستولى محمود بن سبكتكين على الملك وأمضى السنوات الأولى من حكمه لتوطيد أمور دولته والقضاء على خصومه ومنافسيه، وتوسيع حدود دولته حتى سنة ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م حتى إذا ما فرغ من ذلك، صار بإمكانه العودة لحرب الثغور.

قاد يمين الدولة جيشه إلى بلاد الهند، فنزل على مدينة برشور، فأتاه الفاجر الكافر ملك الهند جيبال في جيش من اثني عشر ألف فارس وثلاثين ألف راجل وثلاثمائة فيل. فاختار يمين الدولة محمود من عساكره المطوعة خمسة عشر ألفاً وسار نحوه، فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان. فلما انتصف النهار انهزم الهند، وقتل فيهم مقتلة عظيمة، وأسر جيبال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته. وغنم المسلمون منهم أموالاً جليلة وجواهر نفيسة. وأخذ من عنق عدو الله ـ جيبال ـ قلادة من الجوهر العديم النظر قومت بثمانين ألف دينار ـ وقيل مائتي ألف دينار ـ وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي

---

(١) الأمير الرضا نوح بن منصور الساماني ـ (٣٥٢ ـ ٣٨٧ هـ = ٩٦٢ ـ ٩٩٧ م) ولي بخارى وسمرقند وعمره ثلاث عشرة سنة، وتعصب له عضد الدولة بن بويه، وأخذ له العهد والخلع من الخليفة الطائع على خراسان. فاقام على خراسان وما حولها احدى وعشرين سنة وتسعة أشهر، واختل بموته ملك آل سامان.

(٢) ناصر الدولة سبكتكين ـ مات سنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م. كانت مدة ملكه نحواً من عشرين سنة كان مقامه ببلخ، ومات بها، ودفن بغزنة. كان عادلاً خيراً كثير الجهاد حسن الاعتقاد، حسن العهد والوفاء.

الأسرى؛ وغنموا خمسمائة ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلاداً كثيرة. فلما فرغ من غزواته أحب أن يطلق سراح ـ جيبال ـ ليراه الهنود في شعار الذل، فأطلقه بمال قرره عليه، وصالحه على خمسين رأساً من خفاف الأفيال؛ وارتهن ابناً وحافداً له على الوفاء بها على الكمال. وعاد الكافر وراءه حتى استقر مكانه. وكاتب ابنه ـ اندبال ـ وشاهيته وراء سيحون يشكو إليه ما عراه من الفاقرة الكبرى والداهية العظمى، وسأله سؤال ملحف أن يؤدي عند الضمان؛ ما عز وهان؛ فساق إليه تلك الفيول والأموال؛ وسيقت جملتها إلى يمين الدولة، فأمر بالافراج عن أولئك الرهائن. وكان من عادة الهند أنهم من حصل منهم في أيدي المسلمين أسيراً؛ لم ينعقد له بعدها رياسة، فلما رأى جيبال حاله بعد خلاصه؛ حلق رأسه ثم ألقى نفسه في النار؛ فاحترق. ولما فرغ يمين الدولة من أمر ـ جيبال ـ رأى أن يغزو غزوة أخرى؛ فسار نحو ـ **وبهند** ـ فأقام عليها محاصراً لها حتى فتحها قهراً. وبلغه أن جماعة من الهند قد اجتمعوا بشعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعناد؛ فسير إليهم طائفة من عسكره فأوقعوا بهم؛ وأكثروا القتل فيهم؛ ولم ينج منهم إلا الشريد الفريد، وعاد يمين الدولة محمود إلى غزنة سالماً ظافراً. عمل يمين الدولة محمود؛ على ضم سجستان إلى مملكته سنة ٣٩٣ هـ = ١٠٠٢ م. فلما كانت سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م. عاود الغزو؛ فقاد جيشه إلى ـ **بهاطية** ـ وهي وراء المولتان من أعمال الهند وحاكمها كان يعرف باسم بجيرا؛ أو بجهرا ـ. وكانت مدينة ـ بهاطية ـ مشهورة أنها مدينة حصينة عالية السور، يحيط بها خندق عميق؛ فامتنع حاكمها بها؛ ثم إنه خرج إلى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام، ثم انهزم في الرابع فانسحب نحو المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقهم المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم؛ وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم؛ فقتل المقاتلة؛ وسبيت الذرية وأخذت الأموال. وعندما عرف ـ بجيرا ـ أنه مشرف لا محالة على الهلاك؛ أخذ جماعة من ثقاته؛ وسار إلى رؤوس تلك الجبال، فسير إليهم يمين الدولة سرية فلم يشعر بهم ـ بجيرا ـ إلا وقد أحاطوا به؛ وأحكموا السيوف في أصحابه. فلما أيقن بالعطب؛ أخذ خنجراً معه فقتل به نفسه. وأقام يمين الدولة بمدينة بهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها. وعاد عنها إلى غزنة. واستخلف بها من يعلم من أسلم من

أهلها ما يجب عليهم تعليمه. ولقي في عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها، وزيادة الانهار؛ فغرق من عسكره جند كثير.

استأنف يمين الدولة محمود غزواته وفتوحاته سنة ٣٩٦ هـ = ١٠٠٥ م، فقاد جيشه إلى ـ **المولتان** ـ والتي كان يحكمها رجل خبيث من الباطنية اسمه ـ أبو الفتوح ـ أقام يدعو الناس إلى الالحاد وأجابه قوم وامتنعت أقوام؛ فرأى يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه. فسار نحوه؛ فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد ـ وخاصة سيحون المعروف حالياً باسم سيراداريا ـ مما أعاقه عن العبور. فطلب إلى ملك الهند الجديد ـ أندبال ـ أن يأذن له في العبور من بلاده إلى ـ المولتان ـ فلم يجبه إلى ذلك؛ فابتدأ به قبل المولتان وقال: «نجمع بين غزوتين؛ لأنه لا غزو إلا التعقيب». فدخل بلاد الهند؛ وجاسها؛ واكثر القتل فيها والنهب لأموال أهلها والاحراق لأبنيتها، ففر ـ أندبال ـ من بين يديه؛ وهو في أثره كالشهاب في أثر الشيطان؛ من مضيق إلى مضيق إلى أن وصل إلى ـ قشمير؛ أوكشمير ـ. ولما علم ـ أبو الفتوح بخبر تقدمه نحوه، وعرف عجزه عن مقاومته، قام بنقل أمواله إلى ـ سرنديب ـ وأخلى المولتان. فوصل يمين الدولة إليها؛ ونازلها، فإذا أهلها في ضلالهم يعمهون، فحصرهم وضيق عليهم وتابع القتال حتى افتتحها عنوة؛ وألزم أهلها عشرين ألف ألف درهم عقوبة لعصيانهم. ثم سار عنها إلى ـ **قلعة كواكير** ـ وكان حاكمها أو صاحبها يعرف باسم ـ بيدا ـ وكان بها ستمائة صنم؛ فافتتحها وأحرق الأصنام فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة ـ بكالنجار ـ فسار خلفه إليها؛ وهي حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان؛ وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة؛ وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة. فلما قاربها يمين الدولة محمود، وبقي بينهما سبعة فراسخ؛ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق ما لا حد له؛ فأمر بقطعها؛ ورأى في الطريق وادياً عظيماً في عمقه؛ بعيداً في غوره. فأمر أن يردم منه مقدار ما يسع عشرين فارساً؛ فردموه بالجلود المملوءة تراباً. ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوماً. وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه؛ ثم بلغه عن خراسان اختلاف بسبب قصد ملك الترك ـ ايلك خان ـ لها، فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مئناً من الفضة. وعاد يمين الدولة إلى خراسان

فحارب ايلك خان وقتل من جيشه مقتلة عظيمة ـ بالقرب من مرو ـ وطارده حتى بلغ ثم إلى أبيورد وجرجان. ولكن ـ ايلك خان أعاد تنظيم قواته في بلاد ما وراء نهر سيحون؛ وأمده ملك الختل بجيشه، فسار في خمسين ألف أو يزيدون (سنة ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦ م) وأسرع يمين الدولة محمود فحشد قواته من كافة الأقاليم. وعسكر على بعد فرسخين من بلخ؛ بمكان فسيح يصلح للحرب؛ يقع في سفح جبل اتخذ فيه يمين الدولة مركزاً لقيادته ومراقبته. ودارت معركة ضارية. فلما رأى يمين الدولة شدة القتال؛ وقد حمي وطيس المعركة؛ نزل عن دابته وعفر وجهه بالتراب، تواضعاً لله تعالى وسأله النصر والظفر. وكان للتنظيم الجيد لقوات يمين الدولة محمود الفضل في الصمود أمام هجمات ايلك خان وحلفائه. فقد عبأ رجاله صفوفاً كالجبال الراسيات والبحار الزاخرات؛ ورتب في القلب. أخاه صاحب الجيش نصراً ومعه والي الجوزجان وكماة الاكراد والعرب وسائر جماهير الهنود ومساعيد الجنود. ورتب في الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد ألتونتاش وندب للميسرة أرسلان الجاذب. وحصن الصفوف بزهاء خمسمائة في فيلته. ثم إن يمين الدولة نزل وحمل في فيلته على قلب ايلك خان، فأزاله عن مكانه. ووقعت الهزيمة فيهم؛ وتبعهم أصحاب يمين الدولة يقتلون ويأسرون ويغنمون إلى أن عبروا بهم النهر (*). فلما فرغ يمين الدولة من الترك سار نحو الهند للغزاة. ذلك أن

(*) امتدح الشعراء جهد يمين الدولة وجهاده في هذه الوقعة. ومما قاله الحسن بن عبدالله المستوفي في قصيدته:

ظهر الحق ثابت الأركان ... صاعد النجم على البنيان
وهوى للردى ذوو النكث والبغي ... وأهل الضلال والطغيان
ما الذي غركم بمحمود المحمود ... انحاؤه بكل مكان
إنما سيفه شبيه عصا موسى ... ابن عمران صاحب الثعبان
وقرا جيولياتكم كيد سحر ... فاذا جاءت العصا فهو فان.

وهي قصيدة طويلة. وقوله ـ قراجيولياتكم ـ أي سيوفكم وهي ما له حد واحد. وكأنها منسوبة إلى من اتخذها على هذه الهيئة وهو ـ قراجول ـ وقوله ـ فهو فان ـ أي الكيد باطل ومضمحل. وكتب أبو الفضل الهمذاني البديع إلى الشيخ الوزير أبي العباس في هذه الوقعة: « هذا ورب الكعبة آخر ما في الجعبة. لقد أنصف من رامى القارة ومحا السيف ما قال ابن داره؛ ثم لا نزوة بعدها للترك ولا تحلم بعدها للملك؛ لقد كابس السلطان ـ محمود ـ إذ عفر لله شعره، وعرض على الله =

بعض أولاد ملوك الهند ـ يعرف باسم نواسه شاه ـ كان قد أسلم على يده واستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم؛ فلما كان الآن بلغه أنه ارتد عن الإسلام؛ ومالأ أهل الكفر والطغيان؛ فسار إليه مجداً، فحين قاربه هرب الهندي من بين يديه؛ واستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها إلى حكم الإسلام، واستخلف عليها بعض أصحابه؛ وعاد إلى غزنة.

لم يمنح يمين الدولة محمود قواته من الوقت إلا الفترة الكافية للاستراحة في غزنة؛ تم خلالها إعادة تنظيم القوات واتخاذ الاستعدادات للغزو؛ ثم انطلق بجيشه (سنة ٣٩٨ هـ = ١٠٠٧ م) وسار إلى أن وصل إلى **نهر هندمند ـ أو شط الهند** ـ فلقيه هناك ـ ابرهمن بال بن أندبال ـ في جيوش الهند؛ فاقتتلوا ملياً من النهار، وكادت الهند تظفر بالمسلمين. ثم إن الله تعالى نصر المسلمين عليهم، فظفروا بهم؛ وانهزمت جيوش الهند، ورجعت على أعقابها، وأخذها المسلمون بالسيف، وتبع يمين الدولة محمود أثر ـ ابرهمن بال ـ حتى بلغ قلعة ـ **بهيم نفر** ـ وهي قلعة تتربع على جبل عال؛ وقد جعلها الهنود خزانة لصنمهم الأعظم؛ فكانوا ينقلون إليها أنواع الذخائر قرناً بعد قرن؛ وأعلاق الجواهر. وهم يعتقدون ذلك ديناً وعبادة. فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يسمع بمثله. فنازلهم يمين الدولة وحصرهم وقاتلهم. فلما رأى الهنود كثرة جمع المسلمين وحرصهم على القتال، وزحفهم إليهم مرة بعد مرة؛ خافوا وجبنوا و طلبوا الأمان؛ وفتحوا باب الحصن؛ وملك المسلمون القلعة؛ وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته فأخذ منها من الجواهر ما لا يحد؛ ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية. ومن الأواني الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف وأربعمائة. وكان فيها بيت مملوء من فضة طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه خمسة عشر ذراعاً، إلى غير ذلك من الأمتعة. وعاد يمين الدولة إلى غزنة بهذه الغنائم. ففرش تلك الجواهر في صحن داره. وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك ووفود الأطراف ورسل طغان خان ملك الترك ـ أخي

= فقره، وفوض إلى الله أمره، وأخلص لله نذره؛ وناهض بالله خصمه وسأل الله حوله ـ الخ» الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٣٩٧ هـ.

أيلك ـ فأدخلهم يمين الدولة اليه. فرأوا ما لم تره العيون وما لم يسمعوا بمثله.

تجهز يمين الدولة محمود لغزو الهند سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م. فسار إليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها، وأوقع بجيش كبير للهند عند ـ **نارين** ـ فغنم من الخيول والأموال والأفيال شيئاً كثيراً. ولما رأى ملك الهند ما أنزله الله ببلاده وبأهل مملكته من سوط العذاب؛ بوقائع السلطان محمود ـ يمين الدولة ـ ونكايته في قاصيهم ودانيهم؛ وأيقن أنه لا قبل له بثقل وطأته وخشونة جانبه؛ أرسل إليه أعيان أقاربه يلتمس منه هدنة على مال يؤديه، وخمسين فيلاً؛ وأن يكون له في خدمته ألفا فارس بصورة دائمة. فوافق يمين الدولة محمود؛ وقبض منه ما بذله، وعاد عنه إلى غزنة.

كانت بلاد الغور تجاور ـ غزنة ـ وكان الغور يقطعون الطريق؛ ويخيفون السبيل؛ وبلادهم جبال وعرة، ومضايق غلقة؛ وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها. فلما كثر ذلك منهم؛ أنف يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه، وهم على ما هم عليه من الفساد والكفر، فجمع العساكر؛ وسار إليهم وعلى مقدمته ألتونتاش الحاجب صاحب هراة. وأرسلان الجاذب صاحب طوس ـ وهما أكبر أمرائه ـ فسارا فيمن معهما؛ حتى وصلوا إلى مضيق قد شحن بالمقاتلة؛ فتناوشوا الحرب؛ وصبر الفريقان. فسمع يمين الدولة الحال، فجد في السير إليهم؛ وملك عليهم مسالكهم. فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغورية المعروف ـ بابن سورى ـ فانتهوا إلى مدينته التي تدعى ـ **آهنكران** ـ فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل؛ فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار فرأوا أشجع الناس وأقواهم على القتال؛ فأمر يمين الدولة أن يولوهم الادبار على سبيل الاستدراج ـ مناورة تراجعية خداعية ـ ففعلوا. فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتهم، فحينئذ عطف المسلمون عليهم، ووضعوا السيوف فيهم؛ فأبادوهم قتلاً وأسراً. وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم ـ ابن سورى ـ ودخل المسلمون المدينة وملكوها؛ وغنموا ما فيها، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعها. فلما رأى ـ ابن سورى ـ ما فعله المسلمون بهم، شرب سماً كان معه. فمات وخسر الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين. وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام؛

وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه؛ وعاد. ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار؛ فقطع عليهم مفازة من رمل. ولحق عساكره عطش شديد كادوا يهلكون، فلطف الله سبحانه وتعالى بهم، وأرسل عليهم مطراً سقاهم؛ وسهل عليهم السير في الرمل. فوصل إلى الكفار وهم في جمع عظيم ومعهم ستمائة فيل؛ فقاتلهم أشد قتال، صبر فيه بعضهم لبعض. ثم إن الله نصر المسلمين وهزم الكفار؛ وأخذ غنائمهم، وعاد سالماً منصوراً.

كان ملك ـ **قصدار** ـ قد صالح يمين الدولة محمود على قطيعة يؤديها إليه؛ ثم قطعها؛ اغتراراً بحصانة بلاده وكثرة المضايق في الطريق. فصمم يمين الدولة على مهاجته، وتجهز، **وأظهر أنه يريد السير إلى ـ هراة ـ** فسار من غزنة (سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) فلما استقل الطريق **سار نحو ـ قصدار ـ فسبق خبره؛ وقطع تلك المضايق والجبل، فلم يشعر صاحبها إلا وعسكر يمين الدولة قد أحاط به ليلاً،** فطلب الأمان، فألزمه يمين الدولة بخمسة عشر ألف ألف درهم من جملة ما كان قد تأخر عن دفعه، فالتزمها ونقد أكثرها. وقبض يمين الدولة على عشرين فيلاً ضخاماً هائلة كان اعتقدها ليومي بؤسه وبأسه؛ ووكل به من استوفى المال عليه، ورجع عنه بعد أن رعى حق طاعته وضراعته باستخلافه عنه على ما كان يليه.

سار يمين الدولة محمود بعد ذلك (سنة ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م) لغزو بلاد الهند في جمع عظيم، وقصد واسطة البلاد من الهند؛ فسار شهرين حتى قارب مقصده؛ ورتب أصحابه وعساكره. وعلم عظيم الهند بالهجوم؛ فجمع من عنده من قواده وأصحابه؛ وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسلك؛ فاحتمى به، وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل، وتصافَّ هو والمسلمون، واشتد القتال وعظم الأمر، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم، فهزموهم وأكثروا القتل فيهم وغنموا ما معهم من مال وفِيله وسلاح وغير ذلك؛ ووجد في بيت بدعظيم ـ بيت أصنام ـ حجراً منقوراً دلت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة. **فلما فرغ يمين الدولة من غزوته عاد إلى غزنة، وأرسل إلى الخليفة في بغداد ـ القادر بالله ـ يطلب منه منشوراً وعهداً بخراسان وما بيده من الممالك؛ فكتب له ذلك؛ ولقب نظام**

الدين. توافرت المعلومات عند يمين الدولة أن صاحب (ناحية تانيشر ـ أو تانيسر) قد غالى في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين؛ وأن لديه فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب. فعزم على غزوه في عقر داره؛ وأن يذيقه شربة من كأس قتاله. فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة. فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر، وعرة المسالك، وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف، بعيدة الأكناف، والماء بها قليل، فلقوا شدة وقاسوا مشقة إلى أن قطعوها، فلما قاربوا مقصدهم، لقوا نهراً شديداً في تيار مائه، صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يدل بها. فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر، وإشغال الكافر بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور؛ ففعلوا؛ وقاتلوا الهنود وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات، وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار، فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة وعادوا إلى غزنة موقرين ظافرين.

ب - يمين الدولة محمود في أعظم غزواته

كانت (خوارزم) تحت حكم أميرها ـ أبي العباس مأمون بن مأمون ـ والذي ولاه يمين الدولة. فلما كانت سنة ٤٠٧ هـ = ١٠١٦ م قام قادة الجند بقتل أميرهم غيلة؛ ورفضوا الدعاء ليمين الدولة. واستعدوا للحرب؛ وقد عرفوا أن يمين الدولة لن يتركهم؛ فلما علم يمين الدولة محمود بذلك؛ جمع العساكر وسار نحوهم. فلما قاربهم جمع قائدهم ـ البتكين البخاري ـ جيشه وسار لقتال مقدمة جيش يمين الدولة؛ ووقعت المعركة واشتد القتال بينهم؛ وعندها أسرع يمين الدولة بالتقدم وزج سائر جيوشه في القتال، فثبت الخوارزمية الى ان انتصف النهار، وأحسنوا القتال، ثم انهم انهزموا، وركبهم أصحاب يمين الدولة يقتلون ويأسرون ولم يسلم إلا القليل؛ ثم أن ـ البتكين البخاري ـ ركب سفينة لينجو فيها بنفسه، فجرى بينه وبين من معه منافرة فقاموا عليه وأوثقوه وردوا السفينة إلى ناحية ـ يمين الدولة ـ وسلموه إليه. فأخذه وسائر القواد المأسورين معه وصلبهم عند قبر أبي العباس ـ خوارزمشاه ـ وأخذ الباقين من الأسرى

فسيرهم الى غزنة فوجاً بعد فوج، فلما اجتمعوا بها أفرج عنهم، وأجرى لهم الأرزاق: وسيرهم الى أطراف بلاده من أرض الهند يحمونها من الأعداء ويحفظونها من أهل الفساد. وأعـاد تنظيم أمور ـ خوارزم ـ وأسند امارتها الى حاجبه ـ التونتاش ـ.

ما إن فرغ يمين الدولة من أمر ـ خوارزم ـ حتى عاد الى غزنة؛ وسار منها الى الهند عازماً على غزو ـ **قشمير؛ أوكشمير** ـ إذ كان قد استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشمير. وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل مما وراء النهر وغيره من البلاد. وسار إليها من غزنة ثلاثة أشهر سيراً دائماً؛ وعبر نهر سيحون وجيلم أو جيلوم وهما نهران عميقان شديدا التيار؛ فوطىء أرض الهند؛ وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الاتاوة. فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده، وسار بين يديه الى مقصده؛ فبلغ نهر جون وفتح ما حول قشمير من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن (**هودب**) وهو آخر ملوك الهند. ونظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه وعلم انه لا ينجيه إلا الاسلام، فخرج في نحو عشرة آلاف رجل ينادون بكلمة الاخلاص طلباً للخلاص، فقبله يمين الدولة وسار عنه الى قلعة (**كلجند**) وهو من أعيان الهند وشياطينهم؛ وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة؛ فسير ـ كلجند ـ عساكره وفيوله الى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها؛ فترك عليهم يمين الدولة من يقاتلهم وسلك طريقاً مختصرة الى الحصن؛ فلم يشعروا به إلا وهو معهم، فقاتلهم قتالاً شديداً، فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف، فانهزموا، وأخذهم السيف من خلفهم، ولقوا نهراً عميقاً بين أيديهم فاقتحموه، فغرق أكثرهم. وكان القتلى والغـرقـى قـريبـاً مـن خمسين ألفـاً. وعمـد ـ كلجند ـ إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها. وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه. ثم سار يمين الدولة بجيشه نحو بيت متعبد لهم ـ **وهو من مهرة الهند ومن أحصن الأبنية** يقع على نهر ولهم به من الأصنام كثير، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجوهر؛ وكان فيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألف وثلاثمائة مثقال. وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم. فأخذ ـ يمين الدولة ـ ذلك جميعه؛ وأحرق الباقي. وسار نحو ـ **قنوج** ـ وصاحبها اسمه ـ **راجيال** ـ فرأى

أن صاحبها قد فارقها وعبر النهر المسمى ـ بنهر كنك ـ وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة؛ وأن من أغرق نفسه فيه طهر من الآثام. فأخذها يمين الدولة؛ وأخذ قلاعها وأعمالها ـ نواحيها ـ وهي سبع على النهر المذكور؛ وفيها قرابة عشرة آلاف بيت صنم يذكرون انها عملت من مائتي ألف سنة الى **ثلاثمائة ألف** ـ كذباً منهم وزوراً ـ ولما فتحها أباحها عسكره. ثم سار الى **(قلعة البراهمة ـ ومعناها العلماء)** فقاتلوه وثبتوا، فلما عضهم السلاح علموا انهم لا طاقة لهم: فاستسلموا للسيف، فقتلوا ولم ينج منهم الا الشريد. ثم سار نحو **(قلعة آسي)** وصاحبها ـ جندبال ـ فأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه. ثم سار الى **قلعة شروه؛ وصاحبها جندراي.** فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمي بها؛ وعمي خبره فلم يدر أين هو. فنازل يمين الدولة حصنه فافتتحه وغنم ما فيه. وسار في طلب جندراي في قوة من الفرسان الخفيفة ـ جريدة ـ حتى لحق به، فقاتله فقتل أكثر جند ـ جندراي ـ وأسر كثيراً منهم وغنم ما معه من مال **وفيلة**. وهرب ـ جندراي ـ في نفر من أصحابه فنجا. وكان السبي في هذه الغزوة كثيراً. ثم عاد يمين الدولة الى غزنة ظافراً. ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع **غزنة**، فبنى بناء لم يسمع بمثله، ووسع فيه. وأنفق ما غنمه في هذه الغزاة في بنائه.

كان (بيدا) ملك مملكة (كجوراهة) يتابع تطورات الحرب ضد المسلمين؛ وكانت مملكته من أعظم ممالك الهند، وجيشها اكبر جيش، فلما علم بفتح المسلمين لمملكة (قنوج) وهرب ملكها راجيبال ـ راجيال ـ. أرسل الى هذا الملك يوبخه على انهزامه، ثم جرد جيشه واستولى على مملكة قنوج وقتل ملكها راجيال، فازداد (بيدا) بعد صيت في الهند، وارتفعت هيبته، وتعاظم شره وعتوه. وأقبل عليه ملوك الممالك التي فتحها ـ يمين الدولة ـ فخضعوا له، وتعهدوا بخدمته، فوعدهم بإعادة ممالكهم إليهم. وعلم ـ يمين الدولة ـ بذلك، فجمع القوات واستعد بأكثر من استعداداته السابقة وحشد، فلما كانت سنة ٤٠٩ هـ = ١٠١٨م، سار بجيشه وهو يريد غزو مملكة **(كجوراهة)** واخضاع ملكها **(بيدا)** في بلاده. وبدأ ـ يمين الدولة ـ غزوته باجتياح (الافغانية) وهم قوم من الكفار؛ يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة

وبينه: فسار عبر المضايق الصعبة وفتح مغالقها وضرب عامرها وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم الكثيرة. ثم تابع مسيره؛ وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته. وعبر نهر - كنك - ولم يعبره قبلها. فلما جاوزه رأى قفلاً - رتلاً - قد بلغت أحمالهم ألف عدد؛ فغنمها وهي من العود والأمتعة الفائقة. وسار بجد وسرعة فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له - بروجيبال - قد سار من بين يديه ملتجئاً الى الملك - بيدا - ليحتمي به عليه؛ فطوى المراحل حتى لحق - ببروجيبال - ومن معه. وكان بينه وبين الهنود نهر عميق، فعبر اليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال حتى عبر هو وباقي العسكر إليهم، فاقتتلوا عامة نهارهم؛ وانهزم - بروجيبال - ومن معه؛ وكثر فيهم القتل والأسر، وأسلموا أموالهم وأهليهم، فغنمها المسلمون؛ وأخذوا منهم الكثير من الجواهر؛ وأخذ ما زاد على مائتي فيل. وسار المسلمون يقتصون آثارهم. وكان ملكهم هذا قد جرح في المعركة فأرسل الى - يمين الدولة يطلب الأمان، فلم يؤمنه، ولم يقنع منه إلا بالإسلام، وقتل من عساكره أثناء الاقتفاء - المطاردة - ما لا يحصى. ولم يتمكن - بروجيبال - على كل حال من اللحاق بالملك - بيدا - فقد انفرد به بعض الهنود فقتله. ولما رأى ملوك الهند ذلك. تابعوا رسلهم الى - يمين الدولة - يبذلون الطاعة والاتاوة. وسار يمين الدولة الى مدينة - باري - وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها، فرآها من سكانها خالية وعلى عروشها خاوية فأمر بهدمها وتخريبها مع هدم وتخريب عشر قلاع معها متناهية الحصانة؛ وقتل من أهلها خلقاً كثيراً. وسار يطلب الملك - بيدا - فلحقه وقد نزل الى جانب نهر؛ وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلاً - وترك عن يمينه وشماله طريقاً يبساً يقاتل منه، وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وسبعمائة وستة وأربعين فيلاً. فأرسل - يمين الدولة - طائفة من عسكره للقتال. فأخرج إليهم - بيدا - مثلهم؛ ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان؛ واشتد الضرب والطعان، فأدركهم الليل وحجز بينهم. فلما كان الغد، بكر يمين الدولة إليهم؛ فرأى الديار منهم بلاقع. وركب كل فرقة منهم طريقاً مخالفاً لطريق الأخرى. ووجد خزائن الأموال والسلاح بحالها. فغنموا الجميع؛ واقتفى آثار المنهزمين، فلحقوهم في

الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا الملك ـ بيدا ـ فريداً وحيداً، وعاد يمين الدولة الى غزنة منصوراً.

وسارت أعمال الجهاد بصورة منتظمة، لا تعرف الكلل أو الراحة؛ متشابهة في صورها وأعمالها؛ حتى إذا ما كانت سنة ٤١٤ هـ = ١٠٢٣ م. سار يمين الدولة محمود ابن سبكتكين على رأسِ جيشه وأوغل في بلاد الهند، فغنم وقتل حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع ليس له مصعد إلا من موضع واحد، وهي كبيرة تسع خلقاً كثيراً وبها خمسمائة فيل، وفي رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع ما يحتاج الناس إليه. فحصرهم يمين الدولة، ودام الحصار وضيق عليهم، واستمر القتال، فقتل منهم كثير، فلما رأوا ما حل بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منه؛ وأهدى له هدايا كثيرة، منها طائر على هيئة القمري من خاصيته أنه إذا أحضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منها ماء وتحجر، فاذا حك وجعل على الجراحات الواسعة ألحمها.

عرفت سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م تصعيداً جديداً في الحرب على جبهة الشرق بسبب قيام يمين الدولة بفتح عدة حصون ومدن من بلاد الهند، وأخذ الصنم المعروف عندهم باسم (صنم سومنات) وكان هذا الصنم هو أعظم أصنام الهند، يحجون إليه كل ليلة خسوف، فيجتمع عنده ما ينيف على مائة ألف انسان. وتزعم الهنود ان الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء؛ وأن المد والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر له على قدر استطاعته. وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس، ويعطون سدنته كل مال جزيل، وله من الوقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية. وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا تحصى قيمته. ولأهل الهند نهر كبير ـ يسمى كنك ـ يعظمونه غاية التعظيم، ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم. ويعتقدون أنها تساق الى جنة النعيم. وبين هذا النهر وبين (سومنات) (*) نحو مائتي فرسخ. وكان يحمل من مائه كل يوم الى سومنات ما

(*) سومنات، مدينة ساحلية متسعة بها علماء الهنود وعبادهم؛ والصنم المعروف بها يسمى ـ البُد ـ وصورته احليل إنسان وفرج امرأة مصنوعان من حجر أو من ذهب او من حديد عند طائفة منهم

يغسل به. ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه؛ وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم. وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم؛ ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم. **وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً، وكسر صنماً، يقول الهنود: «إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات. ولو أنه كان راضياً عنها لأهلك من قصدها بسوء». فلهذا عزم ـ يمين الدولة محمود ـ على غزوه وإهلاكه، ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الاسلام**. فاستخار الله تعالى، وسار عن غزنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره، سوى المتطوعة، وسلك سبيل ـ الملتان ـ. وكان في طريقه إلى الهند مفازة مقفرة لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة. فتجهز هو وعسكره على قدرها، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد ـ انهلوارة ـ فلما قطع المفازة، رأى في طرفها حصوناً مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها ـ ردموها ـ ليتعذر عليه حصرها. **فيسر الله تعالى فتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم، وتسلمها**. وقتل سكانها وأهلك أوثانها. وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه. وسار إلى ـ انهلوارة ـ. ولما وصلها رأى صاحبها ـ واسمه بهيم ـ قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب وقصد حصناً له يحتمي به. فاستولى يمين الدولة على المدينة. وسار إلى ـ سومنات ـ فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان، شبه الحجاب والنقباء لسومنات على ما سوّل لهم الشيطان، فقاتل من بها وفتحها وخربها وكسر أصنامها. وسار الى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم، وامتاروا من عندهم ـ تمونوا وتزودوا بالميرة ـ وساروا حتى بلغوا ـ **دبولوارة** ـ وهي على مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها له ظناً منهم ان سومنات يمنعهم ويحميهم ويدفع عنهم؛ فاستولى يمين الدولة محمود عليها وقتل رجالها وغنم أموالها. وسار

= يسمون ذلك العلة الغريبة في اتحاد نوع الانسان. ويكون على كرسي من ذهب. وهو مضمخ بالمسك في رأسه الى الكرسي، ومقلد بعقود الياقوت والجوهر. ويكون أمامه أطباق ذهب مملوءة من الأحجار الشريفة الثمينة؛ والكرسي على مقعد مستدير يسع عشرة رجال. الخ... (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ١٧٠ ـ من هامش النجوم الزاهرة).

عنها الى سومنات، وعندما وصلها رأى حصناً حصيناً مبنياً على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه. وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين؛ واثقين ان معبودهم ـ الصنم ـ سيقطع دابر المسلمين ويهلكهم. فلما كان الغد، زحف المسلمون وقاتلوا من بها، **فرأى الهنود من المسلمين قتالاً لم يعهدوا مثله،** ففارقوا السور؛ فنصب المسلمون عليه السلاليم وصعدوا إليه، وأعلنوا بكلمة الإخلاص، وأظهروا شعار الاسلام، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب. وتقدم جماعة الهنود الى سومنات فعفروا له خدودهم وسألوه النصر. وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض. فلما كان الغد؛ بكر المسلمون إليهم وقاتلوهم فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة الى بيت صنمهم ـ سومنات ـ فقاتلوا على بابه أشد قتال. وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل الى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه ويخرجون فيقاتلون الى أن يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم. فبقي منهم القليل، فدخلوا البحر الى مركبين لهم لينجوا فيهما، فأدركهم المسلمون، فقتلوا بعضاً وغرق بعض. وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص. وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدورة ظاهرة، وذراعان في البناء، وليس بصورة مصورة؛ فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه الى غزنة فجعله عتبة الجامع. وكان بيت الصنم مظلماً، وانما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق. وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مثقال، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين الى عبادتهم. وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر، كل واحد منها منسوب الى عظيم من عظمائهم. وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار. فأخذ الجميع. وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل. وعلم عندها يمين الدولة محمود أن ـ بهيم ـ صاحب انهلوارة قد قصد قلعة تسمى ـ كندهة ـ في البحر، بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخاً، فسار إليها يمين الدولة من سومنات. فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين فسألهما عن خوض البحر هناك فعرفاه انه يمكن خوضه، لكن إن تحرك الهواء يسيراً غرق من فيه. فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن

معه، فخرجوا سالمين، فرأوا بهم وقد فارق قلعته وأخلاها، فعاد عنها. وقصد - المنصورة - وكان صاحبها قد ارتد عن الاسلام، فلما بلغه خبر مجيء يمين الدولة، فارقها واحتمى بغياض أشبة - كثيفة - فقصده يمين الدولة من موضعين فأحاط به وبمن معه، فقتلوا أكثرهم، وغرق منهم كثير، ولم ينج منهم إلا القليل، ثم سار الى بهاطية. فأطاعه أهلها ودانوا له. فرحل الى غزنة.

لقد أمضى يمين الدولة وجيشه في هذه الحملة زهاء الستة أشهر، فقد انطلق من حملته من غزنة في العاشر من شعبان سنة ٤١٦ هـ. وعاد الى غزنة فوصلها في العاشر من صفر سنة ٤١٧ هـ. ستة أشهر قضاها المجاهدون في سبيل الله في سير متواصل ومعارك متتالية، عبر القفار والمفازات ووسط مضايق الجبال والوديان، وفي السهول والغابات. اتصل سواد الليل ببياض نهاره. واتصلت أيام الشهور بعضها ببعض. لقد تجاوز المجاهدون في حملتهم حدود المكان، واخترقوا حدود الزمان. ووضعوا معاناتهم ومتاعبهم وراء ظهورهم، ومضوا بتصميم لا مثيل له، وبعناد لا يوصف. وأيدهم الله بنصره. فكانت حملتهم هذه نموذجاً لحروب الايمان وهو نموذج على روعته، وعلى إثارته؛ ليس الا حلقة من حلقات حروب الايمان.

جـ - بناء الجبهة الداخلية

ما كان للسلطان يمين الدولة محمود أن يهمل بناء جبهته الداخلية، أو قاعدة ملكه، وهو الذي عرف منذ بداية ظهور أمره **قوة العلاقة بين قاعدته الداخلية وقوته الخارجية**. فسار بجيشه سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م نحو جرجان وطبرستان لاخضاع حاكمها - صاحبها - منوجهر بن قابوس. فأسرع هذا لاسترضاء يمين الدولة، وحمل إليه أربعمائة ألف دينار وأنزالاً كثيرة؛ وكان - مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه - صاحب الري، قد كاتبه وشكا إليه جنده، وكان متشاغلاً بالنساء ومطالعة الكتب ونسخها، وكانت والدته تدبر مملكته، فلما توفيت طمع جنده فيه واختلت أحواله. وعندما وصلت كتبه الى محمود، سير إليه جيشاً، وجعل مقدمهم حاجبه، وأمره أن يقبض على - مجد الدولة -. فلما وصل العسكر الى الري؛ ركب مجد الدولة لاستقبالهم،

فقبضوا عليه وعلى ولده ـ أبي دلف ـ فلما وصل الخبر الى يمين الدولة بالقبض عليه سار إلى الري. ودخلها وأخذ من الأموال ألف ألف دينار، ومن الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ستة آلاف ثوب، ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى. وأحضر ـ مجد الدولة ـ وقال له: «أما قرأت تاريخ الفرس ـ شاه نامه، وتاريخ الطبري ـ وهو تاريخ المسلمين؟» قال: بلى. فعاد يمين الدولة وسأله: «ما حالك حال من قرأهـا! أما لعبت بالشطرنج؟» وأجاب مجد الدولة: بلى. فسأله يمين الدولة: «هل رأيت شاهاً يدخل على شاه؟». قال: لا. فقال له يمين الدولة: «فما حملك على أن سلمت نفسك الى من هو أقوى منك؟» ثم سيره الى خراسان مقبوضاً، ثم ملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوه، وآبه، ويافت. وقبض على صاحبها ـ ولكين بن وندرين ـ وسيره الى خراسان. ولما ملك يمين الدولة ـ الري ـ كتب الى الخليفة القادر بالله رسالة ذكر فيها انه وجد عند مجد الدولة ما زاد على خمسين امرأة من النساء الحرائر، ولدن له نيفاً وثلاثين ولداً، ولما سئل عن ذلك قال: هذه عادة سلفي. وصلب من أصحابه الباطنية خلقاً كثيراً، ونفى المعتزلة الى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم، وأخذ من الكتب ما سوى ذلك مائة حمل وتحصن منه ـ منوجهر بن قابوس بن وشمكير ـ بجبال حصينة وعرة المسالك، فلم يشعر إلا وقد أطل عليه يمين الدولة فهرب منه الى غياض حصينة، وبذل خمسمائة ألف دينار ليصالحه، فأجابه الى ذلك، فأرسل المال إليه، فسار عنه الى نيسابور. ثم توفي ـ منوجهر ـ عقيب ذلك، وولي بعده ابنه أنوشروان، فأقره محمود على ولايته، وقرر عليه خمسمائة ألف دينار أخرى. وخطب لمحمود في أكثر بلاد الجبل إلى حدود أرمينية. وافتتح ابنه مسعود ـ زنجان وأبهر ـ وخطب له علاء الدولة بأصبهان. وعاد محمود إلى خراسان، واستخلف بالري ابنه مسعوداً فقصد أصبهان وملكها من علاء الدولة وعاد عنها واستخلف بها بعض أصحابه، فثار به أهلها فقتلوه فعاد إليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة نحو خمسة آلاف قتيل. وسار إلى الري فأقام بها.

كان ـ السالار ابراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن وهسوذان بن محمد بن مسافر الديلمي ـ قد استولى على بلاد سرجهان وزنجان وأبهر وشهرزور وغيرها وذلك بعد

وفاة فخر الدولة بن بويه. مما دفع بأحد أبناء ملوك الديلم ـ واسمه المرزبان بن الحسن ابن خراميل ـ الى الهرب واللجوء الى يمين الدولة محمود بن سبكتكين الذي وعده بالمساعدة على استعادة ملك آبائه. فلما فرغ يمين الدولة من إعادة تنظيم أمور الري، وجه جيشاً بقيادة المرزبان الى السالار، فقصدها واستمال الديلم، فمال إليه بعضهم. فسار السالار ابراهيم إلى قزوين، فقاتل بها عسكر يمين الدولة وأكثر القتل فيهم وهرب الباقون، وأعانه أهل البلد. وسار السالار ابراهيم أيضاً الى مكان يقال له ـ سرجهان ـ تطيف به الأنهار والجبال. فتحصن به. وعلم مسعود بن يمين الدولة، وهو بالري، بما فعله السالار ابراهيم، فقاد جيشه وسار لقتاله مجداً مسرعاً، وجرت اشتباكات ومعارك كان النصر فيها للسالار، ثم إن مسعوداً بعث الرسائل الى طائفة من جند السالار واستمالهم وأعطاهم المال، فانضموا اليه وكشفوا له عن نقاط ضعف السالار، واقتادوا مجموعة من جيشه عبر طريق صعب ومجهول حتى وصلوا بها الى مؤخرة السالار فبما كان مسعود يقاتله بصورة جبهية، وبوغت السالار بالهجوم على مؤخرته، واضطرب امره فانهزم ومن معه، وطلب كل واحد منهم مهرباً، واختفى السالار في مكان فدلت عليه امرأة سوادية، فأخذه مسعود وحمله الى ـ سرجهان ـ وبها ولده، فطلب منه أن يسلمها الى مسعود، فلم يفعل، فعاد عنها، وتسلم باقي قلاعه وبلاده. وأخذ أمواله، وقرر على ابنه المقيم بسرجهان مالاً على كل من جاوره من مقدمي الأكراد. وعاد الى الري.

بقي على يمين الدولة محمود أن يؤمن بلاده من أعمال السطو والفساد. وكان الاتراك الغزية ـ أصحاب أرسلان بن سلجوق التركي، ينطلقون من مفازة بخارى ليفسدوا البلاد وليثيروا الاضطراب فيها، فسار يمين الدولة إليهم، وعبر النهر يريد الوصول الى ـ بخارى ـ فهرب صاحبها ـ علي تكين ـ وجاء اليه أرسلان بن سلجوق، فقبض عليه وسجنه ببلاد الهند، وسار ليلاً الى ـ خركاهاته ـ فقتل كثيراً من أصحابه الاتراك الغزية، وسلم منهم خلق كثير؛ فهربوا منه، ولحقوا بخراسان؛ فأفسدوا فيها ونهبوا، فأرسل اليهم يمين الدولة جيشاً، فسباهم وأجلاهم عن خراسان. وسار منهم أهل ـ ألفي خركاه ـ فلحقوا بأصبهان. فكتب يمين الدولة الى حاكم أصبهان ـ علاء الدولة بن كاكويه ـ بإرسالهم، وقطع رؤوسهم. فأمر علاء الدين نائبه ان يعمل طعاماً ويدعوهم

اليه ويقتلهم. فأرسل اليهم وأعلمهم انه يريد اثبات أسمائهم ليستخدمهم، وكمن الديلم في البساتين، فحضر جمع كثير منهم؛ فلقيهم مملوك تركي لعلاء الدولة وحذرهم فعادوا. وأراد نائب علاء الدولة أن يمنعهم من العود، فلم يقبلوا منه. فحمل ديلمي من قواد الديلم على انسان منهم فرماه التركي بسهم فقتله. ووقع الصوت بذلك، فخرج الديلم وانضم إليهم أهل البلد، فجرت بينهم حرب فهزموهم، وانسحب الترك وساروا، فلم يجتازوا على قرية إلا نهبوها حتى وصلوا ـ وهسوذان ـ بأذربيجان. فاستقبلهم ـ وهسوذان، وراعاهم وأمن لهم احتياجاتهم وأمورهم. وبقي بخراسان منهم أكثر ممن سار الى أصبهان. فتوجهوا الى جبل ـ بلجان؛ وهو الذي عنده خوارزم القديمة ـ فنزل كثير منهم من الجبل الى البلاد، فنهبوا وأخربوا وقتلوا. فجرد يمين الدولة محمود جيشاً بقيادة أمير طوس ـ أرسلان الجاذب ـ فسار إليهم واستمر في مطاردتهم طوال سنتين تقريباً. كما اضطر يمين الدولة الى قيادة جيش بسببهم؛ والسير الى خراسان، وصار يطاردهم ما بين نيسابور وحتى دهستان، فساروا الى جرجان. ثم عاد عنهم، وكلف ابنه مسعوداً بالري فاستخدم بعضهم وأسند قيادتهم الى رجل منهم ـ اسمه يغمر ـ فسكنوا، ثم عادوا لاثارة الاضطراب والفوضى بسبب انشغال مسعود عنهم في حرب الهند، فعاد اليهم ـ ودعا مقدميهم وقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً. ثم إن مسعوداً سير قسماً كبيراً منهم الى الهند. وقطع أيدي المفسدين وأرجلهم وصلبهم.

بينما كان يمين الدولة منصرفاً لبناء جبهته الداخلية ودعمها وضمان الاستقرار لها، قام نائبه في الهند ـ أحمد بن ينالتكين ـ بقيادة جيش من مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل، وسار بهم سنة ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م نحو مدينة ـ نرسي ـ التي كانت من أعظم مدنهم. فشن الغارة على البلاد، ونهب وسبى وخرب الأعمال وأكثر القتل والأسر. فلما وصل الى مدينة نرسي؛ دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون في ذلك الجانب يوماً ـ من بكرة الى آخر النهار ـ ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجوهريين فقط، ولم يعلم باقي أهل البلد بذلك بسبب اتساع المدينة وكبر بيوتها المتناثرة والمتباعدة. فلما جاء المساء، لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله، فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره. وبلغ من كثرة ما نهب المسلمون انهم اقتسموا الذهب والفضة كيلاً ـ ولم يصل الى هذه

المدينة عسكر للمسلمين قبله ولا بعده. فلما فارقه اراد العودة إليه، فلم يقدر على ذلك لأن أهله دافعوا عنه.

كان يمين الدولة محمود يعاني من مرض عضال لزمه السنتين الاخيرتين من حياته، وشعر بدنو أجله، أوصى بالملك لابنه محمد ـ وهو ببلخ ـ وكان أصغر من مسعود، ومات يمين الدولة (*) وقد اضطلع بدوره في الجهاد؛ وترك الحكم لابنه محمد الذي بايعته البلاد من أقاصي الهند حتى نيسابور، ولكن مسعود ـ الأخ الأكبر ـ استطاع انتزاع الملك لنفسه، وتمكن من خلع أخيه محمد الذي كان يحمل لقب (جلال الدولة).

(*) محمود بن سبكتكين ـ يمين الدولة (٣٦٠ ـ ٤٢١ هـ = ٩٧٠ ـ ١٠٣٠ م) كان عاقلاً ديناً، خيراً؛ عنده علم ومعرفة، وصنف له كثير من الكتب في فنون العلوم، وقصده العلماء من أقطار البلاد؛ وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم. وكان عادلاً كثير الإحسان الى رعيته والرفق بهم، كثير الغزوات. ملازماً للجهاد؛ وفتوحه مشهورة مذكورة أراد فيها بذل نفسه لله تعالى وابتغاء رضوانه. ولم يكن فيه ما يعاب، إلا أنه كان يبحث عن المال بكل طريق، ولم يكن بحثه عن المال لنفسه، ولكن لبناء دولته؛ وتقوية عساكره، وتأمين الرفاه لشعبه. وكانت له هيبته، فخافه الاعداء، وكف عنه الطامعون؛ وسار ذكره بالآفاق. جدد عمارة المشهد بطوس الذي فيه قبر علي ابن موسى الرضا، والرشيد، وأحسن عمارته. واعتبره بعض المؤرخين انه أول من عدل فأحسن العدل بين رعيته بعد عمر بن عبدالعزيز ـ الخليفة الأموي العادل ـ.

د ـ على نهج السلف.

انصرف مسعود بن محمود بن سبكتكين، الى تنظيم أمور بلاده؛ وكان قد ظهر في ـ التيز، ومكران ـ بعض الاضطراب فعمل على معالجتها بكفاءة واقتدار. وعين على الولايات أمراء ممن يثق بكفاءتهم، فعين علاء الدولة بن كاكويه على أصبهان، وأقر ابن قابوس بن وشكمير على جرجان وطبرستان، وسير أبا سهل الحمدوني إلى الري للنظر في امور هذه البلاد الجبلية والقيام بحفظها. وسار إلى الهند، فأصلح الفاسد وأعاد المخالف إلى طاعته. وقبض عسكر مسعود على ـ شهريوش بن ولكين ـ لأنه اعترض الحجاج الواردين من خراسان وعمّهم أذاه وأساء إليهم، فأمر مسعود بصلبه على سور ـ ساوة ـ. وشعر مسعود أنه بات باستطاعته متابعة السير على نهج أبيه محمود. فسار بجيشه الى الهند. وكان واليها ـ أحمد ينالتكين ـ قد اعلن تمرّده مستفيداً من الاضطراب الذي أعقب وفاة يمين الدولة محمود؛ فأخضعه. ثم سار بجيشه الى قلعة ـ **سرستي** ـ وهي من أمنع حصون الهند وأقواها. فحصرها، **وقد** كان أبوه حصرها غير مرة فلم يتهيأ له فتحها. فلما حصرها مسعود، راسله صاحبها وبذل له مالاً على الصلح، فأجابه إلى ذلك، وكان فيها قوم من التجار المسلمين، فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة ما تعهد بدفعه. فكتب التجار رقعة في نشابة، ورموا بها إليه يعرفونه فيها ضعف الهنود بها، وأنه إن صابرهم ملكها. فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطم ـ ردم ـ خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره. وفتح الله عليه وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم وأخذ ما جاورها من البلاد. ولما ملك مسعود قلعة ـ **سرستي** ـ رحل عنها إلى قلعة ـ **نفسي** ـ. وحصرها، فرآها عالية لا ترام؛ يرتد البصر دونها وهو حسير، إلا انه أقام عليها يحصرها، وتصادف ان انتشر وباء في عسكر المسلمين مما حمل مسعود على رفع الحصار والعودة الى غزنة. وكان أمر الأتراك قد اشتد اثناء ذلك بخراسان، فتجمع كثير من المفسدين وأهل العبث والشر؛ وكان أول من أثار الشر أهل أبيورد وطوس، واجتمع معهم خلق كثير وساروا إلى نيسابور لينهبوها.

وكان الوالي عليها قد سار عنها إلى الملك مسعود، فخافوا خوفاً عظيماً، وأيقنوا بالهلاك، فبينما هم يترقّبون البوار والاستئصال وذهاب الأنفس والأموال، إذ وصل إليهم أمير كرمان في ثلاثمائة فارس، قدم متوجهاً إلى مسعود أيضاً، فاستغاث به المسلمون وسألوه أن يقيم عندهم ليكف عنهم الأذى، فأقام عليهم وقاتل معهم. وعظم الأمر واشتدت الحرب، وكان الظفر له ولأهل نيسابور. فانهزم أهل طوس وأبيورد ومن تبعهم وأخذتهم السيوف من كل جانب وعمل بهم أمير كرمان أعمالاً عظيمة، وأثخن فيهم وأسر كثيراً منهم وصلبهم على الأشجار وفي الطرق؛ فقيل إنه أعدم من أهل طوس عشرين ألف رجل.

ثم إن أمير كرمان أحضر زعماء قرى طوس، وأخذ أولادهم وإخوانهم وغيرهم من أهليهم رهائن، فأودعهم السجون. وقال: «إن اعترض منكم واحد إلى أهل نيسابور أو غيرهم؛ أو قطع طريقاً، فأولادكم وإخوانكم ورهائنكم مأخوذون بجناياتكم» فسكن الناس وفرج الله عن أهل نيسابور بما لم يكن في حسابهم. وكان ذلك، في سنة ٤٢٥ هـ = ١٠٣٤ م.

عادت المتاعب الداخلية لتصرف ـ مسعود بن محمود ـ عن جهاد الكفار في الهند ـ ذلك انه عندما عاد من الهند؛ وانصرف لقتال الغز (سنة ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م) عاد نائب مسعود في حكم ما تمّ فتحه من بلاد الهند ـ أحمد ينالتكين ـ فأعلن تمرّده وعصيانه ببلاد الهند، وجمع الجموع، وقصد البلاد بالأذى، فسير إليه مسعود جيشاً كثيفاً. وسار أحمدينالتكين بجيشه مبتعداً عن وجه جيش مسعود. ولكن ملوك الهند منعته من الدخول إلى بلادهم، وسدوا في وجهه منافذ هربه. ولما وصل جيش مسعود، قاتلهم ينالتكين، وانهزم، ومضى هارباً إلى الملتان. وقصد بعض ملوك الهند بمدينة ـ بهاطية ـ ومعه جمع كثير من عساكره، ولم يكن لذلك الملك قدرة على منعه، أو رفض طلبه بتأمين السفن ليعبر نهر السند. ولكن هذا الملك احتال على ينالتكين، فأحضر له السفن. وكان في وسط النهر جزيرة ظنّها احمد ومن معه متّصلة بالبر من الجانب الآخر، ولم يعرف أن الماء يحيط بها من كل جانب. وطلب الملك الهندي إلى

أصحاب السفن بإنزال ينالتكين وقواته في الجزيرة، ثم تركهم هناك والعودة. ففعلوا ذلك. وبقي أحمد ينالتكين ومن معه فيها وليس معهم طعام إلاّ ما معهم، فبقوا بها تسعة أيام. ففني زادهم، وأكلوا دوابهم، وضعفت قوّاتهم ووهنت قواهم. وأرادوا خوض الماء فلم يتمكنوا منه لعمقه وشدّة الوحل فيه. وعندها عبر ملك الهند إليهم بعسكره. وأوقع بهم، وقتلوا أكثرهم، وأخذوا ولداً لأحمد أسيراً. فلما رآه أحمد على تلك الحال قتل نفسه؛ واستوعب أصحابه القتل والأسر والغرق.

جابهت ـ الملك مسعود ـ في هذه الفترة ذاتها مشكلة أخرى مع حاكم ـ جرجان وطبرستان؛ دارا بن منوجهر بن قابوس ـ والذي كان مسعود قد أمره على حكم هذين الاقليمين مقابل مال معين. كما عمل على التزوج بابنة مقدم جيش دارا والقيم بتدبير أمره ـ أبي كاليجار ـ استمالة له، فلما سار مسعود الى الهند، عمل ـ دارا ـ على دفع ما كان قد تقرر عليه من المال. وأرسل الرسائل الى ملوك الأقاليم المجاورة وحرضهم على العصيان؛ فلما عاد مسعود من الهند، وأجلى الغز وهزمهم؛ سار إلى جرجان فاستولى عليها وملكها، وسار إلى ـ آمل طبرستان ـ فوجد أن أصحابها قد فارقوها واجتمعوا بالغياض والغابات ذات الأشجار الملتفة الضيقة المدخل، الوعرة المسلك؛ فسار إليهم، واقتحمها عليهم فهزمهم وأسر منهم، وقتل. ثم راسله ـ دارا وأبو كاليجار ـ وطلبوا منه العفو، وتقرير البلاد عليهم، فأجابهم إلى ذلك؛ وحملوا ما كان عليهم وعاد إلى خراسان.

كان على مسعود بعد ذلك ان يجابه الخطر الاكبر للقوة المتعاظمة التي بات يمتلكها الأتراك السلاجقة. ففي مطلع سنة ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م، علم مسعود ان الغز قد اعملوا في بلاده تدميراً وقتلاً وسبياً، فأقام ببلخ؛ ليعطي قواته فرصة للراحة، وانتظر حتى انتهى من قتال الخوارزمية والخانية، ثم أمد ـ الحاجب سباشي ـ بالجند، ودعمه؛ وأمره بغزو السلاجقة واستئصالهم، ولكن الحاجب سباشي لم يكن يمتلك القدرة الكافية لقتالهم وحسم الصراع معهم؛ فلجأ إلى المطاولة والمماطلة التي كانت من عاداته، فسار مسعود من بلخ بنفسه، وقصد ـ سرخس ـ فتجنّب ـ الغز ـ قتاله، واعتمدوا على

الخداع والمخاتلة، وأظهروا العزم على دخول المفازة الفاصلة بين مرو ـ وخوارزم. لكن قوات مسعود استمرت في مطاردتها لهم وتعقب آثارهم، فوقعت معركة قتل فيها كثير من الغز، ثم اشتبك مسعود معهم في معركة أخرى كان النصر فيها إلى جانبه، فابتعدوا عنه، ثم عادوا الى مسافة قريبة منه بنواحي مرو، فاشتبك معهم في معركة أخرى وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة قتيل، وهرب الباقون ودخلوا الى المفازة التي يحتمون بها، وثار أهل ـ نيسابور ـ بمن كان عندهم من الأتراك السلاجقة، فقتلوا بعضاً وانهزم الباقون فلحقوا بأصحابهم في المفازة ـ الصحراء ـ وسار مسعود الى هراة، من أجل إعادة تنظيم قواته والاستعداد لاستئناف مطاردتهم وقتالهم أينما كانوا. فعاد ـ طغرل بك ـ إلى الأطراف النائية عن مسعود، وأعمل فيها نهباً وتخريباً وأثخن في أهلها قتلاً وسبياً، فحينئذ سار إليه مسعود، فلما قاربه فر ـ طغرل بك ـ وتجنب القتال، وانسحب الى ـ استوا ـ وأقام بها.

وكان الزمان شتاء فظن ـ طغرل بك ـ أن الثلج والبرد ستمنع مسعوداً من مطاردته، لكن مسعوداً استمر في المطاردة، فانسحب طغرل بك وسلك الطريق على طوس واحتمى بجبال منيعة ومضايق صعبة المسالك، فسير مسعود في طلبه جيشاً كبيراً بقيادة وزيره أحمد بن محمد بن عبدالصمد، فطوى المراحل إليه في قوة من الفرسان الخفيفة. فلما رأى ـ طغرل بك ـ قربه منه، غادر مكانه الى نواحي ـ ابيورد ـ وكان مسعود قد سار ليقطعه عن جهة إن أرادها، فلقي مقدمة قوات طغرل بك، واشتبك معها وانتصر عليها. واستأمن من أصحاب طغرل بك جماعة كثيرة. ورأى طغرل بك بأن الدوائر تضيق من حوله، فعاد ودخل المفازة الى خوارزم وأوغل فيها.

فلما فارق الغز خراسان، توجه مسعود نحو جبل من جبال طوس؛ منيعاً لا يرام، وكان أهله قد وافقوا الغز وأفسدوا، فلما غادر الغز تلك البلاد، تحصن هؤلاء بجبلهم ثقة منهم بحصانته وامتناعه، فسار مسعود إليهم بقوة خفيفة من الفرسان، فلم يرعهم إلا وقد خالطهم، فتركوا أهلهم وأموالهم وصعدوا الى قمة الجبل، واعتصموا بها، وامتنعوا.

وغنم عسكر مسعود أموالهم وما ادخروه، ثم أمر مسعود أصحابه أن يزحفوا إليهم في قمة الجبل، وباشر هو القتال بنفسه، فزحف الناس إليهم وقاتلوهم قتالاً لم يروا مثله، وكان الزمان شتاء والثلج على الجبل كثيراً. فهلك من العسكر في مخارم الجبل وشعابه كثير. ثم إنهم ظفروا بأهله وأكثروا فيهم القتل والأسر، وفرغوا منهم وأراحوا المسلمين من شرّهم.

وعاد مسعود من غزنة إلى بلخ في سنة ٤٣٠ هـ = ١٠٣٩ م. وزوج ابنه من ابنة بعض ملوك الغز ليتّقي جانبه، وأقطع ـ خوارزم ـ إلى شاه ملك الجندي. فسار إليها وبها خوارزم شاه اسماعيل بن التونتاش، فجمع هذا جيشه، وتصدى لجيش شاه ملك الجندي، ودامت الحرب بينهما مدة شهر، وانهزم اسماعيل، والتجأ الى طغرل بك وأخيه داود ـ ملوك السلاجقة ـ ودخل شاه ملك الجندي خوارزم منتصراً. وتابع مسعود قتاله للأتراك ـ الغز ـ سنة ٤٣١ هـ = ١٠٤٠ م. ووقعت بينه وبينهم اشتباكات نجح فيها مسعود بانتزاع قلعة كانت بيد الغز في خراسان؛ وأجلاهم عن خراسان، فلجؤوا إلى الصحراء.

رجع مسعود بن محمود بن سبكتكين من خراسان إلى غزنة، فقبض على عدد من الأمراء الذين أظهروا تمرّدهم، وعمل على تعيين آخرين. وسير ولده ـ مودود ـ إلى خراسان في جيش كثيف ليمنع السلاجقة من الرجوع إليها. فسار مودود إلى بلخ ـ. وسار مسعود بعده بسبعة أيام يريد بلاد الهند ليشتوا بها على عادة والده، فلما سار أخذ معه أخاه محمداً، واستصحب الخزائن والأموال، وكان عازماً على الاستنجاد بالهند على قتال السلاجقة؛ ثقة منه بعهودهم؛ فلما عبر نهر سيحون الكبير، وعبر بعض خزائن الأموال، اجتمع أحد قادته ـ أنوشتكين البلخي ـ بقادة آخرين، وجمع قوة، ونهب ما تخلّف من خزائن الأموال التي لم تعبر النهر بعد؛ وأقبلوا على أخيه محمد وسلموا عليه بالإمارة؛ فامتنع من قبول ذلك؛ فتهددوه وأكرهوه، فاستجاب لهم. وبقي مسعود فيمن معه من العسكر، ونظمهم، والتقى الجمعان، فاقتتلوا وعظم الخطب على الطائفتين، ثم انهزم عسكر مسعود وتحصّن هو في رباط ـ ماريكله ـ فحصره أخوه،

فامتنع عليه، فقالت له أمه: « إن مكانك لا يعصمك، ولأن تخرج إليهم بعهد خير من أن يأخذوك قهراً ». فخرج إليهم. فقبضوا عليه. فقال له أخوه محمد: « والله لا قابلتك على فعلك بي، ولا عاملتك إلاّ بالجميل، فانظر أين تريد أن تقيم حتى أحملك إليه، ومعك أولادك وحرمك » فاختار الإقامة في قلعة ـ كيلي ـ فأرسله إليها تحت الحراسة، وأمر بإكرامه وحمايته. وأرسل مسعود إلى أخيه محمد يطلب منه مالاً ينفقه، فأرسل إليه خمسمائة درهم، فبكى مسعود وقال: « كان بالأمس حكمي على ثلاثة آلاف حمل من الخزائن؛ واليوم لا أملك الدرهم الفرد » فأعطاه الرسول من ماله ألف دينار فقبلها. ثم إن محمداً فوض أمر دولته إلى ولده أحمد، وكان فيه خبط وهوج، فاتفق هو وابن عمّه يوسف بن سبكتكين على قتل مسعود، ليصفو الملك له ولوالده، فدخل إلى أبيه وطلب خاتمه بزعم ختم بعض الخزائن، فأعطاه، فسار به الى القلعة، وأعطوا الخاتم لمستحفظها ـ قائد حاميتها ـ وقالوا: « معنا رسالة إلى مسعود » فأدخلهم إليه فقتلوه. فلما علم محمد بذلك ساءه وشق عليه وأنكره. ثم كتب الى ابن أخيه ـ مودود ـ وهو بخراسان وقال له: « إن والدك قتل قصاصاً؛ قتله أولاد أحمد ينالتكين بلا رضا مني ». لكن مودود عرف الحقيقة، فكتب إلى عمّه: **« أطال الله بقاء الأمير القاسم، ورزق ولده المعتوه أحمد عقلاً يعيش به. فقد ركب أمراً عظيماً. وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي الذي لقبه أمير المؤمنين بلقب سيد الملوك والسلاطين، وستعلمون في أي حتف تورطتم، وأي شرّ تأبّطتم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون:**

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلما ».

ثم إن مودوداً أسرع بقيادة جيشه، وسار به إلى غزنة، حيث التقى بجيش عمّه محمد ودارت معركة حاسمة انتصر فيها مودود، وقبض على عمّه محمد وعلى ولده أحمد وعلى أنوشتكين الخصي البلخي وابن علي خويشاوند فقتلهم وقتل أولاد عمّه جميعهم؛ إلاّ عبدالرحيم لإنكاره على أخيه عبدالرحمن ما فعله بعمّه عند قتله. وقتل كذلك كل من اشترك في المؤامرة على أبيه مسعود. وشيد في موضع الوقعة قرية ورباطاً وسمّاها ـ فتح

آباذ ـ وبعد أن انتقم لقتل والده (مسعود) (*) واستحوذ على الملك، عاد الى غزنة، واستوزر أبا نصر ـ وزير أبيه ـ وأظهر العدل وحسن السيرة وسلك سيرة جدّه محمود. وكان داود أخو طغرل بك قد استولى على مدينة بلخ واستباحها، فيما كان مودود يستعد لقتاله، عندما قتل مسعود، فلمّا فرغ مودود من تصفية المشكلة مع عمّه؛ وعاد الى غزنة ظافراً. تجدد عزم أهل هراة على قتال الغز السلاجقة؛ واستمدوا من انتصار مودود تصميماً، فهاجموا الغز السلاجقة وأخرجوهم من ديارهم، وحفظوا بلدهم لمودود. واستقر ملك أبيه له.

سار الغز السلاجقة قدماً على طريق بناء دولتهم بقوة وثبات؛ رغم ما تعرضوا له من نكبات وكوارث واستطلع ـ طغرل بك ـ وأشقاؤه فرض سيطرتهم على جرجان وطبرستان وخوارزم وهمذان والري وبلاد الجبل وكرمان وشهرزور. وتقلصت حدود دولة ـ آل سبكتكين ـ تباعاً حتى إذا ما كانت سنة ٤٣٥ هـ = ١٠٤٣ م وجه مودود جيشاً إلى نواحي خراسان بقيادة حاجب له، فأرسل طغرل بك جيشاً بقيادة ابنه ألب أرسلان فالتقى الجيشان، ودارت معركة كان النصر فيها الى جانب جيش ألب أرسلان. فعاد جيش مودود الى غزنة منهزماً. وقام الغز السلاجقة على أثر ذلك بالتوجّه نحو ـ بست ـ فأعملوا فيها نهباً وقتلاً، فسير إليهم مودود جيشاً قاتلهم قتالاً شديداً، فانهزم الغز، وكثر فيهم القتل والأسر.

(*) السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين ـ قتل سنة ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م. «كان شجاعاً كريماً، ذا فضائل كثيرة، محباً للعلماء، كثير الإحسان إليهم والتقرّب لهم، صنفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلوم. وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة. تصدّق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأكثر الادرارات والصلات، وعمر كثيراً من المساجد في ممالكه. وكانت صنائعه ظاهرة مشهورة سارت بحديثها الركبان، مع عفة عن أموال رعاياه. أجاز الشعراء بجوائزعظيمة، وأعطى شاعراً على قصيدة ألف دينار، وأعطى آخر بكل بيت ألف درهم. وكان يكتب خطاً حسناً. وكان ملكه عظيماً فسيحاً، فملك أصبهان والري وسجستان والسند والرخج وغزنة وبلاد الغور والهند. وقد صنفت فيه التصانيف المشهورة».

حدث أثناء ذلك ان اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند وقصدوا ـ هاوور ـ وحصروها. فجمع مقدم العساكر الإسلامية ببلاد الهند قواته، وأرسل إلى مودود يستنجده ويستمدّه، فسير إليه جيشاً، غير أن أحد هؤلاء الملوك عاد فانسحب من اتفاقه وأعلن طاعته لمودود والخضوع له. وعاد الملكان الآخران الى بلادهما. وسار الجيش الإسلامي الى أحدهما واسمه ـ دوبال هربانه ـ فهرب هذا منهم وصعد الى قلعة له منيعة هو وعساكره، فاحتموا بها، وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلاّ بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك الذي لهم، فحملهم الخوف وانعدام الاقوات والمواد التموينية على قبول ما طلبه المسلمون الذين تسلّموا الحصون جميعها وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين؛ وكانوا نحو خمسة آلاف مسلم. فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني ـ واسمه ثابت بالري ـ فتقدّم المسلمون إليهم واقتتلوا معهم قتالاً شديداً وانهزمت الهنود، وأسفرت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح وأسر ضعفاؤهم؛ وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم، فلمّا رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء، أذعنوا بالطاعة، وحملوا الأموال. وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم، فأجابهم مودود إلى ذلك.

لقد حاول مودود بذل كل جهد مستطاع للمحافظة على دولته والإبقاء عليها، غير أن تيار الغز السلاجقة كان أقوى من محاولاته؛ رغم ما حقّقه من انتصارات عليهم في عدد من المعارك. فلما كانت السنة التالية (٤٤١ هـ = ١٠٤٩ م) أرسل الرسائل الى أمراء الأقاليم وحكامها في سائر البلاد، وطلب إليهم نصرته ودعمه بالقوات، وبذل لهم الأموال الكثيرة، وأسند حكم خراسان ونواحيها إلى عدد من الرجال الأكفاء ـ على قدر مراتبهم ـ واستجاب له الأمراء والحكام. وأرسلوا له جيوشهم فسار بهم من غزنة لقتال الغز السلاجقة ـ ولكنه لم يسر أكثر من مرحلة واحدة حتى دهمه المرض، واشتد عليه، فعاد الى غزنة، ووجّه جيشه بقيادة وزيره ـ أبي الفتح عبدالرزّاق أحمد الميمندي

لإخراج الغز السلاجقة من ـ سجستان ـ. ولم يلبث (السلطان ـ أبو الفتح ـ مودود) (*) أن توفي. فكانت وفاته هي النهاية الكئيبة والمحزنة لدولة جاهدت على امتداد عشرات السنين لنقل الإسلام الى الهند ـ ذلك المحيط الشاسع.

بايع الناس ـ في غزنة ـ ولد السلطان مودود ـ ثم عدلوا عنه فبايعوا عمّه عبدالرشيد ابن محمود. وأسرع الغز السلاجقة بالتحرك، فقتلوا من بقي من حكام هذه الأسرة واستولوا على ممالكهم.

(*) السلطان مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين (٤١٢ هـ = ١٠٢١-١٠٤٩ م) اقتصر ملكه في نهاية أمره على غزنة. ومات وعمره تسع وعشرون سنة. ودام ملكه تسع سنين وعشرة أشهر. لقب بلقب ـ أبو الفتح ـ وكان آخر الرجال الكبار من آل سبكتكين الذين نذروا حياتهم للجهاد في سبيل الله.

٥ ـ الحروب البحرية

أ ـ مصر تقود الجهاد البحري .

ب ـ صقلية قاعدة للمسلمين .

١ ـ مصر تقود الجهاد البحري .

لقد كان الجهاد في البحر مأثرة فاز بها أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان؛ رضي الله عنه؛ وأمسك بها خلفاء بني أمية، حتى انتزعوا من الروم سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط، وحولوا هذا البحر الذي كان يحمل اسم ـ بحر الروم ـ إلى ما أصبح يعرف باسم ـ بحر الشام ـ. ومع زوال العهد الأموي؛ ثم ظهور دولة الأمويين في الأندلس؛ اضطلع العهد الأموي الأندلسي بما كان يضطلع به من قبل؛ فحفظ للقسم الغربي من هذا البحر السيادة للعرب المسلمين. وأهمل العباسيون قضية الجهاد في البحر؛ حتى خلت الحوليات التاريخية من أي ذكر لغزوات بحرية؛ الأمر الذي أتاح الفرصة أمام الروم لبناء قدرة بحرية جديدة؛ وبدأت محاولات الروم من جديد لفرض وجودهم البحري في شرقي المتوسط. وقد ظهر ذلك بعد انقضاء قرن تقريباً على قيام العهد العباسي. ففي سنة ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م. جاءت للروم ثلاثمائة مركب بقيادة القادة ـ عرفا وابن قطونا وأمر دناقة ـ وكانوا هم قادة البحر؛ ومع كل واحد منهم مائة مركب؛ فأنزل ـ ابن قطونا ـ قواته في دمياط؛ وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون فيها الماء إلى صدر الرجل؛ فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر؛ فجازها قوم فسلموا وغرق قوم كثير من نساء وصبيان؛ واحتمل من كانت له قوة في السفن؛ فنجوا إلى ناحية الفسطاط، وبينها وبين الفسطاط مسيرة أربعة أيام. وكان والي معونة مصر ـ عنبسة بن إسحاق الضبي ـ قد أصدر أمره إلى الحامية المقيمة في دمياط بالانتقال إلى الفسطاط؛ وأخلى دمياط من الجند. ووصلت مائة مركب للروم؛ يحمل كل مركب ما بين الخمسين رجلاً إلى المائة رجل؛ فنزلوا بدمياط؛ وأحرقوا ما وصلوا إليه من دورها وأخصاصها؛ واحتملوا سلاحاً كان فيها، أرادوا حمله إلى أبي حفص صاحب أقريطش ـ كريت ـ. وقتلوا من أمكن قتله من الرجال؛ وأخذوا من الأمتعة ما كان قد عبيء ليرسل إلى العراق. وسبوا من المسلمات والقبطيات نحواً من ستمائة

امرأة. وانسحب الروم بعد أن أحرقوا المسجد الجامع بدمياط، وأحرقوا كنائس؛ وغرق من النساء والصبيان أكثر مما سباه الروم.

هكذا فرض الروم تحدياتهم البحرية على مصر؛ وجاء والي مصر ـ أحمد بن طولون ـ ليرد على التحدي؛ ففي سنة ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م قام أمير صقلية ـ جعفر بن أمير ـ بغزو مدينة سرقوسة؛ وهي من أعظم مدن صقلية؛ فأفسد زرعها وزرع قطانية وطبرمين ورمطة وغيرها من بلاد صقلية التي كانت بيد الروم؛ ونازل سرقوسة وحاصرها براً وبحراً؛ وملك بعض أرباضها ـ نواحيها ـ ووصل مراكب الروم نجدة لها؛ فسير لها اسطولاً، فأصابوها؛ فتمكنوا حينئذ من حصرها. وأقام العسكر محاصراً لها تسعة أشهر؛ وفتحت وقتل من أهلها عدة ألوف؛ وأصيب فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة أخرى؛ ولم ينج من رجالها إلا الشاذ الفذ. وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين؛ ثم هدموها؛ ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية اسطول، فالتقوا هم والمسلمون؛ فظفر بهم المسلمون؛ وأخذوا منهم أربع قطع؛ فقتلوا من فيها؛ وانصرف المسلمون إلى بلدهم.

عاد اسطول الروم فاشتبك مع اسطول المسلمين عند صقلية سنة ٢٦٦ هـ = ٨٧٩ م؛ وجرى بينهما قتال شديد؛ فظفر الروم بالمسلمين وأخذوا مراكبهم؛ وانهزم من سلم منهم إلى مدينة باليرمو ـ أوباليرم ـ بصقلية. وفي سنة ٢٦٨ هـ = ٨٨١ م سارت سرية بصقلية؛ بقيادة رجل اسمه ـ أبو الثور ـ فلقيهم جيش من الروم؛ فأصيب المسلمون كلهم غير سبعة نفر؛ فعمل أحمد بن طولون على عزل حاكم صقلية ـ الحسن ابن العباس ـ وعين مكانه ـ محمد بن الفضل ـ فبث السرايا في كل ناحية من صقلية؛ وخرج هو في حشد وجمع عظيم؛ فسار إلى مدينة قطانية فأهلك زرعها ثم رحل؛ فلقي عساكر الروم؛ فاقتتلوا، فانهزم الروم وقتل أكثرهم؛ فكانت عدة القتلى ثلاثة آلاف قتيل. ثم سار المسلمون إلى قلعة كان الروم قد بنوها منذ عهد قريب؛ وأطلقوا عليها اسم ـ مدينة الملك ـ فملكها المسلمون عنوة؛ وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها. وقام ـ محمد بن الفضل ـ في السنة التالية (٢٦٩ هـ = ٨٨٢ م) قاد قواته إلى ناحية رمطة؛ وبلغ العسكر إلى قطانية؛ فقتل كثيراً من الروم؛ وسبى وغنم؛ ثم انصرف إلى باليرمو.

لقد كانت ـ صقلية ـ هي القاعدة المتقدمة التي تستخدمها البحرية البيزنطية للعدوان. ولهذا فإن قضية الصراع ضدها لم تكن قضية شخص؛ وإنما كانت قضية سياسة استراتيجية ثابتة بالنسبة لمصر. فقد توفي (أحمد بن طولون) (*) وتوفي في السنة ذاتها أمير صقلية (٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م) فولى بعده ـ سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي ـ فقدم إليها وقاد جيشاً كبيراً إلى مدينة قطانية؛ فأهلك ما فيها؛ وسار إلى طبرمين؛ فقاتل أهلها؛ وأفسد زرعها؛ وتقدم فيها؛ فأتاه رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة؛ فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين فرجع ـ سوادة ـ إلى باليرمو. فلما انقضت مدة الهدنة؛ سير أمير صقلية ـ سوادة ـ السرايا إلى بلاد الروم بصقلية، فغنمت وعادت. ووجهت القسطنطينية ـ سنة ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م ـ قوة بحرية بقيادة ـ انجفور ـ فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين، فسلموها على أمان. ثم وجه ـ انجفور ـ عسكراً ـ إلى مدينة منتيه، فحصرها حتى سلمها أهلها بأمان، ولحق المسلمون في مدينة ـ باليرمو ـ بصقلية.

عزل أمير افريقية حاكم صقلية (سنة ٢٨٧ هـ = ٨٩٠ م) لأنه استضعفه، وعين مكانه ـ أبا العباس بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ـ فدخل هذا صقلية في سنة ٢٨٨ هـ. وتجهز للغزو؛ وعمر الأسطول؛ وسار إلى مسينى ـ أومسينا ـ ثم تجاوزها إلى ريو؛ وقد اجتمع بها كثير من الروم؛ فقاتلهم على باب المدينة وهزمهم وملك المدينة بالسيف؛ وغنم من الذهب والفضة ما لا يحد؛ وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة. ورجع إلى ـ مسينى ـ وهدم سورها ووجد بها مراكب قد وصلت من القسطنطينية؛ وأخذ منها ثلاثين مركباً؛ ورجع إلى المدينة. تكررت غزوات البحرية المصرية بعد

(*) أحمد بن طولون ـ مؤسس الدولة الطولونية في مصر. حكم مصر والشام والثغور الشامية نحو ست وعشرين سنة (٢٤٤ ـ ٢٧٠ هـ = ٨٥٨ ـ ٨٨٣ م) اشتهر بالكفاءة العالية، كان عاقلاً، حازماً، كثير المعروف والصدقة، متديناً، يحب العلماء وأهل الدين. وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين. وهو الذي بنى قلعة يافا وكانت المدينة بغير قلعة. وكان يميل إلى مذهب الشافعي، ويكرم أصحابه؛ وولي بعده ابنه خارويه.

ذلك، غير أن أكبر حدث وقع بعد ذلك هو ما حدث سنة ٣١٣ هـ = ٩٢٥ م؛ حيث سار جيش صقلية مع أميرهم ـ سالم بن راشد ـ وأرسل إليهم المهدي جيشاً من افريقية؛ فسار إلى أرض ـ انكبردة؛ ايطاليا ـ ففتحوا أبرجة وغنموا غنائم كثيرة؛ ثم ساروا إلى أرض قلورية وقصدوا مدينة طارنت ـ تورنتو ـ فحصروها وفتحوها بالسيف؛ ووصلوا إلى مدينة ـ اذرنت ـ فحصروها وخربوا منازلها. ولم يزل أهل صقلية يغيرون على ما بأيدي الروم من جزيرة صقلية وقلورية وينهبون ويخربون.

توافرت المعلومات لملك الروم عن اضطراب أوضاع المسلمين في صقلية؛ وحدوث صراعات وحروب بعضهم ضد بعض؛ فوجه إليهم في سنة ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م؛ بطريقاً في البحر في جيش كثير، فأرسل أمير صقلية ـ الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي ـ إلى أمير مصر ـ المنصور ـ يشرح له الموقف ويستمده؛ فأرسل إليه المنصور أسطولاً فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل سوى البحرية. وجمع الحسن إليهم جمعاً كثيراً؛ وسار في البر والبحر؛ فوصل إلى مسيني ـ أومسينا ـ وعبرت العساكر الإسلامية إلى ـ ريو ـ وبث الحسن السرايا في أرض ـ قلورية؛ وهي جزيرة في شرقي صقلية ـ. وعلم الحسن أن الروم قد زحفوا إليه؛ فصالح أهل مدينة كان يحاصرها ـ اسمها جراجة ـ وسار إلى لقاء الروم؛ ففروا من غير حرب إلى مدينة بارة ـ ونزل الحسن على قلعة قسانة، وبث سراياه إلى قلورية. وأقام عليها شهراً، فسألوه الصلح؛ فصالحهم على مال أخذه منهم. ودخل الشتاء، فرجع المسلمون إلى مسينا، وشتى الأسطول بها. فأرسل أمير مصر ـ المنصور ـ أمراً إلى الحسن بالعودة إلى قلورية؛ فسار وعبر المضيق ـ المجاز ـ إلى جراجة ـ فالتقى المسلمون والروم (سنة ٣٤٠ هـ = ٩٥١ م) فاقتتلوا أشد قتال عرفه الناس؛ فانهزمت الروم؛ وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل؛ وأكثروا القتل فيهم. وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم. وقصد المسلمون في السنة التالية ـ جراجة ـ فحصروها؛ فأرسل ملك الروم قسطنطين يطلب الهدنة، وتم ذلك. وعاد الحسن بجيشه إلى ـ ريو ـ وبنى بها مسجداً كبيرا في وسط المدينة؛ وبنى في أحد أركانه مئذنة، وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والأذان.

وأن لا يدخله نصراني؛ ومن دخله من الأسارى المسلمين فهـو آمـن سـواء كان مرتداً أو مقيماً على دينه؛ وإن أخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها في صقلية وإفريقية. فرضي الروم. والتزموا بهذه الشروط (*) .

(*) الكامـل في التاريخ ـ أحداث سنة ٣٣٦ و٣٤٠ هـ.

ب ـ صقلية قاعدة للمسلمين.

هكذا أصبحت صقلية هي القاعدة المتقدمة للمسلمين، والتي تمكنت من إشغال الروم بأنفسهم؛ بدلاً من توجيه قدرتهم البحرية ضد ثغور المسلمين؛ سواء في الشام أو في مصر. ولهذا فقد عرفت أرض جزيرة صقلية وسواحلها صراعاً قاسياً ومريراً؛ استمر طويلاً، غير أنه كان على فترات متقاربة أحياناً، ومتباعدة في أحيان أخرى؛ تبعاً لما كان يحكم الصراع المسلح من ظروف داخلية أو خارجية. وفي سنة ٣٥١ هـ = ٩٦٢ م. سارت جيوش المسلمين بصقلية بقيادة الأمير الحسن إلى قلعة ـ **طبرمين**؛ من صقلية أيضاً وهي بيد الروم وقد وصفت بأنها من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين ـ فحصروها؛ فامتنع أهلها؛ ودام الحصار عليهم؛ فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا إلى الماء الذي يدخلها فقطعوه عنها وأجروه إلى مكان آخر؛ فعظم الأمر عليهم؛ وطلبوا الأمان؛ فلم يجابوا إلى ذلك؛ فعادوا وطلبوا أن يؤمنوا على دمائهم؛ ويكونوا رقيقاً للمسلمين؛ وأموالهم فيئاً؛ فأجيبوا إلى طلبهم. وأخرجوا من البلد؛ وملكه المسلمون بعد حصار استمر سبعة أشهر ونصف الشهر. وأسكن القلعة نفراً من المسلمين؛ وسميت ـ المعزية نسبة إلى المعز العلوي صاحب افريقية ـ. وسار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة أقريطش ـ كريت ـ فأرسل أهلها إلى المعز لدين الله العلوي صاحب افريقية يستنجدونه؛ فأرسل إليهم نجدة؛ فقاتلوا الروم، فانتصر المسلمون؛ وأسر من كان بالجزيرة من الروم.

خاف الروم بصقلية؛ من استيلاء المسلمين على ـ طبرمين ـ فأرسلوا إلى ملك الروم بالقسطنطينية يعلمونه الحال؛ ويطلبون منه أن ينجدهم بالجند، فجهز إليهم عسكراً عظيماً زاد على أربعين ألف مقاتل؛ وسيرهم في البحر؛ فوصلت الأخبار إلى أمير صقلية، فأرسل هذا إلى أمير افريقية ـ المعز ـ يعرفه الحال ويستمده ويسأله ارسال العساكر إليه سريعاً؛ وانصرف في الوقت ذاته إلى إصلاح الأسطول والزيادة فيه؛ وجمع الرجال المقاتلة في البر والبحر. وأثناء ذلك كان المعز قد حشد جيشاً ووجهه إلى صقلية؛ فسار بعض الجيش إلى ـ **رمطة** ـ التي كان يحاصرها المسلمون، وعملوا على

دعم الحصار. ووصل الروم إلى صقلية ونزلوا عند مدينة ـ مسينا ـ وزحفوا منها بجموعهم التي لم يدخل صقلية مثلها ـ إلى رمطه ـ فلما علم مقدم جيش المسلمين ـ الحسن ابن عمار ـ ترك قسماً من جيشه للابقاء على حصار رمطة ومنع أحد من الخروج منها؛ وخرج ببقية جيشه للقاء الروم؛ وقد عزم وجنده على القتال حتى الموت. ووصل الروم؛ وأحاطوا بالمسلمين، ونزل أهل رمطة لقتال القوة التي تحاصرهم؛ وليأتوا المسلمين من ظهورهم. فقاتلهم المسلمون وصدوهم عما أرادوا. وتقدم الروم إلى القتال وهم مدلون بكثرتهم وبما معهم من الأعتدة وغيرها؛ والتحم القتال، وعظم الأمر على المسلمين؛ وألحقهم العدو بخيامهم؛ وأيقن الروم بالظفر. فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت؛ ورأوا أنه أسلم لهم (*) .وحمل بهم أميرهم ـ الحسن بن عمار ـ وحمي الوطيس حينئذ؛ وحرضهم على قتال الكفار. وكذلك فعل بطارقة الروم الذين حملوا وحرضوا عساكرهم. وحمل مقدم الروم ـ مانوئيل ـ فقتل في المسلمين. فطعنه المسلمون؛ فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من اللباس؛ فرمى بعضهم فرسه فقتله، واشتد القتال عليه، فقتل هو وجماعة من بطارقته، فلما قتل انهزم الروم أقبح هزيمة؛ وأكثر المسلمون فيهم القتل. ووصل المنهزمون إلى جرف خندق عظيم كالحفرة؛ فسقطوا فيها من خوف السيف؛ فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت؛ وكانت الحرب من بكرة إلى العصر. وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية؛ وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ما لا يحد. وكان في جلة الغنيمة سيف هندي عليه مكتوب: «هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً؛ طالما ضرب به بين يدي رسول الله ﷺ» فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرؤوس. وسار من سلم من الروم إلى ريو. وأما أهل رمطة فإنهم ضعفت نفوسهم؛ وكانت الأقوات قد قلت عندهم، فأخرجوا من فيها من الضعفاء، وبقي المقاتلة، فزحف إليهم المسلمون، وقاتلوهم إلى الليل؛ ولزموا القتال في الليل أيضاً. وتقدموا بالسلاليم؛ فملكوها عنوة؛ وقتلوا من فيها؛ وسبوا الحرم والصغار؛ وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً عظيماً. ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم

(*) ردد المسلمون يومها قول الشاعر:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما.

فيها . ثم أن الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة ريو منهم؛ وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم؛ فركب الأمير في عساكره وأصحابه في المراكب أيضاً؛ وزحف إليهم في الماء؛ وقاتلهم واشتد القتال بينهم. وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء؛ وخرقوا كثيراً من المراكب التي للروم، فغرقت؛ وكثر القتل في الروم، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد . وسارت سرايا المسلمين في مدائن الروم؛ فغنموا منها؛ فبذل أهلها لهم من الأموال وهادنوهم. وهذه الوقعة الأخيرة التي نفذت سنة ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م هي المعروفة باسم (وقعة المجاز).

سار أمير صقلية بعد ذلك (سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٥ م) وجيشه؛ ومعه جماعة من الصالحين والعلماء، فنازل مدينة مسينا، فهرب الروم عنها؛ وعبر المسلمون إلى ـ كسنتة ـ فحصروها أياماً؛ فسأل أهلها الأمان، فأجابهم الأمير إلى ذلك؛ وأخذ منهم مالاً؛ ورحل عنها إلى قلعة ـ جلوا ـ ففعل ذلك بها وبغيرها، وأمر الأسطول بالسير إلى ناحية ـ بربولة ـ وأن يثبت السرايا في جميع أنحاء قلورية؛ ففعل ذلك؛ فغنم غنائم كثيرة؛ وقتل وسبى وعاد إلى المدينة؛ فلما كانت سنة ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م. أصدر أمير صقلية أوامره ببناء ـ رمطة ـ وكانت قد خربت قبل ذلك، وعاود الغزو وجمع الجيوش؛ وسار فنازل قلعة ـ اغاثة ـ فطلب أهلها الأمان؛ فأمنهم؛ وسلموا إليه القلعة بجميع ما فيها. ورحل إلى مدينة طارنت ـ تورنتو ـ فرأى أن أهلها قد هربوا منها؛ وأغلقوا أبوابها، فصعد الناس السور؛ وفتحوا الأبواب؛ ودخلها الناس فأمر الأمير بهدمها؛ فهدمت وأحرقت. وأرسل السرايا فبلغوا ـ أذرنت ـ وغيرها. ونزل على مدينة ـ عردلية ـ فقاتلها؛ فبذل أهلها له مالاً صالحهم عليه وعاد إلى المدينة.

جابه المسلمون مأزقاً صعباً في صقلية سنة ٣٧١ هـ = ٩٨١ م. فقد وصل جيش كبير من الفرنج ـ بقيادة الملك بردويل ـ فحصر قلعة مالطة؛ وملكها؛ وأصاب سريتين للمسلمين، فسار أمير صقلية ـ أبو القاسم ـ بجيش صغير لاستعادة القلعة، فلما قاربها؛ خاف من اللقاء، وجمع وجوه أصحابه؛ وقال لهم: «اني راجع من مكاني هذا؛ فاعملوا برأيي». فرجع هو وعساكره؛ وكان أسطول الكفار يساير المسلمين في البحر؛ فلما رأوا المسلمين راجعين؛ أرسلوا إلى ملكهم ـ بردويل ـ وأعلموه «بأن المسلمين

خائفون منك فالحق بهم فإنك تظفر » . فجرد الملك عسكره من أثقالهم؛ وسار بقوات خفيفة؛ وأسرع في مسيره. فنظم المسلمون قواتهم للمعركة، واقتتلوا، واشتدت الحرب بينهم؛ فحمل طائفة من الفرنج على قلب قوات المسلمين والاعلام، فمزقوا قوات المسلمين؛ ووصلوا إليها، وقد تفرق كثير من المسلمين عن أميرهم؛ واختل نظامهم. فوصل الفرنج إليه فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل، وقتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم. ثم إن المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا. واشتد حينئذ الأمر؛ وعظم الخطب على الطائفتين. فانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل. وأسر من بطارقتهم كثير. وتبعوهم إلى أن أدركهم الليل، وغنموا من أموالهم كثيراً. وأفلت ملك الفرنج هارباً ومعه رجل يهودي كان خصيصاً به، فوقف فرس الملك؛ فقال له اليهودي: « اركب فرسي؛ فإن قتلت فأنت لولدي » فركبه الملك وقتل اليهودي، فنجا الملك إلى خيامه وبها زوجته وأصحابه فأخذهم وعاد إلى - رومية -. ولما قتل الأمير - أبو القاسم (*) كان معه ابنه جابر؛ فقام مقام أبيه؛ ورحل بالمسلمين على الفور؛ ولم يمكنهم من جمع الغنائم؛ فتركوا كثيراً منها. وسأله أصحابه أن يقيم إلى أن يجمع السلاح وغيره؛ ويعمر بها الخزائن؛ فلم يفعل.

مضى زهاء نصف قرن من عمر الزمن ساد خلاله الهدوء النسبي على جبهة البحر؛ حتى إذا ما كانت سنة ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م؛ خرج الروم في جمع كثير؛ وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية - وهي المجاورة لجزيرة صقلية - وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن اخت ملك الروم. فبلغ ذلك حاكم مصر - المعز بن باديس - فجهز أسطولاً كبيراً من أربعمائة قطعة؛ وحشد فيها؛ وجمع خلقاً كثيراً، وتطوع جمع كبير للجهاد رغبة في الأجر والثواب، فسار الاسطول، فلما قرب من جزيرة قوصرة - وهي قريبة من بر افريقية - خرج عليهم ريح شديدة؛ ونوء عظيم؛ فغرق أكثرهم؛ ولم ينج إلا اليسير.

(*) كانت مدة إمارة أبي القاسم لصقلية اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر (٣٦٠ - ٣٧٢ هـ = ٩٧٠ - ٩٨٢ م). اشتهر بإشاعة العدل وحسن السيرة والشفقة على رعيته والإحسان اليهم. مات ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا عقاراً. ووقف جميع أملاكه على الفقراء وأبواب البر.

تولى النورمان بعد ذلك الهجوم ضد المسلمين؛ فانتزعوا منهم بالبرمو سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م. وما لبثوا أن انتزعوا منهم صقلية سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م. وتطاول - روجر أو رجار - ملك صقلية فعمر اسطولاً كبيراً وملك الجزائر التي بين صقلية والمهدية مثل مالطة وقوصرة وجربة وقرقنة. وكان هذا الهجوم هو المقدمة للحروب الصليبية القديمة التي سارت إلى بلاد الشام ووصلتها سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م.

﴿والَّذينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنَا ولإخْوانِنا الَّذينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ وَلاَ تَجْعَلْ في قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذينَ آمَنُوا. رَبَّنَا إنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. صدق الله العظيم ـ سورة الحشر ـ الآية ١٠.

الفصل الثالث

فن الحرب في العصر العباسي

- ١ ـ المذهب العسكري الإسلامي.
- ٢ ـ حروب الردة.
- ٣ ـ قصة المعركة في العصر العبّاسي.
- ٤ ـ تدابير الأمن والحيطة.
- ٥ ـ الخميس والخلافة.
- ٦ ـ القوة في خدمة المجتمع الإسلامي.
- ٧ ـ الجبهة الداخلية والقدرة القتالية.
- ٨ ـ الحروب النظامية والحروب الثورية.
- ٩ ـ التجربة التاريخية للعصر العبّاسي.
- ١٠ ـ الحرية الفكرية ـ والبحث التاريخي.
- ١١ ـ الأيام الأخيرة للعصر العبّاسي.

أ ـ المذهب العسكري الإسلامي.

كانت الدعوة العباسية بمثابة حركة سياسية ـ بحسب مصطلحات الأزمنة الحديثة ـ غير أن هذه الحركة لم تكن منفصلة عن العقيدة الدينية، ولا منعزلة عنها، بل كانت العقيدة الدينية الإسلامية هي قاعدة هذه الحركة وأساسها. ولم يكن باستطاعة بني العبَّاس أن ينحرفوا عن هذه القاعدة أو أن يبتعدوا عن أساسها. فكان من طبيعة الأمور أن يبقى المذهب العسكري في العصر العباسي متلاحماً تلاحماً وثيقاً مع العقيدة الدينية الإسلامية. وبقيت أهداف الدولة العباسية مماثلة لما كانت عليه في العصر الأموي: (الجهاد في سبيل الله) و (رفع راية الإسلام) و (إعزاز الإسلام وأهله) و (الدفاع عن المسلمين في كل أرجاء الأرض). وكان لهذه الأهداف دائماً الأفضلية المطلقة على كل ما عداها من الأهداف. واستمرت العقيدة الإسلامية في توجيه المذهب العسكري، وإطلاق القدرات الكامنة في المجتمع الإسلامي وتوجيهه لبناء مجتمع الحرب والسلام في إطار تحقيق القيم والفضائل الإسلامية. وعلى هذا يمكن التساؤل: **ما هو الجديد في فن الحرب الإسلامي؟ وما هي المستجدات التي حملها العصر العباسي للمذهب العسكري الإسلامي؟**

إن تلاحم المذهب العسكري الإسلامي مع العقيدة الدينية يفترض بداهة عدم وجود تباين بين هذا المذهب العسكري في العهد الأموي عنه في العهد العباسي. فالأهداف للمذهب العسكري واحدة، أما الوصول إلى تطبيقها فهو يختلف باختلاف الظروف. ومن هنا فإن المستجدات التي طرأت على المذهب العسكري الإسلامي في العصر العبّاسي تتمثل بتنظيم الجيوش وإدارة الحرب. ولقد كان العصر الأموي هو عصر الفتوح. بينما انصرف الجهد في العصر العباسي لتوطيد دعائم الدولة، وحماية مواطنيها.

وهكذا فبينما كانت السياسة الاستراتيجية للعصر الأموي سياسة استراتيجية

هجومية، تحوّلت في العصر العباسي لتصبح دفاعية. ولقد وقعت في العصر العباسي الأول مجموعة من المعارك الضخمة مع الروم. لكن هذه المعارك لم تكن إلاّ دفاعية رغم توغّلها في بلاد الروم، سواء أيام هرون الرشيد أو أيام المأمون أو المعتصم. ولقد تولى ـ الحمدانيون ـ حماية الثغور، وغزو بلاد الروم ولكن تلك الغزوات الرائعة في أساليبها وطرائقها القتالية لم تكن أكثر من غزوات دفاعية هدفها الأول إشغال الروم بأنفسهم. وكان النصر فيها سجالاً ـ مرة للمسلمين ومرة للروم ـ في حين كان النصر مع الأمويين في معظم الأيام.

لعل أول الظواهر المثيرة في المستجدات هي ضخامة الجيوش في العصر العباسي بالمقارنة مع ما كانت عليه في العصر الأموي. فكيف استطاع الأمويون بجيوشهم الصغيرة نسبياً إنجاز تلك الفتوحات المذهلة، بينما عجزت الجيوش العباسية الضخمة عن تحقيق مثل تلك الإنجازات؟ وهل كانت جيوش العصر الأموي جيوشَ النوعية بينما أصبحت جيوش العصر العباسي جيوش الكمية أو العددية؟ أم هل كان النصر في جيوش العصر الأموي بسبب اعتمادها على العنصر العربي المسلم، بينما أدى غياب هذا العنصر النوعي الى غياب النصر الحاسم، وبالتالي تجميد الفتوحات؟

إن الإجابة على التساؤلات يكمن في مجموعة الحقائق التي أبرزها العرض السابق لمجموعة الأحداث على الجبهتين الداخلية والخارجية. فعلى الجبهة الداخلية؛ جاءت جموع الفرس؛ وسواهم؛ بعشرات الآلاف، واعتبروا أن الدولة دولتهم، فكان التكوين الاجتماعي للدولة يختلف عمّا كان عليه في العصر الأموي. بينما كان خلفاء بني العبّاس هم من نسيج عربي ـ اسلامي لا يختلف عن التكوين الأموي. ولهذا لم يكن غريباً أن يتفجّر الصراع على الجبهة الداخلية مع قيام الدولة العباسية، ولقد جنحت كثير من التفسيرات والتأويلات إلى اعتبار هذه الظاهرة بمثابة تفجير للشعوبية أو العرقية، وتلك حقيقة على ما فيها من الصحة، إلاّ أنها تفتقر إلى الدقة، وفقاً لما أبرزه عرض الأحداث، فالصراع في أساسه إنما يعود بالدرجة الأولى إلى التباين في فهم الإسلام نصاً وروحاً، شكلاً ومضموناً. وليس ذلك بسبب الاختلاف في اللغة ـ وإنما بسبب وجود رواسب جاهلية تختلف في المجتمع الفارسي أو التركي أو سواه عمّا كانت عليه

رواسب الجاهلية لدى العرب.

ولقد طرح العرب المسلمون جاهليتهم وأمكن لهم تجاوزها بفضل مدرسة الإسلام الأولى، بينما عجزت بقية الشعوب عن تجاوز جاهلياتها بمثل تلك السهولة. ولقد أدرك خلفاء بني العباس هذه الحقيقة منذ البدايات الأولى لقيام دولتهم، وعرفوا خطورتها بحكم تجربتهم في نشر الدعوة، ولهذا فقد انصرفوا بكل جهدهم لمعالجة المشكلات الداخلية، وأمكن لخلفاء العصر العباسي الأول استيعاب التناقضات المتباينة، واستئصال الظواهر الشاذة والغريبة منها. غير أن هذه الظواهر والتي استندت إلى جذور جاهلية عميقة، كانت تكتسب قوة لتتطور وتأخذ أشكالاً جديدة مع كل عملية استئصال لها. إذ كان من المحال في غمرة فترة زمنية قصيرة تجاوز الظواهر للوصول الى الجذور واستئصالها، مرة واحدة. وهكذا (لم تكن بصائر من دخلوا الإسلام حديثاً في المجتمعات الجديدة، كمثل بصائر العرب المسلمين). ولكن بالرغم من هذا التباين فقد كان الدين الإسلامي بقوة مضمونه، وبوفرة عطائه، كافياً للهيمنة على الظواهر جميعها. ولهذا لم يكن غريباً أن يظهر عدد من الذين انتحلوا النبوة، وهم يحملون اسم (الإسلام) ويزعمون (التجديد) وهم في الحقيقة يجهلون كل الجهل حقيقة الإسلام في تكامله، في عقائده وعباداته. هذا بالنسبة للعامة، ولقد أفاد أصحاب المطامع، وذوو الطموح، من ذلك للسير مع - كتل الجماهير بحسب التعبيرات الحديثة - لتحقيق أهداف خاصة، دنيوية بالدرجة الأولى. وسار معهم أيضاً الحاقدون على الإسلام وأهله. فهل كان هذا الموقف الداخلي - المتناقض والمتفجر - كافياً لامتصاص جهد الدولة وقدرتها؟ وهل كان من الغريب ان يجتمع قادة الترك ويتفقوا على الفتك بأمير المؤمنين المعتصم وهو في ذروة انتصاره في عمورية؟. وهل كان من الغريب ان يفتك الرشيد بالبرامكة ليسبق الزمن قبل ان يستفحل الخطر ويشتد فيعجز عن مجابهته؟.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن تلاحم العقيدة الدينية - الإسلامية - مع المذهب العسكري الإسلامي. وما حققه العرب المسلمون من إنجازات ضخمة وأعمال قتالية مثيرة بفضل هذا التلاحم، قد أثار أعداء الإسلام والمسلمين على الجبهتين الداخلية والخارجية، فمضوا لتقليد الإسلام والمسلمين ومحاكاتهم عبر حوار الإرادات

المتصارعة. فلا غرابة ان يحاول الروم ـ على الجبهة الخارجية ـ وأن يحاول الزنج والقرامطة وسواهم ـ على الجبهة الداخلية ـ رفع الشعارات الإسلامية ذاتها، وتطبيق الأسس القتالية ذاتها. ويمكن اعتبار هذه الظاهرة برهاناً حاسماً على قوة الإسلام في حد ذاته، ولو أن الإسلام ليس في حاجة لمثل هذا البرهان، كما يعتبر برهاناً حاسماً على ما قدمه العرب المسلمون من عطاء في مذهبهم العسكري، وليس العرب المسلمون بحاجة أيضاً لمثل هذا البرهان، ولكن المهم هو أن التطورات المستحدثة في العصر العباسي قد وضعت الإسلام ووضعت العرب المسلمين خاصة أمام اختبار عسير، وأمام ابتلاء صعب، **فكان على خلفاء بني العباس الصمود أمام هذا الاختبار، ومجابهة هذا الابتلاء. وقد تمكنوا صدقاً وحقاً من الصمود رغم ما نزل بهم من النوائب، وجابهوا الابتلاء رغم ما تعرضوا له من الكوارث والنكبات.**

لقد كان على خلفاء بني العباس ـ من أول أمرهم وحتى نهايته ـ ان يحققوا التطابق والتكامل بين العقيدة الدينية والمذهب العسكري، والقضاء على كل انحراف. ولقد استطاعوا في الواقع تحقيق هذا الهدف بنجاح رائع رغم كل ما اتهموا به من قصور وتقصير، وهو قصور لم تكن لهم إرادة فيه على الأغلب، وتقصير كان خارجاً على قدراتهم وإمكاناتهم. ولكن المهم في الأمر هو أنهم ما انحرفوا عن هدفهم، ولا حادوا عن جادة سبيلهم. ولقد وصلت دولتهم في حالات كثيرة إلى مرحلة الانهيار الكامل. ولكن وحتى في مرحلة الانهيار، بقي خلفاء بني العباس يحققون ذلك التكامل والتطابق، فهم لم يتنازلوا للزنج رغم قوتهم الكبيرة عن شيء ممّا يتعلق بالحدود ـ حدود الله وهو حق لا يمتلكونه أصلاً ـ ولكن التزامهم هذا كان هو الموجّه لأعمالهم جميعها. والأمر مماثل عند مجابهة حركة ـ القرامطة ـ. لم يهادنوها رغم قوتها وانتشارها، ولم يحاولوا التسليم لها رغم قدرتها. وكذلك أيضاً عند مجابهة الدولة العلوية ـ الفاطمية ـ في مصر. فخاضوا الصراع المرير ضدها عبر مئات السنين في إطار اتجاه ثابت ونهج واضح. **فهل انتصر خلفاء بني العباس بفضل تمسّكهم بالعقيدة الإسلامية ديناً وبالمذهب العسكري تطبيقاً والتزاماً؟** أجل. لقد نصروا الله فنصرهم، ويسّر لهم السبل لتطبيق المذهب العسكري. تلك حقيقة لا تقبل الجدل أو النقاش وفقاً لما أكدته

التجربة التاريخية عبر العرض السابق ـ في الفصلين الأول والثاني ـ. ولكن كيف تم ذلك؟

لقد وقف خلفاء بني العباس على قمة هرم الدولة وهم يرقبون ما حولهم. بقلب مؤمن وعقل متفتّح، فوجدوا مراكز القوى المتناثرة، هذه المضادة للإسلام والمسلمين، وتلك الملتزمة بكتاب الله وسنة رسوله. فكان الحل الأوحد هو في دعم هذه ضد تلك. وحشد القوى ضد الاتجاهات المنحرفة، وضرب مراكز القوى بعضها ببعض، ولقد اتهم ـ المستشرقون والمستغربون ـ خلفاء بني العباس بالمكر والخبث وسوى ذلك من الأوصاف والنعوت لهذا الدور الموصوف ـ بالدور السياسي ـ الذي اعتمد على ضرب مراكز القوى بعضها ببعض؛ وتأليب بعضها على بعض، واستثارتها بعضها ضد بعض. فهل كان باستطاعة خلفاء بني العباس تحقيق التطابق المطلوب والوصول الى التكامل بين الهدف والوسيلة بغير ذلك؟. وهنا لا بد من وضع الأحداث في إطاريها الزمني والمكاني. فلقد كان من المحال في تلك الحقبة الزمنية ضمان ـ مركزية الدولة ـ بشكل دائم. وكانت المساحة الجغرافية الشاسعة لاقاليم العالم الإسلامي، وصعوبة الاتصالات، وما تتطلبه التحركات من فترات زمنية متطاولة، ثم تعاظم قدرة مراكز القوى بما تضمه من طاقات بشرية ضخمة، وغير ذلك من العوامل، هي مما فرض القيود على عمل القيادة العليا الممثلة ـ بالخليفة أمير المؤمنين ـ. وقد يكون من الصعب عند استعراض مسيرة الأحداث افتراض حلول للمشكلات أفضل من تلك التي تم تطبيقها في إطاريها الزمني والمكاني.

لقد تشكّلت مراكز القوى، ولم يكن لأمراء المسلمين ـ أو الخلفاء ـ دور في تشكيلها، وفرضت مراكز القوى هذه وجودها بقوة السلاح، فكان لا بد من ضربها بعضها ببعض، فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. وهكذا كان. ولقد جاءت النتائج كلها لتبرهن على صحة الإجراءات التي اتخذها خلفاء بني العباس. وهذا ليس دوراً سياسياً بقدر ما هو دور عقائدي ثابت يتلاحم فيه المذهب العسكري بالعقيدة الدينية.

لقد قيل ـ فيما قيل ـ بأن هذا الدور السياسي هو نوع من ـ الماكيـافيلليه أو الذرائعية ـ وقيل أيضاً بأن الخلفاء من بني العباس قد فقدوا القدرة على توجيه الأحداث والسيطـرة عليهـا ولم يبـق لهم مـن الخلافـة إلا رمـزهـا ـ الدعـاء والبردة والقضيب ـ فما هو نصيب مثل هذه المقولات من الصحة؟

إقراراً بالواقع، لقد انحل أمر الخلافة في مرات كثيرة، وتحكم عدد من قادة مراكز الخلافة بالخلفاء ـ في قتلهم وعزلهم وتنصيبهم ـ. ولكن وحتى في مثل هذه الحالات، فقد استمر أمراء المؤمنين في ممارسة دورهم من خلال مبدأ ـ الطاعة والجماعة ـ. واحتفظ الخلفاء بهيمنتهم الروحية ـ المعنوية ـ وهذا ما ساعد الدولة العباسية على النهوض بعد كل كبوة، ومكّن لها من الاستمرار رغم كل المعوقات والعقبات. ومهّد لها لاستعادة قدرتها بعد كل انهيار أو ضعف. ومرة أخرى، لم يكن ذلك إلاّ نتيجة طبيعية من نتائج تلاحم المذهب العسكري بالعقيدة الدينية. فالفضل كلّه للإسلام وما يتضمنه من قدرة ذاتية وللخلفاء المسلمين الذين لم تحرفهم التيارات القوية، ولم ترهبهم اعمال القتل والعزل، لينحرفوا عن هدفهم في خدمة الإسلام وأهلـه من خلال تحقيق التطابق بين الهدف والوسائل. ولهذا، وحتى في أشدّ الظروف قسوة، وأحلكها قتامة، بقي الخلفـاء هـم المنـارات التي يلـوذ بها المسلمـون لتجـاوز محنهـم وللخروج من نوائب أيامهم قد تظهر القضية للوهلة الأولى؛ وعلى ضوء ما سبق ذكره، على أنها قضية دفاع عن الخلافة العباسية، أو صداً لافتراءات ألصقت بأمراء المسلمين من بني العباس. ولكن الأمر ليس كذلك. ولو أنه من واجب كل انسان مسلم الدفاع عن فضائله وقيمه قدر استطاعته؛ بل وبأكثر مما تحمله طاقته. إن القضية ببساطة هي التأكيد على حقيقة تاريخية برهنت التجارب المتتالية على صحتها: منذ أقدم العصور وحتى الأزمنة الحديثة، فقضية التلاحم بين المذهب العسكري وعقيدته التي استمد أسسه منها، هو المبدأ الثابت في حياة كل أمة احتلت مكانتها اللائقة بها تحت الشمس. ولعل التاريخ لم يعرف تجربة طويلة الأمد، حفلت من الغنى بالدروس كمثل التجربة الإسلامية التي نسج العرب المسلمون سداها ولحمتها، ثم تابع المسلمون في كل أرجاء الدنيا الأخذ بنهجها والسير على هـداهـا. وحتى أولئـك الذيـن عـارضـوهـا

وقاوموها، لم يسعهم إلاّ الأخذ بظواهرها وفقاً لما تراءت لهم، أو بحسب إدراكهم لها.

ما كان أمراء المسلمين من خلفاء بني العباس نسيجاً واحداً على كل حال، لا في قدراتهم وامكاناتهم ولا في درجة تقواهم وورعهم، فهم عبيدالله، وبينهم من التباين والاختلاف أكثر ما بينهم من التشابه والتماثل. ولكن بالرغم من ذلك فقد كان هناك ثمة التزام كامل بتعاليم كتاب الله وسنة رسوله، وكان هناك تبعاً لذلك وضوح كامل في المذهب العسكري المشتق عن العقيدة الإسلامية. ولهذا كان يتم تطبيق المذهب العسكري تبعاً للظروف المحيطة بكل واحد منهم. وعلى سبيل المثال؛ فقد جرد الرشيد حملة ضخمة لتأديب ملك الروم عندما حاول النيل من دولة الإسلام ومن المسلمين. وفعل المعتصم كمثل فعله، وعجز آخرون عن فعلها، فلجؤوا إلى ـ الفداء ـ والى المهادنة، ولكن مع الحرص على حدود دولة الإسلام وهيبتها وسلامة مسلميها وضمان أمنهم. وبقيت الغاية أو الهدف واحداً، لم يتبدّل، ولم يتغير، ولكن جرى التباين في وسائل بلوغه وتحقيقه.

لقد فرض المذهب العسكري الإسلامي وجوده سواء على جبهات الحروب الخارجية، أو على مراكز القوى المتصارعة على الجبهة الداخلية. وهذا ما يفسّر تشابه الأعمال القتالية، وتماثل أساليب إدارة الحرب. وهذا ما يفسّر أيضاً صعوبة الصراع المسلّح الذي خاضه المسلمون سواء على جبهتهم الداخلية أو الخارجية. وتعتبر هذه الأعمال القتالية النموذج الأمثل لحالات أو أشكال الحرب المختلفة: الأهلية، الدينية، الثورية، النظامية التقليدية. ويمكن عند استقراء تلك الأعمال القتالية ملاحظة استطالات أشكال هذه الحروب بحيث أنها تحاكي حروب الأزمنة الحديثة. وهذا ما يعطي للدروس المستخلصة من تلك الحروب أهميتها الكبرى باعتبارها عطاء مميّزاً من عطاءات (فن الحرب الإسلامي) ورسوخ أسس هذا الفن في أزمنة لم تكن فيها مثل هذه الأسس معروفة ـ ربما ـ في كل أرجاء العالم.

تحتاج المجتمعات الإنسانية ـ مثلها كمثل جسم الإنسان ـ إلى نقطة ترتكز إليها هي (**نقطة التوازن والدفع**) كيما تتمكن من المحافظة على ثباتها واستقرارها وقدرتها على

التقدّم والتحرك. **فأين كانت نقطة التوازن والدفع في المجتمع العباسي الحافل بكل أنواع الهيجانات والاضطرابات؟ وكيف استطاع امراء المسلمين من بني العباس الخروج من كل انتكاسة وهم اكثر قوة وأوفر قدرة وأعز منعة؟. وأين كان مركز الثقل والتوازن هذا؟**

لقد كان مركز الثقل، وكانت نقطة التوازن والدفع - في جماهير السنة الذين بقوا وهم يشكلون القاعدة الواسعة في المجتمع الإسلامي حتى في أشد الظروف وأكثرها قسوة وأحلكها ظلمة. وكانت جماهير المسلمين من السنة تنظر إلى أمير المؤمنين على أنه ملاذها لإقامة حدود الله على أرض الله. ولهذا كان من الطبيعي أن تنتصر هـذه الجماهير لأمير المؤمنين كلما انحل عقد الخلافة، وكلما ضعف شأنها. وكانت هذه الجماهير التي غلبت على أمرها أيضاً في مرات كثيرة، تقاوم الانحرافات بطرائق مختلفة تستجيب لكل حالة من الحالات فكانت تقف موقـف السلبيـة مـن الانحرافـات، وتمتنـع عـن الانجراف في تيارها. إذ لم تجد لديها القدرة لمقاومتها. وكـانـت تنتقـل إلى المقـاومـة الإيجابيـة - المسلحة - كلما واتتها الفرصة لاستخدام أسلحتها. وكانت في الحالات كلها تقف متربّصة، متحفّزة، لمجابهة البدع والضلالات، محققة بصورة أصيلة ما هو مطلوب من تحقيق التطابق والتكامل بين الحدود ومتطلبات الواقع. وهكذا كان كل انتصار لهذه الجماهير هو انتصار لأمير المؤمنين، وكانت كل انتكاسة لأمير المؤمنين هي خروج على إرادة جماهير السنة. ونشأ عن هذا العامل المشترك وحدة في المواقف، وهي المواقف التي كان لها دورها الأساسي والحاسم في الحد من غلواء الحركات الهدامة ومنع تطرفها، ثم امتصاصها وتقويمها، إلى ان يصل الأمر إلى مرحلة تدميرها والقضاء عليها وتصفية وجودها المادي والفكري. ولقد ضمت الأوابد التاريخية أمثولات لا نهاية لها عن تصدي جماهير بغداد السنة، لانحرافات الشيعة ومقاومتها بضراوة وعنف، ووقفت جماهير السنة في دمشق مرات كثيرة ضد تسلط المذاهب المنحرفة - كالقرامطة - مثلاً. وحتى في افريقية - قاعدة انطلاق الدعوة الشيعية العبيدية التي كانت مهد الدولة العلوية الفاطمية - ألم تعمل هذه الجماهير - وفي ليلة واحدة - على تدمير كل قواعد التشيع وتقضي على أصحابها ودعاتها، وتتخلص من رموزها وانحرافاتها؟ فهل كان بالمستطاع

تحقيق ذلك لو لم تكن قواعد المسلمين السنة قوية إلى درجة كافية، وصلبة إلى درجة رائعة؟ ثم ألم تهتز بغداد ـ وسائر بلاد المسلمين ـ كلما خرج الروم بانتصار لهم، مما كان يحمل الخليفة وحتى مراكز القوى المسيطرة على الخلافة ـ للسير مع جماهير المسلمين من أجل تحقيق التطابق بين العقيدة الإسلامية ـ ومذهبها العسكري. وتحكيم السلاح لمجابهة كل عدوان؟ ويظهر من ذلك ان مواقف جماهير المسلمين السنة كانت واحدة في مجابهة الأعمال العدوانية الخارجية وفي مجابهة الانحرافات الداخلية.

وكانت هذه المواقف بدورها مطابقة ـ على الأغلب ـ لمواقف أمراء المسلمين من الخلفاء العباسيين. ولهذا كان دور هذه الجماهير كبيراً في تسلم القيادة عندما تضعف الخلافة والاستسلام لقيادة الخلافة عندما تقوى هذه الخلافة وتشتد، فكان ذلك الالتقاء بين الخلافة ـ القمة ـ وجماهير المسلمين السنة ـ القاعدة ـ هو نقطة التوازن وهو مركز الثقل والدفع.

قد يكون من العسير؛ إن لم يكن من المحال؛ الإفتراض بأن المسلمين من السنة، كانوا جميعاً على درجة واحدة من اليقين والبصيرة، أو كانوا على درجة واحدة من القدرة على الصمود والمقاومة، أو أنهم كانوا متساوين في صلابتهم وحزمهم واستعدادهم الدائم للقتال والجهاد. ولهذا فكثيراً ما كانت مسيرة الأحداث تجرف في تيارها الصاخب كثيراً من المسلمين فيسيرون في تيار الانحراف ويخرجون على الطاعة والجماعة على غير إرادة منهم أو بالتقليد الأعمى، أو سعياً وراء مغانم يغنمونها من عرض الدنيا.

وهنا يأتي دور القيادة الرائدة المتمثلة بالرجال الأتقياء من القضاة والأئمة ممن تتوافر لهم قدرات اكبر من تلك المتوافرة لسائر الناس. فكان هؤلاء هم الذين يتصدون لمجابهة التيار. ولقد ضمّت الأوابد التاريخية شواهد كثيرة عن هؤلاء العلماء والفقهاء والقضاة والأئمة ممّن رفعوا المنارات في وسط الظلمة. ولقد سقط كثيرون منهم ضحايا مواقفهم الثابتة، إلاّ انهم استطاعوا بأمثولاتهم الفاضلة وتضحياتهم الكبيرة وجهودهم المستمرة، ايقاظ الوعي وتصحيح المواقف وإحباط المقولات المنحرفة، وكانت اعمالهم الدؤوبة هي التي أدّت في النهاية إلى حدوث التغييرات الحاسمة، وإعادة

الجماهير ـ من ابناء السنة ـ للسير في تيار واحد، لا يعمل إلاّ بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله. فهل من غريب إذا ما كان اعتماد امراء المسلمين من خلفاء بني العباس، كبيراً على مثل هؤلاء؟ وهل كان غريباً إذا ما استجاب المسلمون لهؤلاء الذين لم تأخذهم في الله لومة لائم؟

لقد كان الفضل، كل الفضل للإسلام الذي أوجد هذا النظام الاجتماعي المتكامل والمترابط والمتلاحم. ولقد جاءت تجربة العصر الأموي، ثم تجربة العصر العبّاسي الأول لتزيد من رسوخ هذا النظام. ولتبرهن المرة بعد المرة على قدرته للصمود في وجه التحديات والانحرافات، فكان أمراً طبيعياً أن يستمر الالتزام به من جانب المسلمين حكامهم ومحكوميهم، امرائهم وأجنادهم وجماهيرهم.

وكان المذهب العسكري الإسلامي بنتيجة ذلك هو الأرضية الواحدة التي يقف عليها امراء المسلمين من خلفاء بني العباس، ومعهم جماهير المسلمين وجموع المجاهدين في سبيل الله، وعلى هذه الأرضية كانت العلاقات تتزايد ثباتاً ووثوقاً بين مراكز القوى المتخصصة ـ أو التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل الله مثل الحمدانيين وآل سبكتكين وسواهم وبين امراء المسلمين الذين لم يكن لهم على مثل هؤلاء إلاّ التوجيه والطاعة والولاء مقابل الحصول على الدعم المعنوي والدعم المادي عندما تتوافر الظروف لتقديم مثل هذا الدعم.

يظهر استعراض تاريخ الحمدانيين وآل سبكتكين ـ خاصة ـ نوع تلك العلاقة التي كانت قائمة بين مراكز القوى هذه وبين دار الخلافة. فلقد حاول الحمدانيون في بداية ظهورهم فرض وجودهم على أمير المؤمنين، والتحكّم بالخلافة وحتى إظهار التمرد عليها. فوقعت بعض المعارك والاشتباكات حتى عاد الحمدانيون الى رشدهم، واعلنوا خضوعهم والتزموا بتقديم ما هو مفروض عليهم من الأموال. وعندما انصرف الحمدانيون للجهاد، لم يكن لأمير المؤمنين عليهم إلاّ التوجيه، وإعطاء صفة الشرعية لأعمالهم بالموافقة عليها مع تقديم الدعم. أما آل سبكتكين فقد انصرفوا منذ بداية ظهورهم للجهاد في سبيل الله على أقصى حدود الشرق ـ مع الهند خاصة ـ. وكان كل

ما يطلبونه من امير المؤمنين هو الدعم المعنوي والموافقة على توليتهم ما يفتحونه من بلاد، وما يخضعونه من أقاليم. وكان الخليفة يرسل إليهم الهدايا والخلع مع كل انتصار يحققونه. فكان امراء بني حمدان وآل سبكتكين ومن جاء بعدهم كالسلاجقة وبني عقيل والمروانيين وسواهم يتمتعون بحرية العمل العسكري كاملة. وكانت أعباء الجهاد ونتائج أعمال القتال تقع على عاتقهم. وهكذا. كان حكم الأقاليم لمثل مراكز القوى هذه يمثل شكلاً من أشكال ـ الإدارة المحلية الذاتية ـ. فكانت الموارد المالية بالتالي تصرف للحرب ولتغطية نفقات الحرب وتجهيز القوات. **وكانت دار الخلافة في مثل هذه الحالات تمثل السلطة الرئاسية بمفاهيم الأزمنة الحديثة. وقد يكون من الخطأ الكبير تشبيه** نظام الخلافة بالنظام الرئاسي ـ الديموقراطي ـ ذي السلطة المركزية القوية. بالاعتماد على فترة زمنية معينة ـ مثل العصر العباسي الأول أو تشبيه هذا النظام بنظام الولايات ذات الاستقلال الذاتي والتي تشترك بموازنات واحدة وتمثيل خارجي واحد وقوات مقاتلة ذات قيادة واحدة وذلك بالاعتماد أيضاً على فترة زمنية معينة ـ مثل العصر العباسي في عهده المتأخر. وإنما يمكن القول ان علاقة دار الخلافة بالولايات ومراكز القوى كانت متطورة باستمرار ولكن ضمن إطار عوامل ثابتة لا تتغير ـ الطاعة والجماعة وإقامة الحدود وإعلاء شأن الإسلام وأهله والدفاع عن الإسلام وأهله.

لقد كان أمراء المسلمين من خلفاء بني العبّاس، يعرفون بحكم تجاربهم المتتالية أن اعتمادهم على بعض مراكز القوى المتّفقة في الهدف مع دار الخلافة، قد يضعف من أمر الخلفاء، بسبب ما يتوافر لمثل هذه المراكز من حرية العمل العسكري. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان امراء المسلمين على استعداد دائم للتنازل عن كثير من امتيازاتهم وسلطاتهم. طالما أن باستطاعة هذه المراكز الاضطلاع بالواجب وتنفيذ ما هو مطلوب لتحقيق الهدف. ومقابل ذلك، فقد كان قادة مراكز هذه القوى على استعداد للانسحاب من مسرح الأحداث إذا ما فشلوا في الاضطلاع بواجباتهم. وهو ما برهنت عنه مسيرة الأحداث في مرات كثيرة، فالملك لله وحده، والأرض أرض الله، والمال مال الله. والجميع عبادالله. وفي اطار هذه القيم. قد يكون من المحال تشبيه العلاقات في المجتمع الإسلامي بأي علاقات في أي مجتمع من المجتمعات الأخرى.

٢ ـ حروب الردة.

لقد شن أبو بكر الصديق رضي الله عنه حرباً شعواء على أصحاب الردة، لأنهم أرادوا الخروج على الطاعة والجماعة، ولأنهم حاولوا انتهاك حدود الله ـ الزكاة والصلاة ـ وقصة مسيلمة العنسي ـ الكذاب ـ وقصة سجاح وسواها من القصص المعروفة، ولعل أصدق تصوير لما كانت تمثله الردة هو ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما شبه انتهاك حدود الله بالخرق في الثوب يتزايد اتساعاً إذا ما ترك، ولهذا بادر إلى رتقه وسير عشرة جيوش فأمكن له خلال عام واحد القضاء على المرتدين وتدمير قواعد الردة. وحدثت بعد ذلك فتن كثيرة، فأعداء الإسلام والمسلمين لم يلقوا أسلحتهم، بل إنهم زادوا شحذها واتبعوا أساليب اكثر مكراً واكثر خبثاً ولؤماً عندما لجؤوا إلى سلاح التفجير من داخل المجتمع الإسلامي. ولقد عرف العصر الأموي فتناً كثيرة قاد بعضها ـ الخوارج ـ وتولى قيادة بعضها الآخر الطامحون أو الطامعون؛ ولكن لم تكن هذه الفتن في معظمها تتجاوز حدود الخروج عن الطاعة والجماعة، ولم تصل إلى مرحلة انتهاك حدود الله. فقد تعلم الجميع من تجربة ـ حروب الردة ـ أن انتهاك حدود الله هو السلاح المفلول. ولكن ومع زوال الحكم الأموي، وانقضاء العصر العباسي الأول، أخذت الفتن والحركات في الانحراف تدريجياً عن إطارها لتصل إلى مرحلة انتهاك الحدود عبر الأخذ بتفسيرات ومقولات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب. وكان التشيع والذي ابتدعه اليهودي ـ عبدالله بن سبأ ـ لتفجير الفتنة الكبرى وقتل عثمان رضوان الله عليه هو السلاح الذي استخدمته معظم الحركات المنحرفة التي أرادت الخروج على الطاعة والجماعة.

لقد أظهرت مسيرة الأحداث ـ في عرض الفصل الأول ـ كيف تطورت ثلاث من اكبر الحركات التي عرفها العصر العباسي ـ ثورة بابك الخرمي وثورة الزنج وثورة القرامطة، ثم قيام الدولة العلوية ـ الفاطمية ـ في مصر. وكانت كل حركة من هذه الحركات هي المهد لنشوء حركة اكثر قوة واكثر اتساعاً للحركة التالية لها. وتطرح

هذه القضية مجموعة من التساؤلات؛ مثل: كيف استطاعت هذه الحركات خداع جماهير المسلمين وتضليلها؟ وكيف أمكن لمثل هـذه الحركـات تحقيـق مثـل ذلـك الانتشـار الواسع؟ وهل كان هناك ثمة خلل أو ضعف في تكوين المجتمع الإسلامي حتى ظهرت مثل هذه الحركات وتعاظمت؟ لا بد قبل الإجابة عن هذه الأسئلة ـ وأشباهها ـ من العودة إلى استخلاص الحقائق التي أبرزتها مسيرة هذه الحركات وتطوراتها. وبإيجاز: لقد حاولت ثورة الزنج، ومن بعدها ثورة القرامطة، اجتذاب العرب المسلمين اليها. ولكنها فشلت في ذلك، فلم ينضم إليها سوى نفر قليل. **فكان اعتمادها بالدرجة الأولى على العنصر غير العربي. وكانت هذه الثورة موجهة بعامل الحقد، وقد ظهر ذلك في اعمال كثيرة، مثل مطاردة بني هاشم في البصرة عندما أحرقها الزنج، ومثل اقتلاع الحجر الأسعد من مكة المكرمة وأخذه ـ والأهم من ذلك كله: هو أن هذه الثورات ما جردت سيوفها إلا ضد المسلمين، وما عملت إلا ضد بلاد المسلمين.** وصحيح أنها كانت مركزة ضد العرب المسلمين خاصة، إلا أنه كان من المحال عدم إلحاقها الأذى بالمسلمين عامة. ولهذا فإنها تشترك بمجموعة من القواسم التي تلتقي مع حركة الردة الأولى التي ظهرت في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضوان الله عليه.

لقد استطاعت تلك الحركة اجتذاب الآلاف، وكان اعتمادها على ـ العصبية القبلية ـ وبتعبير اكثر دقة، اعتمدت على العودة إلى الجاهلية ـ في ظاهرها وفي هدفها ولو أنها لم تتنكر تنكراً تاماً للإسلام. كذلك الأمر بالنسبة لحركات الردة التالية: إنها لم تتنكر للإسلام، بل إنها رفعت رايات الإسلام. وحملت شعارات إسلامية واعتمدت على عصبية جديدة. عصبية اللون ـ الزنج ـ وعصبية المذهب ـ القرامطة ـ. ولم يكن من الصعب في مثل هذه الحالات اجتذاب عشرات الآلاف وليس الآلاف. فلقد اتسعت آفاق العالم الإسلامي؛ وحصلت هجرات واسعة عبر الاقاليم، وتبدل التكوين الاجتماعي، واستنفر الإسلام كافة القوى في المجتمعات التي دخلها، ووضعها تحت السلاح. فكان الاحتكام إلى السلاح أمراً طبيعياً لإعادة العجلة إلى عصر الجاهلية، عصر القبيلة المسلحة التي تعيش بالغزو وللغزو وتعتمد على قوة السلاح. وكذلك لم

يكن من الصعب أن يظهر في مثل هذه المجتمعات رجال لديهم الاستعداد لممارسة دور قيادي. من طراز مسيلمة الكذاب ـ. وقد يكون من المحال الافتراض بأنه في استطاعة الدولة الإسلامية ـ العباسية ـ ضمان السيطرة على كافة الأقاليم في اطار مركزية قوية، بصورة دائمة. ويظهر ذلك مدى التطور الكبير الذي اكتسبته حركات الردة الجديدة: مثل الزنج والقرامطة ـ سواء في مجال الفكر، أو في مجال التنظيم، أو في مجال ادارة الحرب؛ بحيث كانت قادرة على نشر شبكاتها الواسعة في اقاليم متباعدة، تضعف فيها سيطرة الدولة، مع الاختيار المناسب لعامل الوقت لتفجير الثورة.

لقد استحوذت هذه الثورات ـ في الأزمنة الحديثة خاصة ـ على اهتمام الباحثين من المستشرقين ومن المستغربين. كل ينظر إلى أحداث الثورات من زاوية معينة، ومن خلال متطور محدد، وللبرهان على نظريات مسبقة هدفها النيل من الإسلام وأهله، وللتأكيد على عجز الإسلام عن استيعاب ما يطلق عليه حديثاً اسم ـ التناقضات الاجتماعية ـ. أو للبرهان على انحلال أمر الإسلام في فترة قريبة من صدر الإسلام. وليس المجال هنا هو مجال الدخول في جدل عقيم مع من يريدون تفسير احداث التاريخ على ضوء قيم ومفاهيم لا تتناسب مع الظروف الزمنية والجغرافية لوقوع تلك الأحداث. فالقضية ببساطة هي قضية صراع بين الإسلام وبين القوى المضادة للإسلام. وإذا كان عهد هذه الثورات قريباً من صدر الإسلام. فإن عهد الردة الأولى ـ ردة مسيلمة وسواها ـ هي لعهد النبوة أقرب، وهي بظهور الإسلام أقرب. فهل كانت الردة الأولى مغايرة للردات التالية؟.

وهل كان هناك ثمة اختلاف في أهداف هذه الردات جميعها؟ ألم تشترك جميعها بمجموعة من الظواهر؟ ألم تسلك نهجاً واحداً؟ أليست وحدة الهدف، ووحدة الوسائل كافية ـ من الناحية العلمية التاريخية لتصنيف حركات الردة جميعها في زمرة واحدة؟.

لقد فرض الإسلام قيوداً صارمة لبناء المجتمعات الجديدة. وكان من طبيعة الأمور أن يستثقل نفر من الناس هذه القيود، فيحاولوا التحلل منها، والتحرر من التزاماتها. ألم تستثقل قريش من قبل قيود الإسلام وضوابطه، فجاء مسيلمة ليسقط الزكاة ولينقص من عدد الصلوات؟ فماذا فعل بابك الخرمي اكثر من زيادة حجم هذا التحلل

والتحرر ؟ وماذا جاءت ثورة الزنج بأكثر مما تضمنته حركة بابك الخرمي ؟ ثم ماذا فعل القرامطة اكثر من السير بشوط التحلل والتحرر حتى نهايته؟ وماذا كانت النتيجة؟ ألم ينفر أصحاب هذه المذاهب من التحلل الذي كان لا بد أن يصل إليهم في النهاية؟ إنه صراع ثنائية الخير والشر، صراع الفضائل والرذائل، صراع الالتزام والتحلل. وهو ما أوضحته تعاليم الإسلام وأكدته باعتباره ظاهرة انسانية متلاحمة مع طبيعة الإنسان ذاته، وهي الطبيعة التي ما جاء الإسلام إلا لإصلاحها وتشذيبها وتوجيهها لما فيه خير المجتمعات البشرية ـ الإنسانية ـ. وإن استعراض مسيرة احداث هذه الثورات وتطوراتها لا يخرج على هذه الحقيقة، ولا ينحرف عنها.

لقد تولى علماء الكلام وفقهاء الإسلام الرد على فكر المنحرفين؛ أئمة الملل والنحل، وزعماء الحركات الثورية. وليس المجال هنا هو مجال التصدي لإيديولوجياتهم ومثلهم وأفكارهم. ولكن قد يكون من المهم التعرض لنهجهم في العمل وأسلوبهم.

يظهر الزعيم؛ والذي تتوافر له بالتأكيد كفاءة قيادية عالية ـأوكاريزما قيادية ـ فيبدأ بالبحث عن مجال لنشر أفكاره، ويتحسس طريقه بحذر شديد، وفي إطار من السرية، ويعتمد على الرموز والغموض في نشر دعوته. ويبدأ باستقطاب من يظهر لديهم الاستعداد للعمل، فيعدهم ويمنيهم وينظمهم، وينطلق الدعاة وهم يتظاهرون بالورع والتقوى والزهد، ليبثوا أفكارهم ـ الاصلاحية بحسب ما يزعمون ـ حتى إذا ما توافرت لهم قدرة كافية أخذوا في البحث عن قاعدة لعملياتهم، وتبدأ هذه العمليات بمهاجمة مفارز صغرى وقوات منعزلة لإحراز انتصارات صغيرة ومضمونة، ثم ينتقلون وهم في حالة تحرك دائم من مكان إلى آخر وهم يجمعون المعلومات عن كل تحرك مضاد، ويعتمدون على إشاعة الرعب، وبث الذعر، لتحييد المقاومات، وعزل القوات المقاتلة. وتتجمع الانتصارات الصغرى لتفسح المجال أمام انضمام قوات جديدة ترفد الثورة بالمزيد من القوة والقدرة. ويرتبط العمل العسكري بالعمل السياسي أو العمل الاعلامي في وسط الجماهير، بحيث تحظى قوات الثورة بالمزيد من الدعم المادي والمعنوي، مما يزيدها رسوخاً ومنعة وقدرة على الاستمرار والتطور.

وتستفيد الثورة من ردود فعل أمراء المدن وحكامها والتي غالباً ما تأتي متأخرة. كما تستفيد من الهجمات المتفرقة التي تشنها عليها القوى المعادية، لحشد اكبر حجم ممكن من القوى، مما يساعد على احراز التفوق وتحقيق الانتصارات الكبيرة بثمن محدود. الأمر الذي يساعد على انتشار الثورة واتساع نطاقها لتشمل أقاليم جديدة. ويبقى الإرهاب وأعمال القتل والإبادة والنهب ونشر الشائعات هو السلاح الأول للثورة للسيطرة على السلطة من الداخل، ولاكتساب الانصار والمؤيدين في وسط السلطة الحاكمة. وقد ظهر من خلال مسيرة أحداث الثورات ـ الزنج والقرامطة والعلويين ـ أن هذه الحركات تمكنت من اكتساب الانصار في وسط وزراء أمراء المؤمنين، وضمن قياداتهم. ويبقى الحصول على المعلومات هو الوسيلة وهو الهدف في كل تحرك. فهو الوسيلة للتحرك في الوقت المناسب، وهو الهدف لإقناع قيادات الخصم بعجزها وقصورها، وبالتالي تقييد حرية عملها العسكري.

وتحرص قيادة الثورة خلال مراحل تطورها المختلفة على إقامة عدد من القواعد العسكرية التبادلية، بالإضافة إلى قاعدتها الأساسية والصلبة ـ مثل **هجر** بالنسبة للقرامطة **وريف البصرة** بالنسبة للزنج. وذلك حتى لا تتعرض القاعدة الاساسية للتدمير، وبحيث لا يتم الإجهاز على الثورة أو تصفيتها إذا ما تعرضت الثورة لانتكاسة. مع السيطرة على الطرق ومحاور العمليات ومراقبتها بشكل دائم، لإحباط كل مباغتة محتملة. وتحصين مناطق العمليات بدعم الموانع الطبيعية. ولقد كان كل قصر من قصور الزنج، وكان كل موقع للقرامطة بمثابة قلعة حصينة قادرة على الدفاع عن نفسها لمدة طويلة. وقد تتعرض قوات الثورة لانتكاسة أو هزيمة، وهنا تتحرك قيادة الثورة بسرعة كبيرة لزج قواتها واعادة تنظيمها واحراز انتصارات ـ ولو كانت هذه الانتصارات صغيرة ـ بهدف المحافظة على الروح المعنوية لقوات الثورة، وللبرهان للخصم على عجزه عن قمع الثورة، وأن الانتكاسة أو الهزيمة لن تعيق الثورة عن متابعة مسيرتها وتطورها. ويمارس العامل المعنوي ـ النفسي ـ الدور الأساسي والحاسم في بقاء الثورة وتطورها. ولهذا فإن الانتقام والثأر هما ظاهرتان ملازمتان لكل تحرك. فلقد أحرق الزنج مدينة البصرة لأنها تصدت لثورتهم وقتلت بعض رجال الثورة. وفعل

القرامطة كمثل فعلهم في مرات كثيرة. وتتوافق هذه الأعمال الانتقامية مع العوامل الأساسية المحرضة للثورة وأولها ـ الحقد والكراهية ـ. وهكذا تتحكم في وسط الثورة قيمتان متضادتان. فالسلم والأمن والمحبة والاخلاص المتبادل هي القيمة المهيمنة على الثورة من الداخل، والقتل والفوضى والحقد والغدر هي القيمة المهيمنة على التعامل مع القوى المضادة. وقد تكون القيمتان المتضادتان السابقتا الذكر هما من الأمور الطبيعية الملازمة لكل تكتل بشري يريد المحافظة على وجوده وحماية نفسه. ولكن انفصال القيمتين المذكورتين عن الفضائل التي جاء بها الإسلام هو الذي حرم تلك الثورات من رصيدها المعنوي، حتى في وسط الذين عملوا مع الثورات أو الذين شاركوا فيها. وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسة لانهيار البنيان الداخلي لتلك الثورات.

لقد عاشت ثورة بابك الخرمي في الفترة (٢٠١-٢٢٣ هـ) وعاشت ثورة الزط (٢١٩-٢٢٠ هـ) وعاشت ثورة الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ) وعاشت ثورة القرامطة (٢٧٨ - ٣٧٨ هـ) وعاشت الدولة العلوية - الفاطمية - (٢٩٦ - ٥٦٧ هـ). فماذا يعني هذا التسلسل؟ وماذا يعني التفاوت في الفترات الزمنية التي عاشتها كل حركة من هذه الحركات الرافضة؟ لقد اكتسبت هذه الحركات قدرة متزايدة مع مرور الزمن، واستطاعت الدولة العباسية القضاء على ثورة الخرمي بشيء من الصعوبة، وأمكن لها القضاء على ثورة الزط بشيء من الجهد، وتوافرت لها القدرة للقضاء على ثورة الزنج بجهود اكبر، وبحشد امكانات اكثر. حتى إذا ما جاءت ثورة القرامطة، كانت الدولة العباسية قد استنزفت قدراتها وإمكاناتها بمثل هذه الحروب، علاوة على ما كانت تتطلبه الحروب الخارجية من الجهد. والأمر مماثل بالنسبة لشمال افريقية ـ المغرب العربي ـ الإسلامي، حيث تظهر مسيرة الأحداث أن أمراء مصر وإفريقية تمكنوا من الاجهاز على كل محاولات الردة. حتى إذا ما جاءت الحركة العبيدية، وجدت بأن الظروف قد باتت مناسبة لتطوير حركة الردة والوصول بها إلى مستوى إقامة دولة منافسة للدولة العباسية. وهكذا فإن حركات الرافضة، أو الحركات المتتالية للردة قد استنزفت قدرة الدولة عبر حروب الردة المتتالية. فالرافضة الذين لم يجردوا سيوفهم إلا ضد المسلمين، ولم يشهروا أسلحتهم إلا ضد المسلمين،

كانوا سلماً على أعداء الإسلام والمسلمين وقد أظهر العرض لأحداث ـ حروب الردة هذه ـ مدى ما نزل بالمسلمين من الدمار والقتل والنهب على أيدي المرتدين؛ مما أضعف قدرة الدولة التي لا تستمد قوتها إلا من قوة مواطنيها وأبنائها. ولقد استطاع خليفة رسول الله ﷺ انهاء حروب الردة في سنة واحدة. واستطاع المعتضد العباسي والموفق القضاء على ردة الخرمي وردة الزنج في عشرين سنة تقريباً. بينما تطلب القضاء على ردة القرامطة زهاء مائة سنة. بينما احتاج القضاء على الردة العبيدية ـ المسماة بالعلوية أو الفاطمية ـ مدة مائتين وسبعين سنة تقريباً. وقد يكون من الصعب اتهام امراء المسلمين من خلفاء بني العباس، أو إدانة ولاتهم، بالقصور والتقصير فقد برز من خلال عرض مسيرة الأحداث أن امراء الأقاليم وقادة الجند كانوا على الأغلب يسرعون لمجابهة اعمال الردة، منذ توافر المعلومات الكافية عنها، بل إنهم كانوا في كثير من الأحيان يستبقون أحداثها ويأخذون على الظن. ولكن القدرات المتوافرة لهم كانت أقل من تلك التي يستطيع المرتدون حشدها. بفضل ما يتوافر لهم من القدرة التنظيمية، وبفضل عملهم السري ـ في الظلام ـ وبفضل المبادأة التي يمتلكونها. ثم كانت حروب الاستنزاف المتتالية كافية لوضع الدولة العباسية في وضع العاجز عن حشد ما تتطلبه حروب الردة من القوى والوسائط في المكان والزمان المناسبين.

ولكن، وكما كان قادة المرتدين يستفيدون من تحركهم الفكري المقترن بالعمل العسكري. ويستثمرون نتائج حروب الردة السابقة والدروس المستخلصة منها. فكذلك كان أمراء المسلمين وقادتهم، حيث كان العمل المضاد يعتمد على تحرك فكري عسكري، قدر اعتماده على التجارب والدروس المستخلصة من حروب الردة ذاتها. وكان التفوق في هذا المجال لمصلحة أمراء المسلمين، فقد كان الخلفاء يمتلكون الشرعية، وكانت هذه الشرعية تستمد قوتها من تعاليم كتاب الله وسنة رسوله. بينما كان التحرك الفكري للقادة المرتدين يشكل انحرافاً، وكان هذا الانحراف يبدأ بسيطاً، ثم يتزايد ابتعاداً عن النهج الإسلامي، مما كان يثير الاضطراب في وسط المرتدين. وكان أمراء المسلمين وقادة جندهم يفسحون المجال الرحب لعودة المضللين أو المخدوعين للتوبة والانابة والعودة إلى الطاعة والجماعة. وقد برهن هذا الأسلوب

على فاعليته وفائدته لا سيما عند اقترانه بالعمل العسكري. وبذلك كان يتم تجريد قوى الردة من امكاناتها وقدراتها بصورة تدريجية. وكان ذلك يستغرق وقتاً غير قصير. ويظهر ذلك حدة الصراع وقوته وصعوبته. فحوار الارادات المتصارعة هنا ليس مجرد صراع مسلح يمكن حسمه على أرض المعركة بضربة واحدة، وإنما هو صراع عقائدي فكري لا يمكن التراجع فيه إلا بفناء إحدى القوتين، وإلا بالقضاء على فكر إحدى القوتين. ونظراً لتفوق الفكر الإسلامي الملتزم بالنهج، نهج كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن له الفرصة الثابتة والأكيدة لاحراز النصر النهائي. ولكن إحراز هذا النصر لم يكن بالأمر البسيط أو السهل. إذ كان باستطاعة المرتدين تصعيد العنف حتى ذروته القصوى، وبصرف النظر عما ينجم عن ذلك من دمار مادي أو تخريب اقتصادي أو أعمال قتل وإبادة بينما كان على قوات الشرعية ـ جند امير المؤمنين ـ أن تمارس عملها في اطار يحد من حريتها العسكرية للمحافظة على الموارد الاقتصادية والبشرية التي تعود في النهاية لمصلحة المجتمع الإسلامي. كما أنها كانت ملزمة بتقنين العنف حتى لا يتجاوز حدوده فيلحق الأذى بالمسلمين الذين لا علاقة لهم بالردة، وحتى لا يستثير بالتالي القوى المحايدة فيدفعها لدعم قوى الردة. ولقد اضطرت قوات الشرعية في كثير من الأحيان إلى مجابهة العنف بعنف مضاد. ولكن وحتى في هذه الحالات، كانت حرية العمل العسكري لجند أمير المؤمنين مقيدة بضوابط صارمة. ولقد كان ذلك مصدر معاناة كبيرة لجند المسلمين وأمرائهم وقادتهم. إلا أن النتائج التي أمكن تحقيقها في كل مرة كانت كافية للتخفيف من حدة هذه المعاناة، ولاعطائها حجتها ومسوغها المقبول. ويفسر ذلك تفسيراً جزئياً اسباب استطالة أمد حروب الردة بصورة متزايدة، إذ لم تكن قضية حروب الردة هي قضية صراع مسلح يعتمد على موازنات القوى، وحجم الجيوش، وانما يعتمد على مجموعة من العوامل الأخرى ـ المادية والمعنوية ـ والتي تمارس دوراً كبيرا في مسيرة الصراع المسلح وتطوراته.

لقد كانت المعرفة العسكرية المشتركة عاملاً حاسماً أيضاً في استطالة أمد حروب الردة، وامتداد كل حرب عن سابقتها. فقد كانت القوى المتصارعة تستند إلى أرضية مشتركة من المعرفة العسكرية. وقد أظهر استعراض أحداث

المعارك والوقائع ذلك التشابه الكبير في أساليب القتال. وصحيح أن قوى الردة كانت تستفيد من المبادأة عند تفجيرها للصراع المسلح، إلا أنه كان من المحال عليها الاحتفاظ بالمبادأة بصورة مستمرة. وكانت قوى الردة تستثمر إلى حد كبير قدرتها الحركية العالية لتحقيق المباغتة، وذلك بالاكثار من الكمائن والاغارات، إلا أنه كان من العسير عليها وقاية نفسها بصورة دائمة من التعرض للمباغتة. وكانت قوى الردة قادرة على إعادة تنظيم قواتها بسرعة وحشد جندها وأنصارها بمرونة، ولكن الطرف المقابل لم يكن أقل قدرة على اجراء الحشد في الزمان والمكان المناسبين، واحراز التفوق على قوى الردة. وكذلك فإذا ما كان لقوى الردة أنصارها وشبكات عيونها ـ جواسيسها ـ ومفارز استطلاعها المنتشرة في كل مكان من مسرح العمليات ـ وحتى خارج مسرح العمليات، فقد كان لجند أمير المؤمنين أنصارهم، ولهم شبكات عيونهم، ولهم قوات استطلاعهم. وهكذا كانت قوى الطرفين متشابكة متداخلة ـ بعضها ببعض ـ مما كان يساعد أحياناً قوة أحد الطرفين المتصارعين بأكثر مما يساعد الطرف الآخر، بينما ينعكس الوضع في أحيان أخرى. وهكذا كانت تستمر لعبة الصراع القاتلة بين مد وجذر، بين نصر وهزيمة. فيما كان آلاف المقاتلين يسقطون صرعى على جبهتي الصراع، بانتظار الوصول إلى النصر الحاسم.

لقد أيقظ الإسلام الروح الوثابة في الإنسان، ورفعه عندما شرفه بواجب الجهاد في سبيل الله. وكانت حروب الفتح هي المدرسة العملية والتطبيقية للمذهب العسكري الإسلامي. وقد شاعت أسس هذا المذهب ومبادئه، واتسع نطاق حمل السلاح في القبيلة المسلحة، ولقد كانت هذه القبيلة من قبل الإسلام تعيش على الحرب. إلا أن نطاق هذه الحرب كان محدوداً وفي نطاق ضيق، فلما انتشر الإسلام، وانضمت إليه شعوب شتى وأمم مختلفة اتسع مجال عمل ـ القبيلة المسلحة ـ والتي بات باستطاعة كل فرد يمتلك كفاءة قيادية عالية أن يمارس دوره فيها. وهكذا توافرت القدرة القتالية وتوافرت الكفاءة القيادية، وتوافر الهدف، فكان باستطاعة قوى الردة الاستناد إلى قاعدة قتالية قوية من الجماهير التي تمتلك الخبرات القتالية العالية. ولقد برهنت مسيرة احداث حروب الردة وتطوراتها مدى ما كان

يتوافر للقيادات المختلفة من كفاءات قيادية عالية، وما كان يتوافر للقوات من خبرات قتالية رائعة، بحيث كان يتم تطبيق مبادىء الحرب بصورة مثيرة وعلى كافة الصعد والمستويات. وقد يكون من السهل بعد ذلك استخلاص الحقيقة الكامنة في تناوب الانتصارات والهزائم على قوى جبهتي الصراع، حيث تستند كافة القوى إلى أرضية مشتركة من المعرفة العسكرية. بالاضافة إلى معرفة كل طرف بنوايا الطرف الآخر وطرائقه وأساليبه، علاوة على المعرفة المشتركة لطبيعة مسرح العمليات - الجغرافية - وما يتوافر لهذا المسرح من ميزات أو مساوىء. كل ذلك بالاضافة إلى المعرفة العميقة للسكان - (أو الطبيعة الديموغرافية).

لقد كان من الطبيعي في ظروف حروب الردة. وفي إطار ما تضمنته من استنزاف كبير للقوى والإمكانات والموارد، أن يبحث كل طرف من الأطراف عما يرفد صراعه بالقدرة التي تساعده على الاستمرار حتى مرحلة الحسم. وكانت دار الخلافة تمتلك بحكم سلطتها الشرعية مثل هذه القدرة بأكثر مما كانت تمتلكها قوى الردة المنحرفة. وإذا كانت معظم قوى هذه الردة قد جاءت على الأغلب من الشرق - بلاد فارس -. فلقد كانت هناك قوى أكثر بعداً على اتجاه الشرق كانت تدين بمذهب السنة، وتلتزم بالطاعة والجماعة. وكانت هذه القوى ممثلة بنوع من الشعوبية - بحسب التعابير والمصطلحات الحديثة - إلاّ أنها كانت مسلمة قبل كل شيء، ومخلصة في اسلامها وصحيحة في اعتقادها - منها الخوارزمية، والتركمان، والأتراك السلاجقة والأكراد وسواها. جاءت لنصرة الإسلام، وحملت على عاتقها جهاد المنحرفين والرافضة. هذا على مسرح الشرق. أما على مسرح الغرب، فقد اضطلع العرب والأفارقة بأعباء مقاومة الرافضة والقضاء عليها، مع أنها كانت في بداية أمرها هي التي سارت وراء الرافضة وهي التي ساعدتها على الظهور. ويمثل هذا التحول نموذجاً رائعاً لدور العقيدة الإسلامية في التحولات المثيرة لمسيرة الرافضة، التي استطاعت ان تخدع بعض الناس لبعض الوقت، ولكنها لم تتمكن من خداع كل الناس طوال الوقت. ولا ريب ان تطرف المرتدين من الخرمية والزنج والقرامطة والعبيدية وسواهم، وابتعادهم أكثر فأكثر عن جادة الإسلام، كان من العوامل الحاسمة لا في

حدوث التحولات والانشقاقات داخل حركات الردة ذاتها، وإنما في حفز مراكز القوى الأخرى على الاضطلاع بدورها في اجراء التصحيح المطلوب. ولا ريب أيضاً بأن المقاومة الضارية للعرب المسلمين الذين تصدّوا طوال مراحل الصراع المسلح للحركات المرتدة، ودفعوا الثمن غالياً لمواقفهم، من دمائهم وأموالهم ـ مثل موقف بني هاشم في البصرة أثناء ثورة الزنج ـ كان أيضاً من العوامل الحاسمة في إجراء التحولات المضادة للمرتدين. إذ كان جمهور المسلمين في حاجة للأمثولات القيادية في وسط التيار الجارف للردة خلال مرحلة انطلاقتها. ويؤكد ذلك مرة أخرى أنه من الصعب، إن لم يكن من المحال، ترجمة حركات الردة على اساس انها حركات طبقية، أو أنها حركات اجتماعية، فلقد ضمت قوى الردة مجموعات من مختلف الشرائح الاجتماعية بحسب المصطلحات الحديثة، كما ضمت القوات المضادة ـ جند أمير المسلمين ـ مقاتلين من مختلف الشرائع الاجتماعية. ولم يتحرك الطرفان بدافع أقوى من الدافع العقائدي ـ الديني ـ ولو أنه من الصعب أيضاً تجاهل العامل المادي ودوره في الحرب، مثله كمثل أي حرب، غير أن هناك تبايناً كبيراً بين أن يكون العامل المادي هو الأساس في حروب الردة، وبين أن يكون عاملاً مساعداً استخدمته كل الأطراف المتصارعة حتى تتمكن من الاستمرار والتطور. ولقد اندمجت في حروب الردة كافة العوامل المكوّنة للحرب، غير أن العامل الديني ـ العقائدي ـ بقي هو المهيمن على مسيرة الأحداث وهو الموجّه لها طوال مراحل الصراع المسلح.

لعله من الضروري بعد ذلك، التعرض للجانب المادي ـ الاقتصادي ـ في حروب الردة عامة ـ بما في ذلك ثورة الزنج، وذلك على ضوء الشواهد المتوافرة في حركات الردة ذاتها. فقد كانت حركات الردة في حاجة للموارد المالية ـ الاقتصادية ـ حتى تتقوى بها، وحتى تؤمن لأفرادها من المغانم ما يدفعهم للسير في ركاب الثورة. وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً إذ من المحال على أية حركة ثورية ـ أو لأية جماعة ـ ضمان تماسكها وترابطها ما لم يتم تأمينها مادياً. ولهذا انطلقت حركات الردة عامة من منطلق الحقد على الأغنياء ومصادرة أموالهم ونهب ممتلكاتهم، وتوزيعها على أفراد الرافضة وعلى سواهم لاستئلافهم. ثم تطور الأمر مع تطور الصراع فامتدت

يد النهب لأقاليم بكاملها. ولم يعد الهدف هو الحصول على الغنائم فحسب، وإنما أيضاً لحرمان الطرف الآخر ـ القوات الشرعية ـ من مواردها الاقتصادية، فاتسعت دائرة الحرق والتدمير، واقفرت الأقاليم من مواردها الطبيعية. ونزح السكان عنها. ولم تعد الموارد كافية لإمداد قوات الردة بمطالبها فعاد جند أمير المسلمين واستخدموا النهج ذاته في التضييق على المرتدين والإمساك بخناقهم. وقد أظهرت مسيرة أحداث حروب الردة وتطوراتها دور الحصار الاقتصادي في التأثير على قوى المرتدين، وتفتيتهم من الداخل، وذلك على الرغم من الجهود التي كان قادة المرتدين قد بذلوها مسبقاً لإقامة مستودعات طوارىء ضخمة، ولحفظ مخزون كبير من المواد التموينية والغذائية. وهكذا، فقد كان استخدام العامل الاقتصادي ـ المالي ـ في طريقته وفي هدفه وفي نتيجته هو من أجل دعم القدرة الذاتية ولحرمان الخصم من هذه القدرة. **وبقي الهدف الأساسي هو الهدف الديني:** وهو إن لم يكن كذلك، فلماذا تركّزت الهجمات على المساجد عندما قام الزنج بإحراق البصرة؟ ولماذا عمل القرامطة على أخذ الحجر الأسعد من مكّة المكرّمة؟ ولماذا استباحت كل حركات الردة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم؟ ولماذا أباحت كل حركات الردة ـ الفروج ـ وانتهكت المحرمات؟ ولماذا عملت جميعها على انتهاك العبادات أو عملت على تحويرها واستبدالها؟ والأهم من ذلك كله، فلو كانت حركات الردة هي من أجل المغانم المادية، فقد كان لها في الجهاد على الثغور مجال لاكتساب المغانم. فلماذا اختارت هذه الحركات الطريق الأكثر وعورة وانصرفت عن الجهاد في سبيل الله لتجرد سيوفها ضد المسلمين، وضد المسلمين فقط؟ لقد كان للعامل المادي ـ الاقتصادي ـ دوره في حروب الردة، فالقوة مرتبطة دائماً بالثروة ـ فكان من طبيعة الأمور أن تبحث عن موارد القوة، من خلال الحصول على الثروة. ولم يعرف قادة الردة أن كل عامل من العوامل دوره السلبي والإيجابي، وأنه ذو حدّين، وكان لزاماً استخدام هذا العامل ضدهم.. من جانب قادة جند أمير المؤمنين ـ. ولقد أدرك قادة حركات الردة خطأ نهجهم ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ حيث كان لزاماً عليهم دفع ثمن انحرافهم.

هكذا حملت حركات الردة في جوفها، في فكرها وفي ممارساتها، عوامل

مصرعها وفنائها. ومن عجب أن قادة المرتدين لم يفيدوا شيئاً من فشل تجارب من سبقهم، وظنّوا أن باستطاعتهم تجنّب أخطاء من سبقهم، والمضي إلى ما لم يبلغه أسلافهم، وتجاهلوا عوامل الفشل الثابتة في حركات الردة جميعها، بداية من حروب الردة أيام الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، ومروراً بتجارب الخروج على الطاعة والجماعة في العصر الأموي والصدر العباسي الأول. ونهاية بتجارب من سبقهم في عصرهم. ولقد نجحت حركة من حركات الردة في إقامة دولة ـ العبيدية المسماة بالعلوية أو الفاطمية ـ غير ان هذه الحركة لم تلبث ان فقدت قدرتها، وحوصرت في مصر ذاتها، واضطرت في مرات كثيرة الى السير في ركاب أهل السنة، بحيث لم يبق من التشيع المزعوم إلاّ بعض رموزه، وتحوّلت الى حركة سياسية ـ بحسب المصطلحات الحديثة ـ إذ لم يعد يهمها ان تنتصر بالعرب المسلمين في بلاد الشام وإفريقية ضد دعاة التشيع، ليس ذلك فحسب، بل إن ما وقع من شقاق وخلاف بين القرامطة والعبيديين في مصر، قد أظهر الطبيعة الحقيقة لهذه الحركات حتى عندما أصبح لها دولة. وسقطت كافة الأقنعة الخداعية التي استندت إليها الحركات هذه في مرحلة نموها وظهورها. وإذا استمرت هذه الحركات بعد ذلك في المحافظة على وجودها، فإنها لم تستمر إلا بسبب عدم وجود من يجهز عليها، حتى إذا ما جاء موعدها، زالت ولم يبق منها أكثر من ظلال قاتمة تذكر بتاريخها الأسود، بما اقترفته بحق الإسلام والمسلمين. هذا هو الجانب السلبي، إلاّ ان لحركات الردة أيضاً جانبها الإيجابي بالنسبة للإسلام والمسلمين أيضاً، فقد أسهمت هذه الحركات بالتأكيد في تثبيت دعائم الإسلام في وسط الأمم والشعوب التي أقبلت على اعتناق الإسلام. إذ تبيّن خطر تلك الحركات المنحرفة وتكشفت ضلالاتها، وعرفت مكائدها وخباثتها. فكان الصراع بين الإسلام وأعداء الإسلام، بين الخير والشر، بين الحق والباطل، هو المجال الرحب لتثبيت ما ينفع الناس ويبقى في الأرض، وبين ما هو غثاء لا ينفع الناس. فتذروه الرياح، وتذهب به الأعاصير.

لقد توافرت لقادة حركات الردة ـ الرافضة ـ يقيناً كفاءة قيادية عالية، ولولا ذلك ما استطاعوا المضي بحركاتهم وتحقيق نجاحات كبيرة. فكيف غامر

مثل هؤلاء القادة بركوب المركب الخشن، ومفارقة الطاعة والجماعة، رغم فشل التجارب المتتالية لحركات الردة؟ يعرف المسلمون ان ظهور مثل هؤلاء المرتدين هو ابتلاء لأصحاب الردة خاصة، وللمسلمين عامة. ولقد وضح من خلال تجارب حروب الردة انها كانت خيراً على المسلمين، رغم ما تعرّضوا له من المعاناة، ورغم ما نزل بهم من النوائب. وقد اختلفت النوازع التي دفعت قادة المرتدين للقيام بحركاتهم والإضطلاع بثوراتهم، فمنهم الطائع ومنهم الطامع. ومنهم المخدوع. وجميعهم يدفعهم الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين. ولقد مارس هذا الحقد وتلك الكراهية دورهما حتى داخل مجتمع الردة. فكان في ذلك تآكل هذا المجتمع وتفتته وتمزّقه.

وتبقى حروب الردة منهلاً ثراً وموردأً خصباً لكثير من الدروس الهامة، والتي احتفظت بقيمتها وأهميتها رغم تقادم الزمن. ويظهر استعراض مسيرة الأحداث لتلك الحروب مدى ما كان عليه المجتمع الإسلامي من التطور الفكري خلال تلك الفترة الموغلة في القدم. سواء في مجال السياسة الاستراتيجية، أو في مجال فن الحرب أو في مجال قيادة الأعمال القتالية، أو في مجال العمل التنظيمي. على جبهتي الصراع. وإن مطالعة تلك الأحداث يستطيع أن يتصور بكثير من الذهول وكأن ما حدث قد وقع بالأمس القريب. وذلك بصرف النظر عن الأسلحة ووسائط الصراع. لقد وصل الفكر السياسي والفكر العسكري في تلك الحقبة إلى مرحلة متقدمة جداً لا تنافسها إلاّ أحدث التجارب الثورية. وقد يصعب العثور في أي تجربة تاريخية الحصول على نماذج متكاملة للحروب الثورية المتلاحمة بالحروب التقليدية ـ النظامية ـ كتلك التي حفظتها حروب الردة. ويعتبر ذلك عطاء خيراً لفن الحرب الإسلامي الذي قدم من التجارب ومن الدروس ما لم يتوافر لأية تجربة تاريخية أخرى. وقد يشعر إنسان الأزمنة الحديثة باعجاب كبير بتلك القوى والقيادات التي اضطلعت بأعباء حركات الردة. وقد يكرهها ويمقت أصحابها. وكذلك الأمر عندما يطالع دور القيادات والقوى المضادة للردة، إذ قد يتعاطف معها ويحبها، أو يقف منها موقفاً مغايراً، ولكن لا يسعه في الحالات كلها إلا أن يشعر بقوة الإسلام وبفضله على هذه الأمة، حيث دفعها لآفاق التطور الفكري الواسعة، واستنفر كل قدراتها الكامنة،

فانطلقت للابداع في كل مجالات العمل السياسي والعسكري والتنظيمي والاجتماعي. وقد يكون ذلك وحده كافياً لارتياد التجربة التاريخية، والتعلم منها، مما يساعد على فهم كثير من احداث الأزمنة الحديثة الحافلة بكل أنواع الثورات والاضطرابات والهيجانات المنتشرة في كل صقع من أصقاع العالم.

إن تجربة - حروب الردة - هي تجربة لها خصوصيتها في إطار العالم الإسلامي، وهي تجربة فردة في إطار العالم العربي الإسلامي، إلاّ أنها رغم خصوصيتها، ورغم فرديتها، فإن لها أبعادها العالمية حيث تلتقي بظلالها المتقدمة مع التجارب المعاصرة - تجارب الحروب الثورية. فقد بدأت معظم حركات الردة انطلاقتها بأساليب الحرب الثورية ثم انتقلت عبر مسيرة تطورها إلى المزج بين أساليب الحرب الثورية وطرائق الحرب النظامية. فهل جاءت الحروب الثورية المعاصرة بجديد عمّا جاءت به حروب الردة من قبل اكثر من ألف عام؟. هذا في مجال فن الحرب وحده. أما في مجال الصراع الفكري. فتلك هي محفوظات علماء الكلام، والفقهاء وجميعها تتضمن من الخبرات والتجارب ما يثير حقاً، وما هو جدير بالاستقراء والتعلم. وليس هناك ما هو اكثر فائدة للتعلم من استلهام معطيات التجربة التاريخية الذاتية.

٢ ـ قصة المعركة في العصر العباسي .

أظهر العرض السابق أن العصر العباسي قد عرف ثلاثة أنواع رئيسة من المعارك: **أولاها** تلك التي قادها امراء بني العباس ـ الخلفاء ـ في الصدر العباسي الأول، وتمثلها أصدق تمثيل معارك الرشيد ومعركة المعتصم (عمورية). **ومعارك قادها** امراء الأقاليم على الثغور (آل حمدان وآل سبكتكين). **ومعارك داخلية** ضد ما يمكن تسميته بالحركات الثورية ـ حسب التسميات الحديثة ـ. وهذه المعارك، وبصرف النظر عن حجم القوات فيها، تشترك بمجموعة من الظواهر التي تجعل بالمستطاع جمع هذه الظواهر في قصة معركة واحدة، مع تجاوز الفوارق المميّزة لبعضها، ولكن دون اهمالها، حيث ستظهر هذه الفوارق عند التعرّض للعناصر التي تشملها المعركة ـ بداية من تنظيم القوات، ونهاية باستثمار النصر ـ.

لقد كانت الحرب تبدأ بضرب بوق النفير في قصر الخليفة أمير المؤمنين، وسرعان ما تتردد أصداء النفير في كافة الأقاليم. غير أن حشد القوات كان يقتصر ـ على الأغلب ـ على جيش الخليفة المتمركز في بغداد أو على مقربة منها. والذي ينتقل فور إعلان النفير الى المنطقة المجهّزة القريبة من العاصمة. وتنضم الى الجيش جموع المتطوعة. حتى إذا ما اكتمل حشد القوى والوسائط، بإشراف الخليفة ذاته أو من ينتدبه لهذا العمل، يجري تنظيم هذا الجيش بما كان يعرف باسم (الخميس) وهو تقسيم الجيش الى مقدمة ومجنبة يمنى، ومجنبة يسرى ومؤخرة، والقلب وهو الكتلة الضاربة الرئيسة. غير أنه يجب أخذ هذه التسمية ببعض الحذر. فالخميس لم يكن جيشاً واحداً. لاسيما عندما كان يبلغ من الحجم ما يتجاوز المائة ألف مقاتل. بل كان عبارة عن مجموعة جيوش. كما ان المقدمة والمؤخرة وحتى المجنبتين اليمنى واليسرى لم تكن كتلة واحدة، بل كثيراً ما كان يتم دفع أكثر من مقدمة وأكثر من طليعة على محور التقدّم الأساسي. وكثيراً ما كان يتم تنظيم أكثر من مؤخرة (ساقة) لاسيما عند التحرك في مناطق صعبة أو عند الانسحاب من مسرح العمليات. ولما كان حجم الخميس كبيراً، ويصعب تحركه بكتلة

واحدة ـ بسبب المتطلبات الإدارية والتموينية ـ فقد كان يتم دفع الجيش نحو الثغور بكتل متتالية. وكان على كل جيش تنظيم نفسه على شكل خميس مصغر (جيش مستقل). الى ان يتم الحشد النهائي على مقربة من ثغر من الثغور (أو عاصمة من العواصم كما أعطاها تسميتها الرشيد). ومن هناك، تحدد المهمة لكل خميس وينطلق كل خميس نحو هدفه في الموعد الذي حدّده أمير المؤمنين ـ إذا كان هو الذي يقود الخميس ـ أو من يتولى القيادة باسمه ـ. ويتبعه خميس آخر في موعد لاحق.

وكثيراً ما كان كل خميس يتحرك على محور عمليات مستقل ـ إلى أن تلتقي مجموعة الجيوش عند الهدف، وفي الموعد الذي حدّده القائد الأعلى ـ الخليفة ـ. هنا لا بد من القول بأن حجم الخميس في منطقة العمليات لم يعد على نحو ما كان عليه عندما غادر منطقة الحشد الدولي القريبة من بغداد. فقد انضمت جيوش المدن القريبة الى الثغور، ورفدت الخميس بمزيد من القوة. كما انضمت إليه جموع جديدة من المتطوعة ـ المجاهدين في سبيل الله ـ. والذين لا راتب لهم إلاّ ما يصيبهم من الأسهم التي ينالونها في المغانم. وكثيراً ما أغفل دور هؤلاء في المعارك حيث كان يتم التركيز على عمل الجيوش، غير أن دور هؤلاء كان بالتأكيد دوراً حاسماً في امداد الخميس بالقدرة القتالية ـ مادياً ومعنوياً ـ.

لقد كانت عناصر الاستطلاع لكل قسم من أقسام الخميس ـ لكل جيش من الجيوش ـ تعمل على جمع المعلومات المتعلقة بطبيعة مسرح العمليات، والقوى المعادية، وقادة العدو. وتتناقل أقسام الخميس المعلومات ـ عن طريق المراسلين ـ. وكان باستطاعة كل قسم من هذه الأقسام خوض معركة مستقلة إذا ما بوغت بظهور العدو بصورة غير متوقعة. فإذا أمكن حسم الصراع فاز هذا القسم من الجيش بشرف النصر. أما إذا عجز عن حسم الصراع، فإنه يحاول تثبيت القوات التي اصطدم بها قدر المستطاع مما يساعد بقية أقسام الخميس على التجمع لحسم الصراع ـ إذا كانت كتلة العدو هذه هي الكتلة الرئيسة التي تشكل الهدف، وإما أن تتابع بقية أقسام الجيش تحركها نحو هدفها مكتفية بتثبيت هذه القوة وتجميدها إلى أن تنتهي المعركة مع الكتلة الرئيسة المعادية، وهذا ممّا يفسح المجال للقضاء على القوة التي سبق تثبيتها. وكثيراً ما

كانت هذه الكتلة تنهار عندما تصلها أخبار انهيار الكتلة الرئيسة من قواتها. إن هذا النظام الاستقلالي لتحرك الأرتال، قد أفسح المجال الرحب أمام عمل المفارز الصغرى للعمل أيضاً باستقلالية كاملة وفي إطار بديع من التنظيم المذهل. فقد كان قائد كل قسم من أقسام الخميس يحرص على نشر مفارز كثيرة من الفرسان الخفيفة التي ينحصر واجبها بارتياد الأقليم واستطلاعه وجمع المعلومات والحصول على المواد التموينية من الأقليم ذاته. والقيام بالأعمال التخريبية التي تنشر الرعب في وسط جيوش العدو وفي وسط السكان على السواء. ويجد العدو نفسه أمام حرب تشتيتية واسعة، وفي وسط مواقف غامضة يصعب عليه التعامل معها.

لقد كان يحدث كثيراً أن يصطدم قسم من أقسام الخميس بمقاومة غير متوقعة، أو بقلعة من القلاع المحصّنة التي تهيمن على محور العمليات، فتعترض سبيل تقدم قوات هذا القسم. ويظهر ان قوات المسلمين كانت قد اعتادت على مجابهة مثل هذا النوع من المقاومات. ولهذا كانت تتعامل معها بصورة طبيعية، فإما أن تهاجمها من الحركة، وتنقض عليها بصورة مباغتة فتجتاحها. وإما أن تلتف حولها وتتابع تحركها على الاتجاه المحدد لها، وإما أن تضطر لترك قسم من قواتها لحصار تلك القوة ـ أو القلعة ـ لاسيما عند ما تشكل هذه القوة تهديداً لمؤخرة القوات، وتتابع طريقها بالقسم الأكبر من قواتها للوصول الى هدفها.

وكان كثيراً ما يحدث أن يصطدم أحد أقسام الخميس بعائق طبيعي غير متوقع مثل الأنهار ومضائق الجبال والغابات الكثيفة، وهنا يظهر أيضاً أن جيوش المسلمين قد اكتسبت خبرة واسعة في مجال التعامل مع مثل هذه الحواجز والعوائق فكانت تعمل على تجاوز الحواجز المعيقة بما هو متوافر لها من التجهيزات وبما يمكن لها تجهيزه أو الإفادة منه في مسرح العمليات. وصحيح ان (الفعلة) أو المفارز الاختصاصية لتنظيم العبور وتمهيد الطرق في الجبال، هي التي كانت تنظم العمل وتضطلع بأعبائه. غير أن بقية القوات كانت تقوم لها أكبر قدر من الدعم والمساعدة.

لقد حدث ذلك كلّه، ولازالت الكتلة الرئيسة ـ القلب ـ تسير نحو هدفها بصورة مأمونة نسبياً وقد مهّدت لتقدمها الأقسام التي سبقتها حتى الوصول الى الهدف والذي

قد يكون إما الجيش الرئيسي للعدو، أو مدينة كبيرة قد تحصن بها هذا العدو ودفع أمامها بعض قواته لمشاغلة المسلمين وإكمال الاستعدادات الدفاعية، أو حتى خوض المعركة أمام المدينة. وكثيراً ما كانت جموع الخميس تزيل هذه المقاومات بسرعة، مستفيدة من ثقل هجمتها المادية وزخمها ـ قوة دفعها ـ المعنوية، فتعمل على محاصرة العدو وتطويقه. وهنا يأتي قائد الخميس ليقسم المحيط الدائروي الى قطاعات، وتخصص لكل قسم من أقسام الخميس القطاع الذي يتناسب مع حجم قواته، ثم يجري استطلاع الهدف استطلاعاً دقيقاً، ويقوم قائد الخميس بنفسه بالاستطلاع ـ وهو ما يمكن بتسميته استطلاع القائد ـ بهدف كشف نقاط ضعف العدو، والتأكد من المعلومات المتوافرة. ويعمل قائد كل قطاع على إجراء العملية ذاتها في حدود قطاعه، فيرسل مفارز الاستطلاع لجمع المعلومات ويكرر هو استطلاعه الشخصي. فيما تكون القوات تجري استعداداتها للقتال والاشتباك مع العدو وإشغاله والبحث عن الوسائل التي تزيد من ثقل وطأة الحصار، وأهمها حرمانه من المواد التموينية والمياه. وتحرص القوات التي وقعت في دائرة الحصار على طلب الدعم من بقية قواتها الصديقة. وكان المسلمون يعرفون ذلك ويتوقعونه، ويقيمون استعداداتهم على اساسه ـ حتى لا يباغتهم العدو بهجوم من الخلف. فكانوا يدفعون مفارز الاستطلاع حتى الأفق البعيد ويحرمون القوات التي هي في داخل دائرة الحصار من كل اتصال مع الخارج. وبالرغم من ذلك، فكان يحدث أحياناً ان تتقدم قوات خارجية لفك دائرة الحصار وكان المسلمون يعرفون كيف يجابهون مثل هذا الموقف بعيداً عن مسرح العمليات.

كانت الحامية تجد ذاتها مرغمة على الأخذ بواحد من خيارين: فإما تنظيم هجوم مباغت للخروج من دائرة الحصار، وإما البقاء وراء تحصينات القلعة قدر المستطاع. وأحياناً يتم دمج الخيارين في خيار واحد، بحيث تقوم القوات بهجوم مباغت لتشتيت قوات المسلمين، فإذا امكن تحقيق نجاح أمكن رفع الحصار، أما إذا فشل الهجوم فتعود القوات الى قلعتها لتحتمي بها، وتعاود دفاعها. وقد تكرر المحاولة أكثر من مرة إذا ما توافرت لها قوات كافية، أو إذا وصل بها الموقف إلى مرحلة يائسة. وكان المسلمون بدورهم قد عرفوا هذه الأساليب كلها، وأتقنوا التعامل معها بكفاءة مثيرة للدهشة.

فإذا ما قام العدو بهجوم مباغت وجد أن قوات المسلمين قد استعدت له، فتقع معركة ضارية، ويزج قائد الخميس كتلة قواته الاحتياطية، وكثيراً ما كان يتم سبق القوات المعادية الى مداخل القلعة وأبوابها وتجري محاصرة القوات وإبادتها مما يسهل من عملية الاستيلاء على القلعة. أما إذا التزم العدو بالدفاع ولم يغادر تحصيناته، فالحل جاهز، إذ كانت استعدادات المسلمين كافية، فالمنجنيقات والأبراج والسلالم والاوهاق ـ الحبال ذات الخطاف ـ وسواها هي من بعض عدة قوات المسلمين للتعامل مع الموقف. ولكن لا بد قبل استخدامها من استنزاف قوة العدو وإشغاله طويلاً ـ بالسهام والمجانيق ـ إلى أن تحين اللحظة المناسبة إما لاقتحام القلعة بهجوم مباغت، وإما للهجوم عليها واقتحامها عنوة. وما من حاجة هنا لذكر الأعمال المختلفة التمهيدية التي كانت تسبق عملية الاقتحام ـ والاستعدادات الهندسية، من أعمال ردم للخنادق، ونقب لجدران الحصون والقلاع ولغمها، وغيرها ممّا أبرزه العرض السابق للأعمال القتالية، سواء على الجبهة الداخلية أو الخارجية.

لم يكن هذا هو الشكل التقليدي لقتال الخميس، بل كان هناك شكل أكثر أهمية وأكثر وضوحاً وهو**المعركة التصادمية،** حيث كان المسلمون يسيرون لقتال عدوّهم الذي يكون بدوره قد جهّز قواته واستعد للمعركة ودفع أمامه عناصر الأمن من مقدمات ومفارز استطلاع وعيون ـ جواسيس ـ وعادة ما كانت تقع هذه المعركة عندما تبدأ مقدمات الطرفين المتصارعين بالاشتباك. فتعمل إحدى المقدمتين على تدمير الأخرى. وغالباً ما كان تنتهي معركة المقدمات ـ أو الطلائع بانتصار المسلمين الذين يتابعون تقدمهم نحو الكتلة الرئيسة لقوات العدو، والتي تكون قد تلقت انذاراً بما تعرّضت له مقدماتها من نكبة أو هزيمة، وانتظمت للمعركة. ويحاول قائد الخميس إحباط إرادة العدو، بالاختيار المناسب لأرض المعركة، وكان للمسلمين طرائق مختلفة، أهمها دفع قوات كثيرة للاشتباك مع العدو، ثم التظاهر بالانسحاب نحو منطقة القتل التي يكون قائد الخميس قد اختارها بدقة ونظم قواته عندها. وغالباً ما يكون هذا التنظيم على شكل كمينين على جانبين أو كمين بجانب واحد، بحسب ما تسمح به طبيعة الأرض. وعندما تتجاوز قوات العدو في تقدّمها قوات الكمين، تخرج هذه

القوات على مؤخرة العدو وتحيط بها، وتتحول المعركة الى ما يشبه المذبحة هدفها أسر أو قتل أكبر عدد من قوات العدو. ونظراً للصراع المستمر بين المسلمين وأعدائهم، فقد عرفت القوات المتحاربة على جبهتي الصراع هذا الشكل من أشكال القتال. وغريب الأمر هو أنه رغم هذه المعرفة فقد كانت قوات العدو كثيراً ما تنقاد الى منطقة القتل، تحت تأثير إغراء حسم المعركة، فتتعرض للهزيمة المدمرة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حقيقتين: **اولاهما** كفاءة القادة في تجديد الأسلوب على مستوى العمليات وتطوير أساليب الخداع والإخفاء والتمويه مما يجعل العدو منقاداً نحو منطقة القتل وهو مغمض العينين. **وثانيتهما** هو أن قوات المسلمين كانت تلقي بثقلها للتضييق على العدو، وحرمانه من الخيارات المتنوعة، بحيث يجد العدو نفسه أمام موقف صعب لا مخرج منه إلاّ بخوض معركة يائسة مهما كانت نتائجها.

لقد كان التنظيم المعهود للمعركة التصادمية هو أن تتقدم قوات الفرسان الخفيفة بصفوف ـ أنساق ـ متتالية ومعها الأعلام والرايات ثم تتبعها على مسافة كافية قوات المشاة بصفوف متتالية. وتأتي بعد ذلك منطقة الشؤون الادارية والأثقال. فيما تبقى قوات كافية من الفرسان لحماية الاجناب والمؤخرة وتبدأ المعركة بالمبارزة التي قد تستمر أياماً ـ أو قد لا تستمر لأكثر من ساعات قليلة ـ وتأخذ هذه المبارزات شكل اشتباكات فردية تتحول احياناً بسرعة الى نوع من قتال الصدمة حيث تنطلق كتلة الفرسان بثقلها لاختراق قلب العدو او إحدى مجنبتيه، للوصول الى مؤخرته، والالتفاف من حولها لضرب المجنبات، فيما تتقدم كتلة المشاة لسحق قوات العدو التي مزقتها هجمات الفرسان. وغالباً ما كانت تنتهي المعركة عندما تتم الاحاطة بالعدو وتطويقه. ولكن كثيراً ما كان يحدث ان يحاول العدو استنزاف قوات جيش المسلمين بدفع رماته ـ المشاة رماة السهام ـ الى الانساق الاولى لامتصاص قوة اندفاع فرسان المسلمين وفصل الفرسان عن مشاتهم، وانزال اكبر قدر من الخسائر بقواتهم. وكان قادة الخميس يجابهون مثل هذا الموقف بما هو متوقع، حيث يعملون بدورهم على سحب قوات الفرسان الى الاجناب والمؤخرة ودفع النبالة ـ رماة السهام الى الأنساق الاولى، وتأخذ المعركة طابع الاستنزاف. فيما يحاول قادة الخميس الكشف عن نقاط

ضعف العدو والعثور على ثغرة في تنظيمه القتالي. وعندها تندفع كتلة الفرسان عبر نقاط الضعف او الثغرات لاختراقها وتمزيق التنظيم القتالي للعدو. وعندها تتصاعد حدة القتال حيث يظهر كل طرف تصميمه على احراز النصر. وينتصر الطرف الأكثر عناداً أو الأكثر تصميماً. وغالباً ما يكون النصر في مصلحة المسلمين. أما إذا حدث ان امتنع النصر، فسرعان ما يعمل قائد الخميس على اعادة تنظيم قواته تنظيماً جديداً ويعيد زجها في المعركة، وقد تتكرر مثل هذه العملية لاكثر من مرة، إلى أن يتم احراز النصر وحسم المعركة.

لم يكن أمراً غريباً ولا مثيراً، وقد عرف المجاهدون في سبيل الله ـ قادتهم وجندهم. أهمية اقتران عاملي السرعة والكتلة، عبر تجاربهم المستمرة، بأن يعملوا على تحقيق هذا الاقتران في تنظيمهم القتالي للمعركة، مهما كان شكل هذا التنظيم. وكان تنظيم كتل الفرسان يضمن في الحالات جميعها تحقيق الصدمة القوية بمحصلة السرعة والكتلة. غير ان غياب الفرصة لتحقيق قتال الصدمة لم يكن عائقاً أمام ابتكار اساليب غاية في الإبداع للوصول الى الهدف. فعندما لم تكن طبيعة الأرض تسمح بقتال ـ الكر والفر ـ وعندما كانت الممرات الجبلية والمضائق تعترض سبيل التقدم، كان يتم الاستعاضة عن الكتل الكبيرة بقوات من الفرسان الخفيفة للتسلل الى ما وراء العوائق الطبيعية ومباغتة العدو بضربة حاسمة تفقده توازنه، وتقذف به الى خارج ميزان القوى.

ولم يكن أمراً غريباً ولا مثيراً، وقد أتقن المجاهدون في سبيل الله أساليب حرب الحركة، بحكم ممارستهم المستمرة لها، أن تكون معركة الكتلة الرئيسة للقوات، أو المعركة الحاسمة إذا ما جاز التعبير والوصف، هي المحصلة النهائية لمجموعة الاشتباكات التي سبقتها والتي رافقتها، فقد كانت أرتال المجاهدين ـ جيوشهم النظامية والمتطوعة ينحدر نحو هدفها كالسيل الجارف، فتتفرق في السهول بحثاً عن المعركة، ويخوض كل قسم من أقسام الخميس معاركه الجزئية على نحو ما سبق عرضه، حتى إذا ما جاء دور معركة الكتلة الرئيسة تجمعت كل الأقسام حول الهدف ـ كما تتجمع المياه حول السد الذي يعيق تقدمها. وتستثمر الكتلة والسرعة لازالة الحاجز، ولكن وحتى

أثناء ذلك تتابع المفارز الصغرى عملها ـ سواء في نطاق عمل قوات الأمن، او في نطاق عمل القوات المكلفة بالتأمين الاداري للقوات، أو حتى بتنظيم مفارز خاصة لواجبات معينة مثل السيطرة على نقطة حاكمة، أو استطلاع محور للانسحاب أو الالتفاف من حول القوات، وهذا ما يشبه عمل المياه التي تصطدم بسد من السدود، حيث تحاول المياه حفر ممرات خاصة بها، او التسلل عبر ثقوب تم اهمالها، وتعمل المياه عملها لتوسيع الثقوب والثغرات الى ان يتداعى السد وينهار وتجتاحه الكتلة الرئيسة من مياه السيل.

ويبقى قائد الخميس دائماً مع الكتلة الرئيسة لقواته، أو مع القوة التي تقوم بالواجب الاكثر أهمية والأكثر خطورة، فهو على مقربة من المقدمة أثناء التقرب من جيش العدو، وهو مع الكتلة الرئيسة اثناء المعركة الحاسمة، وهو على مرتفع مشرف على ميدان القتال عندما يحتدم القتال ومعه قوة كافية من الفرسان للتدخل في الوقت المناسب إما لسد ثغرة ظهرت في تنظيم قوات المسلمين او لدعم قوة عجزت عن بلوغ هدفها، أو لحسم موقف تأخر موعد الحسم فيه، وهو أيضاً مع المؤخرة أثناء الانسحاب، وعلى طريق العودة من المعركة. حتى يضمن سلامة قواته، وحتى يجابه الظروف المستجدة أو الطارئة. وصحيح انه يعتمد دائماً على القادة الاكفاء لقيادة أقسام الخميس، غير أنه هو صاحب القرار الأول والأخير في ادارة الحرب، وهو الذي يشرف على تنسيق التعاون بين الأقسام المختلفة للخميس، وهو الذي يتصرف بالقوة الاحتياطية الكافية لزجها في الوقت المناسب وفقاً لما تتطلبه ظروف القتال وردود فعل العدو.

لم تكن معركة الخميس في الحالات كلها بمثل هذه الصورة البسيطة ـ أو المبسطة ـ فالمعركة هي التعبير عن حوار الارادات المتصارعة، ويستخدم العنف حتى أقصاه في هذا الحوار. ولولا توافر ارادة الحوار لانتفت المعركة ولما وقعت أو حدثت. ولهذا يحاول كل قائد استنفار مواهب العقل والابداع جميعها لاعطاء حواره ما يكفي من القدرة لاقناع خصمه بالاكراه المادي او المعنوي للاستسلام لخصمه. وهنا يظهر تفوق قادة خميس المسلمين في تطوير مبادىء الحرب من اجل الوصول بالحوار الى نهايته السعيدة، وتحقيق النصر الحاسم، وإذا كان الحرص على المبادأة هو من أول ما يبتغيه

قادة الخميس لوضع خصومهم أمام الخيارات الصعبة والمآزق الحرجة، فقد كان مبدأ المباغتة يحتل مرتبة عليا في حالات أخرى. وكثيراً ما مر خلال عرض الأعمال القتالية اصطلاح او تعبير: «وقاد مجموعة من الفرسان وسار بسرعة حتى يسبق خبره». ويتضمن هذا التعبير مجموعة من مبادىء الحرب **أولها**: الحرص على تحقيق المباغتة عن طريق التحرك السريع والإفادة من الظروف الجوية الصعبة او عبور المناطق المحمية والظهور في مناطق لا يتوقع العدو ظهور قوات فيها فتحدث المباغتة، وتنهار المقاومة. **وثانيها**: استخدام القدرة الحركية العالية في الأغراض الهجومية. وبحيث تكون هذه السرعة البديل عن الكتلة أو قوة الصدمة. **وثالثها**: الحرص على أمن القوات، وإحاطة التحرك بنطاق محكم من السرية والكتمان بحيث تصل القوات إلى هدفها، وتحقق مباغتتها قبل أن تتمكن قوات العدو من جمع المعلومات عن هذا التحرك، وانذار قيادتها به. وفي حالات أخرى، يكون لمبدأ (التأمين الاداري للقوات) الأفضلية الأولى على كل ما عداه من مبادىء الحرب، إذ قد يتمكن جيش العدو من تطويق جيش المسلمين، والإمساك بمناطق العبور، والسيطرة على محاور العمليات. وهنا كان قادة الخميس يعالجون الموقف بإعطاء التأمين الإداري الأفضلية التي يستحقها، فيجمعون المواد التموينية من الأقاليم. ويلجؤون الى (استراتيجية الأرض المحروقة) لحرمان العدو من موارد تموينه، وهم يعملون في الحالات كلها ـ أو في معظمها ـ على أرض العدو ذاته ـ ولهذا فإن الضغط والإكراه المادي، مثل إخلاء الارياف من سكانها وإحراق المدن. وقتل مفارز العدو المنعزلة، والإكثار من الاغارات والكمائن، يحول الخميس الى عبء ثقيل يصعب على العدو احتماله. فيعمل على افساح المجال أمام الخميس للعودة الى بلاده، وبل وحتى مساعدته أحياناً بوسائط النقل والحيوانات الضرورية لنقل الغنائم والتموين والمرضى، لإبعاده عن منطقة عملياته.

يبقى البحث عن الحسم هو الهدف الأول للخميس، بداية من القائد الأعلى ـ الخليفة او من يكلفه بذلك ـ وحتى آخر جندي. وكان البحث عن المعركة، والاستعداد الدائم للقتال، والفضائل الحربية للخميس هي بعض عدة هذا الحسم، أما على مستوى الأعمال القتالية وادارة الحرب فكانت أعمال التطويق والالتفاف ومناورات

التسلل العميق الى ما وراء مؤخرات العدو والمطاردة الحاسمة هي الوسائل لتنفيذ الحسم. ولقد برز من خلال عرض الأعمال القتالية أن الذين كانوا يقتلون من جند العدو خلال معركة المطاردة هم أكبر بكثير ممن كانوا يقتلون على أرض المعركة. وقد عرف أعداء المسلمين هذه الحقيقة، فكان ذلك حافزاً لهم لخوض الصراع المسلح بعناد كبير ومقاومة بطولية مذهلة، وهذا ما عبرت عنه المصادر التاريخية العربية بتعبير: «حتى فرغ الصبر، وحتى ظن المسلمون أنه الفناء، إلى أن أنزل الله نصره على المسلمين». وفي حالات أخرى، كان اقتناع أعداء المسلمين بحتمية انتصار المسلمين، وخوفهم من الوصول بالصراع المسلح إلى مرحلة الحسم وما يتبعها من الإبادة، حافزاً للدخول في مفاوضات مع المسلمين، والحصول على الأمان وكان وفاء المسلمين للعهود التي يقطعونها، عامل إغراء لطلب مثل هذا الأمان في حالات كثيرة. وكان المسلمون بدورهم لا يمنحون هذا الأمان إلا من موقع الاقتدار، وإلا بعد الاقتناع بأن المعركة قد حققت هدفها، وأن المزيد من القتال لن يؤدي إلا إلى وقوع المزيد من الخسائر التي يمكن توفيرها في إطار مبدأ «المحافظة على القوى». وبذلك كانت المعركة تحقق التوازن بين هدف الحرب وغاية السلم.

وتصل المعركة الى نهايتها الظافرة، ويتم جمع الغنائم والأسلاب، ويقوم العامل على المغانم باستخلاص خمس بيت الله، ثم يسرع في توزيع ما بقي على المجاهدين في سبيل الله - جندهم ومتطوعتهم - ويأخذ كل نصيبه، وهو نصيب لا يعادل في أفضل الحالات ما بذله هؤلاء من جهد، وما تعرضوا له من معاناة، وما جابهوه من مخاطر، والغنائم ليست هي الهدف وإنما هي بعض التعويض المادي الذي يساعد على تقوية الجند معنوياً أكثر مما يفيدهم مادياً، ذلك أن هذه المغانم هي رمز النصر والبرهان على النجاح. ويستعد الجيش للعودة الى قواعده ويعمل قائد الخميس على إعادة تنظيم قواته ويطلقها بترتيب الارتال على محور، بفواصل متتالية - بحيث يسير كل قسم من أقسام الخميس في يوم معين ثم يتبعه القسم الثاني. وهكذا. وليست طريق العودة مأمونة دائماً. فالعدو الذي أثخنته الجراح يحاول الانتقام لهزيمته، ويحاول رفع معنوياته المنهارة، ويؤكد تصميمه على متابعة حوار الارادات المتصارعة، فيعمل على نصب الكمائن،

وارسال الاغارات، والامساك بالممرات الاجبارية والمضائق الصعبة. ولكنه يجد ان أقسام الخميس قد استعدت لمجابهة مثل هذه الأعمال والرد عليها بما تستحقه من العنف والقسوة.

عاد المجاهدون في سبيل الله الى قواعدهم، ورايات النصر خفاقة فوق رؤوسهم. وقد أضافوا من خلال تجربتهم القتالية الجديدة رفداً لخبرتهم بطبيعة العدو ومسرح اعماله القتالية وطرائقه التي استحدثها، وما استحدثوه بدورهم من أساليب وطرائق. وبذلك كان يتم تطوير فن الحرب الاسلامي عبر تجارب الحروب. ويتزايد الرصيد من خبراتها. ولم يكن هذا التطوير، ولا ذاك الرصيد ملكاً للخليفة أمير المؤمنين ولا للقادة على اختلاف مرتباتهم، وإنما كان ملكاً للمجاهدين في سبيل الله جميعاً. فهل من غرابة في الأمر ان ظهر من بين صفوف المجاهدين وبصورة مستمرة أجيال من القادة الذين تميزوا بكفاءتهم القيادية العالية. لقد كانت المعركة هي مدرسة الحرب الحقيقية لاعداد المجاهدين في سبيل الله الذين يخوضون المعركة بعقول مفتوحة وقلوب مؤمنة، فتتفتح أمامهم مجالات الابداع لإضافة رفد جديد لفن الحرب الإسلامي.

لم تكن (قصة المعركة في العصر العباسي) إلا تطويراً لتلك القصة التي عرفها العرب المسلمون منذ انطلاقتهم الاولى الى دنيا الفتوح. ولقد أظهر العرض السابق مدى التعقيد الذي بلغته قصة المعركة. فلقد تطلبت زيادة حجم الجيش إدارة للحرب اكثر تطوراً وأشد تعقيداً مما تطلبته ادارة الحرب في معارك الفتح الاولى. وهذا لا ينتقص من قيمة تلك الانتصارات المذهلة التي حققها جند الله في تلك الفتوح الرائعة. ولا يزيد من قيمة الانتصارات المماثلة التي حققها الخلف والذين ساروا على درب الآباء والأجداد. واستلهموا خبراتهم وتجاربهم فجعلوا منها أساساً لكل تطور. غير أن من طبيعة الأمور ان يتكيف فن الحرب مع المستجدات. ولقد اكتسب اعداء المسلمين بدورهم خبرات كثيرة من قتالهم للمسلمين، في طرائق العمليات خاصة وفي اساليب حرب الحركة، وأدى ذلك الى زيادة التعقيد في حوار الارادات المتصارعة، فكان لزاما أن يعمل قادة المسلمين بدورهم على تطوير اساليبهم وطرائقهم لمجابهة التحديات المستجدة باستمرار.

ومرة أخرى، كانت معارك السلف ـ أيام الفتح الاولى ـ معارك حذق ومهارة، وأصبحت معارك الخلف ـ ايام العصر العباسي ـ معارك قوة واقتدار، بسبب تزايد حجم الجيوش، ولكنها لم تكن خالية من الحذق والمهارة، إذ لولا هذا الحذق وتلك المهارة لأصبح ـ الخميس ـ مجرد كم او عدد لا ثقل له في ميزان القوى. فالعدد أو الكم هو آخر ما يعتد به في ميزان القوى إن كان محروماً من التكامل مع بقية العوامل ـ وأولها الرصيد المعنوي ـ. ولقد بقيت معارك العصر العباسي امتداداً لحروب الايمان التي عرفتها أيام الفتح الأولى. وكان هذا الإيمان هو العامل الحاسم في تطور المعركة عبر الأزمنة المتتالية. ولم يكن هذا التطور ـ على ما سبق عرضه ـ محدداً في مجال معين، وإنما كان شاملاً لكافة الفعاليات القتالية، بما فيها نشاط المجاهد الفردي. وبكلمة أكثر وضوحاً، لقد تحقق في (المعركة في العصر العباسي) تطور متكامل بداية من ادارة الحرب على المستوى الاستراتيجي وعلى مستوى العمليات. ونهاية بالأعمال التكتيكية التي يمارسها الفرد ومجموعة الأفراد.

٤ ـ تدابير الأمن والحيطة.

وصل فن الحرب في العصر الاموي الى مرتبة متقدمة، فلقد تطلبت الفتوحات معرفة مسارح العمليات معرفة حقيقية، ودراستها دراسة علمية، بداية من معرفة التكون السكاني، ونهاية بالطبيعة الجغرافية والمناخ. ولعل في رسالة عبد الحميد الكاتب ـ في عهد آخر خلفاء بني أمية ـ وفي التنظيم الدقيق لأساليب جمع المعلومات ما يبرهن على تلك الأهمية الكبرى التي احتلتها تدابير الأمن والحيطة، والتي اعتمدت على جمع المعلومات بكل الوسائل المتوافرة والمتاحة. ولقد تطورت اساليب الاستطلاع وتطورت تبعاً لذلك تدابير الأمن والحيطة في العهد العباسي. وكان ذلك أمراً طبيعياً، لابد منه، للتكيف مع تطورات الجيوش. ولقد أظهر عرض مسيرة الأحداث، والأعمال القتالية المتتالية، ان هناك تمييزاً واضحاً في أعمال الاستطلاع، وفي تدابير الأمن والحيطة. ففي مجال الاستطلاع وجمع المعلومات، ظهر الاهتمام الكبير بعمل شبكة العيون ـ الجواسيس ـ والتي كانت تغطي الأقاليم الاسلامية وتمتد الى عمق بلاد العدو. ثم هناك الاستطلاع الخاص بالقوات المسلحة ـ أو بالخميس ـ والذي يعتمد على الطلائع والمقدمات واستجواب السكان والحصول على الأسرى، وفي مجال تدابير الحيطة والأمن هناك تدابير للأمن البعيد، وتدابير الأمن القريب، ثم تدابير الأمن المباشر. ولكل من هذه الأنواع قواته وتنظيماته وأساليبه.

لقد أظهر عرض الأحداث أن دار الخلافة في بغداد كانت تعلم بكل تحرك للروم، وكل استفزاز واعتداء. ليس ذلك فحسب، بل إنها كانت تعرف عدد المسلمين الأسرى عند الروم. وتتابع ما يحدث في بلاط الروم. علاوة على معرفتها بالأقاليم وبالسكان. وقد يكون من السهل اكتساب المعرفة عن طبيعة مسارح العمليات في بلاد الروم وعن أحوال المناخ، فلقد كانت غزوات الصوائف والشواتي طوال العهد الأموي. وفي الصدر العباسي الأول، تسير بانتظام، وتوغل في تقدمها حتى انها دقت أبواب

القسطنطينية مرات عدة. ولهذا فقد كانت هذه المعرفة متوافرة، وكل ما كان مطلوباً معرفته هو ما يقوم به الروم من أعمال هندسية على مقربة من الثغور مثل تنظيم القلاع، وبناء التحصينات وحشد القوات الخ... ولكن كيف استطاعت دار الخلافة الوصول الى وسط بلاط الروم ـ البيزنطيين؟

ولقد عرف العصر العباسي ـ ومن خلال تجربة العهد الأموي أيضاً ـ أهمية الاستطلاع للجبهة الداخلية، وضرورة معرفة ما كان يحدث من تكتلات لمراكز القوى، ومحاولات لشق عصا الطاعة والجماعة، ومتابعة التحركات المريبة. وقد ظهرت في العصر العباسي الأول ـ بخاصة ـ شواهد مذهلة عن تطور عمل شبكات العيون ـ الجواسيس ـ التي كانت تقدم للخليفة ـ أمير المؤمنين المعلومات الدقيقة والموثوقة والمرتبطة بأمن الدولة داخلياً وخارجياً، فما هو التنظيم الدقيق الذي اعتمده خلفاء بني العباس لتحقيق هذه الغاية؟

كانت أرتال التجار تجوب الآفاق بحثاً عن وسائل العيش، وكانت جموع الفلاحين تمارس عملها في كل مكان، حتى في قلب بلاد العدو، وكانت مجموعات الفعلة تعمل حيثما يحتاج العمل لليد العاملة، وبالاضافة الى ذلك، فقد كانت هناك اتصالات رسمية، وتبادل للوفود، وكان المسلمون في كل هذه المجالات وفي سواها عيوناً للدولة الاسلامية العباسية. ولقد كان كل مسلم يعرف عن قناعة، ومن خلال التجربة العملية، أن أمنه الشخصي مرتبط بأمن دولته، وأن أعداء الاسلام يكيدون لكل مسلم، ولهذا فقد كان يشعر ان من واجبه جمع المعلومات بصورة دائمة للإفادة منها في الوقت المناسب، أما في حالات الخطر، وعند ظهور نوايا عدوانية، فسرعان ما كان هؤلاء ينذرون دار الخلافة بكل ما يثير شبهاتهم. بل إنهم كانوا يتوجهون بأنفسهم الى دار الخلافة لتقديم المعلومات التي يعتقدون انها ضرورية للمحافظة على أمن المسلمين. وكان الخلفاء بدورهم يستقبلون في كل وقت مثل هؤلاء الزوار، ويحصلون منهم على ما تضمنته جعبتهم من المعلومات، ويجزلون لهم العطاء عند التأكد من صحة المعلومات. ولم تكن الرغبة في الحصول على العطاء بالتأكيد، وبحسب الشواهد التي أبرزها العرض السابق ـ هو الحافز الأساسي لمعاناة مشقة الطريق، والتعرض للأخطار، من اجل

الوصول بسرعة الى دار الخلافة ولكن الحافز الأساسي هو ذلك الشعور الرائع بوحدة المسلمين، وبالتصميم على دفع كل ضرر أو أذى يلحق بالمجتمع الاسلامي أياً كان مصدره.

هكذا كان كل مسلم عيناً ـ جاسوساً ـ لدولته الاسلامية، يتحسس أخبار العدو ويرقب ما حوله بيقظة وحذر. فلا غرابة إذا ما كانت شبكة العيون المتطوعة قد غطت تغطية كاملة أقاليم العدو وبلاد المسلمين على السواء. ولقد ظهر في عرض الحروب الداخلية إن الابن كان ينقل الأخبار عن أبيه، وان الزوجة كانت تنقل الأخبار عن زوجها أو ابنها، عندما كان الأمر متعلقاً بأمن المسلمين وأمن المجتمع الاسلامي ـ هذه هي الصورة العامة لشبكة عيون المتطوعة، ولكن لا بد من القول أيضاً ان هناك حالات كثيرة ظهر فيها ضعف شبكة العيون ـ الجواسيس ـ سواء في تغطيتها للجبهة الخارجية أو في مجال تغطيتها للجبهة الداخلية، وإلا لما تمكنت قوات العدو من معرفة ما يحدِث في ديار الاسلام، بدقة مماثلة لدقة المعلومات التي كان يحصل عليها المسلمون.

يظهر ذلك أن الحرب بين شبكات العيون ـ الجاسوسية ـ هي حرب ليست من مستجدات الأزمنة الحديثة، وإنما هي قديمة ربما قدم تاريخ البشرية على الأرض. وما يهم البحث هنا هو أن هذه الحرب قد أخذت في العصر العباسي شكلاً منظماً ارتبط بالمذهب العسكري وبالعقيدة الدينية للأطراف المتصارعة. فكان للروم ـ البيزنطيين ـ خاصة شبكات عيونهم التي تمتد حتى دار الخلافة. وهذا ما يفسر حرص امراء المؤمنين، وأباطرة الروم على الاحتفاظ بأسرارهم ـ الخاصة بالحرب ـ وعدم البوح بها إلا في الدائرة المضمونة. وهذا ما يفسر أيضاً سبب حرص الانسان المسلم على نقل المعلومات التي يحصل عليها بنفسه، وعدم البوح بها لأي انسان. وكان من السهل تحقيق التقاطع في المعلومات للتأكد من صحتها، إذ سرعان ما يتوافر اكثر من متطوع لنقل المعلومات الهامة والخطيرة. وكانت هناك شبكات العيون المرتبطة بأمير المؤمنين، حيث كان خلفاء بني العباس يحرصون على تنظيم شبكات بأنفسهم، وترتبط بهم مباشرة، للحصول على المعلومات. كما كان امراء الأقاليم، وقادة الثغور، وقادة الحصون،

ينظمون عمليات الاستطلاع وجمع المعلومات لحماية أنفسهم وقواتهم، وكان توافر المعلومات لدي هؤلاء العمال، يغذي الخلفاء وبسرعة بالمعلومات التي يحصلون عليها من المتطوعة ومن شبكات عيونهم الخاصة. ولعل الأمر المثير هو الحرص على انتقاء عناصر العيون ممن تتوافر لهم كفاءات مميزة ـ كالذكاء الحاد، والقدرة على الكتمان، والحذر. وكان كل طرف يحاول اخفاء شبكات عيونه، وعناصره، فقد كان عددهم قليلاً نسبياً، إلا أنهم كانوا يشكلون الطبقة المختارة التي تضطلع بأعباء عمل خطير. ولهذا كان الاتصال بهم محرماً، فإذا ما انكشف امر أحدهم كان ذلك نهاية له في عمله. وتجدر الإشارة الى انه بالرغم من الثقة الممنوحة لهؤلاء، فقد كانت المعلومات التي يحصلون عليها موضع التدقيق ـ والتقاطع ـ خوفاً من ازدواجية عمل هؤلاء العيون، والخشية من تقديم معلومات مدسوسة يريد العدو ايصالها لخداع القيادة المعادية. ويظهر انه قد حدث مثل ذلك، سواء عن حسن نية او عن سوء نية، فكانت معلوماتهم تستقبل بالحذر الى ان تتبين صحتها ودقتها من خلال مقاطعتها مع معلومات المصادر الأخرى. وكان العيـون ـ من المتطوعة ومن المأجورين ـ يعرفون أهمية السرعة في نقل المعلومات، وضرورة استخدامها في الوقت المناسب، فكانوا يختارون أفضل السبل وأضمنها واكثرها سرعة لإيصال المعلومات.

تلقى أمير المؤمنين ـ الخليفة ـ الانذار بتحرك قوات العدو ونواياه. واستنفر قواته، وشرع الجيش في تحركه، وهنا تتزايد كثافة العيون ويتضاعف نشاط الشبكات حيث تبذل كافة الجهود لمتابعة تحركات العدو، ومعرفة حجم القوات، وقياداتها، واتجاهاتها، وأعمالها وأهدافها الخ... وتتدفق المعلومات باستمرار، فيسير الخميس للقاء العدو وهو يرى هدفه بوضوح من خلال شبكات العيون ـ الجواسيس ـ الذين يتابعون عملهم حتى أثناء وقوع الصدام، لكشف نقاط ضعف العدو. وهنا تقترن معلومات العيون بمعلومات شبكات استطلاع الجيش.

لقد ظهر أن عمل الطلائع والمقدمات كان في العصر العباسي على نحو يشابه كثيراً عمل أجهزة الأمن في الأزمنة الحديثة. حيث كانت الطلائع تعمل على استجواب السكان المدنيين. وتحصل على المعلومات بالاغراء المادي احياناً، وبالاكراه في أحيان

أخرى. ويعمل قادة هذه المفارز على نقل ما يتوافر لهم من المعلومات الى قائد الخميس بصورة مباشرة. وفي الوقت ذاته يقوم قائد الخميس بإمداد قادته بالمعلومات الضرورية التي تساعدهم على تحقيق واجباتهم. وهكذا يستمر سيل المعلومات في العمل على الاتجاهات المختلفة. وبالرغم من وفرة المعلومات فقد يجد قائد الخميس أنه بحاجة لمعلومات معينة تتطلب الحصول على أسرى من منطقة محددة. وقد يجد قادة أقسام الخميس أنهم بحاجة أيضاً لأخذ أسرى والحصول على معلومات خاصة بهم. فيتم تنظيم عمليات للحصول على أسرى. ويقوم قادة أقسام الخميس باستخلاص المعلومات التي تفيدهم ثم يوجهون هؤلاء الأسرى الى أمير المؤمنين ـ أو من يمارس دوره ويضطلع بعمله في قيادة الخميس ـ فيقوم باستجواب الأسرى شخصياً. ويحسن معاملتهم، مقابل ما يقدمونه من خدمات ومعلومات. وبدهي ان العدو يمارس الدور ذاته، وكان ذلك سبباً في حمل القيادات على تبديل مخططاتها القتالية باستمرار، وإعادة تنظيم ترتيباتها.

لقد كان مخطط عمل شبكات العيون ـ الجواسيس ـ مرتبطاً بالمخططات الخداعية. حيث كان يحاول كل طرف التكتم على أهدافه ونواياه، وتقديم بدائل خداعية لتضليل العدو عن الأهداف الحقيقية. وكان الخيال يمارس دوره الكبير في ابتكار وابداع الطرائق الخداعية التي تبدأ ببث معلومات كاذبة، وتنتهي بمناورات خداعية. وكانت الخبرات المتوافرة لدى العيون، وامكاناتهم للوصول إلى مصادر المعلومات الأكثر صحة ودقة، هي المقياس لنجاح هؤلاء العيون في تنفيذ واجباتهم والاضطلاع بأعمالهم. وكما كان عمل شبكات العيون مرتبطاً بأمير المؤمنين، فكذلك كان وضع المخططات الخداعية من عمله. فهو المسؤول الأول والأخير عن جند المسلمين، أمام الله، وعليه اتخاذ كافة الاجراءات الضرورية لحمايتهم، وتأمين الظروف المناسبة لتحقيق واجباتهم بنجاح.

لقد كان الصراع بين شبكات العيون ـ الجواسيس ـ صراعاً مريراً، ولهذا فقد كان من المعتاد اتخاذ جميع الترتيبات الوقائية من عمل شبكات الجواسيس المعادية، وكان من أولها المحافظة على السر حتى اللحظة الأخيرة. وكان من السهل ضمان هذا الأمر إذ إن القرار بالحرب يبقى معلقاً بكلمة أمير المؤمنين من جهة، وبامبراطور الروم من جهة

ثانية، وتأتي بعد ذلك سرعة التحركات لتسهم في المحافظة على السر قدر المستطاع. وكذلك، فإن اسهام كل مواطن مسلم بالمحافظة على الأمن، ومراقبة كل ما يثير من الشبهات كان عاملاً كبيراً في احباط عمل العيون ـ الجواسيس ـ وبالرغم من ذلك فقد كان لا بد من اتخاذ تدابير الحيطة لحماية القوات من كل مباغتة محتملة أو متوقعة، وكانت تدابير الحيطة متنوعة تتناسب مع كل موقف من المواقف.

كانت الطلائع تسير متقدمة أثناء تحرك القوات حتى الأفق البعيد للتحرك، وتتبعها المقدمات على مسافة كافية، ثم تأتي الكتلة الرئيسة للقوات. وكانت المجنبات تفرز بدورها قوات لحمايتها على مسافة كافية، وهذا ما تفعله أيضاً المؤخرة ـ الساقة ـ. وكانت هذه القوات بمجموعها تشكل نطاق أمن القوات. وكان عمل الطلائع ينحصر باستطلاع الأقليم واحتلال النقاط الحساسة ـ الجسور المضائق ـ ولم يكن واجبها خوض المعركة، وإنما كان واجبها اكتشاف العدو، وتحديد مكانه وقوته، فإذا ما اصطدمت بقوات صغيرة للعدو ـ عادة ما تكون قوات استطلاع مماثلة ـ فإنها تعمل على مهاجمتها وتدميرها ومتابعة سيرها، أما إذا كانت القوات اكبر من قدرتها، فإنها تشتبك معها، أو تحاول تثبيتها، وتنذر قوات المقدمة التي تسرع لدخول المعركة بعد أن تكون قد نظمت نفسها للهجوم، وتعمل على تدمير قوات العدو، أما إذا لم تتمكن من ذلك فهذا يعني أنها اشتبكت بالكتلة الرئيسة للعدو، ومن أجل ذلك فإنها تحاول متابعة المعركة لتثبيت العدو، مما يفسح المجال أمام الكتلة الرئيسة للقوات للتدخل وخوض المعركة، وقد يحاول العدو التظاهر بالانسحاب على اتجاه معين ليفصل المقدمة عن كتلة القوات الرئيسة، وجذبها إلى منطقة يكون قد نظم فيها كميناً لابادتها. إلا أن المقدمة، بما عرفته من تجارب لا تحاول تغيير اتجاهها. أو الانجذاب نحو الاغراء، فتترك للعدو فرصة الانسحاب، إلا أنها تحاول مشاغلته، ومتابعة تحركه بقوات صغيرة. مع نقل التطورات باستمرار إلى قائد الخميس، ليكون على اطلاع بالموقف.

وقد يحاول العدو دفع قوات لمهاجمة مجنبات قوات المسلمين ومؤخرتها، وتعمل قوات نطاق الأمن بالطريقة ذاتها، فهي تحاول القضاء على القوات المعادية وإزالة تهديدها مما يتيح الفرصة لكتلة القوات الرئيسة لمتابعة تحركها دون توقف، غير أن

قوات الهجوم المعادية قد تشكل تهديداً خطيراً مما يدفع قائد الخميس على مجابهة الموقف بما يستحقه، فإذا تطلب الأمر مجابهة التهديد بقوات اكبر ـ فإنه يدفع من القوات الاحتياطية ما يكفي لدعم الجهة التي تتعرض للتهديد. أما إذا كانت قوات الهجوم تشكل تهديداً خطيراً. فإن القوات الرئيسة تتوقف، ويتم تنظيم القوات لخوض المعركة مع هذه القوات. وهكذا تبقى كتلـة القوات الرئيسة في مأمن من كل مباغتة، ويكون لديها ما يكفي من الوقت للعمل بصورة منظمة. ويظهر من خلال ذلك أن قوات نطاق الأمن عادة ما تكون جميعها من الفرسان، وقد يقتضي الموقف دعم قوات نطاق الأمن ـ المقدمات خاصة ـ بوحدات ومفارز من الفعلة لتمهيد الطرق، وتنظيم العبور، وعادة ما يحمل هؤلاء معهم اعتدة ثقيلة. ولكن بالرغم من ذلك فإن هذه الوحدات والمفارز عادة ما تكون من الفرسان أيضاً حتى تتمكن من متابعة السير مع المقدمات والطلائع، ودون أن تسبب لها أية إعاقة.

لم تكن تدابير الحيطة والأمن عند التوقف ـ أثناء المسير ـ مختلفة عن تلك التي يتم اتخاذها لإقامة طويلة. فقد كانت هناك رائدة ترتاد مكان نزول القوات للراحة بعد عناء المسير. وكانت هناك شروط معينة لمكان النزول مثل توافر المياه والطعام وسهولة الدفاع. وتقوم الرائدة بتحديد أماكن نزول كل قسم من أقسام الخميس. وعندما يصل الخميس إلى منطقة النزول، يتم توجيه كل قسم نحو مقر نزوله. وتشرع القوات على الفور بحفر الخنادق حول المعسكر ـ المخيم ـ ونصب الحسك ـ وأثناء ذلك تكون نقاط المراقبة قد اندفعت لتحتل مواقع مشرفة تسمح لها باستطلاع ما حولها وكشف كل تحرك مشبوه ـ وواجب هذه النقاط هو الرصد والانذار والانسحاب وبالاضافة إلى ذلك، ينظم كل قسم من أقسام الجيش الحراسة حول مواقعه. فيما تبقى قوة احتياطية جاهزة لمجابهة حالة الطوارىء ـ مثل وقوع إغارة أو هجوم مباغت تقوم به قوات العدو ـ وهذا ما يتيح لقائد الخميس، ولجيشه فرصة العمل لمجابهة كل موقف. ويظهر ذلك مـدى الارتبـاط الوثيـق بين تنظيمات الاستطلاع المختلفـة وبين تـدابير الحيطـة والأمن. وكل ذلك حتى تكون القوات جاهزة باستمرار لدخول المعركة بشكل منظم، وتجنب المآزق والمواقف الصعبة التي يسببها وقوع المباغتة، سواء على مستوى الوحدات

الصغرى أو على مستوى الجيش بكامله.

وبعد قد يكون من المثير حقاً لدى مطالعة ما سبق، مقارنته مع اجراءات الجيوش الحديثة في مجال عمل الاستطلاع والحيطة والأمن، عند تحرك القوات وعند إقامتها، فقد وصل المسلمون قبل ألف عام ونيف إلى القواعد والأسس التي لازالت ثابتة حتى اليوم، رغم كل تطور في العلم العسكري والتقانة، والسبب في ذلك بسيط هو أن الإنسان يبقى دائماً الأساس في كل تطور، ولقد جابه هذا الإنسان في حربه منذ ألف عام - وقبل ذلك أيضاً - من المواقف ما يجابهها اليوم. وكان رده عليها كما هو رده عليها اليوم.

تبقى تجربة - الخميس - في العصر العباسي محتفظة بكل أهميتها. ويستطيع الباحث لدى استقراء مسيرة الأعمال القتالية على نحو ما سبق عرضه - استخلاص الدروس والقواعد في كل مجال - على مستوى عمل القيادة كما هو الأمر على مستوى القوات، وفي مجال التأمين الإداري للقوات كما في مجال التعاون بين مختلف القوات، بل حتى في مجال عمل كل نوع منها. وكذلك في مجال الحرب النظامية كما في مجال الحروب الثورية - بحسب التسميات الحديثة. غير أن هناك نوعاً من العلاقات التي لم تأخذ بعد حقها في مجال الغرض. مثل علاقة الجيش - الخميس - بجيوش المدن. وكذلك علاقة الجيش بالمواطنين. لا سيما بعد أن أصبح هذا الجيش هو مركز الثقل الوحيد في الدولة، ولا سيما أيضاً بعد أن تضخم حجمه إلى حد كبير، فبات بحاجة لنفقات ضخمة، وكان بالمستطاع تأمين هذه النفقات عندما كانت الدولة مستقرة. فكيف بالمستطاع تأمينه إذا ما اضطربت قبضة الدولة وضعفت هيمنتها على أقاليمها - على نحو ما كان عليه الوضع في العصر العباسي الثاني؟...

٥ ـ الخميس ـ والخلافة .

لقد تضخم جيش الخليفة ـ أمير المؤمنين ـ تضخماً كبيراً ، وأصبح الطامعون في الحكم والسيطرة يتطلعون إلى هذا الجيش باعتباره أداة الحكم والسيطرة ، ونظراً لوفرة الطامحين والطامعين ، فقد كان من غير الصعب التسلل إلى قياداته وضمان ولائها . فكان من الطبيعي أن يتعرض هذا الجيش للتفتت الداخلي والتمزق . ويمكن للباحث أن يجد في الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٣١٧ هـ ـ ٩٢٩ م ـ نموذجاً لذلك . فقد عمل الخليفة المقتدر بالله عزل وزيره مؤنس وعين هارون بن غريب مكانه . فخرج مؤنس إلى الشماسية ، وجمع الجيش حوله ، وانضم إليه نازوك الحاجب وعبد الله بن حمدان . فكتب مؤنس إلى الخليفة المقتدر : « بأن الجيش عاتب منكر للسرف فيما يطلق باسم الخدم والحرم من الأموال والضياع ولدخولهم في الرأي وتدبير المملكة . وهم يطالبون بإخراجهم من دار الخلافة ، وأخذ ما في أيديهم من الأموال والأملاك ـ وكذلك إخراج هارون بن غريب من دار الخلافة » وأجاب المقتدر بتوجيه رسالة إلى مؤنس جاء فيها : « ... وأما نازوك فلا أدري سبب عتبه واستيحاشه ، فوالله ما أعنتُ عليه هارون حين حاربه ، ولا قبضت يده حين طالبه ، والله يغفر له سوء ظنه . وأما عبدالله ابن حمدان فلا أعرف شيئاً أحفظه ـ أغضبه ـ إلا عزله عن الدينور ، وما كنا عرفنا رغبته فيها ، وإنما أردنا نقله إلى ما هو أجل منها . وما لأحد عندي إلا ما أحب لنفسه ، فإن أريد بي نقض البيعة فإني مستسلم لأمر الله ، وغير مسلم حقاً ما خصني الله به . **وأفعل ما فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه . ولا ألزم نفسي حجة ، ولاآتـي في سفك الدماء ما نهى الله عنه إلا في المواطن التي حدها الله في الكافرين والبغاة من المسلمين ، ولا أستنصر إلا بالله لما أؤمله من الفوز في الآخرة . وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»** . فلما قرىء كتاب المقتدر في العسكر ، وثب وجوه الجيش ، وقالوا : « نمضي إلى دار الخليفة لنسمع منه ما يقول » . وبلغ ذلك المقتدر فأخرج عن الدار كل من كان يحمل سلاحاً وجلس على سريره ، وفي حجره مصحف

يقرأ فيه، وأقام بنيه حوالى نفسه، وجاء الجند فنهبوا الدار، ومحوا رسوم الخلافة، وهتكوا الحرمة. وصاروا من أخذ الجوهر والثياب والفرش والطيب إلى ما لا قدر عليه. ووجه نازوك بالليل من نهب دار هارون بن غريب الخال بنهر المعلى، وداره بالجانب المغربي، وأحرقتا جميعاً. ونهبت دور الناس طوال ليلة السبت، فكانت من أشأم الليالي على أهل بغداد، وأشهد كل لص وجاني جناية ومقتطع مال وفتقوا السجون التي كانوا فيها. وأصبح الناس على مثل ذلك، إلى أن ركب نازوك، وأظهر الانكار لما أحدث من النهب. ودخل مؤنس والجيش دار الخليفة، وأخرج المقتدر ووالدته وخالته وخواص جواريه وأولاده، وحملوا إلى دار مؤنس فاعتقلوا بها. وجاء مؤنس بقاضي القضاة، وأشهده على خلع المقتدر لنفسه، وتنصيب أخيه القاهر بالله محمد بن المعتضد، ولما استقر الأمر للقاهر، أخرج مؤنس المظفر علي بن عيسى من الحبس، ورتب أبا عليّ بن مقلة في الوزارة، وأضاف إلى نازوك مع الشرطة حجبة الخليفة، وكتب إلى البلاد بذلك. وأقطع ابن حمدان مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان كل من حلوان والدينور وهمذان وكشكور وكرمان وشاهان والراذنات ودقوقى وخانيجار ونهاوند والصيمرة والسيروان وماسبذان وغيرها، ونهبت دار الخليفة، ومضى بني بن نفيس إلى تربة لوالدة المقتدر، فأخرج من مخبأ فيها ستمائة ألف دينار، وحملها إلى دار الخليفة.

وأصدر نازوك بعد أن أصبح مسؤولاً عن حجبة الخليفة، أمراً إلى الرجال المصافية بقلع خيامهم من دار الخليفة، وأمر رجاله وأصحابه أن يقيموا بمكان المصافية، فعظم ذلك عليهم. وتقدم إلى خلفاء الحجاب بألا يدخل أحد إلى دار الخليفة إلا من له مرتبة. فاضطربت الحجبة، ومضى يومان على ذلك، وجاء اليوم الذي تقرر أن تتم فيه مراسم تنصيب الخليفة الجديد ـ القاهر بالله محمد بن المعتضد ـ وامتلأت الممرات والمراحات والرحاب وشاطىء دجلة من الناس. وحضر الرجالة المصافية في السلاح الشاك يطالبون بحق البيعة ورزق سنة وهم حانقون بما فعل بهم نازوك، وارتفعت زعقات الرجالة. فسمع بها نازوك، فأشفق أن يجري بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال، فتقدم إلى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم ولا يقاتلوهم. وزاد شغب الرجالة وهم

يريدون الصحن التسعيني، فلم يمنعهم أصحاب نازوك. ودخل كل من على الشط بالسلاح، وقربت زعقاتهم من مجلس القاهر بالله.. وهرب كل من كان في الدار، وصلبوا نازوك وقائده عجيباً بحيث يراهما من على شاطىء دجلة. ثم سار الرجالة إلى دار مؤنس وأعادوا المقتدر إلى دار الخلافة. وجاء القاهر إلى أخيه وهو يبكي ويقول: «يا أمير المؤمنين - نفسي نفسي، اذكر الرحم التي بيني وبينك» فأجابه المقتدر: «يا أخي قد علمت أنه لا ذنب لك، وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر... وحق رسول الله ﷺ لا جرى عليك سوء مني أبداً، ولا وصل أحد إلى مكروهك وأنا حي»... وسكنت الفتنة. وأما بُنَي بن نفيس ومن معه، وكانوا من أشد القوم على المقتدر فهربوا عن بغداد إلى الموصل. ومنها إلى أرمينية، ودخلوا القسطنطينية فتنصروا. وأحضر المقتدر أبا علي بن مقلة وأعاده إلى وزارته. وكتب إلى البلاد بما تجدد له. وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم. وباع ما في الخزائن من الأمتعة والجواهر. وأذن في بيع الأملاك من الناس، فبيع ذلك بأرخص الأثمان ليتم أعطيات الجند. لكن ذلك لم يزد الجند إلا إذلالاً واستطالة، وصاروا يقولون أشياء لا يحتملها الخلفاء، منها أنهم كانوا يقولون: **«من أعان ظالماً سلطه الله عليه»** وكذل: **«من يصعد الحمار إلى السطح يقدر أن يحطه»** ومثل: **«إن لم يفعل المقتدر معنا ما نستحقه قاتلناه بما يستحق»**. وكثر شغبهم ومطالبتهم وأدخلوا في الأرزاق أولادهم وأهليهم ومعارفهم، وأثبتوا أسماءهم، فزادت عدتهم على عشرين ألفاً، وزادت أعطياتهم في الشهر على مائة ألف وثلاثين ألف دينار. واتفق أن شغب الفرسان في طلب أرزاقهم، فقيل لهم: **«إن بيت المال فارغ - وقد انصرفت الأموال إلى الرجالة - المشاة»** فثار بهم الفرسان، فاقتتلوا، فقتل من الفرسان جماعة، واحتج المقتدر بقتلهم على الرجالة - المشاة - وأمر قائد الشرطة - محمد بن ياقوت - بإخراجهم من بغداد، ومن أقام قبض عليه وحبس، وهدمت دور غرمائهم وقبضت أملاكهم، وهاج السودان تعصباً للرجالة المشاة. فسار إليهم محمد وأوقع بهم وأحرق منازلهم، فاحترق فيها جماعة كثيرة منهم ومن أولادهم ومن نسائهم، فخرجوا إلى واسط، واجتمع بها منهم جمع كثير، وتغلبوا عليها، وطرحوا عامل الخليفة، فسار إليهم الجيش وأوقع بهم واكثر

القتل فيهم، فلم تقم لهم بعدها راية، وطلبوا الأمان وسألوا الصفح، فرفع عنهم القتل وحبس منهم الوجوه، وأسقطت عنهم الجرايات. وكتب الوزير محمد بن علي بن مقلة فيهم نسخة أنفذت إلى القواد والعمال وهي: «**بسم الله الرحمن الرحيم. قد جرى أعزك الله من أمر الرجالة المصافية بالحضرة ما قد اتصل بك وعرفت جملته وتفصيله وجهته وسبيله. وقد خار الله عز وجل لسيدنا أمير المؤمنين وللناس بعده بما تهيأ من قمعهم وردعهم خيرة ظاهرة متصلة بالكفاية الشاملة التامة بمن الله وفضله، ولم ير سيدنا أيده الله استصلاح أحد من هذه العصبة إلا السودان فإنهم كانوا أخف جناية وأيسر جريرة فرأى أعلى الله رأيه اقرارهم على ارزاقهم القديمة، وتصفيتهم بالعرض على المحنة، لعلمه أن العساكر لا بد لها من رجالة ـ مشاة ـ وأمر أعلى الله أمره أن يستخدم بحضرته من تؤمن بائقته وتخف مؤنته وترجى استقامته، وبالله ثقة أمير المؤمنين وتوفيقه وقبلك وقبل مثلك رجالة أنت أعلم بمن مرضت طاعته منهم ومن يعود إلى صحة وصلاح فإن قنع من ترضاه منهم بأصل الجاري عليه فتمسك به وأقره على جاريه ومن رأيت الاستبدال به، فأمره إليك ـ والله المستعان**» . ولكن قصة الجند لم تصل إلى نهايتها، ففي تلك السنة ذاتها (٣١٨ هـ = ٩٣٠ م) شغب الفرسان وتهددوا بخلع الطاعة، فأحضر المقتدر قوادهم بين يديه، ووعدهم الجميل، وأن يطلق أرزاقهم في الشهر المقبل، فسكنوا. ثم شغب الرجالة ـ المشاة ـ فأطلقت أرزاقهم. وكان من نتيجة ذلك أن تجرأ الجند على الخليفة، فلما كانت (سنة ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م) عاد مؤنس لممارسة دور قيادة المؤامرة ـ ووجه الجند، فقتل المقتدر، ونصب القاهر بالله مرة أخرى. ولكن القاهر ما لبث أن أفاد من انقسام الجند، فانتصر ببعضهم على بعض وتمكن من قتل مؤنس، وتخلص من معسكره، ومن أنصاره.

لقد كان من نتيجة ما سبق ضعف الخلافة، وربما كان ضعف الخلافة هو السبب فيما حدث، وعلى كل حال، فالعلاقة بين ضعف الأولى وضعف الثانية (أي بين ضعف القيادة وتفتت الجيش وانحرافه) هي علاقة ثابتة ودائمة. وقد أدى ذلك إلى ظهور نتيجتين هامتين: **أولاهما** ـ الانتقاص من قيمة الجيش النظامي أو ـ الخميس ـ. مقابل

زيادة الاعتماد على مراكز القوى ـ مثل البويهيين والسلاجقة وسواهم. **وثانيتهما**: زيادة نفوذ الوزراء الذين يمثلون مراكز القوى المتصارعة وقد كانت هذه الزيادة في النفوذ على حساب ضعف الخلافة. ولعل أفضل ما يمثل هذه الحقيقة هو ما حدث سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ـ مما سبق ذكره، ومما يمكن استعادة صورته ـ ففي هذه السنة هاجم الروم بلاد الجزيرة الشامية ـ الرها ونصيبين وسواهما ـ. وارتاعت العواصم والثغور. وسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وقاموا في الجوامع والمشاهد. واستنفروا المسلمين، وذكروا ما فعله الروم من القتل والنهب والأسر والسبي، واجتمع أهل بغداد، وقصدوا دار الخليفة الطائع لله، وأرادوا الهجوم عليه، فمنعوا من ذلك، وأغلقت الأبواب. وكان الوزير ـ بختيار بن معز الدولة البويهي ـ حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة. فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين، منكرين عليه اشتغاله بالصيد، وقتال ـ عمران بن شاهين وهو مسلم ـ وترك جهاد الروم، ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها، فوعدهم التجهز للغزاة. وأرسل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز للغزو وأن يستنفر العامة. ففعل سبكتكين ذلك، فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة، وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات، ويعرفه عزمه على الغزاة، فأجابه بإظهار الفرح وإعداد ما طلب منه. ثم إن بختيار أنفذ إلى المطيع لله يطلب منه مالاً يخرجه في الغزاة، فقال المطيع: «إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني، إذا كانت الدنيا في يدي. وإذا كانت تجبى إلي الأموال. وأما إذا كانت حالي هذه، فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده. وليس لي إلا الخطبة. فإن شئتم أن أعتزل فعلت». وترددت الرسائل بينهما حتى بلغت إلى التهديد، فبذل المطيع لله أربعمائة ألف درهم، واحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك. وشاع بين الناس من العراقيين وبين حجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر. وثارت فتنة عظيمة ببغداد، وبرزت العصبية الزائدة، وتحزب الناس، وظهر العيارون ـ قطاع الطرق ـ وأظهروا الفساد وأخذوا أموال الناس وأحرقت الدور. وفي جملة ما احترق محلة الكرخ وكانت مركز التجار والشيعة. حيث تعصب الشيعة للنقيب أبي أحمد الموسوي،

وتعصب السنة للوزير أبي الفضل الشيرازي. وقبض بختيار المال من الخليفة، وأفاد من الفتنة فبطل حديث الغزاة.

يمكن بعدئذ القفز من فوق الاحداث المشابهة، والقراءات التاريخية المماثلة، لمطالعة ما ذكر في سنة ٤٢٦ هـ = ١٠٣٤ م عن انحلال أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى إن بعض الجند خرجوا إلى قرية - يحي - فلقيهم أكراد، فأخذوا دوابهم، فعادوا الى - قراح الخليفة القائم بأمر الله، فنهبوا شيئاً من ثمرته، وقالوا للعاملين فيه: «أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا» فسمع الخليفة الحال، فعظم عليه ولم يقدر - الوزير جلال الدولة - على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه، واجتهد في تسليم الجند الى نائب الخليفة، فلم يمكنه ذلك. فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه. وإلى ترك الشهود بترك الشهادة، وإلى الفقهاء بترك الفتوى. فلما رأى جلال الدولة ذلك، سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخليفة، ففعلوا. فلما وصلوا إلى دار الخليفة أطلقوا. وعظم أمر العيارين - اللصوص وقطاع الطرق - وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً ولا مانع لهم. لأن الجند يحمون على السلطان ونوابه، والسلطان عاجز عن قهرهم. وانتشر العرب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق وبلغوا إلى أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء في المقابر. فخرج أبو سعد وزير جلال الدولة مفارقاً للوزارة. ووزر بعده أبو القاسم. وكثرت مطالبات الجند، فهرب، فأخرج وحمل إلى دار المملكة مكشوف الرأس في قميص خفيف. وكانت وزارته هذه شهرين وثمانية أيام، وعاد أبو سعد بن عبد الرحيم إلى الوزارة. ولم يلبث الجند أن ثاروا على جلال الدولة، وأرادوا اخراجه من بغداد، فاستنظرهم ثلاثة أيام، فلم ينظروه، ورموه بالآخر، فأصابه بعضهم. واجتمع الغلمان، فردوهم عنه، فخرج من باب لطيف في سمارية متنكراً، وصعد راجلاً منها إلى دار المرتضى بالكرخ. وخرج من دار المرتضى وسار إلى رافع بن الحسين بن مقن بتكريت. وكسر الأتراك أبواب داره ودخلوها ونهبوها وقلعوا كثيراً من ساجها وأبوابها. فأرسل الخليفة إليه، وقرر أمر الجند وأعاده الى بغداد.

هكذا، أصبح الخليفة - بشخصه وبمكانته الدينية - هو مركز القوة، ولم تعد به

حاجة للخميس، فاذا كانت مراكز القوى تعتمد على الجند الكثيف للمحافظة على وجودها، فان هذا الجند الكثيف سرعان ما يتحول إلى عبء ثقيل على صاحبه. وكان باستطاعة الخليفة، وهذا ما فعله، أن يعتمد على قائد مركز القوة، طالما بقي قائد هذه القوة مالكاً لزمامها ومسيطراً عليها، وطالما أنه وقوته بقي مخلصاً للاسلام وأهله، وخاضعاً بالولاء للخليفة، فإذا ما تغير، كان باستطاعة الخليفة الاعتماد على مركز أقوى، ويدين للخليفة بولاء أكبر. ولعل في قصة ارتباط الاتراك الغز بالسلاجقة، أفضل نموذج لمثل هذه العلاقة.

كان الاتراك الغز ـ السلاجقة ـ بقيادة طغرل بك ـ قد بسطوا سلطتهم على اقاليم الشرق ـ بلاد فارس وخراسان حتى حدود الهند ـ في سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م. وفي هذه الفترة كان قائد الديلم ـ البساسيري ـ قد بسط هيمنته على بغداد، وعمل وزيراً للخليفة، وكان الأكراد ـ بني مروان ـ يسيطرون على الجزيرة الشامية. وقد خضع الخليفة للبساسيري مكرهاً رغم إظهار البساسيري للتشيع، ومكاتبته لخلفاء الفاطميين ـ العلويين ـ بمصر، ودعائه لهم على المنابر. فلما كانت السنة التالية (٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) ثارت فتنة ببغداد بالجانب الشرقي بين العامة، وثار جماعة من أهل السنة، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضروا الى الديوان ـ ديوان الخليفة ـ وطلبوا أن يؤذن لهم في ذلك، وان يتقدم إلى أصحاب الديوان بمساعدتهم فأجيبوا إلى ذلك. وحدث من ذلك شر كثير. ثم إن أبا سعد النصراني صاحب البساسيري حمل في سفينة ستمائة جرة خمراً ليحدرها إلى البساسيري بواسط، فحضر ابن سكرة الهاشمي وغيره من الأعيان في هذا الباب وتبعهم خلق كثير، ومعهم حاحب باب المراتب من قبل ديوان الخليفة ـ وقصدوا السفينة، وكسروا جرار الخمر وأراقوه، وبلغ ذلك البساسيري فعظم عليه. وكتب فتاوى أخذ فيها تواقيع الفقهاء الحنفية بأن الذي فعل من كسر الجرار وإراقة الخمر تعد غير واجب، لأنها ملك رجل نصراني. وتردد القول في هذا المعنى. وزاد ذلك من غضب أهل السنة، فحضروا إلى دار الخلافة، واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها، فأذن لهم في ذلك فقصدوها ونهبوها وأحرقوها، ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه. ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد. وتم ابعاد البساسيري

وأصبح الملك الرحيم هو وزير الخليفة رغم أنه كان من الديالمة ـ الاتراك ـ أيضاً ـ ومن أنصار البساسيري ـ.

كان طغرل بك في هذه الأثناء يغزو بلاد الروم، وعاد من غزاته الى همذان، وأعلن أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكّة والمسير الى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوي وحكمه. وكتب بذلك إلى أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها، وأمرهم باعداد الأقوات والعلوفات، فعظم الإرجاف ببغداد، وفت في أعضاد الناس، وشغب الأتراك ـ الديالمة ـ ببغداد، وقصدوا ديوان الخلافة. ووصل السلطان طغرل بك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان. فأجفل الناس إلى غربي بغداد. وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهر بغداد. وكتب الخليفة الى الملك الرحيم رسالة جاء فيها أن ـ البساسيري ـ قد خلع الطاعة وكاتب الاعداء ـ العلويين في مصر ـ. وأن للخليفة على الملك الرحيم عهوداً وله على الخليفة مثلها. فإن آثر البساسيري، فقد قطع ما بينهما من عهود، وإن أبعده وجاء من واسط الى بغداد فإنه سيسند إليه تولي الديوان وتدبير أمره. فقال الملك الرحيم ومن معه: (نحن لأوامر ديوان الخليفة متبعون وعن البساسيري منفصلون». وسار البساسيري الى بلد نور الدولة دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما. وتوجه الملك الرحيم الى بغداد. وأرسل طغرل بك رسولاً الى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة والعبودية. كما كتب إلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان. فأنكر الأتراك ذلك. وكتبوا الى الخليفة رسالة جاء فيها بأنهم ما تخلوا عن البساسيري وهو كبيرهم ومقدّمهم، وأطاعوا أمير المؤمنين الخليفة، إلا بعد أن وعدهم الخليفة بابعاد طغرل بك، ولكن ها هو طغرل بك قد قرب منهم ولم يمنعه الخليفة من المجيء. فأجابهم ديوان الخليفة إجابة غامضة. وفي هذه الفترة دخل الملك الرحيم بغداد، وكتب الى الخليفة رسالة أظهر فيها خضوعه للخليفة، وأسلم أمره إليه ليفعل ما تقتضيه العواطف معه في تقرير القواعد مع السلطان طغرل بك، وكذلك قال من مع الملك الرحيم من الأمراء. فأجيبوا بأن المصلحة أن يدخل الأجناد خيامهم من ظاهر بغداد، وينصبوها بالحريم، ويرسلوا رسولاً إلى طغرل بك يبذلون له الطاعة والخطبة، فأجابوا الى ذلك وفعلوه. وأرسلوا رسلاً إليه. فأجابهم طغرل بك إلى ما طلبوا وبذل لهم

الإحسان. وطلب الخليفة الى الخطباء في المساجد بالخطبة ـ الدعاء ـ لطغرل بك بجوامع بغداد، فخطب له بعد الدعاء للخليفة. وأرسل طغرل بك الى الخليفة يستأذنه في دخول بغداد، فأذن له، وخرج كبار رجال الدولة لاستقباله في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف والشهود والخدم وقام رئيس الرؤساء بتقديم رسالة الخليفة الى طغرل بك، واستحلفه للخليفة وللملك الرحيم وأمراء الأجناد. ودخل طغرل بك بغداد، ونزل بباب الشماسية. وانطلق عسكر طغرل بك في شوارع بغداد للامتيار ـ طلب الطعام ـ وشراء ما يريدون من أهلها، وأحسنوا معاملتهم. فلمّا كان الغد جاء بعض العسكر إلى باب الأزج، وأخذ واحداً من أهله ليطلب منه تبناً وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم، وصاح العامة بهم ورجموهم، وهاجوا عليهم، وسمع الناس الصياح فظنّوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك، فارتج البلد من أقطاره وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد، إلاّ أهل الكرخ، فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز، بل جمعوهم وعملوا على حمايتهم، وبلغ السلطان طغرل بك ما فعله أهل الكرخ من حماية لجنده، فأمر بإحسان معاملتهم. وأرسل وزير طغرل بك ـ عميد الملك ـ الى عدنان بن الرضى نقيب العلويين يأمره بالحضور، فحضر، فشكره نيابة عن السلطان طغرل بك. وترك عنده خيلاً لحراسته وحراسة المحلة. ودخل الملك الرحيم وأصحابه دار الخلافة وأقاموا بها نفياً للتهمة عن أنفسهم ظناً منهم أن ذلك ينفعهم. وأما عسكر طغرل بك، فلما رأوا فعل العامة، وظهورهم من البلد، قاتلوهم، فقتل بين الجمعين أناس كثيرون. وانهزمت العامة، وجرح فيهم وأسر كثير. ونهب الغز درب يحيي ودرب سليم، وبه دور رئيس الرؤساء ـ رئيس الوزراء ـ ودور أهله، فنهب الجميع، ونهبت الرصافة وترب الخلفاء، وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى، لأن أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقاداً منهم أنها محترمة. واشتد البلاء على الناس وعظم الخوف. وأرسل طغرل بك من الغد الى الخليفة يعتب وينسب ما جرى الى الملك الرحيم وأجناده. ويقول إن حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى كان بتدبير منهم، وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أماناً لهم، فتقدم إليهم الخليفة بقصده، فركبوا إليه،

وأرسل الخليفة معهم رسولاً يبرئهم مما خامر خاطر طغرل بك من الظن، فلما وصلوا الى خيامه، نهبهم الغز، ونهبوا رسل الخليفة معهم، وأخذوا دوابهم وثيابهم. ولما دخل الملك الرحيم خيمة طغرل بك، أمر بالقبض عليه وعلى من معه، فقبض عليهم كلهم وحبسوا. وأرسل الخليفة الى السلطان ينكر ما جرى من القبض على الملك الرحيم وأصحابه ونهب بغداد. **وذكر له بأنهم إنما جاؤوا إليك بأمري وأماني، فإن اطلقتهم، وإلاّ فانا أفارق بغداد فإنما أنا اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني ان تعظيم الأوامر الشريفة تزداد، وحرمة الحريم تعظم، وأرى الأمر بالضد.** فأطلق سراح بعضهم. وأخذ جميع اقطاعات الملك الرحيم. وهرب كثير من الناس الى البساسيري ولزموه فكثر جمعه. فأمر طغرل بك بأخذ أموال الأتراك البغداديين، وأرسل إلى نور الدين دبيس يأمره بإبعاد البساسيري عنه، فسار البساسيري الى رحبة مالك بالشام وانضم الى حاكم مصر ـ المستنصر بالله العلوي ـ. وطال مقام السلطان طغرل بك ببغداد، وعم الخلق ضرر عسكره، وضاقت عليهم مساكنهم، فإن العساكر نزلوا فيها وغلبوهم على أقواتهم، وارتكبوا منهم كل محظور. **فما كان من الخليفة القائم بأمر الله إلاّ أن أمر وزيره رئيس الرؤساء بالكتابة إلى وزير السلطان طغرل بك ـ عميد الملك الكندري ـ يستحضره، فإذا حضر أبلغه ما نزل بالناس من الظلم والجور، ويعظه، ويذكره، فإن أزال ذلك وفعل ما أمر الله به. وإلاّ فليساعد الخليفة على الانتزاح عن بغداد ليبتعد بنفسه عن المنكرات.** فكتب رئيس الرؤساء إلى الكندري يستدعيه، فحضر، فأبلغه ما أمر به الخليفة. وخرج توقيع ـ رسالة ـ من الخليفة إلى السلطان طغرل بك فيه مواعظ فمضى الى السلطان وعرفه الحال. فاعتذر بكثرة العساكر وعجزه عن تهذيبهم وضبطهم. وأمر عميد الملك ان يبكر بالجواب الى رئيس الرؤساء ويعتذر بما ذكره، ويعلمه بالسمع والطاعة، وأخرج الجند من دور العامة، وعزم على الرحيل عن بغداد. ولم يلبث ان غادر بغداد ومعه خزائن السلاح والمنجنيقات. وكان مقامه ببغداد ثلاثة عشر شهراً لم يقابل خلالها الخليفة. وسار إلى نصيبين، واستقر بها. ومضى عام وشعر الخليفة بأن نشاط ـ البساسيري ـ وأنصار حاكم قصر المستنصر بالله العلوي يتزايدون قوة. فأرسل رئيس

الرؤساء الى السلطان طغرل بك ـ فقابله عند القفص، وأبلغه سلام الخليفة واستيحاشه، فقبل طغرل بك الأرض، وقدم إليه رئيس الرؤساء جاماً من ذهب فيه جواهر، وألبسه فرجية جاءت معه من عند الخليفة، ووضع العمامة على مخدمته. ثم سار الى بغداد، ولم يمكن أحداً من النزول في دور الناس. وطلب طغرل بك الاجتماع بالخليفة، فأذن له. وجلس الخليفة جلوساً عاماً. وحضر كبار قادة طغرل بك وأعيان بغداد، وحضر طغرل بك في سفينة عبر النهر وأصحابه حوله في السفن، فلما خرج من السفينة أركب فرساً من خيول الخليفة. وحضر عند الخليفة الذي كان يجلس على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع. وعليه بردة النبي ﷺ وبيده القضيب الخيزران، فقبل طغرل بك الأرض، وقبل يد الخليفة. وأجلس على كرسي. فقال الخليفة لرئيس الرؤساء: «**قل إن أمير المؤمنين شاكر لك سعيك، حامد لك فعلك، مستأنس لقربك. وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاك، واعرف نعمته عليك في ذلك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم، وإصلاح الرعية**» فقبل طغرل بك الأرض مرة اخرى. وأمر الخليفة بافاضة الخلع عليه، فقام إلى موضع لبسها فيه، وعاد وقبل يد الخليفة، ووضعها على عينيه. وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب. وأعطى العهد وخرج. وأرسل الى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسين ألف دينار، وخمسين مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون، ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وغيرها.

جابه الخليفة بعد ذلك مأزقاً صعباً، فقد اضطر طغرل بك للتوجه الى الري لقتال أخيه ـ إبراهيم ينال ـ الذي شق عليه عصا الطاعة، وأفاد البساسيري من ذلك فجمع جموعه وانحدر من موصل الى بغداد فدخلها ـ وهرب الخليفة وأهله من دار الخلافة التي تعرّضت للنهب والإحراق، وأقام البساسيري الخطبة في العراق كلها للمستنصر العلوي. وعاد المؤذنون يؤذنون بشعار العلويين (حي على خير العمل) بدلاً من (الصلاة خير من النوم). وتعرض الخليفة لمعاناة شديدة. حتى إذا ما فرغ طغرل بك من القضاء على التمرد. وقتل أخيه إبراهيم ينال ـ عاد بجيشه، ودخل بغداد، وأعاد الخليفة إلى دار الخلافة، واعتذر له عمّا نزل به بسبب انشغاله بالفتنة، ثم سار الى

الموصل، وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله، وقتل كثيراً من شيعته وأتباعه. وأمر بإعادة الأذان (بالصلاة خير من النوم). واستقر الأمر لطغرل بك ـ والأتراك السلاجقة ـ الذين لم يلبثوا حتى بسطوا سيطرتهم على معظم بلاد الشام (في عهد ألب أرسلان ابن أخ طغرل بك) والذي كانت له مع الروم أيام مشهورة ـ أهمها يوم ملازكرد ـ. وقد بقيت العلاقات بين السلاجقة وبين دار الخلافة على أفضل ما يجب ان تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم. حيث كان كتاب الله وسنة رسوله أساس هذه العلاقة وقاعدتها.

٦ ـ القوة في خدمة المجتمع الإسلامي .

قد يكون العرض الذي تضمنته الفقرة السابقة ـ وهو واحد من نماذج كثيرة مشابهة كافياً لإبراز مجموعة من الحقائق المتعلقة بإدارة الحرب في العهد الموصوف بعهد الضعف. ولكن كيف يكون عهداً ضعيفاً ذلك العهد وهو يخضع أقوى مراكز القوى؟ لقد انتصر البساسيري مرات عديدة على دار الخليفة، وأخرج الخليفة عن داره ومستقر عزه. وبالرغم من ذلك فإنه لم يجرؤ على النيل من الخليفة أو قتله. وأعلن في العراق كله الخطبة للمستنصر العلوي بمصر. ورفع أذان (حي على خير العمل) في كافة مساجد العراق. لكنه لم يجرؤ على إبطال الدعاء للخليفة العباسي.

وجاء ـ طغرل بك ـ وقد دان له المشرق، فقبل الأرض بين يدي الخليفة، وقبل يده، وامتثل لأمره يوم طلب إليه مغادرة بغداد رأفة بالسكان المواطنين، ورحمة بهم. وقد تلخصت وصيته إليه بكلمة: « إقامة حدود الله ـ والامتثال لأوامره ونواهيه فيما يتعلق بالعلاقة مع المسلمين ».

قد يؤخذ موقف الخليفة، وتهديده بالخروج من بغداد، احتجاجاً على ظلم المسلمين على أنه موقف ضعيف ومتخاذل. فخروج الخليفة هو موقف سلبي ـ وفقاً لمعايير الأزمنة الحديثة ومقاييسها، وربما في مقاييس الأزمنة القديمة أيضاً، غير أنه من الخطأ الكبير ترجمة هذا الموقف بعيداً عن إطاريه الزمني والمكاني. فقد أخذ الخليفة على طغرل بك العهود والمواثيق بإقامة حدود الله قبل استدعائه ـ أو السماح له بدخول بغداد ـ وكان باستطاعة طغرل بك اقتحام بغداد بالقوة ودون استئذان، وهو الذي امتلك أسباب القوة ودان له المشرق بالخضوع والطاعة. فلماذا يستأذن الخليفة في الدخول الى عاصمته؟ ولماذا يلزم نفسه بالعهود والمواثيق؟ هنا تكمن الإجابة.

لقد كانت العقود والمواثيق هي أسس العلاقة الدينية بين الحاكم والمحكوم. ولم يكن باستطاعة الحاكم أو المحكوم انتهاكها. فكانت كلمة الخليفة **أقوى من الجيوش،** وأقوى من السلطان. وكان انتهاكها يعني منح الحرية للخليفة **لممارسة دوره المضاد مع**

قوى جمهور المسلمين، ومع مراكز القوى الأخرى. **ولم يكن طغرل بـك على استعـداد** لإغضاب الخليفة، وهو لم يجد من حريته في الحكم إلاّ بما أمر الله وهو (إقامة حدود الله). وكان خضوع الخليفة وطغرل بك لسلطان واحد هو سلطان الحق والعدل، وعندما عرف طغرل بك أن جنده قد تجاوزوا الحدود في علاقتهم مع المسلمين، أمر بخروجهم من بغداد. وإذن لم يكن الخليفة ضعيفاً، ولم تكن سلطته دينية منفصلة عن السلطة الدينوية، بل إنه ألقى بأعباء الحكم على من يأنس فيه القدرة على إقامة حدود الله، وبقي ممسكاً بموقعه المهيمن الذي يشرف منه على كل ما يحدث. وكان باستطاعته دائماً تقويم الاعوجاج، وتصحيح الانحراف، بل كـان قـادراً ـ رغـم ضعـف قـوتـه العسكرية ـ على قلب الموقف ضد هذا الذي يملك مفاتيح القوة العسكرية. وقد فعل ذلك مرات من قبل.

لقد كانت قوة الخليفة مرتبطة بقدرته على الالتزام بحدود الله وإلزام رعيته بها. وكانت قوة مراكز القوى المختلفة بقدر إقامتها لحدود الله على أرض الله. ولعل أفضل ما يبرز هذه الحقيقة، رسالة جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق ـ أخو السلطان طغرل بك ـ ووالد ألب أرسلان ـ وقد بلغه طغيان أخيه طغرل بك، فكتب إليه: « ... بلغني إخرابك البلاد التي فتحتها وملكتها، وجلاء أهلها عنها، وهذا ما لا خفاء به في مخالفة أمر الله تعالى في عباده وبلاده. وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وإيحاش الرعية. وقد علمت أننا لقينا اعداءنا ونحن في ثلاثين رجلاً وهم في ثلاثمائة فغلبناهم، وكنا في ثلاثمائة وهم في ثلاثة آلاف فغلبناهم. وكنّا في ثلاثة آلاف وهم في ثلاثين ألفاً فدفعناهم. وقاتلنا بالأمس شاه ملك وهو في اعداد كثيرة متوافرة فقهرناه وأخذنا مملكته بخوارزم. وهرب من بين أيدينا الى خمسمائة فرسخ من موضعه، فظفرنا به وأسرناه وقتلناه. واستولينا على ممالك خراسان وطبرستان وسجستان. وصرنا ملوكاً متبوعين بعد أن كنّا أصاغر تابعين. وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها هذه المقابلة». وأجاب طغرل بك: «يا أخي أنت ملكت خراسان وهي بلاد عامرة فخربتها، ووجب عليك مع استقرار قدمك عمّارتها. وأنا وردت بلاداً خرّبها من تقدمني، واجتاحها من كان قبلي. فما أتمكن من عمارتها والأعداء محيطة بها، والضرورة تقود إلى طرقها

بالعساكر ولا يمكن دفع مضرتها عنها».

لقد كان للجيوش الكثيفة ثقلها على السكان، ومعروف ان بناء كثير من المدن الإسلامية ـ مثل واسط وحتى بغداد ـ لم يتم إلاّ لإبعاد الجند عن الاحتكاك بالمسلمين ـ او المواطنين المدنيين ـ فالجيش هو لحمايتهم والدفاع عنهم وضمان أمنهم وحرّيتهم، وقد تحدث ظروف طارئة أو عابرة يحدث فيها طغيان أو فتنة تحدث اضطراباً في العلاقة بين الإنسان المسلم وبين قوات الخليفة أو سواها. غير أن هذا الاضطراب العارض لا بد له من التقويم وبسرعة، فالجيش يستمد قوته من المواطن وهذا المواطن يجد أمنه وحمايته في الجيش، ولم يكن المواطن المسلم ليفرط في حقّه إذا ما وجد انحرافاً بل كان يقاومه قدر استطاعته، فإذا ما انتصرت القوة على حقّه، قد يستكين على كره ـ ولو بصورة مؤقتة، غير أنه لا بد له من أن يجد الفرصة لتقويم الموقف لمصلحته ولإقامة حدود الله على أرض الله ـ ولهذا كان لا بد للقوة بدورها من استرضاء حق الإنسان المسلم والعمل له حتى تستقيم الأمور. وكان الخليفة هو الذي يراقب هذا التوازن في العلاقات. ويستمد قوته أولاً وآخراً من قوة الإنسان المسلم، ومن قوة الحق، وإذن فالقوة المهيمنة هي قوة الإسلام الذي كان يحكم العلاقات جميعاً. وينظم أمور المسلمين لما فيه مصلحة الجميع، مصلحة أمير المؤمنين ومصلحة جند الله ومصلحة الإنسان المسلم الذي يعمل في مجتمعه لخير هذا المجتمع. وكانت مصلحة الجميع هي العمل لآخرتهم قبل العمل لدنياهم. وكان ظهور الصراعات هو أمر طبيعي ومتوقع ـ كما هو الأمر منذ عاش الإنسان على أرض الله، وطالما هو باق على هذه الأرض ـ والمهم في الأمر هو بقاء قيم المجتمع الإسلامي وفضائله هي السائدة وهي المهيمنة على السلوك والممارسات جميعاً.

وقد يكون من الخطأ الكبير على ضوء ما تقدم الأخذ بمقولات باتت شائعة ومعروفة مثل: اتهام الحكم العباسي بالضعف خلال العصر العباسي الثاني، أو القول بأنه لم يعد للخليفة سوى الدعاء على المنابر والبردة والقضيب. فهذه الرموز من شعائر الإسلام والإصرار على التمسك بها ما هو إلاّ البرهان على قوة هذه الرموز، وتساميها على كل قوة. ولم يكن الخليفة العباسي في يوم من الأيام حاكماً دينياً، ولا يمكن له أن

يكون كذلك طالما مارس حكمه باسم الإسلام. فالإسلام هو دين الدنيا والآخرة، وهو دين الدنيا باعتبارها المرحلة الخاطفة في حياة الإنسان للوصول الى الآخرة. غير ان خلفاء بني العباس، وقد أدركوا اتساع ممالك المسلمين، وعرفوا قوة الشعوب التي اعتنقت الإسلام، واندفعت لرفع راية الجهاد في سبيل الله، عملوا على التكيف مع التطورات المستجدة، وماذا يضيرهم ان يحكموا بصورة مباشرة أو غير مباشرة طالما ان هدفهم الأوحد هو دعم الإسلام والقضاء على الانحرافات، وضمان أمن الإنسان المسلم وحمايته، وتحقيق الاستقرار للمجتمع الإسلامي؟ وبدهي أن خلفاء بني العباس، لم يكونوا نسيجاً واحداً في قدراتهم القيادية وكفاءاتهم. وكذلك لم تكن الظروف المحيطة بكل واحد منهم مشابهة لظروف الآخرين. فالمجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي قد تطور كثيراً، وشهد تغيرات مثيرة، وقد دفع بعض خلفاء بني العباس ثمن هذه التناقضات غالياً، من حياتهم، ومن وجودهم. وتمكن آخرون رغم كل العوائق من السيطرة على الأحداث، بل وسبقها وتوجيهها نحو مساراتها الصحيحة. وقد عصفت بالدولة العباسية العواصف الهوجاء العاتية، وصمدت بغداد وحدها، وحوصرت، وخرجت في كل مرة وهي محتفظة بمكانتها وهيبتها. فهل كان ذلك بحكمة الخلفاء وسداد رأيهم، أم كان بفضل مراكز القوى التي نذرت نفسها لخدمة خلفاء بني العباس أم أن ذلك كان بفضل الإنسان المسلم الذي بقي ثابتاً وسط العواصف الهوجاء؟. لقد ظهر من العرض السابق ان العاصفة الهوجاء قد اجتاحت كل بيت من بيوت المسلمين، فمنهم من ثبت، ومنهم مضى مع العاصفة الى حيث ألقت به في معسكر من المعسكرات المتصارعة. ولكن هذا الابتلاء قد انحسر في كل مرة لمصلحة الإسلام. وإذن فليس الفضل للخلفاء من بني العباس وفيهم القوي وفيهم الضعيف، وليس في مراكز القوى التي سار بعضها على النهج وسار بعضها ضدّه، وليس أيضاً في الإنسان المسلم الذي تعرض للابتلاء فصمد أو استسلم. وإنما كان الفضل دائماً للإسلام، الذي أخرج الناس من الظلمات الى النور، والذي بين لهم حدود الخير والحق وما في هذا الكون من تناقضات هي من طبيعة الوجود ذاته. كما في الليل والنهار والظلمة والنور وسائر الثنائيات المتناقضة.

يظهر من خلال ذلك انه ليس هناك ما هو أشد خطراً من أخذ ظاهرة من الظواهر ـ مثل قتل أحد الخلفاء أو حتى اكثر من خليفة ـ على أيدي الجند، وتعميم هذه الظاهرة على الحكم العباسي كله، باعتبارها ظاهرة تؤكد خضوع الخلافة للجند وتحكم هؤلاء بالخلافة. ويظهر من خلال ذلك أيضاً خطأ تقسيم العصر العباسي زمنياً، أو بحسب مجموعة معينة من ظواهره، فقد كان لكل فترة تطوراتها، وكان الحكم العباسي يسير مع هذه التطورات، وهي تطورات لا تخضع بحسب مقولات البحث العلمي لحدود زمنية أو مكانية معينة، وإنما هي نتيجة تفاعلات دينية واجتماعية واقتصادية وسكانية تمارس دورها مع عوامل خفية أخرى بصورة بطيئة لتأخذ شكلها العنيف والواضح خلال حقبة زمنية معينة، غير أن جذور تفاعلاتها قبل ذلك، ثم استطالاتها وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على سواها من الأحداث تبقى مخفية وغير واضحة. وما يهم البحث هنا هو الاعتماد على الحقائق الواضحة، والمؤكدة، والتي تبرهن المرة بعد المرة على أن الحكم العباسي لم يتمكن من الصمود ولم ينجح في الاستمرار إلاّ بفضل اعتماده على الإسلام الذي نظّم علاقات المجتمع الإسلامي في دنياه من أجل آخرته. وتقود هذه الحقيقة إلى حقيقة أكثر أهمية، وهي أنه من الصعب على غير المسلم فهم هذه الديناميكية التي ميزت المجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات. وهذه الديناميكية ـ أو القدرة المحرّضة والمحرّكة ـ بخصوصيتها المميزة لها، تجعل من الصعب استخدام المقاييس السائدة في مجتمع من المجتمعات وتطبيقها على المجتمع الإسلامي. ومثال ذلك ما سبق ذكره عندما عمل الجند على إعادة المقتدر إلى منصب الخلافة ثم اخذوا في القول: «إن لم يفعل المقتدر معنا ما نستحقه قاتلناه بما يستحق». أو «من يصعد الحمار إلى السطح يقدر ان يحطّه». وذلك للبرهان على ما وصلته مكانة الخليفة من انهيار. فقد يكون من طبيعة الأمور، وقد عرف الجند دورهم في إعادة أمير المؤمنين الى سدة الخلافة، أن يزهوا بقوتهم وقدرتهم. ولكن هل خضع الخليفة لهذه القوة أم اعتبر انهم كانوا الوسيلة، وأن القوة لله جميعاً، فعمل على تمزيق هؤلاء الذين أخذتهم العزّة بالإثم، معتمداً بعد الله على الإنسان المسلم في المجتمع الإسلامي والذي هو مركز الثقل ومركز التوازن، وأن هذه القوة إن لم تكن في خدمة الإنسان

المسلم فهي قوة خارج كفة ميزان القوى، ومن السهل تدميرها والقضاء عليها. وهذا ما فعله أمير المؤمنين المقتدر بالله. وهذا ما فعله سواه.

لقد تطور المذهب العسكري الإسلامي في العصر العباسي، نتيجة تطور الجيوش وزيادة أعدادها، وتنوع طرائقها القتالية. ولقد كان هذا التطور مواكباً لمجموعة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية. فكان من طبيعة الأمور ان ينعكس ذلك أيضاً على تطور اسلوب القيادة. وعلاقة القيادة السياسية بالقيادة العسكرية ـ بحسب المفاهيم الحديثة.

إن ما سبق ذكره ينفي ويدحض ما يقال عن العصر العباسي من هيمنة الشعوبية. وإن ما سبق ذكره ينفي ويدحض ما يقال عن العصر العباسي من زوال المركزية وعن غياب الدولة. فالقضية لم تكن قضية هيمنة ترك او اكراد او ديالمة أو غز ـ سلاجقة ـ وسواهم. وإنما كانت قضية تثبيت دعائم المجتمع الإسلامي على النهج الصحيح. نهج كتاب الله وسنة رسوله ـ فقد تمزّق المجتمع الإسلامي تمزقاً مرعباً بظهور النزعات الطائفية، وتعاظم خطرها. وقيام دولة لها في مصر وظهور كيانات لها في ـ هجر حيث القرامطة ـ وفي سواها. وانقسم العرب بين مراكز القوى المتصارعة. وانقسم الأتراك بين مراكز القوى المتصارعة على نحو ما سبق ذكره، وتمزّق البربر في المغرب العربي ـ الإسلامي أيضاً. ووقفت الخلافة، ووقفت جماهير المسلمين وجلة جزعة لما نزل بها من البلاء والابتلاء. وإذا وقف بعض الترك مع الخلافة في حقبة معينة فقد وقف بعضهم ضدّها في حقبة أخرى. وهكذا لم تكن القضية هي قضية شعوبية ـ بالمعنى الدقيق والشائع في الأزمنة الحديثة ـ. ولم يكن الولاء دائماً للعصبية الجاهلية سواء عند العرب او عند الترك او عند البربر أو عند سواهم من الأمم التي أقبلت على الإسلام واعتنقته ديناً. وهذا لا ينفي بداهة كل أثر للشعوبية على نحو ما أظهرته حركة البرامكة في البداية والحركة القرمطية في النهاية. غير ان القضية في الأساس هي قضية صراع الإسلام ضد الانحراف عن النهج الصحيح. وقد خاض غمار هذا الصراع أقوام وأقوام، لم تكن عصبية الجاهلية هي المحرضة لهم بقدر ما كان العامل المحرّض هو تصحيح الانحرافات، والقضاء على البدع والضلالات. وقد صهر

هذا الصراع الأقوام جميعها، فبات من الصعب تمييز امة عن أخرى. وهنا قد يكون من السهل إلصاق الإدانات بالحكم العباسي الذي عجز عن معالجة المواقف المنحرفة بمثل ما حدث في عصر النبوة الأولى، أو في صدر الإسلام أو حتى في العهد الأموي وفي المائتي سنة الأولى من الحكم العباسي. ومرة أخرى: كم هو من السهل إلصاق الإدانات عندما يبتعد الحدث عن ظروفه الزمنية والمكانية؟ وكم هو من السهل أيضاً استخدام مقاييس شائعة لتقويم أبعاد أجسام غير شائعة ـ أو إنكار أبعاد هذه الأجسام غير الشائعة عن حسن نية أو سوء نية ـ من أجل تسهيل عملية القياس بالمقاييس الشائعة؟ فلقد وجد العصر العباسي ذاته أمام مواقف متجدّدة باستمرار ـ وكان لا بد من معالجة هذه المواقف بقلب الإنسان المؤمن وعقله ـ وقد فعل خلفاء بني العباس ـ معظمهم إن لم يكونوا كلهم ـ على التصدي لمعالجة المواقف وحققوا في ذلك نجاحات رائعة ـ بل مذهلة حقاً ـ عند تصور حجم تلك التحديات وثقلها. وكان دليلهم في ذلك واضحاً، وقد توافرت لديهم أيضاً تجربة الحكم الإسلامي السابقة، فكانت أفضل موجّه للتمسك بالنهج الصحيح. إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك وفقاً لما تؤكده كافة الشواهد المتوافرة، فما هو شكل تلك العلاقة: هل هي ملكية استبدادية؟ أم هي جمهورية ديموقراطية؟ أم هو نظام ملكي ديموقراطي ـ بمعنى ان الملك يملك ولا يحكم؟ أم هو نظام رئاسي يمارس الرئيس سلطاته في إطار من اللامركزية ـ أو الإدارة الذاتية؟ لو أخذ موقف المنصور من أبي مسلم الخراساني أو موقف الرشيد من البرامكة لظهر الحكم بشكل ملكي استبدادي. ولو أخذ موقف الرجلين من إدارة الحكم وقيادة الجيوش لظهر الحكم بشكل جمهوري ديموقراطي. ولو أخذ موقف الخلفاء عامة من إدارة الأقاليم لأخذ الحكم شكل النظام الرأسي ـ اللامركزي. ولو أخذت مواقف الخلفاء من مراكز القوى لظهر ان هذا الحكم شبيه بالملكي ـ الديموقراطي. وبالإمكان بعد ذلك تفسير كل موقف من المواقف بإسناده إلى شكل من أشكال الحكم. فما هو شكل هذا الحكم؟.

ليس المجال هنا هو مجال الدخول في فلسفة الحكم، وليس المجال هنا هو أيضاً إضفاء الأسماء الحديثة على شكل حكم يختلف بقيمه ومفاهيمه عن المجتمعات القديمة

والحديثة. ولقد اضطلع المستشرقون والمستغربون بمحاولات تفسير الحكم العباسي من خلال بعض الشواهد وتعميمهم، فوقعوا في تناقضات مثيرة، وما يهم البحث هنا هو التعرض للحكم من ناحيتي السياسة الإستراتيجية وإدارة الحرب. ولقد سبقت الإشارة الى أنه من الصعب إن لم يكن من المحال فهم هذه السياسة الإستراتيجية وإدراك طريقة إدارة الحرب بدون وضعها في إطارها الديني ـ الإسلامي. سواء من خلال هدف الحرب، أو من خلال قيادة الأعمال القتالية وإدارة الحرب. وبما ان للنهج الإسلامي استقلاليته وخصائصه المميّزة ـ في القديم كما في الحديث ـ لا شرقية ولا غربية ـ فإنه من الطبيعي ان يبقى هدف الحرب هو الأساس في تنظيم القوات المسلحة وفي إدارة الحرب، ممّا يعطي لهذا التنظيم ولإدارة الحرب تلك طابعها المميز. وقد يكون بالمستطاع تشبيه ما تطبقه الدولتان العظميان حالياً من ربط بين الفكر السياسي والفكر العسكري ـ وخاصة الإتحاد السوفييتي الذي يعتبر الاشتراكية هي الفكر الموجّه للفاعليات العسكرية ـ بما موجود لدى المجتمع الإسلامي من ربط بين العقيدة الدينية ومذهبها العسكري المشتق عنها. وعلى هذا فإن شمول الدولة العباسية لجميع أشكال الحكم المعروفة في الأزمنة الحديثة، واستيعابها جميعاً، لا يعني مزج أشكال هذا الحكم بشكل عشوائي ـ بقدر ما يعني تكامل نظام الحكم الإسلامي ـ في العصر العباسي كما في غيره ـ وبحيث يستطيع هذا الحكم الاستجابة لكل متطلبات المجتمع الإسلامي ولكافة متطلبات القيادة وإدارة الحرب في إطار الطاعة والجماعة والشورى وسوى ذلك من الاسس والقواعد التي حددها الإسلام لإدارة شؤون الناس في سلمهم وحربهم، في أمورهم الدينية كما في امورهم الدنيوية، في موقعهم مواطنين عاديين أو قادة للجيوش أو حكّاماً في قمة هرم الدولة.

قد يشعر الإنسان المسلم بالغصّة تمسك بحلقومه، وبالضيق يجثم على صدره، وهو يقرأ ما نزل بهذا الخليفة أو ذاك، عندما دهمه الجند، وطلبوا منه ما لا طاقة له بدفعه من المال وقد أفرغت خزائنه حتى لم يبق عليه إلاّ الجبة الخشنة يلبسها. وقد يشعر

الإنسان المسلم بالألم يعتصره وهو يطالع ما فعله قادة الأجناد بهذا الخليفة أو ذاك، فأنزلوا به سوء العذاب وقتلوه، ونصبوا مكانه. فكيف استقامت الأمور بعد مثل هذا الاضطراب الخطير؟ ولكن ألم يحاول أعداء الإسلام القضاء على الإسلام عندما عملوا على قتل الخليفة عثمان بن عفان رضوان الله عليه؟ ثم ألم يحاول المنحرفون تضييع الإسلام عندما حاولوا في مؤامرة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة قتل قادة المسلمين وهي المؤامرة التي ذهب ضحيتها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه؟ فهل انتقصت هذه المحاولات من قيمة خلفاء المسلمين؟ وهل انتقصت من قوة الإسلام؟ ثم ألم يتبع ذلك استشهاد عدد كبير من قادة المسلمين وامرائهم وحكّامهم ـ غيلة وغدراً ـ فهل انتقص ذلك من قوة الإسلام أم زاده ضراماً؟ لقد أطلق الخوارج شعار (لا حكم إلاّ لله) وهو شعار كما قال عنه علي بن أبي طالب رضوان الله عليه (كلمة حق أريد بها باطل). فالحكم لله. والمال مال الله والأرض لله يرثها عباده الصالحون. ولهذا لا غرابة إن أشرف خلفاء بني العباس مرات عديدة على الإفلاس ولكن الغريب ـ وفقاً للمقاييس الدنيوية ـ هو أنهم كانوا حتى وهم في مثل هذه الحال من الفقر والضيق، أشد قوة وأكثر بأساً، لإيمانهم بقوة يقينهم وعدالة نهجهم. وقد يكون من الصعب الافتراض بأن مثل هؤلاء الخلفاء كانوا قادرين على تغيير نهجهم لتجاوز الأزمة التي يجابهونها. فكانت الراية تنتقل من خليفة الى خليفة، ومن قائد الى قائد، ويحدث التطور ولكن في إطار النهج ذاته ودون أي خروج عليه.

قد يكون من السهل اتهام النظام المالي والإداري للخلفاء بالتخلّف ـ لاعتماده على منح قادة الجند الاقطاعات، ولمنحه امراء الأقاليم الضمانات للجباية ودعم بيت المال بالموارد. وذلك من خلال مقارنة نظام الإقطاع ونظام الضمان بما يطبق في الأزمنة الحديثة من نظم لجباية الضرائب ودعم خزانة الدولة. ولكن ألم يسهم نظام الإقطاع بإعمار الأراضي؟ ألم تتمكن أنظمة الإقطاع من تطوير الزراعة ـ وخير نموذج ما قام به الزنكيون في الأراضي ما بين الجزيرة وحلب؟. ثم ألم يعمل الخلفاء على تجريد قادة الجند من اقطاعاتهم عندما انحرفوا عن النهج الصحيح؟ هنا لا بد من القول بأن فشل النظام الاقتصادي والمالي في تأمين الموارد التي كان يحتاجها الجيش في بعض الفترات لم

يكن بسبب سوء هذا النظام وفشله. وإنما بسبب أخطاء الأشخاص أنفسهم.وهو ما يحدث في الأنظمة القديمة والحديثة على السواء. ولعل متابعة ما يحدث على مسرح العالم في الأزمنة الحديثة هو أفضل برهان على أن كل نظام يحتاج للتطور الدائم، وهو ما كان يحدث في العصر العباسي، حيث كان الغنى والفقر يتناوبان الهيمنة على بيت المال.

لا ـ الجبهة الداخلية والقدرة القتالية.

جرى في عرض البحث الإشارة الى تلك العلاقة الثابتة بين استقرار الجبهة الداخلية وقوتها وتماسكها، وبين توجيه القدرة القتالية للفتوح والأعمال على الجبهة الخارجية. ولهذا لم يكن غريباً ان يبدأ الخليفة أبو بكر الصدّيق رضوان الله عليه بحروب الردة قبل الانطلاق لعالم الفتوح. وظهرت هذه العلاقة بشكلها الأكثر وضوحاً أيام الفتنة الكبرى ـ وتكررت خلال العهد الأموي. غير أنها أخذت أبعادها الكاملة خلال العصر العباسي ـ وخاصة على جبهة الصراع مع الروم البيزنطيين ـ حيث كان الطرفان المتصارعان يتناوبان قيادة الأعمال القتالية وفقاً للظروف المحيطة بالجبهتين الداخلية والخارجية. ولقد اجتاحت أيام العصر العباسي مجموعة من الحروب الداخلية التي أسهمت بتعطيل العمل على الجبهة الخارجية. وكان أخطر ما في الأمر هو أن هذه الحروب الداخلية قد فتتت ومزّقت الروابط الاجتماعية حيث أخذت شكل حرب طائفية شملت كافة القوى على الساحة ـ بداية من جمهور المسلمين ونهاية بدار الخلافة ـ والشواهد أكثر من أن تحصى ـ إلا أنه بالمستطاع التوقف عند أبرزها. ففي سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م اجتاحت بغداد فتنة عمياء وقعت بين السنة والشيعة. «وكان سبب ذلك أن الملقّب بالمذكور أظهر العزم على الغزاة، واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له. وكتب له منشوراً من دار الخلافة، وأعطي علماً، فاجتمع له لفيف كبير. فسار واجتاز بباب الشعير. وطاف الحراني وبين يديه الرجال بالسلاح فصاحوا بذكر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقالوا ـ هذا يوم معاوية ـ فتصدى لهم الشيعة أهل الكرخ، ورموهم، وثارت الفتنة، ونهبت دور اليهود لأنهم قيل عنهم أعانوا أهل الكرخ. فلمّا كان الغد اجتمع أهل السنة من الجانبين ومعهم كثير من الأتراك وقصدوا الكرخ، فأحرقوا وهدموا الأسواق. وأشرف أهل الكرخ على خطر عظيم، وانكر الخليفة ذلك إنكاراً شديداً، ونسب إليهم تخريق علامته التي مع الغزاة، فركب الوزير، فوقعت في صدره آجرة، فسقطت عمامته، وقتل من أهل الكرخ جماعة. وأحرق وخرب في هذه

الفتنة سوق العروس، وسوق الصفارين وسوق الأنماط وسوق الدقاقين.. ووقع القتال في اصقاع البلد من جانبيه. وأظهر الجند كراهة الوزير الشيعي ـ جلال الدولة ـ وأرادوا قطع خطبته، ففرّق فيهم مالاً وحلف لهم ـ بأنه لا علاقة له بما حدث ـ فسكنوا. ثم عاودوا الشكوى الى الخليفة منه، وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته ـ الدعاء له ـ فلم يجبهم الخليفة الى ذلك. وامتنع جلال الدولة حينئذ عن الجلوس وضرب النوبة أوقات الصلوات، وانصرف الطبّالون لانقطاع الجاري لهم ـ الرواتب ـ واستمر ذلك ستة أشهر تقريباً، لم يضرب خلالها بوق ولا طبل، ولا أظهرت الزينة، وزاد الاختلاط، ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين السنة والشيعة، وزاد الشر ودام شهرين. واعترض أهل البصرة قوماً من ـ قم ـ أرادوا زيارة مشهد علي والحسين عليهما السلام، فقتلوا منهم ثلاثة نفر، وامتنعت زيارة مشهد موسى بن جعفر».

يمكن بعدئذ القفز من فوق أحداث مشابهة تكرر وقوعها طوال عشرين سنة، حيث يمكن قراءة ما حدث سنة ٤٤٣ هـ = ١٠٥١ م: «تجدّدت الفتنة ببغداد في هذه السنة بين السنة والشيعة، وعظمت أضعاف ما كانت قديماً، فكان الاتفاق الذي حدث قبل سنة اتفاقاً غير مأمون الانتقاض لما في الصدور من الإحن. وكان سبب هذه الفتنة أن أهل الكرخ ـ الشيعة ـ شرعوا في عمل باب السماكين. بينما عمل أهل الغلائين في اكمال ما بقي من باب مسعود. ففرغ أهل الكرخ، وعملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذهب (محمد وعلي خير البشر) وأنكر السنة ذلك، وادعوا أن المكتوب هو (محمد ـ وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر). وأنكر أهل الكرخ الزيادة، وقالوا: ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا فيما نكتبه على مساجدنا. فأرسل الخليفة القائم بأمر الله نقيب العباسيين أبا تمام ونقيب العلويين عدنان بن الرضى لكشف الحال وإنهائه. فكتبا بتصديق قول الكرخيين. فأمر حينئذ الخليفة ونواب الملك الرحيم بكف القتال. فلم يقبلوا، وانتدب القاضي ابن المذهب والزهيري وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبدالصمد، واتهموا بحمل العامة على الإغراق في الفتنة، فأمسك نواب الملك الرحيم عن كفّهم غيظاً من رئيس الرؤساء ـ رئيس الوزراء ـ لميله الى الحنابلة. ومنع هؤلاء السنة من حمل الماء من دجلة الى الكرخ ـ وكان نهر عيسى قد انفتح بثقه، فعظم

الأمر عليهم، وانتدب جماعة منهم وقصدوا دجلة وحملوا الماء الى الكرخ، وجعلوه في الظروف، وصبوا عليه ماء الورد، ونادوا: الماء للسبيل. فأغروا بهم السنة، وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة، فمحوا عبارة (خير البشر) وكتبوا (عليهما السلام) فقالت السنة: لا نرضى إلاّ بقلع الحجر الذي عليه محمد وعلي. وأن لا يؤذن بعبارة (حي على خير العمل). وامتنع الشيعة من ذلك، واستمر القتال شهراً، وقتل رجل هاشمي من السنة، فحمله أهله على نعش وطافوا به في الحربية وباب البصرة وسائر محال السنة، واستنفروا الناس للأخذ بثأره، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل وقد اجتمع معهم خلق كثير أضعاف ما تقدم.

فلما رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التين، فأغلق بابه فنقبوا في سوره وتهددوا البواب، فخافهم وفتح الباب، فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضة وستور وغير ذلك، ونهبوا ما في الترب والدور، وأدركهم الليل فعادوا. فلما كان الغد كثر الجمع، فقصدوا المشهد وأحرقوا جميع الترب والأبراج، واحترق ضريح موسى وضريح ابن ابنه محمد بن علي، والجوار، والقبتان الساج اللتان عليهما واحترق ما يقابلهما وما يجاورهما من قبور ملوك بني بويه ـ معز الدولة وجلال الدولة ـ ومن قبور الوزراء والرؤساء الشيعة ـ وقبر جعفر بن أبي جعفر المنصور، وقبر الأمين محمد بن الرشيد وقبر أمه زبيدة، وجرى من الأمر الفظيع ما لم يجر في الدنيا مثله. فلما كان الغد، عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمد بن علي لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه، وعلم نقيب العباسيين أبو تمام وغيره من الهاشميين والسنة بما يحدث فجاؤوا ومنعوا عن ذلك، وقصد أهل الكرخ الشيعة ـ إلى خان الفقهاء الأحناف فنهبوه وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعيد السرخسي، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء، وتعدت الفتنة الى الجانب الشرقي من بغداد، فاقتتل أهل باب الطاق وسوق بج والأساكفة وغيرهم. ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، عظم عليه واشتدّ وبلغ منه كل مبلغ لأنه وأهل بيته وسائر أعماله كلّهم شيعة، فقطعت في أعماله ـ الجزيرة ـ خطبة الإمام القائم بأمر الله. فأرسلت إليه الرسائل في ذلك من دار الخلافة، وعوتب، فاعتذر بأن أهل بيته

شيعة، واتفقوا على ذلك، فلم يمكنه ان يشق عليهم. كما ان الخليفة لم يتمكن من كفّ السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا. ثم ما لبث ان اعاد الخطبة ـ الدعاء ـ للخليفة العباسي إلى مثل ما كانت عليه».

هكذا استمرت الفتنة، ومضى عام، وجاء عام (سنة ٤٤٥ هـ) والاقتتال مستمر: «وزادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة، وعظم الشر، واختلط بالفريقين طوائف من الأتراك، فلما اشتد الأمر اجتمع القادة واتفقوا على الركوب الى المحال وفرض الأمن والإيقاع بأهل الشر والفساد، وأخذوا من الكرخ انساناً علوياً وقتلوه. فثار نساؤه، ونشرن شعورهن واستغثن فتبعهن العامة من أهل الكرخ. وجرى بينهم وبين القواد ومن معهم من العامة قتال شديد، وطرح الأتراك النار في أسواق الكرخ، فاحترق كثير منها، وألحقت بالأرض، وانتقل كثير من أهل الكرخ الى غيرها من المحال. وندم القواد على ما فعلوه، وانكر الإمام ـ الخليفة القائم بأمر الله ـ ذلك، وصلح الحال، وعاد الناس الى الكرخ بعد أن استقرت القاعدة بالديوان بكفّ الأتراك أيديهم عنهم».

قد تكون القراءات السابقة كافية لابراز الأسباب الكامنة وراء هذه الصراعات، لقد اختفى الحوار الفكري وحل محله الحوار بالسلاح. ولم تكن القضية هي قضية إقامة باب للكرخ، ولا قضية شعار يرفع، فقد عرف الإسلام بتسامحه، ولكن وخلال تلك الفترة حوصر أهل السنة في كل مكان وارتفع حكم الشيعة. ولم يبق للسنة إلاّ الخليفة الذي حوصر في بغداد ـ في دار الخلافة ـ ممّا أرغمه على تعيين نقيبين واحد للسنة، وثان للشيعة، وكان الشيعة عامة هم المسيطرين على مصدر القوة ـ المال ـ ولم يبق للخليفة رغم محاولاته اتخاذ مواقف الحكم من الصراعات الطائفية، إلاّ أن ينتصر لهؤلاء السنة الذين لم يبق لهم من ينصرهم. وقد يتطلب إيضاح هذه الحقيقة وتأكيدها استقراء بعض الشواهد الإضافية. لقد كان وزير الخليفة القائم بأمر الله ـ البساسيري ـ قادراً على ممارسة ضغوط من خلال السيطرة على رواتب الجند واستثارتهم. ونظراً لانتصار الأتراك السنة لمسلمي بغداد من السنة. فقد استطاع ـ البساسيري ـ استثارتهم والضغط عليهم من خلال الإمساك برواتبهم والامتناع من دفعها لهم، ممّا زاد من اضطراب

الموقف. وهو ما حدث سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م: « حيث وقعت فتنة الأتراك ببغداد ـ وكان سببها أنهم تخلّف لهم مبلغ كبير من رسومهم ـ رواتبهم ـ فطالبوا الوزير وألحّوا عليه فاختفى في دار الخلافة، فحضر الأتراك بالديوان، وطالبوه، وشكوا ما يلقونه منه من المطال ـ المماطلة ـ بما لهم، فلم يجابوا إلى إظهاره، فعدلوا عن الشكوى منه الى الشكوى من ديوان الخليفة، وقالوا إن أرباب المعاملات قد سكنوا بالحريم، وأخذوا الأموال، وإذا طلبناهم بها يمتنعون بالمقام بالحريم، وانتصب الوزير والخليفة لمنعنا عنهم، وقد هلكنا. فتردد الخطاب منهم والجواب عنه، فقاموا نافرين. فلمّا كان الغد ظهر الخبر أنهم على عزم حصر دار الخلافة فانزعج الناس لذلك، واخفوا أموالهم. وحضر البساسيري دار الخلافة، وبحث عن وزير السنة الذي يتبع الملك الرحيم ـ فلم يعثر له على خبر، فبحث عنه في داره وفي دور من يتهم به، وكبست الدور فلم يظهروا له على خبر. وركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم. فنهبوها، وأحرقوا البيع والقلايات. ونهبوا فيها دار أبي الحسن بن عبيد ـ وزير البساسيري ـ وقام أهل نهر المعلى وباب الأزج وغيرهما من المحال في منافذ الدروب لمنع الأتراك، وانخرق الأمر ـ ونهب الأتراك كل من ورد إلى بغداد. فغلت الأسعار وعدمت الأقوات. وأرسل إليهم الخليفة ينهاهم فلم ينتهوا، فأظهر أنه يريد الانتقال عن بغداد، فلم يزدجروا. كل ذلك والبساسيري مقيم بدار الخلافة. وجاء الوزير ـ السني ـ وقدم لهم من ماله وأثمان دوابه وغيرها. ولم يزالوا في ضبط وعسف، فعاد طمع الأكراد والأعراب أشد مما كان عليه من قبل، وعاودوا الغارة والنهب والقتل. فخربت البلاد وتفرّق أهلها. ـ وعظم انحلال أمر السلطنة وهذا من ضرر الخلاف ».

لقد كانت موارد دار الخلافة تعتمد على ما يردها من أقاليم المسلمين، فلمّا ظهر التشيع وصار الحكم في مصر للعلويين، ثم سيطروا على بلاد الشام وأخضعوها لحكمهم، وحاصروا دار الخلافة، أصبحت دار الخلافة محرومة من مواردها، وزاد الأمر سوءاً بتحكم وزراء الشيعة بالخليفة، فكانت تلك الصراعات تعبيراً عن الغضب الدفين ـ هذا فيما كانت بقية مراكز القوى تنعم بالترف والاستقرار وهو ما تصوره القراءة التاريخية التالية: « توفي نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي سنة ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م. ولقبه

القادر بالله نصرالدولة، وكان عمره نيفاً وثمانين سنة، وإمارته اثنتين وخمسين سنة. واستولى على الأمور في ديار بكر ـ استيلاء تاماً، وعمر الثغور، وضبطها، وتنعّم تنعماً لم يسمع بمثله عن أحد من أهل زمانه، وملك من الجواري المغنيات ما اشترى بعضهن بخمسة آلاف دينار وأكثر من ذلك. وملك خمسمائة سرية، سوى توابعهن، وخمسمائة خادم. وكان في مجلسه من الآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار. وتزوج من بنات الملوك جملة. وأرسل طبّاخين إلى الديار المصرية، وعزم على إرسالهم جملة وافرة حتى تعلموا الطبخ من هناك. وأرسل الى السلطان ـ طغرل بك ـ هدايا عظيمة من جملتها الحبل الياقوت الذي كان لبني بويه ـ اشتراه من الملك العزيز أبي منصور بن جلال الدولة، وأرسل معه مائة ألف دينار سوى ذلك، ووزر له أبو القاسم بن المغربي. وفخر الدولة بن جهير. ورخصت الأسعار في أيامه، وتظاهر الناس بالأموال، ووفد إليه الشعراء، وأقام عنده العلماء والزهاد، وبلغه أن الطيور في الشتاء تخرج من الجبال إلى القرى فتصاد. فأمر أن يطرح لها الحب من الاهراء التي كانت له. فكانت في ضيافته طول عمره».

في وسط تلك الظلمة أضاءت دار الخلافة ببغداد بضياء جاء من الشرق، فقد تقدّم طغرل بك من بغداد. وكان أول ما فعله (سنة ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) أن أمر أهل الكرخ: «أن يؤذنوا في مساجدهم سحراً ـ الصلاة خير من النوم». وفي السنة التالية، أصدر الخليفة أمره بأن يؤذّن بالكرخ والمشهد وغيرها: (الصلاة خير من النوم) وأن يتركوا (حي على خير العمل). ففعلوا ما أمرهم به خوف السلطنة وقوتها.

لم تكن الفتن بين السنة والشيعة هي الفتن الوحيدة. فقد أفسحت هذه الفتن المجال الرحب لظهور فتن بين السنة ذاتهم. وفي هذا العام ذاته (٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) وقعت فتنة بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداد، حيث عمل مقدّم الحنابلة أبو علي بن الفراء، وابن التميمي، ومعهما كثير من العامة، على إنكار الجهر (ببسم الله الرحمن الرحيم) ومنعوا من الترجيع في الأذان والقنوت في الفجر، وساروا الى ديوان الخليفة فلم يتم اتخاذ قرار بهذا الشأن. وجاء الحنابلة الى مسجد بباب الشعير، فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج مصحفاً، وقال أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها. وحدث مثل

ذلك سنة ٥٤٧ هـ = ١٠٦٥ م. وقد أوقد الفتنة في هذه المرة، الشريف أبو القاسم البكري المغربي الواعظ ـ وكان أشعري المذهب ـ وكان قد قصد نظام الملك فشجّع الشريف ابا القاسم وسيّره الى بغداد، وأجرى عليه الجراية ـ الراتب ـ فوعظ بالمدرسة النظامية، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم ويقول: (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا. ثم إنه قصد يوماً دار قاضي القضاة أبي عبدالله الدامغاني، فجرى بين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدّت الى الفتنة. وكثر جمعه، فهاجم دور بني الفراء وأخذ كتبهم ـ كتب الحنابلة ـ وأخذ منها كتاب ـ الصفات ـ لأبي يعلى، فكان يقرأ بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ، فيشنع به عليهم. وجرى له معهم خصومات وفتن.

لقد رافق ذلك كلّه ظهور فساد عام، فقد اضطرب حبل الأمن، وساد الخوف على الممتلكات والأموال. ولم تعد الطرق مأمونة، ونشط قطاع الطرق وسواهم. وقد تكون هذه الظواهر متوقعة في مجتمع مزقته الصراعات الطائفية.

ليس من الضروري بعد ذلك البحث فيما إذا كانت تلك الحروب الداخلية هي السبب في الانصراف عن الحروب الخارجية، أو أن عدم ممارسة الحروب الخارجية قد أدى إلى تفجر الحروب الداخلية. فلكل نظرية أنصارها ومؤيدوها والذين يمتلكون البراهين من التجربة التاريخية ذاتها للبرهان على صحة كل طرف من طرفي المعادلة. والمهم في الأمر هو أن هناك ثمة علاقة ثابتة بين الحروب الداخلية والحروب الخارجية، وأن كل نوع من أنواع هذه الحروب يتعايش على حساب الحروب الأخرى. ومعروف أيضاً ان الحروب الداخلية تستنزف القدرة الكامنة في الأمة وتفتتها وتضعفها بأكثر مما تضعفها الحروب الخارجية ـ ولهذا لم يكن غريباً على سبيل المثال أن ترفع الثورة الفرنسية مبدأ (القضاء على العدو الداخلي قبل مجابهة العدو الخارجي) باعتبار أن هذا العدو هو الأكثر شراً والأشد خطراً. وليس هذا المبدأ إلاّ مصداقاً لما فعله أمير المؤمنين أبو بكر الصدّيق قبل ذلك بأكثر من ألف عام عندما وجّه كل الجهود للقضاء على المرتدين قبل إطلاق جيوش الفتح. كما أن الحروب الخارجية كثيراً ـ وليس دائماً ـ تسهم في القضاء على الخلافات والتناقضات الداخلية. ولقد يكون من غير المهم

بعد ذلك التوقّف عند أسباب تلك الحروب الداخلية وعواملها، فالتناقضات الداخلية موجودة في كل مجتمع، في القديم كما في الحديث، بل ربّما كانت التناقضات في المجتمعات الحديثة أشد عمقاً وأكثر اتساعاً ممّا كانت عليه في المجتمعات القديمة. غير أن الوسائل المتوافرة في تنظيم المجتمعات الحديثة باتت قادرة على التعامل مع التناقضات بكفاءة أكبر وبسرعة أكثر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فكلما تزايدت قوة المجتمع ـ وثراءه وقدرته العسكرية وتنظيمه ـ كلّما كان أكثر قدرة على استيعاب التناقضات والتعامل معها، وكلّما ضعفت هذه العوامل، كلّما توافر المجال لتفجير الحروب الداخلية. غير أن هناك قضية أساسية طرحت ذاتها بقوة منذ أيام العهد الأموي وتزايدت وضوحاً في العصر العباسي، وهي أن الشعوب التي دخلت في الإسلام تباعاً لم تتمكن بعد أن أصبحت هي مراكز القوى في الدولة، أن تفهم الإسلام كما كان يفهمه السلف، ممّا أدى بالتالي إلى زيادة حدّة التناقضات، وكذلك، فإن وجود التناقض بين المذاهب قد أفسح المجال الرحب لاستثمار هذه التناقضات وتوجيهها ضد مبادىء الإسلام ذاته. فكان حدوث الحروب الداخلية أمراً ينسجم وطبيعة مجريات الأمور.

لقد كان المجتمع الإسلامي في العصر العباسي ـ وربما أكثر من أي عصر سبقه أو جاء بعده ـ يضجّ بالحركة والصخب، أقوام تسير وراء الفتنة العمياء والضلالة الجهلاء، وأمم تنصرف للحروب الداخلية بحثاً وراء مثل أعلى. أو وراء مكسب مادي، وأمم لا همّ لها إلاّ الجهاد في سبيل الله على الجبهات الخارجية. وكانت هذه كلها تسير متوازية في وقت واحد. ويمكن تصور تلك القدرة المتفجرة لو توجّهت لعالم الفتوح، على نحو ما كان عليه الموقف أيام الأمويين. وليس بالمستطاع على كل حال الذهاب في التصورات بعيداً، إذ أن التصورات والافتراضات والأمور النظرية تتناقض مع موضوعية البحث التاريخي، فليس على الباحث إلاّ أن يذكر الأحداث ويستخلص منها عبرها ودروسها ونتائجها. وتؤكد الحقيقة والموضوعية أن تلك الحروب الداخلية قد استنزفت كثيراً من قدرة الشعوب الإسلامية. وقد يقف الباحث ذاهلاً عندما ينظر اليوم في أسباب تلك الحروب. فهل من أجل جملة (حي على خير العمل) بدلاً من

(حي على الفلاح) تشنّ الحرب؟ ولكن كل ذهول يزول ويتبدد عند الذهاب الى ما وراء الشعارات المرفوعة، ذلك أن الانحراف البسيط في بداية الأمر قد وصل الى ابتعاد كبير عن الإسلام عندما أوغل المنحرفون في مسيرهم. فكانوا كل يوم يبتعدون أكثر فأكثر عن روح الإسلام ونهجه. وعلى هذا لم تكن القضية قضية تعصّب أعمى أو تزمّت طائش، وإنما كانت القضية قضية وعي وإدراك لخطورة ذلك الانحراف، وما ستؤدي نتائجه الى انحراف بالإسلام ذاته. وعلى هذا فقد كانت الصراعات الداخلية، وكما سبق ذكره هي نوع من حروب الردة، بين الإسلام والمسلمين وبين من أرادوا الانحراف بالإسلام والمسلمين عن النهج القويم. نهج كتاب الله وسنة رسوله. وهو الصراع الذي سيبقى ما بقي للإسلام ذكر، وما بقي للتوحيد وجوده على أرض الله.

لقد كان لضعف دار الخلافة في فترة معينة، دوره الكبير في تفجّر الصراعات الداخلية خلال تلك الفترة. وقد يكون من المثير متابعة تلك المؤامرات التي كان يحيطها النقيبان ـ نقيب السنة ونقيب الشيعة ـ في الخفاء، حيث كان يعتمد النقيبان على ما هو متوافر لهما من الوسائل المتاحة، وكان الشارع الإسلامي هو مجال الصراع، وكان لدور بقية مراكز القوى دورها في ذلك الصراع الخفي ـ ممّا يذكر بما كان يسمى ـ مؤامرات البلاط ـ في دول العالم الغربي طوال العصور الوسطى. ومن الجدير بالذكر ان هذه المؤامرات قد توقفت تماماً، وانتهى الصراع على الجبهة الداخلية، عندما وصل السلاجقة ـ طغرل بك ـ إلى بغداد. وأصبح باستطاعة الخليفة أن يصدر أمراً بسيطاً لتقويم كل اعوجاج ومقاومة كل انحراف. ويظهر من خلال ذلك كله أنه قد يكون من التجني على الحقيقة التاريخية، ومن الافتراء عليها، ومن الظلم لها، تحميل تلك الحروب تفسيرات أو تأويلات لم تكن تمتلكها أصلاً، أو محاولة استخدامها لتشويه الإسلام، إذ انها لم تكن إلاّ تعبيراً عن مرحلة معينة أوجدتها عوامل واضحة.

٨ ـ الحروب النظامية والحروب الثورية.

لقد سارت الحروب النظامية والحروب الثورية ـ بحسب التسميات الحديثة ـ جنباً إلى جانب. وتطورت الحروب على الجبهتين الداخلية والخارجية ـ بحسب التسميات الحديثة أيضاً في آن واحد. وكان هناك ثمة تشابه وتماثل في هذه الحروب، وهذا التشابه نابع من وحدة الهدف بالنسبة للمسلمين. فالهدف هو إعلاء كلمة الله حتى تكون هي العليا على أرض الله. ولقد حاول أعداء المسلمين على الجبهتين الداخلية والخارجية محاكاة المسلمين، سواء في الهدف أو الوسائل، وهكذا كان حوار الإرادات المتصارعة محكوماً بعوامل واحدة مما أسهم بذلك الاتصال المحكم بين أنواع هذه الحروب جميعاً.

وتمثل الحروب مع الزنج ثم مع القرامطة النموذج الأفضل لذلك الاتصال والتشابه، فقد كانت قوات أمير المؤمنين ـ الخليفة العباسي ـ هي قوات نظامية، إلاّ أنها خاضت معاركها بمفاهيم الحروب الثورية وأساليبها، وكانت قوات ثورة الزنج، وقوات حركة القرامطة هي قوات ثورية ـ إلاّ أنها خاضت معاركها في إطار مفاهيم الحروب الثورية وأساليبها. وكذلك فقد كان هناك ثمة تشابه في المفاهيم والأساليب على جبهتي الروم ـ البيزنطيين، والهند ـ ومن المحتمل القول ان التشابه في الوسائط القتالية المستخدمة ـ السيف والرمح والنبال والمجانيق الخ ـ هو الذي خلق ذلك التشابه. وهذا جانب من الحقيقة، إلاّ أن الجانب الاكثر أهمية والأكبر أثراً هو فكر الإنسان الموجّه للصراع، فقد أظهر استعراض الاحداث والوقائع القتالية مدى الابداع الرائع في تطبيق مبادىء الحرب ـ المباغتة والمبادأة وأمن القوات والتأمين الإداري الخ... ـ وهكذا ورغم تشابه الوسائل، فقد كان كل طرف يحاول استخدام الوسائل المتوافرة بكفاءة عالية وإبداع مثير ـ. ويؤكد ذلك ان التشابه والتماثل لم يكن نتيجة تشابه الوسائط القتالية بقدر ما كان نتيجة لاستنفار كل مواهب الخيال والعقل لاستخدام تلك الوسائط بطريقة ناجعة للوصول الى هدف الحرب وهو تحقيق النصر الحاسم.

هنا لا بد من العودة الى البدايات الأولى لظهور فن الحرب الإسلامي، سواء في عهد النبوة، أو في عهود الخلفاء الراشدين، حيث الفتوحات العظمى ـ والتي اكتملت في العهد الأموي. فقد تشكل فن الحرب الإسلامي وضمَّ شكلي الحرب معاً: حرب القوات النظامية ـ الأجناد ـ وحرب القوات الثورية التي تعتمد على عمل المفارز والوحدات الصغرى. وتابع فن الحرب تطوره ضمن هذا الإطار ذاته حتى أخذ في العصر العباسي أبعاده الواضحة سواء عند العمل على الجبهات الخارجية أو عند العمل على الجبهة الداخلية ـ أي ضد الحروب الثورية ـ. ولهذا فقد كان لقوات أمير المؤمنين تفوقها في مجالين: الشرعية والقوى المقاتلة ـ هذا في حال امتلاك الأطراف المتصارعة لكفاءة متعادلة في مجال إدارة الحرب وقيادة الأعمال القتالية ـ.

وفي الواقع، فقد تميز قادة الحروب الثورية عامة بكفاءة قيادية عالية برزت من خلال تنظيم شبكات الاستطلاع والجاسوسية، ومن خلال التحصين الهندسي للأرض، علاوة على تلك الكفاءة التي تجلّت في قيادة الأعمال القتالية ذاتها.

لقد ظهر من خلال استعراض الأعمال القتالية لثورة الزنج والقرامطة أن قادة هذه الثورات تمكنوا من نشر شبكة دقيقة من الجواسيس وصلت حتى دار الخلافة وأحاطت بكافة تحركات القوات، وبالمقابل كانت شبكة دار الخلافة تحيط بكل مكان، ولهذا كان كل طرف يعرف عن يقين قوة خصمه وقدرتها معرفة دقيقة. وكانت هذه المعرفة عاملاً مساعداً لإدارة الحرب، غير أنها كانت في الوقت ذاته عاملاً معيقاً في وجه الحسم. إذ كان كل طرف يستطيع استباق الأحداث وتجنّب المآزق الحرجة. ولم يكن من السهل في الحالات كلها خداع الخصم أو تضليله ولهذا بقي عامل الحسم معلقاً لفترة طويلة.

كانت دراسة الأرض والإفادة من موانعها وعوائقها، وتنظيمها تنظيماً هندسياً عاملاً هاماً في جملة عوامل نجاح الأعمال الثورية. وقد ظهر ذلك واضحاً في ثورة الزنج، كما تكرر ذلك في الحرب مع القرامطة. ويظهر ذلك مدى التطور الفكري الذي وصلته قيادات الحركات الثورية، ومدى ما توافر لها من الكفاءة.

تشكل هذه الحركات الثورية بعد ذلك نموذجاً رائعاً لدراسة أساليب الحرب الثورية. فقد كان قادة هذه الحركات يحرصون كل الحرص على تجنّب الصدام مع قوات متفوقة، ويقتصرون في أعمالهم القتالية على هجمات محدودة ومباغتة، فكانت انتصاراتهم الصغرى والمتتالية تساعدهم على تعميق جذورهم وزيادة اتساع مجال عملهم - الجغرافي -. وكانوا يعتمدون على العنف والإرهاب من جهة وعلى الإغراءات المادية من جهة ثانية لاكتساب الانصار والمؤيدين، حتى إذا ما وصلت الثورة الى درجة كافية من القوة لم تتردد في توجيه ضرباتها للقوات النظامية، مستفيدة من رصيدها المعنوي الهائل لتدمير القوات المعادية. ولهذا لم يكن غريباً أن تتمزق القوات النظامية المتفوقة بالقوى والوسائط لمجرد اصطدامها بقوات الثورة، أو مجابهتها. ولكن، ومع مرور الوقت، تكتسب القوات النظامية - إذا ما توافرت لها قيادات ذات كفاءة عالية - القدرة على مجابهة قوات الثورة. وتبدأ عندها مرحلة التوازن بين قوات الثورة والقوات المعادية لها. وبذلك تنتقل المبادأة الى أيدي القوات النظامية، ويبدأ التحول في غير مصلحة الثورة. ويتم تجريد قواة الثورة من رصيدها المعنوي. حيث تستفيد القوات النظامية من (هالة الشرعية) لتمزّق (هالة الرعب) التي تنشرها الثورة وتستثمرها. وهذا ممّا يؤدي الى دفع الثورة الى المزيد من التطرف في محاولة للتشبث بمواقعها المفقودة. ولكن ذلك يؤدي بالثورة الى الوقوع في متناقضاتها، فتبدأ بالتحلل والتفسّخ من الداخل. وتفقد قدرتها على التطور والاستمرار، رغم امتلاكها لقوات وموارد تزيد كثيراً على تلك التي كانت تمتلكها عند انطلاقتها الأولى. ويمارس العامل المعنوي دوره الحاسم في هذا المضمار. إذ يتبين لقوات الثورة مدى العزلة التي نزلت بها - والناتجة بصورة طبيعية عن ممارساتها الإرهابية والتي كثيراً ما تكون قد وجّهت توجيهاً خاطئاً، بحيث تقلب الأنصار الى خصوم والمحايدين الى أعداء حقيقيين، وبدهي ألاّ تستطيع الثورة التطور أو الاستمرار إلاّ من خلال ما تلقاه من دعم الجماهير لها. وقد ظهر أن القيادات النظامية - التي تتمتع بالشرعية - قد عملت على الاتجاه المضاد تماماً، حيث حرصت باستمرار على حماية الحياديين وتحييد الأنصار، وإفساح المجال لقوات الثورة - للتوبة - فجردت بذلك الثورة من ذريعتها، وحجة

وجودها. وهذا ممّا يبرز دور العمل الفكري والنفسي وأهميته في التعامل مع قوات الثورة، وإظهارها على صورتها الحقيقية بأنها حركة ضد جمهور المسلمين، في فكرها وفي ممارساتها. ويظهر من ذلك أن العمل ضد الحركات الثورية هو عمل فكري بالدرجة الأولى، هدفه تجريد الثورة من حجة وجودها، وفي الوقت ذاته تثبيت القناعة في وسط القوات النظامية ـ الشرعية ـ بعدالة قضيتها. وإنها تحارب عدواً منحرفاً عن القيم والفضائل التي جاء بها الإسلام. أما بالنسبة للعمل ضد الثورة فلا بد من ملاحظة عامل هام وهو السرعة في العمل ضدها، وبذل كل جهد مستطاع لخنقها وهي في مهدها. ولقد تحركت قوات أمير المؤمنين في الصدر العباسي الأول بسرعة كبيرة مما ساعدها على تطويق الثورات بسرعة ولكن، ومع مرور الزمن، وبسبب مجموعة كبيرة من العوامل المتشابكة، بدأ هذا التحرك مسارات متباطئة مما ساعد ثورة الزنج على الاستمرار لبضع سنين. وممّا ساعد القرامطة على البقاء لعدد من عقود السنين. ويظهر ذلك مدى الحاجة لقوات جاهزة دائماً من أجل التعامل مع الحركات الثورية. ليس ذلك فحسب بل لعله من الأفضل سبق الأحداث بكشف رؤوس الفتنة وقادة الثورة قبل ان ينتقلوا الى مرحلة الصراع المسلح.

هنا لا بد من القول بأن المجتمع الإسلامي بحكم تكوينه المحارب، وبفضل ممارسته لنجهاد. قد ضمن توافر العناصر المقاتلة على نطاق واسع، كما ضمن توافر الخبرات القتالية على كافة المستويات. ولهذا لم يكن غريباً أن تشمل ساحات الصراع اعداداً ضخمة من المقاتلين الذين يخوضون صراعاتهم لأهداف شتى. ولما كان الهدف المحرّك للثورة هو هدف ديني ـ عقائدي أو مذهبي ـ في أساسه. فقد كان من طبيعة الأمور أن تأخذ الحرب طابع العنف والقسوة ـ لاسيما في المراحل الاولى ـ إلى أن يتحول هذا العنف الى صفة ملازمة للثورة، وليتحول بعد ذلك إلى سلاح مضاد للثورة ذاتها.

لقد بات معروفاً في الأزمنة الحديثة أن الشكل الأمثل للحرب هو تحقيق الاقتران بين الحروب الثورية والحروب النظامية سواء في الهجوم أو في الدفاع، فبينما تشنّ قوات الأنصار والقوات المنظّمة من العصابات أعمالها على مؤخرات قوات العدو، لضرب خطوط مواصلاته ومهاجمة مصادر إمداده وتموينه ونصب الكمائن لإعاقة تحركاته،

تقوم القوات النظامية بتوجيه عملياتها والعدو في حالة شلل أو ارتباك من ضربات القوات الثورية على مؤخراته. ولقد برهن هذا الأسلوب فاعليته الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية على الجبهتين الشرقية والغربية، وخلال الحروب الثورية التي أعقبت ذلك (الحرب الكورية والحرب الڤيتنامية والحرب الجزائرية). فقد استطاعت الحروب الثورية استنزاف القوات الالمانية في أوروبا ـ فرنسا وبلجيكا وهولاندا ـ وفي البلقان ـ يوغوسلافيا خاصة ـ وكذلك على جبهة الشرق. حيث عملت قيادات الحلفاء على تنظيم المقاومة السرية على أعلى المستويات. ولقد تم ربط مخطط العمليات السرية (المقاومة) بمخطط عمل القوات النظامية، مما أدى الى توفير كبير في جهد القوات وفي الخسائر التي كانت ستتعرض لها قوات الحلفاء لو اصطدمت بقوات المانيا النازية. أليس مثيراً بعد ذلك ان يكون العرب المسلمون هم أول من طبق هذه السياسة الإستراتيجية قبل أربعة عشر قرناً. ثم طوّرها المسلمون عبر حروبهم وصراعاتهم المتتالية؟.

ولقد بات معروفاً أيضاً في الأزمنة الحديثة أهمية الاقتران بين عمل القوات النظامية على الجبهة الخارجية وبين عمل القوات الثورية على الجبهة الداخلية للعدو. بحيث تؤدي الأعمال الثورية الى ارباك خطط العدو وشل قواته ووضعها في موقف يحرمها من حرية العمل العسكري. وبذلك خرجت روسيا القيصرية من الحرب العالمية الأولى، وبذلك انهارت الدولة العثمانية بقيام الثورة العربية الكبرى. وبذلك أيضاً انهارت المانيا القيصرية في الحرب العالمية الاولى. وكذلك انهارت ايطاليا في الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحتها الثورة الداخلية. ولقد اعتمدت هذه الثورات ومثيلاتها على اساليب الحرب النفسية، وعلى تكوين تنظيمات ثورية في بلاد العدو. أليس غريباً بعد ذلك أن تتعرض الدولة العباسية لهذين النوعين من الحروب، وبالرغم من ذلك، فإنها صمدت للتحديات وقاومت أعداء الداخل وأعداء الخارج في وقت واحد؟ وهل بالمستطاع وصف الدولة التي نجحت في تجاوز محنتها والخروج منتصرة بالضعف او اتهامها بالتخاذل؟ من المحتمل هنا القول بأن اعداء الدولة الإسلامية ـ العباسية ـ لم يكونوا يمتلكون القوة الكافية لا على الجبهة الداخلية ولا على الجبهة الخارجية للإجهاز على الدولة العباسية. أو أن هؤلاء الأعداء لم يكونوا يمتلكون الخبرة الكافية لتنسيق العمل

على الجبهتين الداخلية والخارجية في وقت واحد. وقد تكون مثل هذه الحجج او الذرائع صالحة عند مناقشة تطورات الحروب في الأزمنة الحديثة، وعلى ضوء ما وصل إليه فن الحرب من التطور. ولكن طرح مثل هذه الحجج والذرائع لا يعتبر مقياساً سليماً عند تطبيقه على حروب العصر العباسي. حيث كانت الأطراف المتصارعة تمتلك جميعها خبرة قتالية متعادلة، وتمتلك كفاءة قيادية متشابهة، وإذن فليس هناك إلاّ تعليل واحد لانتصار قوات الخلافة العباسية وهو تفوق القيادة العباسية في مجال فن الحرب وفي إدارة الحرب سواء على مستوى السياسة الإستراتيجية - أو السياسة العليا - أو على مستوى قيادة الأعمال القتالية وإدارة الحرب. وهذا بدوره برهان على ما وصل إليه فن الحرب من تطور وتقدّم في العصر العباسي. بحيث بات هذا الفن يرسل بظلاله المتقدمة لتصل إلى الأزمنة الحديثة، بحيث يظهر ذلك التشابه المبدع بين ما وصل إليه فن الحرب في تلك الحقبة، وما وصل إليه في الأزمنة الحديثة.

لقد بات لكل من نوعي الحرب: الحرب النظامية والحرب الثورية، أساليبه وطرائقه وقواعده، ويخضع كل من النوعين للأبحاث الدقيقة والدراسات المستفيضة، حتى ليظهر لباحث اليوم أن هذين النوعين هما من ابداع الأزمنة الحديثة ومن مستجداتها ومستحدثاتها. ولهذا قد يبدو مثيراً للغاية عندما يطالع الباحث في بطون التاريخ العربي - الإسلامي اسس هذه الأساليب وطرائقها وقواعدها بشكل واضح جداً في تجارب حرب العصر العباسي - خاصة -. وهذه بدورها ليست ابداعاً عباسياً، وإنما هي مما حمله المذهب العسكري الإسلامي منذ ظهوره، ومنذ البدايات الأولى لتشكله. فهل من غرابة أن يحقق المسلمون مثل تلك الإنجازات المذهلة في حروبهم؟ لعل أبرز ما يظهره فن الحرب في العصر العباسي بعد ذلك هو ذلك التصميم العنيد على الاستمرار في خوض الصراع حتى نهايته، ففي وسط العواصف الهوجاء التي كانت كافية لتنال من أقوى الرجال عزيمة وأكثر الرجال تصميماً، وقف المسلمون بعناد - بداية من الخليفة وحتى آخر مجاهد في سبيل الله - وهم على استعداد دائم للقتال، وللتضحية بكل ما يملكون، سواء للحرب على الجبهة الخارجية أو على الجبهة الداخلية فالجبهتان بالنسبة للإنسان المسلم هما جبهة واحدة طالما أن الهدف واحد - كما سبق ذكره -. فأي مجتمع

هذا الذي بعثه الإسلام؟ وأية قوة هذه التي أوجدها في النفوس؟ إنه الرصيد المعنوي الهائل الذي أقرّه الإسلام في قلوب المؤمنين والذي لم تحاول دراسات علم النفس وتطبيقاته الحديثة أكثر من بلوغه والوصول إليه فقصرت في كثير من الأحيان عنه. ولقد حاول اعداء الإسلام والمسلمين على الجبهتين الداخلية والخارجية ـ في الحروب النظامية والحروب الثورية ـ محاكاة المسلمين في استنفار مصادر الإيمان، وسرعان ما انكشف انتحال الإيمان أمام الإيمان الصادق، وسرعان ما تبين الفارق بين الصدق والخداع، بين ما يقر في القلب فيحرك الإنسان بكل طاقته، وبين ما يدغدغ العواطف أو يلمس العقل، ثم ينكشف عن غثاء أحوى.

٩ ـ التجربة التاريخية للعصر العباسي.

قد يكون ما سبق ذكره برهاناً كافياً على مدى الأهمية التي يمثلها (فن الحرب في العصر العباسي) وفي الواقع، فالإنسان العربي ـ المسلم ـ خاصة ـ يعرف الكثير عن عصر النبوة الأولى وهذا شيء مفروض لا جدل فيه ولا نقاش ـ ثم يجهل في كثير من الأحيان ما حدث بعد ذلك من تطورات في كافة المجالات. سواء في العصر الأموي، أو في العصر العباسي. أو ما جاء بعدهما من عصور ودهور. وقد أفاد كثير من الباحثين ـ المستشرقين والمستغربين ـ من هذا الضعف في المعرفة، فأسهموا في اسدال ستار كثيف على كل ما هو مشرق في هذه العصور، وفسّروا الأحداث تفسيراً جزئياً يتطابق وأهدافهم من البحث، وهل يعرف كثير من العرب المسلمين عن عصر الرشيد ـ مثلا ـ ما كان عليه هذا الخليفة من التقى والورع وما بذله من جهد لإعزاز الإسلام والمسلمين؟ وهل يعرف الإنسان العربي ـ المسلم اليوم ما بذله المسلمون من جهد كبير للمحافظة على طهر الإسلام ونقائه في حروبهم الداخلية والخارجية؟ وهل هناك من يعرف عن ثورة القرامطة ـ إذا سمع بها ـ إلاّ أنها حركة اشتراكية مبكرة تمخضت عن فشل النظام الإسلامي في تحقيق العدالة الاجتماعية بحسب المفاهيم والقيم الحديثة؟ وهل عرف أي مسلم أن هذه الحركة التي أقضت مضجع الدولة العباسية لم تكن أكثر من نوع من أنواع الردة للجاهلية. وأن ما يقال عن اشتراكيتها ليس أكثر من تحلل من الالتزامات النبيلة التي فرضها الإسلام على الإنسان المسلم؟ وهل يمكن بعد ذلك فهم الجانب النبيل من (حروب الإيمان) إن لم تتم مطالعة ومعرفة الوقائع على نحو ما حدثت في إطاريها الزمني والمكاني؟.

هنا تظهر أهمية دراسة هذه الوقائع من زاوية (فن الحرب) إذ إن التعامل مع هذه الأحداث المختلفة من خلال (هدف الحرب) ومن خلال (طرائق الحرب وإدارتها) هو الذي يساعد على وضع هذه الأحداث والوقائع في موقعها الصحيح من فن الحرب الإسلامي، وهو الذي يتجاوز الجزئيات ـ دون اهمال او

اسقاط لها ـ ليضعها في إطارها العام زمنياً ومكانياً. وبذلك تتوافر الفرصة لاستقراء معالم التطور بموضوعية وبعيداً عن الإثارة العاطفية أو التعليلات المنحرفة والتفسيرات الخاطئة.

إن التعلّق بهدف الحرب ـ على سبيل المثال ـ هو الذي يفسر بما لا يدع مجالاً للريبة أو الشك ـ سبب نكبة البرامكة والتي طالما احيطت بتفسيرات شتى كثيراً منها ما كان بعيداً عن الحقيقة وعن الموضوعية. فقد عرف الرشيد أن اولئك النفر من أهل خراسان بداية من أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني ونهاية بالبرامكة. وقد يكون هؤلاء ـ كما وصفوا ـ ممن صحّ اسلامهم والله بهم أعلم، غير أنه ثبت أنهم كانوا يشكلون حماية لحركات منحرفة عن الإسلام مثل الزنادقة وسواهم. فكان (هدف الحرب) وهو اعزاز الإسلام والمسلمين والمحافظة على نقائه سبباً فيما حدث.

وكانت تلك الغزوات الضارية التي قادها الرشيد الى هرقلة والمعتصم الى عمورية تسير في الإطار ذاته، ولم ينظر الرشيد، ولا المعتصم الى القضية على أنها استفزاز شخصي لا يستحق الرد، أو أنها مجرد استغاثة لامرأة هاشمية مسلمة. وإنما كان الرشيد يمثل كل المسلمين، وكانت المرأة الهاشمية تمثل كل امهات المسلمين. فلا غرابة إن خرج الحسام من غمده ولم يعد حتى حقق هدف الهدف، وحتى استوت الأمور كما ارادها الإسلام. وقد يقال ان الخلفاء من بني العباس، وقبلهم خلفاء بني أمية، قد جردوا السيوف ضد مسلمين اشتهروا بصحة اليقين وبصدق الإيمان ـ مثل الخوارج ـ ومثل بعض ابناء عمومة بني العباس من سلالة علي بن أبي طالب رضوان الله عنه. وهنا يعود هدف الحرب ليفسر بصورة علمية وضمن إطار: (الفتنة أشد من القتل) فكيف إن كان ضحية هذه الفتنة هم المسلمون ذاتهم؟ أليس من الحق استباق الأحداث والتضحية بالجزء حماية للكل؟ وبعد ذلك أيضاً، وعندما قام الزنج بثورتهم، وتبعتهم حركة القرامطة، أفسح امراء بني العباس المجال الرحب للتوبة والإنابة في الإطار ذاته ـ حقن دماء المسلمين ـ والقضاء على الفتنة والانحراف بالحد الأدنى من الجهد ومن التضحيات. أليس ذلك في إطار هدف الحرب ذاته؟

وهنا لا بد للإنسان المسلم وأن يشعر بالألم يعتصره، وهو يطالع محاولات فئات من المسلمين لتحريف (هدف الحرب) وكيف أدى هذا التحريف الى الانحراف المريع، ثم كيف أدى هذا الانحراف لاستنزاف الكثير من قدرة الإنسان المسلم. ويتساءل: ألا تشكل هذه الانحرافات والدروس المستخلصة منها عبرة لمن أراد أن يتذكر؟ ألم تكن هذه التجارب ـ في إطار الحروب الداخلية ـ كافية حتى يعرف الجميع أن الخروج عن تعاليم الإسلام لم يضر الإسلام شيئاً، وإنما أضر المسلمين الذين خرجوا جميعاً بخسائر لا تقدر بثمن؟ وأنه كان بالمستطاع توفير هذا الجهد للحروب الخارجية؟ إن هدف البحث التاريخي ـ وكل بحث تاريخي ـ هو التعلم من التجربة الذاتية، ومعرفة مواطن الخطأ والصواب، والسير على هدى ـ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ ـ؟. وإذا لم يتعلم من تجربته الذاتية، فمن أية تجربة ستتعلم الأجيال؟ ولو لم يكن في التجربة العباسية غير هذا الدرس لكان حرياً بالبحث والدراسة وبذلك الجهد، فكيف وقد ضمّت التجربة العباسية دروساً ثرة في كل مجال؟. لقد ترك لنا الأجداد إرثاً ضخماً، وهو إرث احتفظ بكل قيمته، وبكامل أهميته، وقد دفع الأجداد ثمن هذا الإرث ثمناً غالياً من حياتهم ومن دمائهم ومن جهودهم وتضحياتهم، ومن أموالهم وثرواتهم. وقد يكون من ظلم الإنسان لنفسه ألا يفيد مما وصل إليه من الارث لتجنب صراعات قد برهنت التجربة التاريخية على عقمها. فالإسلام أقوى من اعدائه دائماً. والإسلام اسمى وأرفع من أن يناله متطاول. وعند هذه الحقيقة الثابتة، وعند ادراكها واستيعابها يتسامى المسلمون عن الاحتكام للسلاح في حل تناقضاتهم ـ إذا ما كان لتلك التناقضات حجّتها وذريعتها.

وتحتفظ التجربة العباسية بكثير من أهميتها في مجال فن الحرب، فهنا تظهر كفاءة القادة في تطوير مبادىء الحرب وتطبيقها بحسب المواقف والظروف، سواء في الحرب النظامية أو في الحروب الثورية ـ الداخلية ـ. ولقد حاول القادة عبر حوار الإرادات المتصارعة. إعطاء مبادىء الحرب اشكالاً متقدمة. وبالرغم من ذلك. فقد بقيت هذه المبادىء بصورتها المبسّطة وغير المعقّدة تعقيداً كبيراً، مما يساعد على إدراك ومعرفة هذه المبادىء بصورها الأساسية. وهذا بدوره مما يساعد على تقويم هذه المبادىء تقويماً

صحيحاً عند ربطها بما وصلت إليه في الأزمنة الحديثة من حيث التعقيد ومن حيث الأشكال المركّبة لهذه المبادىء، بحيث كان ارتباط هذه المبادىء بعضها ببعض ـ في أيام العصر العباسي كما هو اليوم ـ المقياس الصحيح لمعرفة الطريقة ـ أو النهج ـ التي سارت عليها هذه المبادىء في تطورها الى أن وصلت ما وصلته، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن استقراء عملية التطور والربط تظهر ذلك التلاحم الوثيق بين مبادىء الحرب ـ في القديم كما في الحديث، بحيث يؤدي النجاح في تطبيق مبدأ من المبادىء ـ مثل استخدام القدرة القتالية المتوافرة في الهجوم ـ الى تعزيز بقية المبادىء ودعمها. فيما يؤدي الفشل في تطبيق مبدأ من المبادىء ـ مثل اهمال مبدأ ضمان أمن القوات ـ الى فشل مركب في تطبيق بقية المبادىء وهكذا ترفد المعرفة التاريخية لهذا التطور القدرة على استنباط ما هو أكثر تعقيداً، وما هو أكثر تركيباً في أشكال هذه المبادىء وطرائقها ممّا يتناسب مع الظروف المستجدة باستمرار. وقد يكون من أول الأهداف في البحث التاريخي هو اكتساب المرونة الكافية لتلبية المتطلبات المستحدثة، وعدم الالتزام بالقوالب الفكرية الجامدة، أو الأخذ بهذه القوالب ـ التي تمثل المبادىء العسكرية ـ أو مبادىء الحرب ـ بشكلها المدرسي، وبعيداً عن جذورها المرنة.

إن هذه المرونة الفكرية التي تقدمها التجربة التاريخية ـ للعصر العباسي كما لكل عصر ـ لا تقتصر على مبادىء الحرب، بل تشمل كل معطيات الحرب وكافة اسسها ومقوماتها ـ وقد يكون في طليعتها تلك العلاقة بين المجتمع الإسلامي وقواته المحاربة من جهة، والقوات المحاربة بعضها مع بعض. ولقد ظهر في مرات كثيرة ذلك الموقف المتسامح الذي وقفه أمير المؤمنين من قادة الثورات الداخلية، حيث تجاوز كل ما ارتكبوه من جرائم وآثام بحق الأمة الإسلامية وأفسح لهم مجال التوبة والرجوع عن الخطأ ـ فتم بذلك اصلاح الآلاف وعشرات الآلاف ممن سارعوا لاغتنام الفرصة والتكفير عن جرائمهم بحق مجتمعهم. ومقابل ذلك، أظهر قادة الثورات عامة المزيد من التصلّب والمزيد من التشدد في علاقاتهم مع المجتمع الإسلامي، ممّا أكسبهم المزيد من العداء، أفلا يعتبر بعد ذلك ما أظهره قادة المسلمين من تسامح هو عاملاً من عوامل نجاحهم بينما كان الفشل من نصيب قادة الثورات بسبب تصلبهم وعنادهم؟

ألم تكن تلك العقلية المغلقة، هي العامل الأول في فشل قادة الحروب الثورية وعجزهم عن استثمار نجاحاتهم الأولى التي ما جاءت إلاّ بسبب ما أظهروه من المرونة عند انطلاقة ثورتهم؟.

إن الانفتاح الفكري للمجتمع الإسلامي ولقادة المسلمين والذي أمكن التعبير عنه ـ بكلمة التسامح ـ لم يكن حالة من الضعف أو التخاذل، وإنما كان ظاهرة ملازمة لسياسة الفتوح باستمرار. فلقد كان الهدف من الحرب هو الوصول الى غاية السلم. وبكلمة أكثر وضوحاً بناء المجتمع الإسلامي وحمايته ـ على نحو ما سبق ذكره ـ ومقابل ذلك فإن حالة الانغلاق الفكري التي عاشتها الحركات الثورية في المجتمع الإسلامي إنما كانت نتيجة طبيعية أيضاً لغاية الحرب. وهي هنا التدمير للمجتمع الإسلامي ـ العباسي ـ. فكان عدم التسامح والحقد والكراهية وسواها من الصفات الملازمة للتدمير والمعبرة عن الضعف في الفكر. فكان من المتوقّع، رغم تمكّن الحركات الثورية من البقاء والاستمرار لفترات متطاولة أن ينتهي بها الأمر الى الانتحار الذاتي والى الاضمحلال، حيث حملت في بذور حياتها عوامل موتها. وهذا الاقتران بين الفكر والقوة، بين الكتاب والسيف، هو من جملة ما يمكن استخلاصه أيضاً من تجربة الصراع المسلح في العهد العباسي.

إن حالة الانفتاح الفكري التي عرفتها الدولة العباسية وعاشتها، هي البرهان الأكثر وضوحاً على قوة الدولة العباسية ـ الإسلامية ـ وشبيه امر هذه الدولة بحال دول كثيرة مما هو معروف في الأزمنة الحديثة، فالدول العظمى قد تضم من المتناقضات ما لا يمكن حصره ـ فمشكلة الملونين في الولايات المتحدة الأمريكية، ومشكلات الأقليات الكثيرة في المجتمع الأمريكي والكندي والمجتمعات الغربية عامة ـ وبالرغم من ذلك، وبالرغم من التظاهرات التي تتكرر كل يوم والتي تضم مئات الألوف. وبالرغم من ظواهر العنف التي تصل الى حافة الثورة المسلحة، وبالرغم من تعاظم النزعات الاستقلالية في بعض الأقاليم ـ ايرلندا في بريطانيا والباسك في إسبانيا، فإن هذه الدول العظمى تخرج من أزماتها باستمرار وهي أوفر تماسكاً وأشد تلاحماً. ولقد وصل التمزّق في فرنسا على

اثر الثورة الجزائرية وانتصارها، ووصل الأمر في أمريكا على أثر انتصار الثورة الڤيتنامية الى خلق حالة من الانهيار التام على الجبهة الداخلية سواء في فرنسا أو في أمريكا. وظهر وقتها أنه من المحال إعادة ترميم هذين المجتمعين وإعادة التماسك إليهما. ولكن لم تمض أكثر من سنوات قليلة حتى عادت الجبهتان الداخليتان في الدولتين المذكورتين إلى أفضل مما كانتا عليه من قبل. بينما يتطور الأمر على النقيض تماماً في الدول الضعيفة أو الصغيرة. حيث تؤدي التناقضات الى تفجر صراعات دموية تبدأ من حيث لا يدري أحد، ثم لا أحد يعرف كيف تنتهي. ومثال ذلك الحرب اللبنانية، والحرب العراقية ـ الايرانية. ذلك أن مثل هذه الدول ـ الهشّة أو الضعيفة ـ تجد نفسها مختبراً للدول العظمى لتجربة النظريات والأسس والأسلحة الخ... ويؤدي هذا التدخل الخارجي الى ظهور مركبات يستعصي حلّها. بينما تبقى الدول الكبيرة ـ نسبياً ـ أكثر قدرة على حل مشكلاتها بنفسها، وعدم السماح للتيارات أو القوى الأجنبية للتدخل في شؤونها. وهكذا، وعلى الرغم من تضافر الجهود الخارجية والجهود الداخلية لإيقاف حركة الدولة العباسية ـ الإسلامية، وبالرغم من وفرة المعوقات والعقبات. فقد استطاعت المضي على نهجها، وأمكن لها ايجاد الوسائل للتغلب على كل عقبة من العقبات وتجاوز كل معوق من المعوقات. وهكذا بقيت الدولة العباسية على استطالة أمدها وعلى امتداد أجلها في حالات متناوبة من الصعود والهبوط، من القوة والضعف، من التماسك والتفكك، ولهذا كانت عرضة بصورة مستمرة لإعادة التنظيم في كافة أمورها الاجتماعية والاقتصادية والسكانية ـ الديموغرافية ـ شأنها في ذلك شأن كافة الدول العظمى التي عرفها العالم في القديم والحديث. ويشكل هذا التنوع والتباين في حد ذاته منهلاً ثراً للتعلم من رحاب التجربة التاريخية، ولئن حددت محاولات التعلم هنا من مجال (فن الحرب) مع ما يشتمله هذا الفن من مقومات اجتماعية واقتصادية وفكرية وتنظيمية، فإن للمجالات الأخرى أيضاً عطاءاتها الخيرة، والتي ترفد المعرفة بكل ما هو مفيد وممتع. ولكن لا بد من الإشارة الى ضرورة التمييز الواضح بين التعلم من التجربة التاريخية، وبين اسقاط خلاصة التجربة التاريخية على أحداث العصر. إذ ليس ما هو هناك أكثر خطراً من محاولة العيش في الماضي، لاسيما إذا كان هذا العيش يحمل

عوامل مدمرة أو لا تواكب متطلبات العصر. وعلى سبيل المثال: فإن تلك الحروب والصراعات المحدودة ـ او الحروب على الجبهة الداخلية، قد أخذت أشكالها من خلال ظروف زمنية ومكانية معينة ولا ريب أن المحاولات لبعث تلك الأشكال في ثوب متجدد، على نحو ما عرفته الساحة اللبنانية خلال سنوات الصراع المرير (١٩٧٥ ـ ١٩٨٦) والتي قد تستمر لحقبة أخرى هي محاولات عقيمة، إذ من المحال الأخذ بتجارب برهن التاريخ في تجاربه المتتالية على خطئها وعقمها. وصحيح أن تجارب الماضي تعيش في استطالات المستقبل، ولكن هل تعيش بأثوابها ومفاهيمها وقيمها على نحو ما كانت عليه. وعلى سبيل المثال: فقد كانت دولة الروم ـ البيزنطيين ـ تتاخم حدود الدولة العباسية ـ الإسلامية ـ فأين هي دولة الروم؟ بل أين هي دولة العباسيين ذاتها؟ ولقد كانت حركة القرامطة والتي أخذت بعد ذلك اسم حركة الحشاشين، قد نشرت فروعها من (ألموت) الى سائر أرجاء الدولة العباسية. فأين هي قاعدة الحشاشين؟ ثم هل سيقوم المغول ـ التتار ـ بغزوة جديدة من اعماق التيبت لتجتاح آسيا وأوروبا كالإعصار المدمر ـ في العصر النووي؟ وهل التكون الجديد للدول العربية ـ الإسلامية في ظل التجزئة، وفي عصر حكم الدولتين العظميين مماثل لما كان عليه في العصر العباسي عندما كانت هذه الدولة اعظم دولة في عصرها؟ وهل التكون السكاني ـ الديموغرافي ـ في الأزمنة الحديثة مماثل لما كان في العصر العباسي؟ تلك هي بعض المتغيرات لا كلها. وإن من يريد العيش بالماضي، متجاوزاً معطيات العصر، لن يتمكن من البقاء والاستمرار. وعلى هذا تبقى التجربة التاريخية هي الموجّه، وهي الدليل الذي يفسّر وينير ظلمات المستقبل المجهول، ولكن هذه التجربة لن تكون بحال من الأحوال هي الحاضر أو المستقبل.

١٠ ـ الحرية الفكرية والبحث التاريخي .

ما كان للتجربة العباسية أن تصل بكل دفئها وبكل تفاصيلها المثيرة لولا تلك الأمانة التي اشتهر بها المؤرخون من العرب المسلمين، ولولا ما توافر لهم من مناخ الحرية الفكرية التي سمحت بتسمية الأشياء والأحداث بأسمائها وبصفاتها وبوقائعها. ولقد كانت تلك الحرية الفكرية هي المناخ الذي ترعرعت فيه وازدهرت كافة العلوم النظرية والعملية، ومن بينها التاريخ، حيث كان المؤرخون يتعرضون لأحداث عصرهم دونما خوف أو تردد، وهم يذكرون للزنج أعمالهم وللقرامطة دورهم وللشيعة اعتقادهم وممارساتهم، وللدولة إنجازاتها وأخطاءها، وللخليفة أمير المؤمنين فضائله ونقاط ضعفه وحتى انحرافه أو تقصيره. وكل ذلك بدقة مثيرة، حتى لكأن الباحث يعيش تلك الأحداث، ويخالط أصحابها وصانعيها، فهل من غرابة أن استطاع الفكر العربي ـ الإسلامي ان يتطور وقد اتيحت له الفرصة للتطور في كل مجال من مجالات العلوم والآداب والفنون؟. لقد بات معروفاً في عالمنا المعاصر أنه من المحال تحقيق أي تطور أو إحراز أي تقدم في أي مجال من المجالات إن لم تتوافر مجموعة من العوامل تحتل الحرية الفكرية المرتبة الأولى منها. وإذن فليس باستطاعة الباحث في الأزمنة الحديثة، وبعد انقضاء زهاء عشرة قرون من عمر الزمن على تلك الأحداث التاريخية، أن يحاول الالتفاف من حول الأحداث أو اعطائها اسماء غير اسمائها تحت أية حجة ولأي سبب، أو الإشارة الى التسميات بحذر كبير، وعلى سبيل المثال: فإن ذكر الشيعة أو القرامطة او العلويين لا يعني بالضرورة ارتباط التسميات الحديثة بما كان سائداً في ذلك العصر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن استعراض أعمال المذاهب المختلفة يظهر أنها بدأت تحت ستار ديني ثم لم تلبث أن تحوّلت الى مذاهب فكرية سياسية. وذلك بدلالة اعتماد الخليفة أمير المؤمنين على نقيبين: نقيب للشيعة ونقيب للسنة. وكذلك الأمر بالنسبة للوزارة، حيث كان للخليفة العباسي وزير شيعي ووزير سني. وقد ظهر ان ما كان يحدث من انحراف وصراعات، إنما كان يعود للمرحلة

الزمنية التي اتاحت الفرصة لظهور تلك الصراعات بينما كانت هذه الصراعات تختفي عندما كان يمسك بالسلطة رجل قوي. وطالما ان القضية المذهبية قد تحوّلت الى قضية سياسية، أو قضية حكم، فقد يكون من غير الطبيعي الانتصار لقضية سياسية مضى عليها من الزمن أكثر من عشرة قرون.

لقد بات معروفاً أن مؤرخي المسلمين لم يكونوا جميعاً متّفقين على التعاطف مع هذا الخليفة أو ذاك. ولم يكونوا كذلك من المؤيدين لهذا القائد أو ذاك. بل كانوا أحياناً ضد هذا المذهب وضد أصحابه، ولكن ذلك لم يمنعهم من ذكر الحقائق كما نقلت إليهم من ثقاة الرواة أو على نحو ما عاشوها وسمعوها، بل كثيراً ما اتخذوا مواقف إيجابية في تسجيلهم لأحداث من يخاصمون ومن يعارضون، وكثيراً ما امتدحوا اعمال اعدائهم حتى لو كان هؤلاء من الروم أو من سواهم. ولقد أثارت هذه الحرية الفكرية مؤرخي الغرب وباحثيهم، حتى في الأزمنة الحديثة. وأقبلوا على التعامل مع مصادر التاريخ العربي ـ الإسلامي بما تستحقه من الاكبار والإجلال.

ويعود الإنسان العربي ـ المسلم، ويقف ذاهلاً أمام الأوابد التي تركها الأجداد، ويتساءل بصدق: هل كان بالمستطاع الوصول الى معرفة تلك الحقائق التاريخية، وهل كان بالمستطاع الإفادة منها واستنباط الدروس منها، لو لم تتوافر للأجداد تلك الحرية الفكرية؟ وإذن فمن الوفاء لإرث الأجداد، ومن الوفاء لجهد الأجداد بذل كل جهد مستطاع لمعالجة ما خلفوه ببعض من حرية الفكر التي توافرت لهم. وذلك بصرف النظر عن كل ما يقال من ـ الحساسيات والنعرات ـ.

لقد حاول الباحثون ـ المستشرقون والمستغربون ـ الإفادة مما تضمنه التاريخ العربي ـ الإسلامي للعصر العباسي. من حقائق للأخذ بما يسيء للإسلام والمسلمين ـ بحسب اعتقادهم ـ مع اغفال الإيجابيات او التعرض لها من بعيد وبشكل عرضي. ولكن هل كان باستطاعة مؤرخي المسلمين الاقتصار في تسجيلهم لأحداث التاريخ على كل ما هو جيد وكل ما هو إيجابي، وذلك حتى لا يجد أعداء الإسلام والمسلمين مطعناً أو مأخذاً يأخذونه على الإسلام وأهله؟ ولكن ماذا سيبقى من الحقيقة التاريخية إن اقتصرت على جانب واحد وإغفال بقية الجوانب؟ وهل يعمل مؤرخو الأزمنة الحديثة على سبيل

المثال ـ ذكر ما هو إيجابي فقط في حرب القوات الأمريكية في كوريا وڤيتنام ـ ام أنهم يعالجون السلبيات قبل تعرّضهم للإيجابيات؟ ثم هل أدى ذكر هذه السلبيات الى تطور أفضل ام أنه جاء بنتائج أسوأ؟ عند الإجابة على هذه التساؤلات وأمثالها يظهر فضل مؤرخي العرب المسلمين، ليس على الأجيال التالية من العرب المسلمين وإنما على الإنسانية جمعاء حيث قدم مؤرخو العرب المسلمين، للإنسانية تجربة حيّة عاشت قروناً عديدة وحفلت بكل ما هو جدير بالتعلم من تلك التجربة، بسلبياتها وإيجابياتها، بقوتها وضعفها، بكل ما لها وما عليها.

لقد تضمنت قصص القرآن الكريم ما حدث في بدر وحنين وسواهما من أخطاء. وما ارتكبه المسلمون، وما كانت عليه نفوسهم، فهل ضرّ ذلك المسلمين او آذاهم؟ وهل كان باستطاعة مؤرخي المسلمين وأكثرهم ـ إن لم يكونوا جميعاً ـ من الفقهاء والعلماء أن يخرجوا عن نهج القرآن الكريم في بحثهم وتسجيلهم لأحداث التاريخ؟. وهل باستطاعة الخلف الخروج على نهج السلف الصالح؟. أم أن السلف مطالبون بممارسة عملهم بأكثر ممّا كان ملزماً به السلف، نتيجة تطور القيم الحضارية؟

وبعد، فلطالما تعرضت تجربة العصر العباسي للكثير من الطمس والتغيير والتحوير، وجاء المفسّرون من المذاهب المختلفة والمحلّلون من المشارب المتباينة، ليعطوا أحداث ذلك العصر تفسيرات وتحاليل هي أكبر ـ أو أصغر ـ مما تحتملها. ويأتي فن الحرب بعوامله المتكاملة ليقدم التجربة التاريخية بأحداثها الواقعية، وليفسرها تفسيراً علمياً عند ربطها في إطاريها الزمني والمكاني، بمجموعة التطورات السابقة أو اللاحقة لها. وبذلك يزول كل لبس أو غموض قد يأتي عند التعامل مع الجزئيات فقط، وخاصة عندما توضع هذه الجزئيات بعيداً عن إطاريها الزمني والمكاني.

لقد ساء بعض أعداء الإسلام والمسلمين ما تضمنته التجربة التاريخية للعصر العباسي من إيجابيات، فمضوا في مكابرتهم الى حد إنكار التجربة التاريخية ذاتها، مع إثارة الشكوك بصحة ما لا يمكن الطعن بصحّته، وليست القضية هي قضية الدفاع عن التجربة التي مضت وانقضت، وإنما هي قضية محاولة فصل الأمة العربية ـ الإسلامية عن جذورها التاريخية التي قدمت للإنسانية كل عطاء خير. ولا يضر التجربة التاريخية

إن هي أهملت، إذ تبقى تجربة إنسانية وواقعية رغم كل جحود لها. وإنما تضر الأجيال ذاتها عندما تنفصل عن جذورها، فتجفّ منها الأوراق، وتنقطع عنها الثمار، وتسير بالتالي الى الفناء.

وتبقى التجربة التاريخية ليست خيراً كلها، وليست شرّاً كلها، فيها ما هو جدير بالتعلم، وفيها ما هو جدير بالتأمّل، وفيها ما قد تجاوزه الزمن. ولكن ليس من واجب الباحث الإعراض حتى على ما تجاوزه الزمن، إن كان فيه دروس تحتفظ بقيمتها وأهميتها. فليس هدف البحث التاريخي هو المتعة، وإنما الفائدة المقترنة بالمتعة.

لقد اتهم التاريخ الإسلامي ـ ظلماً ـ بأنه تاريخ الخاصة، واتهم التاريخ في العصر العباسي ـ بخاصة ـ بأنه تاريخ الانتصارات فقط. وأن المسلمين في تاريخهم لا يعترفون بالهزيمة. وفي الواقع فإن في مثل هذه الأقوال كثير من الظلم للتاريخ الإسلامي عامة وتاريخ العصر العباسي بخاصة، فقد حرص مؤرخو المسلمين على ذكر الانتصارات والهزائم على حد سواء. بل إنهم ذهبوا الى أبعد من ذلك عندما عالجوا أسباب الإنتصارات والهزائم. في إطار من المفاهيم الثابتة التي تنطلق ـ أو تلتزم ـ بحرية الفكر، ممّا أتاح لهم الإفادة من تجاربهم الذاتية. وقد ظهر ذلك في مرات كثيرة عند عرض الأحداث ـ في الفصلين الأول والثاني ـ. وهذه التجارب الذاتية هي الأشد لصوقاً والأوثق إحكاماً بواقع الأمة العربية ـ الإسلامية. وقد يكون من غير الطبيعي استلهام الدروس والعبر من تجارب بقية الأمم، وخاصة في مجال فن الحرب ـ وإهمال التجربة الذاتية التي توافرت لها من الدقة ومن الأمانة ومن الشمول، ما تفتقر إليه بقية التجارب، سواء منها القديمة أو الحديثة. وقد يكون باستطاعة القارىء أو الباحث التأكد من هذه الحقيقة عند التعرف على تجربته الذاتية. والإنسان عدو ما يجهل.

١١ ـ الأيام الأخيرة للعصر العباسي.

تم التوقف عند عرض الأحداث بابتداء الحروب الصليبية. ومعروف أن الدولة العباسية قد استمرت خلال هذه الحروب، وكان لها دورها الموجه للأحداث، مما سيدخل في تاريخ الحروب الصليبية - غير أنه بالإمكان القفز من فوق تلك الفترة للوصول الى الأيام الأخيرة التي عاشتها الدولة العباسية.

كانت قوات المغول ـ التتار ـ قد اجتازت نهر جيحون ـ أموداريا حالياً ـ في شهر كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٥٦ م (٦٥٤ هـ) بقيادة هولاكو ـ الذي كان يعتنق ديانة أجداده ـ الشامانية ـ فيما كانت زوجته طقزخاتون قد اعتنقت المسيحية ـ النسطورية وكانت شديدة الحقد على الإسلام بتحريض الفرنج وقساوستهم. وقد حدد هولاكو هدفه الأول بالاستيلاء على قاعدة الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ الذين كانوا قد اغتالوا ثاني أبناء جنكيزخان ـ جغتاي ـ وكانت بغداد هي الهدف الثاني لتحرك هولاكو ـ على أن يتابع الجيش المغولي بعد ذلك تحركه لاجتياح بلاد الشام والقضاء على الإسلام، ونصرة الفرنج الصليبيين. وتم إعداد كل شيء بدقّة وعناية، فتقرر إصلاح الطرق التي تجتاز تركستان وبلاد فارس، وجرى تشييد الجسور، وتجهيز العربات اللازمة لجلب أدوات الحصار من الصين، وخلت المروج من القطعان، حتى تبقى الأعشاب اللازمة لخيول الجيش المغولي. واصطحب هولاكو معه زوجته طقزخاتون وزوجتين أخريين وولديه الكبيرين، وأرسلو باطو ـ الذي كان قد أسلم هو وقبيلته الذهبية ـ ثلاثة من أبناء أخيه فلحقوا بالجيش المغولي في فارس. وقدمت كل قبيلة من قبائل الحلف المغولي خمس رجالها المقاتلين. واشترك في الحملة نحو من ألف من الرماة الصينيين الذين برعوا في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار. وكان قد حدث قبل ثلاث سنوات أن جرى إرسال جيش لتمهيد الطريق، وتولى قيادته أقرب القادة الى هولاكو ـ وأعظمهم موطناً لنفسه ولثقته ـ وهوكتبغا النسطوري الذي ينتمي الى عنصر النايمان والذي شاع أنه ينحدر من حكماء الشرق الثلاثة. والمعروف أن كتبغا أعاد

سلطة المغول على المدن الكبيرة بهضبة ايران، واستولى على بعض معاقل الإسماعيلية وقلاعهم قبل قدوم هولاكو. وقد حاول زعيم الإسماعيلية ـ ركن الدين خورشاه ـ أن يدرأ الخطر بما لجأ إليه من مؤامرات دبلوماسية، وأساليب مختلفة لصرف المغول عن أهدافهم، غير أن هولاكو مضى نحو أهدافه بتصميم وعناد. وتحرك بصورة بطيئة وعنيفة فاجتاز ديموند وعبّاس آباد ووصل الى الوديان التي كان قد اتخذها الإسماعيلية مستقراً لهم. ولما ظهر الجيش الضخم أمام عاصمة الإسماعيليين ـ قلعة آلموت ـ وأخذ يضيق الحصار على القلعة، لم يسع ركن الدين إلاّ التسليم، فقدم بنفسه في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٢٥٦ م إلى خيمة هولاكو. وأعلن خضوعه وإذعانه. غير أن قائد حامية القلعة رفض تنفيذ ما أصدره إليه ركن الدين من أوامر لتسليم القلعة. فسقطت عنوة بعد بضعة أيام. وتلقى ركن الدين وعداً من هولاكو بالإبقاء على حياته، غير أنه طلب إليه التوجه الى قراقورم، لعله يحصل من الخان الكبير منكو على شروط أفضل من تلك التي أعطاه إياها هولاكو. ولكن عندما وصل ركن الدين الى قراقورم، رفض منكو مقابلته، وقال إنه من الخطأ إرهاق خيولنا الجيدة في هذه السفارة التافهة، على أن اثنين من حصون الإسماعيلية ـ وهما جردوه ولمبوذر ـ امتنعا على المغول، فجرى إخطار ركن الدين بالعودة الى فارس لحملها على الاستسلام. ولكن ركن الدين لقي مصرعه مع أصحابه اثناء مسيره خائباً على طريق العودة. وصدرت الأوامر في الوقت ذاته الى هولاكو بالقضاء على الإسماعيلية وإبادتهم. وتقرر ارسال عدد من أقارب زعيم الإسماعيلية ركن الدين الى ابنة جغتاي ـ سالقان خاتون ـ كيما تنتقم منهم لمصرع أبيها، بينما تم استدعاء آخرين بحجة إحصاء عددهم، ودارت فيهم مذبحة هلك فيها الألوف منهم. ولم تنته سنة ١٢٥٧ م حتى لم يبق إلاّ عدد قليل من اللاجئين في جبال فارس.

أما الإسماعيلية في بلاد الشام. فإنهم لم يكونوا في متناول منكو. ومع ذلك فإنهم باتوا يعرفون مصيرهم إذا ما وصلت إليهم يد المغول. وكان الإسماعيلية يحتفظون بقلعة آلموت بمكتبة ضخمة ضمت كتباً متنوعة في علوم الفلسفة والتنجيم والدين. فأرسل هولاكو حاجبه المسلم ـ عطا الملك الجويني ـ ليفحصها، فأخرج منها ما صادفه من نسخ القرآن الكريم، وسائر الكتب ذات القيمة التاريخية والعلمية، وأمر بإحراق بقية كتب

الإلحاد والكفر. ومن المصادفات الغريبة أن شب حريق كبير في تلك الفترة سببه البرق، فأحرق المكتبة وما ضمته.

لما فرغ هولاكو من استئصال الإسماعيلية من بلاد فارس، تحرك مع الجيش المغولي لمهاجمة بغداد. وكان الخليفة العباسي المستعصم بالله ابن المستنصر بالله ـ الثالث والثلاثين من خلفاء بني العباس ـ قد نجح في إعادة تنظيم الدولة ودعمها. إلاّ أنه كان يعتمد على وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان خصماً للحاجب السني ايبك. وكان باستطاعة الخليفة العباسي حشد جيش من مائة وعشرين ألف فارس، غير ان مؤيد الدين بن العلقمي اقترح عدم الاعتماد على الجيش ـ الذي لم يكن يثق به ـ وصرف الأموال لرشوة هولاكو وصرفه عن مهاجمة بغداد. غير أن هولاكو رفض قبول الاتاوة ما لم تقترن باعتراف الخليفة بسيادة المغول على الخلافة الإسلامية. ورفض الخليفة المستعصم بالله طلب هولاكو رفضاً شديداً، ولم يبق إلاّ الحرب. وهنا رجحت كفة الحاجب السني ايبك. الذي أخذ في الإعداد للحرب. وتحدث هولاكو إلى رجال الحملة في شيء من الاضطراب والقلق، إذ لم يجمع منجموه على ان النصر سوف يكون حليف الحملة. وكان يخشى الخيانة من قبل أتباعه المسلمين وتدخل أمراء دمشق ومصر. غير أن ما اتخذه من تدابير ضد ما أسماه خيانة المسلمين وغدرهم به كانت قوية وفعالة. فما كان امراء دمشق ومصر قد شغلتهم الحروب مع الفرنج وصرفتهم عن نجدة بغداد. وفي تلك الفترة ازداد جيش هولاكو قوة بوصول بعض الكتائب من القبيلة الذهبية ـ وبقدوم الجيش الذي ظل بيجو ـ يحتفظ به على أطراف الأناضول في السنوات العشر الأخيرة. بالإضافة الى كتيبة من فرسان الكرج الذين تلهفوا على مهاجمة عاصمة المسلمين.

تحرك الجيش المغولي الضخم من قاعدته في همذان خلال الأيام الأخيرة من سنة ١٢٥٧ م وعبر بيجو بجيشه نهر دجلة عند الموصل. وسار إزاء الشاطىء الغربي للنهر. أما كتبغا فقد تولى قيادة الجناح الأيسر للجيش المغولي، ودخل سهل العراق الواقع شرقي بغداد مباشرة، بينما زحف هولاكو ومعه الكتلة الرئيسة للجيش ـ القلب ـ فاخترق كرمان شاه. وتولى ايبك قيادة جيش المسلمين وسار به لقتال هولاكو. وعبر

به نهر دجلة، ولكنه لم يكد يمضي بعيداً حتى علم بانحدار جيش بيجو واقترابه من شمالي ـ غربي بغداد، فاضطر لعبور دجلة من جديد، وباغت المغول قرب الأنبار على بعد خمسين كيلو متراً تقريباً من بغداد ـ وهاجمهم بعنف يوم ١١ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) مما أرغم بيجو وجيشه على التراجع. وتقدم جيش العرب المسلمين خلف المغول التتار في أرض حافلة بالمستنقعات. وأفاد بيجو من ذلك فأرسل العمال الفعلة الى ما وراء جيش المسلمين لقطع السدود والجسور القائمة على نهر الفرات، وتجدد القتال في اليوم التالي ووجد ايبك نفسه مرغماً على التراجع نحو الحقول المغمورة بالمياه وطوقه المغول. فأبادوا جيش المسلمين، وتمكن أيبك من النجاة بنفسه وركب النهر الى بغداد. فيما لجأ من نجا من جيشه الى البادية.

ظهر هولاكو أمام الأسوار الشرقية لمدينة بغداد يوم ١٨ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) وتعرضت المدينة لهجوم من كل الجهات بعد إقامة جسور من القوارب على نهر دجلة وذلك في يوم ٢٢ كانون الثاني ـ يناير ـ وقاومت قوات المسلمين ببطولة رائعة هجمات المغول ـ التتار ـ وأوقعت بالمغول خسائر كبيرة، فيما استمرت الهجمات من أعلى المدينة وأسفلها. والمعروف أن بغداد تقع على ضفتي نهر دجلة. وكان القطاع الغربي الذي ضم المنازل الاولى للخلفاء العباسيين، أقل أهمية من القطاع الشرقي الذي ضم مباني أجهزة الدولة. ولهذا ركز المغول التتار هجماتهم على الأسوار الشرقية. وقد حاول المستعصم إنقاذ عاصمة المسلمين من اجتياح المغول لها. فأرسل في نهاية شهر كانون الثاني ـ يناير ـ وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي والذي بقي مدافعاً عن سياسة المصالحة مع المغول، كما أرسل معه البطريرك النسطوري، وذلك للتفاوض مع هولاكو. غير أن هولاكو لم يقابل الرسولين، وردهما الى بغداد، فيما كان الصراع المرير مستمراً، وأخذ السور الشرقي لبغداد في التداعي بعد ان تعرض للقذف الشديد في الأسبوع الأول من شهر شباط ـ فبراير ـ حتى إذا ما كان يوم ١٠ شباط ـ فبراير ـ بدأت جموع المغول في التدفق الى داخل المدينة. وتقدم الخليفة المستعصم بالله ومعه كبار قادته ورجال دولته الى هولاكو الذي أمر بقتلهم جميعاً، ما عدا الخليفة الذي احتفظ به الى أن دخل المدينة ونزل بقصره فأمر بقتله

(يوم ١٥ شباط ـ فبراير). وأثناء ذلك بقيت المذابح مستمرة في جميع انحاء المدينة، وتعرض للقتل على السواء اولئك الذين بادروا الى التسليم، واولئك الذين حملوا السلاح وقاتلوا. وهلك النساء والأطفال مع رجالهم، وعثر أحد المغول في أحد الشوارع الجانبية أربعين طفلاً حديثي الولادة، فأجهز عليهم ـ رحمة بهم ـ. وأظهر عساكر الكرج ما اختزنوه من حقد على المسلمين، فكانوا أول من اقتحم الأسوار، وأكثر من مارس القتل والذبح، فهلك في أربعين يوماً نحو ثمانين ألفاً من سكان بغداد. ولم يبق على قيد الحياة إلا فئة قليلة ساعدها الحظ فلم يكتشف المغول الحواصل التي اختبأوا فيها، فضلاً عن عدد من الغلمان والفتيان الذين أخذوا أرقاء. وكذلك الجالية المسيحية التي لم يتعرض لها أحد بسوء. وتابع المغول اعمال النهب والقتل والتدمير. فتم إتلاف آلاف الكتب الثمينة التي تجمعت في مكتبات بغداد على امتداد قرون. وألقي بالكتب والمخطوطات في دجلة، وبلغت رائحة الجثث المتعفنة بالمدينة من النتن ما دفع هولاكو الى سحب جيشه من بغداد في نهاية شهر آذار ـ مارس ـ ١٢٥٨ خوفاً من التعرض للوباء. وصار بحوزة هولاكو وجنده ما ضمته عاصمة المسلمين من ثروات وكنوز تجمعت فيها خلال مئات السنين. وأرسل هولاكو قسماً كبيراً من الغنائم الى أخيه الخان الكبير منكو، وانسحب راجعاً الى همذان. وسار منها الى اذربيجان حيث شيد قلعة منيعة في (شها ـ على شاطىء بحيرة أرمية) وجعل منها مستودعاً لكل ما استحوذ عليه من الذهب والجواهر الثمينة. وجعل على بغداد والياً هو الوزير الشيعي السابق مؤيد الدين بن العلقمي. أما البطريرك النسطوري ـ ماكيكا ـ فغمره هولاكو بالاحباس، وجعل له أحد قصور الخلفاء مقراً وكنيسة. وأخذت بغداد في استعادة نظافتها رويداً رويداً، غير أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة اقليمية لا يتجاوز حجمها مقدار عشر حجمها السابق.

ابتهج المسيحيون في كل مكان بآسيا لذيوع نبأ تدمير بغداد، وكتبوا وهم في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، وهلّلوا لهولاكو وطقزخاتون واعتبروهما قسطنطين وهيلانة، وأنهما ليسا إلاّ أدوات الله للانتقام من المسلمين. هذا فيما اجتاحت العالم الإسلامي موجة عميقة من الحزن والغضب. فلقد حوصر المسلمون بالفرنج والمغول

وظهر للحظة ان العالم الإسلامي قد وصل الى نهايته. وتابع المغول اجتياح بلاد الشام، يخربون ويدمّرون ويقتلون، واصطدموا بمقاومة ضارية وخاصة في حلب وحارم ودمشق. وأثناء ذلك تقدم جيش المسلمين من مصر، وخاض معركة (عين جالوت) التي مزقت ولأول مرة جيش المغول، وانتهت بقتل القائد كتبغا ومعظم جيشه. وأعقب ذلك خلاف بين المغول ذاتهم حيث غضب المسلمون ـ من القبائل الذهبية ـ لما نزل بإخوانهم المسلمين في كل مكان ووقع الصدام بين الخان بركة الذي اخذ في اضطهاد المسيحيين، وانتصرت قوات الخان بركة على جيش هولاكو ـ وزال الخطر الذي كان يتهدد المسلمين الذين انتقلوا بقيادة الظاهر بيبرس للهجوم على الفرنج وبقايا التتار.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. صدق العظيم - سورة الحشر - الآية ١٠.

قــــراءات

خلفاء الصدر العباسي

- ١ - أبو العباس السفاح.
- ٢ - أبو جعفر المنصور.
- ٣ - المهدي.
- ٤ - الهادي.
- ٥ - الرشيد.
- ٦ - الأمين.
- ٧ - المأمون.
- ٨ - المعتصم.
- ٩ - الواثق بالله.
- ١٠ - المتوكل على الله.

١ ـ أبو العباس السفاح
١٠٠ ـ ١٣٦ هـ = ٧١٨ ـ ٧٥٣ م.

هو عبدالله بن محمد ـ أبو العباس ـ أول خلفاء العباسيين؛ أوصى له أخوه ابراهيم ابن محمد بالخلافة من بعده؛ بويع له بالخلافة أول ما بويع في مسجد الكوفة؛ وهو الذي أطلق على نفسه اسم (السفاح) عندما أنهى خطابه في المسجد بقوله: «يا أهل الكوفة؛ أنتم أهل محبتنا ومنزل مودّتنا؛ أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك؛ ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم؛ حتى أدركتم زماننا؛ وأتاكم الله بدولتنا؛ فأنتم أسعد الناس بنا؛ وأكرمهم علينا؛ وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم؛ فاستعدوا؛ فأنا السفّاح المبيح والثائر المبير»(★). وقد انصرف بعد مبايعته للقضاء على بني أمية؛ وذكر ان أحد زعماء الدعوة العباسية ـ سديف ـ دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك، وقد أكرمه، فقال سديف:

لا يغرنـك مـا تـرى مـن رجـال ... إن تحـت الضلـوع داء دويـا
فضع السيـف وارفـع السـوط حتى ... لا تـرى فـوق ظهرهـا أمـويـا

فقال سليمان: «قتلتني يا شيخ» ودخل السفاح؛ وأخذ سليمان فقتل. ودخل شبل بن عبدالله مولى بني هاشم على عبدالله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام؛ فأقبل عليه شبل؛ فقال:

أصبـح الملـك ثـابـت الآسـاس ... بـالبهـاليـل مـن بني العبـاس
اطلبـوا وتـر هـاشم فشفـوهـا ... بعـد ميـل مـن الزمـان وبـاس
لا تقيلـن عبـد شمس عثـاراً ... واقطعـن كـل رقلـة وغـراس
ذلهـا أظهـر التـودد منهـا ... وبهـا منكـم كحـر المواسـي
ولقـد غـاظني وغـاظ سـوائـي ... قـربهم مـن نمارق وكـراسي

(★) تاريخ الطبري ٤٢٦/٧ والكامل في التاريخ ٣٣٣/٤ ـ ٣٣٤.

أنـــزلـــوهـــا بحيـــث أنـــزلها اللـــه بـــدار الهـــوان والأتعـــاس
واذكـــروا مصـــرع الحسيـــن وزيـــداً وقتيـــلاً بجانـــب المهـــراس
والقتيـــل الذي بحـــران أضحـــى ثـاويـــاً بين غـــربـــة وتنـــاسي.

فأمر بهم عبدالله فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط عليهم الأنطاع؛ فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً. ونبشت قبور بني أمية بدمشق؛ واستصفى السفاح أموالهم. فلما فرغ منهم قال:

بني أميـــة أفنيـــت جمعكـــم فكيـف لي منكـم بـالأول الماضي.
يطيـب النفس أن النـار تجمعكـم عوضتم مـن لظـاهـا شر معتـاض.
منيتم لا أقـــال الله عثرتكـــم بليـث غـاب إلى الأعـداء نهاض.
إن كان غيظي لفوت منكم فلقـد منيـت منكـم بما ربي بـه راض.

وتوفي أبو العباس بالأنبار وله ثلاث وثلاثون سنة ومدة ولايته أربع سنين ـ من مبايعته ـ.

٢ ـ أبو جعفر المنصور
٩٥ - ١٥٨ هـ = ٧١٣ - ٧٧٤ م

ثاني خلفاء بني العباس؛ وصف بأنه كان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج الى الناس وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان. فإذا لبس ثوبه؛ اربد لونه؛ واحمرّت عيناه؛ وقال يوماً لأهله وخاصته: إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي؛ فلا يدنون مني منكم أحد مخافة ان أغره بشيء. ولم ير في دار المنصور لهو ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث. **وقال المنصور: «ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم: هم أركان الدولة؛ ولا يصلح الملك إلاّ بهم. أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم. والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية؛ فإني عن ظلمها غني. ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة: آه؛ آه؛ قيل ما هو يا أمير المؤمنين؟. قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة».**

كان شغل المنصور في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف؛ وأمن السبيل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهديهم. فإذا صلى العصر؛ جلس لأهل بيته. فإذا صلى العشاء الآخرة؛ جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق؛ وشاور سماره. فإذا مضى ثلث الليل؛ قام الى فراشه وانصرف سماره؛ وإذا مضى الثلث الثاني قام فتوضّأ وصلى حتى يطلع الفجر. ثم يخرج فيصلي بالناس؛ ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

وأوصى المنصور ابنه المهدي بقوله: «يا بني! لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه؛ فإن فكر العاقل مرآته تريه حسنه وسيئه. يا بني! لا يصلح السلطان إلاّ بالتقوى؛ ولا تصلح رعيته إلاّ بالطاعة؛ ولا تعمر البلاد بمثل العدل؛ وأقدر

الناس على العفو أقدرهم على العقوبة؛ وأعجز الناس من ظلم من هو دونه. واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره. يا أبا عبدالله! لا تجلس مجلساً إلاّ ومعك من أهل العلم من يحدثك. ومن أحب أن يحمد أحسن السيرة؛ ومن أبغض الحمد أساءها؛ وما أبغض الحمد أحد إلاّ استذم؛ وما استذم إلا كره. يا أبا عبدالله! ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه، بل العاقل الذي يحتال للأمر حتى لا يقع فيه».

وخطب المنصور يوماً؛ فقال: «الحمدلله؛ أحمده وأستعينه؛ وأؤمن به وأتوكل عليه؛ وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له» فاعترضه إنسان فقال: «أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به». فقطع الخطبة ثم قال: «سمعاً؛ سمعاً؛ لمن حفظ عن الله؛ وأعوذ بالله أن أكون جبّاراً عنيداً؛ أو تأخذني العزة بالاثم؛ لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين. وأنت أيها القائل؛ فوالله ما أردت بهذا القول الله؛ ولكنك أردت ان يقال: قام فقال فعوقب فصبر. وأهون بها ويلك؛ لقد هممت؛ واغتنمها إذ عفوت؛ وإياك وإياكم معاشر المسلمين أختها، فإن الحكمة علينا نزلت؛ ومن عندنا فصلت؛ فردّوا الأمر إلى أهله توردوه موارده وتصدروه مصادره» ثم عاد إلى خطبته كأنما يقرؤها.

وكتب رجل إلى المنصور يشكو بعض عمّاله؛ فوقع إلى العامل في الرقعة: «إن آثرت العدل صحبتك السلامة؛ وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة؛ فأنصف هذا المتظلم من الظلامة». وكتب صاحب أرمينية إلى المنصور يخبره أن الجند قد شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال؛ فوقع المنصور في كتابه: «اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً. فلو عقلت لم يشغبوا؛ ولو قويت لم ينهبوا».

قال يزيد بن عمر بن هبيرة: «ما رأيت رجلاً قط في حرب ولا سمعت به في سلم أنكر ولا أمكر ولا أشد تيقظاً من المنصور؛ لقد حصرني تسعة أشهر ومعي فرسان العرب؛ فجهدنا بكل الجهد أن ننال من عسكره شيئاً فما تهيأ؛ ولقد حصرني وما في رأسي شعرة بيضاء؛ فخرجت إليه وما في رأسي شعرة سوداء» قيل: وأرسل ابن هبيرة

الى المنصور وهو محاصره يدعوه الى المبارزة؛ فكتب إليه: «إنك متعد طورك؛ جار في عنان غيك؛ يعدك الله ما هو مصدقه؛ ويمنيك الشيطان ما هو مكذبه؛ ويقرب ماالله مباعده؛ فرويداً يتم الكتاب أجله، وقد ضربت مثلي ومثلك: بلغني أن أسداً لقي خنزيراً؛ فقال له الخنزير: قاتلني. فقال الأسد: إنما أنت خنزير ولست بكفء لي ولا نظير؛ ومتى قاتلتك فقتلتك قيل لي: قتل خنزيراً، فلا أعتقد فخراً ولا ذكراً؛ وإن نالني منك شيء كان سبة علي. فقال الخنزير: إن لم تفعل أعلمت السباع أنك نكلت عني. فقال الأسد: احتمال عار كذبك عليَّ أيسر من لطخ شرابي بدمك».

أتي المنصور برجل من بني أمية، وسأله: «من أين أتي بنو أمية؟» قال: «من تضييع الأخبار» فأراد المنصور ان يستعين في الأخبار بأهل بيته فقال: أضع منهم. فاستعان بمواليه (*).

كان أول عمل قام به المنصور عندما ولي إمرة المسلمين، هو قتله لأبي مسلم الخراساني؛ وكان المنصور يجد في هذا الرجل خطراً على الدولة العباسية؛ وعلى سلطة أمير المؤمنين. فمن هو هذا الرجل؟ كان الإمام محمد بن علي بن عبدالله بن عباس؛ قد نشر دعاته في خراسان؛ وأوصى بالإمامة من بعده الى ابنه إبراهيم بن محمد. وقد عرف ابراهيم (أبو مسلم) الذي كان من سواد الكوفة ـ وكان قهرمانا لادريس بن معقل العجلي ـ. وقدر فيه إمكاناته وكفاءته، وزوجه ابنة أبي النجم وساق عنه صداقها؛ ووجهه الى خراسان؛ غير أن النقباء ـ الدعاة ـ لم يعترفوا به لصغر سنّه؛ إلاّ أنهم اضطروا للقبول به بعد أن أوصاهم الإمام ابراهيم بن محمد بقبوله والاعتراف به. وقيل إن أبا مسلم قد حمل وصية الإمام إبراهيم؛ وجاء فيها:

«يا عبدالرحمن! إنك رجل منا أهل البيت؛ فاحفظ عني وصيتي: انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم. وحل بين أظهرهم؛ فإن الله لا يتم هذا الأمر إلاّ بهم؛ وانظر هذا الحي من ربيعة؛ فاتهمهم في أمرهم. وانظر هذا الحي من مضر؛ فإنهم العدو القريب

(*) تاريخ الطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير ـ سيرة المنصور ـ أحداث سنة ثمان وخمسين ومائة.

الدار. **فاقتل من شككت في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء. وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل؛ فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله»**. ومضى أبو مسلم متذرعاً بهذه الوصية، وأظهر دهاء كبيراً في توجيه العرب لقتل بعضهم بعضاً في خراسان؛ فيما تفرغ هو لتصفيتهم - **حتى قتل في دولته وحروبه صبراً ستمائة ألف عربي -**. وكان هناك من حذر ربيعة واليمنيين من الاقتتال؛ وأن يوجهوا جهدهم لحرب أبي مسلم فلم ينتفعوا من التحذير، ومن ذلك ما قاله نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن … أن اغضبوا قبل ألا ينفع الغضب.
ما بالكم تنشبون الحرب بينكم … كأن أهل الحجى عن رأيكم غُيبُ.
وتتركون عدواً قد أحاط بكم … ممن تأشب لا دين ولا حَسَبُ.
لا عرب مثلكم في الناس تعرفهم … ولا صريح موال إن همو نسبوا.
من كان يسألني عن أهل دينهم … فإن دينهم أن تهلك العرب.
قوم يقولون قولاً ما سمعت به … عن النبي ولا جاءت به الكتب.

وعندما انتصرت الدعوة العباسية؛ وجاء ابو العباس الى الكوفة ليأخذ البيعة من أهلها؛ وكان قد قتل الإمام ابراهيم بن محمد - قتله الامويون بالسجن والسم - أراد أبو سلمة الخلال - كبير دعاة العباسيين صرف الخلافة عن العباسيين وإعطاءها إلى الهاشميين أو الطالبيين؛ ولم يكن أبو العباس السفاح أو أخوه أبو جعفر المنصور يجهلان نوايا هؤلاء الدعاة الخراسانيين من ضرب العرب بعضهم ببعض. وأراد ابو العباس قتل أبي سلمة الخلال. غير أن - داود بن علي - نصح أبا العباس بألا يفعل؛ وأن يكتب بذلك إلى أبي مسلم. ففعل. وقام أبو مسلم بقتل أبي سلمة الخلال. غير أن أبا جعفر الذي كان يراقب الموقف عن كثب - عاد وقال لأخيه السفاح: «يا أمير المؤمنين! أطعني واقتل أبا مسلم. فوالله إن في رأسه لغدرة» وأجاب السفاح: «يا أخي، قد عرفت بلاءه وما كان منه». فقال أبو جعفر: «يا أمير المؤمنين! إنما كان بدولتنا. وأخاف والله ان لم تتغده اليوم يتعشاك غداً».

لقد أدرك أبو مسلم الخراساني ما يضمره له أبو جعفر المنصور؛ فأظهر استخفافه به في بداية الأمر؛ كما أظهر استهانة به عندما حجّا معاً سنة ست وثلاثين ومائة؛ إذ كان أبو مسلم يطمع في أن يسند إليه أبو العباس السفاح إمارة الحج؛ إلاّ أن أبا العباس طلب إلى أخيه التوجه الى الحج وأخذ إمارة الحج، فقال أبو مسلم: «أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا! واضطغنتها عليه». ولهذا فعندما توفي أبو العباس كتب أبو مسلم الى أبي جعفر يعزيه بوفاة أخيه دون ان يهنئه بالخلافة «وكان أبو مسلم إذا أتاه كتاب من أمير المؤمنين يقرؤه ثم يلوي شدقه؛ ويرمي بالكتاب الى أبي نصر فيقرؤه ويضحكان استهزاء». وأراد ابو جعفر ان ينتزعه من مركز قوته. فكتب له: «أن قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان. فوجه الى مصر من أحببت؛ وأقم بالشأم فتكون بقرب أمير المؤمنين. فإن أحب لقاءك أتيته من قريب» فلما أتاه الكتاب غضب؛ وقال: «هو يوليني الشأم ومصر؛ وخراسان لي». واعتزم المضي الى خراسان: إلاّ أن المنصور استطاع بدهائه أن يدخل الطمأنينة الى قلب أبو مسلم، ثم إستدعاه إليه في بغداد؛ وخرجت بغداد لاستقبال أبي مسلم ـ بإيعاز من المنصور ـ. واستقبله المنصور كأحسن ما يكون الاستقبال. ثم قال له: «انصرف يا عبدالرحمن؛ فأرح نفسك؛ وادخل الحمام فإن للسفر قشفاً ـ ثم اغد علي» فانصرف أبو مسلم، وانصرف الناس. وأمضى ليلة أخرى لم يعرف النوم فيها إلى عينيه سبيلاً. حتى إذا ما كان الصباح أرسل إلى أبي مسلم من يستعجله القدوم لمقابلة أمير المؤمنين؛ لأمر عاجل؛ وجاء أبو مسلم. فلما انفرد به المنصور؛ أخذ يعاتبه على ما كان قد صدر عنه من مواقف. فقال له أبو مسلم: «ليس يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني» فقال له المنصور: «يابن الخبيثة! والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت ناحيتها؛ إنما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا؛ ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلاً! ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك؛ والكاتب إلي تخطب أمينة بنت علي؛ وتزعم أنك ابنُ سليط بن عبدالله بن عباس! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً». فأخذ أبو مسلم بيد المنصور يقبلها ويعتذر إليه ـ وصفق المنصور بيديه؛ وخرج من وراء الستار أربعة رجال وسيوفهم تلتمع في أيديهم، وضربه أولهم ضربة خفيفة فصاح المنصور بالرجال: «اضربوا قطع الله أيديكم». وصرخ أبو مسلم:

« **يا أمير المؤمنين! استبقني لعدوك** » فرد عليه المنصور: « لا أبقاني الله إذاً! وأي عدو لي أعدى منك ». واعتورته السيوف؛ حتى مات؛ وأدرج في بساط. ثم دعا أبو جعفر إليه (جعفر بن حنظلة) فدخل عليه؛ فقال: « ما تقول في أبي مسلم؟ » فقال: « يا أمير المؤمنين! إن كنت أخذت شعرة من رأسه؛ فاقتل ثم اقتل ثم اقتل ». فأجابه المنصور: « وفقك الله! » ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبي مسلم مقتولاً. فقال: « **يا أمير المؤمنين! عُدَّ من هذا اليوم لخلافتك** ». ثم إن المنصور همّ بقتل أبي إسحاق صاحب حرس أبي مسلم. وقتل أبي نصر مالك ـ وكان على شرط أبي مسلم ـ فكلّمه أبو الجهم؛ فقال: « يا أمير المؤمنين؛ جنده جندك؛ أمرتهم بطاعته فأطاعوه ». ودعا المنصور بأبي إسحاق؛ فلما دخل عليه ولم ير أبا مسلم. قال له أبو جعفر: « أنت المتابع لعدو الله أبي مسلم على ما كان أجمع ». فصمت وجعل يلتفت يميناً وشمالاً تخوفاً من أبي مسلم. فقال له المنصور: « تكلّم بما أردت؛ فقد قتل الله الفاسق ». وأمر بإخراجه إليه مقطعاً. فلما رآه أبو إسحاق خر ساجداً؛ فأطال السجود. فقال له المنصور: « ارفع رأسك وتكلّم! ». فرفع رأسه وقال: « الحمدلله الذي آمنني بك اليوم. والله ما أمنته يوماً منذ صحبته؛ وما جئته يوماً إلاّ وقد أوصيت وتكفنت وتحنطت ». ثم رفع ثيابه الظاهرة؛ فإذا تحتها ثياب كتان جدد، وقد تحنّط. فلما رأى أبو جعفر حاله رحمه وقال له: « استقبل طاعة خليفتك؛ واحمدالله الذي أراحك من الفاسق. وفرق عني هذه الجماعة ـ يقصد حرس أبي مسلم وجماعته » (*).

مات أبو مسلم. وبدأ المنصور خلافته التي دامت اثنتين وعشرين سنة.

(*) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ لابن الأثير ـ أحداث سنوات ١٢٨ و ١٣٢ و ١٥٨.

٢ - المهدي - محمد أبو عبد الله بن المنصور
١٢٦ - ١٦٩ هـ = ٧٤٣ - ٧٨٥ م.

ثالث خلفاء بني العباس؛ ولي الخلافة يوم وفاة أبيه المنصور؛ فمضى لإجراء الإصلاحات الضرورية. وأمر ببناء القصور بطريق مكّة، أوسع من القصور التي بناها السفاح من القادسية الى (زبالة - بضم أوله) وأمر باتخاذ المصانع في كل منها؛ وبتجديد الأميال والبرك وبحفر الركايا؛ وأمر بالزيادة في مسجد البصرة وتقصير المنابر في البلاد وجعلها بمقدار منبر النبي ﷺ. وأمر المهدي يعقوب بن داود بتوجيه الأمناء في جميع الآفاق، ففعل، فكان لا ينفذ المهدي كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب الى أمينة بانفاذ ذلك. ووضع المهدي ديوان الأزمة - أي أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه ولم يكن لبني أمية ذلك بل كانت الدواوين قبل ذلك مختلطة؛ مما كان يحمل على الخطأ -. كما أجرى المهدي الأرزاق على المجذّمين وأهل السجون في جميع الآفاق. وكان المهدي إذا جلس للمظالم قال: « أدخلوا علي القضاة؛ فلو لم يكن ردي المظالم إلاّ للحياء منهم لكفى ». وركب المهدي يوماً مركباً؛ واهتاج البحر وهبت ريح شديدة حتى ظنّ الركب أنهم في سبيلهم إلى المحشر. فوضع المهدي خدّه على الأرض - تضرعاً لله - وابتهل: **« اللهم احفظ محمداً في أمته؛ اللهم لا تشمّت بنا أعداءنا من الأمم؛ اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك »**. ولم تمض إلاّ فترة يسيرة حتى انكشفت الريح. خرج المهدي يطوف ليلاً؛ فسمع أعرابية تقول: « قومي مقترون؛ نبتْ عنهم العيون؛ وفدحتهم الديون؛ وعضتهم السنون؛ وبادت رجالهم؛ وذهبت أموالهم؛ وكثرت عيالهم؛ أبناء سبيل وأنضاء طريق. وصية الله ووصية الرسول، فهل من آمر لي بخير كلأه، الله في سفره وخلفه في أهله؟ » فأمر لها بخمسمائة درهم. وقال المهدي: « ما توسل أحد إلي بوسيلة هي أقرب من تذكيري يداً سلفت مني إليه أتبعها أختها، وأحسن ربها. **فإن**

منع الأواخر يقطع شكر الأوائل».

ماتت الياقوتة بنت المهدي؛ وكان معجباً بها لا يطيق الصبر عنها، حتى إنه كان يلبسها لبسة الغلمان ويركبها معه؛ فلما ماتت وجد عليها. وأمر أن لا يحجب عنه أحد. فدخل الناس يعزونه؛ وأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أبلغ ولا أوجز من تعزية (شبيب بن شيبة) فإنه قال: «يا أمير المؤمنين! **ما عند الله مما عندك خير لها منك؛ وثواب الله خير لك منها. وأنا أسأل الله أن لا يحزنك ولا يفتنك وأن يعطيك على ما رزئت أجراً؛ ويعقبك صبراً؛ ولا يجهد لك بلاء؛ ولا ينزع منك نعمة؛ وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى ردّه»** (*). مات المهدي؛ وكانت مدة خلافته عشر سنين وشهراً. وتوفي وهو ابن ثلاث وأربعين سنة. وصلى عليه ابنه الرشيد. واختلفت الروايات في سبب موته. فمن قائل إنه مات مسموماً ـ سمته جارية له على غير إرادة منها. ومن قائل إنه كان في رحلة صيد فدخل خربة، فدق الباب ظهره فمات من ساعته.

(*) تاريخ الطبري والكامل في التاريخ ـ احداث سنة تسع وستين ومائة ـ وما قبلها.

٤ - الهادي - موسى بن المهدي محمد بن المنصور
١٤٦ - ١٧٠ هـ = ٧٦٣ - ٧٨٦ م.

رابع خلفاء بني العباس. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه المهدي؛ وسار على نهج أبيه؛ وأخذ بوصاياه. وأولها حربه ضد الزندقة والزنادقة. وكان المهدي قد اشتد في عهد خلافته بطلب الزنادقة، وقتل منهم جماعة؛ منهم علي بن يقطين؛ وقتل أيضاً يعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب. وكان سبب قتله أنه أتى به المهدي؛ فأقر بالزندقة، فقال: «لو كان ما تقول حقاً لكنت حقيقاً أن لا تتعصب لمحمد؛ ولولا محمد ما كنت. أما والله لولا أني جعلت على نفسي أن لا أقتل هاشمياً لقتلتك». ثم قال للهادي: «أقسمت عليك إن وليت هذا الأمر لتقتلنه». ثم حبسه؛ فلما مات المهدي عمل الهادي على قتله. وكذلك أيضاً كان المهدي قد عهد إلى الهادي بقتل ولد لداود بن علي بن عبدالله بن عباس؛ كان زنديقاً فمات في الحبس قبل الهادي. وكان المهدي قد قال للهادي يوماً - وقد قدم إليه زنديق فقتله وأمر بصلبه -: **«يا بني! إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني والمانوية - فإنها تدعو الناس الى ظاهر حسن؛ كاجتناب الفواحش؛ والزهد في الدنيا والعمل للآخرة؛ ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم؛ ومس الماء الطهور؛ وترك قتل الهوام تحرجاً. ثم تخرجها إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة. ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لينقذوهم من ضلالة الظلمة إلى هداية النور. فارفع فيهم الخشب وجرد فيهم السيف؛ وتقرب بأمرهم إلى الله؛ فإني رأيت جدي العباس رضي الله عنه في المنام وقد قلدني سيفين لقتل أصحاب الاثنين».** فلما ولي الهادي قال: «لأقتلن هذه الفرقة».

لما ولي الهادي الخلافة، كانت أمه (الخيزران) تستبد بالأمور دونه؛ وتسلك به

مسلك المهدي؛ حتى مضى أربعة أشهر؛ فانثال الناس الى بابها. وكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها؛ فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً؛ فقالت: «لا بد من إجابتي إليه فإنني قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك». فغضب الهادي وقال: «ويل على ابن الفاعلة. قد علمت أنه صاحبها؛ والله لا قضيتها لك». قالت: «إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً» قال: «لا أبالي والله». فغضبت وقامت مغضبة، فقال:

«مكانك! والله أنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك وإياك! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي». فانصرفت وهي لا تعقل فلم تنطق عنده بعدها. ثم إنه قال لأصحابه: «أيما خير أنا أم أنتم؛ وأمي أم امهاتكم؟». قالوا: «بل أنت وأمك خير» قال: «فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر أمه؛ فيقال: فعلت أم فلان وصنعت؟» قالوا: «لا نحب ذلك». قال: «فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها؟» فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها.

كان المهدي قد رأى فيما يراه النائم أنه دفع إلى موسى قضيباً وإلى هرون قضيباً؛ فأورق من قضيب موسى أعلاه؛ وأورق قضيب هرون من أوله إلى آخره. فقال لهما إنهما يملكان معاً؛ فأما موسى فتقل أيامه؛ وأما هرون فيبلغ آخر ما عاش خليفة؛ وتكون أيامه أحسن أيام ودهره أحسن دهر. ولما ولي موسى الهادي الخلافة أراد ان يصرف الخلافة عن أخيه هرون وأخذ البيعة لابنه الصغير ـ جعفر ـ وجلس في مجلسه وعنده نفر من قواده؛ وعنده الرشيد؛ وهو ينظر إليه؛ ثم قال له: **يا هرون! كأني بك وأنت تحدث نفسك بتمام الرؤيا؛ ودون ذلك خرط القتاد** » فقال له هرون: **«يا موسى! إنك إن تجبّرت وضعت؛ وإن تواضعت رفعت؛ وإن ظلمت قتلت؛ وإن أنصفت سلمت. وإني لأرجو أن يفضي الأمر إلي؛ فأنصف من ظلمت؛ وأصل من قطعت؛ وأجعل أولادك أعلى من أولادي؛ وأزوجهم بناتي؛ وأبلغ ما تحب من حق الإمام المهدي»**. فقال له الهادي: «ذلك الظن بك؛ ادن مني» فدنا

منه فقبل يده. ثم أراد العود إلى مكانه. فقال له الهادي: « لا والشيخ الجليل والملك النبيل ـ أعني المنصور ـ لا جلست إلاّ معي ». فأجلسه في صدر مجلسه. ثم أمر أن يحمل إليه ألف ألف دينار. وأن يحمل إليه نصف الخراج. غير أن الهادي عاد ـ بإلحاح من قواده ـ لمحاولة نقل الخلافة من أخيه الرشيد الى ابنه ـ جعفر ـ وعارضه في ذلك (يحي بن خالد بن برمك) فأحضره، فقال يحي: « يا أمير المؤمنين! إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم؛ وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد للبيعة» قال: « صدقت » وسكت عنه. فعاد اولئك الذين بايعوه من القواد والشيعة؛ فحملوه على معاودة الرشيد بالخلع. فأحضر يحي وحبسه. فكتب إليه أن عندي نصيحة؛ فأحضره؛ فقال له يحي: « يا أمير المؤمنين! أرأيت إن كان الأمر الذي لا تبلغه؛ ونسأل الله أن يعـدمنا قبله ـ يعني موت الهادي ـ أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحنث أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم؟ » وأجاب الهادي: « ما أظن ذلك! » فقال يحي: « يا أمير المؤمنين! أفتأمن أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان؛ ويطمع فيها غيرهم؛ فتخرج من ولد أبيك؟ والله لو أن هذا الأمر لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي ان تعقده أنت. فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له؟ ولكني أرى ان تقر الأمر على حاله. فإذا بلغ جعفر أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه » فقبل قوله. وقال له: « لقد نبهتني على أمر لم أتنبّه له ». وأطلقه. ثم عاد فسجنه بتحريض القواد والشيعة. وخرج الهادي الى حديثة الموصل، فمرض بها. واشتد مرضه. وقيل إن (الخيزران) وضعت جواريها عليه فقتلته بالغم والجلوس على وجهه فمات. وقالت الخيزران ـ وكانت قد أخذت للعلم عن الاوزاعي ـ اليوم يموت خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة. فمات الهادي وملك الرشيد وولد المأمون. ومات الهادي وعمره ستاً وعشرين سنة ومدة خلافته أربعة عشر شهراً. وصلى عليه الرشيد؛ ودفن في عيساباذ.

(★) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ احداث سنة سبعين ومائة.

٥ ـ هرون الرشيد بن محمد المهدي
١٤٦ ـ ١٩٣ هـ = ٧٦٣ ـ ٨٠٨م.

الرشيد هو خامس خلفاء بني العباس؛ تفاءل المسلمون بولايته فقال ابراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هرون أشرق نورها
بيمن أمين الله هرون ذي الندى فهرون واليها ويحيي وزيرها

وكان أول ما عمله الرشيد هو أنه حجّ وغزا في سنة واحدة. وفي ذلك قال داود ابن رزين:

بهارون لاح النور في كل بلدة وقام به في عدل سيرته النهج
إمام بذات الله أصبح شغله وأكثر ما يعني به الغزو والحج
تضيق عيون الناس عن نور وجهه إذا ما بدا للناس منظره البلج
وان أمين الله هارون ذا الندى ينيل الذي يرجوه أضعاف ما يرجو

ومضى الرشيد في سيرته هذه؛ فكان يحج عاماً ويغزو عاماً؛ وكان يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا ـ إلا من مرض ـ وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته. وكان إذا حجّ؛ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم. فإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة. وكان يطلب العمل بآثار المنصور إلاّ في بذل المال، فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال. وكان لا يضيع عنده إحسان محسن؛ ولا يؤخر ذلك. وكان يحب الشعر والشعراء؛ ويميل الى أهل الأدب والفقه؛ ويكره المراء في الدين. وكان يحب المديح، ويجزل العطاء عليه إن كان صادقاً، وقد مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة أعطاه مقابلها خمسة آلاف دينار؛ وخلعة؛ وعشرة من الرقيق الرومي؛ وبرذوناً من خاص مركبه. وكان مما تضمنته تلك القصيدة:

وسدّت بهرون الثغور فأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لواؤه ... له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر
لقد ترك الصفصاف هارون صفصفاً ... كأن لم يك فيه من الناس حاضر
اناخ على الصفصاف حتى استباحه ... فكابره فيها ألج مكابر
إلى وجهه تسمو العيون وما سمت ... إلى مثل هارون العيون النواظر (*)

وكان البرامكة قد شكلوا مركز قوة له خطره على الدولة « فكان الرشيد لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلاّ قيل هذا لجعفر ، وقد أغدق البرامكة العطاءات للشعراء والعلماء لاستجلاب الناس واجتذابهم اليهم » وابتنى جعفر داراً أنفق عليها عشرين ألف ألف درهم فرفع ذلك الى الرشيد ؛ وقيل له : هذه غرامته على دار ؛ فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك ، فاستعظمه. وكان الرشيد قد دفع (يحي بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي) الى (جعفر بن يحي بن خالد) فحبسه ، ثم أطلق سراحه بدون علم الرشيد ؛ وبدون اذن منه. ثم قام (علي بن عيسى بن ماهان) فأعلم الرشيد بأن (موسى بن يحي بن خالد) يكاتب أنصاره في خراسان ؛ وأنه يواعدهم ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة. وبدأ الرشيد في التغير على البرامكة ؛ حتى إذا ما كانت سنة سبع وثمانين ومائة. عزم الرشيد أمره ؛ واستدعى (جعفراً) إليه وأمر بقتله ؛ كما أمر بحبس (يحي وولده). وأخذ ماهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ؛ وأرسل من ليلته إلى سائر البلاد في قبض أمواهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم وكل ما لهم. فلما أصبح أرسل جيفة جعفر إلى بغداد وأمر أن ينصب رأسه على جسر ويقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر. ولم يتعرض الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك وولده وأسبابه لأنه علم براءته مما دخل فيه أهله. ثم حبس (يحي وبنيه الفضل ومحمداً وموسى) محبساً سهلاً ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه من جارية وغيرها. ولم تزل حالهم سهلة حتى قبض على (عبدالملك بن صالح) فعمهم بسخطه ؛ وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد ؛ فضيق عليهم. **ولما قتل (جعفر بن**

(*) القصيدة طويلة : تاريخ الطبري والكامل في التاريخ ـ سيرة الرشيد احداث سنة ١٩٣ هـ.

يحي) قيل لأبيه: « قتل الرشيد ابنك » قال: « كذلك يقتل ابنه » قيل: « وقد أخرب دیارك » قال: « كذلك تخرب دياره » .

توفيت أم الرشيد ـ الخيزران ـ سنة ثلاث وسبعين ومائة؛ فحمل الرشيد جنازتها؛ ودفنها في مقابر قريش؛ ورئي الرشيد يوم ماتت أمه وعليه جبة سعدية؛ وطيلسان خرق أزرق؛ قد شد به وسطه؛ وهو آخذ بقائمة السرير حافياً يعدو في الطين والوحل من المطر؛ الذي كان في ذلك اليوم؛ حتى إذا ما وصل مقابر قريش؛ غسل رجليه؛ ثم دعا بخف؛ وصلى عليها؛ ودخل قبرها؛ ثم خرج وتمثل بقول (متمم بن نويرة) الأبيات المشهورة التي أولها:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

ثم تصدّق عنها بمال عظيم؛ وكان دخلها في السنة ستة آلاف وستين ألف ألف درهم تنفقها في الصدقات وأبواب البر.

حجّ الرشيد مرة؛ فدخل الكعبة؛ فرآه بعض الحجبة وهو واقف على أصابعه؛ يقول: « يا من يملك حوائج السائلين؛ ويعلم ضمير الصامتين؛ فإن لكل مسألة منك رداً حاضراً وجواباً عتيداً؛ ولكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة؛ وأياديك الفاضلة؛ ورحمتك الواسعة؛ صل على محمد وعلى آل محمد؛ واغفر لنا ذنوبنا؛ وكفر عنّا سيئاتنا. يا من لا تضرّه الذنوب ولا تخفى عليه الغيوب ولا تنقصه مغفرة الخطايا. يا من كبس الأرض على الماء؛ وسد الهواء بالسماء؛ واختار لنفسه أحسن الأسماء؛ صل على محمد وعلى آل محمد؛ وخر لي في جميع أموري. يا من خشعت له الأصوات بأنواع اللغات يسألونه الحاجات؛ إن من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي إذا توفيتني وصيرت في لحدي وتفرق عني أهلي وولدي. اللهم لك الحمد حمداً يفضل كل حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون له رضا؛ وصل عليه صلاة تكون له ذخراً؛ واجزه عنا الجزاء الأوفى؛ اللهم أحينا سعداء وتوفنا شهداء؛ واجعلنا سعداء مرزوقين؛ ولا تجعلنا أشقياء مرجومين » .

كان مع الرشيد (ابن أبي مريم المديني) وكان مضحاكاً فكهاً يعرف أخبار أهل الحجاز؛ وألقاب الأشراف؛ ومكايد المجان؛ فكان الرشيد لا يصبر عنه وأسكنه في قصره. فجاء ذات ليلة وهو نائم؛ فقام الرشيد إلى صلاة الفجر؛ فكشف اللحاف عنه؛ وقال: «كيف أصبحت؟». فقال: «ما أصبحت بعد؛ اذهب إلى عملك» قال الرشيد: «قم إلى الصلاة» فقال المديني: «هذا وقت صلاة أبي الجارود؛ وأنا من أصحاب أبي يوسف» فمضى الرشيد يصلي؛ وقام ابن أبي مريم؛ وأتى الرشيد فرآه يقرأ في الصلاة: **«ومالي لا أعبد الذي فطرني» فقال: «ما أدري والله» فما** تمالك الرشيد أن ضحك؛ ثم قال وهو مغضب: «في الصلاة أيضاً» قال: «ما صنعت؟» فرد عليه الرشيد: «قطعت علي صلاتي» قال: «والله ما فعلت؛ إنما سمعت منك كلاماً غمني حين قلت: ومالي لا أعبد الذي فطرني ـ فقلت: لا أدري». فعاد الرشيد الضحكة ثم قال له: **«إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدها».**

دخل ابن السماك على الرشيد؛ فبينما هو عنده إذ طلب ماء؛ فلما أراد شربه قال له ابن السماك: «مهلاً يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ؛ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟» فأجاب الرشيد: «بنصف ملكي» قال ابن السماك: «اشرب الآن، فلما شرب سأله ابن السماك: «أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك؛ بماذا كنت تشتريها؟» وأجاب الرشيد: «بجميع ملكي» فقال ابن السماك: «ان ملكاً لا يساوي شربة ماء وخروج بولة لجدير ان لا ينافس فيه» فبكى الرشيد.

اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره؛ وزراؤه البرامكة؛ وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه؛ وحاجبه الفضل ابن الربيع؛ وهم أتيه الناس وأعظمهم؛ ومغنيه ابراهيم الموصلي وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر.

وجاءت سكرة الموت بالحق؛ ومرض الرشيد (بالري) وكان عنده (سهل بن صاعد) وهو يجود بنفسه، فدعا بملحفة غليظة فاحتبى بها؛ وجعل يقاسي ما يقاسي، فنهض سهل، فقال له الرشيد: «اقعد» فقعد سهل طويلاً، لا يكلمه الرشيد ولا هو

يكلم الرشيد. ثم عاد سهل فنهض، فقال له الرشيد: «أين يا سهل؟». فأجابه سهل: «ما يتسع قلبي يا أمير المؤمنين تعاني من المرض ما تعاني؛ فلو اضطجعت يا أمير المؤمنين» فضحك الرشيد ضحكاً صحيحاً، ثم قال: «يا سهل؛ أذكر في هذه الحال قول الشاعر:

وإني من قوم كرام يزيدهم   شماساً وصبراً شدة الحدثان

ومات الرشيد؛ وعمره سبع وأربعون سنة ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة. وكان في بيت المال لما توفي تسعمائة ألف ألف ونيف.

٦ ـ محمد الأمين بن الرشيد
١٦٧ ـ ١٩٨ هـ = ٧٨٣ ـ ٨١٣ م.

محمد الأمين هو سادس خلفاء بني العباس؛ ولي الخلافة وهو ابن ست وعشرين سنة. وكان أبوه الرشيد قد أوصى له بالخلافة من بعده بتأثير زوجته (زبيدة) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين. وكان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة في عبدالله المأمون؛ وكان يقول: «والله إن فيه حزم المنصور ونسك المهدي وعزّة نفس الهادي؛ ولو شئت ان أقول الرابعة مني لقلت؛ وإني لأقدم محمد بن زبيدة وأعلم انه متبع هواه، ولكن لا أستطيع غير ذلك؛ ثم أنشأ يقول:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني ... غلبت على الأمر الذي كان أحزما
وكيف يرد الدر في الضرع بعدما ... توزّع حتى صار نهباً مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه ... وأن ينقض الأمر الذي كان أبرما

فلما كانت سنة ست وثمانين ومائة، أعاد الرشيد تنظيم دولته فولى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب؛ وضم إلى المأمون من همذان إلى آخر المشرق؛ ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن) وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم، وجعل أمر خلعه أو ابقائه الى المأمون؛ وفي ذلك قيل:

حب الخليفة حب لا يدين به ... من كان لله عاص يعمل الفتنا
الله قلد هاروناً سياستنا ... لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا
وقلد الأرض هارون لرأفته ... بنا أميناً ومأموناً ومؤتمنا

ثم إن الرشيد سار إلى مكة ـ للحج ـ ومعه أولاده والفقهاء والقضاة والقواد؛ وكتب كتاباً أشهد فيه على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون. وكتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه بالوفاء للأمين. وعلق الكتابين في الكعبة؛ وجدد عليهما العهود في الكعبة. ثم إن الرشيد شخص في سنة تسع وثمانين ومائة الى قرماسين ومعه

المأمون؛ وأشهد على نفسه من عنده من القضاة والفقهاء ان جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك هو للمأمون وجدد له البيعة عليهم؛ وأرسل إلى بغداد فجدد له البيعة على محمد الأمين.

وتوفي الرشيد في (الري) وبويع الأمين بالخلافة في عسكر الرشيد صبيحة الليلة التي توفي فيها. وكتب صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين يخبره بوفاة الرشيد؛ وأرسل إليه الخاتم والقضيب والبردة، فلما أخبر الأمين وهو في بغداد؛ انتقل من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة. وصلى بالناس الجمعة؛ ثم صعد المنبر فنعى الرشيد وعزى نفسه والناس ووعدهم الخير، وبايعه جل أهل بيته. وكتب الى أخيه المأمون ـ الذي كان في (الري) يأمره بترك الجزع وأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيهما المؤتمن. كما كتب إلى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه؛ وأن يتصرف هو ومن معه برأي الفضل بن الربيع، وأرسل كتاباً إلى الفضل يأمره بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك؛ وأقر كل من كان إليه عمل على عمله مثل صاحب الشرطة والحرس والحجابة. فلما قرؤوا الكتب؛ تشاوروا هم والقواد في اللحاق بالأمين، فقال الفضل بن الربيع: «لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدري ما يكون من أمره». وأمر الناس بالرحيل فرحلوا محبة منهم لأهلهم ووطنهم؛ وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون. وحاول المأمون إعادتهم وتذكيرهم بعهودهم؛ إلا أنهم أعرضوا عنه. فالتفت لإعادة تنظيم اموره في خراسان؛ وأحسن السيرة في الناس؛ واعتمد على خاصتهم وأولهم قواد أبيه؛ وهم: عبدالله بن مالك ويحيى بن معاذ وشبيب بن حميد بن قحطبة والعلاء بن هرون وهو على حجابته والعباس بن المسيب بن زهير وهو على شرطته وأيوب بن أبي سمير وهو على كتابته وذو الرياستين وهو أعظمهم عنده قدراً وأخصهم به.

وصل (الفضل بن الربيع) الى بغداد: وفكر في أمر نكثه لعهد المأمون؛ وعرف بأنه إن أفضت الخلافة الى المأمون ـ وهو حي ـ فإنه سيقتله لا محالة ـ فحث الأمين على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد ـ ولم يكن ذلك في عزم محمد الأمين ـ فلم يزل الفضل يصغر عنده أمر المأمون ويزين له خلعه؛ ووافقه على هذا (علي بن عيسى)

و(ماهان) و(السندي) وغيرهم؛ فرجع الأمين الى قولهم؛ ولم يعارضه إلاّ (**عبدالله بن خازم**) الذي قال ـ مما قاله ـ للأمين: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه» وجمع الأمين القواد؛ وعرض عليهم خلع المأمون فأبوا ذلك ـ حتى إذا دور (عبدالله بن خازم) عاد للقول: «يا أمير المؤمنين؛ لم ينصحك من كذبك؛ ولم يغشك من صدقك؛ لا تجرىء القواد على الخلع؛ فيخلعوك؛ ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك فإن الغادر مخذول والناكث مفلول». ولكن الأمين أعرض عن نصح الناصحين؛ ومضى مع (**الفضل بن الربيع**) و(**علي بن عيسى**). وكان أول ما فعله هو أن كتب إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن؛ فلما بلغ ذلك المأمون مع عزل المؤتمن عما كان بيده؛ أسقط اسم الأمين من الطرز ـ النقود ـ وقطع البريد عنه. وكان (رافع بن الليث بن نصر بن سيار) لما بلغه حسن سيرة المأمون؛ قد طلب الأمان؛ فأجابه إلى ذلك؛ فحضر عند المأمون. وأقام (هرثمة) بسمرقند ومعه (طاهر بن الحسين). ثم قدم هرثمة على المأمون؛ فأكرمه وولاه الحرس؛ فأنكر ذلك كله الأمين. وكتب الأمين الى (العباس بن عبدالله بن مالك) وهو عامل المأمون على الري؛ يأمره أن يرسل غرائب غروس الري ـ يريد امتحانه ـ فبعث إليه بما أمره وكتم ذلك عن المأمون وعن **ذي الرياستين (الفضل بن سهل)**. فلما بلغ المأمون ذلك عزله وعين مكانه (الحسن بن علي المأموني). ثم وجّه الأمين أربعة من ثقاته لمناظرة أخيه المأمون، فلما علم المأمون كتب الى عماله بالري ونيسابور وغيرهما يأمرهم بإظهار العدة والقوة؛ ففعلوا ذلك، وقدم الرسل على المأمون ـ وسلموه رسالة أخيه الأمين التي طلب فيها أن ينزل له عن بعض كور خراسان؛ وأن يكون له عنده صاحب البريد يكتب بالاخبار. فامتنع المأمون من إجابته إلى ما طلب. **وأنفذ المأمون ثقته الى الحد ـ الحدود ـ حتى لا يعبر أحد إلى بلاده إلا مع ثقة من ناحيته؛ وحصر أهل خراسان أن يستمالوا برغبة أو رهبة؛ وضبط الطرق بثقات أصحابه؛ فلم يمكنوا من دخول خراسان إلا من عرفوه؛ وأتى بجواز، أو كان تاجراً معروفاً. وفتشت الكتب.**

عاد الأمين فأرسل كتاباً إلى المأمون؛ مع نفر؛ وأمرهم ان يبلغوا الجهد في إحضاره

الى بغداد؛ وسير معهم الهدايا الكثيرة؛ وقرأ المأمون الكتاب، وأحضر ذا الرياستين ـ الفضل بن سهل ـ وأقرأه الكتاب؛ واستشاره؛ فأشار عليه بملازمة خراسان؛ وخوفه من القرب من الأمين، فقال المأمون: «لا يمكنني مخالفته؛ وأكثر القواد والأموال معه؛ والناس مائلون إلى الدرهم والدينار؛ لا يرغبون في حفظ عهد ولا أمانة؛ ولست في قوة حتى أمتنع؛ وقد فارق جيغويه الطاعة؛ والتوى خاقان ملك التبت؛ واستعد ملك كابل للغارة على ما يليه؛ ومنع ملك اتراد بنده الضريبة؛ ومالي بواحد من هذه الأمور يد؛ وأنا أعلم ان محمداً لم يطلب قدومي إلا لشر يريده؛ ولا أرى إلاّ تخلية ما أنا فيه واللحاق بملك الترك خاقان والاستجارة به لعلي آمن على نفسي» فقال ذو الرياستين:

«إن عاقبة الغدر شديدة؛ وتبعة البغي غير مأمونة؛ ورب مقهور قد عاد قاهراً. وليس النصر بالكثرة والقلة؛ والموت أيسر من الذل والضيم؛ وما أرى ان تصير الى أخيك متجرداً من قوادك وجندك؛ كالرأس الذي فارق بدنه؛ فتكون عنده كبعض رعيته؛ يجري عليك حكمه من غير ان تبدي عذراً في قتال. واكتب الى جيغويه وخاقان فولها بلادهما، وابعث الى ملك كابل بعض هدايا خراسان ووادعه؛ واترك لملك اتراد بنده ضريبته؛ ثم اجمع اليك أطرافك؛ وضم جندك، واضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال، فإن ظفرت وإلاّ لحقت بخاقان». وفعل المأمون ما أشار به الفضل بن سهل ـ ذو الرياستين ـ فرضي اولئك الملوك العصاة؛ وضم جنده وجمعهم عنده ـ وكتب إلى الأمين: **«أما بعد! فقد وصل إلي كتاب امير المؤمنين؛ وإنما أنا عامل من عماله؛ وعون من أعوانه؛ أمرني الرشيد بلزوم الثغر؛ ولعمري إن مقامي به أرد على أمير المؤمنين وأعظم غناء للمسلمين من الشخوص الى أمير المؤمنين. فإن كنت مغتبطاً بقربه مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقرني على عملي ويعفيني من الشخوص إليه؛ فعل إن شاءالله»**. فلما قرأ الأمين رسالة المأمون؛ عرف انه لن يتابعه الى ما يريد. فأرسل وفداً لتحريض العامة، فوجد الوفد تدبيراً محكماً، وحوصروا في حال سفرهم وإقامتهم؛ ومنعوا من أن يخبروا أو يستخبروا. فلما رجعوا أخبروا الأمين بما رأوا.

سار الأمين خطوة أخرى على درب القطيعة مع أخيه المأمون، فأعلن (سنة خمس وتسعين ومائة) البيعة لابنه موسى ولقبه (الناطق بالحق) ولابنه الآخر عبدالله ولقبه (القائم بالحق). وأمر بإسقاط ما كان ضرب لأخيه المأمون من الدراهم والدنانير بخراسان. ونهى عن ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر. فانصرف ذو الرياستين (الفضل ابن سهل) لتدبير الأمور؛ وكان أول ما فعله هو أنه جمع الأجناد الذين كان قد حشدهم بجنبات الري مع الأجناد الذين كانوا بها، وأمدهم بالأقوات وغيرها ـ وكانت البلاد عندهم قد أجدبت ـ فأكثر عندهم ما يريدونه حتى صاروا في أرغد عيش وأقاموا على الحدود لا يتجاوزونها؛ ثم أرسل إليهم طاهر بن الحسين بن مصعب ابن زريق بن أسعد ـ أبا العباس الخزاعي ـ أميراً؛ فيمن ضم إليه من قواده وأجناده، فسار مجداً حتى ورد الري؛ فنزلها ووضع المسالح وبث عيونه وطلائعه؛ وظهر بوضوح ان الحرب باتت وشيكة الوقوع؛ وفي ذلك قال بعض شعراء خراسان:

رمى أهل العراق ومن عليها ... إمام العدل والملك الرشيد
بأحزم من مشى رأياً وحزماً ... وكيداً نافذاً مما يكيد
بداهية تؤود خنيفقيق ... يشيب لهول صولتها الوليد

كان لذي الرياستين (الفضل بن سهل) عيونه في بغداد؛ والذين كانوا يوافونه بالاخبار أولاً بأول. وكان (الفضل بن الربيع) قد حفظ الطرق غير أن عيون الفضل ابن سهل استطاعت متابعة عملها. وكان أحد عيون (الفضل بن سهل) هو أحد الذين يعتمد (الفضل بن الربيع) على قوله ورأيه. فكتب ذو الرياستين (ابن سهل) إلى ذلك الرجل يأمره بأن يشير على (ابن الربيع) بإرسال (علي بن عيسى بن ماهان) لحرب المأمون؛ ذلك لأن (ابن ماهان) كان قد ولي خراسان أيام الرشيد، فأساء السيرة في أهلها؛ وظلمهم؛ فعزله الرشيد لذلك؛ ونفر أهل خراسان عنه وأبغضوه؛ فأراد ذو الرياستين ان يزداد أهل خراسان جداً في محاربة الأمين وأصحابه. وفي الوقت ذاته وصلت رسائل من أهل خراسان إلى (علي بن عيسى) ذكروا فيها أنه إذا قصدهم أطاعوه وانقادوا له، وإن كان غيره فلا. وأصدر الأمين أمره إلى (علي بن عيسى) بالتوجه لحرب المأمون. ولما عزم (علي بن عيسى) على المسير من بغداد، ركب إلى

باب زبيدة ـ أم الأمين ـ ليودعها فقالت له: **«يا علي! إن أمير المؤمنين كان ولدي وإليه انتهت شفقتي، فإني على عبدالله ـ المأمون ـ منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى. وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه الكريم؛ يأكل لحمه ويميته غيره؛ فاعرف لعبدالله حق والده وإخوته؛ ولا تجبهه بالكلام فإنك لست بنظيره؛ ولا تقتسره اقتسار العبيد؛ ولا توهنه بقيد؛ ولا غل؛ ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً؛ ولا تعنف عليه في السير؛ ولا تساوه في المسير؛ ولا تركب قبله؛ وخذ بركابه؛ وإن شتمك فاحتمل منه»** ثم دفعت إليه قيداً من فضة؛ وقالت: «إن صار إليك فقيده بهذا القيد» فقال لها: «سأفعل مثل ما أمرت». وركب (علي بن عيسى). وخرج الأمين يشيعه ومعه القواد والجنود؛ وذكر مشايخ بغداد أنهم لم يروا عسكراً أكثر رجالاً وأفره كراعاً وأتم عدة وسلاحاً من عسكره. غير أن (علي بن عيسى) أظهر استهانة بخصمه؛ فقال عندما وصل إلى (جلولاء): **«إن السخال لا تقوى على النطاح؛ والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد»**. هذا فيما كان قائد المأمون (طاهر بن الحسين) يعد قواته؛ ويحشدها بحذر؛ ويتخذ كل ما هو ضروري من التدابير. ثم سار بهم من (الري) الى بلدة قريبة (اسمها كلواص) ودارت هناك معركة طاحنة أظهر فيها (طاهر) كفاءة عالية في تدمير قوات خصمه على التتابع بهجمات منظمة متتالية ـ ولم تكن هذه القوات تزيد على أربعة آلاف وهم أقل من جيش خصمهم تسليحاً وتجهيزاً ـ. وانتهت المعركة بانتصار طاهر وهزيمة (علي بن عيسى). وكتب طاهر إلى المأمون وذي الرياستين: **«بسم الله الرحمن الرحيم. كتابي إلى أمير المؤمنين؛ ورأس علي بن عيسى بين يدي؛ وخاتمه في أصبعي؛ وجنده مصرفون تحت أمري ـ والسلام»**. وترددت أصداء هذه المعركة قوية في عاصمة الأمين فقال بعض شعراء بغداد:

أضـاع الخلافـة غش الوزيـر ... وفسـق الأمير وجهـل المشير
ففضـل وزيـر؛ وبكـر مشير ... يـريـدان مـا فيـه حتـف الأمير
ومـا ذاك إلا طـريـق غـرور ... وشر المسالـك طـرق الغـرور

أرسل الأمين جيشاً من عشرين ألف مقاتل بقيادة عبدالرحمن بن جبلة الأنباري.

وعندما وصل هذا الجيش الى (همذان). هاجمه (طاهر بن الحسين) وانتصر عليه، ومزق جيشه شر ممزق. واستمر الأمين بعد ذلك في إرسال الجيوش التي لم يكن حظها أفضل من حظ من سبقها. وكان كل نصر يحرزه (طاهر بن الحسين) يزيد من قوته، ومن توسيع حدوده؛ حتى وصل إلى واسط واحتلها، وأتبعها بالمدائن، ثم شرع بحصار بغداد وقذفها بالمجانيق فدمّرها، وقال العتري:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوماً ما ذكرتهم ... إلاّ تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

وتتابعت المحن والكوارث على بغداد؛ وانتهى الأمر بدخول جند طاهر إليها، وقتل الأمين وحمل رأسه إلى أخيه المأمون. الذي دخل بغداد؛ ونادى الناس بالأمان، فأمنوا. وانتهت خلافة الأمين التي كانت مدتها أربع سنين وثمانية أشهر. وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة. وانطلق الشعراء لرثاء الأمين وآخرون لمديح المأمون؛ وظهر من أقوال هؤلاء وأولئك ان (حرب الخلافة بين الأخوين) قد قسمت الجبهة الداخلية للمسلمين، ومزقتها تمزيقاً لا سبيل الى اصلاحه ـ.

(★) تاريخ الطبري ـ والكامل في التاريخ ـ احداث سنة سبع وثمان وتسعين ومائة.

لا ـ عبد الله المأمون بن الرشيد
١٧٠ - ٢١٨ هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣ م.

جاء سابع خلفاء بني العباس ـ المأمون ـ على جثة أخيه؛ ولقد فتحت الحرب بين الأخوين باب الفتن على مصراعيه؛ فكثرت اعمال التمرد؛ وتفاقمت الفتن؛ واضطرب حبل الأمن. ولكن المأمون استطاع التغلب على مشكلاته الداخلية خلال سنوات من الصراع المرير؛ واستعان في ذلك بأهل خراسان ـ العجم ـ فعلت منزلتهم؛ وعظم شأنهم. وذكر ان رجلاً تعرض للمأمون بالشام مراراً؛ وقال له: «يا أمير المؤمنين! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان» فأجابه المأمون: «أكثرت علي والله! ما أنزلت قيساً من ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ـ يعني فتنة ابن شبث العامري ـ. وأما اليمن؛ فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط. وأما قضاعة فساداتها تنتظر خروج السفياني حتى تكون من أشياعه. وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث الله نبيّه من مضر. ولم يخرج اثنان إلا وخرج أحدهما سائساً».

وكان المأمون بدمشق، وقد قل المال عنده حتى أضاق؛ وشكا ذلك إلى المعتصم؛ فقال له: «يا أمير المؤمنين! كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة». وكان قد حمل إليه ثلاثون ألف ألف درهم من خراج ما يتولاه له؛ فلما ورد عليه المال، قال المأمون ليحيى بن أكثم: «اخرج بنا ننظر هذا المال» فخرجا ينظرانه؛ وكان قد هيء بأحسن هيئة. فنظر المأمون إلى شيء حسن واستكثر ذلك فاستبشر به. والناس ينظرون إليه ويعجبون منه. فقال المأمون: «يا أبا محمد! نتصرف بالمال وأصحابنا يرجعون خائبين. إن هذا للؤم» ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له: «وقع لآل فلان بألف ألف؛ ولآل فلان بمثلها؛ ولآل فلان بمثلها» فما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ورجله في الركاب. ثم قال: «ادفع الباقي إلى المعلى، يعطيه جندنا».

كان بالبصرة رجل من بني تميم بن سعد، وكان شاعراً ظريفاً خبيثاً؛ وكان محمد بن

أيوب بن جعفر بن سليمان يأنس به ويستطيب معاشرته، فقال له يوماً: «أنت شاعر وأنت ظريف، والمأمون أجود من السحاب الحافل. فما يمنعك منه؟» فأجاب الشاعر: «ما عندي ما يحملني» فقال له محدثه: «أنا أعطيك راحلة ونفقة» وأعطاه راحلة نجيبة وثلاثمائة درهم. فعمل الشاعر أرجوزة ليست بالطويلة، ثم سار إلى المأمون حتى وصل إلى (بسلغوس) فلبس ثيابه وهو يريد معسكر المأمون، فإذا به أمام كهل على بغل فاره، فتلقاه مواجهة وهو يردد نشيد أرجوزته، فقال له: «السلام عليك» فرد الشاعر: «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته». فقال له الكهل: «قف إن شئت». ووقف الشاعر وقد تضوعت منه رائحة المسك والعنبر - وسأله الكهل: «ما أولك؟» وأجاب الشاعر: «رجل من مضر». وعقب الكهل: «ونحن من مضر - ثم ماذا؟» ورد الشاعر: «ثم من بني تميم. ومن بني سعد، قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحة ولا أوسع راحة». وسأله الكهل: «فما الذي قصدته به؟» وقال الشاعر: «شعر طيب يلذ على الأفواه ويحلو في آذان السامعين» فقال الكهل: «أنشدنيه» فغضب الشاعر، وقال: «ياركيك، أخبرتك أني قصدت الخليفة بمديح، فتقول: أنشدنيه». وتغافل الكهل عن الجواب وعاد فسأل الشاعر: «فما الذي تأمل منه؟» فقال الشاعر: «إن كان على ما ذكر لي فألف دينار» فقال الكهل: «أنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً والكلام عذباً. وأضع عنك العناء وطول الترداد حتى تصل الى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل؟». فقال الشاعر: «فلي عليك الله أن تفعل!» وأجاب الكهل: «نعم، لك الله علي ان أفعل» فأنشده الشاعر.

مأمون ذا المنزلة الشريفة ... وصاحب المرتبة المنيفة
وقائد الكتيبة الكثيفة ... هل لك في أرجوزة ظريفة
أظرف من فقه أبي حنيفة ... لا والذي أنت له خليفة
وما ظلمت في أرضنا ضعيفة ... أميرنا مؤنته خفيفة
وما اقتنى شيئاً سوى الوظيفة ... فالذئب والنعجة في سقيفة
واللص والتاجر في قطيفة.

وهنا وقعت المباغتة التي أذهلت الشاعر، إذ لم يكد يكمل إنشاد أرجوزته حتى

جاء زهاء عشرة آلاف فارس، قد سدوا الأفق، وهم يقولون: « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » وأخذته الرعدة؛ فنظر إليه الكهل ـ المأمون ـ وهو بتلك الحال، وقال له: « لا بأس عليك أي أخي » فقال له الشاعر: « يا أمير المؤمنين! جعلني الله فداك؛ من جعل الكاف مكان القاف من العرب؟ » فأجابه المأمون: « حمير! » فقال الشاعر: « لعن الله حمير؛ ولعن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ». وضحك المأمون: وقال لخادم معه « اعطه ما معك » فأخرج فيه كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار. فأخذها الشاعر ومضى. ومعنى سؤاله عن وضع الكاف موضع القاف أنه أراد أن يقول:

« يا رقيق » فقال: « يا ركيك ».

قال عمارة بن عقيل: « أنشدت المأمون قصيدة مائة بيت؛ فأبتدىء بصدر البيت؛ فيبادرني إلى قافيته كما قفيته. فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط. فقال: هكذا ينبغي ان يكون. ثم قال لي: أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبدالله ابن عباس قصيدته التي يقول فيها: يشط عداداً وجيراننا ـ فقال ابن عباس: وللدار بعد غد أبعد ـ حتى أنشده القصيدة يقفيها ابن عباس. ثم قال: « أنا ابن ذاك ».

وذكر أن المأمون قال:

بعثتك مرتاداً ففزت بنظرة ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا
فناجيت من أهوى وكنت مباعداً ... فياليت شعري عن دنوك ما أغنى
أرى أثراً منه بعينيك بينا ... لقد أخذت عيناك من عينه حسنا

قيل: وإنما أخذ المأمون هذا المعنى من العباس بن الأحنف الذي قال بهذا المعنى:

إن تشق عيني بها فقد سعدت ... عين رسولي وفزت بالخبر
وكلما جاءني الرسول لها ... وددت عهداً في عينه نظري
خذ مقلتي يا رسول عارية ... فانظر بها واحتكم على بصري

وقال عمارة بن عقيل: « قال لي عبدالله بن أبي السمط: أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ قلت: ومن يكون أعلم منه؛ فوالله إنا لننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره. قال: إني أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم يتحرك له. قلت: وما هو؟ قال:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيل.

قال: فقلت والله ما صنعت شيئاً؛ هل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها. فإذن من يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها؟ ألا قلت كما قال جدي جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا يضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله.

فقال: الآن علمت أني قد اخطأت.

وجاءت سكرة الموت بالحق؛ فأسرع المأمون لكتابة وصيته، وأمر أن يكتب إلى البلاد الكتب من عبدالله المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي اسحق بن هارون الرشيد. وأوصى إلى المعتصم بحضرة ابنه العباس وبحضرة الفقهاء والقضاة والقواد ـ وكان مما تضمنته وصيته إلى أخيه: «يا أبا إسحق! ادن مني واتعظ بما ترى وخذ بسيرة أخيك في القرآن والإسلام. **واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله؛ الخائف من عقابه وعذابه؛ ولا تغتر بالله ومهلته، وكأن قد نزل بك الموت. ولا تغفل أمر الرعية والعوام؛ فإن الملك بهم وبتعهدك لهم. الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين.** ولا ينتهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك. وخذ من أقويائهم لضعفائهم؛ ولا تحمل عليهم في شيء. وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم؛ وقربهم وتأن بهم؛ وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق. وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم؛ في خراسان؛ فلا تغفل عنهم في كل وقت. **والخرمية فأغزهم ذا حرمة وصرامة وجلد واكنفه بالأموال والجنود. فإن طالت مدّتهم فتجرد لهم فيمن معك من أنصارك وأوليائك؛ واعمل في ذلك عمل مقدّم النية فيه؛ راجياً ثواب الله...** يا أبا إسحق! عليك عهدالله وميثاقه وذمة رسول الله ﷺ؛ لتقومن بحق الله في عباده، ولتؤثرن طاعة الله على معصيته إذ أنا نقلتها من غيرك إليك... أستودعكم الله ونفسي؛ وأستغفر الله ما سلف مني إنه كان غفّاراً، فإنه ليعلم كيف ندمي على ذنوبي؛ فعليه توكلت من عظيمها وإليه أنيب؛ ولا قوة إلا بالله؛ حسبي الله ونعم الوكيل؛

وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة». وأغمض المأمون عينيه عن الدنيا وهو يقول: **«يا من لا يموت ارحم من يموت»** . وكان عمره ثمان وأربعون سنة ـ ومدة خلافته عشرين سنة وستة أشهر ـ ودفن بطرسوس.

٨ ـ المعتصم ـ أبو إسحق محمد بن الرشيد
١٧٩ - ٢٢٧ هـ = ٧٩٥ - ٨٤١ م.

هو ثامن الخلفاء العباسيين؛ والثامن من ولد العباس؛ ولد في الشهر الثامن من سنة ثمانين ومائة ـ على ما قيل ـ وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر؛ ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات. إنه ابو اسحق محمد بن هرون الرشيد؛ بويع له بالخلافة بعد موت المأمون. ولما بويع له؛ شغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون. فأرسل إليه المعتصم؛ فأحضره فبايعه ثم خرج إلى الجند، فقال لهم: «ما هذا الحب البارد؟ قد بايعت عمي». فسكتوا. وأمر المعتصم بخراب ما كان المأمون قد أمر ببنائه من طوانة ـ في بلاد الروم ـ وحمل ما أطاق حمله من السلاح والآلة التي بها؛ وأحرق الباقي. وأعاد الناس الذين بها إلى البلاد التي لهم. وانصرف الى بغداد ومعه العباس بن المأمون.

خرج المعتصم سنة عشرين ومائتين الى (سر من رأى ـ سامراء) لبنائها؛ وقال في ذلك: «إني أتخوف هؤلاء الحربية أن يصيحوا صيحة فيقتلون غلماني؛ فأريد ان أكون فوقهم؛ فإن رابني منهم شيء أتيتهم في البر والماء حتى آتي عليهم». فخرج إليها فأعجبه مكانها. وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك، فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلاً؛ وذلك أنهم كانوا جفاة؛ يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع؛ فيصدمون الرجل والمرأة والصبي. فيأخذهم الأبناء عن دوابهم ويضربونهم وربما هلك أحدهم؛ فتأذى بهم الناس. ثم إن المعتصم ركب يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: «يا أبا إسحق!» فأراد الجند ضربه فمنعهم؛ وقال: «يا شيخ! مالك؟ مالك؟». فقال الشيخ: «لا جزاك الله عن الجوار خيراً؛ جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك؛ فأسكنتهم بيننا؛ فأيتمت صبياننا؛ وأرملت بهم نساءنا؛ وقتلت رجالنا» والمعتصم يسمع ذلك؛ فدخل منزله، ولم ير راكباً إلى مثل ذلك اليوم؛ فخرج فصلى بالناس العيد؛ ولم يدخل بغداد؛ بل سار الى ناحية

(القاطول) ولم يرجع الى بغداد. وكان المعتصم قد سأل: «أين كان يتنزه الرشيد إذا ضجر من المقام ببغداد؟ فقيل له: بالقاطول». وكان قد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم، وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم. وبدأ المعتصم ببناء سامرا.

لم يكن للمعتصم لذة في تزيين البناء؛ وكانت غايته فيه الإحكام. ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة في الحرب. وكان إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل. قال ابن أبي داود: استخرجت من أموال المعتصم ألفي ألف درهم لكري نهر اندفن في صدر الإسلام - في الشاش؛ فأضرّ بهم ذلك، فقال لي المعتصم: «يا أبا عبد الله؛ مالي وما لك؟ تأخذ مالي لأهل الشاش وفرغانة!» فقلت: «هم رعيتك يا أمير المؤمنين؛ والأقصى والأدنى في حسن نظر الإمام سواء».

قال المعتصم يوماً وهو يحدث أبا الحسين إسحق بن إبراهيم: «يا إسحق! في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة؛ نظرت الى أخي المأمون، وقد اصطنع أربعة أنجبوا؛ واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم. اصطنع طاهر بن الحسين؛ وقد رأيت وسمعت؛ وعبدالله بن طاهر؛ فهو الرجل الذي لم ير مثله. وأنت؛ فأنت والله لا يعتاض السلطان منك أبداً؛ وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد؟ وأما أنا فاصطنعت الأفشين. وقد رأيت إلى ما صار أمره. واصطنعت اشناس ففشل آيه؛ وإيتاخ فلا شيء، ووصيف فلا مغنى فيه» وأجابه أبو اسحق: «يا أمير المؤمنين! جعلني الله فداك! أجيب على أمان من غضبك» قال: أجل. فأكمل أبو اسحق حديثه وهو آمن: **«يا أمير المؤمنين! أعزك الله؛ نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها. واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها». فقال المعتصم: «يا أبا إسحق! لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة؛ أسهل علي من هذا الجواب». وقال المعتصم يوماً: «إذا نصر الهوى بطل الرأي».**

انقطع المعتصم عن أصحابه في يوم مطر؛ فبينا هو يسير رحله إذ رأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك، وقد زلق الحمار وسقط؛ والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيعينه على حمله. فسأله المعتصم عن حاله؛ فأخبره؛ فنزل عن دابته ليخلص الحمار عن الوحل؛

ويرفع عليه حمله. فقال له الشيخ: «بأبي أنت وأمي! لا تبلل ثيابك وطيبك» فقال له المعتصم: «لا عليك». ثم إنه خلص الحمار؛ وجعل الشوك عليه؛ وغسل يديه ثم ركب. فقال له الشيخ، «غفر الله لك يا شاب». ثم لحقه أصحابه؛ فأمر له بأربعة آلاف درهم ووكل به من يسير معه إلى بيته.

واعتل المعتصم؛ واحتجم، فزاد اعتلالاً؛ ولما أفاق؛ قال: «هيئوا لي الزلال لأركب غداً». وركب المعتصم الزلال ومعه زنام الزامر، فقال له المعتصم: يا زنام ازمر لي.

يا منزلاً لم تبل أطلاله   حاشا لأطلالك ان تبلى
لم أبك أطلالك لكنني   بكيت عيشي فيك إذ ولى
والعيش أولى ما بكاه الفتى   لا بد للمحزون أن يسلى

فمازال ـ زنام الزامر ـ ينشد هذه الأبيات ويرددها؛ وقد تناول المعتصم منديلاً؛ وهو يبكي وينتحب؛ حتى رجع الى منزله. وعندما جاءته سكرة الموت قال: «لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت ما فعلت... ذهبت الحيل ليست لي حيلة حتى أُصْمِتَ». ومات المعتصم وعمره سبع وأربعون سنة. وبويع يوم وفاته ابنه (هارون الواثق) ودفن المعتصم في (سامرا).

٩ ـ الواثق بالله هرون بن المعتصم
١٩٨ ـ ٢٣٢ هـ = ٨١٣ ـ ٨٤٦م.

انتقلت الخلافة إلى تاسع خلفاء بني العباس (هرون بن المعتصم). وقال الشاعر (علي بن الجهم) يمتدح الخليفة الجديد:

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين ... بدولة الواثق هرون
أفاض من عدل ومن نائل ... ما أحسن الدنيا مع الدين
قد عم بالإحسان في فضله ... فالناس في خفض وفي لين
ما أكثر الداعي له بالبقا ... وأكثر التالي بآمين

ومضت أيام قليلة على تولي الواثق بالله إمارة المؤمنين. وقعد مجلساً غنت فيه (شارية ـ جارية إبراهيم بن المهدي):

ما درى الحاملون يوم استقلوا ... نعشه للثواء أم للفناء
فليقل فيك باكياتك ما شئـ ... ـن صباحاً ووقت كلِّ مساء.

فبكى الواثق، وبكى حضور المجلس؛ حتى شغلهم البكاء عن جميع ما كانوا فيه. ثم اندفع بعض المغنين فغنى:

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

فازداد الواثق بكاء؛ وقال: «ما سمعت كاليوم قط تعزية بأب ونعي نفس» ثم ارفض المجلس. وقال (علي بن الجهم) يمتدح الواثق:

وثقت بالملك الوا ... ثق بالله النفوس
ملكٌ يشقى به المـا ... لُ ولا يشقى الجليس
أنس السيف به واستـ ... ـوحش العلق النفيس
أسد تضحك عن ... شداته الحرب العبوس
يا بني العباس يأبى الله إلا أن تسوسوا

ومرض الواثق ـ مرض الاستسقاء ـ. وأمر بإحضار المنجمين؛ فنظروا في علّته ونجمه ومولده فقالوا : « يعيش دهراً طويلاً » وقدروا له خمسين سنة مستقبلية. فلم يلبث إلا عشرة أيام حتى مات؛ وعمره ست وثلاثون؛ ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر ـ ودفن في قصره بالهاروني.

١٠ ـ المتوكل على الله ـ جعفر بن محمد بن هرون
٢٠٧ ـ ٢٤٧ هـ = ٨٢٢ ـ ٨٦١ م.

جاءته الخلافة على غير موعد ؛ وذهبت عنه قسراً وظلماً وقهراً. إنه عاشر خلفاء بني العباس وبينه بين أولهم قرن ونيف من عمر الزمن. توفي الواثق ؛ وحضر إلى داره كلّ من أحمد بن أبي دؤاد ؛ وايتاخ ؛ ووصيف ، وعمر بن فرج ؛ ومحمد بن عبدالملك الزيات ؛ وأحمد بن خالد أبو الوزير ؛ فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد ؛ فألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية ، فإذا هو قصير ؛ فقال لهم وصيف : **« أما تتقون الله ! تولون مثل هذا الخلافة ؛ وهو لا يجوز معه الصلاة »** . فتناظروا فيمن يولونها ؛ فذكروا عدة. وأثناء ذلك كان جعفر المتوكل قاعداً مع أبناء الأتراك وليس عليه إلا قميص وسروال ـ وله من العمر ست وعشرون سنة ؛ فاستدعاه ـ بغا الشرابي ـ. وألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبّله بين عينيه ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكتب البيعة له محمد بن عبدالملك الزيات ـ وهو إذ ذاك على ديوان الرسائل ـ وتقرر إعطاؤه لقب (المتوكل على الله). وصدر الأمر الى الولاة والأقاليم ؛

(بسم الله الرحمن الرحيم . أمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره وفي كتبه إلى قضاته وكتابه وعمّاله وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجري المكاتبة بينهم وبينه ـ من عبدالله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين » .

حاول المتوكل التحرر من سيطرة المتحكمين بالدولة ، فتخلص من محمد بن عبدالملك الزيّات وإيتاخ ـ بقتله ـ. وظهر له خطر النصارى في ديار المسلمين ؛ فحاول الحد من دورهم ، وأصدر كتاباً إلى كافة الأقاليم (سنة خمس وثلاثين ومائتين) بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب

الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج، وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون؛ وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونها لون الثوب الظاهر الذي عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره؛ والأخرى منها خلف ظهره. وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع؛ ولونها عسلياً؛ ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي. ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي. وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير؛ وبمنعهم لبس المناطق . وأمر بهدم بيعهم المحدثة؛ وبأخذ العشر من منازلهم؛ وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً. وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء. وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة؛ تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين. ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين. ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين؛ ولا يعلمهم مسلم؛ ونهى في أن يظهروا في شعانينهم صليباً، أو أن يشمعلوا - يسرعوا - في الطريق. وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض؛ لئلا تشبه قبور المسلمين. وقال الشاعر (علي بن الجهم) في أمر المتوكل هذا:

العسليات التي فرقت   بين ذوي الرشدة والغي
وما على العاقل أن تكثروا   فإنه أكثر للفيِّ

وسار المتوكل على نهج الرشيد في البيعة لأبنائه من بعده، فعقد البيعة لبنيه الثلاثة: لمحمد وسمّاه (المنتصر) ولأبي عبدالله ابن قبيحة ويختلف في اسمه فقيل إن اسمه (محمد) وقيل (الزبير) ولقبه (المعتز) ولإبراهيم وسماه (المؤيد) بولاية العهد. وعقد لكل واحد منهم لواءين: أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل؛ وضم الى ابنه (**محمد المنتصر**) من ذلك إفريقية والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه المغرب؛ وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية؛ وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكور - نواحي - باجرمي وتكريت وطساسيج السواد؛ وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز

والمستغلات بسامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماسبذان ومهرجان قذق وشهرزور ودراباذ والصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة. وكان ما ضم الى ابنه (**المعتز**) كور خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والري وإرمينية وأذربيجان وكورفارس. بالإضافة الى خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق. ودور الضرب؛ وأمر بضرب اسمه على الدراهم. وكان ما ضم إلى ابنه (**المؤيد**) جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين. فقال الشاعر أبو الغصن الأعرابي:

إن ولاة المسلمين الجلّة　　محمد ثم أبو عبدالله
ثمت إبراهيمُ آبي الذِّلة　　بورك في بني خليفة الله. (★)

وقال ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول يمدح بني المتوكل الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد.

أضحت عرى الإسلام وهي منوطةٌ　　بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة　　كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمرٌ توالت حوله أقماره　　يكتنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم　　فسعوا بأكرم أنفس وجدود

وله في المعتز بالله:

أشرق المشرق بالمعتز بالله ولاحا
إنما المعتز طيب　　بث في الناس ففاحا

وله أيضاً:

الله أظهر دينه　　وأعزه بمحمد
والله أكرم بالخلا　　فة جعفر بن محمد
والله أيد عهده　　بمحمد ومحمد
ومؤيد لمؤيدين　　الى النبي محمد

(★) نص كتاب المتوكل إلى الأمصار بمعاملة النصارى؛ وبولاية العهد لأبنائه في تاريخ الطبري - والكامل في التاريخ أحداث سنة خمس وثلاثين ومائتين.

وتوجه المتوكل الى دمشق (سنة ثلاث وأربعين ومائتين) وفي ذلك قال الشاعر يزيد ابن محمد المهلبي:

أظن الشام تشمت بالعراق ... إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيها ... فقد تبلى المليحة بالطلاق

وقد عزم (المتوكل) على الإقامة في دمشق ونقل دواوين الملك اليها؛ وأمر بالبناء بها؛ فتحرك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالاتهم؛ فأمر لهم بما أرضاهم به. وقيل انه استوبأ البلد فعاد الى سامرا بعد إقامته في دمشق شهرين وأياماً.

وكان طبيب القصر منذ أيام الرشيد ـ هو بختيشُوع ـ ويظهر أنه كان يتجاوز حدود عمله ممّا أوغر صدر المتوكل، فنفاه الى البحرين، وقبض ماله ـ فقال أعرابي:

يا سخطة جاءت على مقدار ... ثار له الليث على اقتدار
منه وبختيشوع في اغترار ... لما سعى بالسادة الأقمار
بالأمراء القادة الأبرار ... ولاةِ عهد السيد المختار
وبالموالي وبني الأحرار ... رمى به في موحش القفار
بساحل البحرين للصُغار

ولما جاءت سنة (سبع وأربعين ومائتين) أراد المتوكل قبض ضياع (وصيف) بأصبهان والجبل، بعدما ظهر له من غشّه. وعرف (وصيف) بالأمر قبل تنفيذه؛ فنظم مؤامرة؛ لم يعرف بها المتوكل؛ إلاّ أنه أراد استباق الأحداث بقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم؛ بعد أن استبدوا بأمور الناس؛ وتحكموا بأمور المملكة. وفي الوقت المحدد لتنفيذ المؤامرة. دخل على المتوكل نفر من حرسه الأتراك: بغلون التركي وباغر وموسى بن بغا وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابي. فقتلوه. وخرجوا الى ابنه (المنتصر) وسلموا عليه بالخلافة؛ ولما يفارق والده الحياة. ورددت الصحراء أصداء كلمات شاعر:

يا عين ويلك فاهملي ... بالدمع سحّاً واسبلي
دلت على قرب القيا ... مة قتلة المتوكل

وقال شاعر:

يـــا نـــائــم العين في جثمان يقظـــان ما بـــال عينـــك لا تبكـــي بتهتـــان
أما رأيـت صروف الدهـر مـا فعلـت بـالهاشمـي وبـالفتـح بـن خـــاقـــان
وسـوف يتبعهـم قـوم لهم غـدروا حتى يصيروا كـأمس الذاهـب الفـاني

لقد جاءت الخلافة للمتوكل على غير إرادة منه؛ وعلى غير عمل لها ـ وفي ذلك قال شاعر:

كـــانـــت خلافـــة جعفـــر كنبـــوة جـــاءت بلا طلـــب ولا بتنحُّـــلِ
وهـب الإلـه لـه الخلافـة مثـل مـا وهـــب النبـــوة للنبي المرســـل

وأمضى المتوكل حياته مجاهداً في سبيل الله، محاولاً جهد استطاعته وأكثر من استطاعته لتصحيح أوضاع الدولة؛ وتحقيق التوازن بين مراكز القوى؛ فغلبه الأتراك ـ وصيف وبغا ـ وقتلاه؛ وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر. ولم يطل بخليفته (المنتصر) الأمر. فقد مات بعد ستة أشهر من مصرع أبيه. وتدخل ـ وصيف وبغا ـ لتعيين خلفه (أحمد بن محمد بن المعتصم) وصار أمر خلع الخلفاء وتنصيبهم؛ وقتلهم أو إبقائهم بأيدي قادة الجند. وبدأت سلطة الدولة بالانحلال؛ مما أفسح المجال الرحب أمام ظهور مراكز القوى المتصارعة في كل قطر من أقطار المسلمين.

وجيز الأحداث في العصر العباسي.

١٣٣	٧٥٠	مقتل مروان بن محمد وقيام الدولة العباسية.
١٣٧	٧٥٤	وفاة أبي العباس السفاح وولاية أبي جعفر المنصور.
١٣٩	٧٥٦	عبدالرحمن الداخل في الأندلس ـ قيام الدولة الأموية.
١٤٥	٧٦٢	ثورات العلويين في العراق وفي المدينة ـ بناء بغداد.
١٥٠	٧٦٧	وفاة الإمام أبي حنيفة.
١٥٩	٧٧٥	الصراع ضد المانوية.
١٦٢	٧٧٨	ثورة المقنع في خراسان.
١٨٧	٨٠٢	نكبة البرامكة في عهد الرشيد.
٢١٦	٨٣١	استيلاء المسلمين على باليرمو.
٢١٨	٨٣٣	ظهور المرتزقة الأتراك.
٢٢١	٨٣٦	بناء سامراء.
٢٣٦	٨٥٠	بداية الدولة الأيغورية في وسط آسيا.
٢٥٦	٨٦٩	بداية ثورة الزنج ـ قيام الدولة الطولونية في مصر.
٢٥٨	٨٧١	قيام الدولة الصفارية في فارس.
٢٦٤	٨٧٧	استيلاء الطولونيين على الشام.
٢٧٠	٨٨٣	القضاء على ثورة الزنج.
٢٧٧	٨٩٠	ظهور القرامطة في العراق.
٢٨٨	٩٠٠	ظهور الزيدية في اليمن.
٢٩٧	٩٠٩	انتصار الدعوة المهدية ـ وقيام الدولة الفاطمية في المهدية (٢٩٨ هـ).
٣١١	٩٢٣	وفاة المؤرخ الطبري.
٣١٦	٩٢٨	دخول القرامطة مكة، وأخذهم الحجر الاسعد منها.

٣٣٣	٩٤٤	بداية حروب سيف الدولة ضد الروم ـ من قاعدته حلب ـ.
٣٣٤	٩٤٥	سيطرة البويهيين على بغداد.
٣٥٠	٩٦١	قيام دولة السامانيين ـ الغزنويين.
٣٥٧	٩٦٧	وفاة سيف الدولة الحمداني.
٣٥٩	٩٦٩	استيلاء جوهر الصقلي على قصر باسم الفاطميين ـ بناء القاهرة ـ.
٣٦٦	٩٧٦	قيام دولة آل سبكتكين.
٣٨٦	٩٩٦	خلافة الحاكم الفاطمي في مصر ـ ظهور الدعوة الدرزية.
٤٤٧	١٠٥٥	دخول طغرل بك بغداد.
٤٥٤	١٠٦٢	قيام دولة المرابطين في ـ مراكش ـ.
٤٦٤	١٠٧١	انتصار ألب أرسلان السلجوقي في ملازكرد.
٤٩٣	١٠٩٩	استيلاء الفرنج على القدس.
٥٠٥	١١١١	وفاة حجة الإسلام الغزالي.
٦٥٦	١٢٥٨	هولاكو يستولي على بغداد ويدمّرها.
٦٥٨	١٢٦٠	هزيمة المغول في عين جالوت.

المراجع الرئيسة للبحث.

١ - تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) أبي جعفر محمد بن جرير الطبري طبعة دار الفكر بيروت ١٩٨٧

٢ - الكامل في التاريخ - ابن الأثير - دار الفكر بيروت ١٩٧٨ م.

٣ - دولة الإسلام - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٣٦٨ هـ.

٤ - تاريخ الخميس - حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري - مطبعة عثمان عبد الرزاق - القاهرة - ١٣٠٢ هـ.

٥ - الإمامة والسياسة - ابن قتيبة - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٧٧ ه.

٦ - العبر وديوان المبتدأ والخبر - ابن خلدون - طبعة دار الفكر بيروت ١٩٨١ م

٧ - مختصر سياسة الحروب - الهرثمي - مطبعة مصر - القاهرة - ١٩٦٤ م.

٨ - التاريخ الكبير (تهذيب ابن عساكر) دمشق ١٣٢٩.

٩ - تاريخ الإسلام - الذهبي - القاهرة - ١٣٦٨ هـ.

١٠ - العبر - الذهبي - الكويت - ١٩٦١.

١١ - تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان - دار الثقافة - بيروت - لبنان - ١٩٦٧ م.

١٢ - تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٧٤.

١٣ - تاريخ اليعقوبي - أحمد بن يعقوب - مطبعة العزي - النجف - ١٣٥٨ هـ.

١٤ - تهذيب التهذيب - الإمام ابن حجر العسقلاني - دار الفكر بيروت

حيدر أباد الدكن - ١٣٢٦ هـ.
١٥ - فتوح البلدان - البلاذري - مطبعة السعادة - القاهرة - ١٩٥٩ م.
١٦ - التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية - اللواء محمد مختار باشا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

الفهارس العامة للجزء الثالث من فن الحرب

ـ العصر العباسي ـ

المحتوى :

١ – فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٢ ـ فهرس المواقع والأماكن الجغرافية

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحـاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٢ ــ فهرس الشعوب والقبائل والجماعات

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٤ ــ فهرس الأديان والمذاهب والفرق

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني، الحروب الخارجية	٢٤٩
١ ـ الجهاد على جبهة الروم	٢٥١
أ ـ قصة حرب الروم في نصف قرن	٢٥٣
ب ـ الرشيد ـ وإعادة التنظيم	٢٥٨
جـ ـ عمورية المعتصم ـ والعوده للهدوء	٢٦٨
د ـ ضعف القيادة	٢٨٢
٢ ـ الحمدانيون وحرب الثغور	٢٩٧
أ ـ بنو حمدان	٢٩٩
ب ـ سيف الدولة والحروب مع الروم	٣٠٧
جـ ـ المأزق الصعب	٣٢٠
د ـ الأيام الأخيرة للحمدانيين	٣٢٧
٣ ـ الأتراك السلاجقة	٣٢٥
أ ـ الروم ومناوراتهم بين مراكز القوى	٣٣٧
ب ـ السلاجقة وجهاد الروم	٣٤١
جـ ـ ملازكرد	٣٤٧
٤ ـ الحروب على جبهة الشرق	٣٥٣
أ ـ سبكتكين ودولته	٣٥٥
ب ـ يمين الدولة محمود في أعظم غزواته	٣٦٤
جـ ـ بناء الجبهة الداخلية	٣٧١
د ـ على نهج السلف	٣٧٥
٥ ـ الحروب البحرية	٣٨٥
أ ـ مصر تقود الجهاد البحري	٣٨٧
ب ـ صقلية قاعدة للمسلمين	٣٩٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

موسوعة تاريخية عسكرية تقدم لك المعرفة بتاريخ الأمة العربية وأعمال الفتوحات العظمى التي عاشتها على امتداد أربعة عشر قرناً من عمر الزمن هو تاريخ الأمة العربية الإسلامية منذ أن أضاءت الدنيا وأشرقت برسالة الإسلام وحتى اليوم.

• تبرز الحنكة العسكرية والإدارية التي تميز بها القائد المسلم بحسه العربي الذي فطر عليه في تطبيق مبادىء الحرب في الاستراتيجية والتنفيذ في ميدان المعركة، وفي فن القيادة وكفاءتها والروح المعنوية العالية للمقاتلين سواء بسواء في الحروب النظامية أو الحروب الثورية الداخلية وقمع الفتن بإيمان راسخ بنصر من الله وتأييده.

• **تشمل :**

□ عهود الخلفاء الراشدين والامويين للأعمال القتالية في الشمال والشرق والغرب والأندلس وجنوب أوروبة والغزوات البحرية.

□ الجهاد على جهة الروم في العهد العباسي وعلى ثغور الهند والحروب البحرية وغزو التتار لبلاد الإسلام وتمزيق قواتهم في معركة عين جالوت

□ الغزو الصليبي لبلاد الإسلام في الحملات الصليبية المتتالية ومعركة حطين وتحرير القدس وطرد الصليبيين الفرنج وتصفية وجودهم في الشرق.

□ ظهور العثمانيين وحملهم راية الجهاد وفتح القسطنطينية والتوغل في اوروبا شمالاً وغرباً والتوسع في آسيا والحروب مع الروسيا

• مرجع هام يحتاج إليه :

□ تلميذ التاريخ وأستاذه

□ العسكري في ممارسته لفنه وعلمه

□ المؤرخ في تقصيه للحقائق التاريخية

□ كل مواطن عربي توّاق للاستزاده بمعرفة تاريخ امته